

UNIVERSITY OF N.C. AT CHAPEL HILL



10001978987



فهرس الجزء الثاني من تاريخ الاستاذ الامام

صفحة	صفحة
١٤٧	٢ المقدمة
١٤٩	٩ الفصل الأول في رسالة ومقاتين
١٥٣	٢٦ الواردات - رسالة في فلسفة التوحيد
١٦٠	٣٠ فلسفة التربية
١٦٣	٣٧ « الصناعة
١٦٧	٣٩ مقالاته في السنة الأولى من الأهرام
١٧٣ - ١٨٠	٤٤ تقرّظ جريدة الأهرام
١٨٠	٥٧ الكتابة والقلم
١٨٤ - ٢٠٠	٦٥ المدبر الانساني والمدبر الروحاني
٢٠٠	٦٨ العلوم الكلامية والعلوم المصرية
٢٠٣	٦٥ التحفة الأدبية
٢٠٣	٧١ مقالاته في الوقائع المصرية
٢١٣	٧٤ - ٨٦ حكومتنا والجمعيات الخيرية
٢١٨	٧٤ - ٨٦ احترام قوانين الحكومة
٢٢٥	٨٦ - ٩٥ حب الفقر أو سفه الفلاح
٢٢٩	٩٥ - ٨٦ مقالات ٣ مقالات
٢٣١	٩٥ التربية في المدارس والمكاتب الميرية
٢٣٥	٩٩ وخامة الرشوة
٢٤٤	١٠٢ العفة ولوازمها
٢٥٠	٥٩ القوة والقانون
٢٥٥	١١٢ ما أكثر القول وما أقل العمل
٢٦٣	١١٧ متدياننا العمومية واحاديثها
٢٧٢	١٢٣ حاجة الانسان الى الزواج
٢٧٩	١٢٥ حكم الشريعة في تعدد الزوجات
٢٨٥	١٣١ - ١٤٣ خطأ العقلاء ٣ مقالات
	١٤٤ ابطال البدع من نظارة الاوقاف

صفحة	صفحة
٤١٢	٢٩٠
بشارك والدين	الامل وطلب المجد
٤١٤	٢٩٧
آثار محمد علي في مصر	رجال الدولة وبطانة الملك
٤٢١	٣٠١
بلم - صقلية (رحلة)	حب المحمده الحقة
٤٢٥	٣٠٥
كنيسة موريا لي وتساها العرب	الشرف
٤٢٦	٣٠
دير الكبوشين ومدرستهم ومقبرتهم	دعوة الفرس الى الاتحاد مع الافغان
٤٣٠	٣١٤
المكتبة العمومية ودار المحفوظات	امتحان الله للمؤمنين
٤٣٢	٣١٦
حاجة السائح الى معرفة اللغات	اسباب حفظ الملك
٤٣٦	٣٢١
مسينا ومقبرتها ومقبرة مصر	سنن الله في الامم
٤٣٨	٣٢٧
صخب الصقايين وتسولهم وكسلهم	الحين
٤٤٠	٣٣١
رثانة « ومقابلتهم بالمصريين	الامة وسلطة الحاكم المستبد
٤٤٣	٣٣٣
دور الآثار وبساتين النبات	الوهم
٤٤٤	٣٣٣
الصور والتماثيل وفوائدها وحكمها	الاتقاد (من مقالاته في الثمرات)
٤٤٨	
امير وأميرة من الاسرة الخديوية	لوائح الاصلاح والتعليم الديني
٤٥٠	٣٣٨-٣٥٣
انما ينهض بالشرق مستبد عادل	لائحة التعليم الديني في
٤٥٢	المملكة العثمانية
مقال هانوتو الثاني في الاسلام	٣٥٤-٣٦٣
٤٥٨	لائحة في طريقة اصلاح سوريا
حديث صاحب الاهرام مع هانوتو	٣٦٤
٤٦٧-٤٨٤	لائحة التعليم الديني في مصر
رد الامام الثاني على هانوتو	٣٦٥
وفيه بحث الجامعة الاسلامية	طبيعة مصر والمصريين
٤٨٥	٣٦٩
الرجل الكبير في الشرق	المدارس الاميرية
٤٨٨ - ٥٢٠	٣٧١
كتبه ورسائله الاصلاحية	المدارس الاجنبية - الجامع الازهر
وهي ٢٦ كتابا	٣٧٣
٥٢١ - كتب ورسائله الودادية وهي ٣٠	٣٧٤
نموذج من كتبه لواضي الكتب	المكاتب الرسمية الابتدائية
ومتزجها	٣٧٦
٥٥٥	المدارس التجهيزية والمدارس العالية
نموذج من كتبه في التعاوي	٣٧٧
٥٥٩	المعلمون ومدرسة دارالعلوم
شذرات من كتبه لجامع هذا الكتاب	مقالاته في الصحف المصرية
٥٦٠	٣٨٢
كلمة له في المنار - حكمه المشورة	مقال هانوتو الاول في الاسلام
	٣٩٥-٤١١
	رد الامام الاول على هانوتو

BP80

M8

M8

v.2

٤١٦٦٦

ناتج

الأستاذ الأمام

الشيخ محمد عبده

الجزء الثاني

في المنشآت

يحتوي على بعض رسائله ومقالاته التي نشرت في الجرائد ولواحد في إصلاح التربية والتعليم الديني ومدافعتة عن الدين ورحلته الى صقلية وعلى كتبه ورسائله الى العلماء والفضلاء في الموضوعات المختلفة وعلى بعض حكمه المنشورة

جامعه

الشيخ محمد رشيد رضا

منشئ مجلة المنارة

(بمصر)

وحقوق الطبع محفوظة له

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ، وَكُلُّ شَيْءٍ
أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ * (سورة يس)

مات الاستاذ الامام (الشيخ محمد عبده) ولم يمت بل هو حيٌّ
بآثاره ، التي هي مقبس أنواره ، مات الموتة الطبيعية ، وحي الحياة العقلية
الروحية ، فهو لا يزال كما كان ، قبل ان يغيب عن العيان ، تنقل أقواله ،
وتذكر أعماله ، وتكتب معارفه ، وتشكر عوارفه ، ولا غرو فان للعلماء
والحكماء في هذه الدنيا حياتين - حياة جسدية محدودة بتبدىء يوم
الولادة وتنتهي بيوم الوفاة ، وهي الحياة الحيوانية التي يشاركون فيها سائر
الناس بل سائر الحيوان - وحياة عقلية روحانية غير محدودة وهي بتبدىء
بظهور ثمرات عقولهم النافعة لامتهم أو لكل من يجنيها من الناس
وتدوم مادام الزمان ، وبقي من المناظرين في آثارهم انسان ، وقد كان
الاستاذ الامام من خيرة هؤلاء العلماء ، وأفضل أصحاب هذه الحياة من
الحكماء ، تشهد له بذلك آثاره المرقومة في وجوه الصحائف ومآثره
المرسومة في ألواح القلوب ،

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا الى الآثار

يسفر لك هذا السفر من تاريخ هذه الحياة عن الرجل وهو فيما دوز
العاشرة منها (وفي نحو الرابعة والعشرين من حياته الطبيعية) تارة

يحرر الواردات الآتية في حقائق علم الكلام الاعلى ، ويسير في المزج بين عرفان الصوفية وبرهان الفلاسفة على الطريقة المثلى ، متمكناً من مقام التوحيد ، متكباً عن مقعد التقليد ، على حين لا توحيد ولا كلام عند المشتغلين بالعلوم الدينية ، الاحكامية بعض ما قاله متأخرو الاشعرية ، وتارة يقتبس أنوار الحكمة من أستاذه السيد جمال الدين ، ويفيض منها على عقول المستعدين ، بما يكتب من المقالات ، في فلسفة التربية والصناعات ، وآونة يجبر الفصول الانشائية ، ويحلي المعاني العصرية ، في أثواب الاسجاع الحريية ، ويزفها كالخرايد ، على منصات الجرائد ، داعياً الى استقلال الفكر ، وتناول علوم العصر ، حاثاً على ترقية الامة ، حاضراً على تجديد مجد الملة ، آمراً بالاتحاد على ترقية الاوطان ، ناهياً عن التعصب الذمير بين المحتفلين في الاديان ، فهذا مثال طور الطب والتحصيل من حياة الرجل العقلية ، يتبدى في الكتاب برسالة الواردات وينتهي بالتحفة الادبية ،

ثم يمثله لك في طور آخر . وهو تارة بين ارباب الرياسة ، يرشدهم الى طرق الادارة والسياسة ، ويهديهم سبيل الرشاد ، لترقية الرعاية وعمران البلاد ، وتارة يثرف على الامة بالوعظ والتعليم ، ويسلك بها صراط الحياة المستقيم ، ببيان غوائل السرف وفوائد الاقتصاد ، وتقويم النفوس بعقائل الفضائل واحاسن الآداب ، بعد تطهيرها من لوث الخرافات ، ومساوي التقاليد والعادات ، يهبط على الفلاح في حرثه فيخطبه بما يفهم ، ويعرج بطالب الحكمة الى أفته فيعلمه ما لم يكن يعلم ، - وهذا هو المثال الاول لطور العمل ، من الحياة المعنوية للرجل ، تجليه لك مقالاته في جريدة الحكومة الرسمية ، وجر عمله فيها خاص باصلاح حال البلاد المصرية ،

ثم يجليه لك مع أستاذه في الديار الأوربية ، متعدين على ارشاد جميع الشعوب الاسلامية ، السيد الحكيم يقترح ويدبر ، والاستاذ الامام يكتب ويحمر ، يدعوان الى العروة الوثقى التي لا انفصام لها ، ويجمعان القلوب على الوحدة وكانا أحق بها وأهلها ، هنالك تتجلى لك روح القرآن ، هابطة من سماء الحكمة والعرفان ، مؤيدة بالعزة والسلطان ، تطوف بتلك العروة البلاد ، وتصافح قلوب أهل الاستعداد ، فتحيها حياة جديدة ، وتجذبها الى عيشة سميدة ، هنالك ترى الالهام الالهي ، يمد بتأثيره العلم الكسبي ، فيصيبان مواقع الاقتناع من العقل ، ويبلغان مواضع التأثير من النفس ، فلا يقرأ القارئ ما في العروة من بيان حال المسلمين ، وأسباب ما أصيبوا به من البلاء الممين ، وما تطب لدائهم ، وتصف من دوائهم ، الا وينثني أسير البرهان ، مملوك الوجدان بالاذعان ، مندفعاً الى العمل بذلك البيان ، بالجنان واللسان والأركان ، وذلك طور مستوى القوة ، وكمال الفتوة ، ومنتهى علو الهمة ، وبيع النفس والوقت للملة والامة ، ثم يظهره لك رابضاً في الديار السورية ، يعمل لاصلاح الاسلام بالصلاح الدولة العثمانية ، أو مقيماً في الديار المصرية ، يبين لأولي الامر طريق الاصلاح بالتربية الدينية ، وهو في القطرين يتكلم عن فهم ناقب ، ويرني عن فكر صائب ، يبين طبائع البلاد والساكنين ، ويجمع بين مصالحة الحاكمين والمحكومين ، ويهديهم الى الطريق القويم ، في نظام التربية والتعليم ، معروضاً باستعداده لتنفيذ العلم بالعمل ، مصرحاً بضمان تحقيق الامل ، وفي ذلك ما فيه من اعتماده على الله ، وثقته بالقوى والمواهب التي آتاه ، يلوح لك ذلك في لوائح الاصلاح وما فيها من اشراع منهاج الفلاح

ثم يبرزه لك في طور المبارزين، للطاعنين على الدين المين، فيترأى لك أن قلمه أمضى من الحسام، وكلمه أنفذ من السهام، فهو بهما يكرّ ويصول، ويجندل من المجادلين الفحول، ولا ينثني الا والحق غالب على أمره، والباطل مغلوب يأرز الى جحره، وحسبك من ذلك رده على موسيو هانوتوف في قوله في طبيعة الديانتين الاسلامية والمسيحية، ثم رده عليه في مسألة الجامعة الاسلامية، ثم يريكه يجوب الاقطار، ويقطع اجواز البحار، للنظر في آثار الاولين، واستخراج العبر منها للآخرين، فتراه في صقلية مرة يتصفح الصحف والاسفار، ويستنطق العاديات والآثار، ويقرأ ما نقش على الجدران بالعربية، لتحقيق المسائل التاريخية، ومرة يبحث عن الاخلاق والعادات، وينقب عن المنشآت والمستحدثات، يتردد بين الاديار والكنائس، والمقابر والمدارس، ثم يزف ما استفاد الى أمته، فيما كتب عن رحلته ثم يكشف لك عنه الحجاب، وهو يرسل العلماء والكبراء والكتاب، فتارة يتلو عليك من كتبه الى حزب المصلحين، وأهل البصيرة من علماء المسلمين، ما تخشع له القلوب، وتحد من وقعه الشؤون، فكأنك منه وقد عاد بك الاسلام، الى عصر النبي عليه الصلاة والسلام، فرأيت نفسك تتدفق غيرة على الدين، وتفيض حزناً على ما حل بالمؤمنين، فلم يبق لها هم الا ان تكون كلمة الحق هي العليا، وكلمة الباطل هي السفلى، أو كأنك معه في عصر الراشدين، وكأنه معك أمير المؤمنين، يصول على الارواح بمواعظه الصادعة، ويختلب الالباب ببلاغته الرائعة، ومرة يشنف مسامعك باللؤلؤ والمرجان، من رسائل الوداد الى الاصدقاء والخلان، فيمثل لك الادب الباهر، واللفظ الساحر، ويصور

لك الوفاء في أجل صورته ، والاخلاص في أجل مظهره ، والصدق في الحب ،
على البعد والقرب ، ويريك من ذلك الرجل الحزين على أمته ، المستغرق في
عمل الإصلاح ملته ، أديباظريفا ، ونديما لطيفا ، حسن الاماليح ، مليح الافاكيه ،
حلوا الفكاهة مرّ الجدة قدمزجت بشدة البأس منه رقة الغزل
وأونة يقرئك مما كتب الى المؤلفين بالعربية ، أو المترجمين للكتب
الاجنبية ، ما يرفع من أقدارهم ، ويشب من نارهم ، وما يشحذ غرار همتك ،
ويزجي ركاب عزيمتك ، الى أن تكون من زمرة هم ، وتساهمهم في
مثل خدمتهم ،

وأحيانا يسمعك من تعازيه للمحزونين ، ومواعظه للمرزوثين
بالاقربين ، ما يحلوه به سرير الصبر ، ويرغب فيما عند الله من المثوبة والاجر ،
ويترك القلوب مفتوة الثائرة ، قد سكنت قدرها الفائرة ، وأنشأت
تشيح الاحزان ، وتستقبل السلوان ،

ثم يختم لك ذكرى هذه الحياة الروحية ، والآثار العقلية ، بشذرات
من الحكم المنثورة ، والآيات الماثورة ، فترى اجمالا ينيء عن تفصيل ، وقليل
لا يقال له قليل ، كأنه صورة مصغرة لتلك الروح الكبيرة ، أو عناوين لتلك
الكتب المسطورة ، على أن الكتاب كله تنف من أقواله ، ونموذج من
أعماله ، وان آثاره في النفوس ، لاعظم من آثاره في الضروس ، فهو حي
في الآخرة بما قدم من عمل ، حي في الدنيا بما ترك من أثر ، يمثل حياته
هذا الكتاب الناطق ، وينشر خبرها الصحيح مريده الصادق ،

محمد رشيد رضا

منشي النار

رسالة الواردات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الواجب وجوده، العام جوده، والصلاة والسلام على نبينا أحكم
 حكماء العالم، ومن هو لأساطين الالهيين خاتم، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه
 أما بعد فيقول محمد عبده بن عبده بن حسن خير الله، الناشي، باقليم مصر
 بخطة البحيرة بقرية تسمى محلة نصر خادم خدمة الحكمة، المعرض عن نحو الكلام
 والحكمة، المتخلي عن قيد لباس الطوائف، الى فضاء اقتناص صيد المعارف، اني
 كنت مشغلا بطالب العلوم، فبينما انا حول الرياض أحوم، اذ عثرت بآثار العلوم
 الحقيقية، فشغفت بها حبا ولكن لم أجد من هي له طوية، فخرت في أمري وأخذت
 أجيل فكري، وكما سألت أجاويزي بأن الاشتغال بها حرام، أو قد نهى عنها
 علماء الكلام، فتمجبت شدة العجب، وغفلة الناقلين أعجب، وتفكرت في سبب
 ذلك فرأيت ان من جهل شيئا عاداه، ومن أخذ عن العلاء ياباه، فوجدتهم كمن
 علك بلسانه ورق العناب فلا بدري مرارة الحفظ، ولا حلاوة العسل، وبينما أنا
 كذلك إذ اشرفت شمس الحقائق، فوضح لنا بها رقائق الدقائق، بوفود حضرة
 الحكيم الكامل، والحق القائم، استاذنا السيد جمال الدين الافغاني، لازل لثمار
 العلوم جاني، فرجوناه في شي من ذلك، فأجاب والحمد لله على ذلك، وكان ذلك
 في سنة ١٢٩٠ فلنا بذلك طرائف التحف فأومأ الينا بكليات هذه جزئياتها،
 وآيات هذه بيناتها، وذلك على فترة من الحكمة، فكأنه غيث ارسل لاحياء تلك النعمة،
 وسويتها الواردات، في سر التجليات، فأقول وبالله التوفيق

﴿واردة﴾

كثيرا ما قرع سمعك لفظ الممكن وكأك ما فهمت مدلوله أو شنفوا سمعك
 بان الممكن ما يحتاج الى غيره في الوجود أو ما لا يترجح وجوده على عدمه الا بمرجح

ونحو ذلك من الالفاظ المترادفة لكنك لا تدري خارج هذا المفهوم كسامع لفظ
 الماهية لا يدري على أي الافراد صدقت ، فسفينية فكره في بحر التعيين غرقت ،
 فاسمع قولاً قليلاً في ذلك لعلك تدري ان المقيد ذات مطلقة قد ضم الى تلك
 الذات قيد فالمقيد أمر مركب من قيد وذات مطلقة قيدت بذلك القيد ، فللقيد
 مفهوم ، وللمقيد مفهوم ، ولكل ماصدق ، والمجموع مفهوم وما صدق ، ولا يصح اتحاد
 شيء منها مع الآخر في المفهوم أو الما صدق ، والاما صح التقييد اذ لسنا نعني
 بالقيد الصادق الوصف ، كالناطق في الحيوان الناطق ، بل نعني به مبدأ ذلك الوصف
 الذي يعبرون عنه تارة بمبدأ الاشتقاق وتارة بالوصف القائم فاذا نظرت الى نفس
 القيد ونفس الذات المطلقة وجدت كلا منهما مستقلاً بالثبوت بالنسبة الى المجموع
 أي لوقعت النظر عن تركيبها لوجدت لكل ثبوتاً في نفسه مفهوماً وما صدقا
 واذا نظرت الى الكل المركب منها وهو الذي تسميه بالمقيد نظراً ذاتياً مقطوعاً
 فيه النظر عن شيء من الذات والقيد لم يكن له ثبوت في ذاته اذ متى قطع النظر
 عن شيء من الذات المطلقة وقيدها فقد انعدم المركب لانعدام الكل بانعدام
 شيء من أجزائه فاذاً المجموع محتاج في تحققة الى كل من المطلق والمقيد وانضمام
 كل منهما الى الآخر ليس المركب الا عبارة عن هذا فليس ثبوته الاثبوت كل
 مع التركيب فليس للمقيد في ذاته استقلال بل هو في اعتباره مستند الى كل من
 الذات والقيد بل اعتباره عين اعتبارها بخلاف كل منهما . وانضرب لك الامثال ،
 لكي لا يلبث (١) عليك المقال ، فانظر فيما بين يديك من البيت المركب من الاضلاع
 الاربعة فان كل ضلع لو بني بدون انضمام بقية الاضلاع اليه لكان قائماً بذاته
 موجوداً وكذلك اجزاء الضلع المركب هو منها كالحجر والجص مثلاً فان كل
 واحد منها بدون ان يركب مع الآخر موجود في ذاته لا يحتاج الى تركيبه مع
 الآخر وكذلك الجص والحجر بالنسبة الى اجزائه التي بها قوامه ولكن ليس
 للبيت وجود الا بالاضلاع الاربعة ولا الضلع الا بالحجر والجص مثلاً ، ولا

للجسم بدن ما يقومه واذا وجد كل من الاجزاء منضما الى الآخر فهو المركب
فليس المركب الا الاجزاء مع هيئة اعتبارية لتلك الاجزاء بل ليس المركب الا هذه
الهيئة الاعتبارية أي فيكون اعتبارا من اعتبارات الاجزاء ووجودها هو وجوده لكن
بقيد الانضمام على وجه خاص فافهم . ومثل هذا يقال في الامور المعقولة كالعقول
والنفوس فانها ذات منضمة الى مبدأ التمايز بينها وبين غيرها فانها اذا نظرت
الى مطلق الذات وجدت ثبوته في ذاته أي بقطع النظر عن كونه عقلا أو نفسا .
وكذا مبدأ التمايز لا يتوقف ثبوته في ذاته على كونه لعقل أو نفس أي يصح النظر
اليه في ذاته بالنسبة الى العقل والنفس بخلاف العقل أو النفس فليس يصح اعتباره
وجودا الا بوجود كل من الذات ومبدأ الامتياز وليس يصح لك ان تقول يجوز
ان يكون مبدأ الامتياز هو الذات المطلقة فان هذا ينافي التقييد بالقيد الخاص
اذ المطلق لا يقتضي لذاته قيدا معينا لاستواء القيود بالنسبة اليه فلا بد من انضمام
شيء اليه حتى يتميز بالمميز الخاص وذلك معلوم

فقد علمت ان كل مقيد فهو محتاج الى المطلق والقيد فهو معدوم في ذاته
فلا يرجح وجوده على عدمه الا بمرجح والمطلق الذي لا قيد فيه بوجه من الوجوه
ليس بممكن اذ لا يفتقر الى موجد والا لكان قيدا له فكل مقيد ممكن وكل ممكن
مقيد ولا شيء من المطلق الحقيقي بممكن فياؤها المقيد بقيد التقليد اخلع نعليك أنك
بالوادي المنهدس، واخرج عن غياهب ظلمات جهلك ففلق الصبح تنفس،

﴿ واردة ﴾

نسمهم مرة: يقولون ثبوت الواجب بديهي لا يحتاج الى البرهان ثم يعارضون
مع منكرية، و يزعمون أنهم ينبهون عليه، ومرة يقولون بأنه نظري يحتاج الى
الدليل، ويستدلون عليه ببراهين مبنية على مقدمات مسلمة فيما بينهم بحجها الذوق
السليم، وينبو عنها الفكر المستقيم، فاسمع ما ينفك في ذلك:

من المعلوم ان الممكن يحتاج الى مرجح في الوجود لما أنه ليس له من ذاته
وجود كما سمعت في الفصل السابق ووجوب افتقاره الى الموجد مستلزم لاستحالة

وجوده من عدم الصرف (بيان الملازمة) ان صدور المعلول عن العلة يستدعي نسبة خاصة بين المعلول والعلّة حتى يصح صدور المعلول عن العلة اذ لو لم يكن بينهما تعلق وارتباط - وجميع الاشياء بالنسبة الى العلة على السواء - لكان صدور هذا المعلول دون بقية الاشياء عنها ترجحاً بلا مرجح وهو محال . وأيضا لو لم يكن بينهما نسبة لكانا متباينين تبايناً تاماً فلو وجد المعلول لوجد بدون ربط بينه وبين آخر فقد وجد بدون موجود: هذا خلف . فلا يدين المعلول والعلّة من النسبة والعلاقة الخاصة واذا قلنا بوجود النسبة والتعلق فلأن التعلق والنسبة لا يتحقق الا بين طرفين لا بد من وجود الطرفين حتى يتحقق منشأ النسبة فلا بد من وجود المعلول مع العلة لتتحقق النسبة الموقوفة عليها العلية فقد وجد الممكن قبل تحقق العلية بالمرتبة فوجد قبل وجوده هذا خلف . وبالجملة فالبداهة قاضية بانه لانسبة بين الوجود وعدم الصرف . وأيضا قولك بأن الشيء موجود من عدم اذا كان حقيقياً فلا بد ان يكون عدمه أيضاً له أو متى أوجوهراً موضوعاً أو مادة الى آخر الوجوديات الممكنة فيلزم وجود عدمه والمعدوم هذا خلف .

فاذن حدوث شيء من عدم الصرف محال وهذا حكم يدهي قد نهيك عليه فاذن جميع ما صدق عليه مفهوم الممكن محتاج الى علة ليست تلك العلة مباينة له بالمرّة وتلك العلة تنتهي الى مرجح خارج عن ماهية الامكان وهو الواجب الحقيقي الذي هو وجوده لذاته وكل مقيد فهو محتاج اليه وهو منتهى التقييدات ومرجعها « اليه يرجع الامر كله » ومع كون المعلول ليس مبايناً كذلك ليس بين العلة ولكن طور من أطوارها وشأن من شؤونها لا وجود له الا وجودها فتبين ان كل ممكن فهو اعتبار من اعتبارات علته ليس له وجود الا وجودها فاذن ليس في الوجود الحقيقي الذاتي الا ذات مطلقة واحدة لا تعدد فيها الا بتعدد اعتباراتها لا تقيد فيها بوجه من الوجوه وهو واجب الوجود فافهم . ليس في الامكان ، أوسع من هذا البيان ، وتوضيح الواضح مشكل فالحق بين يديك ظاهر فلا تشغل فكرك بإبطال التسلسل فهو محتاج الى أوهام ملء الاكوان

(تقريب) لا تستبعد أن المعلول شأن من شؤون علته فانك لست تفعل عن

كون البيت شأنا لاجزائه واعتبارا من اعتباراتها والشجرة طور الحبة وشأن من من شؤونها والامواج طور للبحر وشأن من شؤونه وهكذا جميع الامور والمعجب للمتكلمين والحكماء المقلدين لما عجزوا عن الارتقاء الى درجة الكمال كيف اتخذوا الاعداد سلا لتطالع الحقيقة ويزعمون أن هذا تنزيه لحضرتة ولكن نحن نقول ليس وجود الا وجوده ولا وصف الا وصفه فهو الموجود وغيره المعلوم قال الأمراء الأولون رضي الله عنهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ما رأيت شيئا الا رأيت الله قبله أو بعده أو فيه أو معه كل واحد ينسب الى واحد منهم ولا يقنع في وهمك ان هذا قول بالحلول فان الحلول انما يكون بين وجودين أحدهما حال في الآخر ونحن نقول لا وجود الا وجوده

(تنبيه) أظنك في هذه الكلمات تحققت بأن هذا الواجب واحد اذ لو كان واجبان لكان كل منهما ممتازا عن الآخر والا كان عينه . وامتيازه انما يكون بقيد ليس في الآخر فيكون مقيدا فيكون ممكنا : هذا خلف . وقد يستدل على استحالة تعدد الوجود مطلقا وأنه ليس الا وجود واحد بأنه لو كان هناك وجودان فإما لا امتياز بينهما فيلزم كون الاثنين واحدا ؛ هذا خلف ، وإما بينهما امتياز فإما بوجود مغاير لهما فنقل الكلام اليه ونطلب المميز عنهما وهكذا فيتسلسل وهو محال ، وإما بعدم فيلزم امتياز الوجود بالعدم والعدم لا يميزه في ذاته حتى يميز غيره : هذا خلف ، ان نقل - كانك لم تعتبر التسلسل محالا كما يلوح من وجه قولك فأقول اني اعتبره في هذا المقام لالاستحالة في ذاته ولكن لاستلزامه عدم الامتياز فانك لا تحصل ممتازا والا انتهت السلسلة فافهم - فاذن ليس هناك الا وجود واحد جزئي حقيقي لا قيد فيه بوجه من الوجوه والكل نسبه وهذا معلوم مما سبق

(واردة)

كأنك تدرك ان الكمال هو الوجود وان النقص هو العدم فانك تعلم ان كل شيء لو بلغ غاية فيما يلزم لذاته في جميع أحواله من حيث ذاته فهو الكمال وكل ما لم يكن كذلك فهو الناقص على قدر درجته من عدم بلوغ غايته فان ترتب على شيء نقص في آخر فالشيء كامل والآخر ناقص وقيل للشيء ناقص لانه ناقص

في ذاته ولكن من حيث لزم عليه ما هو نقص وهو العدم وذلك سهل عليك تحصيله
فإن أوردنا المثال بطول المنال والمقام ضيق

إذا تحصل عندك هذا فقد عرفت أن كمال الشيء بقدر ماله من جهات الوجود
ونقصه بقدر ماله من جهات العدم فهلا تحققت من هذا أن ما هو وجود الكل الذي
لا وجود الا وجوده وكل ما سواه عدم هو الكمال لذاته حيث لا عدم له في شيء
من جهاته وإن كل كمال فهو بروز كماله وكل نقص فهو عدم والعدم غيره فهو الكمال
وغيره النقصان « تبارك اسم ربك ذي الجلال والاكرام - سبحان ربك رب
العزة عما يصفون »

ولعلك تميل الى التنزل عن هذا المقام فنقول وصف شيء بشيء يقتضي أن يكون
ذلك الشيء منشأ لذلك الوصف أو في ذاته ما هو كذلك وذلك لأن جميع الصفات
بالنسبة الى جميع الذوات من حيث هي صفات وذوات مستوية فما لم يكن في ذات
مقتضي صفة لا تنصف بتلك الصفة وإلا لزم اتصافها بجميع الصفات والترجح بلا
مرجح وصفات إما ذاته أو في ذاته والثاني باطل لعدم التركيب فيه فمشوها ذاته
فهو كامل لذاته بل كمال لذاته وحديث الغير باطل لا يسمع إلا غير الامنة فكيف يرجع
المعلول على علته بالعلية

(واردة واجب الوجود عالم)

لما أشرفت في قلبك أنوار وجوده وأنه الحق وكل ما سواه محتاج اليه في
الوجود وكل من ظهور ذاته فيجب لك بذلك ادراك أنه عالم وذلك لما تراه
لإحكام والترتيب وملاحظة الدقائق ورعاية المصالح كما هو مشاهد في كليات
العالم وكما تعلمه إذا اطلمت على علم تشریح الحيوان والنبات وطبقات الارض
ما يطول شرحه وفي ترتيب المسببات على اسبابها ، فأعطى كل شيء حقه ،
وأنزله منزلته ، إذا نقص السبب نقص المسبب وإذا كمل كمل وإذا زال زال فلا
يليق بك مع شهود هذا الإحكام أن تنكر علمه (وأيضاً) هلاتين لك فيما سبق
أن مظاهر الممكنات طاسم ذاته وصفاته الا وإن العلوم من الممكنات الظاهرة فهي

طاسم لعلمه الحقيقي فعلمك طلسم وعلمه باطنه فهو العالم وعلمك على ذلك شهيد
والعالم بغيره أولى ان يعلم ذاته (وأيضاً) لما كان الحق هو الوجود من كل جهة والجهل
عدم محض فيستحيل عليه الجهل ويجب له العلم فهو العالم بذاته لذاته وكل ما نشأ عن ذاته

(واردة)

قال مقلدو الحكماء واليه ذهب رئيسهم ان علم الباري تعالى بالكليات بارتمام الصور
في ذاته فتقول ان قاتم بان العلم هو نفس تلك الصور (أولاً) يلزم أن يكون علم الباري
تعالى زائداً على ذاته وهو من كمالاته فيكون الباري كاملاً بغير ذاته والكمال
بغيره ناقص لذاته (وثانياً) لا يصح لما قل فضلاً عن حكيم ان يقول ان مجرد
الصورة في شيء علم ذلك الشيء بصاحب الصورة والا لكان الجدار عالماً بالاسد
المرسوم صورته عليه (وثالثاً) هذه الصور أمر ضارٍ على الذات أي زائد عليه
فاما قديمة بالذات وهو محال لاستحالة تعدد واجب الوجود واما حدثت عن الذات
فيلزم ان لا يكون الذات عالماً قبل تلك الصور بالمرتبة فقد كان الجهل جائراً عليه
لذاته مستحيلًا لغيره . وأيضاً يلزم قيام حوادث لانهاية لها بذاته تعالى وأيضاً
هذه صور على أنحاء شتى بنظام وترتيب معتبر تستدعي علم صانعها فيلزم ان
يكون عالماً قبلها بها . هذا خلف . على انه لو كان عالماً قبلها فاما بصور لتلك الصور
ونقل الكلام وهكذا وهو ظاهر البطلان واما بعلمه بذاته الذي هو عين ذاته
لاستدعاء العلم بالعلم بالمعلول فليكن علمه بالكليات كذلك وان قاتم بان
علمه شيء آخر غير تلك الصور فان كان غير ذاته تتكلم فيه مثل الاول وان كان
علمه بذاته فلا معنى للقول بارتمام الصور في ذاته تقدس عن ذلك

واردة في علمه بالجزئيات

لما كان تحقيق الحق موقوفاً على نفي ما عداه أردنا نقل ما واصل الينا من
لما ذهب في تلك المسألة فنقول كثر النقل عن الشيخ الاشعري رضي الله عنه في
ذلك ومع ذلك ما تقرر (١) نقل الناقلين على شيء يعتمد عليه في ذلك بل كما نقلوا

نقلأ أكثروا فيه من القيل والقال واختلفوا في فهم معناه ونحن نأخذ بما اشتهر من مذهبه وهو أنه يعلم الجزئيات فنقول ان أراد أنه يعلمها بوصف الجزئية فذلك إنما يكون بعد وجودها الخارجي اذ الشيء لم يوجد في الخارج لم يتشخص والصور العتلية وان قيدت بألف قيد لا تمنع الصدق على كثيرين فهي كلية فإن كان علمه كذلك أزيلا (أولا) لزم عليه ان تكون جميع الجزئيات الحادثة موجودة في الارل وهو باطل (وثانيا) بمجرد حضور الشيء عند الشيء لا يكفي في كونه عالما فلا بد من طروء شيء من المعلوم على العالم حتى يدركه وذلك الطاريء هو الصورة فتكون تلك الصورة مرسمة في ذاته وهو مستلزم لكون ذاته ذا طول وعرض حتى يكون محلا لصور الماديات التي هي كذلك وإن لم يكن علمه أزيلا بل بعد وجود الحادث (فأولا) يلزم جهله به قبل وجوده (وثانيا) يلزم عدم ارادته في خلقه لعدم العلم اذ الارادة من توابع العلم ما لم يكن لم تكن (وثالثا) ما تقدم من كون ذاته ذا طول والخ وكل ذلك محال. وان أراد أنه يعلمها لاعلى وصف الجزئية بل يعلم ان في زمن كذا عند حادث كذا يوجد ذات كذا بصفة كذا فهذه التصورات انما تكون بارتسام الصور في ذاته فان كانت حادثة بالحدوث الزماني فيلزم ان لا يكون عالما قبلها وطروء الحادث على ذاته وهما محالان (وأیضا) هي مخلوقة له مسبوقة بعلم ويكون بصور أخرى فنقل الكلام اليها فيتسلسل. وان (كانت) قديمة بالزمان فان كانت قديمة بالذات أيضا لزم ما لا يتناهى واجب الوجود وان كانت حادثة بالذات مستندة اليه في الوجود فيلزم قدم حوادث غير متناهية غير الذات والصفة وهو خلاف مذهبه (وأیضا) لا بد في خلقها من الارادة الموقوفة على العلم فيكون عالما بتلك الصور أيضا قبل خلقها ويكون ذلك بصور أخرى وننقل الكلام اليها فيتسلسل فان تجاوز عن هذا كله وقال ان علمه ليس بالارسام فقد قال بعلم ذاتي هو عين ذاته وهو علمه بذاته وقد برهن هو على بطلانه والله أعلم

وقال مقلدو الحكماء انه يعلم الجزئيات بوجه كلي أي بمثل ما تقدم في التريده الثاني من قول الاشعري ومثواله بعلم المنجم بأنه في سنة كذا في ساعة كذا في درجة كذا يحصل كسوف وهو لا يقع الا جزئيا وان كان في تعقله كليا اذ الشيء

مالم يوجد في الخارج لا يتشخص وان قيد بغير المتناهي من القيود ويلزم على هذا المذهب على الشق الثاني من ترديد قول الاشعري فانهم قائلون بأنه بارتسام الصور وذهب الصوفية الى ان جميع جزئيات الممكنات حاضرة لديه في الازل موجودة بوجودها الخارجي قائلين بأن الزمان شأن من شؤون الحق وجميع الكائنات الداخلة تحت حكم الزمان موجودة في ذلك الزمان بمنزلة النقاط المرسومة على الخط المستقيم ولما ظهر الحق بهذا الشأن الواحد فقد ظهر بجميع ما فيه فالكل موجود عنده حاضر لديه منكشف له واستشهدوا لذلك بأنه كما أن نسبة جميع الامكنة اليه على السواء فكذا نسبة الازمنة اليه على السواء ليس عنده حال ولا ماض ولا استقبال وانما نحن لا ندرك ما يأتي أو ما مضى ادراك الخال لقصور نظرنا ككلمة تمشي على خيط ملون بألوان مختلفة فهي لا تدرك لونا حتى تتجاوز اللون الذي قبله لقصور حاستها عن الاطلاع على جميع الالوان دفعة وهي تظن بان هذا حادث وذلك انعدم مع اننا نراه دفعة فكذا نحن . وهذا المذهب الذي حمل عليه صاحب المحاكمات مذهب الحكماء في قوهم يعلمها على وجه كلي فقال أي لا يعلمها معدومة ثم موجودة بيضاء ثم سوداء وهكذا يتجدد في علمه بل يعلمها على تغيرها دفعة ومثل بهذا المثال واستشهد بهذا الاستشهاد وكأنه قول انما يحكم صريح العقل بخلافه اذ كل عاقل يحكم بأن اليوم المستقبل معدوم الآن موجود فيما بعد بجميع ما يحدث فيه في طرفي الوجود والعدم وليس هذا بمنحط عن درجة السفسطة مع أنه لا يسلم من القول بالارتسام والتمثيل والاستشهاد في بون بين المستشهد والممثل له ولنرجع لتحقيق الحق فنقول

أنت تعلم انه لمالم يكن وجود الالذاته فحقيقته حقيقة الحقائق وذاته ذات الذوات وجميع ماتوهبه انما هو من الاعتبار لتلك الذات فلا بد أن تقول ان علمه عين ذاته وهو عين علمه بذاته وهو علم بجميع شؤونه وأطواره وان جميع ما تشرف بالبروز فانما هو تجلي ما في العلم ولكن لضيق ظرف الخارج عن ان يسع المراتب الغير المتناهية التي يقتضيها على حسب ما لكل شيء في ذاته حصل الترتيب في التجليات فكما أن ذاته واحدة بالذات، والكثرة انما وقعت في عالم التجليات،

فكذا علمه بالكل واحد بالذات، وكثرت في عالم التجليات، فبارز في الوجود
الاما كمن في العلم الذاتي ولا فصل الا ما أجل فيه فهو العالم بكل شي «لا يعزب
عنه مثقال ذرة» فدقق النظر واياك ان تحجيك الكثرة عن ذات الوحدة فان البحر
لو علم بذاته فليس يحتاج الى علم آخر يعلم به أمواجه وهذا قد يوافق من وجهه
قول من قال ان العلم قديم وتعلقه حادث ولكن قدضل عن سواء السبيل، فوقع في تيه
الباطيل، وأيضاً يقرب مما يقال ان للاشياء وجوداً علمياً ووجوداً شهودياً ومما يقال
ان للشيء وجوداً بحسب ذاته ووجوداً في ذات العلة فتفتن وطبق ان كنت
من أهل النظر

﴿ واردة ﴾

كأنني بك اذا التفت لنفسك وقد وجدت علمك بنفسك عين نفسك وهذا
غير عسير ثم دقت علمت انك لا تدرك غير نفسك فان الادراك ان كان
هو مجرد ارتسام الصور فقد تكرر غير مرة انه لا يصح موجباً للعلم وان كان الانفعال
بتلك الصور فهو هو أو قريب منه وحكمه حكمه فليس الادراك الاتجلي نفسك
بالصور على حسب الاستعداد فادراكك لنفسك في تلك الحالة ادراك لتلك
الصور بعينه فادركت نفسك بنفسك وما أدركت خارجاً عنك ولكن بالتجزؤ
تقول أدركت زيدا الخارجي ولكنك ظهرت بمطابقه فقلت ظهرت به وهذا
دقيق فافهم

﴿ واردة ﴾

كأنك فيما أتى اليك أدركت ان الحق مر بده في تشاء به (١) ولكن ليس يشاق
ويتفكر ثم يوجد على حسب ما يؤدي اليه فكره بل ارادته عين فعله أي لا يتخلل بين
الارادة والفعل (١) «انما أمرنا لشيء اذا أردناه ان نقول له كن فيكون» انما أمره
اذا أراد شيئاً ان يقول له كن فيكون» فانظر الى حصر الامور في الفعل في جواب
الارادة أي ليس لنا شأن من الشؤون المتعلقة بذلك الشيء اذا أردناه الا قولنا

(١) كذا في الاصل ولعل في الكلام تحريفاً وحذفاً

له كن وذلك كما اذا تصورت زيدا الذي تعرفه من قبل فتصوره فعل من أفعالك
ومرضي لك ومراد ولكن مانعلقت ارادتك بتصوره ثم فعلت ذلك التصور بل
ان فعلك ذلك تجلي ارادتك فمعنى كونه مريدا انه لا جابر له بل تجليه عن علمه
مرضيه لذاته لا يقع في ملكه الا ما يريد فتأمل فليس ما يفهمونه في الارادة ينبغي
في حضرة الالوهية

﴿ واردة ﴾

الحق جواد أي يعطي كل شيء ما ينبغي له من حيث انه ينبغي أي ينزل
المراتب منازلها « أعطى كل شيء خلقه » فلا يفيض في مرتبة ما تستحق أخرى
ولا يحجب عن مرتبة ما لها في ذاتها وذلك على حسب ما تقتضيه مراتب التجلي
في عالم التنزلات وهذا لا يخفى عليك من المباحث السابقة والقوم قد وقع النزاع
بينهم في أفعاله تعلق بالاعراض أم لا وكل من الطائفتين أيد ما يدعيه ولكن
الجمهور على أنها لا تعلق والالزم ان يكون للباري غرض لا يتم الا بغيره فيحتاج الي
الغير في تمام غرضه بل هو يفعل بدون غرض فلما أورد عليهم انه يلزم ان يكون
عابثا أجابوا عن ذلك بأنه وان لم يلاحظ الغرض ولم يكن له باعث على الفعل
لكن جميع أفعاله لا تخلو عن الحكم والمصالح. والعجب لهم كيف دفعوا العبث
بهذا مع انا نعلم ان من لعب برجله بدون قصد شيء فترتب على ذلك موت ثعبان
مثلا فهو عابث لا يقال له أحسنت وفعلت صوابا. ومن غرائب الاتفاقات ما وقع
في بعض البلدان الشمالية انه اجتمع خمسة سراق في محل ليسرقوا منه فسمعوا
صوت صبي داخل بيت في تلك الدار فأخرجوه خوفا من ان يوقظ أهله صباحه
فوضعوه في صحن الدار فصاح فاستيقظت أمه وأيقظت أباه وخرجا لاجل الولد
ثم دخل السراق البيت فأخرجوا المتاع الى الصحن أيضا ليأخذوه فلما دخلوا
لاخذ ما بقي من المتاع أنهدم البيت عليهم فهلكوا جميعا ونجا أهل المنزل مع
غالب أمتعتهم فهل يقال لهؤلاء السراق أنهم حكماء محسنون وهذا الفعل من
جميل أخلاقهم حيث أنجوا هؤلاء من هلاك الهدم وترتب على فعلهم هذه
المصلحة الكبيرة؟ كلا بل لا يقول به عاقل فليس الامر الا كما سمعت فوجود

ذاته عين الحكمة والفرض لذاته فلا تكن من الغافلين

﴿ واردة كيف بدأ الله الخلق ﴾

من القضايا الاولية ان الطفرة محال أي كونك في مكان لم تكن فيه لا يمكن
طفرة أي بدون قطع مسافة على أي وجه كان من المكان الذي كنت فيه الى
مالم تكن فيه وإلازم عدم المسافة وكونك فيه قبل كونك فيه . وهكذا في كل شيء
له بداية ونهاية لا يمكن الوصول الى الغاية الا بقطع المراتب المتوسطة ومنه اللط
والتكثف والقلة والكثرة والاطلاق والتقييد ونحو ذلك فان الكثرة لا يمكن تحققها
الا بتحقيق آحادها ولا يخفى عليك مثل هذا البديهي غاية الامرانه يتفاوت
القطع بالسرعة والبطء ، فاذا ارتقاء من مرتبة الاطلاق الى أقصى مراتب التقييد
لا بد فيه من قطع مراتب التقييد الى أن يصل الى أقصاها والالزم عدم المراتب
والفرض وجودها كما علمت من ثبوت المبدأ والتمهي ، ولما تبين لك ان الاكوان
شؤون الوجود ودرجات تنزله وأطواره فاعلم ان تنزله الى غاية التقييد من مرتبة
غاية الاطلاق لا بد فيه من قطع مراتب التقييدات التي بين المبدأ والتمهي فقد
وقع التجلي على مراتب التنزل الاطف فاللطيف وهكذا الى آخر مراتب التنزل
وهو العالم الهبولاني الطبيعي فجميع المراتب التي قبل هذا العالم هي التي نسميها
بالملائكة والسرادات ونسي البعض عقلا والبعض نفسا وهكذا فكل مرتبة
طلسم التي قبلها والتي قبلها حقيقتها وباطنها والقائم بها الى حقيقة الحقائق وأقربها
الى الوجود هو المسمى بالعقل لما انه امام جميع التعينات وملتي فيضها من المبدأ
الاول وفي كلام الحكيم الإلهي صلى الله عليه وسلم « أول ما خلق الله تعالى
العقل » وبقي المراتب قبل الناسوت هي النفوس السكلية وأشعتها المنبثة عنها في
المراتب العرضية هي النفوس الجزئية وهذا هو المسمى بعالم المجردات

ثم على حسب ما وصل اليه نظرنا وانتهى الينا من حضرة الحكيم الإلهي ان
النفوس السكلية المربية لعالم الناسوت الظاهرة فيه على ما تقتضيه مرتبته في التنزل
أربع نفوس وهي الحاملة لعرش الرب الذي هو هذا العالم وهي (نفس ميكائيلية)
وهي التي تركب كل ذرة من ذرات الوجود مع الاخرى لأمر يقتضيه وهذا هو

الرّزق العام ومنه الجذبات العمومية الكائنة بين ذرات الوجود (ونفس اسرافيلية) وهي التي بها حصل الحياة في كل ذرة من ذرات الوجود ومنها فيض الحياة العام (ونفس جبرائيلية) وهي المفيضة للدراك في كل ذرة من ذرات الوجود (ونفس عزرائيلية) وهي القابضة روح الحياة عن بعض ذرات الوجود لاسر يقضيه المحللة لبعض الأجزاء عن بعض المحللة لبعض المراتب عما كان له كل ذلك في كل شيء بحسبه ثم إنه كما يحصل ذلك في الذرات الجزئية يحصل في المركبات ومن ذلك قبض حياة الحيوانات بالنفس العزرائيلية ورزقها بالميكائيلية وحياتها بالاسرافيلية وإدراكها بالجبرائيلية والمرتبة الجبرائيلية كما حصل التعليم منها للكليات والجزئيات قدي يحصل منها التعليم الظاهري كما حصل ذلك لبعض القديسين مثل الانبياء وهذه المرتبة كثيرا ما جاء ذكرها على الألسنة الإلهية خصوصا على لسان نبينا صلى الله عليه وسلم فجاء أنه رآه وقد سد الأفق وليس هذا الارض لما قررناه ، وإشارة لما أوضحناه ، ولا تستبعدن مثل هذه الافكار فانه قد تكلم قوم بالسيال الكهر بائي في العالم وليس يظهر الا آثاره وهو كلام حقيقي مبرهن فقل أنت بالسيال الروحي في العالم وليست هذه المراتب متباينة متفارقة بل كل شيء في كل شيء واعظة في

ضيق عبارة ولترجع الى آتام ما نحن بصدده فنقول

فلما انتهت مراتب التجلي الى عالم الناسوت وقد كنت تعلم ان انتزل ليس الاعبارة عن تنقل الوجود في الاطوار ولست تدرك منه الا الحركة ولكن لست تعلم كيفيتها والباطن حقيقة الظاهر والظاهر تجليه فبرزت جميع المعنويات في الحسيات في هذا العالم الحسي على ما تقتضيه مراتب التجلي فكانت الحركة اللا كيفية حركة كيفية فبرز هذا العالم شيئا واحدا بسيطا ليس فيه تجزؤ ولا تركيب وهو الذي يسمونه بالهيوولي ثم بواسطة هذه الحركة اللازمة بالترتيب حصل في ذلك البسيط جزر ومد وفتح بعد رتق فمته اللطيف والكشيف والمتفاوت في المرتبتين ووقعت كل كرة حيث أدت بها الحركة كيف كانت ولم يزل هذا العالم متحركا بهذه الحركة لكننا لا ندرك الا حركة الجزئيات الحاضرة بين أيدينا لاننا لسنا كل العالم حتى ندرك حركته الكلية والحركة واحدة وزراها متكررة بتكثير أجزاء

المتحرك ومن ثم لا تجدد إلا متحركا ولا حادثا الا عن حركة وذلك لعدم توقف الفيض في لحظة من اللحظات لعموم الجود وكان العالم في الترقى على حسب تقدمه في الوجود وهذا من مقتضيات الترتيب وقد علمت ما يحتاج اليه العالم في نظامه العام من النفوس الكلية أما النظام الخصوصي لكل ذرة أي المبدأ القريب لهذا إنما هو بالنفوس الجزئية المنبثقة عن النفوس الكلية فلا تزال الكلية في تربية الكل والجزئية في ترتيب الجزء حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا

ولعلك على ما تحققت من لزوم الترتيب في عالم التركيب تقول ان أول مظهر في هذه الكرة النباتات على تفاوتها في الدرجات من متناقص الحلقة جدا ثم يتكامل شيئا فشيئا حتى انتهت الى غايتها ثم الحيوانات كذلك ثم نتيجة الكل وغاية منتهى السير هو الانسان ثم كذلك تتفاوت مراتبه في الوجود من غاية التوحش الى أدنى منها ثم وثم ولا يزال هكذا وقد نطق بهذا كتابنا وأشار اليه في قوله « والله أنبتكم من الارض نباتا » فهذا قليل تستغني به عن كثير واجمال يغنيك عن لبس التفاصيل

﴿ واردة ﴾

قد تبين ان الحق فياض مطلق ينزل كل شيء منزله التي يجب ان يكون عليها في ذاته ولما أوجد هذا النوع الانساني جعل فيه ادراكات واخلاقا على حسب لوازمه فيه وآلات تقضي ذلك بحسب النوع. ثم ان الآلات الجزئية تقضي الاختلاف في الاقتضاء على حسب اختلافها في الاشخاص بالعوارض الطارئة على الحقائق الناشئة عن الاسباب الجزئية في هذا العالم فيكون اللازم على اختلاف الاخلاق وتباين الآراء على حسب ما تقتضيه تلك المراتب الشخصية أن يأخذ كل طرفا غير الذي يأخذه الآخر و« كل يعمل على شاكلة » ومن مقتضيات هذا التنافر أن يترتب عليه النزاع اذ ينازع البعض البعض الآخر في قصده، ويذوده عما هو بصدده، فيلزم بغلب البعض وقهره البعض الآخر وهو منشأ الفساد والفتن لوقوع العداوة بينهم بذلك فينشأ عنها المحاربات والمقائلات الذي ينشأ عنها فساد هذا النوع . ثم لا ستغرق في عالم الحس الذي هو مقتضى رتبة هذا العالم يستلزم الغفلة عما

ياول ايله امره بعد مفارقة هذا العالم فيبوء بظلمة الجهل وضيق كدرة الاخلاق وروايل الاعمال كل ذلك على حسب ما تقتضيه مراتب الوجود في هذا العالم الطبيعي ولما امدم الحق بما فيه اصلاح ابدانهم من جميع لوازم تعيشاتهم وبما فيه بقاء هذا النوع من الاستيلاء ولزم ان يمدم من جوده وفيضه بما يكون سبباً في تربية عقولهم وتزكية نفوسهم وطيبياً لبواطن امراضهم بأن يبعث فيهم منهم ذاتفس قدسية مطهرة عن جميع شوائب الغفلة منكشفة لها الاسرار والحقائق على وفق الحكمة بأصل الفطرة لا يحتاج فيما يقصده الى الفكر والنظر، وحيه من نفسه زكي الاخلاق، رفيع المهمة، قدبث فيه شوق خلقي ونور جبلي الى تربية من ارسل اليهم، يفدي بروحه لذلك، ولا يبالي في هداية شخص باقتحام المهالك، قد جلس على منصة البلاغة، حتى يحكم بالبيان ابلاغه، فتكون اخلاقه ميزاناً لاخلاقهم، واعماله ميزاناً لاعمالهم، وذلك انما يكون على حسب احتياج النوع لذلك بقدر الاستعداد، واستحكام مواد الفساد، فهذا الشخص المتصف بهذه الصفات هو النبي . ولما بلغ العالم الى درجة (١) في اكتساب المعلومات ووجوه المعارضات وجالوا في ترتيب الافكار، وكانوا في استعداد للذنب والاستبصار، بعث فيهم نبياً كاملاً عمومي الفكر صادق اللهجة في أعلى طبقات الكمال وختم به الأمر ونعم لعدم احتياجهم الى غيره اذ كلما تقادمت الازمان قويت دواعي العرفان ووقد تبين (٢) لهم اجمالاً ينبي عن تفاصيلهم قد احاط بجميع مهماتهم على اختلاف احوالهم في اعصارهم صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه

ولا يخفي على العاقل ان مثل هذا الرجل السكامل لا بد منه في عالم الوجود لهذه التربية على ما هو مقتضى العالم وترتيبه على الاسباب والمراتب ومن لطائف الوقائع ما وقع للفاضل الاستاذ (٣) في الاستبانول مع جماعة من الطبيعيين وقد كانوا يسخرون بالانبياء وذلك انه قال لهم يجب على من أنكر الألوهية فضلاء عن اثبتها الاعتقاد بالنبوة وذلك لأن الطبيعة قد اقتضت للشخص كبداً وقلبا وروحاً لأجل بقاء وجوده واقتضت أموراً مثل تقعير الكف وتقويس الحاجب لكمالها (١) لعل الاصل درجة عالية او درجة الكمال (٢) لعلمها بين (٣) يعني السيد جمال الدين

في وجوده واقتضت للنوع آلة تكون سببا في بقاءه والأسباب كثيرة فاذا لم يكن هذا الرجل السكامل لهذا العالم بمنزلة الروح للشخص فهلا كان مثل تعبير الكف وثقوبيس الحاجب وهذب الاشفار ونحو ذلك فسكتوا وقبلوه

هذا لسان الحكيم في هذا الباب ولسان آخر نقول لما حصل للوجود في مراتب تجلياته بعد عن نفسه في مراتب تجرده تجلي من نفسه انفسه بتجلي يدعو نفسه لنفسه على ما يقتضيه التجلي وليس يبعد بل كما يشاهد فينا من زجر انفسنا لانفسنا وحثها اياها وفيض هذا التجلي بالاتفات الى مبدئه الحقيقي فاذا استغرق في دعوة التجليات، حصل له الاتفات عن عالم المجررات، فتفكر واستشار. ولما تنفس صبح الحقيقة والناسوتيون في سنة من جهالتهم بعث مناديا: هلموا الى النجاح، فقد طلع الصباح: فالناس في الاجابة على اختلاف درجاتهم في سنة العفلة، ومن استيقظ من غفلته، واستنار بشمس حقيقته، ناب عن الداعي في دعوته، لهذا تم العقد برسائته، وهو اسان التصوف

﴿ واردة ﴾

لملك فيما سبق تابهت الى أن المجرّد ليس محمّدا للتغيير والتبديل والكون والفساد لتزهره عن الحركة الحسية المقتضية لذلك فالنفس الناطقة الانسانية باقية ببقاء الوجود. ولما كان الوجود في جميع مراتبه فعلا فللنفس الناطقة من الافعال على حسب رتبته وهو في بدنها ليس الاتديبير اما بعد مفارقتها البدن الانساني فافتقرت الطوائف في حكمها (فن قائل) بأن النفس ليس لها حالة الا وهي مدبرة للبدن الانساني فلا تتدنى عنه الى الحيوان والنبات ولا تفتر عن التدبير وكما خلق ثوب لبست آخر من هذا النوع بعينه فهو مظهر خيرها وشرها وعذابها ونعيمها

ومن قائل بأنها اذا تعطل البدن ظهر لها ملكاتها وادراكها فكان لها بذلك إما الحزن والاسف واما الفرح والابتهاج فلا تتعاق ببدن مادامت تلك الملكات فيها فاذا زالت تلك وصارت ساذجة تعود الى تدبير النبات وتترقى الى الانسانية وهكذا لشوقها لمرتبته من التدبير لهذا العالم

ومن قائل وهم الحكماء ان النفس قد تفارق هذا البدن الى غير النهاية ولما كان الحق في جمع مراتبه فعلا كما سبق وكان للنفس بذلك رتبة الفعل

فتمام ظهورها يكون في عالم التعقل والتخاق كولد سلطان يشتاقي الى مرتبة آية ولكن لقصوره ينزوي الى بعض الجهات ويظهر سلطته فيها وبه يتسلى ويكون متلذذا مبتهجا يعزل ويولي ويعز ويذل فكذا النفس في عالم التعقل والتخلق فان أصلحته ورتبته على ما هو عليه كانت بعد فراق البدن وجودا في علها متلذذة بمرتبتها مبتهجة بسلطتها وعلى قدر النقص في ذلك يكون العذاب والألم

ومن قائل وهم الصوفية ان الحق لما نادى شوؤنه على لسانه النبوي الى الدخول في حضرته أمرهم ان يتلبسوا عند ذلك بملابس تليق بتلك الحضرة وان يتخلوا عن غير ذلك فمن فهم الرمز وحل الغمز وفي بالفناء المطلق واتصل بحضرة الجود ، ولم ير الانفس الوجود فلذته نور الوجود ، وهو (ما) لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب أحد . ومن نظر الى ظاهر الحال ، وعمل بما فهم من مدلول المقال ، غرست له في أرض نفسه أشجار النعيم ، فكل عمل عمله برز له عند خراب البدن لذائذ على حسب ما كان يعهد ويتلذذ وكان له من ذلك الحور والولدان ، والاساور والتيجان ، ومن توجه نحو الطريق ، ولكن غفل عما يروم الفريق ، وثقاعده عن السير ، ولبس ملابس الضير ، ظهرت له تلك النقائص حيات وعقارب وسلاسل واغلالا ، ولا يزال كذلك حتى يتقدس فيكون أحد السابقين . ومن أعرض عن الطريق بالمرّة ، وشغل بالاغيار عن تلك الكرة ، فهو لا يزال معذبا بظهوره ، متألما بفجوره ، فاذا هبت عليه نسمة من نسمات الرحمة والالطف كان العذاب عذبا ، والرحيم ربا

(خاتمة) هلا نفظنت فيما أدرجت لك في هذه الاقوال الى انه وقع الصالح بين الطائفتين العظيمين في ان الافعال هل هي لله خاصة أو بقدرة العبيد فانه لا يخالف بينهما في الحقيقة فالله فاعل من حيث العبد فاعل والعبد فاعل من حيث الرب فاعل والوجود في جميع مراتبه مختار والحمد لله رب العالمين وحده قال مؤلفها تم تبييضها يوم الاربعاء سادس عشر شعبان المكرم سنة ثمانين ومائتين بعد الألف اه

المقالة الأولى - التربية

في ليلة الأحد الماضي انعقد درس الاستاذ جمال الدين الافغاني وانتظم في سلكه جم غفير من نبيه طلبة العلم وفضلائهم وكثير من الافندية مستخدمى الدواوين بمحضر هؤلاء وأولئك شنف المسامع بمقال جليل في شأن تربية الامة وما يلزم ان يسلك من سبلها ولما فيه من عظم الفائدة رغبت في نشره في الجرائد الوطنية نعيما للفوائد وبيانا لما انطوى عليه من حسن المقاصد قال مامعناه:

اذا وجه العقل نظر الاعتبار الى الاجسام الحية بالحياة النباتية أو الحيوانية أو الانسانية علم ان قوام حياتها بتفاعل العناصر الداخلة في قوامها تفاعلا متناسبا بحيث لا يتميز أحد تلك العناصر بالقلية على باقيها غلبة تقتضي بظهور خواصه وتسلطها على خصائص البقية فبذلك التناسب يتم للبدن الحي ما يسمي بالمزاج المعتدل الحاصل لروح الحياة فإن غلب أحد العناصر على سائرهما واضمحلت خواص بقيتها فيه انحرف المزاج وخرج عن حد الاعتدال واستولى المرض على الجسم وكما يكون الاختلال وفساد البنية بتغلب بعض العناصر على ماسواها منها كذلك يكون بمغالبة المزاج للحوادث الخارجية وغلبتها عليه كالبرد الشديد المذهب لروح الحرارة الغريزية والحر الشديد الموجب للاحتراق وتحلل الرطوبة الضرورية المنتهي الى اليبس نذير الموت والفناء

ومن ثم وضعوا علوم النباتات والحيوانات والطب البشري والبيطري ليعتدوا في تلك العلوم عما به يحفظ التوازن بين البسائط التي يتركب منها الجسم ويحتمز من تسلط الحوادث الخارجية عليه ويعاد به المزاج الى حالة الاعتدال ان خرج عنها لثم حكمة الله تعالى في بقاء الانواع الى آجالها المحددة بحكم الحكمة الأزلية فالنباتيون يعينون الاراضي القابلة للزراعة والغراسة لكل نبات ويحددون الفصول الملائم هواؤها لثموه ويوضحون مواد التسميد وغير ذلك مما لا بد منه في تربية النباتات وكذلك الاطباء يبحثون عن مواد الاغذية وما ذا يجب ان يتخذ منها لكل مزاج ومضار الأهوية ومنافعها ويقفون بتجاريتهم الصادقة على الادوية

النافعة لرد البدن الى حالة الصحة وآلات العلاج المفيدة حتى تحفظ بذلك على
البدن صحته ويرجع اليها ان انحرف عنها ولن يكون الطبيب طبياً يترتب عليه
غايته حتى يكون على علم بالتاريخ الطبيعى وعلوم النباتات ليعلم خواصها، ويميز
نافعها من ضارها، وعلى بصيرة من اختلاف الامزجة ومقتضياتها وما يلائم كل
واحد على حسبه وخبيراً بعلم الامراض وأسبابها وكيفيةاتها من شدة وضعف
وتاريخها من قدم وحدوث حتى يعالج كلاً بما يليق به فإن جهل من ذلك شيئاً كان
فقدته خبيراً من وجوده فإن الطبيب الجاهل رسول ملك الموت اذ مجمله يستعمل
من الأدوية ما عساه يهيج المرض ويمين من الاغذية ما يساعده على قسوته فيغضي
ذلك الى هلاك المريض وقد كان بدونه محتمل الشفاء بمقاومة الطبيعة لولا مساعدة
الجاهل وعونه. وكما يلزم للطبيب ان يكون عالماً بجميع ما قدمنا يجب ان يكون
شقيقاً رحيماً صادقاً أميناً لا يكون قصارى عمله ما يناله من جعل المعالجة فإنه ان
كان قسياً عديم الرأفة أو كان خائناً فلربما صار آلة في أيدي اعداء المريض
يستعملونه لهلاكه بإلقائه السم في الادوية مثلاً أو اهماله في العلاج بما يقدمونه اليه
من العرض الغاني وكذلك ان قصر همه على ما ينال من الدينار والدرهم فإنه ان
كان على تلك الصفة لم يكثر بحال المريض مادام يوفى أجر عمله فإن هلك فقد
نال ما يزيد عن مكافأته وان امتد المرض زاد الايراد بتوارد الاوقات فعدمه أيضاً
خير من وجوده

وكما ان روح الحياة البدني انما يستقر حيث تجتمع اصول متضاربة ينشأ من
تقابلها مزاج معتدل كامل وبقلبه أحدها يفسد التركيب وينهب الروح الحيوي من
حيث أتى كذلك زوج الكمال الانساني انما يكون حيث تجتمع أخلاق متضادة
وملكات متخالفة يقوم من تضادها وتخالفها حقيقة الفضيلة المعتدلة التي هي ركن
ليبت سعادة الانسان وعليها مدار حياته الفاضلة فإن تغلب أحد الخلقين على
الآخر فسد نظام الفضيلة واستحكمت الرذيلة وبات شقياً سيئ الحال وسقط في
مهواة التعب والعناء المفضيين الى الحين والهلاك. ألا ترى ان النفس الانسانية
لا بد لها من خلق الجرأة وخلق الخفاة وهما متضادان ومن مقاومتها على وجه

معتدل بحيث يستعمل كلا فيما يليق به من المواقع تحقق الشجاعة التي لو فقدت بتغلب المخافة لكان فاقدًا عرضة لتعدي جميع الحيوانات عليه ولم يستطع عن نفسه دفاعًا وكانت حياته تحت خطر يتهدده في جميع أوقاته ولوان الجرأة تغلبت على المخافة حتى ذهب أثرها كانت تهورًا وعدم اكتراث بالمهلك لحق ولنفسه حق بدون تبصر ولا مراعاة حكمة فيلتي بروحه في مهاري الهلكة بلا طائل يعود على نفسه أو وطنه. وكذلك لا بد من خلق الامسك والبذل وهما متخالفان متعارضان يتقوم من تغالبهما في النفس فضيلة السخاء وهي البذل في موضع الاستحقاق اذا اعتدلا ولوان الامسك تغلب على ضده حتى اضمحل فيه لامسك عن قضاء لوازمه الضرورية فلا يأتي باللائق من الاغذية والالبسة مثلا فيضر بيده ولم يوف بمحموق مشاركته في المعيشة كزوجته وولده أو في التعامل كجيرانه وأهل بلده فيقع الشقاق بينهم ويتأدى به الى شقاء دائم وغير ذلك من مفسد البخل التي لا تنحصر ولو تغلب البذل لأنفق جميع ما بيده في المفيد وغير المفيد حتى يصبح فقيرا لا يجد ما ينفقه في أزم لوازمه فيهلك وهكذا جميع الملكات الفاضلة الانسانية انما هي واسطة لطرفين متضادين لا بد من ظهور أثر كل منهما على نسبة معتدلة وبغلبة أحدهما على الآخر يختل نظام الفضيلة ولا مجال ينهدم بيت السعادة دنيوية كانت أو أخروية ولا يسعنا المقام لتفصيل ذلك. وكما يقع العناد بتغلب أحد الضدين على الآخر في النفس يقع أيضا بتغلب أمر خارج على مزاج الفضيلة كغلبة التربية الفاسدة المغذية للعنصر الفاسد بمخالطة ذوي الملكات الرذيلة والفرائز الناقصة وانفعال النفس بحركاتهم وسكناتهم وتقليدها لاعمالهم وتقلدها بعاداتهم أو باستماع إغواء ذوي الالهواء وتعميها أرباب الاغراض الفاسدة الدنيئة المذيعين للافكار الرديئة المؤيدين للعقائد الباطلة التي ينبعث منها سوء الاخلاق المؤدي الى فساد المعيشة فللنفوس علل وأمراض كما للابدان ذلك

ومن ثم قد وضعت علوم التربية والتهديب لتحفظ على النفس فضائلها وتردها عليها ان اعتلت وانحرفت عنها الى جانب النقص والاعوجاج كما وضع الطب ولوازمه لحفظ صحة البدن كما بينا فالحكام العمليون القائمون بأمر التربية والارشاد

ويبان مفسد الأخلاق ومنافعها وتحويل النفوس من حالة النقص الى حالة الكمال بمنزلة الاطباء وكما لزم للطبيب أن يكون عالماً بالتاريخ الطبيعي والنباتات والحيوانات وعلل الامراض وأسبابها ودرجاتها من شدة وضعف كذلك يلزم للحكيم الروحاني طيب النفوس والأرواح اذ اذرقى منبر الارشاد ان يكون عالماً بتاريخ الامة التي قام بإرشاد أبنائها وتاريخ غيرها من الامم أيضاً وأن يكون مطلعاً على درجات ترقبها ودرجات تدنيها في جميع الأزمان وان يسبر أخلاقها بمسبار الحكمة ليعلم أسباب أمراضها النفسية ويقف على درجات الداء وتمكنه فيهم وأنه حديث أو قديم قوي في النفوس أو ضعيف وما هو العلاج اللائق بكل صنف. وكما أنه يجب على الطبيب البدني ان يكون على علم تام بمنافع الأعضاء وغاياتها كذلك على الطبيب الروحاني ان يكون عالماً بمنافع الأخلاق ومضارها على طبق ما في نفس الامر والواقع. وكما يلزم ان يكون الطبيب شفيقاً رحيماً صادقاً أميناً لا ينظر الى الدنيا ولا ينحط الى المقاصد السافلة كذلك على النصحاء والمرشدين ان يكونوا من ذوي الاستقامة والفضيلة مرتفعي الهمم أولي مقاصد عالية لا يبيعون الفضيلة بمخاطم الدنيا ولا بالقرب والتزلف الى الامراء والكبراء

أولئك هم المرشدون الحقيقيون فان رزقت الامة بمثلهم فبشرها بالسعادة وان رزقت بمطبين لا أطباء بأن صعد على منابر النصح فيها الجهلة والاغبياء والسفلة والادنياء فأندرها بالعناء والشقاء فإن المرشد الضال والنصح الجاهل ودع النفوس رذائل الاخلاق باسم انها فضائل ويفرس فيها جرائم الشر باسم انها أصول الخير ولربما كان مقصده حسناً ولا يريد الاخيراً ولكن جهله يعميه عن سلوك طريقه ويبعده عن اتخاذ وسائله فتقع الارواح في الجهل المركب وهو شر من الجهل البسيط فإن ذا الثاني على باب الفضيلة لا يلبث ان فتح له ان يلججه وصاحب الاول قد بعد عن المقصد بمراحل واستتر تحت نفع الرذيلة واعتقد ذلك ظلاً ظليلاً فلا يمكن العدول عما وقع فيه الا بعد مكابدة شديدة وعناء طويل فلا ريب كان عدم هؤلاء المرشدين خيراً من وجودهم وكذلك ان كان خائناً أو دنيئاً ينحط الى سفاسف الامور أو عدم الشفقة والانسانية فإنه يتخذ النصيحة سلباً للوصول الى اغراضه الفاسدة ومطالبه

الذاتية فلا يبالي أوقع الافراد في خير أو شر، صفت النفوس أو تكذرت، ارتفعت الآداب أو انحطت، صحت الارواح أو اعطت، فيكون آلة بيد الاشرار وأولي الاهواء يستعملونه في فساد الامة والعشيرة لقضاء أوطارهم
 الا وان القائمين بأمر الارشاد يحضرون في قبيلين قبيل الخطباء والوعاظ وقبيل الكتبة والمصنفين ومنهم أر باب الجرائد فإن كانوا على نحو الاوصاف الكاملة اللازمة لمقامهم هذا كما تقدم فقد استحقوا التعظيم والاحترام، والتبجيل والاجلال، واستوجبوا الشكر والثناء من كل قلب مخلص وقاموا بخدمة أوطانهم وأبناء بلدتهم وإلا استحقوا الرفض والطرده والإبعاد ووجب على من يهمهم أمر الاصلاح ان يقذفوا بهم من البلاد كي لا يفسدوها بمرضهم الو بائي الذي لا يقتصر ضرره على المبتلى به بل يتعداه بالسراية الى كل ما سواه

المقالة الثانية - الصناعة

قد عاد حضرة الاستاذ الفاضل والفيلسوف الكامل السيد جمال الدين الأفغاني الى التدريس بعد فترة تزيد مدتها عن سنة فابتدأ حفظه يقرأ شرح إشارات الرئيس ابن سينا في الحكمة العقلية وهو كتاب جليل يحتوي من هذا العلم أصولاً جليلاً غرست أصولها في بلاد المشرق من مدة تقرب من ألف سنة الا انها نبتت فروعها في المغرب واجتذبت ثمارها لغير غارسها ولم تنزل في بلادنا على كليتها واجمالها لم تخرج نتائجها العقلية من حد القوة الى الفعل الا أن هذا السيد الفاضل قد جمع في تدريسه بين تدقيق الشرقيين وبسط الغربيين يجمع الى الاصول فروعها والى المقدمات نتائجها والى المجملات تفاصيلها بانياً جميع أقواله على البراهين الثابتة والحجج القوية ولما كانت دروسه العالية عظيمة الفوائد جمة الثمرات للعموم رأيت من الواجب قياماً بالخدمة الانسانية ان أودع بعضها قوالب العبارات اللائقة بها وانشر طيب وفدها في صحف الجرنالات لتعم الفائدة والله يتولى التوفيق
 بين حفظه الله وأثبت ان الإنسان نوع من أنواع الحيوانات الارضية

(لا كما يزعمه أرباب الاوهام كالصينيين وقدماء الفرس من انهم من أبناء السماء فليتكلم من له فطنة) وانه قد أتى عليه حين من الدهر وهو على مقربة منها ينشأ نشأها ويسير في عيشه سيرتها يتغيا ظللال الأشجار، ويستكن في الحجر والواكار، ليس له شعار ولا دثار، (ولكن خفيف أشعار) يقات نباتات وثمرات تحضرها له القدرة الآهية، على يد القوى الطبيعية، لا تمسها يد صناعية، ولا تربية أجنبية، ليس له من المكر والتحيل الا ما لا يداني فيه الثعلب، ولا من العلم والتدبير الا ما يبعثه على الغدو طلب قوته من الاعشاب وثمار الاشجار والرواح للاستكنان في كني يواريه عن أعين الحيوانات العادية، والفرار من المكاره الحسية، كما تفر الشاة من الذئب، والارنب من الثعلب، ولم يكن له من رفعة القدر ما يجلسه على كرسي سلطنة الوجود، ويقيمه متحكما في كل موجود، ويدعوه للحكم بأنه خلاصة العالم ومنتهى سبر الحقائق وعماد عالم الكون وإن جميع البسائط والمركبات إنما خلقت لاجله، والكواكب والسيارات إنما تتحرك لخدمته، بل كان ضعيفا عاجزا جاهلا حافيا عاريا يزعجه كل حادث، وتستغزه كل نبتة، ويتهبب من كل شكل وهيئة، والشاهد على ذلك ما تحكيه لنا أحوال الامم التي كأنها قريبة عهد بالانسانية في جنوب أفريقيا والقبائل المستمرة في قم الجبال والاجم والغابات البعيدة عن العمران البشري المعروف الذين لم تضطرم الحاجات ولم تسقهم الضرورات الى الانتقال من مكان الى مكان فإنهم لم يزالوا على سذاجة الحيوانية وبساطة الفطرة لا يفهمون خطاياهم، ولا يحسنون جوابا، الا ما كان متعلقا بضرورة الحياة كجلب قوت بسيط، ومدافعة عاد من الحيوانات وجميع ما يعده الانسان المتمدن كالاوانسانية فهم بعيدون منه، عارون عنه، مع بعد تاريخهم وامتداد زمن وجودهم على سطح الارض

الا أن مبدع الكون جلت قدرته لما اختص هذا النوع من بين الأنواع الحيوانية بخاصة العجز والفقر والحاجة حيث جعل جميع لوازم حياته خارجة عنه لا تحصل الا بالتحصيل وليس تحصيلها الا بعد الكد والعناء وهبه قوة عاقلة كلية التصرف، عامة القبول، ووكل تربية هذه القوة الى تعليم مدرسة الوجود السكلي فكان لكل نبات وحيوان بل لكل موجود مشهود حق الاستاذية وسابق الفضل

على نوع الانسان فاسترشد بأعمالها، واهتدى بآثارها والنقط درر الحكم من فعلها وانفعالها، وتدرج في ذلك شيئا فشيئا تارة بخطى، وتارة يصيب، وطورا ينجلي له الحق وآخر عنه يغيب، مرة تعوقه العوائق القدرية والارادية عن ادراك الحقائق والوصول اليها، وأخرى تجذبه الجواذب اضطرارا للوقوف عليها، حتى وصل الى ما تراه من أحواله الغريبة، وآثاره العجيبة،

ثم بين حفظه الله كيف كان يتلب الانسان في سيره هذا ويقطع عقبات المصاعب، ويخترق حجب الجهالات، منقادا في جميع ذلك لقائد الحاجة والضرورة يأتمر امره، ويتبع سيره، تارة يتدرج الى الكمال فيقعده مقعد رئاسة الكون، وسلطنة الوجود، بما يرشده اليه من التفنن في الفنون واختراع الصنائع، وأخرى ينحط به الى قعر جحيم الاوهام، ويقذف به في جب الخرافات، ويكبله بقيود الاعتقادات السخيفة، ويفل يديه بسلاسل العادات والافكار الرديئة، على ان جميع اعتقاداته الفاسدة الباطلة انما نشأت له من قياس حوادث الكون وظواهره على ما يصدر عن ذاته (الشريفة) حيث جعل لها غايات تحاكي غاياته على تفصيل طويل في ذلك مستشهدا في تبيانه بشواهد أحواله الآتية المشهودة، مستدلا بجميع أعماله المنقولة المعهودة

وأنه في جميع مراتبه لم يكن ليقيم ظهره بين الموجودات الا بدعائم الصنائع التي هدته الى اختراعها تلك القوة العاقلة الكلية، لتكون له عوضا سلبه من اللوازم الضرورية والحاجية والكمالية، التي منحت لغيره من الحيوانات بأصل الفطرة، وليس ذلك بخاف على ذي شعور فإن صنعة الحياكة مثلا قائمة مقام القوة السامكة للجلود الغليظة المفرزة للأشعار والابواب الواقية لما أحاطته من صولة البرد والحر بل القائمة مقام ترس يحفظ جوهر بدنه من تمزيق عادية غيره، وصناعة الحد يدو الاسلحة منزلة منزلة القوة المولدة للمخالب والبرائن والانياب للسياح والضباع وعوادي الطيور وهكذا بقية الصنائع وما لم يرق منها مقام ضروري أو حاجي قام مقام كافي على ما يتضح لك بعد

وإذا كانت الصنائع هي قوام هذا النوع وعليها مدار بقائه في أي مرتبة كانت رأينا من الواجب ان نعرف الصناعة ونقسمها الى أقسامها الاولية على

ماقرره الحكماء الاقدمون، وأوضحه الفلاسفة الآخرون، ليتبين شرف كل صناعة على وجه الاجمال فقول

الصناعة قوة فاعلة راسخة في موضوع مع فكر صحيح نحو غرض محدود الذات فالقوة منشأ الاثر مطلقا فعلا كان أو انفعالا فالعلم مثلا ذو قوة الفعل والمتعلم ذو قوة الانفعال الا ان قوة التأثير والقبول لاتعد صناعة ومن أجل ذلك قيدت بالفاعلة وليست قوة فاعلة صناعية مالم تكن تلك القوة راسخة في موضوعها تصدر عنها أعمال مستمرة على وجه منتظم فالقوة الحالية التي تعرض آنا وآنات ثم تزول ليست منها في شيء وما لم يكن فعلها تحت سلطان الفكر فلا تدخل في مفهوم الصناعة كالأفعال الطبيعية من احراق النار وتمديد الحرارة وتجميد البرودة وما شاكل ذلك فان لم يكن الفكر صحيحا كفكر السوفسطائي المنكر لبديهيات العلوم أو كان نحو غرض غير محدود الذات كاعمال الجدلي الذي أخذ على نفسه ان لا يقر قولاً لئلا يبا كان حقا أو باطلا فليس له حديقف عنده بل قوته متوجهة الى معارضة مقابله فان كان نافيا كان هو مثبتا وان كان مثبتا كان هو سالبا فليس بصناعة

ثم ان نظر في عالم الوجود الكلي علم اليقين انه وان وقع كثير من صورته وكالاته تحت قوى طبيعية كقوى النمو والجذب والدفع أو قوى احساسية كقوى طلب الغذاء مثلا في الحيوانات أو الهرب مما يؤلم الجثمان الا ان عامة أفعاله واقعة على ترتيب عقلي محكم ونعني بالترتيب العقلي ما يكون مبنيا على مراعات الغايات والحكم وفوائد الكمال التي تعود على نظام الكل وتبقى ببقائه فان العقل على خلاف الحس إنما ينظر الكلي الباقي أولا ثم يتدرج منه الى الجزئي لا العكس

وان واضع هذا النظام العام قد خول الانسان من قوة العقل مالم يخوله غيره وجعلها محور صلاحه ونلاحه ان وجهها صوب وجهتها الحقيقية فان استعمالها لغايات طبيعية أو حسية أي ناصرة على موضوعها المودعة فيه لاتفيد سواه كمن يطالبها تنمية بدنه أو جلب ما يلائم ذائقته أو مهامته وما يشبه ذلك فقد أضاع تلك القوة

العالية الشريفة وسلخ عنها ثمرتها وانحط الى درجات الحيوانات بل النباتات التي لم تمنح تلك المنحة الجليلة واما من حفظ نفسه من السقوط وامسك عليها حق تلك الخاصة أعني العقل فهو الذي ينظر الى كلية العالم الكبير فيعلم ان نوع الانسان وسائر الانواع من لوازم كماله أو متماته فيتوجه نحو حفظ ذلك الكمال ويوقن ان نوع الانسان لا يحفظ بقاؤه في عالم الوجود الا بحفظ أشخاصه على التعاقب كما نبأنا اللطيف الخبير بما أودعنا من القوى المولدة والمصورة ويتحقق ان حفظ أشخاصه وافراده انما يكون بالاجتماع والالتئام لما لكل فرد من كثرة الحاجات التي يضيق نطاق وسعه عن ان يأتي عليها في الازمنة المتطاولة مع اضطراره الى جميعها في الآن الواحد كما تراه في مواد الأغذية التي لا تحصل الا بزراعة وحصاد ودرس ثم طحن ثم عججن وخبز وطبخ وهلم جرا وجميعها أيضا يتوقف على صناعات كثيرة من حدادة ونجارة ولوازم ونحوها الا كنتساء من العرى وضر وريات المدافعة والمكافحة مع ضواري الحيوانات كل ذلك لا يكون الا بأعمال نستفرغ أجل الشخص الواحد في تعلمها فضلا عن تحصيل غايته منها فكيف به ان يستقل وهو محتاج الى ثمرات جميعها يوما بيوم بل ساعة بساعة فلا بد من التعاون في الاعمال فيعتاض كل عن ثمن عمله بشرة عمل الآخر فيكون المجموع الإنساني كبدن ذي أعضاء ويعمل كل عضو منه للبدن لتكون عاقبته لنفسه اذ لو طلب الاختصاص - مع انه لا بقاء له الا في ضمن المجموع - فقد طلب فقد نفسه من حيث لا يشعر فاذا علم جميع ذلك وضع نفسه عضوا حقيقيا وركنا ثابتا يقوم بأداء عمل يعود على كلية الافراد أولا من طريق كايتهم و يعود الى شخصيته ثانيا و يبدأ هذا العمل فيه هو الذي نسميه بالصناعة فمن لم يكن ذا عمل حقيقي يفيد المجتمع الإنساني ويعين على انتظام الهيئة الكلية فهو كالعضو الأشل لا فائدة منه على البدن الا تكلف حمل ثقله مع عدم التألم من ازالته فالاولى ابانته وقطعه بل ان كان لا يعمل ويسعى الى بقية الافراد في عدم العمل كالا باحية الذين يعتقدون أنه لا ملكية لأحد في مال ولا عرض حيثما جاءوا أكلوا أو شبقوا واقعوا و يبتون أفكارهم بين افراد النوع فيقتدوا بأعمالهم ويسبروا بمثل سبرهم فيتركون الأعمال اتمكالا على ما بيد الغير

حيث أنه مباح لهم فإن تغلبت أفكارهم بطلت الصنائع وذهب ما بيد الغير وما بأيديهم فيحتاجون إلى الضروري من الاقوات وغيرها ولا يجردون فيهلكون فأولئك كالأمرض السارية مثل الجذام والزهري لا بد من قطع العضو الموف « المصاب » بها وإلقائه في النار لئلا يتعدى ضرر مرضه إلى سائر البدن ومن هذا القبيل الفساق والفجار وان لم يكونوا إباحين فإن أعمالهم قد تكون قدوة لغيرهم فيأتي من ضررهم ما أتى من أولئك فيتبغى ان يعاقبوا ويؤدبوا ويحال بينهم وبين أعمالهم هذه بكل ما يمكن وان كان بالتعذيب حتى يستقيموا أولاً يقيموا

ومن الناس من مثله مثل الأمراض الغير السارية والاعضاء الزائدة كمن أصيبوا بالآفات المانعة لهم من تعاطي الاشغال كالكسحاء والبله والمعاتيه فلا بد ان يتحمل ثقلهم ان لم يمكن استشفائهم فراراً من ألم القلب عند اختراهم واقطاعهم لما لهم من العذر القائم اذحيث ان مدبر الكون قد حرّمهم عطاء العقل أو عطل فيهم آلات خدمته فهو غير مطالب لهم بأداء فروضه أو قضاء حقوقه الا ان الحق الأعلى قد بث في النفوس وأودع في القلوب النفرة الكلية من هؤلاء وأولئك الذين لم يقوموا بالواجبات التي تقتضيها منهم صورة الإنسانية فهم مبعوضون في النفوس مطرودون من زوايا القلوب ساقطون عن نظر الاعتبار بل هم ملعونون من أنفسهم أيضا اذ يجد كل واحد منهم من نفسه عند ما يخلو بها أنه خسيس منحط الدرجة ردي العاقبة وان كان شقاؤه يقاب عليه فيما بعد فانظر إلى حكمة ربك كيف تنبه الغافل وتؤيد العاقل ولكن أكثرهم لا يعقلون

واما ذوو البطالات ومن رفضوا الأسباب ووكوا أنفسهم إلى التوكل الكاذب اذ لم يتحققوا معنى التوكل وظنوا انه عبارة عن معارضة سنة الله التي قد خلت في عباده ودعوا ذلك تبسلا واقطاعا عن عالم الظاهر مع أخذهم لكشكول التكيف وخلعهم لجلياب التعفف فهم بمنزلة شعر الأبط لا ينشأ عن تكاتفه سوى عناء الحك واستجلاب بعض العفونات ان لم يتمهد بالتطهير ويستحب ازالتهم ونقية الهبة الاجتماعية من درنهم فإن بلغ من أمرهم ان يتخذوا ذلك أمرا يدعي إليه

وذهبوا في الناس بحولون وجوههم عن الاعمال ويقلدون أعناقهم سبج المكر والحيلة ويسر بلونهم بسر ايل التمويه والنزوير ويفرونهم بتأبط هراوة الشر واقتناء قدح الطمع يودعون نفوسهم اخلاق الشيطان من حب الرأمة الكاذبة وطلب الدنيء من الدنيا من كل وجه والحدق والحسد والعداوات وغير ذلك ويحجبون ذلك بأستار من التليس (الغيب المنتظم) ثم يوصونهم أن أخرجوا أيديكم من تحت تلك الاستار طالبين انتهاب أموال الناس والاستئثار بشمات اكتسابهم باسم انهم وانهم وانهم (كما ترى) وجب إلحاقهم بالاباحيين وتحسم على كل ذي شعور من بني النوع ان يسعى لقطع دابرهم واستئصال شأفتهم كيلا يفسدوا أفكار العامة وأعمالهم ويعود ويل ذلك كله على العامة والخاصة معا . وبالجملة حيث تبين ان لاقوام للانسان الابالصنعة فمن أخل بوظائفها أورامها بالتقد فقد عمد الى هدم بنيان الانسانية فعليها ان تطرده من أبوابها وتمحو اسمه من كتابها

ثم ان الصنعة على التعريف المتقدم تنقسم الى اقسام اما نافعة ضرورية أو غير ضرورية وإما أن تكون كثيرة النفع أو قليلة أو متممة لفعل الطبيعة أو مزينة له فالقسم الاول كالحدادة لأنها مما يحتاج اليه جميع الصناعات العملية والثاني كتقصر الثياب مثلا والثالث هو ما يكون الغاية منه نفع الانسان لا غير كالحكمة التي هي مقننة القوانين وموضحة السبل وواضحة جميع النظمات ومعينة جميع الحدود وشارحة حدود الفضائل والرذائل وبالجملة فهي قوام الكمالات العقلية والخلفية ومن هذا القسم الحكومة العادلة والرابع (أي الذي هو خير بالواسطة) كالزراعة والكتابة فإن لها غايات سوى نفس الانسان لكنها تؤول اليه والخامس (وهو الكثير النفع) كالنجارة والتجارة مثلا والسادس كصناعة الصيد وما شاكلها والسابع كعلم الطب المتمم لأفعال القوى الحيوانية المساعد لها على اتمام وظائفها والثامن كالصبغة والنقش والتلون وغير ذلك ثم ان شرف كل صناعة وكل فن بعموم موضوعه وشمول غايته وان أعمم الاقسام موضوعا هو صناعة الحكمة لما بينا من انها الباحثة عن كل ما يلزم للانسان اتخاذه في أعماله وافكاره واخلاقه فهي أشرف الصناعات والحدادة وان كانت عامة لكنها من الحكمة بمنزلة الخادم المنقاد من السيد الحاكم الأمر اه

ما كتبه في جريدة الأهرام أيام كان مجاوراً في الأزهر وهو أول كتابته المنشائية في الجرائد

تقريظ الأهرام

جاء في العدد الخامس لسنة الأولى من جريدة الأهرام الأسبوعية الصادر في ٢ أيلول (سبتمبر) سنة ١٨٧٦ الموافق ١٤ شعبان سنة ١٢٩٣ ما يأتي :

وردت إلينا هذه الرسالة من قلم العالم العلامة والاديب الفهامة الشيخ محمد عبده أحد المجاورين بالأزهر فأدرجناها بحروفها

الى حضرة الهمام الكامل سليم أفندي محرر جريدة الأهرام انه لما نظر لدى كل قاص ودان، واشتهر بين بني نوع الانسان، ان مملكة مصر كانت في سالف الزمان مملكة من أشهر الممالك، وكعبة يومها كل سالك وناسك، اذ كانت قد اقتصت بترية العلوم، وبث المعارف المتعلقة بالخصوص والعموم، وانفردت بالبراعة في الصنائع، والابتكار في أنواع البدائع، فكان أبناء العالم اذ ذاك يتدون نداها، ويستجدون جداها، يستطرون من الغيث قطراً، ويستمدون من المحيط نهراً، فكان التمدن فيها كهلاً، حين كان عند غيرها طفلاً، ولا زالت كذلك حتى زها فيها التمدن وأعجب، اذ رأى الطالبين تنسل اليه من كل حدب، وان ملوك الارض خدام عتبته، وتيجان الكيانيين تحت قبضته، فاستكبر واعتلا، ولسكوت وس الراحة اجتلا، فاقصته الى ممالك الغرب، ليدوق مرارة الشغب واللغب، ويربى بذلك ويتأدب، فيدا بتلك الممالك غريباً، ونادى معلماً وجد مجيباً، وتناوشته أيدي الجاحدين، ولفحته أقوال المنكرين، ولا زال يحتمل أنواع المتاعب، ويقاسي مستعصيات المصاعب، الى أن بلغ بها أشده، وملك رشده، وسار فيها شرقاً وغرباً، وخامر ألباب القوم جبا، فعم انتشاره، وبدت آثاره، وتلاأت أنواره، واذا نحلى بحلل الجمال، وتزوج بتاج الكمال، وقضى مدة السباحة، وباء بغابة الراحة، استدار

الزمان كهيئته، ورجع الامر الى بدايته، وقفل التمدن الى مسقط رأسه ومقر تربيته، فورد ديار مصر ورود الاهلي، وتمكن بها تمكن الاصيلي، فاستقبلته الديار بغاية المودة، وأكرمت مشواه وأعظمت أمره، واستردت ما كانت فقدت، وأدنت ما كانت انأت، وأحلته محل القرب، وأنزلته سوداء اللب، فقام يؤدي حق خدمتها، ويوفي شكر كرامتها، فنظر الى ما كان أبدأه في تلك الازمان، من شواهد البنيان التي كم بلغت الاسباب، وحيرت الالباب، وانبات بما فيها، عن براعة بانبيها، ونظقت فيها، أن آيات الكمال فيها، فلما أعجب بالمثل، حدها حادي الكمال، لأن ينسج على هذا المنوال، فانثأ لنا جريدة لاهرام، المؤسسة على أحكم قواعد الاحكام، الكافلة بارشاد المسترشدين، وتنبية الغافلين، بما فيها من المباني الرقيقة، والمعاني الدقيقة، والافكار العاليه، المؤهدة بالبراهين الشافية، القائمة بنشر العلوم، بين العموم، فيالها من جريدة أسست قواعدها في القلوب، وامتدت مبانيها لكشف الغيوب، تنادي بمقالها وحالها حي على الفلاح، وهلموا الى موارد النجاح، لانفقوا عند صورة المبنى، ولكن تجاوزوا عنه الى المعنى، تلك اهرام أشباح، وهذه غذاء أرواح، تلك ظواهر صور، وهذه دقائق عبر، تلك مساكن أموات، وهذه لسان سر السماوات، نعم أين ذلك الزمان، من هذا الآن، الذي قد سطعت فيه شمس العرفان، ونشأ فيه بنو الانسان نشأة أخرى، ارتقلب في فنون الحقائق بظنا وظهورا، فحقيق أن تكون أيامنا غير أيامهم، واهرامنا غير اهرامهم، وأبن الذي تغنيه الرياح والامطار، من الذي لا توهنه توالي المدد والاعصار، فان مقره العقول العاليات، والنفوس الزكيات، التي لا يتناولها الفناء، ولا يبتدئها العناء، فيخ يخ بمنشيتها، وطوبى لقاربيها، فمن الواجب على ذوي الالباب أن يجتنبوا اجناها، وان يستطلعوا سر معناها. فيبوءوا بأوار الحكمة، ويتقبلوا بفضل من الله ونعمه، فإن ليس شيء لدى العاقل أبهى من حقيقة يكشفها، ولا ألد من حكمة يصادفها، هذا الجواز في مزابها، بسم الله مرساها ومجراها، اه

(يقول جامع الكتاب) هذه بداية، تشير الى ماعرفنا من الغاية، فالتصور يدل على استعداد الخيال، والكلام يعرف بأزهري للعلوم العصرية ميال، ولا ينكر منه المنتهي الآن، الا تحري السجع الذي كان منتهى البراعة في ذلك الزمان،

﴿ الكتابة والقلم ﴾

وجاء في أهرام السنة الأولى أيضاً مانصه وقد نشر في عدة أعداد أولها الثامن
وردت إلينا هذه الرسالة من قلم العالم العلامة الأديب الشيخ محمد
عبده أحد المجاورين بالأزهر وموضوعها

في أن فن القلم والكتابة من اللوازم الضرورية ليس للعالم عنها
مندوحة في تعيشهم الحقيقي

ان مما انبسط به أبدي الضرورات وأنتجته مقدمات الحاجات اشاء
لسان القلم نأبأ عن المتكلم فيما يتكلم وذلك أنه لما اقتضى النظام الآهي أن
يخلق الانسان محتاجا في أن يقوّم بدنه مدة ما مع حد ما من الراحة الى أن يتخذ ما
خلق الله في الارض مالم يكن حاصلًا وان يكون منه مالم يكن كائنا بحسب
الحلقة الاصلية ركب فيهم القوة النطقية واللاطفة الفكرية التي بها يكون ترتيب
ما يحتاجون الى انخاذه من الطعام والمشرب والملبس والمسكن فقادتهم الفكرة الى
اتخاذ الصنائع وآلاتها على حسب استدعاء الحاجات ومقتضياتها واضطرم ذلك
الى الاجتماع بتفصيل لسنا الآن بصدده وانه وان صح أن يقوم كل شخص بعمل
من الاعمال والبراعة فيه بالآلات البدنية فليس في قوة كل أحد أن يكون مخترعا
مبتكرا لما يحتاج اليه أرباب الاعمال في أعمالهم من اللوازم الضرورية أو الادوات
التسيلية أو لما به يكون صلاح ذات بينهم في المعاملات وفصل الامر بينهم عند
الخصومات على ما يقتضيه انتظامه الاجتماعي الانساني بتفصيل لسنا الآن بصدده
أيضا بل ذلك انما يقوم به أرباب الفكرة الوقادة والفتنة النفاذة

ومن البين أن مجرد صفاء الجوهر لا يكفي في ترتب الأثر عليه بل لا بد في ذلك من
أعماله وترتيبه وأعداده لذلك الامر العظيم وتخليته عن جميع الاشغال سواه فان القوة
الواحدة لا تكفي على البراعة لأمر متعددة فاحتيج اذن الى اتخاذ أرباب النعاليم
ليقوموا لهم بالعلم والارشاد الى طريق العمل ويقوم أرباب الاعمال باخراج ذلك من

القوة الى الفعل فقام كلُّ بواجبه واعتاض كل من صاحبه وكان نسبة أرباب
 التعاليم الى أولياء الاعمال نسبة الاب الشفيق والابن الرقيق ليس لهم فكر لافي
 رقيبهم ولا نظر لافيا يكون سببا لاسعادهم وأساسا لراحتهم واذا رأوا ذلك منهم
 يحققوا ما لهم من الفضيلة وانتضوا للقيام بشكرهم بكل حيلة فاشتعلت اذ ذلك
 أفكارهم وارتفعت أنظارهم واتسعت دائرة المعرفة وغدت آيات الحقائق منكشفة
 ففسر عليهم حفظ ما أسسوه وعظم عليهم ان يودوه كما يودوه لكثرة المقدمات
 وتشتت الجزئيات وصعوبة ما يحتاج اليه القواعد مما لا يقوم بحفظ الكثير فضلا
 عن الواحد فاحتاجوا أيضا الى اتخاذ ما به تحفظ أفكارهم بحيث يرجعون اليه عند
 النسيان ويذكروهم لدى البيان فطفقوا يتخذون صوراً من الاحجار وأخشاب
 الاشجار تحسكي بالمناسبة عما يريدون وتنطبق على ما يقولون لتكون اشارة
 للعارفين وحجابا على أعين الجاهلين وكان ذلك كافياً لنقطة من الزمان

ثم لما شيدت مباني العرفان وانتشرت المعارف بين بني الانسان وغصت
 الارض بالعلوم وسيرت فيها سير النجوم صعب عليهم الحفظ بالتصوير والتبس
 الامر على السميع البصير فألجئوا بالاضطرار الى حفظ ذلك بالارقام العلمية الحاكية
 عن الحروف اللفظية القابلة في الرسم للتأليفات الغير المنتهية بدون أدنى انتباس
 بين أشكالها كما لا يحصل الا التباس بين الالفاظ عند تأديتها فكان القلم لساننا
 آخر للمتكلم الآن مانطق به اللسان الحقيقي عرض سيال وما نطق به القلم جوهر
 لا يزال فلصاحبه عند الذهول أن يرجع اليه ولغيره من أهل لسانه أن يعول عليه
 فسهل عليهم بذلك حفظ آثارهم ووثب أفكارهم وفرغوا من شغل عظيم وروضع
 عنهم وزر جسيم كان يعوقهم عن كثير من التعاليم وكان من ذلك أن حفظ
 قول القائلين من جيل الى جيل على نحو ما نال من اجمال وتفصيل فكان بذلك
 أفكار الازمنة المتتالية مجتمعة في نقطة واحدة وكذلك أفكار أهل زمان واحد على
 ما فيها من الشوارد بدون اشتباه في ذلك فحصل لذلك التعاون في الافكار وابتعاد
 مرجح الاستبصار فان أفكاراً كثيرة تقدمت أو تأخرت بمنزلة لجنة قد انعقدت
 للارتقاء في حقيقة أمر خفيت والناظر الناقد بمنزلة رئيس الجمعية يرجح بين الاقوال

ويري بنور بصيرته ما إليه أمر كل آل

فكم من وهم فاسد عنه اندفع وكم من محال جاز وجائز امتنع وكم من نور له
بين تلك الآراء ابع فكان له مكنة أن يمشي في ضوء مصباحه وأن يضرب
بسلاحه لطلب صلاحه فوضع القواعد وأقام الشواهد ورمى بالقذى في عين
الجاحد فارتقت العلوم الى ذراها وارتبطت أولاهها بأخراها وركض العالم في
ضوءها واستتقوا من هائل نوءها وعاد مثل الأول والآخر في هذا العمل الفاخر
مثل جماعة تألبوا على اقامة بيت بالاشتراك وكلفوا كلا على حسب ماله من
المسكنة والادراك أن يأتي بماله بال في اقامته أو دخل في استدامته أو ما يكون
موجبا لحسن الترتيب أو اتقان التركيب فمنهم من ميز زواياه ومنهم من فصل
جواهره عن خباياه ومنهم من أسس قواعد ومنهم من أقام شواهد وهكذا
كل يسمى تشييده واقامة حدوده وإحكام قوائمه واطهار علمه الى أن يتم
بيت المعارف الذي هو أمان لكل خائف وهو حرم الله الذي من دخله كان
آمنا وعرشه الذي من استوى عليه كان بالعزة قننا وكل ذلك بسر سير القلم
الذي به علم الانسان ما لم يعلم وجمع الكل في صعيد واحد ونادى قلباه كل
قاصد فهذا ايجاز في شأنه ويسير من بيانه في تسير المعلوم وارتقاؤها وتسهيل
اقتباسها وإبدائها

ثم لما عظم أمر المعاملات التجأوا الى التعامل بالنسيئة واحتاجوا الى حفظ وجه
التعامل خوفا من النفوس الخريثة وكثرت وجوه الاعتداء من الاحزاب
والشعوب والتجأوا الى الاصلاح كيلا تبيد نفوس القلوب وكان ذلك لا يستقيم
الا بحفظ معاهدات تعقد بينهم لمنع الاقتراحات ولا يتم ذلك الا بأن يحفظ ما وقع
اتفاق عليه على الوجه المرضي بينهم ليتمكن الرجوع عند الاحتياج اليه فلم يوجد
لذلك مستودع أمين ولا حصن مكين لا يبدع هذه المعاني الا ما يشيده القلم
من المباني فكان اتم هو الشاهد المدل والحكم الذي عليه المعول ولولاه لم
تحفظ حدود ولم يوثق بعهود ولم ينل الحق حقه بل يتسع المجال للمبطل
وتبعد الشقة

ولما انتشر نوع الانسان في اقطار الارض وبعد ما بينهم في الطول والعرض مع ما بينهم من المعاملات ومواثيق المعاقبات احتاجوا الى التخاطب في شؤونهم مع تنائي امكنتهم وتباعد اوطانهم فكان لسان المرسل اذ ذلك لسان البريد وما يدريك هل حفظ ما يبدي المرسل وما يعيد وان حفظ هل يقدر على تأدية ما يريد بدون أن ينقص أو يزيد أو يبعد القريب أو يقرب البعيد فكم من رسول أعقبه سيف مسلول أو عنق مغلول أو حرب تخمد الانفاس وتعمر الارماس ومع ذلك كان خلاف المرام ورمية من غير رام ولم يكن في كلام المرسل ما يثقله بهذه الاوزار ولا من نفسه ما يشعل شرر هذه النار فوقعت الندامة وضرب الويل خيامه فالتجأوا الى استعمال رقم القلم ووكوا الامر اليه فيما به يتكلم فكان مبلغا أوعى من سامع وهاجعا أسرى من لاعم وقنوعا أغلب من طامع وصامتة أنطق من ممانع فأدى القول كما سمع وحكى الصنيع كما صنع وأتى على المراد من فاسد أو سداد بل ربما كان أوعى للمقالة من القائل وأحفظ للأمانة من المالك الحامل فهو حينئذ حقيقة اللسان وغيره مجاز عنه في البيان فكم من معاتب تنفر النفوس من عتابه ان هو اعتب في خطابه ولكن ان رقم أتى بالبريق ونادى نداء الشفيق فاستبدل الشقيق بالمشاق ورفع العناو وضع الوفاق فهو ان تكلم كلم وان رقم شفى الى لم وكم من مؤدب فيه لا يستطيع تحريك فيه بما يخفيه لا يفيد المستفيد ولا يوافي مرام المستعيد ولكنه ان أجرى القلم نطق بالحكم وحج وأفحم وحل وابرم وأسس وأحكم فهو وان لم ينطق بلسانه قد نطق يراعه وبنائه فلم تعده فضيلة البيان وان عضلته عصبه اللسان وكم من خطيب نجيب ورفيق حسيب ان تكلم اقلق وأطبق وأغلق وان كتب أعجب ورغب وأرهب وقرب وأبعد وجمع وافرد وأوقد نيران الانفة وعقد روابط الالفه وأتى برقيق التشبيه ودقيق التنبية

ومن أجل آثار القلم اذ يعد من أعظم النعم ومن اللوازم ألزم الجرائد والجرنالات التي هي أمل عظيم لترقي الممال وانتظام أمور الدول اما الاول فلائها توقف الممال على خصائصها الموجبة لفوائدها وتوضح لهم أسباب الترقى وما به

يكون التوقي وتنشر بينهم أخبار غيرهم من سلفهم وجيرانهم وما به كانت عزة ملة
 وذلة أخرى وأي الامور لهم بالتمسك أخرى وتشوه لهم وجه القبيح ان
 ارتكبه وعظم لهم أمر الجليل ان تركوه فتشرح مفسد العادات التي هم عليها
 كالجهالة والتمسك بالخرافات وفاسد الاعتقادات وجمع كلمة النفاق وشق عصي
 الوفاق وغير ذلك من قبائح الافعال ورذائل الاخلاق وتقدم لديهم مصالح الفضائل
 كاتساع دائرة الافكار والتنقيب على ما في العالم من دقائق الاسرار والحث على
 الاشتغال بالصنائع والاهتمام في ترقى البدائع وطلب العيشة الراضية مع اليد
 العليا والهمة العالية والنظر في آراء الاوائل نظر الناقد والتمسك بما قطع به
 البرهان في باب العقائد كإلا يفوت كثير من الكمالات ويفقد عظيم من اللذات
 وتبث بينهم أفكاراً تكون سبباً لتنوير البصيرة وتطهير السريرة وتحرك فيهم
 حمية الغيرة فينتبهون بذلك من غفلاتهم ويستيقظون من سناهم ويلتفتون الى
 مصالحهم ويتبعون عن قبائحهم فيطلبون الخير ويتجنبون الضير ويرتفع من
 بينهم الجور ويوضع العدل وتطلع فيهم شمس المعارف وينسلخ عنهم ليل الجهل
 وينالون من الراحة والرفاهية ما لا يحصر ويستولون من عظام الامور على ما لا
 يصح ان يذكر وان أدركه أرباب النظر

وأما الثاني فلأنها لسان سر السياسة فتنبى عن نتائجها في الآن بل في الآت
 وتوازن بين الدول وقواها وتحقق النسب بين أضعفها وأقواها وتبين ما في نظامهم
 من الاختلاف وما في أفعالهم من الاعتلال ونتائج ما أبدوه من أسباب النجاح
 ومواد الإصلاح وحفظ الارواح وارتياح الأشباح وما اثنت عليه صدور
 السلاطين من عدل يزين وظلم يشين وترشدتهم الى ما يجب أن يسلك فيما استولوا
 عليه وما يؤول أمرهم ان سلكو غيره اليه وتعري وتحذر وتبشر وتنذر فاذا
 ذاك ينتبه الغافلون ويحترس المستيقظون ويقوم الضعف المتلافي ويطلبون
 اللحاق بالماضق والتجاني ويهرع المحتلون لسد خلهم وأبراء عليهم وتخفيف أثقالهم
 ويرتدع الظالمون ويغيبط المقسطون وذلك كله مع ثنائي الاقطار وتباعد

الاسفار فالقول الواحد يبلغ الجميع في قليل زمان وكانما القائل والسامع في مكان فيعتضد البعض بالبعض في الخروج من الذلة وشفاء الغلة وانما مثل صاحب الجرنال مثل خطيب قام على منبر العالم وأمسك بيده صور اسرافيل ونادى بالحقير والجميل فنفخة تحيي ونفخة تميت وعظة تصيب وأخرى تفتت فمن الواجب على كل ذي دراية ان يكون له بمطالعة هذه الصحائف غاية ليكون على بصيرة في أمره ومصيباً في سيره نائلاً لخيره حذراً من شره . متحرراً نحو المعالي طالباً ما تهتز اليه العوالي ويقف على خفيات الحقائق ورفائق الدقائق ويخرج الى فضاء المعرفة ويطلق من غل الجهالة والسفه ان هذا الايامداد مداد القلم وجريانها في ميدان تربية الامم والافان اللغيات من بلاد تبت وأين فارس من بلاد هند وفارس اذ يقوم عليهم رقيباً وفيهم خطيباً يعظهم بالموعظة الحسنة ويحذرهم غرّة السنة ولقد ينبتنا ما انجز اليه علم أمر العالم في سيره وليس له مكنة ان يعدل عنه الى غيره بان صار القلم محتاجاً اليه في ادنى المهمات وأهون المهمات وخصما في جميع المنازعات وحكما لدى المحاكمات حتى لم يبق للسان الا محاورات قايلة وموارد أخطارها غير جليته فاقراً وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم

المدير الانساني والمدير العقلي الروحاني

وجاء في العدد ١١ منها الصادر في ٣٠ ديسمبر سنة ١٨٧٦ - ١٤ ذي

الحج سنة ١٢٩٣ ما يأتي وتتمته في ع ٢٣

﴿ وردت لنا هذه الرسالة من قلم جناب العالم العلامة ﴾

﴿ الشيخ محمد عبده أحد أهل العلم بالجامع الأزهر ﴾

ان النظر في الآثار الانسانية على اختلافها بحسب الخصائص الشخصية واثلافها في الغايات النوعية ينبئنا بان الحقيقة الانسانية تشمل على مدرتين عظيمين أحدهما المدير الحيواني مع ما يستتبعه من جميع الاحساسات الظاهرة

والباطية والآخر هو المدير العقلي الروحاني الكلبي ولكل واحد منهما اذا لوحظ وحده بقطع النظر عن صاحبه غاية يطلبها وحدود في سيره لا يجاوزها فالمدير الحيواني ليس له من غاية سوى حفظ تركيب الحيوان الى حد معلوم والى زمن مخصوص فهو منوط باللوازم الكافلة لهذا الغرض من جلب ما تقوم به البنية ودفع ما فيه مضرة أو لها غنية على قدر الامكان حتى يتقوم هذا المزاج سالما مدة ما من الزمان وذلك أيضاً هو حال سائر الحيوانات العجم يرشدك الى ذلك التأمل في آلتها البدنية وآثارها الحياتية فان حيوانا من الحيوانات لم يكن لتوجه ارادته الى سوى ما يقوم بدنه أو دفع ما يعترى عليه مما يوهنه فان رجليه لم تكن تسعى الا لطلب المرعى أو للهرب من قاصد إيلا م، أو للاستقاء من حر أوام أو ليقوع سفادا ليتخذ له من نوعه أو لادا بل لاشعوره بهذا الاخير وانما هو ليدفع عن بدنه ما كان يناله بالتأخير ولا سكنت الا للاستراحة من تعب أو ليأوي حيث أعياه الطلب ولا تحرك منه خيال لغير ما ذكرنا على أي حال فهذا مطمح نظره وقصارى أمره في سيره وليس له في هذا السير سوى خدمة الطبيعة ومساعدتها باتمام تركيب العالم العنصري واستبقاء أنواعه واستكمال آثاره البسيطة فقد علمت ان الانسان في هذا مشارك لغيره من الحيوانات وليس يمتاز فيه عنها بشيء من جهة من الجهات

واما المدير العقلي فهو من حيث هو ليس له من غاية سوى كشف المعنى، وان بعد المرى على وجهه لا يلحقه فيه الريب ولا بتطرق اليه أدنى عيب والتعلي بالمسكبات الفاضلة وانتزعه عن الصفات الغير الكاملة وذلك بان يأخذ بالقسط ويقف على الحد الاوسط فيما يجب ان يقع من تصرفاته مع اغيازه أو في حدوده وأن يفيض على الغير مما استفاد أو أن يضع النجاح ويرفع الفساد ويقدر قواعد الوفاق ويقنع أساس التفرق والشقاق، وكل ذلك على مقدار قوته، واما ملكة من مكنته فهو السابح في بيده الوجود ليميز الواقع من المقنود ويقف على أصول الكون وما نشأ عنها لونا بعد لون ويكشف عن وجوه الاسرار بواقع الآثار فلا يدع مدينة الا قرع بابها وطعم طعمها واستقى شرابها ولا حسناء الا كشف نقابها

ورشف رضابها ولا عميقا لا وقف على قراره ولا مرتفعاً الا أنى عليه بمعياره وعلى هذا المنوال حتى يصبح وقد استغنى عن العالم بصدرة واكتفى عن مخبريه بمخبره وأضحى خلقاً جديداً وعلى كل شيء بذاته شهيدا وانطوت في وحدته الكائنات واتحدت في ذاته المختلفات

وليس على الله بمستنكر ان يجمع العالم في واحد
حينئذ يضع موازينه ليحكم قوانينه فقد عرف النافق من الكاسد، وميز
الصحيح من الفاسد فيأخذ بما استطاب ويدع ما من استراب فلا بدع شاردة
من الفضائل الاقتصها ولا ناشزا من المكارم الاقص قصصها ولا دفيناً من
الحاسن الا أبرزه ولا خليطاً الا ما طعنه ما يشوبه وافزره ولا نقيصة الا ولاها النفار
وولاها الادبار فلا يدنيه ميله من السقاسف ولا يقصيه عزمه عن المعالي وان
دونها القواصف فلا يكف ثقل العار ولا يستنكف الأخذ بالثار واذا دعت اليه
داعية الحق وان جل الخطب واتسع الخرق وحينئذ يستمبح مسامع امثاله ليعدهم
من نواله ويفرس فيهم أشجار النجاح ليجتثوا منها ثمار الفلاح ويجنبهم رية
الاختلال، ويضع لهم ما يعبرون عليه في لجج الاشكال وهذه هي الآثار التي
قد امتاز بها الانسان عن سائر الحيوانات فلا ريب كان المدير العقلي هو
الانسان بالحقيقة

هذا مالكل من المديرين على حدته الا ان سير الوجود قد اقتضى ان يكون
مجموعهما طبيعة واحدة وهي الحقيقة الانسانية وان يقع الوسط بينهما على وجه محكم،
حتى ان الاتحاد بينهما بما يتوهم وان يكون كل منهما محتاجا الى الآخر في ابداء
عماله، وبلوغ كماله وهاك الشاهد فانا قد بينا ان المقصد الاعلى للعقل انما هو
استكشاف اسرار الوجود وابرز ما استتر في عالم الشهود وذلك مقام لا يعلوه كعبه،
ولا يأتي عليه عناؤه وتعبه عند استبداده بذاته وصرف الوجهة عن آلاته بل الطريقة
المثلى في ذلك والمسلك الوحيد من بين المسالك هو استعمال هذه الآلات الجسدانية،
ليتوصل منها الى ما يتطلبه من الدقائق الخفية فانها تقدم اليه من صور الكائنات ما لم
يكن يحضره ولم يكن يبلغه خبره فاننا لو فرضنا ان العقل قد فطر على أحسن الفطر

ونشأ على غاية من صفاء الجوهر وليكنه لم يستعمل حس البصر فهل كان يتمكن من استقبال وفد الضياء أو استطلاع سكان الفضاء حتى يحدد دائرة أورانوس ويهاجم العقرب بالقوس ويجمع بين لاسد والثور على الجوارب لاتعد ولا جور ويعين ما لبدرنا من المازل وأن حوت ليالي وصله وهجره نازل ويعين سير الكواكب ويستكشف ما نال المشتري من العجائب، وينبئ عن ذي الحلقين ويحقق ما بين السماكين، ويقف على الشمس من التدبير في هذا العالم الكبير وكيف ان كل هذه العوالم اليها فقير ومن مركزها الحقيقي يستمد التيسير في المسير ويقدر ما بينها من الابداد وما يشتمله كل كوكب من الامتداد ومن أين كانت تأتيه هذه الصور، حتى تحدته بما لديها من العبر وهل كان يقف على حقيقة الألوان وما للضياء من الاختراق والسرمان وكيفية وصوله من النيرات الى الارض وانتشاره في الطول والعرض وهل كان يدرك سير الأنواء وحوادث الهواء من برق يخطف الابصار ومدارات البان على بنات القفار حتى يقف بذلك على اسرار كبيرة، ويقتني فوائد غزيرة وهل كان يحضره تراكيب الحيوانات على اختلافها وتناسب اعضائها واثلافاها وارتباط الاعصاب والعضلات وجذب طلعات الشرايين مادة الغذاء الى جميع الجهات وغير ذلك مما تحار فيه الافكار ونعشى فيه الابصار حتى يقف على شيء من سر الحلقة وينال من الواقع حقه وهل كان يستطيع إحكام آلات التحليل حتى يستيقن الاصيل في عالم التركيب من النزيل إلا ان فضائل البصر لدى العقل لاتنكر وفوائده المجلوبة منه اليه لا تنحصر،

ولو انه لم يصرف وجهه الالتفات الى ما يأتي بالسمع من الاصوات لكان أول ما يفقده من الفضائل الفضيلة التي ليس لها من معادل وهي تقطيع الصوت بالحروف على وجه معروف لتكون علامة حاكية عما تكنه الصدور وما هو وراء حجب الظواهر مستور فيقف كل من نبي النوع على أفكار الآخر التي قد كابد عليها وثار فكون ميدانا نجول فيه فكرته ومحجة تمتطيا حاجته، فتكثر بذلك المعلوم ويتسع مجال الفهوم فان الامر على ما بيناه في مقالة قلمية ابديناها سابقاً وهو ان مثل أفكار كثيرة تقدمت أو تأخرت مثل لجنة قد انعقدت للارتقاء في حقيقة

أمر خفيت والمستبصر الناقد كرتيس لتلك الجمعية يرجح بين الاقوال ويحقق بعين بصيرته ما اليه أمر كل آل فتدفع عنه وساوسه وتتجلى اليه عرائسه ويشرق له في نفسه شمس من البرهان ويأخذ بالالباب من آياته سحر من البيان فكان له ممكنة ان يسير في ضوء مصباحه وان يضرب بسلاحه لطالب صلاحه فوضع الشواهد واقام القواعد ورحى بالقذى من عين الجاحد وفوائد السمع سوى هذه كثيرة وكذلك حاسة الشم قد قدمت اليه أنواع المشهومات وحاسة الذوق أنواع المطعمومات وحاسة اللمس أرشدته الى مبدأ الصلاة واللين فأرشدته كل ذلك للبحث في اسرار هذه الاختلافات وأسبابها وعللها الفعالة وعلاقتها بها وذلك باب من العلم العظيم وخطبه جسيم ولو ان المدرك العقلي فينا وقف على نقطة واحدة واتخذ له متبوعاً على حدة هلاكاً كان يفوته كثير من المعلومات ويعوزه الاطلاع على جم من الكائنات بلى فلا بد من الانتقال من أين الى أين والابتنال في البون والبين والاستبصار فيما يراه كيلا يعود بخفي حزين فتحتم عليه لنيل كمال الارب، تحريك كثير من الآلات البدنية نحو الطلب، والا نليس يدرك الانزرا ولا يحمل إلاوزرا شمر

ان العلي حدثني وهي صادقة فيما تحدث ان العزفي النقل
لو كان في شرف المأوى بلوغ منى لم تبرح الشمس يوماً دائرة الحمل
فقد تبورت من هذا ان ليس للعقل عن شيء من هذه الآلات غنى، ولا لاشجاره
دون سقيها جنى .

هذا هو الاضطراب العقلي الى الحيوان في كماله الادراكية وجدريان
يكون كذلك في كلالته العملية كالاقدام والاحجام لربطوثام أو تقرير نظام،
أو دفع عار أو أنيس نفار أو وضع عدالة أو اتقاذ من ويل جمالة أو إغاثة
ملهوف أو مواصلة مشغوف وغير ذلك مما يجب ان يكون العالم عليه ولاراحة للكون
الإبأن يصار اليه وكذلك الحيواني في الانسان مضطر الى العقلي في بقائه مدة مامن
الزمان فان الانسان لما شففته عرائس الاكون حبا ودعته لوصولها لم قربا تنكب
عن مقامه وأمرع في إقدامه فبرزاليها قبل ان تنسج له أيدي القدر لباسا يقيه،

أو تصنع له نملا يحتديه بها ترفده من حدة الناب وقوة الخلاب مابه يتخلص من
دهاجمه وينتصف من مقاسمه ولم تهبه من القوة الطبيعية ما يتعيش معه بمطلق النباتية،
فكان بادي البشرية حافي القدم مجردا عن آلات الذب والدفاع معرضا لصنع
البلايا وهدف السهام المنايا يوهنه الحر ويودي به القر ويلجئه الاضطراب لتناول
ثمار الاشجار فهو عاجز فقير قد أعوزته القدرة والتقدير وليس في حسه الحيواني،
ما يفي بتعيشه الآتي فاذن عرض على العقل حاله وقدم اليه ماناله فلم يجد العقل
بدا من ان يقيم هذا العرش على كواهل الصنائع يستديم حفظه بأنواع البدائع
فأقبل نحو أمهات الاسباب يستدرها ألبان الارزاق فسكبت اليها ضروعها من
جميع الآفاق ومحضها بأيدي الآلات فاستخلص منها ما للبدن من الغايات فالنباتات
أضحت حاملة لمادة غذائه وملتحفة بما يكتنه من درعه ودوائه والمعادن
والاشجار والاحجار استقبلته بوجه لم تنله نائلة النفار قائلة هانحن لك فاتخذ
ما تريد من جلب ملائم أو دفع بأس شديد فاستخدم البعض وانبسط سلطانه في
الطول والعرض فاتخذ منها آلات لجميع الاعمال جاعلا زائد الاحتياج قائدا
له الى جميع الآمال فلبس لباس العزة بعد ما كادت مشاركانه في الوجود ان
تستغزه واسنوى على عرش الراحة وأطلق من قيد العناء سراحه كل ذلك
بتدبير العقل الرشيد وتصرفه الوحيد فقد كان البدن محتاجا في قيامه الي
ما يقتضيه العقل من أحكامه فحينئذ كان كل من الحيواني والعقلي مفتقرا في نيل
غايته الى الآخر ومن ثم يرتبك الناظر في حالهما

فمن جهة يرى ان العقل قد أفرغ جهده وبذل غاية ما عنده في استيفاء
لوازم البدن واقتناء لذائذه مظهر منها وما بطن ويرتكب في ذلك المصاعب ويحتمل
أنواع المتاعب ويرتب مقدمات الخيل للوصول الى ما قل منها وجل فيظن
ان ليس وراء عبارات قرية وليس سوى هذه اللذائذ من بغية ويذهب الي
ان الانسان يعيش لان يأكل ويشرب ويلهو ويلعب وهذا نظر أدنى

ومن جهة يرى ان كثيرا ممن لا يحصى عددهم ولا تحصر افرادهم يتجرعون
كووس الشدائد وبتكافون مخالفة العوائد تتجافى جنوبهم عن المضاجع

وان لذالعيش وعزالمضاجع يكتحلون السهاد ويتمنطقون بطي الابعاد ويكتسبون ثياب النحول ويعترضون حد السيف المسلول يجوبون القفار راكبين متون الاسفار يتوسدون مالا يتوسد وبأ كاون ويشربون ما يزهده وذلك كله ليستكشف الواحد منهم ارتفاع جبل من الجبال أو وليستين أن سلسلة جبال قد أخذت في امتدادها كم من الاميال أو ليعلم ان مقاطعة على كم تحتموي من افراد الانسان أو انهم يتدينون بأي دين من الاديان فهو لا قد هجروا أوطانهم واتعبوا أبدانهم لتحقيق أمر جزئي خطرته في ذاته يسير وان كان ما يترتب عليه من الآثار في جملة العالم كثير ويبصر ان كثيراً من الناس قد امتلك خزائن من الاموال وتحصن بقلاع من فرسان الرجال بحيث يكون له مكنة من الراحة النامة البدنية واقتناء جميع اللذائذ الحيوانية ومع ذلك ينتحل نحلة الفكرة وينتفح لحيه نفسه كرة بعد كرة يتمثل اليه الحور والولدان فيفض عنهم ساحبا ذيل النسيان وربما غفل الزمن الطويل عن غذائه الذي به دوام قوته واستحكام بنائه وانكب على النظر فيما بين أوراق الدفاتر ليقف على افكار الاوائل والاخر وبضع قسط الميزان بين الآرا كما تمايحاكم بين الاسكندرودارا حتى اذا أخذته الحيرة يرى ولها حيرانا وثملا سكرانا قدا كتمنى بسلاف الشراب واستغنى بمحادثة العقول عن مسامرة الاحباب وبقرع أقداح الكلام من قرع جامات المدام واذا قذفت به أمواج بحر الوله الى ساحل المعرفة وانقشعت عنه ظلمات الاوهام وأسفر له صبح الحق انتبه الى رمقه واطفاً حرقه وحسبك ماروره عن نيوتن الفيلسوف المشهور ذلك حيث استغرقته الفكرة مع ان الجوع كان قد بلغ معه قدره طلب الطعام فلم يجد فأمر ان يصنع له البيض فانه أسرع الى النضج من غيره فآتي له بقدر فيه ماء وأوقدوا أسفله النار وآتي له بالبيض ثم قالت الخادمة له اذا غلا القدر ذألق البيض فيه فأخذ بيضة ينتظر بها غليان القدر وكانت الساعة بيده ليعلم مقدار الزمن الباقي لدرسه فلما غلا القدر ألقى الساعة في القدر ظاناً انها البيضة ثم أخذ ينتظر الى البيضة ليعلم مقدار الزمن من حركة زلالها ويكتشف الواقع من صفاتها فأنت الخادمة وهي تظن ان الفيلسوف قد قضى عمله وبلغ من الغذاء

أمله فوجدت الساعة في القدر دائرة بين الهبوط والصعود والركوع والسجود كسكران أطربته ألحان القانون والعود أو ناسك حركته أهوال ذلك اليوم المشهود وأحوال غيره من أمثاله مشهورة وفي الكتب مسطورة وبالجملة فان كون البحث في دقائق العلوم وكشف معميات الامور مما يشغل الانسان عن نفسه فضلاً عن حسه أمر محقق قد قر في نفوس العموم حتى لا يصح ان ينكر اذا لم يجده كل شخص من نفسه

ويرى ويسمع ان من الناس من يقوم بنشر فضيلة من الفضائل أو تبيان حق في مسألة من المسائل ينتضل سيف لسانه ويستميل عقول الغافلين بسحريانه فيتعوذون من سحره بتأم الانصراف ويفمدون غضب لسانه في اغماد الاجحاف قائلين (شعر)

من ذا الذي من غينا يخرجنا نحو العلى والحق من برشدنا

وبجرعونه في ذلك كؤوس الإحزن ويطلبون الراحة من عنائه بالإجلاء على الوطن وهو مع ذلك لا ينثني عنانه ولا يسكن في طلب اسعادهم هيجانه وليس يهيمه في ذلك قرع الصفاح والسنان ولا استفزازه من مكان الى مكان ولكن أن يقبل المستعدون سجال فيضه وان يرى ازهار غرسه في صالح أرضه ومن أولئك رجال لا يحصى عددهم ولم ينقطع الى الآن مددهم ويرى ويعلم ان كثيرا من الناس يريق دم جميع اللذائد دون حماية لائذ ولا يهتم ثقل العار وان دونه جبال النار وحسبك ما تراه من لاعبي نحو الشطرنج والترد اذ يصرف أحدهم فكرته ويبدل همته في ان يحوز قصب السبق في ميدان الغلبة بحيث لو أتى اليه محبوب كان دائم الماطلة وقد دعت داعية الرأفة للواصله لا يلتفت اليه ولا يعطف ميله عليه وكل ذلك حذرا من أن يلحقه عار المغلوبية مع أنها غلبة وهمية لا تكثرث بها النفوس الاية فضلا عن الدنية فما ظنك بعار يلحق صاحبه الشناعة ويذهب بيبانه ويكشف قناعه خصوصا أن أودع بطون الدفاتر ليكون عبرة من الاول للآخر فهناك يخلع لباس حب الحياة عن نفسه ويضع خوذة شرف الانسانية على رأسه حتى يتخلص

لحقه أو يلحق بمن سبقه وهو في ذلك يتلذذ بطعنات السنان كأنها غمزات حور
وغلمان ومن هؤلاء كثيرون وأنتم بهم عالمون فمن هذه الجهة يظن بل يوقن
أن ليس المقصد الاعلى والغاية القصوى من هذه النشأة الانسانية سوى التحلي
بهذه الفضائل المعنوية واقتناء تلك الذائد الروحانية ولا محالة يذهب الى ان
الانسان يأكل لان يعيش ويعيش لان يرى ويرى لان يعقل ويعقل لان
يكل وهذا هو النظر الادق والقول الاحق

فان قال قائل ان جميع ما ذكرته ثابت لا ينكر ولكن ان جميع ما يرتكبه
أولئك الذين عدتهم من ترك الذائد البدنية وميلهم نحو ما زعمت من الخصائص
العقلية ليس لاستكمال الذاة الثانية لذاتها بل لتكمل لهم الاولى بجميع جهاتها فان
أرباب العلوم قد علموا ان لا تنال الرفاهية والراحة ولا يستوفى جميع ما يتقوم به
البدن سالما عن جميع الافات الا بالعلوم والمعارف وكثرة التجارب فيشقون في
تحصيلها ليسعدوا بنيل عاقبة أمرها وان الذين قد استنبوا راحتهم في نشر
أفكارهم وبث فضائلهم لم يكن داعيتهم الى ذلك سوى حب الرياسة ليستعبدوا
غيرهم ويتخلصوا مما كانوا ينالونه من الذل والتعاسة وإن أرباب الهمم العالية
لم يجيروا المستجير ولم يحفظوا ذمار العشير الا خوفاً من أن يمتد اليهم عند التساهل
في حواشيمهم يد المتغلبين فيتمكنون من نواصبيهم فيمنعونهم من لذاتهم الجسمانية
ومقتضيات حياتهم البدنية وبالجملة ما نشرته فهو اما لنيل لقمة أو دفع لكمة فأقول
مجيئاً دقق النظر يا هذا في أحوال الذين بذلوا أرواحهم في طلب الكمالات العقلية
مع ايقانهم اما بفوت هذه الذائد الحسية أو قطع عرق الحياة بالكلية الذين
لم يكن مسعاهم سوى نيل المكرم والفضائل وكل ما دون ذلك فهو له من الوسائل
فانه لو كان لهم غاية سوى تلك الكمالات لما اتوا دونها ولم يتجاوزها الى اضدادها
بل في أحوال غيرهم فإنك قلت تجد انساناً لا يفدي بلذة بدنية لنيل روحية والتي
ان عدت لك أصنافهم الدانية التي لا تنحط درجة افرادها عن ذلك على اختلافها
يطول المقال ويتسع المجال . نعم اننا لاننكر ان كثيراً من الافراد يتخذ المقاصد
ومبادي ولم ينالوا من الانسانية سوى المشابهة في الارجل والايادي اشرى وافي

قلوبهم عجل الشهوات ووسعوا جميع الآثار الانسانية بالمقدمات وتكالبوا تكالب الذئاب على الفريسة وان مثلهم في نيلها بما ذكر مثل الختلس يتزيا بزني ارباب الامانة كيلا ينفر منه الأمين ولا يحترس فان نبي نوعهم لو يقفون على مقاصدهم الدنية لم يرفدوهم شيئاً مما تهواه تلك الهمم الارضية الا من هم على مشربهم وارتضعوا من ثدى أمهم ومنهم من رسب في أرض حيوانية بالمرّة ولم يوجه طرفه نحو سماء الانسانية بنظره فمثله كمثل الحمار يركبه كل راكب ليمده بعلف دائم وهذا مع ما قبله سواء في المقصد وشركاء في المصدر والمورد لا منتهى لحركاتهم سوى ما رب حيوانية بل نباتية فلا يصح لاحد منهم ان يرى نفسه أرقى من ثعلب يروغ من المحارب ويحتمل في التوثب على ضعيف الدجاج والارانب ومع كل ذلك لا يقبل نفسي انهم مجردون من الذائد الروحانية وان غلبتهم على ذلك دنائتهم وانحطت بهم طبيعتهم ولا أمل انهم يحبون أن يحمدا وبما لم يفعلوا وتستشيط نفوسهم والالأم غضباً ان أندادهم في أعراضهم جهلوا بدون من يلحظوا في ذلك تلك الذات أو يكون لهم اليها التفات ثم اني أنشدك الله أيها الحكيم الاما تقلدت الانصاف في التحكيم وانباتني على من تربت الآثار التي توقن انها من خصائص الانسان كتهيب دلائل العرفان التي قد استخدم بها مافي العالم من جاد وحيوان واستنقذها انباء عالمه من ربة التكليف الى فضاء ليس فيه مرعج ولا تخيف وفي ظل من أنت ترفل في ثياب الفخار تحكم ما تريد وتعمل مما تشاء وتختار لاشك في أنك تحكم بان تلك آثار أولئك الذين قد بدلو احيائهم في نيل الفضائل والمعارف وأجهدوا أنفسهم بشامع ماصادهم من أنواع المخاوف وجعلوا تلك الغايات نصب أعينهم حينما ذهبوا ومنتهى سيرهم رغبوا أو أرغبوا قائل كل واحد منهم (شعر)

ولست بنظر الى جانب الغنى اذا كانت العلياء في جانب الفقر
وهل سمعت ان ملة قد ارتقت الى صلاح حال أو تنعم بال الابدان
خضب ثراها بدماء أولئك الفضلاء واختطف عقاب جورها نفوس هؤلاء النبلاء
ثم بعد يرتعون في مروج حميتهم ويختالون في ثياب عز غيرتهم فهل كان ذلك
يحصل الا بايثار لذة واحدة على لذائد متعددة بل غير متناهية وهي لذة الفضيلة

والصفات الجليلة فهي خاصة الانسان التي عنها ينشا آثاره
 فاذن لاجرم ينقسم الانسان الى قسمين قسم أخذ الى أرض الحيوانية فغاياته
 غاياتها يقوم بدنه مدة ثم ينفلت من الحياة لا يبقى له أثر ولا يسمع له خبر وقسم قد
 ارتقى الى ذروة الانسانية فنهج المنهج العقلي الذي قدمنا بيانه وايدنا برهانه فكلمنا
 قوي في فطرة الشخص جانب الانسانية كان ميله نحو التصرفات العقلية يأنف الظلم
 ولا يجازف في الحكم ولا ينتحى نحو الغدر ولا يهتمل صدمات القهر لغير الحق بل
 ترخص خيله في أرض العدالة لرفع آثار الجهالة ودفع معرة النذالة يأخذ بالبرهان
 ولا ينكص اذا استحکم البيان وذلك لا الى حد مخصوص ولا في مكان مخصوص ولا في
 زمان مخصوص نعم الاقرب الى البحر أولى بمائه والسوى انما ينال من فضل استغناؤه
 ومن ثم ترى ان أهل قارة أوربالمما ارتقت لديهم المعارف الى ذارها وبلغت فيهم
 الكمالات قصاراها وأقت الرياسة اليهم زمامها وفوضت السياسة اليهم أحكامها
 وأصبح نور العقل في أحيائهم يتلالا وسنا الفضل في أقطارهم يتعالى تسابقت همهم
 الى بث مقنضيات الانسانية في نواحي الكرة الارضية واستئصال مادة التوحش
 وتطهير الارض من خصال التبرير وما استعصى عليهم في ذلك من عو بصات الموانع
 انفذوا اليه قامعا من كتابهم أي قامع

الا ان منهم من يتخذ هذه الفضائل اسما ويتقلدها رسما لتكون آلة لاعمالهم
 وسلما لسوء آمالهم خصوصا الملك الكبير ذا الارض الواسعة والاقطار الشاسعة
 الذي قد منح أهل مملكته تمام الحرية حتى انه لا يبيح لهم ان تدرس العلوم
 الفلسفية في مدارسهم الرسمية بل الالهية بل ان أراد أحدهم ان يتبصر
 انخذ له كميناً وتستر وأولى أهل ملته من مقنضيات الخنو والشفقة ماتنفر منه
 قلوب أهل الرأفة والرفقة خصوصا أهل دينه الكاثوليك الذين مزقهم كل ممزق ونفي
 كثيرا منهم الى حيث لا يخاف ولا يفرق وماترك وسيلة الى الاسترقاق الأقامها
 ولا ذريعة الى استعباد غيره الاقص قصصها كيف لا وقد تقلد رتبة البطركية التي
 هي مقدمة ركب الالوهية فقام بما مورثة المقدسة ليؤدي بعض مأسسه وكتبه
 على نفسه من القيام بمحقوق الإنسانية والتهافت على تقويم الحق على الوجه الاحق

الايق فاوقدينيران الفتنة في بيوت أهل دينة الفقراء المحتاجين الى رعاية دولتهم ليجردهم من ذل الشوكة والقوة ويلبسهم عز الضعف والمهنة وينقذهم من ربة الحرية التي قد نالوها حيث هم على حفظ عهودهم عا كيفون وعلى إصلاح أحوالهم الداخلية متألبون يتدللون على دولتهم تدلل المعشوق على العاشق و ينالون منها ماينال الولد من والده أو الحبيب من محبه الصادق وليستخلصهم من كل ذلك الى فضاء عدله الذي قد بسط غطاءه على أنفاس أهل مملكته و بمجبوحة الحرية التي قد اسئعبد بها ابناء ملته وقد صادقه على ذلك جل المالك القاسطة لما لكل واحد منهم من ساقطة ينتظر بها الالتقاط وبذلك الملك المقدس في نيلها يكون الارتباط وهم في ذلك ينادون بالانسانية وباللحقوق المدنية وتترنم منهم الخطباء على منابر الظلم والاجحاف بتلاوة آيات الاقلاع عن الاحاد واقتناء شرف الانصاف واني لست الآن معهم في ميدان المحاكمة حتى انبئهم انه قد فعل ذلك بأبناء دينهم بل ابناء أوطانهم وهم بم رأي من ذلك ومسمع ما لا يصح في مثل هذه الايام ان يسمع وقد سودت بذلك وجوه الصحف ومع ذلك لم يتحرك فيهم عرق الحماة ولا فتحوافي ذلك سجلات السياسة وان أمثال أولئك الكمال لا يليق بهم مع هذه الدعوى التي بها منعوا بيع الرقيق قضاء لحق المساواة ان يجعلوا تلك الرافة والرفة خاصة ببعض المقاطعات أو منحصرة في جهة من الجهات بل كان من الواجب ان ينظروا من وراء حجاب الى خيوه وخوقند كما نظروا جهارا الى السرب والجيل الاسود فأني لو تكلمت في هذا يطول أو يجيني محيب بأنهم الى الآن لم يبلغوا حد الكمال حتى يفعلوا أفعال الرجال ولا يتحشون محرش القتال وللانسان كمال سوى ما هم فيه وتلك التي تتوسم فيها العظم مباديه ولكن أعجب لجعل المسئلة شرقية وغربية فان العاقل يتفرض في ذلك أسراراً خفية تنبتنا عنها التواريخ القديمة والحديثة وتحكي ما كانت تفعله القياصرة بالاكاسرة والاكاسرة بالقياصرة حيث كل من الشرقيين والغربيين مع سعة أوطانه ينتهز الفرصة للوثوب على الآخر فهذا حقد الميراث جدير بالاكتراث الا انه لما جمعت الشوكة أسبابها وتوجهت نحو المغرب تركت الشرقيين محمي يثر ب قويت من الغربيين المهاجمة وبطلت من الشرقيين آثار

المقاومة فبات عدوبلا معادي ومبارز لا تصده الدواعي والغواصي فحفي الامر على غير بصير وذهب على غير خبير وما وصل الشرقيين لي هذا الحد سوى تفرق الآراء واختلاف الاهواء حتى ان بعض الناس ممن لا يبالي بهم يتهللون بسوء أحوالهم ويتهجون اذا بشر وابتسلا أعدائهم وما ذاك الا من تداني الهمم وتراكم الظلم والوقوع في حفرة الحيوانية والانحطاط عن درجة الانسانية حيث فقدت منهم الغيرة والحمية وذلك بدل ان يندوا في مثل هذه الاوقات جميع التعصبات الدينية والاختلافات المذهبية لحماية أوطانهم ووقايتهم من وطأة أعدائهم الذين لا يرومون من الاستيلاء علينا معاشر الشرقيين الا توسعة ممالكهم والتمكن من استعبادنا بالدخول تحت حوزتهم لتكون لهم خزينة عند الافتقار وترسا يقون به أوطانهم ورجالهم مما عسى يبرزه الاستقبال وبعد ذلك يكون عاراً علينا أي عار يذهب بها وكم يتشفي منكم عدوكم وينهدم بناوكم وينقطع من العزة رجاوكم أنتم يامعشر الشرقيين أبناء وطن واحد تشاركون في المنافع والمضار وسائر المقاصد لا يمس أحدكم خير الا نال الآخر منه مثل ما نال صاحبه ولا توجه اليه خيرا الا هو الى الآخر يتعاقبه فما لهممكم تضاءلت وخطباؤكم تمثلت

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عيناً بالاياب المسافر ولم تخاطبوا عدوكم من صميم فوادكم

محي السيف أسطار البلاغة وانتحي اليك ليوث الغاب من كل جانب واذكروا اذ تسطر أحوالكم في صحف الرجال ويستقيل بها ما يأتي من الاجبال فان أنتم أبرزتم حميتكم ورعيتم حق وطنكم الذي منه ابندائم وفيه سكتهم ودافعتم عنه يبذل الارواح فضلا عن حسن المقال وبالجملة سلكتهم مسالك الرجال لانهوس الاطفال فلكل مآثرة انسانية تناولن بها مجدكم وفخاركم وتمتلكون سعدكم وحلية يخنال فيها من تعقبونه بعدكم والافالعار والشنار لاحق بكم وليس الا ان يحثي تراب الذل في وجوه اعقابكم وانظروا الى أحوال سلفكم لتسكون مرآة لأحوالكم. فان قال قائل

ان الديانات ألقت بيننا احنا وأودعتنا أفانين العداوات

فكل واحد منا يتوقد من صاحبه لمخالفته له في مذهبه ومناوآته اياه في مشربه فكيف تميل تلك القلوب لرفع الشقاق وجمع كلمة الاتفاق والتخلص من خسة النفاق ؟ فنحبيه ان مثلنا في ذلك مثل أخوين تولدا من بطن واحد واصل واحد قد يقع بينهما بعض المنازعات المنزلية والمناوشات المعاشية فيأخذ كلا منهم ماشاء من الغيرة والحمية ويكاد أن يفتك كل بالآخر ومع كل ذلك أنهما عند اقتراح أجنبي على أحدهما يقوم الآخر بنصرته ولا يججم عن رد تبعته فتلك العداوات الجزئية لا يصح لدى العاقل ان تضر بمصالحنا الكافية وعلى فرض ان لوعدت تلك المزاومات شيئاً يذكر وأمرنا يصح اليه النظر فما اشنع حال من ينتقم يد الغير ويلحق نفسه وعقبه عار السفاهة والضير أين أنتم من تيمستكليس اليوناني الذي بعد ما صنع المكائد مع دارا وهزمه وجاهد ما جاهد في حماة وطنه اقصاه اليونانيون وطرده وأجمعوا أمرهم على ان يقتلوه فالتجأ الى دارا يستجده مما اعتراه فاعظم منزلته وأكرم مشواه ثم ان دارا طلب منه ان يحشد جيشاً على اليونانيين فقال وجهني الى أي مكان قاص أودان سوى بلاد اليونان فأنها وطني ومقر تربيتي لا ترضى همتي بان أقدمها لغير أمتي وانه وان كان أهل اليونان طردوني ولكن تراب اليونان ما صنع معي قبيحا فلما أغلظ عليه دارا في الطلب نادته هواتف الانسانية أن ذلك من الموت أصعب فاختر الموت على الحياة وتناول السم ومات الأفاقتبها من سنة الغفلة واتخذوا لكم من الانسانية ظله ومن الفضائل خله واحذروا وبالحمية الوطنية اتقوا واعتصموا اه

العلوم الكلامية . والدعوة الى العلوم العصرية

وجاء في العدد ٣٦٤ منها وأعداد بعده ما يأتي:

﴿ وردت الينا هذه الرسالة من قلم جناب العلامة الاديب الفاضل ﴾

﴿ الارب الشيخ محمد عبده أحد أهل العلم بالجامع الأزهر ﴾

كلما تناسينا عهد جاهلية العرب وما كان من مقتضيات الجهالة في تلك الحقب

(٨ - ج ٢ . تاريخ الأئمة الامام)

وميننا أنفسنا باننا صرنا في نشأة أخرى وتقدمنا الى الأمام بمدان كنا الى القهقري واستصبحنا بمصباح الآمال في ليل الضلالة والاختلال وهمت أفكارنا بتحصيل ما سبقنا اليه غيرنا تذكرنا حوادث الأيام باننا لازنا في أول نقطة من ذلك الزمن الاول بل كان ذلك على تنزل منه الى أسفل وتنثني آماننا عن تقدم أهالي أوطاننا فمن أعجب ما رأيناه في هذه الايام ان بعض طلبة العلم الكرام الذين قد بذلوا جهدهم في التحصيل وخلصوا ثياب أوزار البطالة والتعطيل وافتدوا براحتهم لتنوير بصيرتهم قد تحركت الى المعالي همتهم ودعته الى التفنن غيرته فاخذ في دراسة بعض الكتب المنطقية والكلامية التي كان قد صنفها بعض أفاضل الامة الاسلامية لما أنه قد علم كما هو الواقع ان العلوم المنطقية انما وضعت لتقويم البراهين وتمييز الافكار غشها من السبين وتبيين ان كيف تتركب المقدمات لانتاج المطلوب بعد البيان أن اي مقدمة يصح ان تؤخذ في البيان وأيها يجب أن يقذف وي طرح فهذا علم حقيق بان يتخذ سلماً لجميع العلوم ولا يعدل عن طلبه الا جهول ظلم والعلوم الكلامية انما هي أحكام لتأييد القواعد الدينية بالادلة العقلية القطعية حتى يحق للمارس تلك العلوم ان يقتبس نور تلك الطالب من تلك البراهين ويقنع بذلك الطالبين ويردع المنكرين على وجه لا يكون فيه ثبات الشيء بنفسه ولا تنزيل العقل عن درجته في ادراكه وحسه فلما سمع بذلك بعض أجبانه وأصفيائه واقربائه الذين يؤثرون خيره ولا يرتضون ضرره اهتز لذلك واضطرب وأعجب كل العجب وأخذ من الحزن على ذلك الطالب ما شاء الله ان يأخذه وأوسع لذلك الطالب النصيحة ويألها من فضيحة أي فضيحة قائلاً كيف تدرس علوم الضلالات حتى تقع في الشبهات الافارتدع وبمحالتك اقتنع وكن كما كان الاب والجد وجداً فيما كانوا عليه فمن جد وجد فأجاب الطالب المسكين سؤله وطوى سجل علمه ونشر جهله ومع ذلك لم تدعه السنة حساده المتألمين على عناده ولم يز الوامصرين على سفاه الكلام ورمي سهام الملام يقولون الى الآن في ضلاله القديم لم يميز بين المنتج والعقيم والمخدوش والسليم حتى ان بعض ذوي (العجل) من أهل بلاده الخالصين في وداده الساعين في إسعاده وشوا بهذا الطالب الى والده وأفصحوا له القول بشأن ولده قائلين

ان (الرجل) منا اذا سمع اذ ولدك يشتغل بالعلوم تتناوله أيدي الموموم (يقوم) ولا
 بهناله طعام ولا شراب وبيت ليله في اضطراب ويظل نهاره في اكتاب أسفًا
 على هذا المسكين كيف ترك جهاتنا ولم يعمل على مثالنا ألم تعلم ان الانسان كلما
 قوي في العلم اجتهاده وبداله رشاده يتززل اعتقاده فكيف بك وهو ثمره
 فؤادك وأرشد أولادك فتحرك في والده عرق الحمية وأمرع ذاهبًا الى مصر
 المحمية ليرى هل صح الخبر أو كذب الناقل وفجر فوصل الى ولده في الساعة
 الثالثة من الليل ومن آن وصوله أخذ ينذر ولده بالثبور والويل ان كان لتلك
 الاقاويل صحة فأجابه الطالب ان ذلك من كذب الناقلين وبغي الحاسدين
 وانني من يوم سمعت في منعي وقطع نفعي لم تقر عيني بنظرة في رياض تلك العلوم
 ولم أشف قلبي بأخذ منطوق منها ولا مفهوم فلم يصدق حتى تمسك بالحبل المتين
 وأحلفه بالله رب العالمين ان الناقل كذاب وانه في أمره غير مرتاب فخلف
 وهو الصادق في حلفه وكيف لا وقد حفته المكاره من بين يديه ومن
 خلفه فلما أيقن أبوه بكذب ما نقل اليه حمد الله وأثنى عليه وأصبح من
 غده متوجهًا الى بلده فانظر الى هذا الرجل مع كثرة انشغاله واحتياجه لساعة
 ينظر فيها الى أحواله كيف ترك الأهم وصرف الدرهم وانقض انقضا السهم
 وأقدم إقدام الشهم وما ذاك الا لحادث ألقه وشناعة عظيمة خاف ان تلحقه وداهية
 دهياء قد استفزته من أرضه وبأس شديد يطلب التخلص من حلوله بركضه فإن
 سألت ما هذا الأمر الفظيع والحادث البشع الشنيع قال ان ولدي يتعلم المنطق
 والكلام ويتخلص من قيد جهل قد أخذ بالنواصي والاقدام وانظر الى هذه الحماسة
 والغيرة التي قد دعتهم الى التعاضد والتناصر والتخوة التي قد حركتهم على التكاثر
 للتخلص من هذا الحادث المم وانقشاع هذا الليل المدلمم بغاية الحرارة الناشئة عن
 صدق طوية وخلوص نية فنبأ لهذه العقول وبست عواقبها وما اليه أمرها يؤول
 إن دام هذا ولم تحدث له غير لم يبيك ميت ولم يفرح بمولود

وانتي لاتعجب من هؤلاء الاخوان في الوطن وأرباب البصائر والفتن
 كيف مالت بهم الحرارة الى الهبوط حتى آل أمرهم الى السقوط وباعجبا اذالم

نصرف الفكر في تقويم البراهين وتسديدها وكيفية الوقوف على الحقائق وتحديد ما
ففي أي شيء نصرفه فإنه ان ضل عنا رشادنا وغاب سدادنا فهل بشيء سوى
الدليل نعرفه

الا وان هذا أمر غني عن البيان ويكفل عن الافصاح به اللسان مع ان هذه
العلوم ليست الا ما يقرأ في سائر جوامع المسلمين مشارق الارض ومغاربها حتى الآن
في نفس الاستاذة يقرأ في مساجدها كثير من كتبها وقد قال الاكابر من المحققين
كالامام الغزالي وفخر الدين الرازي وغيرهم ان تعلم هذه العلوم من فروض الاعيان
وأطبق جميع العلماء على انها من فروض الكفاية خصوصاً في مثل هذه الازمان التي
قد وقع فيه اختلاط الناس من سائر الاديان فإنه من البين ان ما أخذ عن الأباء وبلغناه
السنة الاقرباء إن لم يثر يد بالبراهين نالته أقوال الملحدين وادحضته شبه الجاحدين
فيصبح وقد وهى بنيانه وأحطشانه أولم يطلع هؤلاء المساكين على ما كتبه شيخ
الاسلام في استامبول الى الرجل الجرمانى الشهير الذي قد أسلم في هذه الأيام اذ يقول له:
نحن لا نتجنب وزن عقائدنا بالميزان المسمى بالمنطق ولا نقبل اعتقاداً بناقض
العلوم المتعارفة (كالبرهنة) في قبي الحساب والهندسة من أن الكل أعظم من الجزء
وان الشيء لا يكون غير نفسه وان الشيء الواحد لا يكون واقعاً وغير واقع في آن
واحد وأمثالها من العلوم المتعارفة وهي البديهيات الأولية أو الاولوية علي ما في الباب
الرابع من معيار سداد (النظر) حتى لو كان حديث اواية كذلك أي تغاير العلوم
المتعارفة لا ولناه . اهـ

وليت شعري اذا كان هذا حالنا بالنسبة الى علوم قد أرضعت ثدي الاسلام وغذيت
بليانه وتربت في حجره وتقلدت في ايوانه من زمن يزيد بن ألف سنة وتناولتها
أيدي الخلف منا وتناقلتها عنهم الألسنة فما حالنا بالنسبة الى علوم جديدة مفيدة
هي من لوازم حياتنا في هذه الازمان وكافة عنا أيدي العدوان والهوان وأساس
لسعادتنا ومعيار ثروتنا وقوتنا لا بدنا من اكتسابها وبذل المجهود في طلبها فبالاولى
تقدم نضع أصابعنا في آذاننا ان ذكرت ونهاجر من كرة الارض اذا سماؤها انشقت
وان مثل هذه النفرة لو كانت في عهد المنوكل العباسي عندما كانت الامة بغير رر وسواسي

وقوة متوهمة تحصنها من تعدي الأمم المتقدمة أوفى زمن المالك ولكولمان وغيرهم
 ممن تملك هذه الاوطان حين كانوا في ذروة التوحش لا يهتمون الى ما به يدبرون
 أمورهم في العيش وكانوا حائرين في تيه الخيالات والاهام وقد أخذ بجميع
 احساساتهم جور الحكام ولم يكن بينهم وبين غيرهم من الامم اختلاط اذ كانوا في
 حفرة الانحطاط لكان لا يأخذنا العجب بل نضيف ذلك الى السبب ولنتمس لهم
 العذر في ذلك اذ قد عمت عنهم جميع المسالك وكنا نؤمل ان المبتدع يفيق بشم روح
 النواشدر وان هؤلاء يهتدون اذ ارتفعت الموانع وأقبلت البشائر ويقومون من غفلتهم
 اذا قام من يوقظهم ويخرجون عمامهم فيه اذا نادى بهم من يعظهم ولكن (تعذر)
 ذلك الامر منهم في زمان جرى فيه سيل العلوم حتى عم انحاء الكرة على العموم
 وهم فيه غرقى من حيث لا يشعرون ووقع فيه الارتباط بيننا وبين الامم المتقدمة ورأينا
 ما هم عليه من الاحوال الحسنه وظهر لنا التوازن بينها وبين أحوال الهجنة كثرتهم
 وفاقنا وعزتهم وذلتنا وقوتهم وضعفنا وقدرتهم وعجزنا وصولتهم وانهم زامنا وغير
 ذلك من المزايا والرازايا التي لانعد وبها يعتد بل في زمان خرج فيه العلم من الاذهان
 الى الاعيان وتنزل من مرتبة الروحانية وتحلي في الصور الجسدانية وفتح لنا رياضية
 وهيا للفرس غياضه وأصبح يجول بيننا في علاه وينادي بأرفع صوت وأعلاه
 الامن سائل فأعطيه الامن فقير فاغنيه الامن طالب سلطان فينا له الامن محارب
 عدوان فحدد نضاله الامن حيران في غسق الضلال يمن على نفسه بنظرة لساننا
 المتعال ونحن بسمع من نداء ومرأى من سناه لكن صمت الاذان وعميت الابصار
 (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم - ولو علم
 الله فيهم خيرا لاسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) وهل يابق (بقوم) أن تكون هذه
 الجهالات أفكارهم وتلك المستهزآت آثارهم مع كل ما قدر أوه من صنيع مليكهم
 وحامي ذمارهم جناب الحديوي الاعظم لازال قضاؤه في الكائنات يبرم حيث قد
 بذل الهمة في اجتلاب المعارف وتوسيع دائرة الآداب والعوارف اذ فتح المدارس
 والمسكاتب (وعني) بالاساتذة من الاقارب والاجانب واجتذب التلامذة من كل
 جانب حتى أضحت غابات الارثقاء سهلة الاكتساب وخزائن الخيرات مفتوحة

الابواب وترعرع روض المعارف وأزهر زهره وبدأ صلاحه وينع ثمره (ولكن لم يكن له مقتطف ولا مجتني ولا عان ولا معتنى) وأطلق الحرية أيده الله في اقتناء هذه الخيرات واجتناء هذه الثمرات وأفرش بساط العدل ودعاهم بذلك هل دار الكرامة والفضل فهلا انتهزوا الفرصة قبل انقضاء آجالهم وانتكاس آمالهم ولعمري ان ما فعل الخديوي في هذه البلاد من موجبات الاسعاد لو كان عند أمة أخرى لكانت بلغت الى غاية الكمال ووقفت على حد الاعتدال وأصبحت مفيدة لاستفادة ونفدت سيوف العز بدل القرعة والجريفة فأنا لم نسمع ان ملكا من ملوك أوروبا الذين قد دخلت أسماؤهم في الصحف الذين هم كانوا قد قاموا بنشر التمدن في أقطارهم قد بذل الهمة في ذلك معشار ما بذله جناب الخديوي فيه في الله سعيه اذ قد أتى بكل ما يمكن ان يوثي به في سعادة أمته ولكن ماذا تصنع في همتنا الكسالى * يا خيبة المسمى اذا لم نسعف * لكن

على المرء ان يسعى الى الخير جهده وليس عليه ان يتم المطالب
فهل ساعدوا هذا المليك في اسعاد أنفسهم وتخلصهم من بؤسهم «ان هذا الشيء
عجاب» لا العواصف تحركهم ولا الواطف تجتذبهم ولعل ذلك المرض فيهم قد خفي
دواؤه واعيا الطبيب شفاؤه نسأل الله العافية

ولعل قائلنا يقول ان هذه الحادثة ثني الامل ولا تندرج في العمى فانها
جزئية من الجزئيات لا يحكم بها على الكليات فانه في كل زمان وفي
كل مكان يوجد الحق والأغبياء وأرباب الجهالات والاشقياء وذلك
لا ينافي حكم الغالب: فأجيبه بأن هذه ليست أول قارورة كسرت ولا أبداع واقعة
وقعت ولكن ذلك أكثر من الكثير وأمره فاش بيننا شهير خصوصا من
الطائفة الشريفة التي تعد بمنزلة روح لهذه الامة فإنهم الى الآن لم ينظروا الى
أنفسهم ولا اليانابعين الرحمة ولم يروا لهذه العلوم فائدة تعود عليهم أو على ابناء ملتهم
(بعائده) ولكن اشتغلوا بما ربما كان اليتيم زمان قد أفت كواكبه وطويت صحفه
وولت ركائبه غير ملتفتين الى اننا أصبحنا في خلق جديد قد طرحتنا الايام بديننا

وشر فاني بادية قد غصت بأساد ضارية كل يطلب مناثاره و يطلب شن الغارة فان كنا من آحاد تلك الاساد فقد وقينا أنفسنا وديننا والا فاما نطرح ديننا وننجو بانفسنا واما ان نبيد عن آخرنا بسوء الجهل وضلال الطريق مع ان ملاك الامر بأيدينا فعلينا ان ننظر الى أحوال جيراننا من الممل والدول وما الذي نقلهم عن حالهم الاول وأدى بهم الى ان صاروا أغنياء أقوياء حتى كادوا ان يتسلطوا علينا بأموالهم ورجالهم إن لم نقل قد تسلطوا بانفعل فاذا حققنا السبب وجب علينا ان نسارع اليه حتى نتدارك ما فات ونستعد لخبرنا فيما هوآت وهانحن بعد النظر لانجد سببا لترقيهم في الثروة والقوة الارتقاء المعارف والعلوم فيما بينهم حتى قادتهم الى رشادهم فتنوروا وخبراتهم فاكثبوها ومضراتهم فنكبوا عنها وتركوها فاذا ناول واجب علينا هو السعي بكل جد واجتهاد في نشر هذه العلوم في أوطاننا

أليس من الين أنه لا دين الا بدولة ولا دولة الا بصولة ولا صولة الا بقوة ولا قوة الا بثروة و ليس للدولة تجارة وصناعة وانما ثروتها بثروة أهاليها ولا يمكن ثروة الاهالي الا بنشر العلوم فيما بينهم حتى يتدينوا طرق الاكتساب فان ذلك أمر قد خفي على ذوي الالباب فضلا عن غيرهم كيف لا وقد ولت أزمة كان التحارب فيها بالاخشاب والنبال والسهام وخزف الجبال وما أشبه ذلك مما كان يمكن استحصاله بزهد القيم وحضرننا زمان نضطر فيه الى المراكب المدرعة ومدافع المتراليوزو المكروب وبنادق الابرة وغير ذلك من الاسلحة التي تجددت وستجدد فيما بعد فان الشر الذي هو ط عناصر الانسان لا يزال يرشده ويقوده نحو اختراع أمثال هذه الآلات المهلكة لهذا النوع فانهم حتى الآن قد جعلوا العالم بيت نار وهم قائمون على عبادتها وخدمتها بكل جدٍ و اخلاص . وكيف تتمكن من حفظ ملتنا ودولتنا وديننا من شرر هذه الزيران بدون ان يكون عندنا ما يائثلها إن لم نقل ما يزيد عنها وهل يمكن استحصالها بالخزوز والخزف أو بداني الحرف؟ كلا بل لا بد من أن توتى البيوت من أبوابها وتطالب المسببات من أسبابها فلا بد من البحث عن وجوه الاكتساب من وجهه الصواب والاستضاءة بنور المعرفة والتبري عن مراقة السفه وليس من يرشدنا الى ذلك الا ابناء هذه الطائفة فانهم أرواحنا وقائدوا أشباحنا حيثما توجهوا وتوجهنا وفي أي وقت على أي شيء عرجة

عرجنا وان من حقهم ان يقوموا لحث الجمهور على اقتناص تلك العلوم وبيان فوائدها وما يترتب عليها من المنافع وعلى عدمها من المضار ووجه احتياجنا اليها ولعمرك الله قد كان ذلك خيرا لاعمال وأحبها عند الله لان اعلاء كلمة الحق وحفظ بيضة الاسلام مقدم على جميع الشعائر فإنه بعد زوال الرأس لا يبقى لسائر البدن الا الرمس كما هو بين عندهم وغير خاف عليهم ولا تظن اني أقول ان توانيهم عن مثل هذا المسعى على علم منهم بل زومه لرقه في دينهم حاشا لله بل انهم لم يفتتوا الى لزومه وانه أهم ما يهيم وأوجب مما يجب ولو أنهم التفتوا اليه وحققوا الامر على ما هو عليه لقاموا بارشاد الناس اليه على قدم وساق وضاعت المساجد بخطبائهم ووعاظهم وحث الاهالي وتحريضهم على استحصال ما هو أساس لحفظ دينهم على ما هو المعبود منهم من الهمة فيما يكون مقويا للشوكة ديننا وصولته ومحافظتهم على بقاء عزته وقوته ومزلي بان يتنبهوا الى هذه النكتة وانه لا بد لهم من الالتفات الى هذه اللوازم البتة كي يمنوا علينا بحسن النظر ويعينوا لنا على الخير والشر فاننا لانسمع الا مقالهم ولا نرمق الا أحوالهم بل لانسمع الا بآذانهم ولا نبصر الا بابصارهم ولا نذوق الا ببذائقتهم ولا نتكلم الا بألسنتهم كيف لا وهم الارواح ونحن الاشباح وهم النسبات ونحن الارواح حيثما ملوا ملنا وما ملوا ملنا نعم اننا نحتاج زيادة على هذه المدارس الى مدرسة عمومية تكفل ببيان هذه المسئلة وهي ان العلم نافع والجهل ضار وافصح الفرق بين غسق الليل ورابعة النهار بل هي ألزم من جميع اللوازم فانه ما لم تتوفر الرغبة في شيء لا يتحقق الاقدام عليه بل يكون مبهذلا عند النفوس مرموقا بعين البؤس تشتمز منه الطبايع ونفر منه الاسماع وان هذه المسألة أي ان العلم نافع لنا والجهل مهلك لارواحنا وأبداننا مسألة صارت عندنا من أدق النظريات يحتاج في بيانها الى كثير من المقدمات والحجج والبيانات مع ما ينضم الى ذلك من الاعتبارات كالترغيب والترهيب والتمثيل والتقريب والاجمال والتفصيل والاجاز والنطويل على حسب اختلاف المراتبنا في القبول وعلى الله تمام المستول

﴿ وجاء في العدد ٤١ من هذه السنة مانصه ﴾

التحفة الأدبية

انه حينما كانت همم أرباب الفطن النقاد والتفكر والقيادة (من أهل العربية في أوج كمالها وافلاك سعادتها في منازل اقبالها كانت الأمة تباهي سائر الأمم برجالها العقلاء السياسيين وفلاسفتها المستبصرين ونخثال بينها عجباً بما لهم من اثر وثروة والقوة والعزوة والتمتوه وسطوع شمس المعارف في أفق ديارهم وانجلاء غيوم الجهالات عن وسط سماءهم حيث كانوا قد استواءوا على منصات الكمال في التعقل والتبصر على حسب ما كانت عليه درجة العلم في ذلك الوقت. وبما اللغة العربية تباهي سائر اللغات باتساعها واحاطتها بدقائق (المعاني) التي كان يديها العرفاء من المتكلمين بها وكانت متحلية بمزينة محلية الاصطلاحات العلمية كاصطلاحات الطبيعيات والالهييات والرياضيات والطب وغير ذلك من سائر الفنون وكانت قريرة العين بتلك الجمالية والزينة وازديادها وانتظامها على حسب مرور الازمان (إذ) فترت تلك الهمم ونزلت الى حضيض الانحطاط لموانع قد اعترضت سيرهم وصدتهم عن التقدم في مدارج السعادة والكمال وأرقفتهم (عند حد) لم يتجاوزوه بل أرجعتهم الى مقام كانوا قد تقدموا عنه وتركوه

تلك الامة (كان) ما كان لها من الشان وبدأ أمرها بعد التمام في نقصان وسلبت تلك اللغة الشريفة ما كان لها من الخلي والزينة وأمست للصغار والابتذل رهينة وثقدم سائر الامم في اكتساب المزايا التي كانت لتلك الامة وحسنت هيئاتهم الاجتماعية ونالوا من الثروة والزفاهية وتحتل سنتهم بالعلوم والمعارف وديارهم بالبدايع وبهي الزخارف وتطارات أسنتهم بالفخار على لساننا وباهت رجالهم في السياسات والافكار رجالاً فلما قرع آذان أبناء الامة العربية سهام الملام قام فيهم قائم الغيرة والحمية وآلوا على أنفسهم أن لا يألوا جهداً في استرجاع ما فقدوه رغماً لتلك الموانع وقسراً لحركات هاتيك القواطع فنشأ فيهم من بذل الهمة في استحصال العلوم واللغات وبرعوا في ذلك وترجموا الى لغتهم العربية

(الكتب) من جميع الفنون كالطبيعة والكيمياء والطب والجيولوجيا وغير ذلك من الفنون المفيدة فتجلت لغتنا في حليتها وبدت ترفل (في) ثياب زينتها الا أنه لم يوجد فيهم من يعنى بعلم السياسة وتاريخ سير التمدن حتى يمن على اللغة العربية بأن يودعها دقائق معانيه ويقلدها لآلى مبانيه حتى قام بهذا الامر العظيم جناب الفاضل الاديب واللوزعي الاريب الذي يغنيك رؤية أثره عن عطر ذكره الخواجا حنين نعمة الله خوري فتبرع لابناء العرب ولغتهم بترجمة كتاب جليل في هذا الموضوع لم يسبق سابق بمثاله ولم ينسج ناسج على منواله وهو ما ألفه الوزير الشهير كيزو فانه كتاب قد جمع فيه من نتائج السياسات ماتحار فيه ألباب أرباب الرياضات حقيق بأن يسمى سبيل النجاة ومادة الحياة وهو الكتاب المسمى بالتحفة الادبية والتي لا أستطيع أن أذكر من مزايا هذا الكتاب فوق ما أفاده حضرة الاستاذ الاكرم والفيلسوف الاعظم الذي تشرف بذكر اسمه مسامع القاصي والداني جناب السيد جمال الدين الافغاني وهالك ما قال

«لاريب ان كل انسان طالب للسعادة بطبعه وهارب من الشقاء بوسعه فجميع حركاته وسكنانه إنما هي لاستحصال تلك الغاية وان سعادة الانسان إنما تقوم بسعادة ملته وأهالي وطنه فانه عضون من أعضاء الملة ولا شك في أن العضو يشقى بشقاء سائر الاعضاء ويتألم بآلامها الا ان يكون أشل عديم الاحساس فأعظم سعادة تطلب إنما هو سعادة الامة والملة التي نشأ الانسان فيها الا أن للوصول الى هذه السعادة المطلوبة ط. قاعرة السلوك وربما ضل فيها الطالب فوقع في نقيض المقصود وتردى في حفرة الشقاء فكان من الواجب على كل انسان (أن) يأخذ الالهة ويمتنح جميع السبل ويتخذ أعظم الوسائل لنيل هذا المطالب الجليل ومن المعلوم ان المستبد برأيه كثيرا ما يعرض له الخطأ بل قلما تقع منه الاصابة فأحسن الطرق واولاها بالسلوك هو الطريق الذي قد امتحنته أيدي التجربة وترتبت عليه تلك النتائج في عالم الاعيان وهما نحن لان شك في أنه قد حصل لاهل أوربا تقدم ووصول الى الغاية المطلوبة في هذا العالم وكان ذلك نتائج مقدمات ترتبت قياسا صحيح النتيجة حتى أوصلتهم الى هذا المطلوب فلا بد لكل انسان ان

يدحت عن تلك المقدمات التي انتجت سعادة أولئك الامم حتى يستعملوا في
ايصال أهالي بلده ووطنه الى مثل ما ناله غيرهم حتى يسعد بسعادة تراه الذي
نشأ فيه والوزير كبروز قد جمع في كتابه هذا جميع الشروط والاسباب والوسائل
والآلات التي كان لها المدخل في سعادة الاوربا وبين العناصر التي تكون
منها ذلك المزاج اللطيف بحيث ما تبقى شاردة ألا اقتنصها ولا خفية الا الى العيان
أبرزها وأحكم بيانها فعلى عالم الانسانية أن يشكر له هذا الصنيع البديع وعلى أبناء
العرب خاصة ان يقوموا بشكر مترجمه الفاضل فانه قد بالغ في تهذيب العبارات
وتحقيق الاشارات حتى أتى على المرغوب من ايضاح معاني ذلك الكتاب بألفاظ
رقيقة عذبة المذاق متسقة المساق تتسابق معانيها الى الاذهان وتبرز دقائقها في عالم
العيان فكان حقيقاً بأن يجعل قلادة في عنق كل واحد من أبناء هذه الامة العربية
فعلى أبناء أوطاننا وأهالي لغتنا العربية ان يعرفوا له هذا الجليل الجليل ويبدلوا الهمة في
مطالعة هذا الكتاب العظيم الشأن ودراسته والاخذ بسيرته والسير على طريقته حتى
تستدير عقولهم وتندفع الى المعالي همهم ويعضدوا بذلك مقصد هذا الفاضل فانه
لم يكن له بغية في هذا العمل سوى ترقية هذا الفن في ابناء هذا الوطن فليؤيدوه
بالهمة والنشاط في ذلك وليقتدوا به في النهوض الى مثل هذا الصنيع المفيد فان
بيت السعادة محتاج الى اركان كثيرة ومما يرشدك الى أنه لم يرم شيئاً سوى نفع أبناء
الوطن وانه محب صادق خيرا لهم أنه لما رأى أن بعض أهل العلم من الازهر قد نشر
بعض مقالات على الطرز الجديد بدت منه علائم السرور والابتهاج وصارع الى
مدحهم والثنا عليهم وشكر ذلك اليهم فجازاه الله عنا وعن أهالي أوطاننا به اوخذ
له أحسن الذكرى»

محمد عبده

﴿يقول جامع الكتاب﴾ سقطت كلمات من هذه المقالة تعرف بالبداية فوضعناها
بين أقواس وسبق مثل ذلك في غيرها وهذا آخر ما رأينا للاستاذ الامام من المقالات
في السنة الاولى من جريدة الاهرام وكان لا يزال مجاوراً في الازهر لم يصير مدرسا
رسمياً وهي تدل على انه أوتي كمال العقل من أول نشأته رحمه الله ونفعنا به

٣

مقالات الوقائع المصرية (الرسمية)

كتب في العدد ٩٤٢ من جريدة الوقائع المصرية الصادر في (١٤) القعدة
سنة ١٢٩٧ - ١٩ أكتوبر سنة ١٨٨٠

حكومتنا والجمعيات الخيرية

ان مما نتاج به الصدور وترتاح له النفوس وبيعثنا على الثقة بحسن مستقبلنا
مانراه من اقدام ابناء قطرنا على الاعمال الخيرية وجدهم ونشاطهم في تأليف
الكلمة وضم الشمل واتحاد المقصد لنجاح البلاد وتقدمها واخذهم بالوسائل الحقيقية
التي تؤدي الى ذلك وان سبقنا اليها سكان الممالك المتعدنة وبلغوا بها آملهم من
الثروة والقوة وكال السطوة وهي إنشاء الجمعيات الخيرية المتعددة تختلف اشكالها
وتتحد مقاصدها وتتعدد اما كنها وطرق سيرها وتنفق غاياتها وفوائدها فذكون
على تنوع وظائفها بمنزلة بدن واحد ذي اعضاء مخالفة يقوم كل عضو منه بما يعود
على البدن كله بالصحة والقوة ويزيدنا املا وثقة مانشاهده من تأييد الحكومة
السنية لتلك الجمعيات وشدها بما تبديه من المساعدات لها في كل ما يوجب
ثباتها وتقدمها وتشيدأركانها وتقوية دعائمها بما تصدره من الاوامر السامية في
شان تقريرها واعترافها بما حتى يظهر حللي النظر ودقيمه ان الحكومة بأقوالها وأعمالها
كخطيب فصيح العبارة لطيف الإشارة يث الغيرة في القلوب ويجذب الهمم
من خطة الخطايا ويدعو افراد الرعايا الى الهدى والرشد ويعلمهم الواجب عليهم
لأنفسهم وهو المحبة الوطنية والألفة الأنسية والتعاون على جلب المنافع العامة
التي يشترك فيها كل واحد منهم ودفع بلايا الفتر والغاوة والذلة الناشئة من الشقاق
والنباغض المتولدين من الجهل بحقيقة الحياة الانسانية وصدور مثل ذلك من
حكومة مصرية وان كان غريباً عجبياً اذا رجعنا الى صفحات التاريخ في الازمان
الماضية الا أنه ليس بمكان الغرابة في عصرنا هذا فان الجناب الحديوي الماعظم
قد عرف من عهد شبوته بالميل الى المعارف وشدة الحب لها والسعي في تربية

الاهالي وتهذيب عقولهم وعلى ذلك وزراؤه الكرام أيد الله شأنهم ومن ذلك لانعجب اذا رأينا هذه الحكومة الجليلة مساعدة لاهل الخير ممهدة لهم طرق الوصول الى خير ما يقصدون بعد ما ذلت لهم المصاعب الكلية (التي أدركهم اليأس من تذليلها في سنين طويلة) بعناية خديويها الجليل وهمة ودونلو رئيس النظار (١) وان من أقوى البراهين على ما نتولى إقبال الجناب الخديوي ودونلو رياض باشا ناظر الداخلية الجليلة على من قدموا اليه من رجال الجمعيتين الخيريتين الجمعية الخيرية الاسلامية بالاسكندرية وجمعية المقاصد الخيرية بمصر فقد قابلهم الجناب المعظم بصدر رحيب ووجه باش وأجاب التماس كل بأن يصير سعادة ولي العهد رئيساً عاماً للجمعية المبعوث من طرفها وعند ما عرض قانون كل من الجمعيتين على دولتلو ناظر الداخلية الجليلة أقره وأستحسنه وبعث الى نظارة المعارف باء-ترافه وقبوله وأصدر الامر بتقرير كل من الجمعيتين وشكر صنيع كل من رجالهما وحث على مساعدتهما في كل ما به تقدمهما غير انه لم يفض الطرف عن ما يلزم لعموم نفعهما وهو مراعاة وحدة التعليم وان تكون موزعات التعليم فيهما متحدة مع ما في المدارس الميرية ليتأني قبول تلامذتهما في المدارس العالية ليمتعوا بتتميم دروسهم فيها ونيل الشهادات الحقيقية على ما اكتسبوه من الفنون وخص جمعية الاسكندرية باعانة نقدية تبلغ مقدارها ٢٥٠ جنيتها من جانب الحكومة في كل سنة حيث انها قرنت بين العزم والفعل وشوهد لها أثر في العيان الا أنه حث مندوبها على مراعاة الفقراء والايام والاكثر منهم بالمدرسة قائلاً ان للاغنياء طرقاً كثيرة في تعليم أبنائهم أما الفقراء فليس لهم سبيل اليه واننا لو رأينا زيادة عنايتكم بالفقراء لزدناكم في الاعانة والنقدية ثم أكد وصيته بأن يكون التعليم حقيقياً راسخاً في القلوب ثابتاً في العقول لا أن يكون ظاهرياً على سطوح الخيالات والاهوام فهذا الصنيع الجليل من هذا الوزير الجليل يستدعي انطلاق الاسنة بالثناء عليه وميل الافئدة بكليتها اليه وما كل ذلك الا بعناية الخديوي وحسن مقاصده خلد الله دولته ويمكن في الآفاق سطوته وسنرى من آثارها بين الجمعيتين ما يحمد أثره ويخاد ذكره وهذا محصل

(١) كان رئيس النظار وناظر الداخلية لذلك العهد رياض باشا الشهر

ما كتب من نظارة الداخلية الى نظارة المعارف في شأن الجمعية الخيرية بالإسكندرية

بتاريخ ١٢ القعدة سنة ٩٧

« ليس بخاف ما نهض اليه الموفقون من أهل البر والاحسان من ذوات ووجوه الثغر السكندري في تأليف وانشاء جمعية خيرية لتعلم العلوم واللغات المفيدة والصنائع النافعة وقد قارنوا العزم بالفعل اذا أنشأوا المكاتب التعليمية ابتغاء مرضاة الله تعالى وحباً فيما يعود على الوطن بالخير والآن قدموا لنا قانون الجمعية الدال على حسن مقاصدهم بما قرروه من انشاء مستشفى للمرضى ومكتبة لمطالعة الكتب واستنساخها ثم دار ضيافة لمن يقدم على الجمعية وان يكون من شؤنها مواساة الارامل وتربية الايتام من أبناء أعضائها بعد موتهم وغيرهم ومساعدة من يصاون في أنفسهم وأمواهم بما يقوم بدوائهم وذكور رياستها العمومية في عهدة سعادة ولي العهد الاكرم وحيث كان هذا المشروع من محاسن الاعمال العائدة بالمزايا على الوطن وأهله الدلة على جمال المقصد وهي مطابقة من كل وجه لافكار الحضرة الخديوية وعند تلاوة مفصلات القانون المحكي عنه وجد مقبول الوضع ملائماً موافقاً للطبع فبناء على ذلك وجب قبول هذه الجمعية وتقريرها على حدتها ومعرفة بالاسم الذي عنونت به ولزم تحريره لسعادتكم اخطاراً بذلك لتقوموا بما ينبغي من المساعدة لها فيما يمكن به تقديمها وحسن سيرها ومن طيه نسخة القانون للعالم بما اشتملت عليه وحفظها أساساً لذلك بالمعارف

« وحيث اشتملت هذه الجمعية على تعليم وتدريس العلوم ونشرها بالصفة التي أوضحت بقانونها وهذا مما يجعلها تحت سلطة المعارف وملاحظتها فعليكم اعطاء جميع التعليمات والاوامر التي تلزم لذلك »

احترام قوانين الحكومة وأمرها

من سعادة الامة

وكتب في العدد ٩٥٣ من جريدة الوقائع المصرية الصادر في ٢٦ القعدة سنة

١٢٩٧ - ٣١ أكتوبر سنة ١٧٨٠

انما تسعد البلاد ويستقيم حالها اذا ارتفع فيها شأن القانون وعلا قدره واحترمه
 الحاكمون قبل المحكومين واستعملوا غاية الدقة في فهم فصوله وحدوده والوقوف
 على حقائق مغزاه وسهروا لتطبيق أعمالهم جزئية وكلمية على منطوقه الحقيقى
 ومفهومه عند ذلك تحيا البلاد حياة حقيقية ويسري فيها روح السعادة وتهطل
 عليها سحائب الرحمة فتخصب بها ارض الثرة لتكون جميع الاعمال على اخلافتها
 حينئذ متجهة الى غاية واحدة هي النفع العمومي المنقسم على كل فرد من أفراد الرعية
 على التساوي كل بمقدار عمله وصاحب الحظ الوافر من السعادة هم العمال والمأمورون
 وأركان الدولة لانهم مصدر الاعمال الكلمية التي عليها يدور نظام البلاد فينالون
 من الثرة على مقدار ما لهم من الفضل

وليس يكفي في راحة العباد وانتظام المملكة ان توضع القوانين حاوية
 لكليات الامور وجزئياتها ثم تهمل من النظر وتطرح عن الفكر ويستمر كل ذي
 عمل في عمله يتبع فيه رأي نفسه ان خطأ وان صوابا فان هذه الحالة يستوي
 معها وضع اقاوون وعدم وضعه ولا فائدة في ابراز فصوله وأبوابه من عالم الفكر
 الى عالم اللفظ والكتابة بل يكون هو والعدم سواء وتساوى بلاد ارتقى فيها الفكر
 الشرعي الى أعلا درجه مع بلاد بلغت أقصى غاية من الهمجية والتوحش فان
 نهاية أمر الجهتين هو الاختلال والشقاء وطالما افتخرت حكومة مصر في الزمن
 السابق بإصدار الواثق ووضع القوانين وتجديد النظمات وتنقيح الاصول الاساسية
 وسجلت ذلك في الدفاتر وخلصته في بطون الاوراق حتى كان الناظر في ذلك
 يظن ان بلادا هذا نظامها وذاك قانونها لفي غاية من السعادة والراحة لكنها
 كانت نحسوا أعناقها خجلا عند ما كان يظهر من أعمالها وأعمال عمالها ما يصاد

القانون الذي وضعته و بودي الى شقاء البلاد التي حكمتها ولا توأخذ على ذلك وهذه خصلة لا يرضاها العاقل لنفسه أعني أن يعمل على خلاف ما يرسم ويحدد أما حكومتنا اليوم فلم تسمح بوضع اللوائح تحت المساند ولا في مستودعات الدفاتر ولا تحت تراب الالهال والاغفال بل لانزال همة رجالها منوجهة الى جعل القانون عنوان العمل فلا تصدر حركة من أمر أو مأمر الا على طبق مرسومته في أوامرها العالية فان بقي من تلك المادة السيئة (أعني اهمال الاوامر) شيء في نفوس البعض من ذري المناصب وبلغ ذلك مسامع رئيسه الاعلى وجه اليه اللوم والعتاب وانذره انذار من توأخذ بالذنب ويعاقب على الجرم وأخذته الغيرة على قانونه الذي سنه خوفا عليه من الضياع وعلى ثمرته من المقتدان فان تكررت منه المخالفة أنزله عن منصبه بعد احالة النظر في مخالفته على المجالس القضائية وذلك كله لحسن مقاصد الحضرة الخديوية وعنايتها باصلاح بلادها وبهمة ولتولى رياض باشارئيس النظار وغيرته على الحق وتيقظه وسهره على تنفيذ لوائح الحكومة ومنشوراتها علما منه ان أسعد البلاد ما نفذ فيها حكم قانون خصوصا ان كان ذلك القانون عادلا يوافق مصلحة البلاد وانه لا فائدة في اجتهاد النفس لوضع اللوائح وتأسيس المنشورات اذا لم يجر عليها العمل ولم تكن نصب أعين العمال في جميع اجراءاتهم ينظرون اليها ويسيرون في كل أحوالهم عليها

فرغب هذا الرئيس الجليل رغبة حقيقية في تأييد حرية العمل في هذه البلاد ورفع سوط القسوة الغير القانونية وابطال عمله بالكفاية اذ لم يجعل لاحد من المأمورين سلطة على أحد من الاهالي الا فيما يعود على البلاد بالمنفعة العامة كما هو شأن العدالة وحقيقة النظام وأعلن ذلك بالصراحة في منشورات الداخلية الجليلة مرارا ليعلمه الحاكمون والمحكومون معا فيعرف الاهالي حقوقهم متمتزة ظاهرة فلا يسهحون بخدشها ويعتبر بذلك المسديرون وصغار المأمورين فلا يسخرون أحد في عمل من الاعمال بغير حق والا فلا يأمنون عاقبة ذلك وسوء مغيبه . نعم لهم الحق في أن يسوقوا المتقاعدین عن الاعمال التي تطلبها مصلحة البلاد بسوط العدل الذي لا يرفع عن المهمين وهذه صورة منشور جليل صدر من نظارة الداخلية في هذا الشأن منبثا بغيره

دوتلو ناظرها الافخم وشدة محافظته على رعاية القانون

« قد علمنا مما كتب لِنظارة الداخلية من مدير به الشرقية بالغراف أنه أخذ جملة أنفار من أهالي مديريته وتوجه بهم الى جهة شالوفة لاصلاح ماحدث من الخلل وترميم ماوقع من التهدم بمجرر سكة الحديد في المسافة الواقعة بين هذه الجهة والسويس ولما سئل عن إقدامه على هذا الاجراء بأمر من هو أجاب بأنه أقدم على ذلك بناء على تغراف ورد اليه من عموم ادارة السكة الحديد ولما رآه من المصلحة العامة في ذلك مع تعهد ادارة السكة الحديد بدفع أجر الانفار ولا يخفى ان هذا الاجراء لا ينطبق على القواعد الاساسية المتبعة ولا يوافق نصوص الاوامر السامية المصرحة بأنه لا يجوز تكليف الاهالي بعمل من الاعمال الا اذا كان عائدا عليهم بالمنفعة العمومية كزراعة وحفظ أراضيهم وبلادهم من غوائل العرق فقط . نعم ان منفعة السكة الحديد تعد منفعة عامة لكن لها دبرة خصوصية ترجع اليها ايرادتها ومصاريقها فعليها أن تدارك جميع أعمالها من طرفها باستعمال مأموريها أنفسهم فيما يلزم لها وليس لها أمر ولا نهي على المديرين من أعمال الادارة ولا غيرهم فيما يماثل هذا الامر ولو صدر عنها ذلك فلا يصح لمدير أو من دونه أن يجيبها أوغيرها الى ماتطلب بعد ما علم هذا الاساس المئين خصوصا ان أوامر الحكومة الصادرة الى المديرين ناطقة بأوضح عبارة بأن كل مأمور مكلف بامثال أوامر النظارة اتابع هولها فالديرون ليسوا بتبعة لمصلحة السكة الحديد ولاغيرها من المصالح ولكنهم تابعون لنظارة الداخلية ولا يسوغ لهم اجراء عمل ما يشبه ذلك الا بأمر يصدر لهم منها فعلى المديرين والاهالي عموما ان ينتبهوا لمثل هذه القوانين الثابتة ويراعوها حق المراعاة ويعلموا انه لاسلطة للمدير أوغيره على أحد من أهالي البلاد في عمل من الاعمال الا فيما يعود اليهم بالمدافع العامة فقط وهو ما يقرر بالجدارل في كل سنة من أعمال انظهير وتقوية الجسور - هذا بلا دعء فيضاز انبل وكر من يبدو منه أدنى مخالفة لهذه الاوامر بأن يكف الاهالي بأداء أعمال لانجب عليهم ولا هي في منفعتهم العامة المقررة

(١٠ - ج ٢ تاريخ الاستاذ الامام)

في جداول العمليات فقد أوقع نفسه تحت خطر المحاكمة ونفوذ أحكام العدالة فيه ومجازاته بما يقضي به القانون وبهذا لزم الاخطار لعموم الجهات ومن الجملة لسعادتك تحذيرا من الوقوع في المخالفة .

حب الفقر أو سفه الفلاح

وكتب في العدد ٩٦٩ الصادر في ٢٢ الحجة سنة ١٢٩٧-٢٥ نوفمبر سنة

١٨٨٠ تحت هذا العنوان ما يأتي

كان أهالي بلادنا محملين من الاثقال القدية مالا يطيقون من ضرائب على الأراضي متنوعة متكثرة تتجدد على الدوام بتجدد الأشهر والاعوام وحرائم تفرض على النفس وتوابها من غير نظام لانتهبي الى غاية ولا تقف عند حد حتى بلغت بهم نهاية لا يستطيعون معها الأداء لشيء مما فرض عليهم ثم لم يكن لاقتضاء هذه الفرائض الثقيلة منهم وقت معين ولا قاعدة معروفة بل ذلك كان على حسب اشتهاؤ الحاكم وارادته الغير المرتبة فتارة يجبرون على أداء جميع أموال السنة بأنواعها في أول شهر منها وتارة يطالبون بأموال السنة اقبالة في منتصف السنة الحاضرة ولا يخص لهم عن الاداء فان من تأخر عنه عومل بالضرب المهلك والحبس المؤبد أو انزع منه جميع ما بيده قهرا وما شا كل ذلك من المعاملات الخشنة

ولا يجد للخلاص من جميع ذلك سبيلا سوى الاتجاء الى التجار وأرباب البنوك الذين هم كانوا أعظم أعوان الظلم في ذلك الوقت وأشد أنصاره فذاروا حاجة الاهلي اليهم تدلوا وتمنعوا العلمهم ان اقرباج وراهم فلا قدرة لهم على الصبر ولا سبيل الى التخلص من ألم العذاب ولو موقتا الا بالرضاء لكل ما يرسلون عليهم من المفائدة وكان التاجر لا يودي نقوده سلما ولو قبل الحصاد بشهرين يوماً الا ستمين فيما يساري مائة وقت الحصاد فتكون المفائدة أر بين أو يزيد في الشهر الواحد وصاحب البك لا يعطي الا بفائدة في المائة عشرة بل يزيد في كل شهر ومن الناس من كان يأخذ المائة بمائتين في أربعة أشهر وجميع هؤلاء حاضرون

أحياء نعلمهم وهم يشهدون فكانت تلك الأيام ويلا ووبالا على الحكومة والاهالي جميعا وكات سعدا وريعا للتجار وأرباب البنوك الغرباء الدخلاء الذين انتشروا بين أبناء البلاد انتشار الذئب بين الاغنام فأثقت كواهل الفلاحين وغيرهم من الوطنيين باديون الهائلة واضطرم العجز لبيع أملاكهم وورهن عقاراتهم وأراضيتهم أو الانسلاخ عنها بالكلية فأحاط بهم الفقر وصاروا في أسوأ حال والحمد لله أصبحوا في هذه الأيام وقد خفت عنهم الاثقال وألبي كثير من الضرائب الغير القانونية ووقفت المطلوبات عند حد معروف وضررت لتأديتها مواقيت محددة على حسب فصول السنة وما يكون فيها من حاصلات الزراعة فتوفرت على الاهالي ثمرات أنماهم وصار والآن لا حاجة لهم الى بيع شئ بأقل من قيمته ولا بفلس واحد فان اوقات الاداء هي أوقات اجتهاد ثمرات الزراعة ومع ذلك فالمطلوب مقسط باقساط خفيفة سهلة الاداء لانجبيء صاحبها الى ارتكاب شئ مما كان يرتكب أولا فنمت الثروة نموا لم يكن يخطر بالبال وأيقنا ان الاهلي سيثبتون على أملاكهم ويعتبرون بسوابق أحوالهم فيحرصون على تقدمهم في الثروة والغنى حتى يستردوا ما سلب من أيديهم قهرا ولو باعلى قيمة وأغلى ثمن وتأخذهم الغيرة على أملاكهم وأملاك اخوانهم التي أصبحت في أيدي غيرهم يتمتع بخيراتهما ويتلذذ بشهي ثمراتها فيطالبون رجوعها اليهم بدفع أضعاف قيمتها الاصلية كما هو شأن الاحرار ذوي الشرف والهمة وذلك لا يكون الا بانباع قانون الاقتصاد والا كنفاء من اللوازم بتقدر الحاجة أو دونها حرصا على نيل الشرف الحقيقي وهو تخليص أملاكهم أو حفظها من تطرق يد الغير اليها الا اننا نأسف كل الاسف اذ لم نظفر بهذه الامنية فان الحكومة لما رفعت عن كواهلهم أثقال الظلم وخففت عنهم أحمال المعارم فتحوا على أنفسهم بابا من الفقر آخر يلجونه باختيارهم وارادتهم بدون قاسر ولا قاهر وهو باب السرف والتبذير والا كثار من لوازم الرفاهية والزينة وما يكسب الفجور الكاذب بلاطائل فرأيناهم يتماخرون في اعداد الولاثم وإثقان أشكال الزينة ويتنافسون في تشييد الابنية ويتكاثرون في الملابس وأنواع الملاذ لا يقفون فيها عند حد ولا ينتهون

ألى غاية (كما كانت الضرائب في الزمن السابق) وليتهم مع ذلك ينقدون في اجتلاب هذه الاشياء قيمتها الحقيقية ولكنهم من الجهل يشترط ما يساوي عشرة بعشرين إن لم نقل بمائة فإن ضاق ابراد أحدهم عن هذا المصرف الواسع أسرع الى البركة يرهن فيه أرضه وعقاره بفائدة ليست بقليلة يلزم نفسه بأدائها أعواماً كثيرة وبظننا سهولة الاداء مع انها تحت شروط شديدة علمه لطيفة على صاحب البنك غير متدبر عاقبة الامر ولا متبصر في نتائج هذه الغفلة

بلغني ان بعض الاعيان في بلادنا رهن أرضه الزاوية الخصة على خمسة وعشرين ألف جنيه يدفعها في خمسين سنة مائة ألف جنيه وكسور . أليس هو الاحق بهذه الفائدة التي هي ثلاثة أضعاف ما أخذ وهي ثمرة كسبه ونتيجة تعب وماعليه اذا اقتصر في مصرفه ليحفظ على نفسه ذلك المبلغ بل أكثر منه ولعلم الحق انه لو أنفق على قدر ابراده أو نصفه لقلنا أنه من المسرفين ولكن أبي حاكم الشهوات الا أن يكلف هؤلاء الضعفاء النفوس المنحطية الافكار بما لا يطيقون كأنهم يرهنون باعمالهم هذه وتمورهم في الاسراف والانفاق على أنهم ليسوا أهلاً للثروة ولا مستحقين للثمن ولا يتحملون ثقل الخير على أنفسهم بل يجبون ان يكونوا على الدوام فقراء متربين لا يملكون شيئاً وان كانوا في صورة اغنياء مترين ويرغبون ان يكونوا تحت ذل الدين وأثقاله اذ رسموا على ذواتهم ان تكون في قبضة ارباب الدين يتصرفون فيها وقت ما يشاؤون ولا يعاونون ان نكبات الدهر كثيرة الورود شديدة البطش فربما اجتاحت (زرعه) جائحة سماوية (كما عرف عندنا بالندوة أو الهيفة) أو أصيب بموت ماشيته أو نزلت به حادثة غرق أو شرق أو ماشا كل ذلك من المصائب التي لا مندوحة عنها فيجزع الاداء فتباع أملاكه ويصبح من الخاسرين ولا يبقى له سوى الحسرة في قلبه على ما فرط في شأن نفسه وكان من الواجب على هؤلاء المساكين (الاغنياء والمتوسطين) ان ينهزوا فرصة الراحة ليعدوا فيها ما ينفعهم زمن الشدة ويوفروا على أنفسهم شيئاً من ثروتهم لتكون بفضل الله فرجة لهم يوم الكربة والا فمقد دلت انتجارب على ان عاقبة الاسراف حسرة تملأ القلب وحيرة تدهش اللب وسنعود الى هذا الموضوع مراراً ان شاء الله

وكتب في العدد ٨١٩ الصادر في ١٦ المحرم سنة ١٢٩٨ (١٨) ديسمبر

سنة ١٨٨٠

(عدنا والعود احمد الى موضوع حب الفقر اوسفه الفلاح)

الاقتصاد هو فضيلة من فضائل الانسانية الجليلة بل هو من أهمها مدحته جميع الشرائع وبينت فوائده وهو كغيره من الفضائل مركب من أمرين بذل وامسك أعني ان الاقتصاد هو التوسط في الانفاق بحيث لا يبسط صاحب المال يده كل البسط حتى لا يبقى فيها شيئاً ولا يقبضها كل القبض حتى لا يخرج منها شيئاً بل ينفق من ماله على حسب حاله يقدم الأهم فالأهم في دفع الضرورة وقيم البنية على قدر ما يناسب درجة غناء وفتوره مع حفظ بقية من كسبه يعدها للعوارض الغير المنتظرة التي قلما ينجو الانسان من ورودها عليه بغتة من حيث لا يشعر فاذا جمع الشخص بين الامسك عما لا يلزمه والبذل فيما هو أحوج اليه فقد حاز فضيلة الاقتصاد التي قال فيها نبينا صلى الله عليه وسلم (الاقتصاد نصف المعيشة) والمعنى ان المعيشة تقوم بأمرين الكسب والاقتصاد في انفاق ثمرته فمن كسب مالا فقد حاز أحد الأمرين فان لم يحز الآخر وهو حسن التدبير فقد فقد نصف معيشته أي فقد أهدم أحد ركني المعيشة فان حاز الأمر الثاني هو الاقتصاد فقد تمت له المعيشة وتوضيح الحقيقة في هذا الباب ان من أجهد نفسه في الاكتساب وتحصيل الاموال ولم ينفق منها شيئاً على نفسه في مأكله ومشربه وملبسه ومسكنه وغير ذلك من لوازم معيشته أو أنفق منها قليلاً جداً بحيث لا يفي بلوازمه ولا يقضي واجباته فهو وان كثر ماله وغزرت مادة ثروته لكنه في الحقيقة ناقص المعيشة فقير جداً وهذا الكاسب ليس الا بمنزلة خادم حقير مكلف بالجمع والتحصيل والحفظ فهو خفير فقير بيده مفاتيح الخزائن ولكن كأنها مملوكة لغيره لا ينال منها شيئاً ولم ينل الا التعب والشقاء لا غير وكذلك ان تجاوز في النفقة حد الواجب بأن حدد لنفسه من الامور ما ليس بلازم وصرف جميع ما أكتسب أولاً فاولاً فانه يكون في غاية من الفقر وان كثر الايراد جداً لانه في كل آن لا يملك من ثمرة كسبه شيئاً فهو

بمنزلة من يصب مافي حوض ففتح في قاعه بالوءة كبيرة لانقي شيئاً مما يصب في الحوض فالماء دائم السيلان لكن الحوض فارغ فهو في الحقيقة فنيهر جرانأمت به مصيبة أصبح متربافي غاية الاحتياج والاضطرار يرشد الى هذا كله قوله تعالى (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتعبد ملوما محسورا) وهذه القاعدة الجليلة مع ظهور فائدتها في انتظام أحوال الانسان بحيث لا يعارض فيها عاقل ولا جاهل وترغب الشريعة الطاهرة في اتباعها والعمل بها على ما نظمت به الآيات والاحاديث نرى كثيراً من الناس في ديارنا منحرفين عنها كل الانحراف بعضهم يميل الى جانب الامساك بالمرة والبعض الآخر يميل الى جانب الاسراف بالكلية أما الاولون فانهم يصرفون جميع أوقاتهم في الكد والتعب والاخذ بأنواع الحيل لتحصيل الدينار والدرهم ثم يودعون جميع ما يحصلون بطن الارض وترتعد يد الواحد منهم عند ما يقرب من الصرة أو الوعاء المحتوي على النقود فان وجب في ذمته لله أو للناس حق صعب عليه أدأوه فيكتسب الوزر والجرم وينال من الناس الاهانة والتعزير في طلب حقوقهم وتحيط به الضرورات بأنواعها ولا يدفع شيئاً منها بشيء من ماله بل أن ماله المكنوز ربما كان يمكن استزادته وتنميته ولكنه لا يرضى بذلك ويحب أن يدوم كما أودعه لا يزيد الا بما يضمه اليه من خارج ويقترب على نفسه في كافة لوازمه فلا يحافظ على صحة بدنه ولا يبذل شيئاً في تربية أبناءه وتهذيبهم وان كان على علم بأن ذلك واجب خشية من نقص عدد النعمود وان كان ذا عائلة اضربها من عدم الانفق وأهمل واجباتها وتركهم يثنون تحت آلام الاحتياج فمثل هذا السفيه اتس حالاً من الفقير فان الفقير ربما يمنعه عن قضاء حاجاته العوز والاعدام ولكن هذا يمنعه عنها حب الفقر والاضطرار والتلذذ الوهمي بأن له نقوداً في بيته فإذا مات تركها لا يعلم بها أحد لانه اكتنزها في أخفي الأمكنة وأشدها بعدا عن الاعين فيصبح أبناؤه ومن كان في نفقته نقراء معوزين لا يمكن ان يكون شيئاً فهذا الصنف من الناس خلق لان يتحرك في الهواء حركات الذرات الغير الشاعرة لا يدري لأي شيء يندو ويروح وهو عاشق للافتقار والاضطرار ويلتقي في نهاية سيره مع اخوانه في الرذيلة المسرفين

وأما قسم المسرفين من أهالي بلادنا فقولئك شأهم غريب إذا خفت عنهم المغارم واقالتهم الحكومة من المظالم وتوفر لدى البعض منهم شيء من النقود وارتفعت أسعار المحصولات أو جاد موسمها ورأى بعضا من القوديرن في يديه قصد إلى سوق البضائع الأفريقية (التي يعد اقتناءها مدينا) يشتري أخسها وأدناها بأعلى القيمة وأرفعها حلية لزوجته وزينة لابنته وابنه وبهرجه لنفسه يظهر بها نظنها رونقا يكسبه حلية واعتبارا حتى يعود وقد صرف جميع ما توفر لديه وربما كان مع ذلك بيته مهتما يحتاج إلى البناء ومضجعه خاليا من الفراش لا يسترسوي الحصر البسيط وزوجته التي يحليها هي المنفوسة في الأقدار المكلفة بأداء جميع الأعمال الحسيسة وليس عندها من الأوقات ما تتجمل فيه بتلك الزينة اللهم إلا يوم المآتم والفرح وأبناؤه الذين حاباهم بتلك الزخرفة فاقدوا التربة متر وكين في زوايا الأهل يسره أن يراهم يلعبون ويتواثبون في مساحة بيته المفترشة بطبقات من الأتربة ثم إذا زداد إيراده مرة أخرى رأيت يتفنن في الولائم وإقامة الأفراح لابنائه وأقاربه تحت مصاريف متى فتحتها على نفسه أخرجه عن طاقته وأنفق فيها المثمن والألوف بجملة الأشياء النالفة التي لا قيمة لها سوى العدم ويسره في كل ذلك أنه فرح بابنه أو أخيه أو ابنته الذين لم يكتسبوا شيئا من الفضائل وكان الأليق بهذا المسكين أن يتخذ له من فضل الكسب معيناله في أعماله يخفف عنه بعضها فإن ما ينفق على المساعدين يأتي بالربح ويفرغ صاحب الكسب لأعمال أخرى لم يكن يقدر على تعاطيها أو يأتي لاهل بيته بمعين على أعمالهم حتى يملوا شيئا من الراحة أو يودب أولادهم وبهذهم على شرط أن يكون ذلك غير مستغرق كافة الكسب بل لا بد أن يبقى منه ذخيرة ينفقها عند حدوث الحوادث وينظر للعواقب نظر الحكيم ويكفيه من الأفراح أن ابنه ختن أو تزوج في حياته بدون احتياج إلى ما هو أزيد من ذلك فقد رأينا كثيرا من هؤلاء المساكين نأثيهم أراضيهم المحصولات الجيدة والأرزق الوفيرة ثم يفتنونها عند ورودها في أمثال هذه الزخارف الباطلة حين إذا مضت مدة السكر التي أتى بها الإبراد وطرقه نائبة من موت مواشيه أو فساد زرعه بمجاعة سماوية أو خسران تجارته أو كساد صناعته

أو حدوث أمراض أو قفته عن الاعمال وكيسه فارغ وبيته خال (الامن الزخارف التي لا أساس لها) عمد الى بيع مصوغات زوجته وأثاث بيته ورهن أملاكه أو بيعها حتى يصبح فقيرا معدما وقلما يمكنه الزمان من الرجوع الى مثل حاله الاولى أو ما يوازها فيأخذ في الانزواء قهرا عنه ويخلع ثياب الفحفخة والزينة ويلبس رداء الخمول والفقر وترميه العقلاء بل وامثاله من السفهاء الذين ذاقوا مثل ما ذوق أو ينتظرون عاقبة كما عاقبه بالسفه وضعف الرأي وقلة العقل ويسمي ذليلا محتاجا بعد ان كان يظن نفسه غنيا عزيزا فما أصعبها على النفس من حالة وباليت القمة كانت خاصة بشخصه ولكنها تأتي على عائلة جسيمة ينالهم من شرها أكثر مما ناله وهذه الحالة نراها في الكثير من أوساط البلاد وأغنيائها وهذا كما يضر بهم وبحواشيبهم يضر أيضا بثروة البلاد نفسها اذ تكثر الثروة في دوائر مخصوصة عند اشخاص قليلين لو ازدهم ليست بالكثيرة فكسد أسواق الصناعة وتجارة لثة الراغبين في الصنائع والبضائع أي لقلة المقادير على اقتنائها وتقل الرغبة في الاعمال الزراعية اذ يكون الجميع كالجاء لا يهتمون اهتمام الملاك وان أغنى البلاد وأسعدها هي البلاد التي توزعت ثروتها على غالب أهلها - ويزداد الضرر اذا وقعت الاملاك والمبيعات في أيدي الغرباء والاجانب الذين لا يسرنا ان نراهم واضعي أيديهم من غالب الاملاك العظيمة ولاراضي الواسعة التي كانت في أيدي أبناء البلاد بل هذا أمر يحزن كل ذي عقل وادراك ولا يغفل عنه الا نبي ذنيء محب للفقر والفاقة واننا لنخجل من حكاية هذه الاحوال عن أهلى بلادنا خوفا من وقوع بصر الاحنبي عليها فيعرفون منا ما لا نحب أن يعرف لكننا نظن أنهم على خبرة من أمورنا بحيث لا يفيدنا السكوت ولكننا ندعو النبياء بل واهلنا أن يجتهدوا في بث هذه الافكار بين عموم الناس لعلها تنجح فيهم ولا أراها لا ناجحة ونرغب الى بعض ذوي الحكمة في بلادنا لاجل بل وفي المدن ان يلاحظوا ذلك وينصحوا المتوسلين في الاسراف على غير قاعدة راشدة بأن يكفوا عنه ونمعدلوا في أحوالهم خيرا لهم من ضياع أموالهم

ثم كتب في العدد ١٠٢٤ الصادر في ٢٨ صفر سنة ١٢٩١ - ٢٩ يناير سنة ١٨٨١

﴿ حب الفقر أو سفه الفلاح ﴾

(نعود اليه من وجه آخر غير الذي بدأنا به)

خلق الانسان ولوعاً بالمنفعة حرصاً على احراز الفوائد نفورا من غائلات الاضطرار يطلب لاجتلاب رزقه قريب الوسائل وبعيدها ويجهد النفس في توفير ثمرات الكسب توقياً من عوارض الاحتياج وطواريء الافتقار وهذه فطرة أهمه الله اياها لتكون له مخلصاً من تعاسة المعيشة التي تنشأ عن الاضطراب في حفظ الحياة فهو يتعب الجسم ويشغل الفكر ويواصل العمل وان كان في ذلك نوع من الآلام والشقاء ليعناض من تعب هذا راحة كان يعسر عليها لولا هذه الاتعاب وهي الاطمئنان على النفس والثوق بصونها من التهلكة فترى العامل يشتغل بأشق الاعمال بياض نهاره ويتألم ويتضجر من صعوبة العمل كأنما قهره عليه قاهر وفي الحقيقة لا قاهر له سوى علمه بأنه لولم يشتغل لفقد أجر الاشتغال وهو مادة قوته وقوام معيشته في مسكنه وملبسه وكافة ما يقي حياته من الزوال فيستسهل هذه الاعمال البدنية في جنب ما تأتي به من الفائدة الكلية وهي حفظ الوجود ورفع ألم الاضطرار الطبيعي وهو الجوع والعري وتسايط القوى الطبيعية من الحر والبرد على بدنه ومصداق ذلك ما نراه من السنن المقررة في أهالي المعمورة عموماً على اختلاف أصنافهم ومواقع أوطانهم يشقى كل واحد شقاء جزئياً وقتياً لينال سعادة كلية ثابتة على زعمه ويترك فوائد جزئية لا ثبات لها كالذرة الراحة والبطالة لتحصيل فوائد أعلى وأثبت ولو سألنا حال الصبيان في سن الرضاع لنطق بحقيقة ما قلنا فهل يرتاب في ذلك أحد

لكننا من العجب نرى هذا الالهام الآسهي (إلهام الدأب في السمي وارتكاب بعض المشقات لنيل الراحة الثابتة) قد غشيه في بلادنا سحب من الجهل فاسترعن النفوس فعاد الناس لا ينظرون الا للغايات الوقتية بل الآتية التي وبما لا يكون لها بامتداد أزيد من آن حصولها وذلك بعد ان نذكره عامّاً في غالب طبقات الناس كما

يشهده العيان من ميل جميع الطبقات الى ابطالة والكسل عن تعاطي الاعمال التي يناط بها كل واحد منهم استنادا الى الراحة لوقتية وكونهم الى قضاء واجبات أغراضهم وشهواتهم على أي وجه كان لا يحكم الواحد منهم قانوناً ولا يستفي شرعية طلبا لمنفعة آتية ربما أعقبها نكد يمتد مع الحياة نذكره كذلك خصا في طبقة الزارعين من اخواننا الفلاحين فان لهم في ذلك شوقاً وغريبة وأطواراً عجيبه تقتصر منها هنا على وجه واحد من وجوه انحرافهم عن الجادة المستقيمة في تحصيل أرزاقهم وحفظ حقوقهم

يعلم كل زارع علم اليقين ان الزرع لا ينبت والنبات لا يشمر ولا يجود الا اذا أصاب الزرع من المياه حظه القانوني ويوقن ان بلادنا ليست أقطارا يكثف فيها نزول الامطار فعم المزارع بدون عمل منا فننال حفنا منها ونحن رقاد وليس لنا من الامر شيء سوى انتظار ماء السماء فان يبس الجو مات النبات ونزل القحط والعباذ بالله

بل يعلم حقا ان الله قد منح أراضينا ماء النيل روحاً لنبتها وحيوانها وهو ميسر يأتي في مواقيت الاحتياج على سبيل الاضطرار حاملا من المواد المغذية للنبات ماشاء الله ان يحمل غير أنه يحتاج الى أعمال اليد في توزيعه على المزارع وحفظها من الزيادة المفسدة لها فنحتم لذلك شق الترع والجداول وتطهيرها واقامة الجسور والقناطر وما سلك ذلك مما هو معلوم عند الفلاحين أيضاً ويتحقق كل فلاح ان هذه الاعمال لو أهملت وكانت الجسور ضعيفة أو قيعان الترع غير عميقة الى الحد الكافي جلب المياه بسرعة أو سدت مسالك المياه من أي وجه من الوجوه الطبيعية لفسد الزرع اما بالفرق العام أو اليبس الكلي المبرع به (بالشرق) فتتعطل مادة الرزق ويسوء حال الزارعين على العموم

جميع هذا الذي قلناه يعلمونه حق العلم ثم تراهم مع ذلك يفرون من الاعمال العمومية التي دعت اليها ضرورة حياتهم على ما قدمنا فرار الفريسة من المفترس وما هذا الفرار الا ملاحظة للاعتاب الجزئية التي تنالهم من البعد عن بلادهم قليلا وترك بعض أعمال خصوصية في البيت أو أرض الزراعة وصعوبة العمل نوعاً على

ان هذه الاعباب لاتعد شيئاً بالنسبة الى ما ينشأ عنها من الفوائد وعن تركها من
المضرات الكلية المؤدية الى فقد الحياة وعموم التحط فوان لهم بصيرة واعية
لقسموها على أنفسهم بالتراضي كبيرهم يستوي مع صغيرهم في كيفية أدائها بطيب
القلب وصفاء الخاطر استجلاباً لمادة رزقه بدون ان يحتاجوا في ذلك الى سائق
يسوقهم أو قائد يقودهم خصوصاً في هذه الاوقات التي توفرت فيها الافراد
توفرنا تماماً بسبب ارتفاع أنواع السخرة الخصوصية التي كانت عامة البلوى في
أنحاء القطر فكان عدد البلد الواحد الذي لا يزيد عدد القادرين على العمل فيه
عن مائة يؤخذ منه عشرون للعمل في الجفتلك الفلاني المتعلق بالسنت الفلانية
وعشرون آخرون للاوسية الفلانية التابعة للباشا الفلاني وعشرة لابعادة أخرى
وهكذا فر بما أنى يوم من الايام لاتجد في البلاد الا الشيايب والعجائز والصبيان
أما الآن وقد علموا ان معدل المطلوب يبلغ ثمن التعداد بالتقريب والباقون
يشتغلون بالاعمال الزراعية في الاراضي فلا يليق بهم التقاعد عنها بل من الواجب
على كل واحد المسارعة والمبادرة اليها بكل ما في قوته وامكانه تعاضداً وتعاوناً وانفاً
تماماً على جلب هذا الخير العظيم لانفسهم وعموماً وأي سفه أعظم من أن يعلم الشخص
طريق منفعة التي لا طريق له سواها ثم يتقاعد عنها ويحتاج الى من يجذبه اليها
بالقوة القاهرة

فان نعلموا بأنهم لا يفرون من العمل نفسه ولكنهم ينفرون من الاعمال
التي كانت تصدر من احكام وتابعيهم من الضرب المولم والارهاق المزعج واعمال
سوط السطوة فيمن يذهب الى مواقع الاعمال العمومية وتكليف العامل بما لا
يطاق من العمل والظلم البين وتوزيع مناديره على حسب ميل المأمورين والمهندسين
اذ ذلك الى بعض الجهات لغرض ما وانحرفهم عنها فيخفون عن بعض البلاد
ما يشغلون به كاهل البعض الآخر حتى ينال من هذه أيضاً مثل ما نال من تلك
فيقع التوازن والتعدل بين البلاد لكن يقع معه الاختلال في العمل المطلوب اذ
يخف العمل عن الجميع بواسطة ما دفعوا من القود فيقيمون الزمن المحدد ثم ينصرفون
الى بلادهم بدون طائل فهذا هو الذي يوجب النفرة والفرار من الاعمال العمومية

كراهة في الذين كانوا يتولون أمرها فأقول لهم في الجواب عن ذلك (أولاً) ان تلك الايام قد مضت وانقضت وهي الايام التي كان قدر الفلاح فيها مجهولاً وكان يستعمل في الاعمال كما تستعمل الدواب والماشية لا يعلم لأي شيء يشتغل ولا لأي شخص يعمل هل لنفسه أو لغيره حتى صار بعد جميع الاعمال لغيره لانفسه أما الآن فقد عرفت الحكومة قدر رعاياها وتقدمت اليهم بجميع الوسائل النافعة لهم وسارت أوامرها الشديدة في انحاء البلاد سيراً حثيثاً ناطقة بأن لاسلطة لأحد من الحكام على أحد من الناس الا فيما ينفعهم ويعود عليهم بثمرات الثروة والوقاية من موجبات الضرر وقد شاهدنا رأي العين ان كل من ينحرف في سيره رمقته عين الحكومة التي لا تغفل حتى تتحقق سوء فعله فتأخذه بجرمه وتضعه تحت المحاكمة كأننا من كان وقد نشرت الجرائد كثيراً من مثل هذا. أفيليق بالزارعين بعد ما رأوا صدق عزيمة الحكومة في تعميم المنافع بينهم وأنها تجد كل الجدي في تسييرها بأي الوسائل ان يتقاعدوا عن ما علموه منفعة لانفسهم استحضاراً للصور الماضية وان كانت هائلة تنزعج منها النفوس (وثانياً) ان الذي دعا أرباب السلطنة في الزمن السابق الى التطاول عليهم إنما هو تباطؤهم عن منافعتهم بتفرق الكلمة في طلب المنفعة العائدة على الجميع فلو أنهم صدقوا جميعاً في تميم ما يجب عليهم من الاعمال وكل واحد يشتغل وهو يعلم ان هذا العمل عائد اليه بالنفع كعمه في مزرعته بلا تفاوت فهل كان يمكن لاحد ان يثقل عليه أو يخفف عنه؟ كلا أنهم كانوا جميعاً يقدرون على ردع الظالم وتبيده لو اتفقوا على منفعتهم برفع أمره الى من فوقه وازهار حاله الرديئة فلا يستقر قدمه بينهم ولكن ظنهم ان العمل أجني للحكومة لاهم هو الذي بث في نفوسهم حب التخلص منه بأي الوسائل فيتداخل كل منهم في صرفه عن نفسه بكل ما يمكنه فيقع الظلم على البعض بل الاغلب من جهة ويختل نظام الاعمال من جهة أخرى لوقوع التهاون من البعض الذي أرضى الحاكم السافل وهذا جهل بين فان الحكومة لاشأن لها في هذه الاعمال الا ايصال الخير الى رعاياها فهم الغاية المقصودة بثمره العمل فليس من العقل بعد ما تحققوا هذا المقصد في عهد حكومتنا الحاضرة وان سلطنة الباشوات (والساتات)

والمأمورين قد ارتفعت ولم يبق الاسلطة الحق والمساواة ان يتقاعد مكلف بعمل ما عن عمله اللهم الا أن يكون سفها يستحق الحجر عليه

على اننا ننظر في أحوال الفلاحين أمرا غريبا من هذا الذي قدمنا وهو الاعراض عن الاعمال الخصوصية المتعلقة ببلد واحد كتطهير ترعة مخصوصة بأراضيه أو المحافظة على النقطة المقابلة له فيعلم أهل البلد علم اليقين ان رعتهم الخصوصية لو لم تطهر لتأخرت عنهم المياه وتعطلت زراعتهم اما بتلفها كلية أو بالقص في ثمراتها وان المحافظة على قنطرتها أيام النيل مثلا أمر لا بد منه والا اندفعت المياه على أراضيهم فافسدتها ثم ان عملية التطهير ربما لا تحتاج الى أكثر من أربعة أيام أو خمسة ومع ذلك ترى كثيرا من البلدان يهملون المساقى الخصوصية التي لا طريق لري المزروعات سواها فاذا جاء أوان فيضان النيل ارتوت الاراضي عن يمينهم وعن شمالهم وهم يتاهفون على نقطة من الماء فلا يجدونها وكلما دعاهم داع في أيام التطهير الى العمل محتج كل واحد منهم بحجه ان له شغلا خصوصيا في بيته أو غيظه يمنعه من ذلك حتى تمضي الايام ويأتي وقت الندم حين لا ينفع فان لم يكن في البلد عمدة يهيمه أمر زراعته لانها أكثر من زراعة الباقيين فيلجئهم الى العمل قهرا لتعمهم الفائدة - وان لم يبعثه الا المنفعة الخصوصية لكنها أوصلت الى العمومية فهذا حالهم فانظر الى هذه الحالة الرديئة التي نشأت من تفرق القلوب وانقطاع التواصل بين النفوس فلا يهتم واحد بعمل يشترك في منفعته مع آخر وان كان يتحقق الضرر لنفسه بمرکه كأن اشترك الغير في المنفعة صبرها مضره ينبغي اجتنابها وكان من الواجب ان الاشتراك يدعو الى التعاون والقوة بدل النهاون والانحطاط فكأنهم سلبوا الخواص الطبيعية التي لانسان الجبال والغابات وقد علمت الحكومة ذلك فأرسلت الى المدير يات بالتأكييدات الشديدة لتتميم العمليات الخصوصية ومع ذلك لم نزل نسمع بأن بعض البلاد لم تعمل شيئا في لوازمها الخصوصية فكأن المأمورين يعاملون الفلاحين بما في نيتهم لكن ليس هذا غرض الحكومة فالواجب على كل مأمور في جهة أن يهتم بتنجز أعمالها الخصوصية فقد أرف وقت العمليات العمومية ولا يمكن فيه قضاء عمل خصوصي والا فكل مأمور سيستل عن جهات مأموريته وان عاقبة

السؤال غير مجهرلة نسأل الله أن يصلح أحوالهم ويمنهم بنور البصيرة فيرشدون الى حسن المال ويوفقون لخير الاعمال .

وكتب في العدد ٩٩٠ منها الصادر في ١٨ المحرم سنة ١٢٩٧ - ٢٠

ديسمبر سنة ١٨٨٠

المعارف

كثرت تحدث الناس في شأنها في هذه الاوقات وكانهم لما فرغوا من الافكار المتعلقة بالامور المالية والادارية وما كان فيها من الاضطراب وتنوع الاحوال وتقلب الاشكال اذ كفتهم الحكومة أمر ذلك كله بشباتها وتبصر رجالها العقلاء أخذوا يلتفتون الى ما به حياتهم الحقيقية ونمو هيتهم الاجتماعية وظهور شأنهم بين الناس وحسبانهم في عداد أهل العالم وهو العلم النافع الذي رأينا جيراننا من الممالك نالوا به السيادة على غيرهم وطفقوا يتذاكرون فيما به يكون تقدمه والوسائل الموصلة الى انتشاره في أقطاره موجهين آمالهم الى نظارة المعارف العمومية لانها ذات الشأن فيه فقلوا كلاما كثيرا اذ كره كما قيل

قالوا ان المدارس ينبوع هذا الخير الجليل (العلم) وليس له من وسيلة سواها ولكن تحت شروط لا بد من استيفائها (ولسنا الآن بصدد بيانها) وقد افتتحت المدارس في ديارنا من عهد المرحوم محمد علي باشا لكن كان اسمها غريبا على الأذان وحشيا عن القلوب يساق الناس اليها (كأنما يساقون الى الموت) إذ كانوا يظنون ان الدخول في المدارس هو الانتظام في العسكرية والدخول في العسكرية هو الشقاء الدائم والبلاء المحتم وبعض الناس بعد التنبه كانوا لا يرون خطة أرفع من خطة الكتابة في ديوان أو مصلحة لما يرون للكاتب من المكانة عند الحكمم والتصرف في الحقوق فاكتمفوا بارسال ابنائهم الى الكتبة يعلمونهم حتى اذا كبروا انتظموا في سلكهم وكانت لهم المنزلة المطلوبة بدون حاجة الى مدرسة ولا مكتب منتظم وبعض الناس ربما كان يعلم فائدة المدارس وليكن كانت توجد له أسباب تمنعه من

ثرية أبنائه فيها ولكننا لا نبدئها وأما في أيامنا هذه فقد تنهت العقول ووقفوا على فوائد العلم ومغراته حق الوقوف غير أن ذلك يقضي على الآباء بترية أبنائهم من الآن فصاعداً على الطريقة المنتظمة أما الشبان الذين فاتهم زمن التعليم في تلك الجاهلة السابقة واشتغلوا بتحصيل مادة المعاش إما بالتوظف في الخدمات المبرية أو طلب الكسب من وجوه أخرى لهم شوق تام إلى كسب فضيلة العلم فلا تساعدهم أحوالهم بالضرورة على الرجوع إلى التعليم في مكاتب الأطفال وتعطيل أسباب معاشهم فيؤد الكثير منهم أن تكون في البلاد مدارس ليلية يتداركون فيها بعض ما فاتهم في الأزمنة السابقة أزمنة جهل آبائهم لعلمهم بذلك ينفعون أنفسهم وبلادهم بأكثر مما يقدرون عليه الآن حتى اهتم بعض من الشبان من مدة نحو سنتين بتأليف جمعية لفتح مدرسة ليلية ثم عارضتهم بعض الموانع فلم تساعدهم انتقاد النجاح وكأواني انتظار توفيق السهي يسوق إليهم ذلك الخبير حتى سمعوا بان نظارة المعارف تروم افتتاح مدرسة ليلية ففرحوا واستبشروا وقالوا نعمة من الله سيقت إلينا نؤدي له مزيد الشكر عليها ثم انقبضت نفوسهم عند ما سمعوا من شروط تلك المدرسة أن تكون دروسها باللغة الفرنسية خاصة ولا يقبل فيها إلا من كانت عنده مبادئ الرياضيات والطبيعات وله تقدم في اللغة الفرنسية وقالوا يا سبحان الله أن المدارس الأهلية في البلاد المتعدنة تقرأ فيها العلوم الابتدائية باللغة العامية مع التزام التسهيل في التعبير والتحاشي عن ذكر الالفاظ الاصطلاحية الغريبة أو العسرة التفهيم وذلك لفائدتين (لاولى) أن كل من يعرف القراءة والكتابة يمكنه أن يفهم مبادئ العلوم بهذه الطريقة فلا تفرهمة الذين لم ينالوا حظ التعليم في صغرهم وينتشر العلم حقيقة إذ لا يكون في فهمه صعوبة ولا يمنع الشخص عن أشغاله النهارية (والثانية) أنه إذا كان التعليم على هذا النمط تكون المسائل العلمية لقرنها إلى الفهم كأحداثات تتسلى بها النفس بل أذمن ذلك إذ لا يدخل الرجل محفل العلم الا ويخرج بنور جديد فتنجذب نفوس الناس إلى مستملحات العلم فبدل صرف أوقات ليالهم الطويل في مضاجعهم يتقبلون من جانب إلى جانب أو في بيوتهم بمحادثات لا طائل منها أو في أما كن أخرى نتحاشى عن ذكرها يهرعون إلى معهد العلم ليغدوا

عقولهم ويروحوا قلوبهم ولم نسمع ان أمة متمدنة افتتحت مدرسة عالية وجعلتها ليلية فلم عدل عن هذه الطريقة الجليلة في بلادنا واخترت طريقة جديدة وهو جعل التدريس في المدرسة الليلية بلسان أجنبي عن لسان البلد بالكلمة لا يفهمه المتفني منهم ولا العامي والعلوم التي يقرأ بها عالية لا ابتدائية حتى يحرم الناس الذين هم أحوج الى التعليم وأولى به وهم الخدمة وأرباب الكسب المحبون لنيل فضيلة العلم ولا يستطيعون ويظهفون على ذلك ولا يجردون وهو مما يوجب الاسف خصوصا وقد تواتر على الألسنة ان غالب من قبلوا فيها أجانبا (وان كان ذلك غير صحيح فعندي علم اليقين بأن الاكثر وطنيون لكن من الذين تعلموا في مدارس الفرير ونحوها) فهل يقال باننا تقدمنا عن تلك الممالك فترقينا حتى صارت مدارسنا الليلية أعلى من مدارسهم أو أبقنا بأن العامة منا والكتاب لا يستفيدون من ذلك شيئا أولا حظت نظارة المعارف انها بذلك تستحصل في زمن قريب على أساتذة تجعلهم معلمين في مدارسها ومكاتبها فان كان هذا الوجه الاخير قلنا انها ستجعل مدرسة الخوجات نهارا فلها أن تزيد في عدد تلامذتها ماشاء لهذا الغرض على أنه لو سلك في المدرسة الليلية مسلك البلاد المتمدنة لتأثرتنا الوصول الى بعض هذا المقصد فكثير من أهل العلم كان يود أن ينتظم في تلك المدرسة ليتعلم العلوم التي فاته تحصيلها لكن منعه كون التدريس بلغة أجنبية وكون الدروس فوق البدايات وان كان الثاني قلنا ان الاستعداد والشوق موجودان في كثير من الناس ولهم رغبة تامة في التعليم فكيف يصح اساءة الظن بجميع شباننا الى هذا الحد وان كان الاول قلنا الاولى ان لا نتكلم واننا وحق الحق لفي حاجة كلية الى ان يكون التعليم الليلي عندنا مستديما آخذا من البداية سهل الوسائل ميسرا لاسباب بلغة بلادنا عامة أو خاصة حتى تنقطع حجة الجاهل ويبطل برهان الكاسل وتنبعث الفيرة في الكل اذا أقبل البعض على التعليم ويقع التنافس في الفضائل ويجد الشبان الذين استرسلوا مع هوى الشباب شغلا وتوهمهم الذمة وتلعنهم ضمائرهم اذا تركوه اذ لا يجردون لهم علة يتعللون بها اذ ذلك نرى أنه لا بد أن يكون هذا التعليم الليلي اجباريا عاما لكل مستخدم وقارىء لم يتعلم تمام ما يجب عليه في وظائفه الا

الضرورة تمتعه من مرض ونحوه خصوصاً بعد ما أعلنت الحكومة ان جميع المستخدمين في الادارات أو التحصيلات لا بد ان يكونوا من الدراية بحيث يقدرون على تحقيق القضايا وحل المشكلات بأنفسهم في مواد الجنايات والحقوق والحسابات ونحو ذلك وهذا لا ريب يستدعي أن يكون جميعهم على بصيرة تامة وذوي عقل وافر وهذا لا يمكن الا بعد تحمية العقل بالعلوم الابتدائية التي لا بد منها لكل من يريد الاستقلال في سيره

هذا حاصل أقوال الناس في شأن المدرسة الليلية التي افتحتها نظارة المعارف قريبا وربما كانت تلك الاقوال — صحيحة لكن ان صح ما قالوا فليهم بتقديم آرائهم لسعادة ناظر المعارف ليتروى فيها ثم يجيبهم الى مطالبهم ان رآه موافقا وخاليا من الموانع والمحظورات والآقعهم بأن تعميم النفع غير ممكن فحينئذ يعلمون الحق ويرجون أنفسهم من الجدال ولهم أقوال في مواضع شتى يمنعنا من ذكرها في هذا العدد ضيق المقام وربما نذكرها غدا ان شاء الله

وكتب في العدد ٩٩٣ الصادر في ٢١ المحرم سنة ١٢٩٨ — ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٨٠

المعارف

مقالات الناس فيها وأفكارهم العمومية متنوعة ذكرنا بعضها في عدد سابق ونذكر بعضها من هنا في هذا العدد حفظا لمتفرقات الاقوال لعل شيئا منها يقارن صحة فيصادف قبولاً وليكون ذلك دليلاً على تنبيه الافكار والتفات اذهان الناس الى النافع الحقيقي قالوا نشرت نظارة المعارف الى جميع فروعها منشورا مبسوط العبارة مشحونا بالمعاني الرفيعة قاضيا على نظار المدارس والمكاتب ومعلميها بوجود الثقاتهم لوظائفهم وقيامهم بواجباتهم مبينا لهم أن الامتحانات في العام الماضي على الطريقة الجديدة قد أظهرت ان في بعض المدارس قصورا في التعليم وفي بعضها كلالا وزيادة فاستوجب موظفوا الادارة التوبيخ والانذار وموظفو الثانية الشكر والثناء فعلى الجميع من الآن فصاعدا بذل الجهد في ارتقاء درجة التعليم بحيث نكون الاستفادة نفعلا وتبصرنا الاحفظا

(١٢ - ج ٢ تاريخ الاستاذ الامام)

ولقلقة و بين في هذا المنشور كيفية التعليم وطرق التفهيم وانذر من لم يحذ حذوها
 بوقوعه تحت مسوأة الديوان
 فانشرت صدور العامة والخاصة بهذه التنبهات الاكيدة والتعليمات المفيدة
 وقولوا لعمل هذا المنشور لا طمأنت نفوس الكافة الى تربية اباؤهم في مدارسنا التي بصرف
 بها آلاف من الجنيهات على خزينة الحكومة ليترى بها على توالي الازمنة رجال يكونون
 فخر البلاد وحماة زمارها فقد كانت النفوس في ريب من نجاح التعليم فيها قبل
 اليوم ولذلك كانت مدارس الفرير والانكليز والامريكان والبروسيان ونيرها عامرة
 بأبناء الاهالي مسلمين ومسيحيين ومدارسنا ليس فيها منهم العدد اللائق بشأنها
 ولم يكن ذلك الا لما أظهرته التجربة من نجاح التعليم في تلك وتصوره في هذه
 مع مراعاة الآداب التي يفرح بها الوالدان والاقارب في المدارس الاجنبية
 واغفلها في مدارسنا لكن (الحمد لله) تلك أيام قد خلت فان التفتت سعادة
 ناظر المعارف الى كيفية التعليم وتشديده في ان تكون على وجهها الحقيقي مما
 يفيد الآمال ويقويها

الا أنهم يتساءلون فيما بينهم بسوءالات كثيرة منها قولهم هل حصلت المكافأة
 الحقيقية لمن أظهر الامتحان اجتهادهم من النظار والمدرسين وهي مكافأة الدينار
 والدرهم فان مكافأة الشكر والثناء وان كانت واجبة وهي من أجل المكافأة
 وأجملها ولها تأثير في جلب الرغبات وتقوية العزائم لكنها لا تلتصق بالقلب التصاق
 النقود والمساعدة المعاشية فان من ضاق عليه العيش وكانت حاجاته أكثر من
 ابراده لا تنفك عنه الوسوس ولا يبارح ذهنه الاضطراب وتغلب منغصات الحاجة
 وآلامها على الفرح الذي أنعشه عند ماسمع كلمة الثناء عليه ثم ذلك ينقص من
 اجتهاده ويحبط من همته بل ربما أورث خللا في كيفية تأديته لوظائفه خصوصا اذا
 رأى غير المجتهد مماثلا له في الرزق وأوفر راتبا منه ولقد صدق القائل: النقص من
 الرواتب نقص من الاعمال: لكن المنشور لم يذكر فيه حصول تلك المكافأة مع
 أن المسموع ان ميزانية المدارس كانت قابلة لذلك ونظارة المالية تسمح باستغراقها
 بل لو زاد فيها

وقولهم هل جميع من نشر عليهم هذا المنشور الجليل يدركون الغرض منه حق الإدراك وإذا أدركوه فهل يوجد عندهم من القوة العملية والتدريب على الطرق الجديدة ما يؤهلهم لأجرائه والسير بمقتضاه بحيث تحصل الغاية منه بمجرد نشره أو ان الكثير منهم محتاج لأن يتعلم تلك الطرق ويعترف عليها والبعض ربما لا يمكنه ذلك حتى ولا بالتعليم؛ وهل امتحن المعلمون والنظار كما امتحنت التلامذة وعلم المستعد منهم وغير المستعد بوجه الدقة والضبط حتى اذا وجد منهم من لا يليق لوظيفه أنزل عنها ورزقه على الله ومن يليق لأعلى منها رفع الى ما يستحق لتوجد الرغبة الحقيقية أولاً ونحشى عواقب الجهل والاهمال ويتوفر على المعارف زمان تجرب فيه المعلمين مرة أخرى ويكون كله خساراً على التلامذة المساكين . ولا نقصد بالامتحان الا السؤال في الفن الذي يعلمه فاذا تبين أنه يمكنه الاحاطة بمسائله ولو بمراجعة الكتب على وجه السهولة عدت عارفاً ثم طلب اللقاء والتدريس وكيفية التفهم قرب عالم لا يستطيع البيان

يقول الناس إنه يوجد بين المعلمين أشخاص فضلاء نجباء عارفين بعلومهم قادرين على تأديتها بالوجه اللائق لكن يوجد بينهم آخرون ألفوا بعض الطرق العتيقة وتعودوا عليها فلا يستطيعون بعد طول الزمن التحول عنها وان كانوا علماء بعلومهم والبعض منهم يستطيع تأدية القواعد علماً ويعجز عن تمرين المتعلم عليها عملاً والبعض يوجد خالياً من الأمرين يهزأ به التلامذة ولا يوقرون أستاذه ككل ذلك يزعمون مشاهدته بالعيان ويوجد بين المعلمين صنف من النبهاء لا يجب ان يجهد نفسه في التعليم ويكتفي في درسه بحكاية بعض ما وقع له في يومه أو ليلته ثم ينصرف فهل تعينت هذه الاوصاف في أربابها واعترف للفاضل بفضله وعرف الناقص مقدار نفسه وأنزل كل منزلته هل اختارت نظارة المعارف لاجراء هذا المنشور أشخاصاً من العرفاء كل في فن مخصوص ليطوفوا على المكاتب الابتدائية والمدارس الخصوصية ولا يكون لهم عمل سوى هذا ليقفوا على أحوال تلامذة جميع المدارس في كل أسبوع أو خمسة عشر يوماً مثلاً ويقدموا جميع ما يرونه من الملاحظات على وجه الدقة التامة فان رأوا نقصاً عرفوا سببه ومن أي الجهات منبعه فان كان اعوجاجاً

في طريق التعليم ارشدوا المعلم بأنفسهم وبيدوا له الطريق مرة بعد أخرى فان اعتدل والا اعتزل ويكون أولئك الأشخاص تحت مسؤولية شديدة اذا ظهر فيما بعد نقص ولم يكونوا نبهوا عليه فان ذلك يبعث الغيرة وينشط الاجتهاد في المعلمين وغيرهم وتكون حركة المدارس في خط مستقيم يوصل الى المقصود باقرب الطرق المؤدية اليه ويسهل تدارك الخلل اذا ظهر وازالة النقص اذا طرأ؟ هل دقت نظارة المعارف في معرفة أخلاق النظار والاساتذة الذين وضع الاطفال في كفالتهم يدبرون أمورهم ويرشدونهم الى كمالهم وفصلت بين صاحب الاخلاق الفاضلة والافكار المستقيمة والعفة والنزاهة والغيرة على نفع من وكل أمرهم اليه وأداء ما وجب في ذمته حتى يكون حاله وكاله درسا آخر يعطى للتلامذة في كل يوم فتنتطع هذه الكمالات في نفوسهم باشد من انطباع صور المعلومات في عقولهم وهو المعنى المقصود من التربية وبين من لاخلاق له بأن يكون أحق أو دنيئا أو عديم الغيرة والذمة أو ردي الافكار ونحو ذلك من الذين تكون معاشرته التلامذة لهم موجبة لتلوئهم بالذائل وتكون كلماته في الدرس ممزوجة بسم الفساد فتميت أذهانهم وتكون عاقبة أمرهم إما جهلا وقد ضاع الزمان وولى الشباب واما علما صناعيا مصحوبا بشرور تعود على صاحبها بالشقاء وباليتها تكون قاصرة عليه ولكن تتمدى الى غيره بحكم العادة المستمرة وعند الفصل بين الفريقين بارشاد الرقبا النبهاء ذوي الفراسة والخبرة بأحوال العالم وأخلاقهم والامانة في الخبر والصدق فيه يميز الخبيث من الطيب ويبحث عن المستقيمين على قدر الطاقة في انحاء البلاد لتفويض اليهم تربية الاطفال والشبان ليكونوا رجالا ينفعون أنفسهم وحكومتهم التي تصرف عليهم المصاريف الكثيرة أملا بمحصولها على رجال تقيمهم في وظائفها الكثيرة يؤدون واجباتها بالضبط والامانة

يقولون انه لاشك في كون الكتب الموجودة في العلوم العربية مثلا ليست أساليبها سهلة المأخذ على التلامذة ولا موافقة لطريقة التعليم في المدارس من اشتغال التلميذ بفنون كثيرة في زمان واحد وانه يلزم ايجاد طريقة جديدة في التأليف وازالة كثير من الصعوبات التي عاقت كثيرا من الناس عن التعليم فهل حصلت العناية

بتصنيف تلك الكتب وان حصلت فيمن أنيط تصنيفها وهلا شكل مجلس للنظر في مثل تلك التسهيلات ودعي اليه أعضاء ممن لهم سعة في الفكر والاطلاع على الطرق القديمة والجديدة ويكون لهذا المجلس حق في تعيين الكتب التي ينبغي تدريسها في أي الفنون حتى ينأى اجراء ذلك المنشور السابق على وجه الكمال

من المحقق ان سعادة عبد الله باشا فكري وكيل عموم المدارس في سفره الى الجهات البحرية قد رأى أموراً كثيرة تستحق الالتفات وطلب من نظارة المعارف أشياء مهمة لا بد من تقريرها والاسعاف بها فهل أوجب طلبه وحصلت المذكرة في تلك الآراء التوجيه التي أبدأها حتى يفرغ من تنفيذ مقتضاها الى البحث في غيرها من الجهات القبلية

هذه جملة من سوء الاتهام سردناها للاحاطة بها وإنا نحجب عن ذلك بأن نظارة المعارف هي أعلم بما يجب عليها من جميع ذلك وأنها لا تغفل شيئاً مما تعلمه نافعا ومفيدا ومن اليقين أنها لا تشرع في شيء ثم تحركه يتم بنفسه بدون مراقبة فالبتة قد أعدت لمقاصدها وسائل اذ تعلم ان زماننا هذا لا يرى فيه الا الأثر الظاهر ولا يؤثر عن رجاله الا الاعمال الحقيقية أما صدور الأوامر والنطق بالالفاظ العالية بدون ترتب فائدة عليها فقدم مضي وقته وان الآمال متعلقة برجال تلك النظارة العرفاء الاجلاء كسعادة ناظرها الاكرم الحريص على تقدم العلم والغيور الرفيع الهمة سعادة وكيلها عبد الله باشا فكري والبصير الحاذق وكيل المكاتب الإهلية حضرة على بك فهمي وسنرى من أعمالهم ما يرفع جميع هذه الأوهام ويفتح للمعارف في عصرنا هذا ناريخاً جديداً فهذه هي الفرصة التي نرى فيها الحكومة العالية مساعدة على نشر المعارف وتأييدها فعلينا ان لانضيعها

وكتب في العدد ٩٩٧ الصادر في ٢٦ المحرم سنة ١٢٩٨ - ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٨٠

المعارف

من المحقق ان نظارة المعارف قد اهتمت وعزمت على فتح مدرسة ليلية تقرأ فيها العلوم الابتدائية لتكون عامة النفع شاملة الفوائد يذهب اليها الرجال الذين شغلهم الكسب والضرورات المعاشية نهارا عن التعليم مع رغبتهم فيه وميلهم اليه ولهم من اوقات الليل الطويل فرصة لا يضيعونها اذا افتتح مثل هذه المدرسة الا في تعلم ما ينفعهم ويزيدهم نورا وبصيرة وسيكون التدريس فيها باللغة العربية التي هي لغة بلادنا وقرأ فيها درس باللغة الفرنسية ويكون قاصرا على تعليم اللغة لا غير مبتدأ فيه من الهجاء الفرنسي الى النهاية ما يلزم ان يتعلم في تلك اللغة اما دروس اللغة العربية فمنها ما هو خاص بتعليم قواعد اللغة ومنها ما يكون في بعض علوم أخر نافعة من آداب وتاريخ احوال الامم وتاريخ طبيعي وبعض مبادئ الرياضة (فيما سمعت) بحيث لا تنقص عن تلك المدرسة التي سبق منا الكلام عليها المسماة بمدرسة الخوجات الليلية في جوهر ما يقرأ بها وان كانت تختلف عنها بأن هذه تكون لغة التعليم فيها وطنية وتلك اجنبية وهذه آخذة من البدايات وتلك آتية من النهايات وهذه يكون معظم نفعها بل كله للوطنيين وتلك لا تتوسم فيها ذلك الا ببرهان وهذه الاختلافات وان كانت عظيمة لكنها لا تضرب في المقصود ومما ينبغي ذكره انه ثبت في اذهان بعض الناس ان مجرد تعلم اللغات الاجنبية يعد فضيلة يسعى اليها ويهتم بشأنها مع ان اللغة في ذاتها لا فضيلة فيها ولا يصح أن تجعل غاية تقصد وانما هي وسيلة لما احتوت عليه تلك اللغة من العلوم والآداب والافكار التي ربما لا تكون مبسوطة في اللغة الوطنية كما هي واضحة في اللغة الاجنبية فطالب تعلم اللغة الفرنسية مثلا اذا لم تكن عنده مبادئ علوم ومملكة ادراك في بعض الفنون التي يطلب التفنن فيها لا بعد مصيبا في طلبه الا اذا طلب معها تعلم تلك المبادئ حتى انه عند بلوغه الى حد الاقتدار على فهم اللغة يتيسر له الوصول الى الفائدة المقصودة فلا يصح بناء على ذلك أن يكون

التعلم والتعليم الليلين قاصرين على اللغات فقط بل يلزم أن يكون معها بعض مبادئ العلوم كما عزمت عليه نظارة المعارف الجليلة التي لانزال نرى مساعيها في تقدم أبناء البلاد وبث روح العلم فيهم تأتي من النجاح بما يخلد لسعادة ناظرها ووكيلها طيب الذكر والثناء

وبافتتاح هذه المدرسة يفحم المجادلون وتبطل حجة اللائمين الذين انصبوا الى البحث في المدرسة الليلية وفوائدها وما يعود على البلاد منها ونشرنا وجوه انظارهم فيها في بعض أعدادنا السابقة فكان هذا العمل من نظارة المعارف برهانا فعليا لاجدليا يقنع الناظرين ويفهم المحاصمين ويذهب بتعللات المتعلمين ومطالبها لاصحاب تلك الافكار بالبرهان المنطقي أيضا وهو توجه الهمم الى التعلم وافراغ الجهد في تحصيل ثمرات العلم حتى تظهر فوائد هذه الاثر وانا على يقين من أن المستخدمين وغيرهم من ذوي الكسب الذين يعرفون قدر المعارف ويتدبرونها حق قدرها يجيبون نظارة المعارف الى طلبها كما أجابتهم الى طلبهم ويكون لجزيرة الوقائع المصرية شرف الاخبار بخير الأخبار وأجر التنبيه على الامر وما فيه

وكتب في العدد ٩٥٧ من الوقائع الصادر في ٣ ذى الحجة سنة ١٢٩٧ - ٦٩

نوفمبر سنة ١٨٨٠ مانصه

التربية في المدارس والمكاتب الميرية

من المعلوم البين ان الغرض الحقيقي من تأسيس المدارس والمكاتب والعناية بشأن التعليم فيها انما هو تربية العقول والنفوس وايصالها الى حد يمكن المترقي من نيل كمال السعادة أو معظمها مادام حيا وبعد موته ومرادنا من تربية العقول اخراجها من خير البساطة والصرفة والخلو من المعلومات وابعادها من التصورات والاعتقادات الرديئة الى أن تتحل بتصورات ومعلومات صحيحة تحدث لها ملكة التمييز بين الخير والشر والضار والنافع ويكون النظر بذلك شجية لها أي يكون لنور العقل نفوذ تام يفضل بين طبيبات الاشياء وخباياها وهذا هو الركن الاول في المدارس والمكاتب ومرادنا من تربية النفوس ايجاد الملكات والصفات الفاضلة

في النفس وترويضها عليها وابعادها عن الصفات الرذيلة حتي يكون المتحلي بها ناشئا على ما يوافق قواعد الاجتماع البشري ولوازمه ومتعودا عليه وهذا هو الركن الثاني واذا فقد أحد الركنين بطلت الفائدة المطلوبة أو قلت جدا ولنترك البرهان على ذلك الى علم كل انسان به فاذا اجتمع للشخص هذان الامران كان انسانا له أن يطلب ما ينفعه ويعد عما يضره فيدخل في أي أبواب الكسب في الدنيا والآخرة اذا رآه موافقا لاستعداده وفي قوته النهوض به فيختار من العلوم والصنائع ما يشاء ويرع فيه بكل رغبة وغيره حتي يصل الى ما تمكنه القوة منه ولا يتأني منه الا هال فيه لوجود الباعث من ذاته وهو غيرته وتصوره للغاية الذي لا يفارقه أما ان كان الشخص ضعيف الادراك أو فاسد الاخلاق وان كان عالما بجميع علوم الدنيا فلا ريب أن يكون شقيا في نفسه وسببا في الشقاء لغيره ولا نفني عنه المعلومات شيئا بل ذهب بعض الحكماء الى انه لا ينال العلم من أي نوع كان حقيقة الا بعد تحلي النفس بالصفات الجميلة التي منها بل أعظمها حب الكمال الذي هو الداعي الحقيقي الى طلب العلم والبراعة فيه وان أول مبدأ يجب أن يكون أساسا لتحلية العقول بالمعلومات اللطيفة والنفوس بالصفات الكريمة هو التعاليم المدنية الصحيحة أعني ترغيب القلوب بما يرضى الخالق وادهاها بما يفضيه ثم يوثني بابا لرغبة التي يراد حث النفس عايبها على حقيقتها المقصود للشارع بحيث لا يخرج عن مكارم الاخلاق التي حصر الشارع علة بعثته فيها كما قال عليه الصلاة والسلام انما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق ويوثني بالامر المنفور منه كذلك على وجهه ثم يقال ان ذلك يرضي الله وهذا يفضيه وذلك لا يتأني نجاحه الا بعد أن تكون القلوب الساذجة قد ملئت خشية من الله وتعظيما لجلاله وتبجيلا لمقام ألوهيته السامي بحيث لو ذكر اسم الله عند شيء خفق قلبه السامع وأضربت جوارحه خشية منه ورهبة فيكون ذلك سببا لاقدامه على ما يرضيه من الفضائل ونفرته عما يفضيه من الرذائل فهذا هو أسهل الطرق وأقربها للتربية والتهذيب فان الطفل في صغره بل والشاب في أول بلوغه يعسر عليه لقلّة التجربة ان يفهم مضار الاشياء ومنافعها من حيث هي بطريق العقل الصرف خصوصا مما يتعلق بالصفات النفسانية التي يكثر فيها التضارب يستحسن

منها عند شخص ما يستعجب عند آخر وبالعكس وايداع مثل ذلك في القلوب انما يكون بتعويد الابدان على العبادة وتذكر جلال الله بالركوع والسجود ومعرفة العقائد الدينية السليمة فمعي الاساس لكل ذلك وطالما تشوقت النفوس لان تكون التربية في المدارس على هذا النمط المفيد الذي عول عليه جميع الامم المتقدمة في مبادئ تعاليمهم فان من تتبع قوانين التعاليم في الممالك الاورباوية رآها بأسرها موجبة للابداء بالتعاليم الدينية ولاستمرار عليها الى ما يزيد عن ست سنوات تقريبا ولكن لم تسمح الحوادث السابقة بنيل هذا الغرض لاسباب نضرب عن ذكرها صفحا

والآن رأينا نظارة المعارف العمومية وجهت عنايتها الى ذلك وطلبت تجويده والاعتماد بشأنه من المعلمين والنظار وان لا يهملوا فيه كما أهملوا في سابق الامر وشدت عليهم في ذلك كل امتشيد حتى أوجبت على الاساتذة ان يقوموا برسوم العبادة حق القيام امام التلامذة ويدعوهم لذلك ان كانوا مسلمين أما المسيحيون وغيرهم من ذوي الاديان الأخر فلا يكافون بذلك أصلا بل هم على حريتهم فلها الشكر على هذا المفصد الحسن غير أنه يلزم ان لا تكون هذه العبادات والتعاليم الدينية صورا يابسة لاروح فيها كعبادة الجاهلين بل يجب ان تكون معنوية حقيقية تخرق حجاب الغفلة وتمكن في باطن الادراك وتبعث في الأشخاص روحاً من الحياة يشهد أثره الناس أجمعون وعلى نظارة المعارف ان تلاحظ التعاليم الدينية التي يلقيها المعلمون حتى لا تكون محشوة بأنواع من التخريف المضاد لحقيقة الدين كما جرت به عادة كثير من المعلمين الذين يظهرون بصورة العلماء وان كانوا في الحقيقة من أرداء الجهلاء فان ذلك يحل بالمتصود من اتربية ويضر بتقدم التلميذ في كثير من الفنون التي يلزمه تحصيلها (وسنعود الى هذا الموضوع مرة أخرى عنها الاقتضاء) وهذه هي صورة منشور المعارف الى جميع نظار المدارس والمكاتب

« قد علم من جداول الامتحان العمومي المقدمة الى ديوان المعارف ومأمعها من النتائج والمحوظات المعروضة من طرف حضرات رؤساء الامتحان وأعضائه ان بعض المكاتب لم يحصل فيها الاعتناء بتعليم قواعد الاسلام المندرجة في المسامرة (١٣ - ج ٢ تاريخ الاستاذ الامام)

الخامسة والعشرين من كتاب التمرين حسب المقرر في الصحيفة الثالثة من ترتيب
 دروس المكتبات الاهلية والمدارس الملكية الابتدائية مع ان معرفة قواعد الاسلام
 بالنسبة لاطفال المسلمين من أهم ما يلزم الاعتناء به ولا يجوز اغفاله في حال من
 الاحوال مطلقا فيلزم تدريسها للتلامذة بمعرفة خوجات القرآن مع حسن تفهيمها
 وتعليمها لهم بحيث يحفظونها عن ظهر القلب ويفهمون معناها فهماً جيداً ويعرفون
 كيفية أدائها على أكمل وجه في الفرقة المقرر عليها قراءتها في الترتيب المذكور وهي
 الفرقة الثالثة من كل مكتب ومذاكرتها لهم كل سنة في كل فرقة يترقون اليها
 حتى لا ينسوها واذا كانت تلامذة فرقة من الفرق المتقدمة على الفرقة الثالثة لم
 يسبق لها قراءتها في تلك الفرقة يحدد لهم تدريسها وتعليمها كما ذكر في الفرقة
 التي هم بها بمعرفة خوجه النحو اذ من بعد الآن لا يرخص بتلقي التلامذة من
 فرقة الى أعلا منها من ابتداء الفرقة الثالثة الى أعلا فرقة الأبعد التحقق بالامتحان
 من معرفتهم للقواعد المذكورة حفظاً وفهماً وعلماً وعملاً ويكون من أخل بشيء
 من ذلك من الخوجات المواطنين به تحت المسؤولية الشديدة ويشترك معه في هذه
 المسؤولية ناظر المكتب أو المدرسة اذ يتحتم عليه رعايته القيام بما ذكر ويجعل
 لذلك خانة مخصوصة في جداول الامتحان العمومي والامتحانات التي تحصل في
 أثناء السنة ويعطى فيها نعمة كسائر الدروس وكل هذا بالنسبة لأطفال المسلمين
 خاصة وعلى خوجات القرآن الشريف والنحو حث التلامذة على الصلاة من السن
 الذي يؤمرون بها فيه شرعاً مع دوام وعظهم في ذلك وترغيبهم فيه ونحر يضهم
 عليه ونههم وزجرهم عن تركها والتكاسل فيها وعلى ناظر المكتب رعاية ذلك
 وترتيب أوقات الدروس على وجه يوجد فيه وقت لاداء الصلاة مع الحث منه
 للتلامذة عليها وحملهم على أدائها جماعة مأمومين بأحد خوجات القرآن الشريف
 أو النحو في المحل المعد للصلاة بالمكتب أو المدرسة ان كان موجوداً فن لم يكن
 موجوداً ففي مسجد قريب فان لم يكن بالمكتب أو المدرسة محل للصلاة ولم يوجد
 مسجد قريب فعلى الناظر المبادرة بالعرض الى الديوان عن تحديد محل الصلاة
 مع ارسال رسمه ومقاييسه تكاليفه ومع أداء الصلاة في موضع يستحسن لذلك

ولو في حوش المكتب أو المدرسة موقنا الى ان يتم انشاء المحل المطلوب واذا
لزم تدارك حصيرة للصلاة أو أكثر على حسب عدد التلامذة وسعة المحل يبادر
كذلك بالعرض للديوان عن الانلازم مع بيان القياس المطلوب وقد كتب بما ذكر
المراد النظر عموماً وهذا لخصرتكم للاجراء على الوجه المشروح بغاية الاهتمام والحذر
من التهاون فيه بعد الآن

كتب في العدد ٩٨٤ الصادر في يوم الاثنين ١١ المحرم سنة ١٢٩٨ - ١٣ دسبر سنة ١٨٨٠

وخامة الرشوة

ورد من مديرية الجيزة في ١٩ الحجة سنة ٩٧

«قبض على أشخاص من ناحية كومبره معهم أربع زكايب ملح براني بها
٥٠٧ اقه و ٢٤٠ درهما بواسطة مندوبي المديرية بارشاد متعهد المصلح بناحية
بولاق المذكور فدفعوا للمتعهد والمندوبين ٣٠٠ قرشا وكسورا على وجه الرشوة
فورد المبلغ للخزينة وها هو اللازم جار لانمام التحقيق ومحاكمة الاشخاص ومبيع
الحير التي كانت حاملة للملح لتورد انمام الاميري حسب المنشورات في هذا الشأن» هـ

قد تقرر في عقول جهلة العوام ان الرشوة هي السبب الوحيد للخلاص من أية
جريمة يرتكبونها فيقدم الواحد منهم على ما يخالف الاصول المتبعة أو يخل
بالامن والسكينة أو يهتك حرمة الحقوق انكالا على ما يضره في نفسه من
ان الرشوة كافية لانجاة عن العقاب أو الحصول على غرضه بأي وجه كان وقد
غلب على عقول العامة ان كل صاحب وظيفة مبرية أو غير مبرية لا يصح أن
يقضي أمرا في مصلحته لاحد الا بالرشوة ولذلك يرون أنه من الوجوب على من
التمس إنجاز أي عمل يتعلق بمصلحته ان يقدم الى صاحب الوظيفة رشوة تبعه على
مباشرة ذلك العمل غير ملتفت لما تطالبه به واجبات المصلحة التي انطبقت بذمته
على أجر يتقاضاه في رأس كل شهر ولذلك صار أمر الرشوة بينهم من قبيل العوائد
التي لا تشمئز منها طباعهم ولا يستنكروها أحد منهم بل كادت أن تكون من

الوسائل المحمودة لنجاح المقاصد ودفع الغوائل ومن الناس من تكون حقوقه بينة جلية الثبوت خالية عن عناد خصم أو تدليس محال ولا يكتفي بذلك في اقتضاها فيسارع الى الرشوة يدفعها لمن يرجع اليه تخليص حقه غنيمة باردة وقد ينهره الحاكم العفيف ولا يرضى بقبولها وهو من سفهه يتوسل ويتضرع اليه في قبولها منه لظنه ان لانجاح بدونها وليس ذلك الا لرسوخ تلك العادة الشنيعة المضرة بالدنيا والدين في طباع أدياء الهمم نقر بالذوي المناصب وتذلا خبيثا لا يجوز الشرع ولا قانون البلاد وتنفر منه نفس كل ذي احساس انساني مع ان حفظ الاموال من الضياع فيما لا ينبغي وصرها في وجوها الضرورية كالمطالبيات الميرية والنفقات اللازمة أليق بفعل العقلاء وأصون لحرمت القانون وأبعد في طريق السلامة من الوقوع تحت اعباء المعاقبة والتهلكة وأحسن طريقة لردع أرباب الشره والخسة اذ لو كف كل ذي حق عن أداء الرشوة واعتصم بالطريق الاقوم وخضع للاحكام الحقة لتحصل على حقه بدون ان يرى من خصمه أدنى محاولة أو مراوغة الا بالحق وبدون أن يقع في عناد من بيده زمام الحكم وتثبطه طمعا في ما يأخذه منه على ان أي متوظف كان وان بلغ ما بلغ من الزهد والعفة فلا أظنه يمتنع عن تناول ما يقدمه الغير اليه بالرغبة والرجاء خصوصا اذا أكثر التردد مع ظهور الحق له فاذا مد يده اليها تعود شيئا فشيئا حتى يرتشي في الحق والباطل وبالرهبة بدل الرغبة فاعلة الاولى في فساد اخلاق بعض المتوظفين هو رغبة ذوي اليسار في ارشائهم بدون تأمل فيعودونهم على ذلك وحينئذ فإي يلحق الراشي من اللوم أشد مما يلحق المرتشي وان كان كل منهما مجرما لان الاول ضبع ماله واستمرسل مع الجبن وضعيف الوهم في مقام يستوي فيه الحاكم والمحكوم غلبه امام القانون وأمال المرتشي لاخذ الرشوة وقوى طمعه ودله على الشره وكلف نفسه بما لم يكلف به ومن غوائل الرشوة ما رأينا في الزمان السابق يحصل كثيرا بين الخصماء حيث يبذل الواحد منهم ما يدخل تحت طاقته من الاموال رشوة بالغة ما بلغت في سبيل اعنات خصمه والحصول على غرضه وان زادت النفقات عن الحق الواقع فيه الخصام أضعا ما مضاعفة ومثل ذلك كثير لا يمكن الشرح ان يأتي على بعضه وهذه الحادثة المتقدمة

تشهد بالتقريب لما قلناه فإن مادفعه الاشخاص المقبوض عليهم من الرشوة يقرب من عن الملمح الذي كان معهم فلو أنهم اشتروه على الطريقة المألوفة لما وقعوا في الخسائر الجمة وأثقال المحاكمة ولكن ذلك أقرب الى وفرة الكسب وأسلم للمال والنفس ولكنهم ظنوا ان الزمن الحاضر هو السالف والحكومة هي هي فسهل عليهم ان يتعدوا الحدود ظانين ان الرشوة تقيمهم من عواقب أعمالهم وقد خاب ظنهم بتدقيق المتعهد والمندوبين وأمانتهم

ومن العجب بل مما يتأسف عليه غاية الأسف ان الاهالي مع علمهم بأن الحكومة تنادي بمنشوراتها وأوامرها واجراآتها الفعلية بأن لا يستقر في وظائفها سوى ذوي الاستقامة والعفاف وأنها تبادر الى عقاب المرتكبين ولو بالمظنة ترى البعض منهم بل الكثير لا يزال يطلب حقوقه بتلك الطريقة الفظيعة السلوك التي سكنت في أفئدة الناس بطريق السريان من الازمنة السالفة (وصعب على الانسان مالم يعود) أليس كان من الواجب على الاهالي ان ينتهزوا هذه الفرصة (فرصة العدل وحفظ القانون) ويقوموا في طلب حقوقهم بمقتضى القوانين والمنشورات التي سهر في انشائها وتنتهجها اولو الامر طالبا للعدل ورغبة في الانصاف ويتفق أهالي كل جهة على ان لا يدفعا الذي وظيفه شياً من الاشياء بل يسلمون أمورهم الى القوانين تحكم فيهم بما انطوت عليه فان الحاكم اذا لم يكن له ميل الى أحد الجانبين لغرض كهذا الغرض الخبيث فلا يرى سبيلا ولا يجد من نفسه داعية الا الى الحكم بالقانون فان أخطأ فقد جعلت المجالس القضائية درجات ثلاثا يستأنف في كل منها النظر في امضايها من أي نوع

لا شك في ان سلوك طريق الاستقامة أهدي وأقوم وافيد للعوام والخصوص واحكم أمانك الطرق العتيقة فهي قريبة العطب شديدة الخطر لا ترى لمرتكبها نجاة خصوصا في هذه الاوقات التي أصبح بصر الحكومة فيها حديدا ومن تواري تحت التستر وقنا ظهر بعار الفضيحة في آخر نساءل الله الهداية والتوفيق لارشاد طريق

وكتب في العدد ٩٩٥ الصادر في ٢٤ المحرم سنة ١٢٩٨ - ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨٠

العفة ولوازمها

سبق اننا ادرجنا في جريدتنا فصلا معنونا بالرشوة ووخامتها بينا فيه ان هذا الداء المميت لروح العدل المفسد لمزاج النظام ازم من في طباع الاهالي من زمن بعيد حتى ظنوه صحة وحسبوه حالا لازمة لهم وصاروا يعدونه من نوع المعاملات السائرة بينهم ويجازفون فيه بأموالهم مع عدم التبصر والتدبر وانتفاء الموجب والمقتضي ولا يقتصرون في أداء نقودهم وعروضهم لارباب الوظائف (ان قبلوا منهم) على حالة الضرورة وربما يؤدون على طريق الرشوة ما يساوي الحق المطلوب أو يزيد عليه وهذا يعد من سفه الرأي وقلة العقل ودناءة الطبع وكان من الواجب على أرباب الحقوق ان يعلموا ان الوظائف ليست للموظفين مجانا بل كل متوظف فله مرتب على حسب أهمية عمله في وظيفته يصرف له ذلك المرتب من خزينة الحكومة التي هي خزينة الاهالي حقيقة فلا حق بتوظيف أيا كان أن يأخذ بارة من أحد من الناس في مقابلة عمل من الاعمال بل كل ما أخذه فهو سحت وقد قال نبينا صلى الله عليه وسلم (كل جسم نبت من السحت فالنار أولى به) أو كما قال وقد أجمعت الشرائع الالهية على لعن الراشي والمرثي وأطبقت القوانين السياسية والقضائية على وجوب العقاب والطرده والخزي واللعنة على كليهما أيضا

غير ان كلامنا في ذلك انفصل لم يكن موضوعه ان الموظفين يتعاطون هذا الامر على العموم بل صرحنا فيه بأن من الحكام العفيف الذي ينهر راشيه ويعده وكيف يصح التعميم مع علمنا عين اليقين ان في رجال الحكومة وموظفيها الاعفاء المنزهين ولولاهم لما استقامت الاعمال وانتظمت الاحوال وهم معروفون بين الناس تشهد لهم اعمالهم وتنشر صدورهم ونثني عليهم سرائرهم عند ما يحسون من أنفسهم الاستقامة وسلامة الذمة حتى كأنني بالرجل العفيف منهم عند ما يخلو بنفسه ويدخل الى مخدعه يحدثه ضميره وخواطره بأنه الرجل المستقيم الذي عرض عليه حطام الدنيا والنفيس من الذهب والفضة ور بها كان محتاجا اليه ومع ذلك

كف يده عن أخذه وترفع عن مد كف يد الحياة لاستلامه حفظا لشرفه
وصونا لقدره عن الانحطاط والسقوط من أعين العقلاء بل والسفهاء اذا ذكر
عنه انه ارتشى ومراقبة للاحكام الالهية والعهود الانسانية فعند ما يرى لنفسه
هذه المزية الشريفة يطير فرحا وهو وحده وتكون صداقته سميرا ومحدثا له ينسر
بموافقتها وملازمتها ويتحكم في نفسه سلطان الافتخار الحق الذي لا يعارضه
فيه أحد فامثال هؤلاء (الاعزاء الوجود) هم عماد الملك وقوام النظام وان دوائر
حكومتنا متشرفة بهم . بخلاف أولئك الساقطي الهمة الفاسدي الاخلاق الذين
يقبلون ما يقدم اليهم من أر باب الحاجات قليلا كان أو كبيرا أو يطلبون ذلك
منهم بصريح أقوالهم أو بتعطيل أشغالهم اذ يقول الواحد منهم لصاحب الحاجة:
ان شاء الله يكون قضاها: فاذا جاءه مرة ثانية قال اذهب الى غد فان جاء في
الغد عبس في وجهه وقال: ان عندي أشغالا أهم من شغلك: ونحو ذلك من المماطلات
وصاحب الحاجة مضطرب الفؤاد حريص على نيل مقصوده فان كانت فيه غفلة
عن المعنى المقصود أخذ المتوظف يكسني ويلوح ويعرض حتى يتنبه الطالب الى
الغرض فيبدل ما يقصر به على نفسه مدة الطالب ولولا جهله ما فعل فهو لاء الاشرار
وان استمروا تحت ذيل الخيل والخذاع يوما فلا بد ان تنشر في الجو رواثهم الكريهة
وربما غفت عنهم الابصار زمانا لكن لا بد من نفرذ أشعثها اليهم في آخر فاذا
أدركتهم كانت يد السطوة ضاربة على أبدانهم وأموالهم ضربة الحق التي
لانفت واعلمهم بقبح سيرتهم ومخالفتهم لمقتضى الطبيعة وشدة حرصهم على اخفاء
هذا الأمر الشنيع تراهم اذا خلوا بأنفسهم يتذكرون ما صنعوا من الخيل لالتهام
الاموال وأنها طرق غير منضبطة تحت قاعدة قرب صاحب حاجة ذكي نبيه يشكو
أمره لمن فوقه ورب رقيب من طرف الحاكم اليتظ يطالع على وجوه حيلة ورب ناقد
بصير رأى صاحب الحاجة سائرا الى بيته ورب حر غير يبصر الهدية وهي طارئة
باب منزله ثم يأخذ يملل نفسه بأن تلك الاشارة كانت غامضة على الحاضرين
والناظرين وذلك كان خفيا على المراقبين وهكذا تتسولي عليه الافكار السيئة
والاوهام الخبيثة فيبيت مضطربا خائفا مرهوبا لكن شاءه يحتم عليه الرجوع

الى قبيح صنعه فخبث السريرة يكون بمنزلة منكر ونكير يحاسبه وبعاقبه على ما فرط منه خصوصاً وان قابه وعقله في كل وقت يحدثه بأن هذا مضاد للانسانية منافر للطبيعه اذ لولا ذلك لما حافظ على اخفائه كالسرقة والنصب بل يحرص على كتمانها أكثر من ذلك فان عاره أشد وجرمه أعظم وكفى بهذا عقاباً وعذاباً لو كان له عقل وبصيرة طهر الله من أمثال هؤلاء دوائرنا وقطع من الكون دابرهم وانه ليسرني ويملاً قلبي ايتهاجاً ماسمعه من ان كثيراً من الموظفين تكذبوا من قولنا في ذلك الفصل : على اني لاأظن ان الموظف وان بلغ ما بلغ من الزهد والصلاح يمتنع عن أخذ ما يقدم اليه بطريق الرجاء خصوصاً مع ظهور الحق لصاحب التقديمه الخ خوفاً على أنفسهم من الدخول تحت هذه الكليه فيمسهم ولو بطريق الوهم شيء من عار هذا الوصف الشنيع أعني أخذ الرشوة على أي وجه كان فان تكدرهم هذا برهان على زاهتهم وعفتهم وحبهم ان لا ينتظموا في سلك المتصفين به ولو في مفهومات الالفاظ على وجه بعيد وهذا غاية في المحافظة على الشرف والنفرة من هذا النقص الذي موت الانسان خير من ان يتصف به لكني أقول لودققوا النظر لما تكذبوا من هذه الجملة لوجهين الاول الاستثناء المتقدم في صدر العبارة والمفهوم من السياق والثاني ان منطوق جملتنا صادق فيمن يقدم اليه ويسكت حتى يحصل الرجاء وانني اعلم ان العفيف لا يتجاسر أحد على ان يقدم اليه شيئاً حتى اشهر عنه ذلك ولو اتفق ان أحداً بذل له رشوة ولم يقبلها فلا يصح له السكوت عليها بل عليه ان يخبر في الحال جهة الاختصاص به حتى يعاقب الراشي وتضاف الرشوة الى جانب الديوان فيكون بذلك قد برهن على استقامته بأجلى الأدلة وأوضحها أما ان سكت على ذلك واكفني بالمنع من جهته فاني أراه موضعاً لقولنا في الجملة السابقة فان كثرة الرجاء تلبس الحديد اذا كانت في أمر يتكلف الشخص فيه مشقة فما ظلك اذا كانت في اتصال منفعة الي المرجو وأنه ليهجني جدا ما ذكر في قانون العقوبات من قوانين المحاكم الجاري عليها العمل في بلادنا في باب الرشوة منه بيند ١٠٧ حيث قال فيه: الموظف أو المأمور الذي قدمت له أو أعطيت له علية أودعه بشيء ما لاجل التوصل الى الغرض السابق ذكره

(أداءه عمل من أعمال وظيفته ولو كان العمل حقاً ولا تمتاعه عن عمل من الأعمال المذكورة ولو كان يظهر له أنه غير حق) ولم يخبر بذلك فوراً جهة الاقتضاء يجوز أن يحكم عليه بالعقوبات المقررة في حق الرشوة اه على أن هذا الإنذار لو لم يكن مثبتاً في القانون لوجب أن تشبه الذمة والغيرة فإن من عرض عليه شيء على سبيل الرشوة إذا كان غيوراً وجبت عليه المبادرة بطلب مجازاة من عرض عليه لوجهين الوجه الأول خصوصي وهو الانتقام من الشخص الذي ظن سوء في هذا الموظف بل جزم بقصه وعدم شرفه حتى أقدم على إرشائه فهو حقيق بأن ينتقم منه والثاني عمومي وهو أنه إذا عوقب الراشي لسبب إخبار الموظف وشاع ذلك بين الناس يقع الرعب في قلوبهم ويخافون من أن يقدموا شيئاً لموظف خشيته أن يخبر كما أخبر ذلك فيقع الراشي تحت العقاب فينكفأر باب الحاجات عن البذل خوفاً حتى لو مد الموظف يده طالبا الرشوة لظن صاحب الحاجة أنها حيلة لا يقاها في الخطر هذا من جهة ذوي الحاجات وأما من جهة أرباب الوظائف فأنهم متى سمعوا أن فلاناً أخبر برأشيه وظهر اسمه ونشر ذكره خصوصاً إذا ترتب على ذلك رفعة قدره اقتدوا به لئلا يوا مثل ما نال في ظهور الشرف والخار فيمتنعوا عن قبول الرشوة بل يتسببون في إضافة أموال جملة إلى بيت المال ويقع التنافر واتساق في فضيلة العفة والاستقامة وقد بلغنا أن بعضاً من الموظفين أخبر الجهة الموظف من طرفها بما وقع من مثل ذلك لكن بمبالغ زهيدة ربما يسمح بها الخاطر لاظهار العفة فينال شرفها بقيمة زهيدة ولم نسمع بأن موظفاً أخبر جهة عمومه بمبلغ وافر من تلك المبالغ التي كنا نسمعها وهي التي يعد التعفف عنها تعففاً حقيقياً ومع ذلك فانا نشكر المتزهد عن القليل والكثير

وربما يتوهم بعض ذوي الاستقامة أن في الإخبار ضرراً بالراشي وفضيحة له فالتستر عليه أولى فهذا الوهم خطأ صرف لأن الله تعالى جعل في العقاب حكمة بالغة وهو ردع النفوس الشريرة عن الشر حتى يقل الشر أو ينقطع قال الله تعالى (ولكم في القصص حياة أولي الألباب) والمعنى أن قتل القاتل وإن كان فيه إعدام لنفس واحدة لكن يرتدع بسببه أشخاص كثيرون ربما كانوا يقدمون على قتل كثير من الناس

اذ لم يعلموا ان جزاءهم القتل فترتب على قتل القاتل حفظ نفوس كثيرة فكان في القصاص الذي هو موت حياة وان الشفقة والرأفة على من استحق العقاب غير جائزة بل مخالفة لامر الله فند قل في سياق حد الزاني والرائية (ولا تأخذكم به ما رأفة في دين الله) وهكذا الذمة والالهام الالهي المودع في طبيعة النوع البشري يرشدنا الى ذلك أي ان الواجبات الانسانية تطالبنا بان من اقترف سيئة تخل بنظام العدالة وتؤدي الى مفسدة عامة كالرشوة وجبت علينا المبادرة لطلب عاقبه فان فيه صلاحا له بعدم عوده وردعا لغيره وبالجملة فانا نؤمل من ذوي الاستقامة ان يكونوا قدوة للناس ودعاة الى مثل أخلاقهم وذلك لا يكون الا بظهور آثارها واجراء ما يوجب التنافس فيها والمساابقة في ميدانها وان داء الرشوة وان كان لا يرب يظهر أثره على المبتلى به فيكون ممقوتا وان اجتهد في اخفائه باظهار عوارض أخرى يظنها تحجب ما انطوى عليه أو أخذ العهد والمواثيق على من يقدم اليه هذا السحت لكن لا يظهر رسما على وجه مطرد حتى تظهر المجازاة عليه وتعرف عند العامة والخاصة فتعود النفس على تصور عاقبته الا بطريقة أخبار المتوظف بمن يرشيه فانها تظهر لنا شطر المقصود والمراقبة والتهيؤ يظهر ان الشطر الثاني (عند عدم الاستقامة) واناسأل الله تعالى ان يكثرفي بلادنا عدد هؤلاء المستقيمين النزهاء ويمحق أولئك المجرمين الاشقياء

وكتب في العدد ١٠٣١ الصادر في ٨ ربيع الاول سنة ١٢٩٨ - ٧ فبراير سنة ١٨٨١

القوة والقانون

قبل الكلام على خصائص هذين الركيزين لهيئة الوجود الانساني نريد ان نبين حقيقة كل منهما ليكون القارىء على علم بما يلقي اليه بعد فلا يخطئ الغرض ولا يجاوز المرمى ولا تلحتمه شبهة توقعه في ظلام الحيرة وغيب التردد اما القوة فلا نفي بها الا ما يستعمل لطلب الملامم ودفع الماكروه سواء كان من شخص واحد أو جماعة متألفة أو شعب من الشعوب أو أمة من الأمم

وسواء كانت آلة تحصيل الملائم ودفع المعاند هي القوة البدنية مجردة عن سواها كما تراه في السباع الضاربة والحيوانات الكاسرة أو هي منضمة الى السيوف القاطعة والآلات المحرقة وغير ذلك مما يستعمله الانسان في مواطن الغلبة والصيد اما القانون فهو التاموس الحق الذي ترجع اليه الأمم في معاملاتها العمومية وأحوالها الخصوصية وهيئتها النفسانية أعم من ان يكون منغلقة بروابط المالك وعلائقها أو منوطا بالسياسة الداخلية كالادارة المدنية والتدابير المنزلية أو باحثاً عن الاخلاق الفاضلة وما ينبغي ان يتحلى به الانسان منها وما يجب ان يتعد عنه من اضدادها وسواء كان في آفة واحدة أو أم متعددة

وهاتان الحقيقتان هما موضوع كلامنا الآن اما القوة فكانت شرعة الأمم الغابرة والشعوب السالفة وقت ان كان الانسان جبلي الطبع لا يمتاز عن غيره من أنواع الحيوانات الا بالفصل المميز اعني قابلية النطق المجرد عن نور المعارف وشعار التمدن فكانت له الحاكم الفعيل يرجع اليها في تحصيل غرضه ونوال مطلوبه وباختلافها وتفاوتها اشتداداً وضعفاً وتقدماً وتقهيراً كانت تختلف الأمم وقننذ في الشرف والضعفة والسطوة والفقر والغنى من غير نظر الى شيء من وسائل تلك الوجوه مها كانت طرائقها فكان الرجل يمتاز بين قومه بصفة الاقدام والجرأة وكثرة السلب والنهب والبنك والفتك وكانت القبيلة التي هي أشهر القبائل في هذه الصفات تعرف بالمجد الاثيل والشرف الباذخ والمكافة العالية فيدين لها مجاوروها وتخضع لسطوتها كل أمة قرع اسماعها ماهي عليه من علو المنزلة وشدة الانفة وقوة الشمم وئساق اليها الهدايا من تخوم الاقطار وشاسع البلدان وتأتيتها الغنائم أفواجاً يقنادها رجالها الأبطال من ساحات الصدام والنزال ولم ينزل الا زمان الغابرة محكومة بسلطان القوة تقلب الامم على جمر الخوف والاضطراب وتضرب بصولجانها جرائم القلوب الضعيفة فتاتي بها في مهاوي الذل والهوان حتى خضعت لها الامم ودانت لها الشعوب وصارت هي الديان المسيطر على كل شيء فاذا تمت لقوم تبعها السلطة التامة والحكم المطلق فيتسلطون بقدر مكنتهم على ما شاء الله من الشعوب والقبائل ويتخبرون واحداً منهم سلطاناً أو ملكاً قد امتاز

بالتهور والجرأة وجلالة المنظر والضارة يملكونه زمام الحكم والسلطة ثم ينتخبون من عشائهم رجالا يعدونهم حفاظ الملك وأرباب النجدة والنصرة على العدو والعدة لفتح الممالك والامصار ويتسلطون بهؤلاء على بقية من هم تحت سطانهم بالرهبة والقساوة لئلا يتصلصوا من ربقته فيذعنون للمكهم قهرا لا طوعا وينظرونه مقتا لاجبا ويحملون اليه الخراج وهم صاغرون وذلك دون مراعاة طرق عادلة أو أحكام مؤسسة على أصول المساواة واستعمال الشفقة والمرحمة بل بحسب مائة تضييه القوة التي سفكت الدماء وذلت الشعوب وانتهكت حرمت الامم وسجنت حرية الانسان في مطورة الرق والاستعباد

هذا ما ولدته القوة في تلك الاعصار الخالية التي كانت مشحونة بظلمات الجهالة مسرلة بجلايب القباوة مغمورة في بحار الوحشية وما أظن تلك الشريرة المشار اليها كانت خاصة بأمة من الامم أو صنف من أصناف البشر بل كانت عامة بين أبناء الانسان على اختلاف أجناسه وتباين مواطنه فكنت ترى عامة القبائل وكافة الشعوب مقسمة الى ممالك متعددة وإمارات متباينة تجول فيها يد القوة ويحكمها مجرد الرهبة ويطويها الخوف وينشرها الفزع ويشملها الاضطراب والاختلال وتبادلها أيادي السلب بيت ضعفاً وها غير آمنين على أنفسهم ويصبح اقوياء وها غير مطمئنين على حياتهم فانبعثت في قلوب هؤلاء الاوزاع الذين ضربتهم يد السطوة بعضا القوة علة الضعف ودبت فيها سخائم الحقد فاختلفت لاغراض وتباينت المشارب وتفرقت القلوب وتنوعت وحدة الانسان الحقيقية الى اواع لا يجمعها سوى جامعة لحيوان الناطق وتبدلت فطرته السلمية الى أخلاق لا مناسبة بينها وبين جهره المقدس الشريف

ولقد تمكنت سطوة القوة في قلوب أولئك الشعوب وارتسمت صورها في مخيلاتهم ونسجت معانيها الى ذاكراتهم وصارت محفوظة في خزانة حافظاتهم قائمة نصب أعينهم حتى توهموها مقلب القلوب والاحوال حافظ القوى والاكون اليها مرجع الحوادث وعليها تدبير النوازل والكوارث فاحتسبوا المدبر في المكونات باجمعها وصوروا نماثيل علي صور مختلفة وانواع متباينة تشير ظواهرها الى القوة وتؤدي هياتها

معاني العظمة والسطوة ووضعوها في أما كن عباداتهم ليؤدوا لها فرائض السجود والركوع ويقربوا إليها القرابين من نوع الانسان وأنواع الحيوان وهذه اصنام العرب والصين والعجم وآثار قدماء المصريين وآلهة اليونانيين المصنوعة على اشكال الحيوانات العادية والملوك العانية يشرح التاريخ أحوالها فلا داعي الى الاسهاب في تفاصيل شوئونها ومن تتبع تواريخ هذا الانسان الوحشي بامعان وبصبر ظهر له ان القوة هي التي دوخت قوى الانسان السلبية وبدتها وأحدثت به من القبائح ما أحدثت ولولا ان القانون كسر سورتها وذل صعوبتها لما اشرق نور الحق على صفحات الوجود ولا تمتع الانسان في الازمان الاخيرة بلذة الراحة والسعادة فالحق للقانون لا للقوة

وبينما الانسان تائه في أغوار الاستعباد، في هانك الازمنة أزمنة القوة والاستبداد، والجور والعيث والفساد، ليس له حق بسان، ولا عرض الا ويهتك ويهان، اذ أشرقت عليه قرائح الذين جادت بهم مراحل الفضل وعرفوا بمناهج الخير فأبصر من طلائع افكارهم ما يهديه الى سبل الرشاد وبوقظ فكرته الى التماس الصواب من ابواب السداد فعلم ان القوة هي منحة جلييلة ونعمة كبيرة يستعين بها على حاجاته الضرورية ولوازم معيشته المرضية قد عزها الله تعالى بالاتحاد والائتلاف حتى اذا عجز الفرد الواحد عن الماطاقة له عليه من نفائس المطالب وجلائل الرغائب استعان بعشيرته ثم بقبيلته ثم بأمتة التي يجمعها دين أو ملك ثم بجميع افراد نوعه وان القوة ان لم تكن على قانون لا تتعداه وخط لا تمتخطاه بان استعمات على أي وجه وفي أي زمان أو مكان لا ينال ثمرتها المحبوبة وغايتها المطلوبة فأسرف على ما كان ونزع من رقدة العفلة يحاول لها هذا النظام المعبر عنه بالقانون فكان نورا يهتدى به وقائدا رشيدا يسلك بالانسان الى ما أهله له من الكرامة والنهيم فاتبع سبيله المهتدون ومال عن سنته الضالون

أما الانسان الذي ساعده التوفيق بالانقياد لاحكام القانون فانه حفظه باطوار ظاهر، وتمسك به غائبا وحاضرا، حتى صار ركنا من لوازم حياته، رعدة لمقاصده وغاياتها، وملجأ لسانه في بكره وعشباته، الى ان عرف به واجباته الحقوقية، وفرائض معيشته العمومية

والخصوصية، وامن به من مصائب الظلم ونوازله والجور وغوائله واطمان به على نفسه وعرضه وماله فسكن قلبه بعد الاضطراب وقرت عينه برياض الامن والامان وتولد فيه أمل حله على ادمان العمل فأعمل فكرته الحامدة وأجرى حركته الراكدة ولا زال يرتاد مواطن العلم ومعاهده ويقتنص بمجالة الاستكشاف كل فائدة ويستعمل قواه في حل المبهمات ويستطلع ببيصيرته ماخفي من مجهول الكائنات الى ان حدها الهل إلى معرض الاختراع والابداع فطار على جناح البخار بدل الشراع واستخدم الضار لقضاء الاوطار واستعمل البرق على بعد الديار رسول الاخبار وجعل المدافع واثقال ليبيد بها مضايده وممانديه وانغمس في النعيم مطعما ومشربا وملبسا ومسكنا الى غير ذلك مما اتيح له من محاسن الحضارة واطائف الرفاهة والنضارة ولا زال يضرب في تخوم البلاد ويدلل بقوة عزمه أخلاق العباد الى ان اصبحت البسيطة في قبضة زمامه ولا غرو فان قائده الاتحاد والائتلاف وباعثه الوفاق لا الاختلاف وهو لأن كما بدأ يحافظ على القانون بانسان مقلته ويصرف في حراسته ما يدخل تحت قوته فانه ملاك سعده وأساس مجده ومنتهى جده

أما الذي ضرب عن القانون صفحا وطوى عنه كشحا فهو هو على رذالة أخلاقه وبساطة أفكاره يصبح مضغة تحت اضراس الظلم ويمسي كرة لصولجان البغي فليحي صاحب القانون على بساط النعمة الهني

فيا أيها الذين ينحرفون عن القوانين ويمدلون عن طرق المنظمات لفرور وقبي ارققوا بانفسكم واعتبروا بمن يماثلكم في الصورة الانسانية وانظروا اليهم كيف عظموا القوانين ورفعوا شأن الحقوق فاصبحوا في غاية من القوة والعزة فأنهضوا لجاراتهم في الصدق ان كنتم تعقلون واياكم والتمادي فيما تسوله النفوس من الاغترار بظاهر من الساطة فللاهام تغلب وتقلب لكن صراط الحق واحد وسالكه لا يبطل ان عثروما استقام اعواما أما طرق الاعوجاج فهي وعرة خطيرة كثيرة الفوائت سالكها معارض لمدير العالم سبحانه وتعالى في أحكامه فانه عز شأنه قد أقام الكون بنظام الحكمة ورتب لكل شيء حدودا هي سور بقاءه وسياج دوامه فان خرج عنه انحدر الى مهاوي العدم والفتنة ومن تأمل الكون الاعلى وما فيه من

الكواكب والشموس والاقمار ثم نظر الى العالم الاسفل وما احتوى عليه من نبات وحيوان يشهد في الجميع لكل نوع منها قانونا خاصا في سير وجوده تقوم البراهين القاطعة على انه لو انحرف عنه لحكم عليه سلطان القهر الالهي بالعدم والانقلاب وانه بياهر حكمته قد جعل للبهيمة الانسانية حدودا عامة هي الشرائع وقوانين الآداب التي تحدد سير الانسان في معيشته لخاصة نفسه أو معاملته مع غيره وقد أودعها العلماء والحكماء بطون كتب التهذيب والنورية البشرية بعد ان نطقت بها الشرائع الالهية وقد شهدت التجارب بالاخبار المتواترة عن الامم الماضية والمشاهدة الحالية في الاوقات الحاضرة ان من تخلى حدود هذه الحقائق رماه القهر الالهي بسهام لا يخطئ مرماها فالقانون هو سر الحياة وعماد سعادة الامم وان القوة لا تأتي بشرتها الحقيقية الا اذا عضدت باتباع الشرع والقانون العام الذي أقر العقلاء بوجوب اتباعه

فكيف يصح لذي شوكة أو صاحب سلطة ان يغير بعد رؤيته هذه البراهين الباهرة بقوته أو يعجب بصولته ويدع الامور لارادته ومشيئته ويزدري بالقانون من حفظ القوة ونمو الثروة في من هم تحت امرته فيفعل ما تسول له نفسه ويأتي كل ما يسوقه اليه حسه فيسري الاهمال في طبقات رجاله ويجارون حاكمهم في عوائده وأخلاقه وتصبر الاموال لديهم مباحة والحقوق مبتذلة والاعراض منتهكة ووسائل الربط والضبط معطلة وعقد المواثيق والعهود محللة فيكثر فيما يليه غوائل الخسران وينمو به جوائح اليبهان حتى تصير أفراد المحكومين اخلاطارعا لا فرق بين كبيرهم وحقيرهم الا بوفرة الشهوات والتمكن من وسائل اللذات مع توافق في الفطرة ونشابه في الفريضة ولا يطول عليهم ذلك العهد حتى يصبح الحاكم محاطا بحم غفير من الغرماء يشجذبونه بايد طالما نقدته من خزائنها ماظنه نزرا يسيرا في جانب اسرافه وتبذيره وهو على كاهل الاهالي حمل ثقل العبء لا تقدر ان تقله ونسي عمارية البلاد تنمي محاسن صحتها أربابها طوامس المعالم مظلمة الاطراف ليس فيها سوى نعاب البوم وهمس الهوام وحينئذ لاتسل عن العاقبة فانها أسر ونهب وبئس المآل

ذلك ما يولده الغرور بالقوة والاعجاب بالسطوة وترك القانون الذي عليه سعادة العباد وخصب البلاد فإذا أرادت تلك الامة التي تصرف ذور البغي والغرور فيها على خلاف القانون ان تعيد لها مجدها الاثيل وعزها الاول فلا بد لها من اعادة شأن القانون فتشيد منه ما هدته يد الغرور وبددته سطوة الفجور وتأخذ لوسائل النافعة لاستمالة قومها الى التمسك بعراه ومتابعة رشده وهداه ولا تبارح الحيل والتدابير لهذا الغرض وما كان أغناها عن الاصلاح بعد الافساد والتعمير بعد التخريب ولكنها باعت القانون بثمن بخس فكان جزاؤها ان تشتريه بنفسها العزيزة ودماؤها لشريفة حيث عرفت ما هي القوة وهو القانون ولنا في هذا الموضوع كلام يأتي بعد ان شاء الله تعالى .

وكتب في العدد ١٠١٢ الصادر في ١٤ صفر سنة ١٢٩٨ - ١٥ يناير سنة ١٨٨١

ما أكثر القول وما أقل العمل

ان من أخس الأوصاف وادناها ان يقول الانسان ما لا يفعل وان يدل غيره على ماضل هو عنه وان يعيب على الناس ما لا يعيبه هو على نفسه وذلك ان من كانت هذه صفته فهو جاهل من وجه ويعترف بنقصه من وجه آخر وخبيث المتصد دنيء الهمة من الوجه الثالث . اما جهله فلأنه اذا ادعى بما ليس فيه من علم أو فضل مع كون الناس لا يرون أثراً ظاهراً لعلمه أو فضله بمعنى انه لم يؤف تأليفاً نفسياً مثلاً ينتفع به عموم الناس ويعترف بنفاسه ما فيه العقل والمبصرون من أي أمة ولم يكشف حقيقة ولم يحل . شكاة واعتقد ان سامعيه يصدقونه فيما يدعيه فقد جهل ان النفوس مجبولة على تطبيق المسوعات على المشاهدات وواقع الأمر فان لم تجدها مطابقة رمت بها في وجه قائمها فتقلب دعواه مقتا عليه ويسقط من قلوب الناس أجمعين اذا لم يزواله أثراً يفيدهم سوى انه يخبر عن نفسه بأوصاف لاحقة لها وكذلك اذا أرشد الى غاية هو متوجه صوب ضدها ويظن ان الناس يسترشدون بارشاده فهو لاجحالة مطبق الغفلة من كب الجهل اذا لا يعلم

ان الافعال تؤثر في النفوس أضعاف ما تؤثر الاقوال فان القول عند النفس يحتمل التصديق والتكذيب فتتردد في مفهومه فلا يقودها الى العمل الا بعد تكرار وتذكر اما الفعل فهو أمر مشهور ينطبع في النفس أشد انطباع فتندفع اليه خصوصاً ان كانت فيه لذة معجلة وان عاب على غيره وصفا هو موجود فيه فقد جهل ان ذكره لعيب الغير ينبه الاذهان للنقص القائم بنفسه فان المتكبر مثلا اذا ذم الكبر في غيره فقد ذم نفسه من حيث لا يشعر فهو جاهل بنفسه وبما يعود عليها وهو ظاهر.

وأما اعترافه بنقصه وعجزه فلانه لم يصدر منه ذلك أي الدعوى بما ليس فيه وترغيب الناس فيما لا يرغبه لنفسه أي فيما ليس بمنصف به بل هو منحرف عنه وذكروه لمثالب النير وهي فيه الا لاجل ان يبين للسامعين كماله وفضله ويظهر لهم وصوله لما يهدبهم اليه وخلوه من النقص الذي يلوم عليه الغير حتى يعظموه ويقوموا له بقضاء بعض حاجاته حيث علم ان الكمال الذي يدعيه هو مناط التعظيم وجلب المنافع وكأنه بذلك ينادي على نفسه بانه لم يبلغ من ذلك شيئا لانه لو بلغ الكمال الذي يدعيه لكانت نتائج ذلك الكمال ناطقة برفعة قدره شاهدة بعلو مقامه سواء ادعى ذلك عن نفسه أو لم يدع وسواء نقص غيره أو كل ولم يكن هناك داع لمدحه لنفسه أو ذمه لغيره بل تكون آثار فضله فاعلة في النفوس جاذبة لها اليه بذاتها فمن تكلف الإطراء على نفسه بوصف من الاوصاف الفاضلة أورام اظهار كماله بالخط من قدر غيره فذاك معترف بانه خال من الفضيلة حيث لم تشهد له الحقيقة فاضطر الى النداء بالكذب ليقنع السامعين بانه كذلك

واما خبث مقصده ودناؤه همته فلأن من هذه صفته لا يريد ان يكون ذا فضيلة قط ولا يتبغي الوصول الى كمال ولكنه يطلب عيشا حيا بما اتفق فاذا جلس الى بعض البسطاء أو غيرهم طلب التلبيس على عقولهم ليقدر في نفوسهم انه بالصفة التي يذكرها عن نفسه أو يرشد اليها وانه خال من العيب الذي يسب به غيره ليوقروه فيكتسب منهم مساعدة على بعض اغراضه الخسيسة أو يستفيد منهم خطأ ما يسد به باباً من أبواب نهمة وشره فهو في ذلك بمنزلة المشعبذين أو المحتاسبين أو السارقين ونحو ذلك من كل ذي حيلة خسيسة جلب الأموال ولا يختلف عن

هو لاء الا بالاسم فقط حيث يقال انه غش الناس بحكاية الكذب عن نفسه وهو المسمى في عرفنا (بالفشر ويقال لصاحبه فشار)

فالقول الذي لا يعضده الفعل يحسب من ارداء الأوصاف واقبحها لانه يشعر بوجود أوصاف تشهد البدهاة بقبحها ومن الأسف ان هذا الوصف يوجد في كثير من أهالي بلادنا بل في الغالب منهم بل لا يوجد القائل الفاعل الا قليلا جدا (واننا نحتج من تسجيل مثل ذلك في الجرائد ولكن أي فائدة في اخفاء عيب فينا عرفه الغير منا فحق علينا ان نذكر به لعلها تنفع الذكري)

انا ان طرقتا المجالس الخصوصية في بواطن البيوت والاندية العمومية في الاماكن العامة لانعدم قائلنا عن نفسه انه قرأ من العلوم معقولها ومنقولها وطالع الكتب العالية ووقف على المباحث الجليلة وكشف بواطن الدقائق الخفية واستطلع الاسرار وكان مع ذلك مشهورا في زمن الاشتغال بالفطنة والذكاء وتوقد الفكر وقوة الحافظة ونحو ذلك وآخر يقول انه بلغ من الاقتدار على الاقناع في الجدل والافحام عند المحاضرة وتفهم الطالب عند الاستفادة حدا لا يصل العانون الى غباره وان له من طارق الاقناع والافهام ما لا يتيسر لغيره معرفتها وأنه يحكي بكلامه الاذهان الميتة ويحشر اليها صور المعلومات ويدع فيها أسرار الكائنات ولو سألت كل واحد من الذين يظن فيهم وصف العلم والتعليم لرأيت يحدث عن ذاته بكل الذي قلناه ويقول لو كان الناس يسلكون هذا المسلك الذي أسلكه لاتشر العلم وعمت المعرفة

لكننا اذا رجعنا الى الواقع ونفس الامر رأينا ان التأليف والتصانيف مفقودة وان وجد منها شيء كان ناقصا إما من جهة المعنى وإما من جهة اللفظ بحيث لا تدل عبارته على ما قصد منه فيكون كهدمه والطالبون للعلوم على اختلافهم قاصرون عن ادراك ما أضعوا عمرهم فيه ودليلنا على ذلك احتياجهم دائما الى غيرهم وعدم قدرتهم على الاستقلال بعمل يعملونه في نفس العلم أو الصناعة التي تعلموها فتارة يحتاجون الى الاجانب وأخرى الى بعض من الوطنيين (وربما نبين هذه الجملة في وقت آخر)

ومن الناس من اذا ذكرته في المنافع العامة والمصالح الكلية أخذ يشرح غوامضها ويبين الواجب فيها والطرق الموصلة الى جلب النافع ورفع الضرر والوسائل المؤدية الى تقويم حال الامم وارتفاع شأنها من رفع منار العدالة وبث روح العلم وتقدير المساواة وما شاكل ذلك ثم اذا فوض اليه امر من تلك المصالح رأيت أبعاد الناس عن الخير وأقربهم الى الشر واستنكف عن المساواة واستهجن معنى العدالة وان كان يعبر عن نفسه بلفظها وسار مع أغراضه وشهواته وجعلها قانوناً يتبع ويمد كل ذلك حقاً وهو في درجة وعظه الاولى لم ينجل ولم يتلثم له اسان في النصح ودعوى معرفة الحق ولو ان أحداً عارضه بحق في أي جزئية عقب ترغيبه في قبول النصح والمساواة لرأيت يندمر ويتضجر ويود ان يفتك بمن يناقضه في بعض آرائه ويهدي اليه نصيحاً في بعض أعماله

ومنهم من يقول ان كل مصيبة ألمت بالنوع الانساني لم يكن منشؤها الا التباغض والتحاسد وتفرق الكلمة والميل الى المنافع الشخصية وعدم الاكتراف بمنافع العامة ونحو ذلك من الاقوال الصحيحة المسلمة ولو أنك لاقيت كل يوم ألف شخص لرأيت يقر بذلك ويعترف به مدعياً أنه يبذل في كل الميل الى الانحدار والائتلاف وانما تأتي النفرة من غيره ثم لو أتى اليه مطالب بحق في وقت المذاكرة لرأيت يعد هذه المطالبة أمراً كبيراً وان كانت بغاية من اللطف والانسانية والتبوى من الغيظ التواء الثعبان ولو دعي الى إغاثة ملهوف أو ازالة مكروه عن بعض اخوانه أو الداخلين تحت أمرته رأيت يتعلل ويعتذر أو يتمنع ويستكبر ويقول: ليس هذا من خصائصي: ولو طلب الى تأسيس أمر خير بقيد الزراعة أو الصناعة أو يساعده على التربية الحقة وجدته يستصفر ذلك ويسفه آراء طالبه ويقول ماذا يعود على شخصي من ذلك ومالي وللعمامة دعهم في شأنهم برزقهم الله من غيري كان جنابه يظن ان المحبة والاجتماع والالفة التي يدعيها ويميل اليها يجب ان تكون له من الغير لا في مقابلة منفعة ولا جزاء لدفع مضرة بل لا بد ان ينفعه الناس وهو لا ينفعهم وما أجمل أمثال هؤلاء السفهاء وأضل رأيهم (ومن العجيب أنهم كثير جداً)

ومنهم من يرشد الى العدل ويدعو الى الانصاف ولكن اذا عرض له حق

في طريق منفعة خاصة له داس الحق برجله طلبا للوصول الى غايته وكانه يعد ذلك من قبيل الانصاف الذي يدعيه أو اضرب عن النصيح والارشاد الى وقت آخر ومنهم من ينتقد على الظلمة ومرتكبي الجرائم وفاسدي الادارة وسيئي التدبير ثم تراهم واقعين فيما ينتقدونه على الغير كأن محل الانتقاد أن يكون الفعل صادرا عن سواهم اما اذا كان صادرا عنهم فقد اكتسب الحسن من ذواتهم المقدسة فامثال هؤلاء الذين ذكرتهم لا يعرفون في العالم قبيحا ولا حسنا ولا صحيحا ولا فاسدا وانما هي ألفاظ ورثوها نطقا ولم يفهموها حق الفهم وأفوا استعمالها في مواقع مخصوصة فهم يستعملونها كما سمعوها بدون ان يعلموا لها حقيقة أو يفهموا لها على مرعي وحقيقتها أمرهم أنهم جهلاء اندال عديموا الشرف الانساني حقيقتها ووجودهم في الهيئته الاجتماعية شوم عليها وهم في رتبة الحيوانية الاولى لا يعترفون بالحقائق الثابتة بل لا يرون حسنا الا ما يصل الى احساساتهم الظاهرة من اللذائذ الوقتية فاذا مضى وقتها ذهلت اذهانهم عنها ولا ينتبهون لحسنها الا اذا وردت عليهم مرة أخرى وهكذا ولا يرون قبيحا الا ما يصل الى ادراكاتهم من المولات الوقتية كذلك فاذا زال ألمها غفلوا عنها كأنها لم تسهم فان رأوها لاحقة بغيرهم لم يعدوها مؤلمة ولم ينظروا اليها نظرا الاسف المستنكر فيختلف عندهم حسن الشيء وقبحه بالاضافة الى أنفسهم تارة والى غيرهم تارة أخرى وليس عندهم صورة ثابتة لماهية الحسن وماهية القبيح ولا حقيقة النافع أو حقيقة الضار وانما هي أهواء وهم يعبرون عنها بالالفاظ المنطنة كالمصلحة العامة والمنفعة العمومية والحقوق الوطنية وهاشا كل ذلك من المحفوظات الخالية عن المعاني يلوكونها بالسنتهم ومع ذلك فعم لا يسلمون من شر ما يقولون وما يفعلون فجهلهم للاحالة يعود عليهم بعاقبه بثس العاقبه

ولكننا لانحب ذلك ونود ان يكون الفعل أكثر من القول وان يكون كل شخص من أبناء بلادنا صغيرا كان أو كبيرا محجدا في نيل الفضيلة الثابتة التي يلهج بتحسينها واجراء مقتضاها حتى تكون بذاتها شاهدا عدلا على أهلية صاحبها لما يقول وتنتشر الاعمال الصالحة المنطبقة على الشرائع والقوانين ففسير المصالح على صراط مستقيم

و ينال لكل شخص حظه الحقبى من ثمرات أنعابه الآتية علي وجه منتظم فيعود النفع على العامة والخاصة أما الفخمة وكثرة النفوفانها من أشدة العجز لا تميد ولا تبدي وسنعود الى هذا الموضوع مرة أخرى عند الفرصة ان شاء الله

وكتب في العدد ١٠٣٣ الصادر في ١٠ ربيع الاول سنة ١٣٩٨ - ٩

فبراير سنة ١٨٨١

منتدياتنا العمومية وأحاديثها

وعدنا فيما سلف بنشر ما ألفناه من الاحاديث وما عكفنا عليه من الاقاويل في مجامعنا الاعتيادية ومحافلنا المتتابعة مما هو عقبات في طريق تقدمنا وظلمات متكاثفة في وجه انتظام هيئتنا الاجتماعية وحواجز دون الوصول الى محجة الرشاد وانتهاج خطة السداد وان خاله الكثير منا تمدنا وزعمه السواد الاعظم من شعار الادب وعلائم الذوق والترف وقد أردنا الآن ان نشكلم على هذا الموضوع وفاء بما وعدنا فنقول

ان احاديث الامم تدور على محور أفكارها اذ اللسان هو المترجم عما يختلج بالضمير من الصور المحفوظة والمعاني المتخيلة على اختلاف أشكالها وتنوع فنونها فباختلاف صنوف البشر في المعارف والامزجة تباين مفاوضاتها وأحاديثها وتشعب مجادلاتها ومحاوراتها وان توارى يخ الامم الغابرة وحوادث الملل الحاضرة لترشدنا الى ذلك باجلى بيان فهذه الامة العربية في صدر الاسلام وقبيله لما مال عنصرها الى التحجب في خلق الجرأة وحملتها شهامة النفس على الجولان في ميادين الغزو والفتوح قصرت احاديث رجالها على ما يمتعاق بحرب ماضية ومعركة آتية تعقد مجالسها على ذكر جياذ الخيل ومجاسنها شارحة معايب الاقواس وأوتارها منتقلة الى الكلام عن اشتهر من رجالها بالاقدام والظفر والبسالة والانتصار وقصائددم الشعرية مشحونة بأوصاف الحماس وخطبهم انثرية موقوفة على مدح النزال والبراز وبقيت هكذا أحاديثهم الى ان ضعفت تلك الحواس واستعصض عنها بالميل الى الراحة

والانغماس في النعيم فتولد فيهم من ذلك المحبة والعشق ولهجت شعراؤهم بأوصاف الغزل بعد الحماس وبنعت الحاجبين والخصر بعد الاسهاب في وصفي القوس والوتر وهذه أمة اليونان لما كانت ديارها مهد الحكمة ومطلع شمسوس العرفان دارت أحاديث قرمها في الجماع على تحديد العلوم وتبيين مهايها الاجناس والفصول يطلب الواحد منهم منزل صديقه ليتحاور معه في كيفية إنتاج الاقيسة المنطقية مع تغاير أشكالها فيطول بينهما الحديث وهما بين مثبت وسالب ومعترض ومجيب وهذا في حال كون المجالس الاخرى غاصّة بجماهير النبلاء فئمة تغوص في البحث عن أمزجة المواد وعناصرها وأخرى تطلق عنان اللسان لاستكناه حركات الافلاك ومرآكرها فاذا عقدوا عزائمهم على المزايلة والانصراف ودعنتهم أوقات أحاديثهم شاكرة لهم على ما أودعوا فيها من تقرير المسائل واماطة الحجاب عن كثير من المشكلات والمعضلات واستقبلتهم الايام بوجه باش وثرع باسم فرحة بما سيكون لها في بطون التواريخ مرسوما بمداد الثناء على صفحات الاعصار والدهور لما استبرزه فيها أفكار هولاء القوم الى عالم الوجود من المطالب العالية المؤيدة بالبراهين الصحيحة والحجج السديدة وهذا مع محافظتهم وقت المحاوره والجيدال على رعاية الآداب وحرمة قوانين المباحثة وهذه أم أوروبا تشعبت مجالسها وتنوعت مواضعها تحمل اينا الجرائد من أخبارها مالا نكاد نصدقه لولا علمنا بوفرة معلوماتهم وكثرة مخترعاتهم فيوما نسمع بأن ذوي الشركات التجارية اجتمعوا للمداولة فيما يلزم اتخاذه لانشاء بنك مالي يكون مركزه في احدى الممالك الاسيوية مثلا فنطول بينهم المخابرة في ذلك ويعلو صوت الخلاف بين أعضائها فمنهم من يرجح انشاءه في الاملاك الغلانية من تلك القارة محتجا بان فلاحى تلك الديار يقترضون النقود بفوائد باهظة لاحتياجهم وشدة فقرهم فتكون الثمرة أجزل والربح أوفر مما لو أنشئ هذا البنك في احدى الديار الافريقية التي أصبحت لخصب تربتها ووفرة حاصلاتها وأخذ الاموال الاميرية منها بتقسيم عادل لاحتياج الى استقراض من مالنا بل ربما اذا دامت لها هذه الحال يتوفر لها كثير من ايراداتها التي تقدر بها على انجاز مشروعات عمومية حتى تصير بذلك معادلة لاعظم ممالك أوروبا في

الثروة واليسار فيجاوبه الآخر قائلا ان الاجدر بنا ايها الشريك أن نعدل عن انشائه في أي مركز من مراكز آسيا مطلقا الى اتخاذه بديار مصر وأما ما قيل من ان تخفيف الضرائب عنها مع حسن تربتها وكثرة ايراداتها يجعلها غنية عن الاستقراض فذلك انما يكون لو رجع فلاحها عن سرفه وسفهه والا فما دام على هذه الحال فانه يكون أبدا مثقلا بديوننا يقرع أبو بنا آناء الليل وأطراف النهار ولو أثمرت أرضه ذهابا وعوفي من جميع الضرائب سرمدا فانه على ما يقال رهن عند أحد البيوت فيها ما يجاوز العشرين في المائة من أطيانها تأمينا على ما أخذ منه من النقود في مدة لا تزيد عن العام كثيرا فيستحسن الحضور بيانه وتخم الجلسة بالعزم على الشروع فيما قصدوا ليدرکوا من الربح مثل من سلفوا

وبينما هم كذلك ترى فئة أخرى تتروى في مدسكك حديدية في إحدى الايلات المشرقية وانشاء أسلاك برقية فوق البحار وتحتها تسهيلات للمواصلات التجارية واحكاماً للعلاقات الدولية وأخرى مجتمعة لتتخير من بينها نبيلاً يكون رسولا من قبلها عند رجال إحدى البلاد فيعقد معها شروط التزام مصالح عديدة وأراضي فسيحة ومياه عذبة ما كانت أهل تلك الديار في حاجة الى التزامه وترى على مقربة من هذه الفئات جماهير متألبة وجماعات متضاربة يحسنون صنع الخطابة ولا يجهلون تاريخ الخلقه يقبلون العالم بين أصابعهم ويقطعون وجه البسيطة في أقل من لمح البصر وهم جلوس يتحادثون يعينون أوقات الفرص الملائمة للاستيلاء على تلك الجزيرة أو هذه الامارة أو ذلك الأقليم يستطلعون الرسائل المتوالية الورد من أبناء جلدتهم المنبئين في انحاء المعمورة لاستكشاف خبايا القبائل والشعوب التي هم بين ظهرانيمهم يذلون المصاعب ويمهدون طرق الاستيلاء والفتوح ونحن عن كل ذلك غافلون نواصل الليل بالنهار في اللهو واللعب باغت منا الخرافات والهديانات مبلغا جسيما حتى استحوذت علينا فأستناذكر الحقائق النافعة والمصالح المهمة وصارت تلك الاخلاط الفاسدة كملكات للنفس يتعسر زوالها الا بذهاب الارواح والاشباح تعقد عندنا المجالس ولكن على ذكر أنواع الخمر والمسكرات يطرب المجتمعون فيها بذكر أوصاف الغيد الحسان ويصرفون لثلي الليل على قهاوهم

(كذا اصطلاح والا فهى مواضع رجس وذنس) بشربون فيها من المواد الممزوجة بالعقاقير المسمة قدرا لا تسوغه طباع الوحوش الضارية ولا الاسود الكاسرة وفي خلال ذلك يتشاقون ويتخاصمون حيث ان كلا منهم يفضل مألوفه من ذلك على مألوفات أصحابه ويعدد أوصافه ويذكر محاسنه ويشرح مزاياه من حور عيون ورقة خصور وعذوبة منطق وماشاكل ذلك ويحتج عليه بأن فلانا لا يبيت في ذلك المحدث ولا يطاق ذلك الموضع حتى يدفع عشرين أو ثلاثين جنيها وماشابه ذلك والآخري ناقصه وينافسه ويروم اقناعه في مقام الجدل ولا يروق لهم الحديث الا اذا انتقلوا الى القذف في شرف من بينه وبينهم جامعة ديوانية أو علاقة مجاورة منزلية أو لا هذه ولا تلك وإنما هدتهم شهرة ذكره الى معرفته فيرمونه بالجبن وعدم الذوق لكونه نزيه النفس يأنف من سلوكهم ويرمونه بفظ الطبع والتكشف ويسمونه (نطعا) وهم في خلال ذلك يهزنون ويستخرون ويضحكون بصوت جهوري (ولا يبكون وهم سامدون) يتبارون في ميادين البذاء واستحضار كل ما قبح وخبث من الالفاظ وهو المسمى عندهم (تنكيتا) فقسما الالفاظ العرفية أبوابا وفصولا ليستعملوها في هزلياتهم السخيفة حتى كثرت الفصول وتنوعت المواضيع واذا تبارى اثنان منهم في باب منها استداما ساعة أو أكثر وهما مع الحضور في خلال ذلك يرفعون أصواتهم بالضحك المزعج فمن عجز منها ما قبل صاحبه أو سعوه تو بيخا وصفقوا للمتصر اعلانا بظفره وأجاسوه مكانا عليا ويسمونه المعلم الماهر وهذه فئة غير قليلة في المدن وأكثرها من أبناء الاغنياء عديمي التربية وأما مجالس ذوي الكمالات من أهل المدن فأنها ان اتفق وتجردت عن الحديث في منكر فهي لا تخلو عن حشو فإنه على الاقل لا بد ان يتشرف المجلس ولو زمتنا قليلا بحلول الغيبة أو النسيمة المرافقتين لنا مرافقة الشخص لظله الا اذا سمحت الصدفة وكان زمن المجلس قليلا جدا لا يسع سوى التحية دون ردها وانهم لن يستطيعوا ان يبرهنوا على خلاف ذلك فاني قائل اذا لم يجلسوا مستدعين الصمت ومنصرفين كذلك فيما اذا ينطقون هل ينطقون بعلم شرعي وقد جهلوه أو تجاهلوه أم بعلم صناعي وقد عادوه أم فن طيبي وقد تناسوه أم حديث عن منفعة عمومية

وقد أغفلوها أم استفسار عن حوادث سياسية وقد زعموا الاشتغال بها عبثا فاذا لا سبيل الا الاشتغال بالعلم كالمطالعة والاشغال (الطاوله) وغيرها من اصناف الملاعب وانها دون رهب لنحملهم الى أسوأ مما فروا منه كما هو مشاهد نعم يوجد بيننا بعض الاذكياء الذين يتحدثون عن المعارف والسياسة ولكن فضلا عن كونهم نزرا يسيرا فان أعمالهم غير منطبقة على ما يقولون لكونها جملا حفظوها من غير ان يعقلوها معنى أو لكونها أمورا اجالية ضيقة المجال لم يبحثوا في تفاصيلها هذه هي المجالس المنزلية

وأما المجالس التي تعقد على قهاري الشعراء أو الحشاشين المخرفين فلا نستطيع تفاصيل ما فيها من العجائب والاحاديث الجنونية لكثرتها وتشعب مسالكها سيما حديثهم فيما يتعلق بالجن والشياطين أو خرافات المعانيه والمجانين كما اننا نكتفي في الكلام على منديات الارياف بانها وان قيل فيها ما يتعلق بالزراعة ومصالحها ولكن لا تخلو من كلمات تدل على تمكن الحسد والحقد في أفئدتهم وان العداوة والبغضاء راسختان في ضمائرهم بحيث يعسر زوالهما وهذا مع مساواة غالبهم لاهل المدن في البغي والفجور وان بعض عمد البلاد أسوأ حالا وأقبح عملا من أهل المدن كما هو معروف

فهذه احاديثنا في مجالسنا وتلك أقوال غيرنا في مجامعهم سرورنا لذوي النقد والبصيرة معرضين عن كثير مما تنفوه به وقت اجتماعنا واعلمنا نذكره وقتا ما اذا رأينا لهذه البزرة أوراقا يانعة وثمرا طيبة فيقوى فينا ضعيف الامل وبجي ميت الرجاء ونشمر عن ساعد الاجتهاد ونطاق لسان العظة داعين الى طرق النجاح وأنا لنخشي ان تقابل هذه الجملة بمثل ما قولت به اخواتها من قبل كأن يقول زيد ما كتبت هذه الجملة الا للتنديد على أقوالي ويظن مثله عمرو فيصرفونها عما وضعت لاجله من خالص النصيح ومحض الارشاد من غير ان تناط بشخص مخصوص أو فئة معينة فالملحوظ فيها كسابقاتها الخلق من حيث تعلمه بالافراد أيا كانت كما هو الشأن في جميع المواظ والنصائح العمومية لالمرء الخصوص المتصف بتلك الاخلاق حتى تكون تنديدا وطعنا فسمى ان لانسمع بعد بمثل تلك التصورات

من أحد من الناس و يعلموا ان ما كتب وسيكتب صادر عن نفوس تسعى في تهذيب الاخلاق ما استطاعت ويسرها ان ترى أباء الدبار رافلة في حلال من الكلمات متحلية بالعزة والفضار بحق الله آمالنا وختم لنا بحسن ما لنا

وكتب في العدد ١٠٥٥ الصادر في ٧ ربيع الآخر سنة ١٢٩٨ - ٧ مارس سنة ١٨٨١

حاجة الانسان الى الزواج

وعدنا في أحد أعدادنا الماضية ان نتكلم في المصائب التي عرضت من تزوج النساء المتعددات عند مخالفة حكم الشرع في أمرهن فالآن نوفي بما وعدنا بادئين بتمهيد يتبعه بالمتصود فنقول

لما كان من لوازم حفظ النوع الانساني الممرض للفناء والزوال التناسل والتوالد أودع الحق سبحانه في طبيعة الانسان قوة شهوية تدعوه الى الاقتران وتحمله على طلب الازدواج كسائر أنواع الحيوانات

غير ان الانسان يمتاز عن سائر الحيوانات بقوة مذكرة يستحضر بها ماشهده في الماضي فيطلبه ان كان لذيذا استحصالا لمجرد اللذة وله حرص بالطبع على المدافعة عن كل ما يروم جلبه لنفسه من ان تمسه يد الغير ويدافع عنه ما استطاع كل من حاول مشاركته فيه ثم ان هذا التمييز العقلي دعاه لان يطلب من الازواج ما هو أبهى في المنظر وأنعم في الملمس وأسلم من الآفات والمشوهات ونحو ذلك فلا يسمح لاحد بمقتضى الحرص الذي نسميه غيره ان يشاركه فيه ويدفع ذلك بكل ما يمكنه حتى القتل والجرح وهذا بخلاف باقي الحيوانات فانها وان كان يغار ذكرها على أئناها وقت طلبه لها لكنها لحفظات وتنقضي فاذا سافدها انقضت الغيرة بانهضاء الشهوة والانسان لفكره ليس كذلك بل يلزم الحرص في جميع أحواله خوفا على المستقبل ومن المعلوم ان تلك القوة وهذه الخواص منتشرات في جميع الافراد البشرية

فكل واحد منهم يطلب صرف شهوته مع من انصف بالجمال وسلم من الآفات حالة كون كل واحد منهم يطلب الاستثارة ويدافع الغير عنه لما قدمناه من

الاسباب وزد على ذلك ان الانسان في حاجة الى التعاون بالضرورة وهو في فطرته لا ينظر الى التعاون بجميع افراد الانسان فلا بد له من تعلق خاص يوجب عقد التعاون الخاص فلو ترك الانسان مسترسلا مع شهوته من غير ان تقيد طرق استعمالها بقانون يحفظ ثمرتها ويكفل سلامة تبيحتها لاختل نظام الانسان وفسدت أركان سعادته ولم يهتن وجوده عن غائلة الزوال وعاديات الفناء وذلك من وجوه (الاول) ان النسوة اذا أبيضت لكل ذكر من الرجال وأبيض لكل أنثى ان تقترن بكل زوج في أي وقت لا شتمت نار الغيرة في أفئدة كل واحد من البشر وسارع كل الى مدافعة من يروم الاشتراك معه ولو أدى ذلك الى سفك دماء الطالبين والطالبات (الثاني) ان المرأة عاجزة بالطبع عن اقدرة على جلب لوازم معيشتها ودرء المكروهات عن ذاتها خصوصا في أزمته الحمل وعقب الولادة وسني الرضاع ومالم يعلم الرجل اختصاصه بها لا يسعى في القيام بمحاجاتها والمدافعة عن حقوقها فتضيع ونضيع ذريتها (الثالث) وهو أعم من هذان الرجل لا يخاطر بنفسه في تحمل الاتعاب وفتحام الشدائد طلبا للحصول على وسائل المعيشة الا اذا رأى صبية وعيالا هم عالة عليه في أمور معيشتهم ونوال مآر بهم يؤدي اليهم ما استطاع من الرزق وقت قدرته مؤملا فيهم أنه اذا وهنت قواه بعد عناية تربيتهم اذا كبروا يعوضون عليه اتعابه السالفة وتسيئهم مصيبتهم ويفرحون بشروته وسعادته بل لو لم تكن له زوجة وذرية تختص به وتعد نسبته اليها كنسبة الجسد للروح لما أمكنه الادخار لنفسه من قوته فان ادخار العيش الذي هو من لوازم الانسان موقوف على عناية الزوجات والابناء وتوجه القلوب منهم الى مساعدة هذا الكاسب العاني فهو يجتهد للإيجاد وهم يهتمون بحفظ الموجود وكل ذلك مفقود اذا اختلطت الانساب وجهدت الاصول بل لو اختلط النسب لم تتوجه همه رجل للسعي في تربية ولد فيستأصل الموت افراد النوع في أوائل أعمارهم

فظهر من ذلك ان سعادة الانسان في معيسته بل صيانة وجوده في هذه الدار موقوفة على تقييد تلك الشهوة بقانون يضبط استعمالها ويضرب لها حدودا يقف كل شخص عندها وتوجب الاختصاص بين الزوج والزوجة فيمتنع التعدي ثم

يظهر منه التعلق الخصوصي بين كل شخص وزوجته وكل زوجة وبعلها فيسمى كل
 تخير من اختص به حيث ان سعيه لسلك البشر غير ممكن بل هو بعيد عن الافكار
 البسيطة الغالبة على أفراد النوع البشري وقد أتت الشرائع المنزلة بما يكفل هذا
 الامر وان اختلفت مظاهره بالنسبة الى اختلاف طبائع الامم لما طرأ عليها من
 تقلبات الاجيال والاعصار ولم تبسح لارجل أية امرأة بريدها الا اذا كانت
 خالصة عن الازواج وثيقن فراغها من الحمل وخلوها عن جميع الموانع التي تحل
 بهذا الاختصاص وطلب العقد عليها والاجابة منها أو وليها بالقبول بمحض جماعة
 من الناس تدبغ هذا الامر لتكشف الناس عن ارادتها اذا علموا أنها خصت
 برجل يقوم بحاجاتها ويدراً عنها أي مكروه وأمرت الطرفين بحسن المعاشرة
 ونهت عن ارتكاب أي أمر يخل بنظام الاجتماع المنزلي لذي لانتم سعادة العائلة
 الا برعاية حرمته والمحافظة على حقوقه كالقيام بواجبات وحاجات كل واحد من
 أفرادها وحسن الاقتصاد في المعيشة وان ينظر كل واحد الى مصلحة العائلة نظره
 الى مصلحته الخصوصية وبعبارة أظهر ليس عنده أمر يعد مصلحة الا اذا كان يوجب
 لعائلته الثروة والتقدم وينقلها من خطة الشقاء الى درجات السعادة والهناء

فتبين من ذلك ان الشهوة الحيوية المعروسة في الانسان لم تكن مقصودة لذاتها بل
 هي آلة لتلبي الانسان ما ربه التي لا يستطيع المقام بدونها كبقائه في عالم الوجود يتعاون
 على جلب المنافع ودفع المكروه بزوجه وأولاده وأخيه وعمه ونحو ذلك ممن ارتبط
 معه بالرابل المعروف بصلة النسب والقرابة لذي يعد من أقوى الروابط الانسانية
 التي لولاها لاختل نظام الوجود الانساني بالمره كما هو ظاهر ولما كان يتعاون على
 المصالح المعاشية والاتحاد والتآلف وجمع الكلمة من ثمرات الزواج لم يبح بالاجماع
 ان يقترن الرجل باخته أو عمته أو ابنته لانه يضيق تلك الفوائد ويقبل من الثمرات
 فضلا عن كونه في نظر الاطباء يوجب العمق وانقطاع النسل فذلك أوجبت الشريعة
 ان يكون الزواج من عائلتين ليحصل الارتباط بينهما بعلاقة المصاهرة بل لا بد ان
 يقع الاقتران من بيتين ليجتمع العائلتان على مصلحة واحدة وتصبران بالمصاهرة
 كحسب تعددت أعضاؤه فيقوم كل عضو بما فيه مصلحة الكل وتتجاوز صلوات

المصاهرة ورابطة النسب مصالح القبائل المتفرقة وتجمعها متجهة الى كعبة الاتحاد والاتلاف فستر يرح الناس من أم الشقاق ووخامة البغض والغناء أما العائلة الواحدة فيكفي في ارتباطها العلاقة النسبية

هذا ما أتت به الشرائع ونطقت به علماء الدين وأوضحته العقلاء في حكمة الزواج والاقران بقطع النظر عن كونه بواحدة أو متعددة اقتصرنا عليه الآن وسدشفه في صحيفة غد ببيان ما جاءت به شريعتنا من اباحة الزواج بأربع من النسوة وجرأز مفارقتهم بالطلاق مع بيان ما كان عليه السلف الصالح في معاشره زوجاتهم وما نحن عليه الآن من سوء معاشرتهم وعدم العدل بينهم وحصول ضد المقصود اذ يكون الزواج موجبا للعداوات وتفريق الشمل بدلا عن المحبة وجمع الكلمة كما أوجبته شريعة وليس لنا غرض من ذلك سوى تبيير الحق وتوضيح الصراط المستقيم .

وكتب في العدد ١٠٥٦ الصادر في ٨ ربيع الآخر سنة ١٢٩٨

حكم الشريعة في تعدد الزوجات

قد أباحت الشريعة المحمدية للرجل الاقتران بأربع من النسوة ان علم من نفسه القدرة على العدل بينهم والا فلا يجوز الاقتران بغير واحدة قال تعالى (فان خفتم أن لا تعدلوا فواحدة) فن الرجل اذا لم يستطع اعطاء كل منهن حقها اختل نظام المنزل وساءت معيشة العائلة اذ العاد القويم لتدبير المنزل هو بقاء الاتحاد والتآلف بين أفراد العائلة والرجل اذا خص واحدة منهن دون الباقيات ولو شيء زهيد كان يستقضيها حاجة في يوم الاخرى امتعضت لك الاخرى وسمت الرجل لتعديه على حقوقها بتزلفه الى من لاحق لها وتبدل الاتحاد بالفرقة والمحبة بالبغض وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم وجهاة الصحابة رضوان الله عليهم والخلفاء الراشدون والعلماء والصالحون من كل قرن الى هذا العهد يجمعون بين الذرة مع المحافظة على حدود الله في العدل بينهم فكان صلى الله عليه وسلم

وأصحابه والصالحون من أمته لا يأتون حجرة إحدى الزوجات في نوبة الأخرى إلا باذنها

من ذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يطاف به وهو في حالة المرض على بيوت زوجاته محمولا على الاكتاف حفظا للعدل ولم يرض بالاقامة في بيت احدهن خاصة فلما كان عند إحدى نساءه سأل في أي بيت أكون غدا فعلم نساؤه انه يسأل عن نوبة عائشة فأذن له في المقام عندها مدة المرض فقال «هل راضيتين» فقلن نعم فلم يقم في بيت عائشة حتى علم راضهن. وهذا الواجب الذي حافظ عليه النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي ينطبق على نصحته ووصاياه فقد روي في الصحيح ان آخر ما أوصى به صلى الله عليه وسلم ثلاث كان يتكلم بهن حتى لمجلىج لسانه وخفي كلامه « الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم لا تسكفوهن ما لا يطيقون الله الله في النساء فانهن عوان في أيديكم - أي أسراء - أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله » وقول « من كان له امرأتان قال الى احدهما دون الأخرى - وفي رواية ولم يعدل بينهما - جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل » وكان صلى الله عليه وسلم يعتذر عن ميله القلبي بقوله « اللهم هذا (أي العدل في البهات والعطاء) جهدي فيما أملك ولا طاقة لي فيما تملك، ولا أملك » (يعني الميل القلبي) وكان يقرع بينهما اذا أراد سفرا

وقد قال الفقهاء يجب على الزوج المساواة في القسم في البيوتة باجماع الأئمة وفيها وفي العطاء أعني النفقة عند غالبهم حتى قالوا يجب على ولي المجنون أن يطوفه على نساءه وقالوا لا يجوز للزوج الدخول عند إحدى زوجاته في نوبة الأخرى الا لضرورة مبيحة غابته يجوز له أن يسلم عليها من خارج الباب والسؤال عن حالها بدون دخول. وصرحت كتب اللغة بأن الزوج اذا أراد الدخول عند صاحبة النوبة فأغلقت الباب دونه وجب عليه ان يبيت بمجرتها ولا يذهب الى ضررتها الا لمنع برد ونحوه. وقال علماء الحنفية ان ظاهر آية (فان خفتم أن لا تعدلوا فواحدة) ان العدل فرض في البيوتة وفي الملبوس واما كحل والصحة لاني المهاجرة لا يفرق في ذلك بين فحل وعنديين ومحجوب ومريض وصحيح. وقالوا

ان العدل من حقوق الزوجية فهو واجب على الزوج كسائر الحقوق الواجبة شرعا
اذ لا تفاوت بينها وقالوا اذا لم يعدل ورفع الى القاضي وجب نهيته وزجره فان
عاد عزّر بالضرب لا بالحبس وما ذلك الا محافظة على المقصد الاصلي من الزواج
وهو التعاون في المعيشة وحسن السلوك فيها

أبعد الوعيد انشاعي وذلك الإلزام الدقيق الختمي الذي لا يحتمل تأويلا
ولا نحو يلا يجوز الجمع بين الزوجات عند توهم عدم القدرة على العدل بين النسوة
فضلا عن محققه؟ فكيف يدوع لنا الجمع بين نسوة لا يحملنا على جمعهن الا قضاء
شهوة فانية واستحصال لذة وقنية غير مبالين بما ينشأ عن ذلك من المفاسد ومخالفة
الشرع الشريف فإنا نرى انه ان بدت لاحدها من فرصة للوشاية عند الزوج في
حق الاخرى صرفت جهدها ما استطاعت في تنميتها وانقائها وتحلف بالله انها
لصادقة فيما افترت (وما هي الا من الكاذبات) فيعتقد الرجل انها اخلصت
له النصح لغرض ميله اليها ويوسع الاخرى ضرباً مبرحاً وسباً فظيماً ويسومهن
طردا ونهرا من غير أن يتبين فيما ألقى اليه اذ لاهداية عنده ترشده الى تمييز
صحيح القول من فاسده ولا نور بصيرة يوقفه على الحقيقة فتضطرم نيران الغيظ
في أفئدة هاتيك النسوة وتسعى كل واحدة منهن في الانتقام من الزوج والمرأة
الوشاية ويكثر العراك والمشاجرة بينهما بياض النهار وسواد الليل وفضلا عن
اشتغالهن بالشقاق عما يجب عليهن من أعمال المنزل يكثرن من خيانة الرجل في
ماله وأمتعته لعدم الثقة بالمقام عنده فانهن دائما يتوقعن منه الطلاق إما من خبث
أخلاقهن أو من رداءة أفكار الزوج. وأياً ما كان فكلاهما لا يهدأ له بال ولا
يروق له عيش

- ومن شدة تمكن الغيرة والحقد في أفئدتهم تزرع كل واحدة في ضمير ولدها
ما يجعله من ألد الأعداء لاختوته أولاد النسوة الأخرى فانها دائماً تمقتهم
وتذكرهم بالسوء عنده وهو يسمع وتبين له امتيازهم عنه عند والدهم وتعدد له
وجوه الامتياز. فمكل ذلك وما شابهه ان ألقى الى الولد حال الطفولية يفعل في
نفسه فلا لا يقوى على ازالته بعد تعقله فيبقى نفورا من أخيه عدواً له (لانصبرا

وظهرا له على اجتناء الفوائد ودفع المكاره كما هو شأن الأخ)
وان تناول واحد من ولد تلك على آخر من ولد هذه وان لم يعقل ما لفظ
ان كان خيرا أو شرا لكونه صغيرا انتصب سوق العراك بين والديتهما وأوسعت
كل واحدة الاخرى بما في وسعها من اللفظ الفحش ومستهجنات السب (وان
كن من المحدرات في بيوت المعترين) كما هو مشاهد في كثير من الجهات خصوصا
الريفية واذ دخل الزوج عاين في هذه الحالة تعمس عليه اطفاء اثورة من بينهن
بحسن القول واين الجانب اذ لا يسمعن له أمرا ولا يرهبن منه وعيد لكثرة ما
وقع بينه وبينهن من المنازعات والمشاجرات لمثل هذه الاسباب أو غيرها التي
أفضت الى سقوط اعتباره وانتهاك واجباته عندهن أو لكونه ضعيف الرأي أحمق
الطبع فتقوده تلك الاسباب الى فض هذه المشاجرة بطلاقهن جميعا أو طلاق من
هي عنده أقل منزلة في الحب ولو كانت أم أكثر أولاده فنخرج من المنزل
سائلة الدمع حزينة الخاطر حاملة من الاطفال عديدا فتأوي بهم الى منزل أبيها
ان كان ثم لا يمضي عليها بضعة أشهر عنده الا سئما فلا تجد بدا من رد الاولاد
الى أبيهم وان علمت ان زوجته الحالية تعاملهم بأسوا مما عوملوا به من عشيرة
أبيها ولا تسل عن أم الاولاد اذا طلقت وليس لها من تأوي اليه فان شرح
مانعانيه من ألم الفاقة وذل النفس ليس يحزن القلب بأقل من الحزن عند العلم
بما تسام به صبيتها من الطرد والتقر يع يشنون من الجوع ويمكن من ألم المعاملة
ولا يقال ان ذلك غير واقع فان الشريعة الغراء كلفت الزوج بالنفقة على
مطلقاته وأولاده منها حتى تحسن تربيتهم وعلى من يقوم مقامها في الحضانه ان
خرجت من عدتها وزوجت : فان الزوج وان كلفته الشريعة بذلك لكن
لا يرضخ لأحكامها في مثل هذا الامر الذي يكلفه نفقات كبيرة الا مكرها
مجبورا والمرأة لا تستطيع أن تطالبه بحقها عند الحاكم الشرعي إما بعد مكره
فلا تقدر على الذهاب اليه وتترك بنيتها لا يملكون شيئا مدة أسبوع أو أسبوعين
حتى يستحضر القاضي الزوج وربما آبت اليهم حاملة صكاً بالترامه بالدفع لها
كل شهر ما أوجبه القاضي عليه من النفقة من غير ان تقبض منه ما يسد الرق

أو يذهب بالعوز ويرجع الزوج مصرّاً على عدم الوفاء بما وعد لكونه متحققاً من ان المرأة لا تقدر أن تحاطر بنفسها الى العودة للشكايه لو هن قواها واشتغالها بما يذهب. الحاجة الوقتية أو حياء من شكايه الزوج فان كثيرا من أهل الارياض يعدون مطالبة المرأة بنفقتها عيباً فظيماً فهي تفضل البقاء على تحمل الاتعاب الشاقة طلباً لما تقيم به بيتها هي وبنوها على الشكايه التي توجب لها العار وربما لم تأت بالثمرة المتصودة وغير خفي ان ارتكاب المرأة الأيم لهذه الاعمال الشاقة ومعاناة البلايا المتنوعة التي أقبلها ابتذال ماء الوجه تؤثر في أخلاقها فسادا وفي طباعها قبحاً مما يذهب بكاملها ويؤدي الى تحقيرها عند الراغبين في الزواج ولربما أدت بها هذه الامور الى أن تبقى أيماً مدة شبابها تتجرع غصص الفاقة والذل وان خطبها رجل بعد زمن طويل من يوم الطلاق فلا يكون في الغالب الا أقل منزلة وأصغر قدرا من بعلمها الساق أو كهلا قلّت رغبة النساء فيه ويمكث زمناً طويلا يقدم رجلا ويؤخر أخرى خشيّة على نفسه من عائلته زوجها السالف فانها تبغض أي شخص يريد زواج امرأته وتضمر له السوء ان فعل ذلك كأن مطلقها يريد أن تبقى أيماً الى المات رغبة في نكاحها وإيساءتها ان طاقها كرها لها أما اذا كان طلاقها ناشئاً عن حماقة الرجل لا كثراره من الحلف به عند أدنى الاسباب وأضعف المقتضيات كما هو كثير الوقوع الآن اشدد حنقه وغيرته عليها وتمنى لو استطاع سبيلا الى قتلها أو قتل من يريد الاقتران بها

وكأني بمن يقولون ان هذه المعاملة وتلك المعاشرة لا تصدر الا من سفلة الناس وأدنيائهم وأما ذوو المقامات وأهل اليسار فلا نشاهد منهم شيئا من ذلك فانهم ينفقون مالاً لبدأ على مطلقاتهم وأولادهم منها وعلى نسوتهم العديديات في يوتهم فلا ضير عليهم في الاكثار من الزواج الى الحد الجائز والطلاق اذا أرادوا بل هو الأجل والأليق بهم اتباعاً لما ورد عنه صلى الله عليه وسلم «تناكحوا تناسلوا فإني مباهٍ بكم الامم يوم القيامة» وأما ما يقع من سفلة الناس فلا يصح ان يجعل قاعدة لانهي عما كان عليه عمل النبي والسلف الصالح من

الأمة خصوصاً وآية (فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع) لم تنسخ بالاجماع فإذا يلزم العمل بمدلولها ما دام الكتاب

نقول في الجواب عن هذا : كيف يصح هذا المقال وقد رأينا الكثير من الأغنياء وذوي اليسار يطردون نساءهم مع أولادهم فترى أولادهم عند أقوام غير عشيرتهم لا يعتنون بشأنهم ولا يلتفتون اليهم وكثير ما رأينا الآباء يطردون أبناءهم وهم كبار مرضاة لنسائهم الجديبات ويسيثون الى النساء بما لا يستطاع حتى أنه ربما لا يحمل الرجل منهم على تزوج ثانية الا ارادة الاضرار بالاولى وهذا شائع كثير . وعلى فرض تسليم أن ذوي اليسار قائمون بما يلزم من النفقات لا يمكننا الا ان نقول كما هو الواقع ان انفاقهم على النسوة وتوفية حقوق الزوجية من القسم في المبيت ليس على نسبة عادلة كما هو الواجب شرعاً على الرجل لزوجائه فهذه النفقة تسوي مع عدمها من حيث عدم اقيام بحقوق الزوجات الواجبة الرعاية كما أمرنا به (الشرع الشريف) فاذا لا تمايز بينهم وبين الفقراء في أن كلا قد ارتكب ما حرّمته الشرائع ونهت عنه نهياً شديداً خصوصاً وان مضرات اجتماع الزوجات عند الاغنياء اكثر منها عند الفقراء كما هو الغالب فان المرأة قد تبقى في بيت الغني سنة أو سنتين بل ثلاثاً بل خمساً بل عشرين لا يقربها الزوج خشية ان تغضب عليه (من يميل اليها ميلاً شديداً) وهي مع ذلك لا تستطيع ان تطلب منه ان يطلقها خوفاً على نفسها من بأسه فتضطر الى فعل ما لا يليق وبقية المفاسد التي ذكرناها من تربية الابناء على عداوة اخوتهم بل وابيهم أيضاً موجودة عند الاغنياء اكثر منها عند الفقراء ولا تصح المكابرة في انكار هذا الامر بعد مشاهدة آثاره في غالب الجهات والنواحي وتطابيره في اكثر البقاع من بلادنا وغيرها من الاقطار الشرقية

فهذه معاملة غالب الناس عندنا من أغنياء وفقراء في حالة التزوج بالمتعددات كأنهم لم يفهموا حكمة الله في مشروعيته بل اتخذوه طريقاً لصرف الشهوة واستحصال اللذة لا غير وغفلوا عن المقصد الحقيقي منه وهذا لا يجيزه الشريعة ولا يقبله العقل فاللازم عليهم حينئذ إما الاقتصار على واحدة اذا لم يقدروا على

العدل كما هو مشاهد عملاً بالواجب عليهم بنص قوله تعالى (فان خفتم أن لا تعدلوا فواحدة) وأما آية (فانكحوا ما طاب لكم من النساء) فهي مقيدة بآية فان خفتم (١) وإما ان يتصروا قبل طلب التعداد في الزوجات فيما يجب عليهم شرعاً من العدل وحفظ الألفة بين الأولاد وحفظ النساء من الموائل التي تؤدي بهن الى الاعمال الغير اللائقة ولا يحملوهن على الاضرار بهن وبأولادهم ولا يطلقوهن الا للداع ومقتض شرعي شأن الرجال الذين يخافون الله وبقرون شريعة العدل ويحافظون على حرمت النساء وحقوقهن وبعاشروهن بالمعروف ويفارقوهن عند الحاجة فهؤلاء الافضل الاتقياء لالوم عليهم في الجمع بين النسوة الى الحد المباح شرعاً وهم وان كانوا عددا قليلا في كل بلد وأقليم لكن أعمالهم واضحة الظهور تستوجب لهم اثناء العيم والشكر الجزيل وتقربهم من الله العادل العزيز

وكتب في العدد ١٠٧٩ الصادر في ٥ جمادى الاولى سنة ١٢٩٨ - ٤ أبريل سنة ١٨٨١

خطأ العقلاء

ان كثيرا من ذوي القرائح الجيدة اذا أكثروا من دراسة الفنون الادبية ومطالعة اخبار الامم واحوالهم الحاضرة تتولد في عقولهم أفكار جليلة وتنبعث في نفوسهم هم رفيعه تندفع الى قول الحق وطالب الغاية التي ينبغي ان يكون العالم عليها واكونهم اكتسبوا هذه الافكار وحصلوا تلك المهم من الكتب والاخبار ومعاشرة أرباب المعارف ونحو ذلك تراهم يظنون أن وصول غيرهم الى الحد الذي وصلوا اليه وسير العالم بأسره أو الامة التي هم فيها بنماها على مقتضى ما علموه هو أمر سهل مثل سهولة فهم العبارات عليهم وقریب الوقوع مثل قرب الكتب من أيديهم والالفاظ من أسماعهم فيطلبون من الناس طلباً حاثا ان يكونوا على مشاربهم ويرغبون ان يكون نظام الامة وناموسها العام على طبق أفكارهم وان كانت الامة عدة ملايين وحضرات المفكرين أشخاصاً معدودين ويظنون ان أفكارهم العالية اذا برزت من عقولهم الى حيز الكتب ولدفاتر ووضعت أصولاً

(١) جملة وأما آية الخ معترضة بين التقسيم والآية واحدة

وقواعد لسير الامة بتامها ينقلب بها حال الامة من أسفل درك في الشقاء الى أعلى درج في السعادة وتبديل العادات وتحويل الاخلاق وليس بين غاية النقص والكمال الا ان ينادى على الناس باتباع آرائهم

تلك ظنونهم التي محدثهم بها معارفهم المكتسبة من الكتب والمطالعات وإنهم وان كانوا أصابوا طرفاً من الفضل من جهة استقامة الفكر في حد ذاته وارتفاع الهمة وانبعث الغيرة لكنهم أخطأوا خطأ عظيماً من حيث أنهم لم يقارنوا بين ما حصلوه وبين طبيعة الامة التي يريدون ارشادها ولم يختبروا قابلية الاذهان واستعدادات الطباع الانقياد الى نصائحهم واقتفاء آثارها ولو أنهم درسوا طبائع العالم كما درسوا كتب العلم ودققوا النظر في سطور أخلاقه وعاداته الحقيقية الواقعية التي اقتضتها حالة وجوده بل لو قارنوا بين الحوادث المسطرة في الكتب وتبينوا كيفية انتقال الامم من بداياتها الى نهاياتها لعلموا ان الامم في أحوالها العمومية كالاشخاص في أحوالها الخصوصية بل ان الاحوال العمومية هي عبارة عن مجموع الاحوال الخصوصية وليست الامة مثلاً الامم من مجموع أفرادها وليس حال الهيئة المركبة من تلك الافراد الامم من مجموع أحوالها من الافراد

فعلى من يريد كمال امة بنهاها ان يقيس ذلك بكمال كل فرد منها ويسلك في تكميل العموم عين الطريق التي يسلكها لتكميل الواحد هل يسهل على صاحب الفكر الرفيع ان يودع في عقل الطفل الرضيع أو الصبي قبل رشده وقبل ان يتعلم شيئاً من مبادي العلوم تلك الافكار العالية التي نالها بالجد والاجتهاد وكثرة المطالعات؟ كلا بل لو أراد ان يجعل شخصاً من الاشخاص على مثل فكره احتاج الى ان يبدأ بتعليمه القراءة والكتابة ثم مبادي الفنون السهلة التحصيل ثم بتدرج به شيئاً فشيئاً حتى ينتهي بعد سنين عديدة الى بعض مطلوبه ثم هو في خلال ذلك محتاج الى ان يحصر أعماله ويقيدها بقيود من الترهيب والترهيب وان يراقب حركاته في أعماله خوفاً من اختلاطه بفاسدي الاخلاق والافكار أو المائلين الى الكسالة والبطالة أو ورود موارد الشهوات ونحو ذلك من الملاحظات التي لا بد منها فان اختل شيء من الترتيب في التعليم بأن قدم الاصعب على الاسهل مثلاً

أو أهمل ملاحظة أعماله وأحواله اختلت التربية وذهبت الاتعاب سدى واستحال
صيرورة حال ذلك الشخص مماثلة لحالة مرشده

ولو انه أراد تحويل أفكار شخص واحد وهو في سن الرجولية هل يمكنه
ان يبدها بغيرها بمجرد إلقاء القول عليه كلا ان الذي تمكن في العقل أزمانا
لا يفارقه الا في أزمان فلا بد لصاحب الفكر ان يجتهد اولا في ازالة الشبه التي
تمسك بها ذلك الشخص في اعتقاداته وذلك لا يكون في آن واحد ولا بعبارة
واحدة ولكن بعبارات مختلفة في التقریب بعضها سهل المأخذ قريب المائل
والبعض أرقى منه وبعضها خطابي والآخر برهاني وما شابه ذلك فان لم يتخذ
تلك الوسائل في اشاده امتنع عليه مقصوده بل ربما جرّه نصحه الى الضرر
بنفسه. تلك هي الحالة المشهودة التي لا ينكرها أحد ثم ان نجاحه في تغيير فكر واحد
مع كل هذا الاجتهاد موقوف على ان صاحب ذلك الفكر الفاسد لا يعاشر ولا
يخالط في خلال تعلمه الا مرشده صاحب الفكر السليم فان كان يخالط غيره ممن
يويد فكره الاول طال الزمن وربما لم ينجع فيه الارشاد وأظن (أن) هذا يعترف به
كل من مارس الاخلاق والمعادات

ان كان هذا حال شخص واحد اذا أردنا اصلاح شأنه في صغره أو كبره
مع انه سهل ضبط أعماله وأحواله والوقوف على كنهه أو صافه ودرجات تقدمه في
المقصود وتأخره فيه فما ظنك بحال أمة من الامم تختلف عناصرها وتباين
شعوبها فمن الخطأ بل من الجهالة ان تكلف الامة بالسير على ما لا تعرف له
حقيقة أو يطلب منها ما هو بعيد عن مداركها بالكلية كما انه لا يليق ان يطلب
من الشخص الواحد ما لا يعقله أو ما لا يجد اليه سبيلا

وانما الحكمة أن تحفظ لها عوائدها الكلية المقررة في عقول أفرادها ثم يطلب
بعض تحسينات فيها لا تبعد منها بالمرّة فاذا اعتادوها طلب منهم ما هو أرقى
بالدريج حتى لا يمضي زمن طويل الا وقد انخلعوا عن عاداتهم وأفكارهم
المنحطة الى ما هو أرقى وأعلى من حيث لا يشعرون أما اذا وضع لهم من الحدود
مالم يصلوا الي كنهه أو كفوا من العول مالم يعدوه أو خولوا من السلطة مالم

يعودوه رأيتهم يتخبطون في السير لحفاء المقصود عنهم وضلال الرأي فيما لم يكن
يمر على خواطرم فيمكن أن يخرجوا عن حالتهم الأولى لكن الى ما هو أتعس منها
بحكم الاستعداد القاضي عليهم بذلك

مثلا اننا نستحسن حالة الحكومة الجمهورية في أمريكا واعتدال أحكامها
والحرية التامة في الانتخابات العمومية في رؤساء جمهورياتها وأعضاء نوابها
ومجالسها وما شا كل ذلك ونعرف مقدار السعادة التي نالها الاهالي من تلك
الحالة ونعلم ان هذه السعادة اما أنت لهم من كون أفراد الامة هم الحاكمين في
مصالحهم بأنفسهم لانهم أرباب الانتخاب وانما رؤساء الجمهوريات وأعضاء
المجالس نواب عنهم في حفظ تلك المصالح والحقوق التي رأوها لانفسهم وتتشوق
النفوس الحرة ان تكون على مثل هذه الحالة الجليلة لكننا لانستحسن ان تكون
تلك الحالة بعينها لافغانستان مثلا حال كونها على مانع من الخسونة فإنه لو
فوض أمر المصالح الى رأي الاهالي لرأيت كل شخص وحده له مصلحة خاصة
لا يرى سواها فلا يمكن الاتفاق على نظام عام ولو طلب منهم أن ينتخبوا مائة
نائب مثلا لرأيت كل شخص ينتخب صاحباً له أو نسيباً أو قريباً فر بما ينتخبون
آفاقاً مؤلفة ثم لا ينتهي الانتخاب الى المرغوب أصلاً لوقوف كل واحد عند
انتخابه الاول ولو وكل اليهم انتخاب رئيس للحكومة لانتخبت كل قبيلة رئيساً
منها ثم يقع الهرج بين الرؤساء وهكذا حال الامم التي تعودت على ان يكون
زامها بيد ملك أو أمير أو وزير يدير أعمالها بدون ان يكون لها دخل في رؤية
مصالحها لا يمكن أن يطلب منها الدخول في أعمالها العامة والافسدت فاذا أردنا
ابلاغ الافغان مثلا الى درجة أمريكا فلا بد من قرون ثبت فيها العلوم وتهذب
العقول وتذلل الشهوات الخصوصية وتوسع الافكار الكلية حتى ينشأ في البلاد

ما يسمى بالرأي العمومي فعند ذلك يحسن لها ما يحسن لأمريكا
وياعجبها هل الشخص الذي توارث العوائد عن آباءه وأجداده ومرن عليها
من مهده الى كهولته وتعود تفريض مصلحته الى ارادة غيره يصح ان يطلب
منه في زمان واحد خلع جميع ذلك ويلقى اليه زمام مصلحته وهو في جميع عمره لم

يفكر فيها ان هذا خطأ ظاهر

ولكون أرباب الافكار منا يرومون ان تكون بلادنا وهي هي كبلاد أوربا وهي هي لا ينجمون في مقاصدهم ويضرون أنفسهم بذهاب آتاعهم أدرج الرياح ويضرون البلاد بمجمل المشروعات فيها على غير أساس صحيح فلا يمر زمن قريب الا وقد بطل المشروع ورجع الامر الى أسوأ مما كان فيفوت الزمان وهم على حالهم القديم وكان لهم امكان أن يكونوا على أحسن منه فمن يريد خير البلاد فلا يسعى الا في اتقان الترية وبعد ذلك يأتي له جميع ما يطلبه ان كان طالباً حقاً بدون اتعاب فكر ولا إجهاد نفس وفي الكلام بقية أذكرها فيما بعد هذا العدد

وكتب في العدد ١٨٢

كلام في خطأ العقلاء

تولى أمر هذه البلاد (المصرية) أناس في أزمنة مختلفة تظاهر كل منهم بانه يريد تقدمها ونقلها من حالة الهمجية (على ما يزعم) الى حالة التمدن التي عليها أبناء الامم المتمدنة وجعلوا الوسيلة الى ذلك ان تنقل عادات أولئك الامم المتمدنين وأفكارهم وأطوارهم الى هذه البلاد وظنوا أن تقليدنا لعاداتهم وأخذنا الآن بأفكارهم اليومية ونشبهنا بهم في الاطوار كاف في أن نكون مثلهم وان استلامنا لتلك العادات وتلقينا لتلك الافكار أمر غير عسير

لم ينظروا في الاسباب والوسائل التي توصل بها أولئك الامم الى هذه الحال التي هم عليها حتى يعتدوا مثلها أو قريباً منها لترقي هذه البلاد بل ظنوا أن هذه الغاية من الممكن ان تكون بداية مع ان ما نرى عليه جيراننا من الممالك الغربية لم يصلوا اليه الا بعد معاناة أتعاب ومقاساة مشاق وسفك دماء شريفة وثل عروش ملك رفيعة وكانوا في كل ذلك يقربون من المقصود تارة ويبعدون عنه أخرى كما برشدنا اليه تاريخهم حتى بدلت الحوادث الدهرية طبائع الاهالي وغيرت

أخلاقهم ونهبت الضرورات وأكراهم وهذبت المحالطات الجهادية والتجارية عقولهم
ان بداية التقدم الأوربي في الحقيقة كان في نفوس الالهالي وأفراد الرعايا
علمتهم الحروب الصليبية سبر البر والبحر وخالطوا فيها الامم الشرقية أجيالا
وطمحت أنظارهم لمقابلتهم فدققوا في سبب قوة الشرقيين (التي كانت لهم اذ
ذاك) وبجشوا في أحوالهم فأروا لهم عادات جميلة وفيما بينهم أفكار سامية ورأوا
في دوائر أعمالهم اتساعاً وأيدي الصناعة والاكتساب مطلقة الحرية ولذلك
كان الفنى والعزم مستوكراً أقطارهم فأخذ أهالي أوربا عند ذلك في تقديمهم لكن
لا في البهارج والزخارف بل في أسبابها والموصلات اليها وهي توسيع نطاق الصناعة
والتجارة ونحوهما من وجوه الكسب فكان ذلك أساساً للعمل وقرر في النفوس
وثبت في العقول وبنوا عليه ماشاءوا ولو تأملنا تاريخ سير التقدم الأوربي لرأينا
أسباب التقدم يجمعها سبب واحد وهو احساس نفوس الالهالي بالآلام صعبة
الاحتمال من ظلم الاشراف (النبلاء) وغدر الملوك وضيق وجوه الاكتساب ونفرة
دينية على المسلمين الذين استولوا على حرمهم المقدس وهذا الاحساس هو الذي
دعا الانفس الكثيرة العدد الى الخروج من هذه الآلام فطلبوا لذلك أسباباً
متنوعة أقواها التعاضد والتعاون على ترويض وسائل الكسب وافتتاح أبواب الرزق
فكانت تعقد لذلك المحالقات والمعاهدات وتتألف له الجمعيات فكان جرثومة
تقدمهم أمراً منبثاً في غالب الافراد ومحرزاً في أغلب العقول وهو نشاط الالهالي
في اجتلاب الثروة وطلبهم لحرية العمل لينالوها ورفضهم لتلك التقييدات التي
كانت تمنعهم من طلب حقوقهم الطبيعية ثم تدرجوا فيه ينتقلون من حال الى حال
والاصل ثابت لا يتغير حتى عم التغيير جميع العوائد والمشارب واقوانين ولم يكن
ذلك كله الا من حرص الالهالي أنفسهم على الخروج من الآلام التي كانوا
يشعرون بها في كل لحظة من حياتهم ويتوارث هذا الشعور وذلك الحرص أبناؤهم
من بعدهم

أما عقلاؤنا فقد وجهوا نظرهم الى حالة التمدن الحاضرة والالهالي على غير
علم منها بانفسهم فاستأنفهم العقلاء اليها لكن لا بتحريك غيرتهم الى العمل اختياراً

أو ألجأهم اليه اضطرابا وتسهيل الطرق لهم حتى يسير من جميع عناصر البلاد وطبقاتها اشخاص مختلفون في الافكار والاحوال الى تلك البلاد المتمدنة ويشهدوا عاداتها وأحوالها وبيتهم العقلاء منهم بالبحث عن أسباب السعادة وموجبات الشقاء اهتمام المضطر الذي يطلب خلاص نفسه من هلاك يتوقعه بل جلبوا اليهم كثيرا من أبناء تلك البلاد تظهر عليهم الرواهية وترى عليهم آثار النعمة تكامون بما لا يفهم ويتفكرون فيما لا يعقل فسادوا بيننا أبنية وزينوها بما لم تكن نهده من أنواع الزينة وجلبوا اليها من مصنوعاتهم ما راق منظره وطاب مخبره لكننا لم نشهد مصنعه ولم ندر منبعه ورأيانهم يتزينون بهذه اللطائف التي تذهب الحزن وتشرح الخواطر ويتنافسون فيها فاعجبتنا حالهم هذه وقال لنا العقلاء كونوا مثلهم واحقوا بهم في هذه السعادة ثم صاروا أئمة لنا في العمل فاخذنا ننسبهم لهم لكن فيما رأيناه وهو الزينة والبهرجة غير باحثين عن كون ذلك هو الذي يلحقنا بهم في الحقيقة أم لا ومن ذلك ترى أفكار الغالب منا دائما عند ما يجد فرصة الاقتدار موجهة الى تشييد الابنية وتجويد وضعها واتقان ترنيبها وتزيين بواطنها وظواهرها والتوسع في لوازم المأكل والمشرب وآلاتها وأوانيتها والتفنن فيها وجلب ما هو أغلى ثمننا وأدخل في النظر وأجلب للأنس والتأنق في الملابس ومحاذاة الاوربيين فيها ومحاوله ان تكون على النمط الاعلا عندهم وعلى هذا النحو تفننا في أنواع المفروشات وتأنقنا في اقتنائها من أنواع مختلفة مما غلامنا وارتفعت عن الطاقة قيمه وتنافسنا في ذلك كتنافس أسلافنا في افتتاح البلاد وتملك الحصون وبالجملة فقد سلكنا مسالك المتمدين في ثمرات تمدنهم التي جعلوها من زوائدهم فاسرفنا في الانفاق وصار الناظر للملابسنا ومساكننا والذائق لمطاعمنا ومشاربنا يشهد باننا في ذلك بحمد الله متمدون فقد اشركنا معهم في ثمرات التمدن أي ما ينتهي اليه حال المتمدن من طلبه للتمتع بالذائد وركونه لترويح النفس وتخفيف أتعابها

لكن من تأمل حقيقة الامر علم ان مثلنا في ذلك كمثل الدجاجة رأته ان الاوزة تبيض بيضا كبيرا فطلبت ان تبيض مثلها فأجهدت نفسها في ان يكون ذلك غير عارفة ان ذلك لا يكون الا باستعداد (أي بأن تكون أوزة) فخبست

نفسها واستعملت قوتها الدافعة حتى انشق منها ما انشق وتمزق منها ما تمزق فان افراطنا في تقليد الاوربيين ومجاراتهم في عاداتهم التي نظنها تفوق عاداتنا البسيطة فعل في نفوس غالب الاغنياء منا فعلا غريبا صرف نظرهم الى اللذائذ واستكمال لوازم الترف والنعيم وأحدث في نفوسهم غفلة عما يحفظ ذلك عليهم بل يوجب ازدياده لديهم وهو الوقوف على الطريق المستقيم الموصل الى اكتساب المجد الحقيقي والشرف الذاتي الذي يتبعه الغنى والثروة والراحة استتبعه للذة الحقيقية والنعيم الباقي في الحياة وبعدها ومن هذه الجهة (جهة الغفلة عن روح الثروة وحياتها وهو التمدن الحقيقي أعني الاحساس بوجود اللذائذ والآلام والتشط في طلب وجوه الكسب المتنوعة وطلب الامنة على تلك الوجوه ومراعاة الحقوق والواجبات الطبيعية والشرعية) فارقوا الامم المتقدمة فصح ان يطلق عليهم أنهم في غاية التمدن مع أنهم إما في بدايته وإما قبلها بكثير وحق لهم ذلك فانهم رأوا أبواب اللذات مفتحة قبل ان يجدوا عقلا يقدر لهم ما يلزم منها وما لا يلزم

كل ذلك نشأ من جلب تلك العوائد الترفية الى بلادنا وطلب التحلي بها بدون ان نحوز ما يوصلنا اليها من أنفسنا ولتنا قبل ان نشيد بيوتنا بالارتفاع الشاهق والترتيب المحكم وزينها بأنواع النقوش والفرش والاثاثات أبقيناها على بساطتها وشيدنا في عقولنا الهمم الرفيعة والحمية التي لا تمتد اليها الايدي وأحكامنا طرق سيرنا في حفظ حقوقنا ورتبنا في مداركنا جميع الوسائل والمعدات التي تحفظ علينا ما وجدنا وتجذب اليها ما فقدنا وزينا نفوسنا بالفضائل الانسانية والشرعية من رحمة بالضعفاء ورفق بالمهوفين وغيره على البلاد وأناة عن الصغار

لعمرك لو قدمنا هذه الزينة الجوهرية على ذلك الرونق الصوري لكان العالم بأسره ينظر اليها نظر الراهب الخائف أو يرمقنا باحظ المعظم المبجل وكانت معيشتنا البسيطة أوقع في نفسه من معيشته الرفيعة وكان ذلك سهلا لو ان الزاعمين فينا حب الترفي والتقدم ساروا بنا من البدايات وحجبونا عن النهايات حتى لانراها الا من أنفسنا فنطلبها لالانها أعجبت النظر ولكن لانها بنت الفكر وتيجته وكانوا يعلموننا محاذاة المتمدنين في اصول أعمالهم لاني زواندها فكنا بذلك نصل الى

ما وصلوا اليه في زمن أقل بكثير من الزمن الذي نالوا فيه ما نالوا لكن فات الوقت ونحن الآن فيه فعلينا بالعمل غير مقتصرين على مجرد الامل

وكتب في العدد ١٠٩٢ الصادر في ١٩ ابريل سنة ١٨٨٠

كلام في خطأ العقلاء

لسنا ننكر ان بلادنا كانت في الازمان السابقة تحت تصرف اقوام خشنين لا يعملون للخلة غاية الا وجودهم الشريف وكانوا يعدون افراد الاهالي انعاما خلقت لهم يستعملونها كيفما يريدون (كما كان ذلك شأن سائر الامم غربية وشرقية) فارغموا أنف الطبيعة ومحووا أنوار الالهام الفطري الذي وضعه الله في نفوس عباده لفهم منافعهم ومضارهم حيث وقفوا سدا حصيناً بين كل شخص ومنافعه فاستأثروا بجمع ثمرات الاعمال فلا يعمل العامل وله أمل بأن يجني ثمرة عمله فانه عند ما أبدوا الثمرة يسرع حاكمه الى قطفها وكانت حياته معقودة بغضب ذلك الحاكم ورضاه فان رضي عنه فهو في أمن عليها وان غضب عليه فهو ان عاش كمرريض بالغ به المرض غايته ينتظر الموت في كل لحظة فيكون في حالة تسليم مطلق (خائف على حياته مستسلم لقضاء حاكمه) وبالجملة لم يكن لاحد من الاهالي حركة اختيارية ناشئة عن فكره الخاص به في تحصيل منفعة أو درء مضره بل كانت أعماله تابعة لارادة سيده الحاكم وكان يعتقد أنه وما ملكت يده حل للأمر عليه وليس لتصرف ذلك الأمر حد يجب ان ينتهي اليه وهذه حالة يصعبها تاريخ هذه البلاد اجيالاً كثيرة اذا استرسلنا في طلب مبدئها قد نصل اليه وقد لانصل وبذلك الاسترقاق الظاهري والباطني فليت الارادة ومات الاختيار وطفى نور الفكر بالمرّة

وكان من جملة التقييدات العنيفة التي وضعها أولئك المتسلطون الحجر على أهالي المدن وغيرها في الاعمال والاقوال الشخصية حتى كانوا من شدة التضييق يستعملون طريقه يقال لها الكبسه وهو ان يهجم رجال الضابطه على بعض

الاماكن ليلا ليقبضوا على من يظن بهم الاجتماع على فسق كفحش بالنساء أو شرب المسكرات وما شاكل هذا فان وجدوا شيئاً من ذلك ساقوا من يجدونه الى حيث يستوفي عقاباً أليماً وكذلك وضعوا في الافواه لجاماً من الرهبة فلا يكاد ينطق الناطق بكلمة في مطلب علمي أو تجادل في حال شخص الا ويرمي بكفر وزندقه أو طعن في حاكم وله عند ذلك الويل الذي لا مخلص منه كل ذلك سمعنا بهمضه بالنقل ورأينا بهمضه الآخر بالبيان

فذلك كانت حالة تعيسة يجب على عقلائنا ان ينتحلوا كل وسيلة لتخليص رقاب العباد منها فزرق الله هذه البلاد باناس خالطوا الامم المتمدنة وطالعوا أحوالها ورأوا ماعليه أهلها من اطلاق الارادة وحرية الاختيار فطلبوا لبلادنا ان تكون في أحوال أهاليها الشخصية على مثال سكان تلك البلاد المتمدنة لكنهم أول ما بدأوا به ان أباحوا (ما أقبحها من اباحة) لكل شخص ان يعمل فيما يخص نفسه بارادته ويتكلم فيما هو مقصور على ذاته بمقتضى فكره وشرطوا في ذلك شرطاً (ما أنفسه من شرط) وهو ان تكون تلك الاعمال والاقوال غير متعلقة بارتباطانه مع حاكمه فان كانت كذلك فدونها ضرب الرقاب أو سكن الحبوس أو الجلاء عن الاوطان وسموا تلك الاباحة حرية ونادوا بها على الالسننة الظالمة فكان حاصل تلك الحرية ان لاجناح على من ارتكب أي جريمة وتطبع باي خلق حسناً كان أو سيئاً وذهب الى أي مذهب صحيحاً كان أو فاسداً واما عليه ان يكون تحت أمر الحاكم ليس له حق في أن يمنع عنه مطلوباً أو يستتضي منه مسلوباً أياً كان فلم يجملوا للسلطة حداً معيناً وهو الذي نسميه بالتأتون الذي يعرفه كل أحد فيقف عنده بل أبجوها على ما كانت عليه وجملوا تلك الحرية غطاء على هذا الاستعباد فهم في الحقيقة لم يقلدوا الامم المتمدنة في اطلاق الارادة من جهة الارتباطات العمومية الثابتة فهذا خطأ من وجه ان كان لهم مقصد إصلاح وظلم ان كانوا متعمدين هذا التقييد ثم أنهم قلدها في الاحوال الجزئية الشخصية مع علمهم ان البلاد غير معتادة على مثل هذه الحرية فيها فلذلك اندفعت الناس الى انتهاب الشهوات وهتكوا حرمة الوقار ومهالكوا على شرب المسكرات في

بلادنا الحارة الى الحد الذي لا يبلغه الاوربيون في بلادهم الباردة وكثرت لذلك الحانات ومخازن الشراب المهلك للعقول والابدان ثم تولعوا بما يتبع السكر من اللهو والعب وتنافسوا في الحظوة عند النساء الباغيات واتسع الامر في ذلك حتى صارت المداعبة والملاعبة بين النساء والرجال في الطرق والشوارع وتعدى ذلك المرض المعدي الى الحرائر فذهب الكثير منهن الى حيث يتنغين وافضحت بذلك بيوت شريفة وكماطلبت لذلك منعاً أو رمت له دفعاً قال المولع هذ حرية فضع شأن الآداب وانحطت قيمة الشرف والوقار حيث أصبح أبناء الاغنياء وذوي المقامات يتسابقون الى التهور في هذه الاحوال الرديئة ويدعون اليها من دونهم ومن فوقهم (الا قليلا) ويصرفون فيها مالا بقدر من النقود (وسأجعل لذلك موضوعاً خاصاً) وكاد فساد الاخلاق يسري الى كثير من طبقات الاهالي— هذه نتائج حرية ذلك العمل

وأما نتائج حرية الفكر (التي يزعمونها) فكانت خاصة بالاعتقادات والمشارب الدينية فأخذ كثير من الناس يجهر بين العامة بألفاظ تناقض دينه الذي ولد فيه فان قيل له خفض من صوتك واجمل في قولك فما كل الناس يرضاه قال اننا في زمان الحرية على ان أفكاره التي يذعب اليها في مخالفة دينه ليست بأفكار مرتبة مبنية على مبادي ربما يقال انه اتخذها مشرباً بل ألفاظ حفظها من معاشريه لو سئل عن معناها أو طالب منه أي وهم ساقه اليها لعجز عن التعبير والتجأ الى التهموس ورمى من يحاطبه بالجهل والخشونة حيث لم يوافق على مشربه العاسد ثم يتخذ هذه الخزعبلات الاعتقادية التي يظنها ثوراً وتبصراً ذريعة لاستباحة القبائح واستحلال المحظورات ولقد رأيت شخصاً ينكر ألوهية الخالق والعباد بالله ثم يسأل عن حكمة المعراج ومنهم من ينكر النبوات ويعتقد بالشياطين وما أشبه ذلك فهو لاء من الجهل بمكان لا يعلمهم فيه حيوان فضلاً عن انسان

فهذه الحرية البتراء التي رمانا بها عقلاؤنا لم تدع لها أثراً بجمد وان كان الأورباويون يحرصون عليها فان استعداد بلادنا لم يكن ملائماً مثل هذا الاطلاق الذي هو في الحقيقة عين الرق والاستعباد فان الجاهل الذي لم يتعود على

تصرف ارادته واعمال اختياره اذا أطلق له العمل وقع في أشد من الرق وأضر من العبودية نعم انه عتق من أسر الضابطة وغل الجزاء ولكن شهواته الخيثة تبيعه بأبخس الأثمان الى الاسراف والبطالة والكسل وجميع أنواع الشرور وتودعه سجن الفقر وتفله بطوق الذل والمار وباليته بقي تحت سيادة القانون يسوسه حتى في أعماله الشخصية فالكبسة على ما كان فيها من الخطر على النفس والاموال وشناعة الصورة لو أحسن فيها القصد لكانت أولى وأفضل الى زمن تتقدم فيه التربية فيكون لكل شخص زاجر من نفسه فترفع الكبسة بذاتها ويذهب الناس أحرارا بطبعهم وما كان ذلك بعسير ولا محتاج الى زمن طويل وما ضرنا الا التقليد على غير تبصر بحال البلاد واستعدادها

فلك الحرية التي سموها اطلاق الفكر قد عتقت صاحبها من قيد العقل وأسلمته الى الجبل الأعى فهو يتصرف به كيف ما يقتضي من المضرات ولو أنه بقي تحت سيادة العقل يسوسه المهذبون ويقوده المتبصرون حتى يعلم من أين وتنى الافكار وبأي الوسائل يوفي العقل حظوظه الحقيقية لكان ذلك خيرا وأبقى ولم يكن يحتاج الا لتخفيف يسير في شناعات المتعصبين وتعيين دائرة منتظمة يردد الكلام بين محيطها الى زمن معين حتى تستقيم العقول فتضرب لنفسها حداً تقف عنده ولكننا طلبنا ان تكون على مثال الاوربيين في عواندهم حتى المضرة بأخلاقنا وأعمالنا وأفكارنا

وباليت العقلاء منا في الزمن السابق اقتدوا بالبلاد المتمدنة في الازمان السابقة عند إرادتهم تأييد الاستقلال حقيقة حيث بدأوا بالمجالس البلدية فكان يمكنهم ان يصنعوا لأهل البلاد قانوناً بسيطاً ينطبق على عواندهم وأحوالهم ويقرب فهمه من ادراكهم ثم يفوض الى أهل كل بلد ان تنتخب منها عدداً معيناً ليقوم بالفصل بينهم على مقتضى هذا القانون ثم يصنعوا مثل ذلك في المدن على حسبها ويذهب اشخاص من المارفين الى القرى والمدن ليفهموا أولئك مواد القانون السهل البسيط ويدربوهم على كيفية العمل به ثم لا يزالوا على المراقبة ازماناً فلا تمضي مدة حتى يكون جميع الاهالي عالمين بما يجب عليهم ولهم فتنمو فيهم القوة

وتحيا فيهم روح الاختيار كما كانت عليه الجمعيات ببلاد ايطاليا وفرنسا وغيرها في مبدأ تمدنها ثم يتدرجوا في القوانين الى أرقى مما وضعوا أولا مع تفهيمه وتعليمه لجمهور الاهالي ليعلموه فيقفوا عند حده

وكان في ذلك غنية عن القوانين الضخمة التي لا يفهمها الا الراسخون في العلم وهي محفوظة بين دفات الكتب وصدور بعض من النباه لكن الاهالي أنفسهم الذين قد وضعت هذه القوانين لهم غير عالمين بها فكيف يطلب منهم ان يعملوا بمقتضاها ان هذا لشيء عجاب غير ان العقلاء منا يقولون لا بد ان نكون مماثلين لأوربا في القوانين والعادات رغماً عن الحق الذي يقضي علينا بأن نكون خاضعين لاحكام بقعنا وما تقتضيه طبيعة موقعنا الذي نشأنا فيه ولن يكون ذلك أبدا

واننا نخشى لو تمادينا في هذا التقليد الاعمى واستمر بنا الأخذ بالنهايات الزائدة قبل البدايات الضرورية الواجبة ان تموت فينا أخلاقنا وعاداتنا وان يكون انتقالنا عنها (لوانتقلنا) على وجه تقليدي أيضا فلا يفيد لكن الوقت لم يفت بعد فعلى من يريد بنا خيرا ان يذهب بنا طريقاً قويمًا ولاأراه الا نشر القوانين (وان كانت طويلة صعبة المنال في وقتنا هذا وما لا يدرك كله لا يترك كله) انما لا يكتفي بنشرها على لسان الجرائد فان قارئها قليل ولا بارسال المنشورات الى عمد البلاد فان كثيرا منهم قلما يفهم اذا قرأ ولكن لا بد من تشكيل جمعيات في القرى والمدن لتفاهم القوانين واللوائح والمنشورات والاضاعت الحقوق وكثرت المشاكل وصعب كبح صغار المأمورين عن الاجراءات المضرة بالحكومة والاهالي معاً ثم وضع حدود قوية للاعمال الشخصية والاخلاق والتصرفات فان اصلاح الاخلاق والافكار والاعمال من أهم واجبات البلاد وبدونه لا يمكن اصلاح شيء من أمورها وليس بجائز أن يجعل في درجة أقل من درجة قوانين حفظ الضبط والربط

ومركز النظر في جميع ذلك نبهاء البلاد وذوو الشأن فيها فعليهم ان كانوا سادقين في الوطنية ان يبذلوا الجهد في طلب ذلك والقيام بما يلزم والا فانهم مقلدون فقط والله أعلم

وكتب في العدد ٩٥٨ الصادر في ٤ ذي الحجة سنة ١٣٧٧

ابطال البدع من نظارة الارقاف العمومية

عرض الى نظارة الاوقاف العمومية من شيخ خدمة مسجد سيدنا الحسين رضي الله عنه في تاريخ ٣ القعدة مافاده ان مجلس ذكر السعدية الذي ينعقد بذلك المسجد في كل يوم ثلاثاء لا يذكر فيه اسم الله الا مصحوباً بضرب الباز (نوع من الطبل ذي الصوت المزعج معروف) ولما في ذلك من تشويش الاسماع نبهنا عليم مرارا بابطال هذه العادة (وان يذكر والله ذكر مجرداً عن الطبل) فلم تثمر التنبيهات أدنى ثمرة وحيث أن الزائرین لضريح الامام الحسين وطلبة العلم وجوهوا اللوم والاعتراض على هذه العادة يقولون انها من المحرمات شرعاً ويجب على الحاكم منعها بموجب صدور الامر بابطاله فكتب من نظارة الاوقاف العمومية الى حضرة فضيلتناو شيخ الجامع الازهر ومفتي الديار المصرية ما معناه

قد تبين من افادة شيخ خدمة مسجد سيدنا الحسين ما ذكر فيها وحيث ان النظر في ذلك مختص بسيادتكم بعثنا بها اليكم لافادة الحكم الشرعي فيها فوردت افادة حضرة الاستاذ شيخ الجامع الازهر ومفتي الديار المصرية الى ديوان الاوقاف ناطقة بأن ضرب طبل الباز (أي ونحوه) في المساجد مما لايسوع شرعاً فعلى ديوان الاوقاف أن يتخذ الطرق لمنعه ثم زاد حضرة الاستاذ في حاشية رقيمه ان ذلك ليس مختصاً بالباز بل هو عام في كل ما أوجب تشويشاً على المصلين حتى صرح أئمة العلماء بأنه يحرم رفع الصوت بذكر الله في المسجد اذا ترتب عليه التشويش وكذلك كل ما يترتب عليه اجتماع من لا يليق اجتماعه بالمسجد كاختلاط الفتيان بالفتيات ومن احتمهم ومكاتفهم معهن في المساجد المحترمة فصدر أمر نظارة الاوقاف الى مأموري أقسام أوقاف المحروسة بالزام كل مأمور بمنع وقوع مثل ذلك في المساجد التابعة لقسمه وأرسلت الى كل منهم صورة الافشاء المحرر من قبل حضرة شيخ الجامع الازهر ونهت عليهم بالاطلاع عليه وفهم ما أودعه من الحكم الشرعي والسير على مقتضاه وأخذ التعهدات القوية على خدمة

المساجد وأم المراقبة والتميقظ لمنع أي لفظ يوجب تشوياً على المصلين أو اخلاقاً بحرمة المساجد اتباعاً لنصوص الشريعة الغراء اهـ

وهذه طلائع خير تبشرنا بحياة الشريعة الحقة والسنة القويمة وبانتصار جيش نور الهدى على كتائب ظلم البدع والضلالة اذ وجه أولو الامر منا نظرهم الى تخفيض شأن البدع وازالتها فلنشكر همه سعادتلو ناظر الاوقاف العمومية على عنايته بشأن الشرع الشريف واهتمامه باحترام أماكن العبادة وصيانتها عن وقوع اللغو وسبب الأفعال وثنى كل اثناء على حضرة سيادتلو شيخ الجامع الازهر ومفتي الديار المصرية الذي لا تأخذه في الحق لومة لائم ولا يبالي في نصرة دين الله بكثرة عدد الجاهلين فلقد نسمع بعضاً من الجهلة بل عدداً وافراً منهم يقول هذه سنة وجدنا عليها آباءنا وأخذ اليهود علينا باتباعها أشياءنا وطبعت على حبها قلوبنا وتمرت على القيام بها اعضاءنا فكيف يصح ان يحكم علينا بتركها ان هذا الشيء عجاب: تلك حججهم الواهية كحجج غيرهم من المبتدعين يهدرون دم الشريعة طوعاً لأغراضهم وتنفيذاً لأحكام عاداتهم ولبئس ما كانوا يصنعون ويأبى الله الا ان يحق الحق على يد نصرائه الذين يفضلون تأييده على مدحة تصدر من جاهل لا تغني من الجاه شيئاً

ولا يتوهمن مطلع على أمر نظارة الاوقاف ان المنع خاص بالباز وطريقة السعدية أو بالطبل على العموم بل هو صريح في عموم كل فعل يوجب تشوياً على مصل أو اخلاقاً بحرمة مسجد فيدخل في المنع طريقة المغاربة المنسوبة للسيد عبد السلام الاسمر (كذباً وافتراء) ومن شعائر ابناء تلك الطريقة اتخاذ طبول متنوعة بعضها مستطبل على شكل المدفع يحملونه على أعناقهم وقت الذكر وله صوت أشبه بصوت المدفع أيضاً وبعضها مستدير (يعرف بالطار) الا انه كبير ينشأ من ضربه صوت عنيف يصم الأذان ولا يجتمعون للذكر الا وفي مركز دائرتهم موقد نار ليشدوا عليها جلد الطبل لتزداد ضخامة الصوت فاذا قاموا الى الذكر غضوا شناعة أصوات الطبول الكثيرة بضجيتهم المزعجة بجأرون بالفاظ لا مدلول لها وعند ما يشتد خمر الاوهام في عقولهم يهيمون هيام المغاتيه

ويتجرد البعض منهم عن ثيابه ويأخذ جذوات من النار ويدخلها في فيه ويلامس بها بدنه اظهارا للكرامة وحاشا ان تكون - من الكرامة - كل ذلك مع حركات شديدة واخباط غريب ومن عاداتهم ان يأتوا بمثل هذا العمل في مسجد سيدنا الحسين بمولده فيجتمع عليهم الناس ويزدحم المتفرجون ويشوشون أذهان الزائرین وهذا حظهم ولا يعلم آية سنة تبيح أمثال هذه المنكرات التي يجربها الجبهة في بيوت الله المعظمة ولا يخرجها من حكم المنع أيضا ما يفعل من نحو ذلك بأضرحة الاولياء رضي الله عنهم وان لم تكن مساجد لمنافاتها الأذب الواجب في حقهم على ان الشريعة المطهرة مانعة من ان يقرن ذكر الله بآلات لهو على العموم بدون استثناء خصوصا وانه لا يشك عاقل في ان قصدهم بضرب الطبول وتوقيع الذكر على نعماتها انما هو اللهو والطرب المنوعان شرعاً يرشد لذلك تضاحكهم ونلاعهم في نفس محافلهم الموقرة وتمافتهم فيها على ما لا يليق بشأن العبادة ولو كاف أحدهم ان يهتف بذكر الله مرة وهو وحده لم تسمح نفسه بذلك ولكن يحركه الي هذا الذي يسميه ذكرا حب الطرب والميل الى اللعب وأقبح شيء في هذا الباب اعتقادهم ان طاعة شوائبهم هذه طاعة لله نعوذ بالله من الزيغ ولا ريب ان علماءنا رفع الله قدرهم سيفرحون بمنع هذه البدع فرحا شديدا ويرجون من عدالة الحكومة ازالة أمثالها مما تنكره نصوص الشرع ويعاب على العقول السليمة ان تقره ويشمل حكم المنع أيضا الازدحامات التي تكون بالمساجد الشهيرة في أيام تعرف بالحضرات كيومي الأحد والاربعاء بمسجد السيدة زينب ويومي السبت والثلاثاء ويوم عاشوراء بمسجد سيدنا الحسين اذ يختلط فيه النساء والرجال على هيئة ينكرها الشرع والطبع جميعا ويجري فيها من الفعال القبيحة ما لا يليق ذكره ولا يدع الازدحام مكانا لمصل يصلى فيه ولئن وجد المكان فلما يستطيع اداء الاركان بدون تشويش فيها فهذا الأمر الذي أصدرته نظارة الاوقاف متبعة فيه افتاء شيخ الاسلام حفظه الله يعتبر أساساً جليلاً لمنع كثير من البدع وقد فتح به باب من الخير لا بد من الوصول الي غايته ان شاء الله وسيسري ذلك من القاهرة الى بلاد الارياض فعلي الناهيين

اطرق البدعة ان يعدلوا عنها قبل ان تمسهم يد الحق فيجبرون على العدول غير مشكورين

وكتب في العدد ١٠٣٨ الصادر في ١٦ ربيع الآخر سنة ١٢٩٨ ما يأتي

تذييل رسمي

بطلان الدوسة

اطلقنا في بعض أعداد جريدتنا السابقة من عهد قريب (١) لسان الشكر والثناء للجناب الخديوي وهيئة الحكومة المصرية الحاضرة والسيد البكري على عنايتهم -م- بابطال بدع كثيرة ليست من الدين في شيء بل هي مناقضة للدين المحمدي على خط مستقيم. ومن افطع تلك البدع بدعة الدوسة وهي أن ينطرح الناس على الارض مصطفين أحدهم لجنب الآخر ثم يعاؤ أحد المشايخ على ظهورهم بحصان يدوسهم واحد بعد واحد حتى ينتهي الى آخرهم وهم مسلمون من أهل الايمان قد أمر الله بتكريمهم وحرمانهم الا لحد أو تغريب شرعي بل قد نطق الكتاب العزيز بتكريم نبي آدم على سائر الحيوانات مطلقا فكيف بالمؤمنين وهم أشرف هذا النوع وقد جعلهم الله في الدرجة الثالثة من عزته سبحانه وتعالى فقال (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) فهل يليق بعد هذا أن يطرح المؤمن الشريف مهانا على التراب ليطأه حافر من البهم وقد نهت الشريعة الغراء عن اهانة أجساد الاموات فضلا عن الاحياء

وانا لنعلم علم اليقين ان حضرة مولانا سيادتلو شيخ الجامع الازهر ومفني الديار المصرية قد وقع لديه هذا الامر أعني ابطال الدوسة موقع الاستحسان لعلمه أنها كانت من المنكرات الشرعية وكان ينبغي التفات الحكومة الى ابطالها وهو متشكر من الحكومة التي أقرت السيد البكري على ازلها ولما عاد الجناب

(١) كتب ذلك في عدد ١٠٣٥ الصادر في ١٣ ربيع الاول اذ ذكر ابطال

الدوسة من حفلة المولد النبوي وكان قد مهد لمثل ذلك وسعى له سعيه

الخدوي للمذاكرة معه في هذا الشأن يبين حفظه الله ما في هذه البدعة من المحظورات الشرعية كإهانة المؤمنين والتعرض للخطر فإنه لا يؤمن أن تغترب رجل الحيوان الضخم كالحصان الذي يركبه الشيخ للدوسة فتعرض عضواً يابساً أو تبتك عضواً رخواً ويكون فيه تلف المصاب وان التعرض للخطر من المحظورات الشرعية المحرمة الارتكاب فأمره الجذاب الخديوي أن ينبه على بعض المشايخ ليبدؤوا ذلك للعامة حتى يقتنعوا بجرمة هذه البدعة وقد نبه سبأته على كثير من الوعاظ والمدرسين وأوعز اليهم أن يشرحوا للعامة حقيقة الأمر ويوقفهم على أن أمثال هذه البدع مما لا أصل له في الدين (على أن أصل الدوسة فيما تقول العامة كانت كرامة للشيخ يونس بأن يدوس حصانه على آنية من الزجاج ولا تنكسر وهي مرة واحدة فكيف تبدل الزجاج بالإنسان وصارت عادة مستمرة نعوذ بالله)

وكذلك سرّ كل السرور بذلك حضرات العلماء الاعلام أيدهم الله فأنهم متضلعون من الأدلة العقلية والعقلية الناطقة بفضل المؤمنين وبحريم امتثالهم خصوصاً وإن الدوسة وأمثالها من البدع لم يرد لها نوع مشابه ولا مماثل في السنة النبوية الغراء حتى يلمس أحد موافقتها للشرع ولو بطريق التشبيه على بعد . وأما دعوى أنها من الكرامات فهي باطلة عند أهل السنة والجماعة فأنهم نصوا في كتب التوحيد على أن من شروط الكرامة أن لا تصير عادة يتعاطاها من يريد إظهارها على حسب إرادته فإن صارت كذلك كأكل النار وضرب السلاح والدوسة ونحوها التي يتعاطاها كل من (يأخذ عهداً على طريقة الرفاعي أو السعدي) أو (يتولى مشيخة السعدية) أياً كان فلا تكون من قبيل الكرامة بل تعد من الخيل المذمومة ومن أجل ذلك قد بادر السيد البكري وساعده أهل الشرع والعقل على إبطال هاته البدع المضرة بالدين والدنيا

فما يتفوه به العامة الجهال الذين لا يعرفون ما الشرع وما الإنسانية ولا يميزون الحسن والقبيح من أن هذه عادة قديمة فكيف يسوغ إبطالها يعد من الهديان الذي لا طائل تحته فإن العلماء الشرعيين على العموم شاهدون بأن الدوسة ونحوها من البدع المنكرة فهل يريد الجهال بحبلهم أن يغيروا شرع الله أو يرومون أن

العلماء يتحاشون عن انكار البدع خوفا من جهل الجهلاء ؟ أولا يعلم الجاهلون ان مصر بل وغيرها من البلدان قد حدث فيها من البدع المضرة بالدين ما كاد يذهب بهجة الشريعة وأن ذلك كان تبعاً لأهواء الامراء السالفين وان العلماء في الازمان السابقة كانوا لا يستطيعون اعلان الحقيقة خوفا من سطوة الظالمين أما الآن وقد نظر الجناب الخديوي ورجال حكومته الى الاصول الدينية بعين الاحترام فلا يخشى العلماء لومة لائم في انكار المنكر واقرار المعروف فليس على الجاهلين بالاصول الشرعية الا ان يتعلموا خيرا لهم من ان يصادموا أوامر الدين اذ الحق التي اتفق عليها العلماء وغضب الله ورسوله على كل من خالفها فان المصائب لم تصب علينا ولم تصل أيدي الغدر والفجور الينا الا من يوم نبذ المسلمون أمور دينهم وراءهم ظهر بها ولم يلتفتوا الى حقيقة الشرع ولم يقفوا عند حدوده القويمة بل زادوا فيه أمورا ظنوها منه وهي ليست منه في شيء وان بطلان هذه العادة السيئة ليس الا مفتاحا لبطلان عادات كثيرة وسرى البدع الضاللية تبطل شيئا فشيئا حتي يرجع الامر الى الكتاب والسنة ومذاهب الأئمة الراشدين هداانا الله للاقتداء بهم وسنعود الى الكلام في أمثال هاته البدع مرارا أخرى ان شاء الله تعالى

وكتب في العدد ١٠٧٨ الصادر في ٤ جمادى الاولى سنة ١٢٩٨ - ٣ ابريل

سنة ١٨٨١

الدوسة

تقدم لنا الكلام على ما يتعلق بهذه العادة المخالفة لاحكام الشريعة ونواميس الطبيعة الانسانية وأظهرنا ما شملنا من الافراح وما عمنا من المسرات عندما توجهت عناية الجناب العالي الخديوي الى تطهير معالم الدين من دنس البدع ومستقبحات العادات المناهضة لتمواعده القويمة الا اساس الواضحة البيان واستضاءت بمشكاة نوره عزيمة حضرة الحسيب الأستاذ السيد البكري فأعلن أمره في السنة الاولى من تولية نقابة الاشراف (سنتنا هذه) ببطلان الدوسة وإلغائها كايا من جميع الموالد والاحتفالات وقد رأينا بداية اتباع هذا الامر في مولد النبي صلى الله عليه

وسلم الذي أقيم في سنتنا الحاضرة في العاصمة وجميع مدن القطر وبنادره فتيقنا ان جيوش البدع الضالة قد انهزمت طلائعها وان انوار القواعد الشرعية أخذت تسطع في آفاق بلادنا فتظهر مرآة العقل من رجس الخرافات وتحفظ هيكل الانسان (الذي كرمه الله) من وطئه بمناسم الحيوانات ورجونا ان يثل عرش كثير من أعماهم الجبل وأضلتهم الشهوات

فبينما نحن نستنشق خبرا ينيب - بابادة تلك البدعة أو يشعر بزجر أولئك المشعوذين وتأديب المخرفين اذ سمعنا الآن ان نفرا من أفوا تلك العادات استفزتهم مصالهم الخصوصية وتحركت حميتهم للمحافظة على عوائدهم البالية والتمسوا من حضرة السيد النسيب السيد البكري أن يبيح لهم إعادة الدوسة في مولد الشيخ يونس المدفون بجهة باب النصر (الذي روي عنه ان الزجاج صف امام مناسم حصانه فركبه ومر عليه من غير ان يصاب بكسر أو يتربه اختلال) محتجين على حضرة السيد المشار اليه في طلبهم هذا بأن الدوسة فضلا عن أنها من كرامات أحد الاولياء (الشيخ يونس) فانه عمل بها منذ زمن طويل بمحضر كثير من العلماء الاعلام والسادة الفضلاء ولم يبد من واحد من حضراتهم معاوضة أو تنديد بها ومضت تلك الازمان المديدة عليها ينقلها الخلف عن السلف فلا يصح بطلانها الآن انبعا لسنة الآباء والاجداد ومحافظة على العادات والمشارب

فاسفنا لهذا الخبر ووقفنا لننظر ما سيكون من اجابتهم وترددنا بين ان ندحض ما قام بمخيلاتهم من الشبهات التي جسمها لهم حب الصالح الخصوصي او تقتصر على ما شرحناه من ذلك في بعض الاعداد السالفة ولكن لعلمنا بأن تلك العادة وما شابهها متمكنة في أفكار كثير من العامة وبسطاء الادراك فلا بد وان يكون طلب تلك الفئة ملائما لمذاق الجاهلين باحكام الشرع منهم ترجح عندنا أن نذكر شيئا مما يتعلق بطلبهم دفعا لا وهام بعض العامة الذين ربما بوقرون أولئك البسطاء الملحين على اعادة البدع وان كنا على يقين من أنهم لا يجابون لما طلبوه فنقول اذا صح ما عرّوه الى الولي الشهير الشيخ يونس من أنه ركب الحصان وداس به على ألواح الزجاج ولم تنكسر فتلك كرامة خصه بها المولى عز وجل وذلك لا يفيد

اباحة الدوسة بمعنى ان تصف الرجال منكبين على وجههم متلاصقي الاكتاف
 يظاً ظهورها حيوان من العجم لم نشم من سيمته كرامة ولم تتبين من حافره منهاج
 الصالحين ويمشي أمامه وخلفه نفر من حاشيته وجم من المتفرجين وكلهم يطون
 بنعالهم أجساماً أعلى قدرها الحق في كتابه العزيز ولكن سوت بينها وبين
 العناصر الصلبة شرذمة الجاهلين ولو توسعنا في تلك الرواية الغير الموثوق بها وقلنا
 ان ذاك الولي وطأ بمناسم فرسه ظهور الآدميين أيضاً ولم يلحقهم من ذلك ضرر
 فهذا انما كان (لو وقع) اظهاراً لامر خارق للعادة على يد رجل من المتقين ولا
 يستلزم جواز وطئ أجسام الرجال بحوافر الخيل ونعال العامة من الناس بحيث
 يكون ذلك عادة يقع في كل زمان ومكان فإنه لا يكون من باب السكرات في
 شيء فضلاً عما فيه من انتهاك حرمة الانسان وتعرضه للخطر والمضرات

وأما وقوعها في الازمان السالفة بمحضر العلماء والافاضل بهذه الصفة التي
 كانت عليها الآن فلا يستدل به على جوازها وذلك لأن نصوص الشرع
 الشريف تكلفنا بالظن في البدع والمستحدثات في الدين من حيث انطباقها
 وعدمه على المباحات فان كان وجودها مخالفاً لتلك النصوص (القرآن الشريف
 والاحاديث الصحيحة وقول الائمة المجتهدين) أو يترتب عليها ما يخالفها كانت
 من المحرمات ووجب نهى فاعليها مهما طال عليها المدى في أي وقت وأي مكان
 وسواء نهى عن فعلها العلماء السابقون أو قضت عليهم ظروف أوقاتهم بعدم اذاعة
 النهي عنها والا فتكون من الملحقات بالمباح

وحيث ان هذه البدعة التي كلامنا الآن فيها (الدوسة) موجبة لانتهاك
 حرمة الانسان المنصوص على تكريمه ومظنة للخطر المنهي عن التعرض له شرعاً
 ولا تنطبق على قواعد الشرع الشريف سيما وان عملها تحت اسم كرامة من
 كرامات الاولياء مما يؤدي بالعقول الى سوء الظن بالمتقين والصالحاء فهي لهذه
 الاسباب من المحرمات التي يجب التضافر على ازالتها من صفحة الوجوه وان أتى
 عليها دور غير قليل من الزمان وهي متسلطة على عقول الجاهلين بل التي طال الزمن
 علي وجودها يجب الاهتمام بازالتها بكل ما أمكن من الوسائل خشية ان تعتقدها

العامه من المعالم الدينية ولا يخفى ما في ذلك من المضرات التي توجب اشتباه الحق بالباطل والحيث بالطيب

وأما سكوت العلماء عن ازالتها وقت مشاهدتهم لها في تلك الايام الخالية فليس ناشئا الا عن تسلط الخرافات والبدع في أفكار معاصريهم من العامة وياسهم من ان تساعدهم ولاة أمورهم على بطلانها لعدم اهتمامهم بشؤون معالم الدين والمحافظة على سلامته من الاوهام والبدع فلو طلبوا اذ ذلك ازالتها لم يجدوا سميعا لدعوتهم ولا ظهيراً يعضد مقاصدهم من أولي الحل والعقد فضلا عن ان عامة الناس تساقطهم بألسنة الجهالة وترميمهم بالخروج عن الدين

أما الآن وقد رزقنا أميراً يهيمه أمر الدين ويسعى ما استطاع في تشييد معالمه وتثبيت أركانه فلا غرو اذا رأينا الفضلاء من العلماء والأتقياء من الصالحاء يتسابقون في وعظ العامة وزجرهم عن الاقدام على اعتناق البدع والتهافت على الخرافات المنسدة لكمال العقل والطامسة لنور البصيرة (وقد رأينا من حضراتهم هذه الفعال المكلفين بها شرعاً رأي العين) فان ذلك من قبيل الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فهم يثابون عليها اثابتهم على الفروض العينية والواجبات (وقد نشرنا من مدة ما كان من جناب الاستاذ مفتي الديار المصرية وشيخ الجامع الازهر من التنبيه على الوعاظ والمدرسين ببيان هذه العادة السيئة ومخالفتها للشرعية وكفى بهذا إقناعاً للمتعمقين)

فلتعلم اذا أهل البدع والخرافات ان نجوم طلاسهم قد أفلت واستعيب عنها بيزوغ شمس الحق ومصاييح الارشاد الى طرق الدين القويم فليريحوا أنفسهم من طلبات لا تعود عليهم الا بالخيبة والنكال وليعودوا نفوسهم على التمسك بمرور الشرع والاستئضاء بنور الحق فانه عما قليل تنقشع ظلماتهم عن قلوب العامة فلا يصغون لكلماتهم المبهمة ولا يعبون باعمالهم الشعوذة ذلك خير لهم من ان يحاولوا اعادة البدع الضالة التي صار رجوعها متعسرا بل متعذرا

ولنا أمل قوي في ان غيره حضرة السيد البكري وميله الى تعزيز شأن الشرع والمحافظة على دعائه لا تسمح له باجابة طلب هؤلاء الناس بل يحثهم على العدول

عن هذا الامر الذي لا يوافق مذاهب السنة ولا ينطبق على قواعد الشريعة (والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم)

وجاء في العدد ١٠٧٣ الصادر في ٢٨ ربيع الثاني سنة ١٣٩٨ - ٢٨ مارس

سنة ١٨٨١

ما هو الفقر الحقيقي في البلاد

ان أرضنا خصبة طيبة التربة ينبت فيها غالب النباتات التي تزرع على وجه المسكونة وهوؤها ونباتها في غاية الجودة يصلحان لتغذية كافة الحيوانات البرية و بنوها أصحاب كد ونصب وذوو صبر على العمل وجلد على التعب فهي من هذا الوجه عالم برأسه غنية مثرية لانغنى كنوزها ولا تفرغ خزائنها وانها بما تأتي من الثمرات لقادرة على حفظ ناموسها وتقوية شوكتها بل ان تكون سلطتها مبسوطة الى أقطار آخر

ولكن ليس كل هذا الذي ذكرته بكاف وحده في الغنى والثروة والعزة والشوكة وان كان من كليات أسبابها بل لا بد ان ينضم اليه حسن استعمال هذه الاسباب الجليلة ورشاد الرأي في استخدامها ليوضع كل شيء في موضعه الطبيعي وتستعمل كل وسيلة لما يناسبها فان ضلت الآراء وساء الاستعمال فهذا هو الفقر المدقع الذي يعسر علاجه وماذا تصنع الوسائل المهيئة اذا لم تجد من يستعملها فيما هي وسيلة له وأي شيء نفيد الفرص اذا لم تصادف من ينتهزها وهل يقطع السيف الصقيل بلا بطل كلاً فما فقر البلاد الاقله الراشدين فيها وما غناها الحقيقي الا كثرة المهتمين

فان سألنا سائل هل في بلادنا كثير من أولئك الذين هم غنى البلاد اذا وجدوا وهم فقروا اذا فقدوا قلت مع الاسف لانهم قليل مخشى اذا انقضى دورهم أوقضي أجلهم ان لا يوجد بدلهم والبرهان على ذلك ان الرجال تعرف بالآثار الثابتة في البلاد التي تدوم بدوامها أو على الاقل اجيالاً واحقبا وان ذري

الآثار الحقيقية في بلادنا التي أثمرت ثمرا جناه ابناء الاوطان وتمتعوا بلذته مع الثقة بدوامه هم قليلون جدا بل ينحصرون في أوائل مراتب الاعداد وان النفوس الطيبة تعرفهم وهم أيضا يعرفون أنفسهم

الزراعة على حالها القديم لم يوجد منا من يضع طريقة لزيادة الحاصلات أو تسهيل العمل وتخفيف المشقة بل حصل فيها القصد بفقدان كثير من الانواع التي كانت تزرع في الازمان البعيدة كالكتان والسمسم وغيرها والاقطار على بعض أصناف قليلة والصناعة قد انحطت درجتها عما كانت عليه من نحو ستين سنة واطن هذا لا يحتاج الى البيان والتجارة لم تتغير حالتها عما كانت عليه يوم صارت مصر مصرًا وبيوت التجارة الواسعة من أبنائها قليلة جدا ان لم نقل مفقودة بالنسبة لبلاد آخر ورجال العلم ومصابيح الفضل لانراهم الا قليلا اذا أردنا أن نعددهم لا يحتاج الى زيادة عن عقد الاصابع بل ربما تقف دونها بكثير والترشحون لاستلام ادارة المصالح العمومية التي هي اساس العمران وأدائها حق الواجب لها على وجه العدل وطريق الحق الذي لا يخامر الباطل اللهم الا خطأ نادرا هم أيضا كسابقيهم نعم يوجد عندنا من لهم استعداد للتعم والتعلم وشاهدنا على ذلك الآثار والعيان

على ان أولئك الافاضل من رجال المعارف أو المحنكين في السياسة والادارة ان كانوا في هذا الوقت كثيرا فليس في البلاد أساس حقيقي يوجب ان يتأثرهم من بعدهم حتى لا ينقطع سلسلة الصالحين بل ان كانوا وجدوا في الصدقة والاتفاق ثم ينثرهم الزمان فلا يطول الا وقد أتى عليهم بحكمه القضاء المحنوم وهيئات ان يأتي هذا التراب بامثالهم فمثل البلاد وهؤلاء الفضلاء (ان كانوا) كمثل عاجز نبش في أرض قفر فوجد فيها كنزا يكفي لنفقته مدة معينة فاذا مضت تلك المدة فقد المال واستسلم المسكين لاحكام الصدف والغالب على حاله ان يموت جوعا فيكون فرسة لذئب أو طعمة لكلب

والسبب في ذلك عندنا عدم سريان روح التربية الشرعية العقلية التي تجعل احساس الانسان بمنافع بلاده كاحساسه بمنافع نفسه وشعوره باضرار وطنه

كشعوره باضرار ذاته ان لم نقل تجعل الاحساس الاول أقوى من الثاني وتزيد في احساس الانسان بمنافعه ومضاره ولا أتكلم فيها الآن فان لي في مقالي هذا مقصدا سواها فبلادنا من هذا الوجه فقيرة واأسفاه

(تلك آثار السابقين من الذين وسد بهم أمر البلاد فجعلوها بأهوائهم العوثة وتولوا أمرها فصيروها بسية تصرفاتهم أعجوبة فلا حول ولا قوة الا بالله) ان جميع النباهة في أوطاننا رافقونا على هذا الذي قلناه و يشاركوننا في الاسف على مثل هذه الحال أعني فقر البلاد من الرجال والدليل على ذلك ان غالبهم اذا ذكرته في مثل هذا الموضوع رأيتهم ينطق بأنه قد بذل كل الجهد في الوصول الى ما انتهى اليه من درجات الفضل ويتأسف على ان بقية الناس لم يلحقوه فهذه منهم شهادة على ان الفضل قليل وبنوه مثله

فان سألنا سائل هل من مانع بحول دون وضع ذلك الاساس أساس المجد والعزة أعني به أساس التربية الحققة وهل يوجد عنه صارف سوى الغفلة وانحطاط همم الافراد من الناس الذين يجب عليهم طلبه والمحافظة عليه قلت لا اننا كنا في الزمن السابق نتعلل في اغفال مصالحنا وانماض الجفن عن رؤية نور الهداية بالخوف من ظلم الحكومة وكان لنا بعض الحق في ذلك فان السلطة في تلك الازمان كانت ضاربة على العقول والافكار حجبا من الرعب والخشية فان غاياتها من التصرف في الحقوق بما تشاء ونفوذ الكلمة واستيفاء الاغراض وقضاء الاوطار الذاتية لا يمكن الا مع جهل المحكومين وعماهم حتى لا يعرفون حقا فيطلبونه ولا باطلا فيدفعونه

وهي وان ادخلت في البلاد أسماء كثيرة كاسم المدارس والمكاتب والمعارف والعلوم والتمدن والحرية والقوانين والنظامات والوامر واللوائح وما شاكل ذلك الا انها كانت بدون مسميات بل تطلق عليها هذه الاسماء مجازا بعيدا واما كانت تجلب على النظر والسمع صوراً خيالية اذا امتحنها العقل ذهبت أوهاما فلم تكن في تلك الايام سعة لفاعل خيران يفعله بل لو ظهر أحد في ذلك الوقت من غير حواشي المتسلطين بأن له شروة يريد ان ينفق منها في سبيل خيري

أصبح لا يجد نفسه ولا ماله فهذه كانت أعذارنا في الأزمان السابقة ولو دققنا فيها لرأيناها حجة علينا لالنا فكيف الاعتذار
لكننا في هذه الأيام والحمد لله قد أصبحنا في مأمن من هذا. ولتحققت حكومتنا ان لاحدنا كنوز الارض لم يسعها الا المحافظة على روحه وماله وليكانت حريرة على ازدياد ثروته ولئن طلب الانفاق جهده في الاعمال الخيرية لجدت هي في مساعدته وتسهيل الوسائل الى بلوغ مقصده ولو أبصرت شعاع فكر بدا من أي عقل لسارعت الى تقويته حتي يكون شمسا منيرة وان تنشط أقوام من رعيتها الى الاجتماع والتألف والاتحاد لغاية محمودة كبت علم أو اذاعة فضل رأيتها تقيم لبيت الالفة أعمدة وتوطد له أركاننا وتحيط به سورا منيعا كما شهدنا ذلك منهارأي العين في شأن الجمعيتين الخيرييتين في القاهرة والاسكندرية بل وفي سائر الجمعيات الخيرية الوطنية وبالجملة فان الحكومة قد أطلقت عنان العمل لكل طالب حق وقاصد صلاح وراغب فلاح فليس من جهة الحكومة هذا المانع فبطل ذاك التعلل فان سأل سائل أليس في البلاد ذوو ثروة وأولو جاه تحوم عليهم الافكار وتتوجه نحوهم القلوب وتنجذب اليهم النفوس ولهم من الاستطاعة ما يمكنهم من الاعمال الجليلة التي تكون عنوانا لمجدهم وسياجا حافظا لناموسهم ورفعة شأنهم فتحركهم الغيرة وتبعثهم الحمية على انضمام بعضهم الى بعض وبذل الزائد من فضلات أموالهم في سبيل حفظ الشرف في أبنائهم وأعقابهم على ما هو شأن العقلاء في سائر أقطار الدنيا

قلت اني أجيبك عن هذا السؤال غدا ان شاء الله وان غدا لناظره قريب

الجواب (١)

نعم يوجد كثير من ذوي الثروة واليسار وهم المتمتعون بخير البلاد وهم الذين ينبغي لهم ان يطلبوا لها رفعة الشأن ومنعة الجانب لان الاعين الفاعلة لمحلقة اليهم طالبة انتزاع ما بأيديهم وان تسلط الدخلاء (٢) عليها وتلاعب الايدي المتغلبة بامورها يضر بأولئك الاغنياء أولا وبالذات ولا يضر غيرهم من الفقراء الا ثانيا وبالعرض

(١) جاء هذا الجواب بعد عدة أعداد لكثرة المواد الرسمية (٢) يعني الاجانب

بل ربما لا يصل الضرر الى الفقراء الذين هم صنف العملة والصناع أصلا فان
 الانظار لا ترمق الا ذوي الاعباء ففهم منتهى الاطماع
 فان سأل سائل الا يجب أولئك الاغنياء ان يطمثنوا على أنفسهم وأموالهم
 ألا ينتفون ان تثبت قاعدة العدل فيهم وفي أعقابهم من بعدهم ألا يعلمون ان
 الزمان قد انقلب وضعه وتغير طبعه فصارت السلطة الحشنية لادوام لها وان
 الطرق البسيطة التي اعتمدناها لكسب المال وحفظ الناموس أصبحت غير كافية
 لحفظ ما حصلناه ولا لتحصيل ما فقدناه أولم ينظروا الى الايدي الغريسة كيف
 تتلاعب فيما بينهم طلبا لاختلاس أرواحهم من أبدانهم وان جحافل المكر والدهاء
 قد زحفت عليهم ولن يدفعها الا حرس الحزم والبصيرة ألا يعقلون ان التغالب في
 هذه الاوقات أصبح معظمه ان لم أقل جميعه تغالب الافكار والآراء فالامة
 ذات البسطة في الافكار والمهارة في المعارف هي الاقوى سلطانا والاقوم سياسة
 وهي الغالبة على سواها من الامم أفلم يبصروا انه لامعنى لشدة البأس في أيامنا
 هذه الا تدرع الحكمة وتبطن الدهاء ألم يقفوا على الاسباب التي أعدها غيرنا
 من جيراننا لنوال أعلى مراقبي المجد في أوطانه ثم اندفع اليها لاندري ماذا يريد
 ان يصنع بنا فان عقلوا جميع ذلك أفلا يفقهون انهم ان لم يكونوا نصراء لجيش
 العلم أصبحوا على شفا الخطر

قلنا بلى ان اختلاطنا بالامم الاروية سنين عديدة أظنه علمنا أسباب
 الضعف ووسائل القوة وعرفنا مقدار المدنية ودرجة الحشونة فلا يكاد أحد من
 أولئك الذين نحدث عنهم الا وقد وقف على الشيء من ذلك وكثيرا مانسمعهم
 يتحدثون به على أطراف ألسنتهم ويلوكون امثال هذه المباحث فيما بين أشداقهم
 كأنهم يعلمونها حق العلم

لكن لا تتحرك نفوسهم مع ذلك الى إبراز الآثار وطلب ما علموه صلاحا
 بالفعل دون القول كل واحد منهم يطلب الخير ولكن لا يجب ان يكون
 البادى به بل يريد ان يبسدا الغير ثم هو يتبعه فان كانوا كذلك فلا بادى
 ولا تابع وكأني بهم على احدي حالتين اما ان جميع الحوادث التي مرت على

رءوسهم لم تكسبهم معرفة ولم تحرك فيهم غيرة فذلك غاية الجهل نعوذ بالله واننا ننزههم عنه واما انهم علموا وتفقهوا ولكن استولى اليأس على نفوسهم فذلك ليس من شأن العقلاء فان القنوط من رحمة الله كفر

هذه أيامنا نسمع فيها طنين الاماني صادرا من القادرين على بلوغها لكنهم يطلبونها من غير وجهها فيعز عليهم منالها بروم كثير من الناس خصوصا من ذوي الاقتدار ان يكون ميزان العدل منتصبا لا يعيل حبة ولا مثقالا ولكن على شرط أن لا يؤخذ منهم ما يجب عليهم وان لا يكفوا بعمل يطلبه العدل ويحكم به القانون بدون ان تنشر العلوم في أطراف البلاد حتى يعم نورها كل نقطة من بسيطها لكن على شرط ان لا يكون له فيها مدخل لا يبذل نقه ولا تجشم عمل ويرغب ان يكون المأمورون وعمال الحكومة من ذوي الاستقامة والجد والاجتهاد ومراعاة المصلحة العامة لكن بدون ان يقف واحد منهم على باب مدرسة ولم يخطر بباله ما هي المصلحة العمومية ولم يجد من نفسه احساسا بحلاوة الاستقامة ومراعاة الاعوجاج وان ذلك لمن المحال البين وبالجملة فطاب الاصلاح منا لا يرضى لنفسه ان يخطو خطوة واحدة في سبيل تحصيله بل يجب ان يأتيه الاملاح ساعيا اليه ويحدق نظره نحو الحكومة يطلب منها ان تخلق خلقا جديدا مع ان سنة من قبلنا ومن معنا في عصرنا ان يسعى افراد الامة ونبلاؤها في جمع الكلمة وبذل الدينار والدرهم وتعاضد الافكار والاعمال على تحصيل ما يطلبون باسبابه ووسائله الحقيقية بدون توان في العمل ولا فتور في الهمم

فعلى الاغنياء منا الذين يخافون من تغلب الغير عليهم وتناول الايدي الظالمة اليهم أكثر من الفقراء ان يتألفوا ويتحدوا ويبدلوا من أموالهم في سبيل افتتاح المدارس والمسكاتب واتساع دوائر التعليم حتى تعم التربية وتثبت في البلاد جراثيم العقل والادراك وتنمو روح الحق والصلاح وتمهذب النفوس ويشند الاحساس بالمنافع والمضار فيوجد من ابناء البلاد من يضارع بني غيرها من الامم فتكون عند ذلك معهم في رتبة المساواة لهم مالنا وعليهم ما علينا وعلى الحكومة في جميع ذلك ان تسن قوانين التعليم وتلاحظ أحوال المعلمين والمتعلمين

أفلم يعتبروا بالجمعيات الأوربية التي لم يكن أعضاؤها الا الزراعين والصانعين والتجار كيف يبلغ ايراد الواحدة منها نحو ثلاثين مليوناً من الجنيهات وبعضها أكثر وبعضها أقل وجميع ذلك يصرف في بث المعارف والعلوم واتساع دائرة الصنائع والفنون وتقوية روح التربية الحقة التي لاشأن للبلاد الا اذا تحلى ابناءؤها بحلها

أيظنون انه يمكن لهم نوال شرف أو حفظ ناموس الا اذا جاهدوا في سبيل الاصلاح باموالهم وانفسهم وانشئوا الآثار الظاهرة التي يحق لهم بعدها لا فتخار بأنهم عرفوا مصلحة أنفسهم حقيقة فطلبوها من طريقها المألوف

ان شأن الحكومة ليس الا ان تطلق للناس عنان العمل فيعملون لانفسهم ما يعلمونه خيرا لها فان أية حكومة قيل انها عادلة حرة لم يكن لها الا انها أباحت للناس أن يدخلوا في أي باب من أبواب المنافع ويطلبوا الخير الحقيقي بكل وسيلة صحيحة فاذا لم يكن في الناس خصوصاً الكبراء من يهيمه أمر مصلحته وبقاء شرفه وناموسه فسفه منه ان يطلب من الحكومة ما لا يطلبه هو لنفسه من نفسه

اني بالاختصار أوجه كلامي هذا الى الاغنيا الذين يتكلمون كثيرا فيقولون لو: ياليت: لوما: كان: وما أشبه ذلك من أدوات الشرط والتمني ثم ينفقون النفقات الجسيمة فيما يسمونه بانفسهم لهوا وفخارا كاذبا ولا يبذلون درهما أو ان بدلوا فشيء يسير جدا يقدر عليه أفقر الناس في المطالب الذي يعدونه عظيما

وأنهم يعلمون ان عدل الجاهل ظلم فان صدر منه بطريق الصدقة لاعتن مقصد فلا بد له من الخبط فيظلم وان غناه فقر فانه أتى من البخت لا تفاقى ولا بد يوما ان يخل سيرة فيفتقروا ان كمال الجاهل نقص فانه طلاء على حائط خرب عما قليل يكشط ويتناثر منه التراب ثم ينهدم فقر الجهول بلا علم الي أدب فقر الحمار بلا رأس الى ذنب

لانصدهم فيما يقولون من أنهم يحبون العدل ويرغبون الاصلاح ويعرفون خيرا أنفسهم وبلادهم بل ولا يصدقهم أحد أبدا الا اذا برزوا الى ميدان العمل فحينئذ نعرف لهم بكل ما يدعون ونودي لهم جزيل الشكر كما يحبون ويشتهون اما الكلام فقد شبت منه الآذان وافعمت به القلوب والسلام

وكتب في العدد ١١٠٥ الصادر في ٦ جماد الثاني سنة ١٣٩٨ - ٧ مايو

سنة ١٨٨١

وضع الشيء في غير محله

هو تصرف مضر يدعو اليه الجهل بالعواقب أو عدم الاكتراث بما يترتب عليه من المضار وانما نذكر من أمثاله بعض الاوضاع الالهية التي ألهمنا الله حكمتها وأرشدنا بالفطرة الى فائدها ثم أقام لنا من الحوادث برهاناً على المضار التي تأتي من سوء التصرف فيها والعدول بها عن وضعها

ان الله تعالى يهب للكثير من عباده أو كلهم قرائح جيدة شديدة النفوذ في الحقائق وفطنة زائدة سريعة الانتباه الى الدقائق ذلك لان تكون هذه المنحة عدة لصاحبها وآلة للوقوف على مخبات الامور والوصول من المقدمات الى النتائج ومن المشهودات الى ما وراءها من الخفيات ليحرز من المنافع ماشاء الله أن يحرز ويحذر من المضرات ما ربما يكون خبيثاً له في ضمن ما يتصوره نافعاً فيعيش بهذا النور سعيداً يعلم الخير فيقتنيه ويبصر الشر فيتقيه

لكن من الاسف ان كثيراً من أرباب هذه المنح مع احساسهم من أنفسهم هذه الصفة الجليلة فيهم (أعني شدة الادراك وجودة التريخية) ينحرفون بها عن هذا الوضع الحق فيستعملون تلك الآلة الرفيعة للوصول الى غايات ساقطة حتى من نظرهم أيضاً فترى البعض من أولئك الاذكياء يعمل فكره ويقلب نظره ليدير حيلة في اسمالة غيداء واستعطاف هيفاء أو يجد وسيلة للحظوة عند ذات قد يهزأ بالاسل وأعين غنية عن الكحل بالكحل وبيذل هذا الجواهر النفيس في منافسة الانداد في ذلك ومغالبتهم وإلقاء العداوة والبغضاء بين المحبوب وبين طالبه وما شابه ذلك من الامور الدقيقة التي تحتاج (والحق يقال) الى صرف زمن واعمال فكر كما يشهد بذلك المجربون غير أن هذه الامور مع دقتها لا داعي اليها والانتعاب التي تصرف فيها تفوق بألف ضعف اللذة التي تنال منها وهي معلومة ينجل الانسان بعد نيلها من جميع ما كان استعمله لها قبل ذلك

وزيادة عن الاتعاب التي هي خسارة محضه لا ربح فيها فهوت صاحب الادراك وقت غالي الثمن عالي القيمة يطالبه باقتنাম فوائده وانتهاز فرصه وهو في غفلة عنه بهذا اللهو بل العناء الذي حتمه على نفسه بنفسه فيضي عليه من جميع المنافع تعرض نفسها على فطنته وذلك كأنه فيخول عنها وجه فتدبر عنه عازمة على أن لا تعود اليه قاطبة هذا هو الذي يزعم كل فطن ذكي يلتفت الى ماضيه فيجده خاليا من المنافع الثابتة التي كانت تبقى عدة مستقبلة ويعدها العقلاء منفعه أو شرفا حقيقيا ويرى بعض من كان دونه أصبح أرفع وأرقى وأملك لناصية الدهر منه فيقلب على جمر الاسف خصوصا اذا طرقة الزمان بمطرقة المضائب فينثبه كأن لم يكن ذا نتباه ولكن يصعب عليه بعد ذلك أن يوجد قوة أو هنها في أعمال باطلة الى ما أعدت له من الاعمال الحقيقية فاذا طالب لنفسه بعد ذلك ما يطلب العقلاء من أسباب السعادة رأى تلك الفريجة قد صدأت والفكرة طمست بما خيم عليها من تلك الصور الكثيفة فيجتهد كل الاجتهاد لاماطتها عنه ليخلص من ظلماتها المسكرة وكأنه لا يستطيع أن يعيدها الى صفاتها الاولى ويكون له من لوم السريرة وتوبيخ العقل ما يكفي في تعذيبه وتعنيفه حتى يتدارك مافاتة ويملك زمام الاعمال المستقيمة ويرشد مع الراشدين

خصوصاً اذا كان من أبناء الذوات أو الاغنياء أو موظفي الحكومة أو من شابههم من الذين تحكم عليهم مكاتبتهم بان يكونوا أسرع الناس الى الجدواقربهم الى الحق وأحرصهم على نيل الشرف لحفظ الاسم الاول على رفعة والاستزادة من إعلاء صيته وشهرته ولما يراه صاحب الشرف من أنه أحق وأولى بعلو الشأن والعظمة في الانفس من غيرها فهذا الوجدان منه يبعثه على ان يكون أعلى وأجل من غيره فيما به الرفعة والشأن في كل زمن على اختلاف الاحوال وتقلب الهيات وهو الكمال الادراكي والفضل الذي ينشأ عن صحة الادراك فهذا هو الامر الثابت الذي يمكن للانسان ان ينال به جميع مرغوباته سواء صلحت أحوال العالم أو فسدت بخلاف من يفوته هذا الكمال فان أمره موكل الى اختلال الاحوال وفسادها فما دام النظام مختلفا والعدل ضائعا والحق مستورا فهو يؤمل التقدم وعلو

المنزلة فان لمع بارق من الحق أو استقام أمر النظام وأخذ في التصرف بالعدل أصبح هذا الذكي النبيه في زاوية من الاهمال واهدر شأنه وعد في الآحاد السافلة هذا كله اذا اقتصر في تصرفه على استعمال قوة القريحة في غير موضعها وبقي حافظاً لجرومة هذه القوة (القريحة والادراك)

فان أضاف الى سوء التصرف سعياً في اطفاء نورها من أصله بأن عكف على معاطاة الارواح المسكرة والجواهر المحدرة من أنواع الخمر والحشيش والافيون والمعاجين والجوارش ونحو ذلك فقد أضاع هذا النور الالهي الذي أودعه الله فيه وانقطع الامل من عودته الى ما كان عليه فان مزاج عضو الادراك يختل بتعاطي هذه المهلكات فلا يعود للقوة مركز تقوم عليه فان ظن أنه يدرك في بعض الاحيان سرا أو يفهم خطاباً أو يرد جواباً فليعلم ان ذلك ما هو الا بقية تعلق خفيف لتلك القوة الشريفة بيدنه المعتل وأنه لو لم يكن يتناول هذه المضرات لكان الباقي عنده أضعاف ما يجده من نفسه بكثير وان الذي منحه الله من هذا السر اللطيف كان عطاءً جزيلاً فجعله نزرًا قليلاً

خصوصاً وان الانهماك في قرع الأكوام والتهالك على الشراب مما يستدعي زيادة السهر بالليل ويتبعها فتور البدن واستيلاء الوحامة بالنهار ويقضي تمادياً في الملاهي والهذر ويفتح على الانسان باب الزهو واللعب ويستلزم رفع الحجاب عن السر وكشف ستار الحياء وعدم المبالاة بما يصدر عن الجوارح من الحركات والسكنات ويستوي فيه الضار والنافع فيختلط به الامر ويكشبه صاحبه ذكراً شيئاً بما يفعل من الامور الخسيسة التي لا يشعر بها حال ضياع الفكرة واستيلاء السكره ثم يزداد الوصف الاول وهو سوء التصرف الى حد يهدم الشرف ويحط من القدر حتى عند أدنياء الناس واخسائهم وذلك ان يفرغ ما بقي من فطنته في انتخاب كلمة تضحك الحاضرين وحركة تطرب الناظرين وبدل ان يستعمل مخيلته في تشخيص الاحوال الواقعية وتقريب الحقائق الى الاذهان وتنوير الافكار بما يتدعه من حسن التصور يستعملها في ثلم الاعراض الطاهرة يخيل حال عالم أو صفة فاضل ثم يبرزها على صورة بشعة وحالة مستنكرة فيعجب ذلك جلساءه لكنه

يغضب ذمته وسريته ولا يرضى به ما بقي من عقله
 فان تمادى به هذا الحال ازماناً حتى عرفته العامة ووقف عليه الخاصة ونظر اليه
 بعين الازدراء من الفضلاء والعقلاء (وان بقي مجلا في أعين أصحابه فهذا لا ينفعه
 بشيء) ثم استمر على ذلك ولم يجد لنفسه رادعا عنه من نفسه فهذا هو الذي يحشى
 على الهيئة الاجتماعية من وجوده فسدت طبيعته واقلبت فطرته وعميت بصيرته
 حتى لا يدرك هذا الذمى تقول أيضاً فبئست الحال حاله فعلى حكومة البلاد ان
 تقتفي أثره وتضع لمن يكون على هذه الشاكلة قانوناً صعباً يخيف القلوب وان لم تكن
 واعية وبزعج الخواطر وان لم تكن حاضرة ويؤثر في العقول وان لم تكن سليمة
 والا فان هذه امراض خبيثة سريعة الانتشار لاسيما اذا بدأت في الخاصة فانها لا تلبث
 ان تسري فيما بين العامة

وكتب في العدد ١١٠٩ الصادر في ١٢ جمادى الثانية سنة ١٢٩٨ - ١١ مايو

سنة ١٨٨١

الكتب العلمية وغيرها

تنقسم المؤلفات المتداولة في أيدي المصريين الى أقسام متفاوتة بتفاوت
 آميال المطالعين سواء كانت هذه الاميال غريزية أو مكتسبة من طوارئ التربية
 وعوارضها وهذه الاقسام كما اختلفت في الشهرة والخفاء وكثرة التداول بين يدي
 الكثير من الناس وفي متديبات المشتغلين بمطاعتها ومحافلهم الخصوصية والعمومية
 فمنها الكتب النقلية الدينية وهي ما بين فيها مسائل الدين سواء كانت من
 الاصول كعلم الكلام أو الفروع كالعبارات والمعاملات ومن هذا القبيل كتب
 التفسير والحديث وكتب الاخلاق المأخوذة من قواعد الدين ككتاب الاحياء
 لحجة الاسلام الغزالي وهذا القسم نرى من المشتغلين به في بلادنا عددا كثيرا
 نبع منهم الافاضل والامثال وكثرت فيهم المؤلفات وانتشرت بالنسخ والطبع
 في غالب الجهات

ومنها الكتب العقلية الحكيمة وهي ما يبحث فيها عن الحقائق الوجودية وأحوالها ولوازمها على تدبر الطاقة البشرية وهذا القسم نادر الوجود في بلادنا والمشتغلون بكتبه أقل من القليل بل انه لم يطبع منه في مطابعنا الا نزر يسير من فروع كبعث بعض كتب في الطبيعة والكيمياء والطب والرياضة غير صحيحة العبارات والكتب الموجودة منه عند البعض من الناس كلها اما بالنسخ واما بالطبع الاجنبي ولا تشترى الا بالثمن الجسيم ومنها الكتب الادبية وهي ما يبحث فيها عن تنوير الافكار وتهذيب الاخلاق ومن هذا القبيل كتب التاريخ وكتب الاخلاق العقلية وكتب الرومانيات وهي المختصرة لمقصد جليل كتعليم الادب و بيان أحوال الامم والحث على الفضائل والتنفير من الرذائل ككتاب كليلة ودمنه وفاكهة الخفا والمرزبان والتليماك والقصة التي تترجم في جريدة الاهرام وغيرها من بقية المؤلفات وهذا القسم كثير التداول في المدن والثغور ويكثر في ابناء وطننا وجود البارعين فيه المشتغلين بدراسته العاكفين على مطالعته

ومنها كتب الاكاذيب الصرفة وهي ما يدكر فيها تاريخ اقوام على غير الواقع وتارة تكون بعبارة سخيفة مخله بقوانين اللغة ومن هذا القبيل كتب أبو زيد وعنتر عيس و ابراهيم بن حسن والظاهر ييبرس والمشتغلون بهذا القسم أكثر من الكثير وقد طبعت كتبه عندنا مئات مرات ونفق سوقها ولم يكن بين الطبعة والثانية الا زمن قليل

ومنها كتب الخرافات وهي تارة تبحث عن نسبة بعض الكائنات الى الارواح الشريرة المعبر عنها بالعفاريت وتارة تتكلم في ارتباط الحوادث الجوية والآثار الكونية ببعض الاسباب التي لا مناسبة بينها وبين مازعموه ناشئا عنها وتارة تثبت مالا يقبله العقل ولا ينطبق على قواعد الشرع الشريف ومن هذا القبيل ما يعرف عند الناس بعلم الريحاني وعلم الكيمياء (الكاذبة) وكتب الوفق وكتب الحرف والزايجات وذلك ككتاب أبو معشر والكواكب السيارة وشمس المعارف الكبري والصغري وكتاب الحرف المنسوب للحكيم هرمس والبرهنية وشرحها

والخلخلوية وشرحها والجلجلوتيه وشرحها ودعوة السباب ودعوة القمر بشروحها وكتب المناادل واستحضار الخادم والرسائل التي يذكر فيها أمر الكتابة بالحجة والبغض وعقد الرجل عن الجماع وارسال الهواتف والتسايط بالرجم على البيوت وغير ذلك مما لا يحصيه القلم وهذا القسم قد اشتغل به في ديارنا كثير من الناس ونبغ منهم الدجالون والمحتالون وطبع من كتبه عندنا ما يخرج عن حد الحصر بالقلم واللسان واذا تمهدت هذه المقدمات فنقول

قد كانت جميع هذه الكتب باصنافها تطبع في مطابع المحروسة بدون استئذان ولا تقييد ثم من عهد قزيب (على عهد وراثتنا الحاضرة) صدرت الاوامر بان لا يطبع كتاب في احدى المطابع الا بعد الحصول على رخصة تجيز الطبع وحجر في أثناء ذلك على طبع ما يخجل بالدبابة أو السياسة ليس الا وكان يصرح بطبع غير ذلك من اصناف القسمين الاخيرين (هما كتب الاكاذيب الصرفة وكتب الخرافات) على انهما ليسا مما يخجل بالدين ولا مما يناقض السياسة ولذلك كثر طبع الكتب في هذين القسمين حتى انتشرت في سائر جهات القطر واشتغل بمطالعتها كثير من الاهلين فاذا شب الولد ومات نفسه الى المطالعة في الكتب لم يجد امامه الا اصناف هذه الكتب الكاذبة او الخرافية فيجهد نفسه في قراءتها فيشيب وهي بين يديه ويموت وهو معتقد لما فيها من الاضاليل ونجم عن ذلك انغماس الغالب في ظلم الجهالات وانحطاطهم عن درجات الكالات وهذا من اضر الموارث في تأخر البلاد وبقائها في حفر الهمجية والاخشيشان ولهذا فان الحكومة السنية قد وجهت عنايتها الى تطهير البلاد من هذه الامراض المعدية السريعة الانتقال فصدرت اوامر نظارة الداخلية الجليلة بالحجر على طبع الكتب المضرة بالعقول المخلة بالآداب وهي كتب القسمين الاخيرين فمن الآن وصاعدا لا يرخص لأية مطبعة ان تطبع من هذه الكتب شيئا ومن يتعد ذلك يجاز بأشد الجزاء وستؤخذ الاحتياطات اللازمة لمنع الاختلاس في هذا الشأن فعلى الذين يميلون الى مطالعة مثل هذه الكتب لتسلية النفس وترويح خاطر ان يستعيضوها بغيرها من الكتب المفيدة الصحيحة فمن كانت رغبته متجهة الى كتب (ابوزيد)

وما معهما من الكتب كعنتر عبس وغيرها ان يستبدلها بكتب التاريخ الصحيحة
 كتاريخ المسعودي وتاريخ اظهار أنوار الجليل لحضرة رفاة بك وتاريخ
 الكامل لابن الاثير وتاريخ الدولة العلية وكتب القصص الادبية المترجمة في
 أعداد الاهرام والقصة التي طبعت في مطبعة العصر الجديد وهي المعنونة
 بالانتقام وغيرها من بقية الرومانيات العربية الاصل ككتاب كابل ودمنة وما
 ماثلها من الكتب التي جعلت على السنة الطيور والحيوانات وعلى من كانت فيه
 بقية من حب كتب الخرافات المعبر عنها بالريحاني أو غيرها من كتب الوفق
 والتنجيم ان يقلع عنها ويشغل نفسه بما يري منه الفائدة والا فأي فائدة عادت
 الى من صرف تقوده وأباد بصره وارق ماء وجهه في طلب الكيمياء الكاذبة
 وهو لم ينظر منها ما يجعله عوضا لهذه المصاريف وتلك المشقات واي عائدة
 رجعت على من حفظ العزائم وأجهد نفسه في حفظ أسماء الشياطين وأتعب عقله
 وبدنه في الخلو لا استخدام العفاريت؟ انالم نر اكل ذلك من فائدة ولا عائدة
 بل رأينا ان المشتغلين بذلك كله يحسبون من الدجالين ويمدون مع المحتالين
 وان العاقل لا يرضي لنفسه أن يشار اليه بأنه من احدى هاتين الطائفتين اللتين
 صب عليهما المقت ولحقهما غضب الله والملائكة والناس أجمعين وحينئذ فمن
 الواجب على كل عاقل ان يترك كل هذه الكتب الخرافية ويتباعد عنها على
 قدر الامكان وان يشغل أوقاته بمطالعة الكتب الحقة ككتب الديانة المطهرة
 وكتب الآداب والفضائل وتهذيب الاخلاق وكذب التواريخ الصحيحة
 وكتب العلوم الحقيقية فانها أنفع للنفس ويرى المشتغل بها فائدتها في أقرب زمن
 على أسهل وجه بدون ان يلحقه جزء من مائة من تلك المشقات ولا ان يلتجئ
 الى اضاعة الاموال فيما لا يفيد

وفي ظني ان كل هذا مما يقع عند اخواننا الوطنيين موقع القبول والاستحسان
 فان كل واحد منهم يذهب الي مذهبنا اليه ويرى ما رأيناه وسنعود الى هذا
 الى الموضوع مرة ثانية ان دعت الحال ثم تأتي على ما جرت به عادة الكثير في
 اعتقاد الخرافات ونبين تأثيرها في النفوس ودرجتها عند أهل المدن والارباب

وفصل الاصناف المتعارفة منها عند العامة وبالجملة نذكر كل ما يتعلق بهذا الموضوع في أعداد صحيفتنا على الاطراد ان شاء الله

وكتب في العدد ١١٤٢ الصادر في ٢٢ رجب سنة ١٢٩٨ - ١٩ يونيه

سنة ١٨٨١

اختلاف القوانين باختلاف أحوال الأمم

(عدنا الى الكلام في القانون حسبا وعدنا)

ان المبدع الاول جل شأنه أودع في الانسان قوتين عملية ونظرية ليتوصل بهما الى كماله المخصوص به وربط احدهما بالآخرى فجعل كمال الاولى متوقفا على كمال الثانية فصار الانسان مفظورا على طلب النظريات والوقوف على الحقائق قبل ان يباشر عملا ما فان العمل لا يقصد الا اذا كان له من النتائج ما يبعث على مباشرته وليس كل عمل ينتج الفائدة المعند بها بل لابد ان يكون على نهج مخصوص ولا جرم ان تصور النتيجة ومعرفة أساليب العمل مما يناط بقوة النظر فاذا كملت جاء العمل على أحسن الوجوه وكانت الفائدة أعظم والغاية أكمل

ومن هذا صار كل انسان حريصا على استكمال النظريات أولا وبالذات ليهتدي بها الى مناهج أعماله التي يقارنها للحصول على كمال حياته ويميز النتائج على اختلاف درجاتها في النفع ليضع بازاء كل واحدة منها عملا مخصوصا مرتبا على وجه معلوم أقرب فائدة وأسهل تناولا وأحكم وضعاً

فعلوم الانسان هي عبارة عن الحدود التي بها الفوائد النافعة ويضبط بها طرق الاعمال الموصلة الى تلك الفوائد حتى لا ينجب في سيره ولا يختلط عليه النافع والضار فيقع في الشقاء وتنتابه أيدي البلاء

وحيث ان أحوال كل أمة تابعة لمعلوماتها على نسبة بينهما كنسبة العلة والمعلول فهي انما تتخذ لاعمالها حدودا وتختار لوضعها قوانين بحسب قوتها في النظر ورتبتها في الفكر بحيث لا تخرج وقتاً من الاوقات عما تسنه سجيتها من

التقاليد والاخلاق الا اذا أتاحت لها الفرص الارتقاء الى درجة أعلى في النظر وأرقى في الفكر

ولما كانت القوانين مناط ضبط الاعمال لتسكون منتجة لجلائل الفوائد وهي ثمرة الاعمال النظرية وخالصة الابحاث الفكرية صارت قوانين كل أمة على نسبة درجتها في العرفان واختلفت القوانين باختلاف الامم في الجهالة والعلم فلا يجوز حينئذ وضع قانون طائفة من الناس لطائفة أخرى تباينها في درجة العرفان وتزيد عليها فيه لانه لا يلائم حالة أفكارها ولا ينطبق علي عوائدها وأخلاقها والا لاختل نظامها والتبس عليها سبيل الرشد وانسد دونها طريق الفهم وحسبت الصحيح فاسدا والصواب خطأ وحرقت الاوضاع وبدلت وغيرت فيقلب عليها دواء غيرها داء وذلك لقصر نظرها وعدم درايتها بوجوه تلك القوانين وماهي الداعية لها والحاجة اليها فان الحاجة هي الاستاذ المرشد والمعلم الاول متى علمها الانسان حق العلم صار حريصا عليها مقيدا بها فلا يخالف مادعت اليه وقضت به واذا كان وضع القوانين بين قوم داعيته حاجتهم اليها فلا تسمح لهم ظروف الاحوال بمخالفتها أما من لم ندعهم الحاجة اليها فلا يرونها من الضروريات فلا لوم عليهم اذا نبذوها ويكون تكليفهم بها من قبيل التكليف بالمحال بل الاجدر بهم ان يعلموا أولا ما هي الحاجة ليستووا مع غيرهم في العالمية ويتحدوا معهم في ما يترتب عليها وقد جرت عادة المشرعين في كل زمان ان يراعوا في وضع القوانين درجة عقول الذين يراد وضعها لهم حتى لا تكون مبهمة عليهم فلا يتيسر لهم فهمها ولا معرفة الغرض منها وان يلاحظوا العوائد والاخلاق ملاحظة تامة فلا يخرجون في تأسيس القوانين عما تقتضيه من الشدة والتخفيف فرب طائفة من الناس ينفع فيهم الزجر الخفيف ويردعهم الوعيد بالجزاء الهين اذا كانت طباعهم سهلة الانقياد ونفوسهم شريفة وحواسهم سريعة التأثر فهؤلاء لا يسن لهم من القوانين الا ما كان منطبقا على أحوالهم فلا يكفون بالقوانين الصارمة لانها تضر بهم شأن من يتجاوز في استعمال الدواء الحد المخصوص

مثلا اذا فرض أن واحدا ممن وصفناهم فعل ما يستوجب العقاب وكان السجين

بالنسبة إليه أمرا يوثر في طبيعته ويؤلم نفسه على ما بها من العزة ولطف الحاسة
 أما شديدا ويشق على نفوس عشيرته وأهل وطنه ان يقال فلان سجين لجناية
 كذا بحيث يكون وقوع ذلك لواحد منهم من أكبر الزواجر عن اقتراف الذنب
 الذي وقع منه فيكون الحكم على هذا المجرم حينئذ بما هو أعظم من ذلك كالذني
 والطرده والاعمال المتهمة الشاقة ظلما بينما لان ذلك ربما يفضي به الى الموت العاجل
 ويوثر في نفوس عشيرته وني جلدته انقباضاً مستمرا وحقدا أبديا لعلهم بخطأ
 الحكم وظلم الحاكم وليس بعد ذلك الا ان تنقد نيران الفتن وتلتهب حمية الغضب
 بين هؤلاء الناس وتكون عاقبتهم شرا أو تخمد النفوس وتذل الطباع وتعدم
 الشهامة من الافراد وبئست العاقبة هذه

ورب أمة فطرت افرادها على الغلظة ومجافة الرقة وكانت بواطنهم منطوية
 على الحسة والسفالة ونفوسهم بعيدة عن خصال الشرف فهؤلاء لا يردعهم عن غيهم
 ولا يصدحهم عن موارد بهتانهم الا القوانين الصارمة المؤسسة على الجزآت الشديدة
 فمن الخطأ البين ان يعامل مذنبهم بالسجن مثلا اذا كانت نفسه تستخف ما هو
 أشد منه عقابا فان الغرض من وضع القوانين انما هو مجازبة ما يحل النظام ويبدد
 هيئة الاجتماع ويضر بالمصالح الشخصية والمنافع العمومية فاذا لم تكن مودية
 لهذا الغرض فليست الا مجرد تكاليف أقيمت على كواهل الناس بل لا تعد الا
 توسيعا لدائرة المفاسد واكثرارا للمظالم

ولنا شاهد على ما ذكرناه حالة بلادنا من قبل فقد مر على أهلها زمن كانوا
 فيه همجا لا يعرفون صالح نفوسهم اتمكن الجهل منها وقتئذ فكانوا لا يعتدون
 بالزراعة مع توفر أسبابها وصلاحيه الاراضي لها وكان الملاك لا يعرفون قيمة
 ما يمتلكونه منها فيود الواحد منهم ان لو انتقلت أملاكه لشخص آخر حتى لا يكاف
 بأداء ما فرضته عليه الحكومة من المطالب ولا يقيم في بلده مدة تناله فيها أهدي
 الحكم فكان أهالي البلاد يهاجرون منها الى بلاد أخرى خوفا على نفوسهم من
 الزراعة والاخذ بوسائل الفنى والثروة فاضطرت الحكومة وقتئذ ان تلزم الإهالي
 امتلاك الأراضى وزراعها وربتت على المخالفين قوانين صارمة تشمل على مواد

العقاب الشديد فاذا جاء الوقت الذي تطالب فيه الحكومة بالمطالب الامبرية امتلأت السجون من بقايا الذين هاجروا من البلاد واج سوق الكرايبيج فكنت ترى كافة الاهالي ما بين فار من بلده ومودع في السجن وموجع بالضرب وكان لحزاب البلاد وعمارها اوقات معينة في السنة لاتعمدها واستمرت على هذه الحالة السيئة امدًا طويلًا الى أن توطدت نفوسهم على العمل وتهدت لهم طرق الزراعة ودخلت في دور جديد بما أتيح لها من المعدات التي سهلت طرقها وثبتت الاهالي في البلاد وأخذوا خطة واحدة في فلاحه أراضيهم غير مباينين بمطالب الحكومة لكنهم ابتدؤا يعلمون أهمية الزراعة ويعظمونها ويتنافسون في حاصلاتها فتبدلت القوانين التي كانت تتخذها الحكومة لجزر الفلاح عن الفرار واهمال الزراعة والتقاعد عن الآداء نوعاً من التبدل ثم تبادلتهم الايدي الظالمة امدًا ليس بقصير ولكنهم لم يزالوا ثابتين على أملاكهم فستموا سوء المعاملة واشتقت نفوسهم الى قانون عادل ينتظم به أمر الآداء فسأقت لهم يد العناية الالهية من لدن الحكومة التوفيقية من أسس لهم قانونا عادلا في هذا الشأن دخلت به مصر في عصر جديد وارتفع من بين أهلها صوت الكرباج وبدل جزاء التأخير عن أداء المطالب بما لا يحط من شرف الانسان ورتبت المصالح العامة على قوانين لا تخالف مشرب أهل البلاد بوجه يفاير القوانين السالفة وذلك مرتب على تغاير الحالتين وتباين المشربين أولاً وآخراً فلو جعل جزاء التأخير في الزمن السابق هو انتزاع الارض من يد مالكها لكان أحب شيء اليهم هو التأخير ليستريحوا من كتابة اسمهم في دفتر الملاك وكان هذا الجزاء ثواباً عندهم في الحقيقة لآعقاباً لكنه الآن أصبح من أشد العقاب

وقد آن لحكومتنا ان تعطف عنان النظر الى قوانين المجالس القضائية لتجعلها مناسبة للحالة الراهنة فتختار منها ما لا يصعب فهمه ولا تحتمل عباراته معنيين أو جملة معانٍ ولا تكون مواد من قبيل القواعد العمومية التي تنطبق أحكامها على جملة من الجزآت الكثير من الجنایات المتباينة حتى لاتكون القوانين نفسها ذريعة لآرباب الاعراض الفاسدة فيلعبون بالحقوق كما يشاؤون مع ان من بايديهم أزمة القوانين ليسوا في رتبة المشرعين الذين يستنبطون مما يحتمل خلاف الظاهر

أو من القواعد العمومية الحكم المنطبق على حقيقة الامر والواقع على أن أرباب الحقوق منا ليسوا منزهين عن الشكوك والظنون الفاسدة فر بما أساوأ الظن بمن يكون بريئاً عن الخطأ والحيانة مع خفاء الحكم من نفس المواد القانونية وعدم انكشاف النص منها وذلك يؤدي الى حرصهم على استئنف التحقيق أولاً وثانياً فيطول الامر وتتعطل المصالح وتزيد الفجوات وتشد الضغائن وتوسع أبواب المفاسد مع كثرة الوقائع والمشاكل كما هو حاصل في بلادنا الآن فيجب حينئذ أن تكون مواد القوازين نصوصها صريحة ظاهرة الاحكام منطبقة على كافة الوقائع مفصلة الابواب سهلة التراكيب

أما القوازين التي كانت متناولة في بلادنا حتى اليوم فإنها (مع كونها قاصرة مجملة غير بيئة الاساليب) ليست مضبوطة ولا معروفة عند الناس بل بعضها يعرف بالقانون الهاموني وبعضها يسمى باللوائح وبعضها يدعي بتعاليم الحقايق والبعض يقال له قرار الخصوصي والبعض الآخر منشور الاحكام والبعض الامر الهادي الصادر في تاريخ كذا وهكذا مما لا يحصى عدده ولا يمكن لاحد ما حصره فكيف يعقل أن يكون هذا التشديد (لعلمها التشثيت) قانوناً يقف العالم عند حدوده على أنهم لو علموه لما تصوروه لكونه غريباً عن أحوالهم بعيداً عن مداركهم

فمن الواجب اصلاح هذا الخلل البين الذي أضع الحقوق وأضر بالأمن ومن اللازم الاسراع به وعدم تفويت الوقت واضاعة الزمن في الاقوال التي لا طائل نحتها ويلزم أن تكون القوازين مستوفاة جميع القيود والشروط ولا يحال فيها على المنشورات ولا اللوائح تسهيلاً لضبط الاحكام وتطبيقاً لها على مقتضى الحال وان تكون منطبقة على حالة الاهالي ودرجة ادراكهم ليتمكنهم دركها والعمل بمتضاها كل على حسبه والا كانت حبراً على ورق فقد تقرر في مدارك العلماء والسياسيين من سابق ولا حق ان المشرعين وواضعي القوازين يضطرون دائماً الى مراعاة العوائد والاخلاق ليتمكنوا من تأسيسها على وجه عادل نافع بل ان أحوال الامم بنفسها هو المشرع الحقيقي والمرشد الحكيم النطاسي وان القوة الحاكمة تابعة لقوة رعاياها فلا تخطو الاولي خطوة الا اذا كان لها من الثانية سائق الى

ماخطت اليه نعم لانذكر ان أعداد الوسائل والمعدات منوط بالقوة الحاكمة ففيها تلزم بها رعاياها كرها أو اختيارا لكن على قدر طاقة المحكومين فاختلفت هيئات الحكومات وتبدل قوانينها تابع لما تقضي به حقوق الوطنية التي هي في الحقيقة حالة الرعية فان انتقال حكومة فرنسا مثلا من الملكية المطلقة الى المقيدة ثم الى الجمهورية الحرة لم يكن بارادة أولي الحل والمعقد فقط بل المساعد الاقوى حالة الاهالي وارتفاع أفكارهم وتنبه احساساتهم اطلب الرقي الى أعلى مما هم عليه فتغلبوا على جميع القوى الغريبة التي كانت تحول بينهم و بين الوصول الى مطلوبهم من معرفة الواجبات الحقيقية على أهم لم يصلوا الى هذه الغاية الشريفة الا بعد قطع العقبات التي هي دون الوصول اليها اذ بدون ذلك لا يمكن ان نثال الغاية ولا يدرك المطلوب وحيث كانت تلك الوسائل وهذه المعدات من مزلق الافهام والعقول كانت معرفتها والحصول عليها بذاتها في غاية الصعوبة فر بما يقع في وهم طائفة من الناس أنهم تهيئوا لان ينتقلوا الى خطة أرقى في المدنية والنظامات القانونية وليس الامر ماتوهموه فيتقهروا الى الورا بأن يعدوا الى جعل التشريع حرا والمشاركة في التأسيس مباحة وليسوا آمنين من دسائس الاغراض ولا متمكنين من الوسائل التي تهيئهم لهذا الامر فيفسو فيهم داء الاختلاف ويلحقهم دخل العناد فلا يهتدون الى الصواب ولا يعرفون رأيا ولا يبتون حكما وبمضون الزمن في قيل وقل فتفوتهم ثمرة الحزم وتضيع مصالحهم ويصدق فيهم المثل (من عجل بشيء قبل أو انه عوقب بحرمانه) وبالجملة فليست هيئة النظام المدني لامة من الناس سوى صورة لمادة الملكات التي اكتسبتها افرادها من مألوفاتها وعوائدها التي نشأت عليها سواء كانت ممدوحة أو مذمومة وان اختلاف قوانينها في معارج صعودها ومدارك هبوطها لا ينفك عن هذه الملكات مهما تغيرت أصنافها وتبدلت شؤونها وهذا ما جعل عقلاء الناس يجتهدون أولا في تغيير الملكات وتبديل الاخلاق عند ما يريدون ان يضعوا للهيئة الاجتماعية نظاما محكما فيقدمون التربية الحقيقية على ماسواها ليتسنى لهم ان يحصلوا على هذه الغاية بل يجعلون في نفس القوانين النظامية فصولا وأبوابا تضبط الاخلاق وتحفظ الملكات الفاضلة وتكون حدا تقف عنده

النفوس في أعمالها وتلزمه الاشخاص في سيرها حتى تنتقل الاعمال من حالة التكليف الى حالة العادة والمملكة فتصبح الاخلاق فاضلة والعادات حسنة وتسير الامة في طريق الاستقامة الى خير غاية.

وكتب في العدد ١١٨٦ الصادر في ١٤ رمضان سنة ١٢٩٨ - ٩ أغسطس

سنة ١٨٨١

تأثير التعليم في الدين والعقيدة

من المعلوم الذي لا يشك فيه ان أر باب المذاهب والاديان على العموم وان اختلفت عقائدهم وتوعدت مشاربهم يحترمون اعتقاداتهم ويجلونها وينزلونها من العلو اعلى منزلة ويدافعون عن حرمتها ببذل الاموال وفناء الارواح حتى ان صاحب العقيدة الثابتة في دينه ليموت بالسيف قطعاً وبالنار حرقاً وبالجمادى رضا ولا يتحول عن عقيدته وذلك ظاهر فان كل دين يرشد متقلديه الى ان الدنيا فانية وان هناك داراً باقية نعيمها يفوق كل نعيم وشقاؤها يهون دونه كل شقاء وكلاهما ابدى لا ينقطع فالرجاء والخوف يدفعانه الى الموت على أي وجه كان دون التحول عن عقيدته التي يرى النعيم جزاءها والجحيم عقاب العدول عنها ثم ان التخالف بين العقائد يحكم على كل صاحب عقيدة برفض تقيضها ودحض كل حجة تخالفها وتتضي عليه بأن يرى جميع مخالفيه فيها من الاشقياء الهالكين حيث ان النجاة مربوطة بعقيدته والهلاك معقود بمخالفتها وذلك يلزمه بمقتضى الطبع ان يسعى جهده في نشر عقيدته وتمكينها في القلوب وتثبيتها في النفوس لاحد أمرين

الاول سوء الظن بمن يخالفه في العقيدة وخوفه من أن يسعى في ضرره لانتفاض الرابطة الاعتقادية بينهما فهو يسعى في ضم جميع الناس الى نفسه في الاعتقاد حتى يكون واسطة في الاتحاد على التعاون والاتقاع الذاتي والأمن من المضار وان صاحب العقيدة لهذا السبب لا يألو جهداً ولا يؤخر سعياً ولا

يترك وسيلة توصله الى الاكثار من الموافقين له في الاعتقاد حتى تتوفر له المنافع ويكونوا له عوناً على دفع الاخطار

الثاني الشفقة الانسانية فان الذي يعلم ان عقيدته تأتي لمعتقدها بسعادة أبدية وان جاهدتها لا بد ان يصيبه الشقاء المرمدي ويعلم ان نبي الانسان كلهم اخوة أبناء أب واحد وأم واحدة يجب على كل منهم ان يسعى طاقته في نفع الآخر كل هذا يحمله على ان يرق ويرحم الذين يخالفونه في الاعتقاد فتأخذه عليهم الشفقة والرحمة فيدعوم الي ان يكونوا على مثل اعتقاده لينجو في الناجين ويستعمل كل حيلة لا تقاذهم من الاعتقادات التي يظنها مضرّة بهم مهلكة لارواحهم بعد مفارقة أبدانهم

ولهذا نرى أرباب المذاهب والاديان منتشرين في كل جهة ضار بين في ارض يطلبون انتشار مذاهبهم وبث معتقداتهم بكل ما يمكنهم من الوسائل فمنهم من يستعمل الخطابة والوعظ ومنهم من يستعمل الكتابة والتصنيف ومنهم من ينشئ المدارس والمكاتب للتعليم وهذا القسم الاخير هو الاكثر عدداً والآنجح سعياً فان العقول في سن الصغر ساذجة والاذهان خالية وهي مستعدة لقبول ما يرد اليها من الافكار قابلة للتأثر والانفعال بما يطرأ عليها من صور الاعمال والآراء والاحوال خصوصاً اذا كان جميع ذلك صادراً من شخص تكبره النفس وتعظم قدره مثل الاستاذ والمؤدب والمربي فتمى وجد الولد صغيراً في حجر مهدين ومعلمين يربون عقله ويغذون روحه بغذاء علومهم ومعارفهم فلا ريب توثر فيه احوالهم وأعمالهم واقوالهم وتنطبع في نفسه صور ما هم عليه فأبناً كان اباه وأسلافه الاولون لا يحفظ عقائدهم ولا هيئات احوالهم بل يتشكل عقله ولبه بالاشكال التي يفيضها عليه مهذبوه ومعلموه ايا كانوا فان خالفت مذاهبهم مذاهب اباؤهم وأسلافهم فلا شك في تحول مذهب الولد وانحرافه الى مذاهبهم لتأثير احوالهم عليه

خصوصاً وقد بينا فيما سبق ان كل ذي دين يميل بالطبيعة الي بث دينه

وإعلاء كلمة اعتقاده فأني مكتب أو مدرسة يتولى التعليم فيها رسل ديانة أو رؤساء مذهب بل ذوو عقيدة ثابتة في أي دين كان أو مذهب فلا شك ان حالهم وقالهم يؤثر في اعتقاد الولد ومذهبه ويزداد التأثير بطول المدة وحسن المعاملة والبراعة في طرق التأثير على حسب حال أولئك المعلمين ومشر بهم لافرق في جميع ذلك بين دين ودين ومذهب ومذهب وجميع هذا لا لوم فيه على صاحب الدين أو المذهب فالذي دعاه اليه إما حب المنفعة والأمن من الضرر واما الشفقة والرأفة على عباد الله بحسب اعتقاده الذي يراه يقينا لا ريب فيه بل ان هذا التغيير الذي يظهر في اعتقاد التلامذة من تأثير حالة معلمهم ومهذبيهم قد تحصل بدون قصد من المعلمين بل بحكم السريان والعادة من طول المعاشرة وكثرة الممارسة

وعلى هذا حال المدارس المنتشرة في أقطارنا المصرية التي أسسها وأنشأها رسل الطوائف الدينية لم يكن الغرض منها التعيش والاكتساب وإنما الغرض منها نشر العلوم وبث أنوار التمدن (وعلى ما يقولون) كمدارس الفرير والامر بكان والانكليز وغيرها فاننا وان فرضنا انه لاغرض لهم في انشائها وصرف المصاريف الزائدة عليها الا نشر العلوم وتقدم المعارف فقط لكن حيث ان رؤساءها ينسب كل واحد منهم الى مذهب من المذاهب المسيحية فالرئيس منهم ليس بملزم ان يفرق هيئة التعليم في مدرسته بحيث يجعل لكل قسم من التلامذة كتبا خاصة توافق مذهب التلميذ وديانته ولا ان يجعل التعليم في كتب تختص بمذهب غير مذهبه لا يعرفها وان عرفها فر بما لا يفهمها ولا يرى من الواجب عليه استحضار معلمين عارفين باصطلاحات الكتب الدينية المؤلفة في مذاهب آخر فهو على حسب معرفته وميله الطبيعي يعين للتعليم كتبنا توافق مشربه ولذلك نرى في جميع تلك المدارس كتب التمرين والاملاء والمطالعة مما يوافق مذهب رئيس المدرسة ومشربه الديني فالبروتستانت يروجون بين التلامذة كتب مذهبهم والكاثوليك يقرءونهم ما يوافق مشربهم وهكذا فالتلامذة على اختلاف مذاهب عائلاتهم يقرءون كتبنا واحدة توافق مشرب مؤسس المدرسة

خاصة فاذا طال بهم زمن التعليم في مدرسة منسوبة للبروتستانت مثلا فلا شك ان عقائدهم تتحول بالتدريج من المذهب القبطي أو الكاثوليكي أو الدين الاسلامي الى مثل عقائد البروتستانت ومثل ذلك يكون في مدارس الكاثوليك أو في المكاتب الدينية الاسلامية كـ مكاتب الفقهاء مثلا أو مدرسة الأزهر فان المتعلم فيها ان كان صغيرا لا شك تحول عقائده أيا كانت الى الدين الاسلامي بتأثير الكتب فيه فضلا عن تأثير هيئات العبادة وأحوال المعاشرة وأفكارهم التي تؤثر في العقول من حيث لا تشعر وكل هذا للوم فيه على أرباب المدارس والمكاتب أصلا فانهم لم يعملوا شيئا الا بحسن النية وصدق القصد وليس لهم من غرض سوى افادة العموم على حسب اعتقادهم

غير ان عزة العقائد على النفس كما بيناه في صدر مقالنا هذا تثبت في الآباء غيرة قهرية على عقائد الآباء فاذا شعر الوالد بان ولده تحول عن عقيدة عائلته أدنى تحول طار عقله وانبعث الى طلب الانتقام ممن تسبب في ذلك بكل حيلة وحدث في عائلة الولد من الاضطراب ماعساه يحدث تشويشا في العموم وقلقافي الافكار ومن ذلك ماحدث من مدة سنوات ان أحد أولاد مصطفى أفندي المنشاوي واسمه أحمد فهمي كانت تربيته وتعليمه في مدرسة الامريكان البروتستانتية وبعد مضي ثمانى عشرة سنة من عمره أظهر التمذهب بالمذهب البروتستانتى ودعا أباه واخوته الى موافقته على عقيدته الجديدة وكان لهذه المسئلة قصة هائلة لم يزل يتحدث بها الناس حتى اليوم وتداخلت فيها الحكومة وقنصلات أمريكا وانتهى الامر بفقد الوالد ولده حيث سافر الولد الى جهة لا يعلمها والده وهو باق في حجرة فراقه ينقلب على حجر القلق حتى الآن خصوصا مع ما يراه في هذا الامر من العار الذي يلحقه ويلحق عائلته احيالا

وقد ذكرنا هذا الموضوع وهذه الحادثة حادثة أخرى تشبهها في النوع وقعت في هذه الايام وهي ان أحد أولاد حسن أفندي الحكيم من رجال الحقاينة كان تلميذا في مدرسة الفرير بالقاهرة مدة طويلة ثم انتقل منها الى مدرسة الطب غير ان المودة كانت لم تنزل بينه وبين رؤساء المدرسة وبعد ان أقام في تعلم الطب سنتين تغيب عن مدة أسابيع

ولم يعلم أين ذهب ولم يهتد والده الى السبب حتى أخبر أخ له صغير بأنه رأى رقيما من رؤساء المدرسة مبعوثا الى أخيه المتغيب يعينون له فيه يوم السفر فقط بدون زيادة و بعد البحث والتدقيق علم أنه في مدرسة الفرير بالاسكندرية غير ان المسئلة لم تتضح حتى الآن كمال الوضوح

فهذا الامر أفرغ والده وعائلته وأوقع بهم من المصائب ما لم يكن في حسابهم غير ان اللوم في جميع ذلك على الآباء خاصة حيث يرسلون أبناءهم قبل كمال الرشد الى المدارس التي يتولى التعليم والادارة فيها معلمون على غير مذهبهم أو غير دينهم و يقيمون بينهم الازمنة الطويلة يتلقون عنهم الافكار والتعاليم من كل نوع حتى تنطبع أفكار المعلمين وملكاتهم في طباع التلامذة ونفوسهم فمن الواجب على كل شخص يخاف على دينه أو مذهبه سواء كان مسلما أو مسيحياً أو يهودياً وسواء كان قبطياً أو أرثوذكسياً أو بروتستانياً أو غير ذلك من المذاهب ان لا يبعث باولاده وهم صغار لا يعقلون ولا يفهمون الا ما يلقى اليهم من المعلم والمؤدب الى مدارس يتولى التعليم فيها والادارة من ليسوا على مذهبه أو دينه ومن نساها في ذلك ثم تغير اعتقاد ابناؤه وانقلبت مذاهبهم الى مذاهب أخرى فلا يلومن الا نفسه

اما من لا يلتزم اعتقادا خاصا ولا يرى لنفسه مذهباً معيناً فله ان يرسل اولاده في أي سن الى أي مدرسة اذ لا يبالي بأي تغيير يحدث في عقولهم ولا تتفاوت عنده اشكال التربية وصورها فجميعها لديه سواء

و بالجملة فأنا نقول ان كل صاحب اعتقاد يخاف عليه ويحرص على بقائه ويجب ذلك لا اولاده ونسله فاول واجب عليه تمكين اعتقاده في عقول اولاده بحفظهم عن مخالطة من يخالفه في العقيدة وهم في سن الصغر فاذا بلغوا رشدهم وعقلوا عقائدهم وصاروا في أمن من تأثير أفكار الغير فيهم فلا بأس باطلاق سراحهم يعاشرون من شاءوا ويستفيدون العلم ممن يريدون ومن أهمل في ذلك فهو المهمل في أمر عقيدته العديم الغيرة في حفظها وسنعود الى هذا اللوضوع عند ما يرد الينا تفصيل الحادثة الاخيرة وما انتهى اليه الامر فيها

وكتب في العدد ١١٩٧ الصادر في ٢٩ رمضان سنة ١٢٩٨

(بقايا مسألة تأثير التعليم في العقيدة)

نوهنا في احد أعداد جريدتنا سابقاً بتغيب ابن حسن أفندي الحكيم بما أغراه بعض رؤساء المدارس الاجنبية واستهواه عن عقيدته وفيما يقال أنهم رغبوا السفر به الى الجهات الخارجة عن القطر المصري حسب ما يوجهونه وان كفر بذلك نعمة الوالد والوالدة وجمد احسانهما اليه بالترية البدنية وما أنفقا من كسب الايدي عليه لتكميل تربيته النفسية وجرح قلوبهما بفراقه وهو عزيز لديهما ولهما فيه من الآمال ما يسهل نصبهما في تهذيبه وتعليمه

وأشرنا في ذلك الى أن حضرة والده الوله المحزون على ما أصابه توجه الى الاسكندرية مستقصباً خبره فبلغنا بعد ذلك أنه بعد شدة الفحص ودقة البحث لم يعثر عليه فرجع الى المحروسة في حالة اليأس فأشير عليه بتقديم تقرير الى قنصلانو دولة فرنسا يشكو فيه رؤساء تلك المدارس الذين أغروه وأغروه بفراق والده وارتكاب العار الشنيع الذي لا يخصه بل يعم العائلة بتامها كما وقع لسابقه فحرر تقريرا بذلك وذهب الى الاسكندرية لهذا الغرض فارتقبنا ورود خبر عن هذه الحادثة الى ان ورد الينا من أحد أصحابنا بالاسكندرية رقيما يفيد ان الوالد فاز بوجود ولده قبل اختطافه بأيد طالما طالت الى مثل هذا العمل (التفريق بين الوالد والولد) ولنورد عبارة هذا الرقيم ببعض تلخيص فمنها تنضح حقيقة المسئلة قال صاحبنا بعد الديباجة

ان نجل حضرة حسن أفندي الحكيم الذي نوهم بذكروه في أحد أعداد الوقائع في الاسبوع الماضي قد أحضره خاله من الميناء الغربية باسكندرية (محل وجود الواورات البحرية) وعلم من كلامه (كلام الفتى) انه كان متغيبا جهة الرمل (بالاسكندرية) يدارس مع أحد الاساتذة بعض فصول علمية وأنه لما علم بما ذكرته عنه الجريدة الرسمية أخذته الفيرة الدينية والحمية الاسلامية وحضر قاصدا خاله ولم يكن له علم بأن والده بالاسكندرية ولما قيل له انه موجود بهذه

المدينة يقاسي من أجله الموم والعموم سعى إليه وقابله وقبل يديه وأظهر له الخضوع والطاعة وأبان له أنه حريص على دينه الحمدي وأنه لا يرغب عنه ولم يحمله على التغييب إلا حب العلوم وتشوقه لاتمام علم الطب لشدة شغفه به ثم إن والده أخذ يلاطفه ويعدده بما يميل إليه وبأنه سيهتم في توجيهه إلى أي جهة يريدونها من الجهات الأوروبية حتى آانس منه الامتثال وقد حملته الغيرة على أن يكتب إلى الجريدة الرسمية بنفي ما نسب إليه إلا أن والده رغب إلى أن يكتب اليكم بذلك لتذكروه في أحد أعداد الوقائع اه

غير أنني كنت أحب أن يكتب إلى هذا الفتى بنفسه ليكون هو الكاشف عن ضميره بتعبيره وأرجو أن يكتب لنا بشيء من الفصول العلمية بأي عبارة كانت لننشرها تحت اسمه ويكون له الفضل ونؤدي له على ذلك الشكر ولنعد إلى أصل الموضوع فنقول إن عبارة هذا الرقيم في الحقيقة وافية بكشف الواقع وإنه لم يخرج عن حد ما نوهنا به سابقاً إلا أننا نضرب عن بيان وجوه ذلك صفحا فقد ظهر لنا وتحقق أن هذا الفتى النجيب قد حفته العناية الإلهية بارتضاء والده الحنون الشفوق والابتعاد مما يلحق به وبوالديه وعائلته من ألم الحزن والأسف إذ يلم بوالديه مالا يقدر من الاحزان على فراقه وبعده ويحيط به نفسه الغم والههم كلما لاحظ في فكره أو خطر بباله حالة أبويه وما وصل أمرهما إليه إذ توبخه ذمته ويلعنه ضميره كلما تذكر الاحسان السابق منهما إليه مع اسماءه اليهما وهو قادر على مكافأة الاحسان بالاحسان فنحن نشكر له هذا الانتباه ونحمده على تلك الغيرة الدينية بل الحمية الانسانية ونوصيه بمراعاة حرمة الوالدين التي جعلها الله تعالى في الرتبة تالية للاقرار بروبيته ووحدانيته إذ قال تعالى (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً) وقال تعالى (وقضى ربك إن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً) وبأن يعظم قدر الاحسان الذي أسدياه إليه صغيراً وهو فاقد القدرة والارادة والياه بالبر حتى صار رجلاً ذا قدرة على الكسب واختيار واردة في الخير والشر فقد قرن الله شكر الوالدين بشكره في أمره فقال تعالى (ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في

غامين أن اشكر لي ولوالديك اليّ المصير)

وعلى هذه الوصايا المقدسة وردت الكتب السماوية بأسرها ولا ريب أن هذا هو الذي يمجو عنه كل شيء لحقه من تلك الاشاعة التي ظهر آخر الامر على ضدها وقفه الله تعالى لحسن الطوية ووفقه عقله بنور المعرفة ليسعى في ارضاء والديه وتسكين خواطرهما قياماً بأمر الله في جميع كتبه على لسان جميع رسله والامل بعد هذا ان لا يتغيب عنهما الا باذنهما سواء كان لمدرسة العلوم أو اكتساب أي فضيلة كانت حرصاً على برهما ثم اننا نعيد انذار الآباء هدايم الله بان لا يسلكوا بأولادهم في التربية مسالك توجب لهم قلق الفكر وتشويش البال وان لا يبعثوا بأبنائهم الى المدارس الاجنبية التي تغير مشاربهم ومذهبهم حتى ياذن الله تعالى بمنع التعلم الديني في جميع مدارس العالم فتكون المدارس قاصرة على العلوم الغير الدينية والصنائع ويكون للدين مواضع مخصوصة لتعليمه والتربية بمقتضاه وهذا خصوصاً في مثل أقطارنا أبعد من مجيء الالف على رأس المائة على ان ماسبق مناشره في الاعداد الماضية يقتضي بأن نفس المعاشرة تؤثر في العقيدة فلا يؤمن على الاطفال من تغيير المذاهب الا اذا ارتفع استحسان الشخص المعتقد واستوى جميع الاعتقادات عنده وهذا محال مادام الدين ديننا فليتنبه من يتنبه واينته الآباء ان كانوا يعقلون

وكتب في العدد ١٢٢٣ الصادر في ٨ القعدة سنة ١٢٩٨ - ١١ أكتوبر

سنة ١٨٨١

نيل المعالي بالفضيلة

عثرنا في جريدة المقتطف على فصل مفيد يحكي تاريخ الجنرال غارفيلدرئيس جمهورية الولايات المتحدة في أمريكا فكان هذا التاريخ شاهداً على الرجل من وفرة العلم وكثرة التجربة وتقلبه في الاعمال الذافعة لبلاده ودليلاً على مالبلاد أمريكا من التقدم في المدينة حيث ان فضل الرجل عندهم يعرف ويشهد لهم

به فلا يحول بينه وبين ما يؤهله له استعداداه وضاعة أصوله أو خمول عشرته أو فراغ يده من النقود أو حقارة مسكنه أو خشونة مأكله فجميع هذه الظواهر التي لا تدخل لها في جواهر الرجال ليست معتبرة عندهم ولا هي المدار في ارتقاء مراتب الشرف والسيادة وقد استفيد من هذا التاريخ ان هذا الرجل لم يصل الى ما وصل اليه بلزوم أعتاب الكبراء ولا الوقوف خلف أبواب الامراء ولم يرفعه الى منزلة الرياسة العظمى صفاء لون الوجه ولا حسن تركيب الخلق ولا توسطه في منافع من هم أرفع منه منزلة ليجذبوه من حضيض حطته الى أوج رفعتهم وهكذا يرتفع أبناء الأوساط والآحاد من الناس في البلاد المتمدنة بالصفات الغاضلة وسعة المعلومات وبذل الجهد فيما يعود على البلاد بالخير والفائدة

وهذا (هو) الذي يبعث كل فرد من أفراد الأمة على الجهد في كسب الفضائل الحقيقية واستعمال العقل الانساني فيما خلق لاجله من اصلاح أحوال المعيشة وسعادة الدارين وسلوك طرق الرشاد واستخدام جميع الوسائل الالهية التي أعدها الله تعالى لمنافع خلقه ووهب لهم ادراكا يتمكنون به من اجتناء منافعهم منها فأر باب الثروة وذوو المقامات الرفيعة يعلمون ان المناصب وارتفاع الشؤون انما تنال بالفضائل التي ألهم الله بها عباده وهداهم اليها على لسان من اختصهم بمزايا الادراكات السامية ودلهم عليها بالحاجات والضرورات بما ساقه اليهم من حوادث الكون التي هي خير أستاذ ماهر للعقول الانسانية والنفوس البشرية وجعلها قواما لسعادة المعيشة وركنا شديدا لبنت الحياة وهي الفضائل التي دونت لها كتب العلماء والحكماء وأثبتها الصديقون والسياسيون في مؤلفاتهم ويجمعها طلب النفع الخاص من طريق الفائدة العامة أي الوقوف في السعي لكسب المعيشة عند حدم ينفع الجمعية المعنونة باسم واحد كعصر أو الشام أو أمريكا أو ينفع لمعوم نوع الانسان ولا يجلب ضررا على أحد من المجتمعين لاني العاجل ولا في الآجل الا أن يتوقف عليه نفع جميعهم ويتبع هذه الفضيلة الكلية عدة فضائل هي أصناف وأنواع لها وكل واحدة منها أصل لفضائل لا تنحصر الا بالذوق الطاهر والفكر الدقيق ويلزم لنوال كلها اتساع دائرة العقل في المعلومات ومقارنة الحوادث بعضها

بعض في السير المدني ونسبة كل منها الى الآخر في النفعة والمضرة حتى يتيسر
 للشخص حسن الطلب على النحو الذي بيناه و يتبع هذا الواجب نشاط في العمل
 المفيد للفرد والمجموع واحتمال لكثير من المشاق المتعبة في اوقات وان أعقبها راحة
 دائمة ثم يعقب ذلك تحلّ بصفات كثيرة وتخلّ عن أغراض جمّة تسمى الاولى
 باسم الفضائل وتعنون الثانية بعنوان الرذائل فاذا تيقن الأعلون من الناس ان
 لارفعة ولاثرة الا يجوز هذه الفضائل دأبوا في تحصيلها وبذلوا الجهد في المحافظة
 عليها فيسعدون بما يستفيدون ويسعد غيرهم بما يفيدون اذ يحرصون على اتقن في
 العلوم والصنائع التي يحتاجها غيرهم فيطلبها منهم بالثمن الذي يرغبون ويجتهدون
 في منع كل ضرر يخشى وقوعه لهيئتهم الاجتماعية التي هم أعضاؤها الرئيسة فتطلبهم
 الافراد للسيادة عليهم جزاء لهم بحسن خصالهم وجميل فعالهم
 أما الوضعاء من الناس وذوو الانساب الحقيمة ومن لا اسم لهم فانهم يعلمون
 ان هذه الصفات الفاضلة تسوق الى السعادة وان من لا قدر لهم ولا تعلم أسماؤهم
 لحوّل ذكركم وحجب ستارة الفقر والاعدام شوأخصهم عن أعين الناظرين يعلو
 ذكركم وتتوجه الافكار الى معرفتهم والقلوب الى احترامهم وتطلبهم المنازل
 الرفيعة وهم في مساكنهم الحقيمة فيجدون ويجتهدون في اكتساب ما يؤهلهم
 ويهدم للحاق بمن سبقهم في الاعمال النافعة والاصناف الفاضلة ليتالوا من رفعة
 الشأن مثل مانال السابقون وبذلك تكون الامة علي اختلاف طبقاتها في حركة
 صعود دائمة فان الغني وذا الجاه لا يريان لحفظ غناها وجاهها أو الاستزادة
 منها الا المحافظة على منابع الخير من ذاته والبعد عن قواذف الشر ومطارح
 الضر والفقر وخامل الذكر لا يجد سبيلا الى الغني ونباهة الاسم الا المبادرة الى
 أسبابه الحقيقية وهي التشبه بالنبلاء والوجهاء الذين لم ينالوا النبالة والوجاهة الا
 بالفضائل الحقيقية في التحلي بتلك الفضائل حتى يصبح نبيلاً وجيهاً مثلهم فتقوى
 في الامة دعائم العمران وتثبت فيها أصول السعادة التي وضعها الله تعالى لنحسين
 حالة الانسان في حياته ووقاينه من الخطر الذي يتوقع أن يحل به وعند ذلك
 تكون للامة الاحوال التي نسميها بالرفاهية والعزة والسطوة والقوة والشوكة والغني

والثروة والرئاسة والسياسة وغير ذلك من الصفات التي تمدح بها ويعلو شأنها وهذا بخلاف ما يوجد في كثير من البلاد التي لا عناية لها بشأن الفضائل فلا ينظر فيها الى الشخص من حيث حليته الباطنة وزينه العقلية ولكن أهاليها ينظرون الى الزرق الظاهر والحلية الصورية وبعدون الاعراض الساقطة في المنزلة الاولى من الاعتبار فلا ينزل الواحد فيها منازل الشرف الا اذا كانت له من آية أو من متبوعه جهة الشرف ثم ان صاحب الجاه والشأن الرفيع لا يسقط من مقامه فان جاهه هو الحافظ له وشأنه هو الذي يقدم أبناءه وحواشيه الى مثل مقامه وان كان فاقد لكل فضيلة وخاليا من كل صفة الانسانية فتكون الطبقات في مثل هذه البلاد على الدوام ثابتة افرادها على حال واحد في أزمنة كثيرة فالفقراء يبقون على فقرهم والاغنياء يدومون على غناهم وقليل ان يصير الفقير غنياً ويلزم لذلك تمكن الاستبداد والظلم في نفوس الطبقات العليا وثبوت جرثومة العبودية والذل في قلوب الطبقات السفلى وفي مثل هذه البلاد قد ينال بعض المستضعفين وآحاد الناس ومن لا شأن لهم رفعة شأن أو علو مقام ولكن لا من أسبابه الطبيعية التي سبها الله في خلقه بل بوسائل التذلل والمداجاة واطهار العبودية لمن فوقه ولزوم اعتبارهم والوقوف على أبوابهم أو بأن ينتصب لطلب منافعهم الخاصة فاذا دام على ذلك أزماناً رقوا له وأخذوا بيده فدرجوه في مراتب الشرف سلماً بعد سلم حتى يلحق بهم وبعده في حاشيتهم فيشرف بمثل شرفهم فهذه الوسائل تنحرف القلوب وتميل الافكار عن الجادة المستقيمة ويدخل الناس في هذه الطرق فتندم الرغبات في الفضائل بل تغفل الاذهان عنها بالكلية فلا تتوجه الا الى تلك الرذائل غير ان هذه الوسائل وان أفادت في بابها وأتت بالغاية المطلوبة منها لكن لا يمضي زمن قليل حتى تسقط الامة بتمامها وينتهي بها الحال الى الخراب ويمر الشر جميع الافراد

فهنا للبلاد التي تعرف فيها الحقوق لاربابها ويدخل لها السعادة من أبوابها وأنا ننشر هذا الفصل التاريخي ليستفيد منه المطالعون .

وكتب في العدد ١٢٧١ الصادر في ١١ محرم سنة ١٢٩٩ - ٣ ستمبر

سنة ١٨٨١

العلم وتأثيره في الإرادة والاختيار

(لاحد المفكرين المشتغلين بالعلوم العقلية قال (*)

سأني أحد الافاضل عن سلطة الفكر والتعقل على الإرادة وسلطة الإرادة عليهما فلم أجد بدا من المذاكرة معه في هذه المسئلة وتوضيح ما وصل اليه عقلي نقلا عن العلماء المحققين واستنباطاً من كلامهم ولظني أن في ذلك نوعاً من الفائدة لقراء جريده الوقائع رأيت من اللائق نشره على لسانها حكاية لآراء العلماء وما أدام اليه التدقيق في هذه المسئلة ولا بد قبل الكلام في الفكر والتعقل من تقديم مقدمة في العلم ولا تسكلم في العلم من جهة ما نقول ويقول المرشدون من أنه نور العالم الانساني وشمس وجوده وروح حياته وأنه وسيلة التقدم في المدنية وكال الحقيقة الانسانية وهو سيف القوة وينبوع الثروة وما شابه ذلك من الاوصاف الحققة التي أجمع عليها العقلاء بعد أن صدر بها النطق الالهي على لسان الرسل والانبياء والصدقيين والاصفياء فان هذه الاوصاف انما تثبت للعلم من جهة أنه مطابق للواقع ومثال للحقائق الثابتة وحاك عن الاوضاع الالهية في عالمنا الوجودي أما كلامنا الآن فهو في مطلق الادراك المعبر عنه بالشعور الذهني الذي يشمل جميع التصورات والتصديقات من حيث هي

اختلفت كلمة العلماء في مسمى لفظ العلم فمنهم من قال انه الصور المنطبعة في النفس آتية من طرفها المعلومة (الحواس الخمس) أو حاصلة من تأليف بعض تلك الصور الآتية مع بعض آخر ومنهم من قال انه انفعال النفس بتلك الصور أي التأثير الذي يحصل فيها بورود الصور عليها ومنهم من قال غير ذلك من كونه نسبة بين العالم والمعلوم محاولة الحقيقة أو اتحاد العالم بالمعلوم الى غير ذلك من الاقوال التي لا حاجة بنا الى ذكرها لكن القولين الاولين هما الاقرب الى العقل والاشهر في النقل ويكاد الخلف بينهما

(*) المقالة بطولها له رحمه الله ولكنه أراد أن ينظر في هذا البحث المهم لذاته

يكون لفظيا لاتفاقهما على أن النفس المدركة تنطبع فيها الصور فهي متأثرة بها إلا أن الخلاف في كون العلم هل هو الصورة نفسها أو تأثير النفس وانفعالها بها والاقرب للحقيقة هو الرأي الثاني وهو ما يرشد اليه الوجدان الذي يدركه كل متعقل من نفسه

فالعالم بناء عليه انفعال في هذا الجوهر المدرك الذي تخفى علينا حقيقته لكننا نعرف آثاره وهو الروح الحيوي والقوة المودعة في المخ والأعصاب من الحيوان أو المبرع عنه بالنفس الناطقة في الانسان فالضياء الذي قال العلماء أنه يحمل الصور الى الباصرة مثلا ليس المراد أنه ينقل صور المرئيات كما ينقل أحدنا الشيء من المكان الى البصر فيودعها فيه اذ هذا من المحالات الاولية فان صورة الشيء الذي نراه لاتفارقه بالضرورة بل المراد أن الضياء لطفه عند مروره على الصور والاشكال يتشكل بها فيكون أيضاً بنفسه قد حدث فيه شكل يشاكل هيئة مامر وانطبق عليه على حسب حالة الانطباق ولما فيه من الحركة السريعة المستمرة ينعكس الى البصر بشكله فيؤثر في الروح اللطيف (أشد لطفاً من الضياء بكثير) المودع بالحكمة الالهية في مركز الادراك بمثل ما تأثر الضياء من المرئي عند انطباقه عليه وهكذا يقال في توجع الهواء بالنسبة الى المسموعات وفي الملموسات والمشمومات والمذوقات يتأثر الروح المنبث في الأعصاب الإدراكية من نفس الكيفيات التي تتصل به فيحصل فيها مثل هيئتها التي خالطته

فالعالم والادراك أثر في الجوهر الدرك يحدث فيه من المؤثرات الاخر المحيطة به كسائر الآثار التي نحدث في الاشياء من اتصال بعضها ببعض وانفعال كل منها بما في الآخر من الكيفيات والصفات التي يمكن أن ينفعل بها كالحرارة يكتسبها الماء عند اقترابه منها والماء يكتسب شكل الاناء عند وضعه فيه وما شابه ذلك

وهذا الاثر بحكم الوضع الالهية الذي لاتصل الى كنهه العقول يثبت في جوهر المدرك مستتباً جميع لوازمه التي لاتفارقه فصورة الانسان مثلا يتشكل بها الروح على هيئتها التي تشكل بها الضياء وهي في مكانها المخصوص ووضعها المعين

فكما صارت تلك الصورة في الروح يكون فيه أيضا حيزها ومكانها التي كانت حالة فيه عند الرؤية ومقدار البعد بينها وبين الاشياء التي أحاط بها الضياء وأتى بها معها وبالجملة فان الشيء يكون في العقل كما هو في الوجود مع كافة لوازمه وتوابعه على حسب ما اتصف به الموصل وما قبل الروح المدرك بحكم استعداده الفطري حتى ذهب كثير من المحققين الى أن الحقائق بنفسها موجودة بذاتها في العقل كما هي موجودة في الخارج لما رآه من التماثل انتام بين صورة العلم والمعلوم فكان عالم الادراك وما يوجد فيه هو بعينه عالم الشهود وما احتوى عليه وكما ان حركة الموجودات في العالم الخارج عن نفوسنا تدعو الى اتصال بعضها ببعض فيتألف منها أجسام على نمط منتظم أو غير منتظم يكون لها من الخواص والصفات بعد تألفها مالم يكن لها قبل التألف فان حركة الاجزاء الغذائية مثلا وانضمامها الى البدن الانساني أو الحيواني يكسبها من صفات الحياة مالم يكن لها قبل اتصالها بالبدن كذلك حركة الجوهر المدرك فينا تفضي الى انضمام بعض الاشكال الادراكية فيه الى بعض آخر فيتألف منها شكل ثالث يكون له من الخواص العقيلة في ذلك الجوهر مالم يكن للشكلين الاولين ونريد من الاشكال أنواع الحركات الحادثة في جوهر الروح فان انضمام بعضها الى بعض يحدث أنواعا آخر من الحركة

وكما يرى في عالم الشهود ان بعض اجزاء العالم يجذب بعضاً وبعضها يطرد بعضاً آخر لتمام مناسبة أو تمام منافرة بينهما كذلك بعض المعلومات في العقل اذا حصل يوجب انضمام معلوم آخر اليه أو انفصاله عنه وفي كلا الحالين أحدث في النفس أثرا جديداً ومن ذلك تدكر الشيء بعد الذهول عنه لوجود ما يلائمه أو يضاده بالكلية وقد يكون في الحالين مع سرعة تارة ومع بطؤ تارة أخرى كما يحصل ذلك في الموجودات المشهورة بلافراق ومعنى هذا ان تأثير جوهر الادراك بحالة قد يوجب تأثيره بحالة أخرى لرابطة بين التأثيرين سواء كانت تلك الرابطة ناشئة عن المناسبة أو المعاكسة

ومن المعلوم المقرر عند كل عاقل ان هذا الجوهر الروحي هو المتسلط على

الابدان التي صارت باستعدادها الطبيعي مظهرا لآثاره بمعنى ان حركات هذا الروح في أجزاء الابدان توجب مطاوعة تلك الاجزاء له فهذه التأثيرات والانفعالات التي تحدثها فيه حركات الموجودات الواصلة اليه توجب في هذا الروح حركة مخصوصة على حسبها شأن سائر المؤثرات الطبيعية العادية وبمحكم حركة هذا الروح تتحرك الاجسام والابدان بالانها المخصوصة على ترتيب ونظام مخصوص يشبه حركة الروح الناشئة عن تأثيرها وهذا ما نسميه بالحركة الارادية وهي التي يندفع بها البدن الى طلب شيء أو الهروب عنه عند العلم بعلامته أو منافرتة أي عند انفعال الذهن بصورته مع لازمها الذي هو الملاءمة أو المنافرة حسب الشكل الذي حدث في الجوهر الروحي المبرعنه بالذهن يتحرك في الاجزاء المعدة لحركته فيها فتتحرك هي أيضا بحركته اما طلبا واما هربا (جذبا أو طردا)

وقد يتعارض أثران في الجوهر المدرك الذي هو الروح وعبارة أخرى قد تختلف صورتان علميتان في العقل أحدهما تقتضي اندفاع الروح وحركته نوعا من الحركة والاخرى تطلب نوعا آخر منها فيقف وهي حالة التردد فاذا عرض من الآثار الادراكية أو الصور العلمية ما يقوي أحد الأثرين تحرك الى ما يوافقها والا فهو في مركز الوقوف و يبقى أثر ضعيف في الإدراك للصورة المرجوحة عند ما يغلب على الروح أثر الصور الأخرى

فالإرادة إنما هي تابعة للأثر العلمي في الروح الإدراكي أو هي صورة أخرى لذلك الأثر بل الفعل الصادر عن الروح في البدن أعني الحركة البدنية نفسها إنما هو ظهور الأثر الإدراكي في الروح فيكون حاصل القول ان المتصل بالروح أثر فيها أثرا وهو العلم أوجب حركتها في أجزاء البدن فكان عنها حركة البدن نفسها وان شئت قلت تشكل الروح وهو في الأجزاء بشكل ما اتصل به فظهر ذلك الشكل بعينه في الأعضاء بالحركة الفعلية وهذا ما يقول العلماء ان الإرادة تنزل العلم والفعل تنزل الإرادة ومعناه ان حقيقته الأثر واحدة ظهرت في الأشياء المتعددة بمظاهر مختلفة

وقد يكون تأثير الإدراك في أعضاء البدن وأجزائه والمواد التي يتركب

منها خارجا عن الطور الذي نسميه بالإرادة وذلك كفعله في الدم عند ما ينتقش بصورة فعل متافر وفي الامكان دفعه فيفور الدم و يقلي وينشر في جميع العروق و يدور فيها دورة غير اعتيادية فاذا اشتدت الدورة تحرك البدن الى الايقاع بمن صدر عنه الفعل الغير الملائم وهذه هي الحالة التي نسميها حالة الغضب فان تأثير الامر المغضب على الدم ليس في حد الإرادة والاختيار وان كان التحرك للايقاع واقعا تحت الإرادة لكن ربما اذا أمعنا النظر نجد خارجا عنها وانما نعه داخلها تحتها عند ما نلاحظ ان عندنا أثرا علميا آخر يدافع طلب الانتقام ويرد النفس عنه وهو صورة عاقبة الفعل الانتقامي وما يحشى من خطرها فلوجود هذا الاثر عند الغضب نحسب الحركة الغضبية حركة إرادية والا فالغضب يحس من نفسه انه مغلوب لادراكه

ومثل ذلك تصور العاشق وصل المعشوق فانه يفعل في الدم حركة وفي القلب خفقانا خصوصا اذا كان المعشوق بمرأى منه وبمشهد من أعماله ويتبع ذلك ارتعاد خفيف في الاعصاب والأربطة البدنية ربما يفضي الى الرعدة وليس هذا التأثير داخل تحت الإرادة ولا هو منها في شيء ولكن قديمه فعل ارادي مثل الفعل الذي يتبع الغضب وانما يعتبر الفعل اراديا ما اذا كان ناشئا عن ادراك آخر سواء كانت المنازعة على وجه المدافعة أو المقاتلة ومما ادنا من المقاتلة تصور الشيء وضده وترجيح غايته على غاية الضد كتفضيل الحياة على الموت عند تصورهما وقد يفعل الادراك في الدم وقفه وانقباضا ربما تؤدي الى الجمود وقد الحياة كما نشهده فيمن فجع بموت ولده أو صديقه أو تصور خطرا وخطبا جسيما فان قوة هذا الاثر الادراكي وفعلها في جوهر الادراك قد تسلط على الدم فترده من العروق بحركة جوهر الروح وشدة انقباضه أو توقف دورته وربما ينشأ عن ذلك موت المفجوع والآيس ويتبع ذلك من الاعمال الإرادية قبل ذهاب الحياة سكون أو تحرك غير منتظم وقد يؤدي ادراك من الادراكات - كتصور أمر مخيف - الى ذهاب الادراك وسلب الشعور بالسلبية وهو ما يعبر عنه بالاغماء والغشي وذلك لاستيلاء أثر الصورة الخفيفة على

الجوهر المدرك في البدن فلا يسفله سواها فتضمحل جميع الانفعالات المعبر عنها بالادراكات وتنفى في نوع هذا الادراك والانفعال الشديد وهذه الاحوال التي نجدها من أنفسنا ترشدنا بلا شبهة الى أن التأثير الادراكي من الانفعالات الطبيعية التي تتأثر بها الجواهر اللطيفة من الضياء والكهرباء وغيرها وان ما ينشأ عن التأثير الادراكي انما هو كفيات تتبع الحالة التي صار عليها الجوهر المدرك بعد التأثير الذي عرض عليه أي مانسبهه علما وادراكا

الملكات والعادات

ان هذا الجوهر الروحاني المتعلق بأبداننا الذي يتأثر من كل واصل اليه وينفعل أشكالا من الانفعال لكل متصل به يأخذ بتوارد أنواع التأثيرات هيئات مخصوصة تثبت فيه مستتعبة لوازماها حتى تصبح كأنها من أصل خلقته لكثرة ماوردت عليه وهي التي نسميها ملكات ادراكية وعلوما ثابتة في النفس لا تزايها ويتبعها السجايا والطبايع والاخلاق النفسانية الملائمة للملك الملكات الادراكية ويلزمها الافعال البدنية المعبر عنها بالعادات

فليست الاخلاق والعادات الا توابع ومستلزمات للعلم والادراك الذي هو أثر في جوهر الروح يتبعه الاثر الفعلي فان عرض لافس مؤثر أو وقف على أبواب الادراك وارد غريب عن ملكاتها السابقة وبعيد عن الهيئات الادراكية التي أخذ الجوهر شكلها عسر على الذهن ادراكه وتعسر على النفس فهذه ومانعت الاعضاء البدنية أثره فهذه الاخلاق والملكات ناشئة عن كثرة توارد الانفعال النفسي الادراكي من نوع واحد حتى صارت هيئة للنفس تصدر عنها الافعال الجزئية الملائمة لها كلما عرض عليها أثر جزئي من نوع الهيئة الكلية فسجية الكرم مثلا ثبتت في نفس الكرم لكثرة انفعال عقله وادراكه بصور الغايات الشريفة التي تتبع الكرم والفوائد الجليلة التي يكتسبها باذل المال أو باذل الهمة في سد حاجات المحتاجين فيتكرار هذه الصور والادراكات على العقل وصدور الاثر الارادي عنها وطول الزمن على ذلك تمكنت في النفس هيئة مخصوصة ادراكية وهي اليقين الذي خالط الروح بأن الكرم جميل مفيد ويتبعها انطباع

النفس بالنهي (كذا) التام لحركة الاعطاء وايصال الخير الى من يحتاج اليه فاذا أخطر ببال الكريم وصاحب هذه السجية التي تولدت فيه عن انتقاش نفسه بصورة فائدها فعمل لبخيل مناع للخير رأيت عقله يبعد عن ادراك هذا الفعل ويجد من روحه انقباضاً وتعاصياً عن الانفعال به بل يجد جوهر عقله يطارد هذا الانفعال الذي تجلبه احدى الحواس أو يذكر به راوي العمل وحاحيه فاذا كاف صاحب هذا الخلق بأن يعمل عمل البخلاء رأى من نفسه بعد الاباية الادراكية والمصادرة العقلية انحطاطاً بدنيا وارتباطاً في الاعضاء حتى كأنه يجد عاقداً يعقد كل طرف بآخر ومانعاً يمنعه من نفسه عن تحريك عضلاته بل يحس من ذاته كأن القوة المحركة الى هذا العمل الخبيث فاقدة (كذا) بالكلية وهكذا يقال فيمن تعودت نفسه ادراك غوائل الفقر والحاجة وتكاثرت عليها الانفعال بصورة العجز والضعف عن الكسب وتبهاً جوهره الادراكي بصورة الانخدال والانهمزام من صدمات الحوادث فهذا الذي أحاط بادراكه جميع المزعجات تراه قد رسخ في قوته الروحية أشكال من هذه الانفعالات وانطبعت نفسه ومبادي الحركة فيه على الميل الى ما يلائم ادراكه الثابت فهذا الراسخ هو ملكة العلم بفوائد البخل والامسك عنده وهذا المنطبع سجية البخل وعنهما تصدر الارادة بالافاعيل الناقصة التي هي عنوان هذه الملكة وتلك السجية ولئن ذكر لصاحبها طرف من أحاديث البر والاحسان وما ينشأ عنهما من الفوائد لمن تحلى بهما رأيت ينفر من ذلك نفور الوحش ويطلب سد أبواب الادراك على نفسه حتى يتكدر خاطره ويتألم بهذه الصور الرديئة المستبشعة

من جملة هذه الملكات التي تتركز في جوهر النفس المدركة ملكات الصناعة كالكتابة والادارة والرسم والحدادة والنجارة وغير ذلك من أنواع الصنائع التي ترسم في ذهن المدرك صورها الآتية اليه من احدى الحواس مقترنة بما يلزم تلك الصنائع من الفوائد والثمرات التي يجتنيها العامل فيها وتارة لانآتي اليه صورة الصناعة من طرق الحاسة ولكن يضطره الاحساس المؤلم (مثلاً) العارض له من المؤثرات الجوية الى طلب الخلاص منه فيندفع الى التأمل في الموجودات المحيطة به لعله يجد منها ملجأً فينفعل بصورة من صورها على هيئات مختلفة انفعالا يلائم الانفعال

الاصلي أعني طلب الخلاص من الالم فيتحرك للعمل فيها على غير انتظام ولا حالة تمام وكال في مبدأ الامر ثم يلجوه ركوز الفائدة المقترنة بهذه الهيئة ولزوم الحاجة لمداومة الاعمال فيها الى جبر الاعضاء والآلات البدنية على حركات واهتزازات خاصة ان كانت الصناعة بدنية حتى تلين تلك الاعضاء وتكون في غاية المطاوعة لهيئة الروح المدرك أعني أنها تكون في حركاتها مثالا لما ارتسم في الروح من الهيئة التي رآها أو لمسها مثلا مع لازمها من الفائدة والغاية الملائمة حيث أثر ارتسامها في الروح أثرا خاصا وبه سرى في الاعضاء على هيئة وكيفية خاصة ويصعب أول الامر ان تكون على طبق ما ارتسم من كل وجه ولكن باستحكام الاثر ومداومة العمل تنطبع الهيئة بنامها في الاعضاء كما انطبعت في مركز الادراك ومثل ذلك الهيئة المتخترعة التي دعت للضرورة الى ارتسام الذهن بها

فان كان العمل غير بدني كالادارة والسياسة مثلا من الاعمال الفكرية التي لا يراد من العامل فيها سوى تأليف صور فكرية معقولة تنطبق على الواقع ويمكن بالسهولة الاجراء على مثالها وهو مانع عنه في اصطلاح الحكومة بالتنفيذ فلذلكها انما تثبت في العقل وتنطبع في الروح حتى تكون كهيئة فطرية له كما في سائر المللكات بتوارد صور كثيرة مختلفة الانواع والاشكال من صور المضار والمنافع والمصالح والمفاسد ثم يوجد عنده افعال وتأثر بغاية وداعية تبعثه على المقارنة بين تلك الصور والحركة في تطلب لوازمها الكامنة فيها فاذا استحكمت هذه الغاية في النفس صيرت الروح كالبحر المائج والاشكال العلمية أمواجه أو كالضياء لا ينفك عن الحركة يولف بين عدد من الصور ثم يفرق بينها ثم يجمع بين المتفرقات في نقطة ولا تسكن له حركة حتى يستقر في متقى المنافع وهي الصورة المنطبقة على غايته الملائمة له أي التي تأثر وانفعل بها فانبعث لطلبها بحكم ذلك الانفعال وفي مبدأ الامر لا تأتي هذه الحركات بالمطلوب على وجه السرعة لكن متى استحكم في الروح الاثر الباعث على هذا العمل الفكري استمرت الحركة العقلية مرة تهاذي الغاية وأخرى تنحرف عنها فتحفظ للانحراف أثرا يبعدها عنه مرة أخرى حتى يكون الانجاه الى وجهة الطلب كقطع جبلي في هذا الجمال في القول ربما

نأتي على تفاصيله فيما بعد

ومن تأمل حال سير الانسان بل طريق ترقيه وتدنيه في أعماله واختلاف عاداته وأخلاقه واعتقاداته وكافة شئونه وأنه قلم يتفق جيلان من الناس بل قبيلتان بل فخذان على استحسان شيء أو استقباحه بل اذا تنزلنا الى النظر في الجزئيات رأينا هذا الاختلاف بين كل شخص وشخص حتى المولودين في بيت واحد هذا يستحسن شيئاً وذلك يستقبحه ويستهجنه ومن يدقق نظره في ذلك يوافقنا على ان هذه الاحوال الادراكية التي تتبعها الملوكات والاعمال التي نسميها بالعادات إنما منشأؤها الافعال من المؤثرات الخارجية التي تختلف على الشخص باختلاف موقعه وما يحيط به من مؤثرات الطبيعة ومن يكتنفه من أبناء جنسه وما ينشأ عليه من نوع الأكل والمشرب والملبس والمسكن وما يطرق أذنه من الاصوات ساذجة ولفظية مستعملة ومهملة وما يراه من الصور والاشكال متعاقبة بعضها أثر بعض وما يذهب اليه ادراكه من جميع ذلك مستقبلاً ومستتبهاً لوازمه فان جميع ذلك يتشكل به الروح المدرك ويكون هيئة فيه وما تكرر منه ثبت شكله فيه أي انطبع الروح بطابعه أي صار الروح على ذلك الشكل فهو في حركته الطبيعية يكون على ذلك المثال وهو مانع من تقرر الملكة وثبوت العادة ومالم يتكرر يذهب أثره بغلبة بقية الاشكال عليه ويعرف العلماء الملكة بهيئة راسخة في النفس تصدر عنها الافعال بدون فكر ولا روية وليس مرادهم من كونها بدون فكر ولا روية انها غير ارادية بالمرّة أو انها رمي بدون رام تارة يخطئ وتارة يصيب ولكن مرادهم ان الروح ينطبع عليها فالارادة موجهة الى ما يكون على مثالها بدون احتياج الى جولان بين الصور وترجيح بعضها على بعض وبعد تمكن الملكة في النفس وانطباع الفكر أو الاعضاء على محاذاتها في الحركة يكون من الصعب بل ربما كان من المتعذر ان يتحول الانسان عنه الا بقاهر تشد وطأته على النفس فيوصل اليها من المؤلمات أو يخيل لها من الخوفات ما يؤثر فيها أثراً قوياً يلويها عن الاثر الأول ويقودها الى الاثر الجديد ثم يستمر ذلك أزماناً وان شئت قلت اجيالاً حتى تضمحل الهيئة الأولى وتثبت الهيئة الاخرى ومن ذلك الحديث الشريف (اذا

سمعتم ان جبل كذا انتقل من مكانه فصدقوا واذا سمعتم أن فلانا تحول عن خلقه فلا تصدقوا) يشير بذلك الى صعوبة الانتقال عن الاخلاق والعادات اثابته من تلقاء النفس بدون ان يضطرها لذلك قاسر أوزاجر وهيئات ان ينال المطلوب مع ذلك ومما يرشد الى ان تكرر الانفعال على النفس يحدث فيها هيئات فكرية وعملية ما حكاه عبد الوهاب (لعله عبداللطيف) البغدادي من حوادث سنة ٥٩٥ هجرية في مصر ان شدة القحط وقدم المطعومات في الديار المصرية بذلك الوقت اضطر بعض الناس لأكل بعض آخر لسد الرمق وإلهاء كلب الجوع وفشا ذلك فاستبشعته النفوس ونفرت منه حتى ان بعض الناس انزعج لهيئة أكل الانسان فمات من بشاعة المنظر ثم لما عم ذلك غالب الافراد زالت البشاعة شيئاً فشيئاً حتى صار من المؤلفات ان يأكل الرجل أحد أقربائه والمرأة ابنتها أو أحد أقاربها وكانوا يطبخون لحم الآدمي بالتوابل والبهارات كما يطبخون لحم الحيوان فانظر الى الانفعال الذي حدث في النفس من غائلة الجوع كيف غلب على الاعتقاد وكان في غاية الاستحكام وانقلب القبيح حسناً الا انه بعد زوال العارض عاد الاعتقاد الأول الى مكانه لارتفاع الضرورة لكن لم يعد الى حالته الأولى على وجه الكمال الا بعد أزمان

نظن انك التفت فيما ألقينا اليك من المقدمات السابقة الى ان العلم والإدراك الذي يستولي على الإرادة إنما هو الانفعال بالصور الواردة الى الروح الإدراك اذا قارنها الانفعال بصور الغايات اللازمة لها ملائمة لذي الروح أو منافرة ولا يتحرك بها الروح على هيئتها الثابتة فيه منبثاً في الأعضاء أو ما تجافي مركزه الفكري لينفعل بصور مركبة من الانفعالات البسيطة أو المركبة الا اذا لم يعارضها انفعال يلوي الروح الى ضد الحركة التي تطلبها تلك الانفعالات اذ عند المعارضة لا يكون للهيئة الأولى تمام الثبوت والركوز في النفس ومني قوى ارتسام الصورة الإدراكية وتغلب على سائر الإدراكات الاخرى وكان الارتسام بمطلوب أو مهروب منه اندفع الروح الى الحركة كما مر بك بيانه وعن ذلك تكون الاعمال التي باستمرارها تثبت الملكات أو العادات

ويوجد علوم يسميها أرباب الاصطلاح علوما وأرى لهم في التسمية حقاً لأنها نوع من التأثيرات النفسية الإدراكية وإن كانت لا أثر لها في باب الإدراك يصح اعتباره إلا من وجه أنها اشكال مؤلفة من خواطر النفس لا غير وهي ما تخيله التعاليم والألفاظ الموضوعية بازاء معان يمثلها المعلومون للذهن بالتمثيل والتشبيه ويقربونها إلى الجوهر الدركي بتذكير بعض المألوفات فيحدث منها في الخيلة أنواع من الأشكال بسائط ومركبات أي يتشكل الجوهر الدركي بهيئات تناسب التقرينات التعليمية تحضر عنده بالتذكير وضم بعض المذكورات إلى بعض وذلك كما يوصف للأعمى هيئة الافلاك والكواكب وحركاتها ويمثل لذلك بكرة الصبيان موضوعة في مستديرات كمحيط القر بال إلا أنها في السعة على نحو كذا وفي التدوير على كيفية كذا الخ الأوصاف وكما يقرب للبخيل حقيقة الكرم وكيفية بذل الحق لصاحبه ومنحه لمستحقه وصرف ثمرات الكسب فيما يوثل المجد ويعلي شأن الحسب وأشبه ذلك فإنه يتمثل في ذهنه هيئة مركبة من مجموع الأوصاف التي كانت بسائطها ثابتة فيه وإنما التعريف أحدث هيئة اجتماعها مسماة باسم واحد هو الكرم مثلاً إلا أنها لا تتجاوز المركز الإدراكي فهي ترتسم فيه من حيث التمثيل والتعليم فإن تواردت عليها الأشباه والمذكورات من وجه التعليم والتذكير بقيت ثابتة ويقال لمن هي عنده أنه عالم بتلك الصفة وقادر على تعليمها كما أخذها على النحو الذي حضرت به عنده ومن ذلك كل ما يتعلمه الشخص من القواعد العلمية قصد أن يتعلمها أي أن توجد في جوهر روجه صور مؤلفة على نوع خاص من الائتلاف وترجع إلى وجهة واحدة في الجنس كعلم النحو وعلم العروض مثلاً أو فن الاخلاق والسياسة

وقد يحصل عند الشخص من ذلك شيء يسمى بالملكة لكنه ليس من نوع الملكات التي بينا كيفية حدوثها عند النفس فيما سبق من الكلام وإنما هو نوع من رسوخ تلك الصور في المدركة بحيث إذا وجد جزئي من الجزئيات يرد على الذهن من الخارج فربما ينتبه المدرك إلى كون هذا من نوع بعض الصور وليس من نوع البعض الآخر ويكون لصاحب هذه الملكة أنه يولد في عقله من

هذه الانفعالات انفعالات أخرى تحاكيها محاكاة تامة أو غير تامة ويطابق بين الأصل وما تولد عنه كل ذلك في عقله لايراعي فيه الانطباق على الواقع أو عدم الانطباق فان لاحظ ذلك فهو على شريطة ان لايبين الاصل الذي تلقاه فهذا اما هو نوع من حركة الروح على مركز واحد حركات متشابهة أو متعاكسة ومن تأمل في المسائل الاختراعية التي استولدها بعض علماء الفنون العقلية وذهبت عقولهم خلفها فاستحدثوا لها في أذهانهم لوازم لم يقفوا فيها عند حد تبين حقيقة ما قلنا فمثل هذا النوع من العلوم لا يثر في الإرادة شيئاً سوى انه يحولها الى إجاله الفكر فيه فلا يكون له همُّ الا تاليف الاشكال العقلية وتفريقها وهذا نوع من تسلط الإرادة على الادراك بعد تسلطه عليها

مثلا الذي درس علم التهذيب لقصد الوقوف عليه ليس الا بعد ان صار كهلا بين قوم بعيدين عن التهذب وتلقفت احساساته من أحوالهم ما انطبع عليه روحه الدراك وسرى به في الدم والعروق وجرت به الاعمال العضوية ومرنت عليه حتى صارت في النفس ملكة واللبـدن عادة وحفظ جميع ما حوته الكتب الشهيرة في هذا الفن فان قواعد الفن وصور أصوله تكون جاثمة في مركز الادراك واشكلها ثابتة فيه لكنها حيث لم تقترن بغاية هذا التحصيل وهو العمل وانما كان القصد مجرد العلم حتى يمكنه ان يعلمه ويلقيه كما تلقاه فان العقل والنفس يقفان به عند هذا الحد فقط فاذا انضم الى ذلك غايته وهي ان يقدر على تأليف جمل منه وفصول يعبر عنها باللسان أو بالكتابة تحرك الروح في لسانه وتضامنت الاشكال في مخيلته على الترتيب الذي يريد في عقله فيتمكن من ذلك بالتعويد حتى يصير هذا النوع من العمل ملكة له وتكون الإرادة تابعة للادراك هذا النوع من التبعية

ومثل هذا من يتعرف أعمال العبادة المسيحية وهو مسلم أو بالعكس لا يقصد العمل ولكن لقصد ان يتكلم أو يكتب ما يدل على تلك الاعمال وفروعها فالإرادة تابعة للانفعال الادراكي بالداعية والباعث الى الحركة فان كانت الداعية مجرد التصور وقفت عنده أو انضام الترتيب والتأليف في الالفاظ والارقام

تجاوزت الى هذه الغاية وهي الى هذا الحد لا تفيد في حال الشخص وصفاته الحقيقية التي هو بها جزء من هذا الوجود شيئاً يعتد به وأرباب هذه الحالة يعرفون في الاصطلاح باللفظيين تشبيها لعلومهم بأشكال الهواء والأصوات المقطعة المسماة بالالفاظ لا أثر لها الا بالعرض

ومن ذلك الذين يشكلمون كثيراً بالحكم العالية والأصول النظامية الجليلة لكنهم في أعمالهم لا يراعون شيئاً مما يقولون وما ذلك الا لكون تصوراتهم انما هي تأليف أشكال خيلها لهم الممثلون والمقربون فوجد لتأثر أذهانهم بأنواع من الارتياح للطف الاشكال المولفة منها في حد ذاتها فانبسطت نفوسهم لاستنباطها وانضم الى ذلك احساسهم باجلال الناس لمن ينظمها في سلك العبارات أو الأرقام فوجهوا الإرادة الى ذلك فلم ينالوا سواء. وعلى هذا المثال من يعرف قواعد النحو بالتمثيل والتقريب الا أنه اذا قرأ لا يتذكر شيئاً منها واذا كتب جال قلمه خارجاً عن دائرتها وأولئك هم المبتدئون الواقفون على عتبة التعليم ولا يصح أن يقال لهم بالحقيقة عالمون بشيء مما يقولون ولوعلم النحووي مثلاً قواعد النحو حق العلم أو عرف السياسي أصول السياسة كمال المعرفة وانطبع بها روحه الإدراك على النحو الذي أسلفنا تتبع ذلك الانفعال غايته فان الغاية من الأصل المدرك التي ما وضع الأصل الا لها من لوازمه لا تفارقه فعدم تمكنها في النفس دليل عدم تمكن الاصل نفسه فيها ومتى تمكنت الغاية انطلق الروح في الآلات العلمية لتحصيلها فيعوج في السير ويستقيم حتى ينطبع شكل الاصل وغايته في الروح المنيث في كافة الاعضاء فنصدر لذلك الأعمال تابعة للاصل الثابت بدون عسر وهنالك تمام العلم وكاله أفلا يرى ان مدرس السياسة عند ما يقبض على زمامها لاجراء العمل بما علم يلتبس عليه الحال الواحد لا يدري يطبقه على أي أصل من الاصول الثابتة عنده أليس هذا جهلاً بنفس الأصل حيث لم يقف على نوع جزئياته لكنه بعد التطبيق وظهور العاقبة الحميدة يجد من نفسه أنه فتح له باب جديد من العلم وكذلك ان حدث منه أثر رديء فهذا الارتباك الاول والرشاد الثاني شاهدان على نقص الإدراك قبل تمكن الملكة النفسية

والاعمال التعويدية وكما له بعد تمكنهما ومن هذا القبيل أحوال كثير من الناس يزعمون أنهم يعتقدون شيئاً ويعلمونه حق العلم بل ويدافعون عنه ولكنهم يعملون على خلاف ما يقتضيه مع زعمهم التيقن بأن النجاة في اتباعه والهلاك في العسول عنه وقد تبين أنهم في الحقيقة لا يعلمون

الادراك الراسخ في النفس الذي يكون هيئة ثابتة لها وملكة تصدر عنه الافعال بدنية كانت أو فكرية لها أثر واقعي لا مجرد الاثر التصوري هو المعروف في الاصطلاح بالاعتقاد لانه بانطباعه في جوهر الروح المدرك كانه عقد في النفس بحيث يعسر انحلاله وزواله والنفس بكثرة مزاولته وتكرار انفعالها به قد اعتقدته وارتبطت به وما عدا ذلك هو الخيل والموهوم يحوك في النفس وتظهر صورته فيها عند عروض مذكراته وموجبات انفعال النفس به فاذا هب الروح لحركته الذاتية بورود الموجب رأيت المعتقد قد احتوى على الروح فتحرك به وتوجه الى وجهته وزال ذلك الموهوم كأن لم يكن وانما مثل الموهوم في النفس مع المعتقد كمثل جسم غريب حل في شكل الشعلة المخروطية فأثر في انحرافه عن المخروطية فاذا قويت الشعلة حتى أحرقتة عادت الى تمام الشكل ولا يحصل انحراف الشكل الا عند عروض عارض آخر فالصور الاعتقادية في الروح تكون كالأشكال الطبيعية وما دونها لا يؤثر فيها أثراً حقيقياً ثابتاً وفي ذلك يقول نبينا صلى الله عليه وسلم (لا يزني الزاني وهو مؤمن ولا يسرق السارق وهو مؤمن) ولست أريد تفصيل ذلك تأمل الى من جلس امام منبر الخطابة يستمع الوعظ بكل انصات ويهز رأسه هزة الهائم بحمال ما يسمع وتارة يذرف الدمع من عينه لما حاك في نفسه من الانفعالات الروحية التي أحدثتها مذكرات الخطيب ويكون ذلك الوعظ في تخفيض شأن الدنيا وهوين أمر الحياة وان كل طويل فيها قصير وكل سرور فيها مشوب بمكدرات وشرور وان لا غنيمة فيها سوى ما مقدمه العاقل بين يديه من طيبات الاعمال ليكسب بها نعيماً مؤبداً حتى اذا انفض المجلس وانتشر القوم لطلب الرزق رأيت ذلك الباكي وهو يتقرب الى موارد الشهوات ويدنو من مساقط

الدينيات ويستعمل لذلك أنواع الحيل التي طبعها في جوهر ادراكه فواعل الاحتياجات التي ألمت به أو وردت عليه صورها ملمة بغيره مع العجز عن افتتاح طرق الكسب من وجه يلائم مقال الواعظ ويتفق مع ارشاد المرشد فيكون عمله على ضد ما يزعم اعتقاده حيث ان هذه الطرق لم تألف احساساته ولم تنتقش في مداركه على النحو الذي يبث الروح في الاعضاء فيحركها على مشاكلة تلك الزسرم الجلية فقد وضع لنا من هذه الآثار التامة للدراك ان الصور التعليمية التي تحضر الذكرة دائماً أو في بعض الاحيان غير مصحوبة بالغاية العملية لانعد في الحقيقة معتقدات وانما هي مخيلات تظهر في جوهر النفس عند عروض المذكرات فقط ثم لا يترتب عليها أثر حقيقي في جوهر الروح يثبت فيه ولكن ينشأ عنها اعراض وقتية تبين من هذا الذي أوردناه من التقريبات في باب تأثير الادراك في الإرادة أنه يع جميع الادراكات والارادات سواء كانت مطابقة للصواب جالبة للسعادة الحقيقية مانعة من الشقاء أو لم تكن كذلك وان ذلك تابع لما يصل الى المدرك من المؤثرات الخارجية التي تحدث فيه آثاراً تناسب هيئتها التي وصلت بها اليه ولم يخرج في ذلك الانفعال الادراكي عن سائر الانفعالات الطبيعية الا من حيث الكيفية والنوع المحصوص باختلاف العادات والملكات والاخلاق والاعمال في النوع الانساني تشهد لنا بناء على تلك المقدمات السابقة أن منشأها هو اختلاف الآثار الواردة على مركز الادراك من الأكوان الطبيعية المكتنفة بالمدرك وعوارضها وهذا الاختلاف إما أن يكون لتباين الحوادث وتخالف الطبائع الخارجية من حيث الخلقة الاصلية والوضع الالهسي واما أن يكون لاختلاف حالة المدركين أنفسهم في قبول تلك التأثيرات من جهة الاستعداد المجبول عليه جوهر الادراك أما الوجه الثاني أعني اختلاف الآثار لاختلاف الاستعداد الممنوح بأصل الخلقة لجوهر الادراك فهو يأتي من حيث التركيب الجسماني والعناصر الداخلة فيه والوضع الذي أبدعته يد القدرة الالهية عليه فعناصر التركيب البدني وجودتها ورداءتها ووضعها فيه وكيفية تأليف الاعضاء ونسب الاجزاء بعضها لبعض مما له دخل في ظهور الجوهر الإدراكي بآثاره وبعبارة أخرى في شدة انفعاله بالمؤثرات

الواردة عليه وضعفه وفي قوة استثبات الصور المنفعل بها وضعف تلك القوة وغير ذلك من صفات الإدراك التي لانحفي على مدرك وهذا الدخول مما لا يشك فيه وأما الوجه الأول أعني اختلاف الآثار بواسطة تباين الحوادث وتخاف الطبائع الخارجة عن ذات المدرك فهو يظهر من اختلاف العادات والاختلاف والإدراكات باختلاف الاقطار والبقاع وتنوعها بتنوع أحوال التربة والجو الذي تنشأ وتمو فيه ويمتاز بعضها عن بعض بتميز حالة التمثيش وطرق اكتساب الرزق ووقاية الوجود من الخطر والاحساس من الألم التي تستدعيها طبيعة الاراضي فالذي يقتضيه كسب الرزق الضروري لحفظ الحياة من طريق الصيد البري وتدعو اليه المحاماة عن النفس بمداغة الوحوش الكاسرة والسباع الضارية أو بيعت اليه التأثير من شدة البرد وبيوسة المنشأ وجذب المكان كل ذلك غير ذلك الذي يقتضيه كسب الرزق من طريق الزراعة والفرار من المهلكات بالاستكنان في بعض الاكواخ لسهولة الارض وخلوها من المفترسات وبعدها عن المؤثرات الجوية الشديدة وتوسطها في الحر والبرد وما يلائم ذلك من موجبات السهولة في تطلب الارزاق فان تأثير الجوهر الدراك بالاطار الاول يبلغ من الشدة مبلغا يحدث فيه سرعة الحركة الروحية التي تتبعها الحركة البدنية على الحياء توصل الى المطلوب أعني التخلص من تلك الاخطار وتكرارها وكثرة تواردها على النفس تودع فيها ملكة عملية تصدر عنها الاعمال على ذلك النحو المتقدم مثلا اذا نشأ الانسان في أرض جبلية كثيرة الغور والنجد غزيرة الغابات وعرة المسالك قليلة الخصب تسكنها أنواع الحيوانات المفترسة ومع ذلك تكون في جو شديد البرد كثير الصواعق سريع القلب فلا ريب ان الانفعالات التي تعرض على احساساته من هذه الاشياء المكتنزة به وكثرة ما تدعوه الى المقاومة والمصادمة واحتمال المصاعب في دفع المصائب وتبجشم المشاق ليخلص بها من المهلكات ونحو ذلك تجعل في الاعضاء قوة على العمل ثم ترسخ منها في النفس ملكة الشجاعة والاقدام ونتج بذلك قوة الإدراك الى البراعة في السكر والفر وفنون الدفاع والهجوم وثبت فيها ملكة الحذر والتيقظ وملكة النشاط في السعي لطالب المعيشة وملكة النبات في

العزائم وملكة حب التألف والاجتماع للتعاون على دفع المضار وجلب المنافع المشتركة وملكة القسوة والتهاون بالدماء وعدم الاكتراث بانلاف النفوس وازهاق الارواح وملكة الغضب الشديد الذي يحمل صاحبه على شدة الانتقام وملكة القدر التي تتولد دائما من الاضطراب وعدم الاطمئنان للحوادث ويتبع هذه الملكات ملكات أخرى ويتبع الجميع عادات وأفعال تناسبها .

وهذا بخلاف ما اذا نشأ في سهولة العيش وخصب الارض وهشاشة التربة وخلوها من الغابات واستواء سطوحها واعتدال هوائها وصفاء جوها وخلوها من الحوادث المحيفة فان ذلك لا يحدث في النفس الا صوراً لطيفة تتبعها ملكة اللين والمساهلة والكرم وحسن الطاعة وسلامة النية والنزاهة عن الضغائن والبعد عن الطمع والرضا بالقليل وما يتبع ذلك من الصفات التي لا تخلف عن مناقشتها الواقعية الا بالطوارئ العرضية التي نذكرها فيما بعد فانظرها

(يقول جامع الكتاب) ان التقيد وعد هنا باتمام هذه المقالات الفلسفية التي نشرت في خمسة أعداد وقد تصفحنا سائر اعداد الوقائع المصرية التي صدرت بتوقيعه فلم نجد فيها هذه التهمة ولعله شغل عن أمثال هذه المباحث الدقيقة في الفلسفة بحوادث الثورة العراقية التي نجمت في تلك الايام واضطر لتقاومتها كما علم من بعض ما سبق ويعلم من المقالات الآتية في الشورى وغيرها

وكتب في العدد ١٢٦٧ الصادر في ٦ محرم سنة ١٢٩٩ - ٢٨ نوفمبر سنة ١٨٨١

الحياة السياسية

قرر فيما سلف ان لا بد لذوي الحياة السياسية من وحدة يرجعون اليها ويجتمعون عليها اجتماع دقائق الرمل حجرا صلدا وان خير أوجه الوحدة الوطن لامتناع الخلاف والنزاع فيه ونحن الآن مبنون بعون الله ماهية هذا الوطن وبعض ما يجب على ذويه

الوطن في اللغة محل الانسان مطلقاً فهو والسكن بمعنى: استوطن القوم هذه الارض وتوطنوها أي اتخذوها سكناً وهو عند أهل السياسة مكانك الذي تنسب اليه ويحفظ حقه فيه ويعلم حقه عليك وتأمز فيه على نفسك وآلك ومالك ومن أقوالهم فيه لا وطن الا مع الحرية وقال لا بروبر الحكيم الفرنسي لا وطن في حالة الاستبداد ولكن هناك مصالح خصوصية ومفاخر ذاتية ومناصب سمية وكان حد الوطن عند قدماء الرومانيين المكان الذي فيه للمرء حقوق وواجبات سياسية

وهذا الحد الروماني الأخير لا ينقض قولهم لا وطن الا مع الحرية بل هما سيان فان الحرية إنما هي حق القيام بالواجب المعلوم فان لم توجد فلا وطن لعدم الحقوق والواجبات السياسية وان وجدت فلا بد معها من الواجب والحق وهما شعار الأوطان التي تفتدى بالاموال والابدان وتقدم على الاهل والحلان و يبلغ حهما في النفوس الزكية مقام الوجد والهيمن

أما السكن الذي لاحق فيه للسكن ولا هو آمن على المال والروح فغاية القول في تعريفه أنه مأوى العاجز ومستقر من لا يجد الى غيره سبيلاً فان عظم فلا يسر وان صغر فلا يساء قال لا بروبر السابق الذكراً المأفأة من ان يكون وطني عظيماً كبيراً ان كنت فيه حزينا حقيراً أعيش في الذل والشقاء خائفاً أسيراً

على ان النسبة للوطن تصل بينه وبين الساكن صلة منوطة بأهداب الشرف الذاتي فهو يغار عليه ويذود عنه كما يذود عن والده الذي ينتمي اليه وان كان سيء الخلق شديداً عليه ولذلك قيل في مثل هذا المقام ان ياء النسبة في قولنا مصري وانكليزي وفرنسي هي من موجبات غيرة المصري على مصر والفرنساوي على فرنسا والانكليزي على انكلترا فأنكر ذلك بعض الناس وكان في الامر لاشك سوء فهم أوسوء افهام

وجملة القول ان في الوطن من موجبات الحب والحرص والغيرة ثلاثة تشبه ان تكون حدودا الاول انه السكن الذي فيه الغذاء والوقاء والاهل والولد والثاني

أنه مكن الحقوق والواجبات التي هي مدار الحياة السياسية وهما احسان ظاهر بان
والثالث انه موضع النسبة التي يعلوبها الانسان ويعز أو يسفل ويذل وهو
معنوي محضاً

فاذا تقرر ذلك مما قلناه وجب على المصري حب الوطن من كل هذه الوجوه
فهو سكنه الذي يأكل فيه هنيئاً ويشرب مريئاً ويبيت في الاهل أميناً وهو
مقامه الذي ينسب اليه ولا يجد في النسبة عاراً ولا يخاف تعبيراً وهو الآن موضع
حقوقه وواجباته التي حصلت له بما أوضحناه من دخوله في دور الحياة السياسية
ولاحب على أهله شروط محفوظة عند الاذكاء مجهولة عند المدعين الاغبياء
فما تنفع فيه الشكوى ولا تقدم لصاحبه دعوى الا ببيان من الواقع وشاهد
من الفعل وما أحسن ما قيل

دلائل الحب لا تخفى على أحد كحامل المسك لا يخلو من العبق
وله مراتب مناسبة لموضوعه موافقة لمنشأه فهو في الكرامة كريم وفي
النبالة شريف وفي المآثر حميد وفي العز والمجد رفيع وفي الوطن جامع
لكل هذه الصفات فان قيل في حب الحسان

أحبك حباً لو تحيين مثله أصابك من وجد على جنون
لطيفاً مع الاحشاء امانهاره فدمع وأما ليله فأنين

فقل في حب الاوطان

أحبك حباً لو تحيين مثله أصابك منه ياديار تغير
شديداً مع الاشواق امانهاره فسعي واما ليله فتفكر

ولقد كان بعض الناس يحاولون خلع الشعار الوطني عن ذوي الحقوق
والواجبات في مصر وإلباسهم جميعاً لباس الجهالة والذل ولكن أبت الحوادث
الا ان تثبت لنا وجوداً وطنياً ورأياً عمومياً ولو كره المبطلون على ان منهم فئة
لا يزالون يؤلمون اسماعنا بما يكررون من سفاسف القول من مثل اننا تعودنا احتمال
الظلم والحيث وألغنا الخدمة والرق فلن يستقل لنا رأي ولن نهتدي سبيل الحرية
كأنما هم لا يعلمون ان أهل الغرب أجمعين تعودوا مثل ذلك الحيف أعصاراً

وكانوا في قديم الايام على ضروب من الرق وانخفاض الجناح وأن العالم بأسره كان فريقين أحرارا يظلمون وعبيدا يطيعون أولم يكن في بلاد الفرنسيين من قبل هذا العهد صنوف من الرقيق يشتغلون في الارض لغيرهم وياعون كاتباع العجاوات أولم يقل كثرتهم فولتير في وسط الدائة السابقة لايرال في بلادناستون أعا أوسبعون ألفاً عبيدا لارهبان

فما بال هذه العادة لم تمنع الفرنسيين من الوصول الى ما أدركوه من رفعة المقام وان يروا أمثال تيارس وجريفي وغامبتا في أبناء الذين كانوا من قبل عبدا نأرقاء

ولئن كان من فضل هذه المائة ان يكتب في صدر تاريخها تحرير أرقاء العصر السالف فانقد رجونا وحقق الله هذا الرجاء ان يختم ذلك التاريخ بتحرير الذين كانوا أرقاء في هذا العصر وحسن ذلك ابتداء وحسن ذلك ختاماً

وكتب في العدد ١٢٧٩ الصادر في ٢٠ المحرم سنة ١٢٩٩ - ١٢ ديسمبر

سنة ١٨٨١

الشورى والاستبداد

تكلمت بعض الجرائد العربية في الشورى وأشرت بت بعض جملها عبارات في الاستبداد أوهم ظاهرها وعمومها بعض الناس ان القصد منها مدح الاستبداد الذي عرفوا من آثاره ما بكرهون ولقوا من جرائمه ما لا يودون فشددوا على محررها نكيرا وولوا عنه نفورا وقالوا مدحه ظلما وزورا وكان في ذلك من المحطئين وان مانعه في حضرة هذا المحرر من حسن القصد وسلامة النية يجعلنا في ريب من ان يكون الاستبداد ممدوحاً له ومقصوداً بالثناء عليه بل مانعته فيه من التقه في الدين والنضلع منه بصور لنا ان ليس المقصود من تلك العبارات ما تدل عليه ظواهرها التي أوقعت في أوهام كثير من مطالعيها خلاف ما عليه شرعنا فاردنا ان ندفع هذه الأوهام ببيان حقيقة الشرع في هذا الموضوع

مؤيدين ما نقول بالآيات الشريفة والاحاديث المنيفة وأقوال الأئمة الأعلام من علماء المسلمين رضي الله عنهم فنقول

ان الاستبداد يقال على معنيين أحدهما تصرف الواحد في الكل على وجه الاطلاق في الارادة ان شاء وافق الشرع والقانون وان شاء خالفهما فيكون اتباع النظام مفوض اليه وحده ان أراد قام به وان لم يرد لا يؤخذ عليه وهو الاستبداد المطلق وثانيهما استقلال الحاكم في تنفيذ القانون المرسوم والشرع المسنون بعد التحقق من موافقتها على قدر الامكان وهذا بالحقيقة لا يسمى استبدادا الا على ضرب من التساهل وانما يسمى في عرف السياسيين توحيد السلطة المنفذة ومن تتبع الشريعة الفراء ونصوصها الواضحة ووقف على حكمة تنزيل الكتب السماوية وتدوين الاحاديث النبوية يرى أن الاستبداد المطلق ممنوع منابذ لحكمة الله في تشرع الشرائع ومعاند كل المعاندة لصريح الآيات الشريفة والأحاديث الصحيحة الآمرة باتباع أحكام الكتاب العزيز والاخذ بالسنة الراشدة فانه نبذ للدين وأحكامه وسعي خلف الهوى ومذاهبه وذهاب الى خفض كلمة الله العليا وخرق لاجماع السلف الصالح من المؤمنين اذ لم يبيحوا في جميع أطوارهم أن يتولى عليهم من يخالف الكتاب والسنة الى أحكام شهوته وهواه يشهد بهذا صيغهم في بيعة الأمر والعهد الى الولاية بقولون لمن يبايعونه بايعناك على ان تكون خليفة رسول الله تتبع سنته وتسلك بنا طريقته أو على ان تحكم فينا بما أمر الله وما سن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تر طائفة منهم ولا قوما ولوا عليهم أميرا على كونه يتبع هواه أو يعمل فيهم بما يراه وافق الدين أو خالفه ويدل عليه العهود التي كان يعهد بها الخلفاء الراشدون الى عمالهم في الاقاليم فانها كلها مشحونة بعبارات الوصية والحث على اتباع منهاج الشرع الشريف والحري على السنة الراشدة والوعيد على مخالفتها وأخصها عهد الامام علي رضي الله عنه الذي عهد به للاشتر النخعي حين ولاه أمور مصر ويؤيده أقوال الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم في خطاباتهم ومقالاتهم عند انعقاد المحافل كقول عمر رضي الله عنه بعد ان ولي الخلافة (أيها الناس من رأى منكم في اعوجاجا فليقومه: فقام بعض الحاضر بن

قائلاً (والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا) وبوكده ماسئلوه عليك من الآيات والاحاديث

اما المعنى الثانى وهو ان يرجع الأمر في تنفيذ الشريعة الى فرد واحد فهو غير ممنوع في الشرع ولا في العقل بل هما على وجوبه أما الشريعة فنصوصها متضافرة على وجوب نصب امام ينفذ الشرع القويم ويحفظ الدين المستقيم ويجري أحكامه العادلة على الرعية وأما العقل فلما في قصر التنفيذ على الواحد الفرد - أي اجراء الاحكام باسمه المخصوص - من الهيبة والرهبة اللتين تلزمان لتنفيذ الأحكام واذعان الرعية لها وانقيادها لما قضت به ثم ان هذا لا يسمى في العرف استيادا كما أسلفنا اذ صاحبه يكون مقيدا بالمرسوم محصورا في دائرة المشروع بحيث لا يجوز له الخروج عنها ولا تجاوز حدها والمستبد عرفا من يفعل ما يشاء غير مسئول وبحكم بما يرسم به هواه وافق الشرع أو خالفه ناسب السنة أو نابذها ومن أجل هذا ترى الناس كلما سمعوا هذا اللفظ أو ما يضارعه صرفوه الى هذا المعنى ونفروا من ذكره لعظم مصابهم منه وكثرة ما جلب على الامم والشعوب من الاضرار وحق لهم النفور والاشمئزاز اذ لم ينالوا من جرائمه الا وبالجملة ولم يلقوا من أحكامه الا انكالا بل شاهدوا النفوس تذهب فيه ظلما وتوكل فيه الاموال أكلًا وتسفك الدماء زورا وتدمر البلاد تدميرا فلا تريب عليهم اذ كرهوا سوقه في سياق مدح ولو مرادا به غير ما عرفوه

ولقد تبين لك مما قدمناه ان الشريعة لا تبجحه وانها توجب تقييد الحاكم بالسنة والقانون ومن البديهي الواضح ان نصوص الشريعة لا تقيد الحاكم بنفسها فانها ليست الا عبارة عن معاني أحكام مرسومة في أذهان أرباب الشريعة ولما لها أمدلولا عليها بنقوش مرقومة في الكتب ولا يكفي في تقييد الحاكم بها مجرد علمه بأصولها بل لا بد في ذلك من وجود أناس يتحققون بمعانيها ويظهرون بمظاهرها فيقومونه عند انحراف عنها ويحضونه على ملازمتها ويحشونه على السير في طريقها ومن أجل ذلك دعا سيدنا عمر رضي الله عنه الناس في خطبته الى تقويم معاساهم يكون منه من الاعوجاج في تنفيذ أحكام الشريعة فقال (أيها الناس من رأي

منكم في اعوجاجاً فليقومه الخ الاثر المشهور) وقال تعالى (ولتكن منكم امة
 يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون)
 اذ لا يخفى ان هذه الآية الشريفة عامة في دعوة الملوك وغيرهم على معنى أن تلك
 الأمة أي الطائفة من المسلمين تدعو الملوك وغيرهم الى الخير وتأمروهم بالمعروف
 وتنههم عن المنكر ليقوم بها الدين ولا يخرج أحد عن حده حاكماً كان أو محكوماً
 وليس الامر هنا للندب كما فهم بعضهم بل للوجوب والفرض على ما صرح به العلماء
 ويؤيده ان قيام تلك الأمة بذلك مما لا يتم الواجب المفروض وهو التقيد بالشرعية
 الالهية فيكون واجبا على حكم القاعدة عند فقهاء الشرع (ما لا يتم الواجب الالهى فهو
 واجب) وقالوا ان هذه الطائفة يجب تأييدها من أفراد الأمة وجوباً كفائياً على
 معنى انها ان لم تقم فيهم أئمت أفراد الأمة بجماعتها واستحقت العقاب برمتها فقد
 فرض الله على الأمة الاسلامية ان تقوم منها أمة أي طائفة وظيفتها الدعوة للخير
 والامر بالمعروف والنهي عن المنكر حفظاً للشرعية من ان يتجاوز حدودها
 المعتدون وصوناً لأحكامها من ان يتعالى عليها ذور الشهوات فينتهكوا حرمتها
 ويخلوا نظامها اذ تحرفهم عن العمل بها الا هو اذ تركوا وشأنهم ولم يؤخذ على
 أيديهم في الاسترسال مع داعيات الشهوات فلم يجعل الله الشرعية في يدي
 شخص واحد يتصرف فيها كيف شاء بل فرض على العامة ان تستخلص منها
 قوماً عارفين جلب كل ما يؤيد جانب الحق وتبعيد كل ما من شأنه ان يحدث
 خللاً في نظامه أو انحرافاً في أوضاعه العادلة

ولقد قلنا ان الملوك والسلطين داخلون تحت من يجب على تلك الطائفة
 ارشادهم وذلك لتضافر الأحاديث الصحيحة والأخبار الشريفة على وجوب
 نصيحة الأمراء قال صلى الله عليه وسلم « ان الدين النصيحة » ثلاث مرات
 قيل لمن يارسول الله قل « لله ولكتابه ولسواه ولأئمة المسلمين ولعلمتهم » وقال
 « ان الله يرضى لكم ثلاثا ويسخط لكم ثلاثا يرضى لكم ان تعبدوه وحده ولا
 تشركوا به شيئاً وان تعتصموا بحبل الله جميعاً وان تناصروا من ولاة الله أمركم »
 الحديث . قال العلماء والنصيحة للإئمة وأولياء الأمر هي معاوتهم على ما تكلفوا

القيام به فى تنبيههم عند الغفلة وارشادهم عند الهفوة وتعليمهم ما جهلوا وتحذيرهم من يريد سوء بهم واعلامهم باخلاق عمالهم وسيرتهم فى الرعية وسد خلتهم عند الحاجة ونصرتهم فى جمع الكلمة عليهم ورد القلوب النافرة اليهم والنصح لعامة المسلمين الشفقة عليهم وتوقير كبيرهم والرافة بصغيرهم وتفريج كربهم ودعوتهم الى ما يسعدهم وتوقى ما يشغل خواطرهم ويفتح باب الوسواس عليهم بل قال عليه الصلاة والسلام « ان الناس اذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك ان يعمهم الله بعقاب من عنده » فهذه الانبياء الشرعية وغيرها مما لم يسع المقام سرده تدل بصراحتها على وجوب رصد أعمال الولاة وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وردهم الى الشريعة الحقة عند الاعوجاج ومعلوم ان الأمة بتمامها لا يمكنها القيام بهذا فوجب اختصاص ذلك بمن تحم عليها - بمقتضى تلك الآية (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير) استخلاصهم منها عارفين بالواجب فيدعون اليه والممنوع فينهون عنه وكما كلفت الشريعة المطهرة جماعة المسلمين بمناصحة أولياء الأمور والاخذ على أيدي الظالم منهم وانقضاء طائفة من خيارهم للهداية والارشاد ووعدهم بقرب العقاب اذا لم يردوا الظالم عن ظلمه عند احساسهم به كذلك كلفت الولاة الأمور بأن يأخذوا آراء رعاياهم فيما ينظرون فيه من مظان المنافع ومجالها قال تعالى مخاطباً لنبىه الذي لا ينطق عن الهوى (وشاورهم فى الأمر) قال ابن عباس قد علم الله ان مابه اليهم حاجة ولكن أراد ان يستن به من بعده وقال بعض المفسرين ان الله تعالى لما علم أن العرب يثقل عليهم الاستبداد بالرأى أمر نبيه بمشاوره أصحابه كي لا يثقل عليهم استبداده بالرأى دونهم وقال المفسرون فى قوله تعالى (فاذا عزمتم فتوكل على الله) أى اذا عزمتم بعد الشورى فتوكل على الله فى تنفيذ الرأى وامضائه ومن هنا قال العلماء من أتبع ما يوصف به الرجال ملوكا كانوا أوسوقا الاستبداد بالرأى وترك المشاورة

وإذا علمنا ان مناصحة الأئمة أمر واجب على الرعية كما تدل عليه الأحاديث والآيات السابقة الشريفة وجب على الولاة الأمر ان لا يمنعوهم من

قضاء هذا الواجب فدل ذلك على ان الأمر في قوله تعالى (وشاوروهم في الأمر) للوجوب لا للندب وهو ما يؤخذ من عبارات بعض المحققين من علماء التفسير خلافاً لما في تلك الجريدة من كونه للندب فوضح من كل هذا ان تصرف الواحد في الكل ممنوع شرعاً وان الرعية يجب عليها ان تجعل الحاكم والمحكوم بحيث لا يخرجان عن حد الشريعة الحقة وأن الولاية يجب عليهم استشارة ذوي الرأي في مصالح البلاد ومنافع العباد وأن الشورى من الأمور الشرعية الواجبة فمن رامها فقد رام أمراً شرعياً قضت به الشريعة وحتمته على الحاكم والمحكوم جميعاً بحيث لو منعناه لا كتبنا بذلك اثماً ميبناً

ومعلوم أن الشرع لم يجبيء بيان كيفية مخصوصة لمناصحة الحاكم ولا طريقة معروفة للشورى عليهم كما لم يمنع كيفية من كفياتها الموجبة لبلوغ المراد منها فالشورى واجب شرعي وكيفية اجرائها غير محصورة في طريق معين فاختيار الطريق المعين باق على الاصل من الاباحة والجرأز كما هو القاعدة في كل ما لم يرد نص بنفيه أو اثباته غير انا اذا نظرنا الى الحديث الشريف الذي رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما وهو (كان النبي عليه الصلاة والسلام يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه وكان أهل الكتاب يسدلون أشعارهم وكان المشركون يفرقون رؤسهم فسدل النبي ناصيته ثم فرق بعد) ندب لنا ان نوافق في كيفية الشورى ومناصحة أولياء الأمر الأمم التي أخذت هذا الواجب نقلاً عنا وأنشأت له نظاماً مخصوصاً متى رأينا في الموافقة نفعاً ووجدنا منها فائدة تعود على الأمة والدين والا اخبرنا من الكيفيات والهيات ما يلائم مصالحنا ويطابق منافقنا ويثبت بيننا قواعد العدل وأركانها بل وجب علينا اذا رأينا شكلاً من الاشكال مجلبة للعدل ان نتخذه ولا نعدل عنه الى غيره كيف وقد قال ابن قيم الجوزية ما معناه ان امارات العدل اذا ظهرت بأي طريق كان فهناك شرع الله ودينه والله تعالى أحكم من ان يخصص طرق العدل بشيء ثم ينفي ما هو أظهر منه وأبين

فنألف من مجموع هذا أن الشورى واجبة وان طريقة مناط بما يكون أقرب

الى غايات الصواب وأدنى الى مظان المنافع ومجالها على أنها ان كانت في أصل الشرع مندوبة فقاعدة تغير الأحكام بنفي الزمان تجعلها عند مسيس الحاجة اليها واجبة وجوباً شرعياً ومن هنا نعلم ان نزوع بعض الناس الى طلب الشورى ونفورهم من الاستبداد ليس واردا عليهم من طريق التقليد للاجانب ولا آتيا لهم من ذم بعض الجرائد فيها هكذا جزافاً ورجماً بالغيب كما سبق اليه قلم محرر تلك الجريدة بل ذلك نزوع الى ماهو واجب بالشرع ونفور عما منعه الدين وقبحه العلماء وشهدوا من آثاره المشؤومة ما عرفوا به قبح سيرته ووخامة عقابه نعم لانسكر انه ربما كان في الطالبيين النافرين من سبق الى حب الشورى وكراهية الاستبداد المطابق بطبيعة التقليد ولكن ذلك ان كان فليس الانزراً يسيراً من مقدار كثير فلا يصح اطلاق القول بالتقليد على فرض ان يجوز التخصيص ولو قال حضرة المحرر ان كثرة ذم الجرائد للاستبداد وتشويقهم الى الشورى أحضرتهم صور ما أخذوه من الواقع وأخطرت بأذهانهم أمثلة المشهود في العيان فجسمت ذلك عندهم فلذلك اشددت كراهتهم فيه وقويت رغبتهم فيها لكان ذلك أدنى الى الصواب ولكن ربما سبق القلم الى غير المراد

وأما قول حضرة هذا المحرر ان جواز إعطاء الحرية للأفراد في ابداء آرائهم مع كونه تفرداً بالرأي أي استبداداً بمحتا يستلزم جوازه في جانب الأمراء بالطريق الأولى فهو خلاف التحقيق فان حرية الافراد على معنى تنفيذ ما يرونه صواباً لا يقال لها استبداد أصلاً لالفة ولا عرفاً فان واحدا منهم لم يستقل بتنفيذ ما رآه كما هو حقيقة الاستبداد بل انما طلب غيره لمشاركته في الرأي وما هو من معنى الاستبداد في شيء وذهاب المحرر في هذه العبارة خلف فكره يعد من سبق القلم وجريانه بما لا يرجع الى أصل علمي اذ ليس في تشارك أفراد العامة تصرف الواحد في الكل بل تصرف الكل في الكل أو تصرف الكل في الواحد سلمنا كونه استبداداً فهل يستلزم ذلك صحة الاستبداد في جانب الامراء مع العلم بأن رأي الواحد ليس مثل رأي الكل اذ الاول مظنة الخطأ ولا يحتمل الثاني خطأ الا احتمالاً يفرضه العقل وتكذيبه العادة والاختيار ومن ثم قال سيدنا عمر بن الخطاب . الرأي الواحد كالخييط السحيل — وهو

الحبل على قوة واحدة - والرأيان كالحيطين والثلاثة الآراء كالثلاثة لا تنقطع (وقال صلى الله عليه وسلم) ما شاؤوا قوم الا هدوا لأرشد أمرهم) وقال تعالى حكاية عن نبيه موسى عليه السلام (واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخى اشدد به أزري وأشركه في أمري) وقال عمر رضي الله عنه عند ما جعل الخلافة شورى بين سنة (ان انقسموا اثنين وأربعة فكونوا مع الاربعة ميلا منه الى الاكثر لان رأيهم الى الصواب أقرب) قاله السيد السند وعن أبي هريرة (ما رأيت أكثر تشاوراً من أصحاب رسول الله) أفبعد هذا يصح الحكم بألوية استبداد ولاية الامور؟ لاشك ان الحكم بهذا يكون من قبيل ترجيح المرجوح من حيث هو مرجوح بل من ضرب تجوز المنوع ان أريد الاستبداد المطلق حيث علمت امتناعه مما أسلفناه لك من الادلة المنقولة والبراهين المسموعة

هذا ما أردنا ابراده في هذا المقام دفعا لما توهمه عبارات تلك الجريدة من تجوز ديننا للاستبداد المطلق أو ايجابه مع كونه براء منه ورفعاً لما عساه يتولى بعض الازدهان من كون حكم الشورى عندنا معاشراً للمسلمين الناجب مع أنه الوجوب كما قررنا ولعل من يدعي ان الامة الاسلامية لاتصلح للشورى زعماً منه ان ديننا القويم يأبأها بكتفي بهذا المقال فيعلم ان شريعنا شريعة سمحة تأبى ان يتولى أمور ذويتها من لا يراعون للشرع حرمة ولا يحفظون للسنة ذمة وتوجب الشورى على كل من الرعية والحاكم جميعاً ذلك هو الحق والله يهدي من يشاء الى سواء السبيل .

وكتب في العدد ١٢٨٩ الصادر في ٣ صفر سنة ١٢٩٩ - ٢٤ ديسمبر

سنة ١٨٨١

الشورى

تسكلم عليها من جهة وجوبها عقلا على الحاكم والمحكوم معاً فنقول خلق الانسان محاطاً بالشهوات مكتنفاً بالاميال مقيداً بالاغراض فهو أسيرها تدفعه الى

مقتضياتها وتجذبه الى لوازمها بحيث تكون جميع قواه آلات لها تحركها بما يناسبها وتستعملها فيما يلائمها فلا يتصور حسنا الا ما تستحسن ولا يتخيل جميلا الا ما تستجمل وهذا أمر يكاد ان يكون طبيعياً فطرياً لا يمكن الانسان ان يغالبه ولا أن يتخلص منه وان امكن في بعض الأحيان تقليل سطوته وتحميد سلطته على ان هذا أيضاً ليس في وسع كل أحد ولا في طاقة كل شخص فلا يستطيعه الا من كبرت همته ولا يقدر عليه الا من ذكت فطنته حتى يتمكن من ردع تلك الدوافع وكبح تلك الجواذب بما يشغله من الوسائل المختلفة حسب اختلاف المقاصد والذرائع المتنوعة حسب تنوع الغايات

وحيث كانت هذه الدوافع والجواذب قوية لدى أولي الأمر لاقتدارهم على مقتضياتها وتمكنهم من لوازمها كانوا مضطرين الى مغالبتها ومقاومتها بما ييسر من الوسائل المؤدية الى ذلك حتى يتمكنوا من النهوض بما وسد اليهم من رعاية مصالح العباد وليس من وسيلة الى ذلك الا مشاوره العارفين العالمين بطرقها فان للرأي العام في مغالبة الأهواء ما لا يخفى من القوة ولذلك ترى ان الانسان ربما مال الى شيء ولكن يمنعه من معاطاته علمه بأن الرأي العام لا يستحسنه وأيضاً فالانسان الواحد قاصر وان بلغ ما بلغ من اتساع نطاق الفكر على ان يحيط علماً بمصالح عامة خصوصاً اذا كانت مصالح أمة كبيرة فانها حينئذ تكون بمنزلة الفنون المتنوعة المختلفة التي يعجز الانسان الواحد ان يستوعبها ويستوفيا اطلاعاً

وقد يتنبه بعض الناس من أنفسهم لهذا الأمر ويعلمون انهم لو تركوا أنفسهم وشأنها فر بما استرسلت مع شهواتها ومالت مع أغراضها ووقفت دون الصواب حججاً فيجتهدون في منع ذلك بأن يستنصحو الناس ويسترشدوهم ويستهدوهم استعانة منهم بأرائهم على كشف الحجاب ورفع النقاب عن وجه الصواب وهو لاء هم القوم الذين صفت سرائرهم وطابت نفوسهم فلا يرون حسناً الا ما وافق الصواب ولا جميلاً الا ما طابق الحق ومن هذا يتبين وجوب الشورى على الحاكم أما وجوبها على المحكوم فيتبين مما أقول قد علمت أن الواحد وان بلغ من علو

الفكر ورفع الذكاء مكانا عليا قاصر عن الاحاطة بمصالح الأمة وحينئذ يلزمها اذا ألت اليه مقاليد مصالحها ان تمدد من آرائها بما يقدر به على النهوض بواجباتها والقيام بحقوقها فليس من الانصاف ان تلتقى على كاهله أعباء هذه المصالح الجسيمة وتدخل عنده ثم اذا رأت ما لا بد منه من التقصير وجهت اليه سهام اللوم بل يجب عليها مساعدته بما تراه موافقا لوجه الصواب ثم اذا وجدت منه تقصيرا فيما اختص به كان لها حينئذ ان تلوم وكما لا يصح ان تدخل عنده في الاعمال البدنية العمومية مثل حى البلاد ممن ير يدها بسوء بل لا بد من مساعدته فيها وان لم تفعل فقد قصرت فيما وجب عليها كذلك لا يصح التدخل عنده في الاعمال الفكرية العمومية فان كونها فكرية لا يسلب عنها الجسامة المقتضية للتشارك فيها وهل من العدل ان تترك الأمة حاكمها بين أعمال مهمة مختلفة الأنواع متشابهة الألوان يصعب على أي مخلوق كان وحده أن يقوم بأعبائها ثم اذا رأت منه تقصيرا بحسب ما يبدو لأول النظر بادرت الى تعنيفه ؟ لعمرى لو فعلت ذلك أنها اذن لمن الظالمين

وان لنا على صحة ما قدمنا من الأدلة لدليلا فيما فعل سيدنا عمر وقومه رضي الله تعالى عنهم حيث قام بينهم خطيبا فقال (أيها الناس من رأى منكم في اعوجاج الخ) اذ ليس معنى تقويم الاعوجاج في هذا الا التنبيه على الحق والارشاد الى الطريق المستقيم فما يدل على وجوب التشاور على الحاكم هو طلب عمر رضي الله عنه تقويم اعوجاجه وما يدل على وجوبه على المحكوم هو اجابة الصحابي بقوله (والله الخ) فانه لا يجوز استعمال القوة الا بعد الاعذار بالارشاد والهدى

ولقد رأى خديوينا الافخم حفظه الله مثل مارأى سيدنا عمر مما قضي بالتشاور وان بلاده قد كثرت بها خصوصا في هذه الايام مواد الاعمال واختلفت مواضع المصالح وتنوعت أسباب المنافع اذ لا يخفى ان هذه البلاد قد امتازت عما سواها بكثرة الاعمال الداخلية المختلفة اختلافا كبيرا بحيث يناسب بعض البلاد منها ما لا يناسب البعض الآخر فندب رعاياه الى التشاور حرما منه على الاقتداء بالسلف الصالح كما هو شأنه حتى في الامور الجزئية الخاصة فضلا عن الامور

السلطة العامة وعلماً منه بما وراء التشاور من الفوائد الجليلة والمنافع الجزيلة وكأني بمن يقول ان لنا فيما كان عليه السلف من طريقة التشاور لغنى عن سلوك هذه الطريقة الحالية فأقول في جوابه ان هذه الطريقة الحالية قد صارت دون سواها ذات الوقع العظيم والتأثير القوي في النفوس بما اتصفت به من كونها مناطاً للعدل ومظهراً للاستقامة في سائر الممالك وحينئذ فالغاية المقصودة من التشاور لا تترتب الا عليها أما طريقة السلف فقد كانت كافية في الغرض لما أنها هي المستعملة في زمنهم على ان هذه الهيئات ليست الا وسائل غير مقصودة لذاتها فاذا انقطعت الرابطة بينها وبين الغايات كانت مهملة غير مقصودة وبحول القصد الى مآصار بينه وبين الغاية ارتباط ووافق

وكتب في العدد ١٢٩٠ الصادر في ٦ صفر سنة ١٢٩٩ - ٢٥ ديسمبر

سنة ١٨٨١

الشورى والقانون

قد أسلفنا فيما سبق من أعداد الجريدة أن القوانين تختلف باختلاف أحوال الامم وبيننا الاسباب الموجبة للاختلاف وضر بنا لذلك أمثالا لتقريب المطالب من الاذهان وان ذلك صريح في أن القوانين متعددة وأصنافها متنوعة لتفاوتها بحسب الغرض المقصود منها أعنى ضبط المصالح وفتح سبل المنافع وسد طرق المفاسد والآن نريد ان نبين أقربها للغرض وأبعدها عن مساقط الاهمال وأمنعها عن عبث الجهل والاغراض فنقول

ان القانون الصادر عن الرأي العام هو الحقيقي باسم القانون المقصود بالبيان ليس الا وبيانه ان الاجتماع بين أمة من الناس في مبدأ أمره لا يكون له داعية سوى الصدفة أو أسباب أخرى قهرية لا تخرج عن الطوارق التي تلم بالانسان فنلجته الى ما جاء من نوعه يستعين به على دفعها فاذا استتب الاجتماع وسكن الأمن في قلوب المجتمعين وانقطع كل منهم في الاسباب التي توصله الى لوازم

المعيشة نزع فيهم حب المسابقة في كل ما يتنافس فيه كل حي وتولد من ذلك شدة الطمع والشهه وجر الامر الى الحسد والبغض والبطر فأصبحوا وهم في مكان واحد متباعدي المقاصد أشتات القلوب لا يبالي أحدهم بافتداء مصلحته بمصلحة الآخر بأي طريق سلك ونسي رابطة الاجتماع وواجب الاشتراك في الوطن وتناول أشدهم عضدا مقاليد الحكم عليهم وبث فيهم أعوانه وأنصاره بدون قاعدة تربط الاعمال وتبين الحدود فحينئذ لا ترى لاثنين منهم رأين متوافقين ولا قاصدين متطابقين بل لا ترى الا نفوسا شاردة واغراضا متباينة تسوقهم عصا الظلم وتجمعهم دائرة الغرم فهم في هذه الحالة ليس لهم وجهة تربط أعمالهم وتوحد مقاصدهم بحيث تكون محورا للدائرة أفكارهم وغاية تنتهي اليها حركاتهم في كافة أمورهم اذ ما نزل بهم من دواعي الاضطراب وأسباب تبلبل الابواب جعل لكل منهم شأننا خاصا به فلا يفكر يوما ما في حقوق الاجتماع ونسب الارتباط فكأنه أمة وحده مقطوع العلائق بغيره فلا يتصور أن يكون لهم حينئذ رأي عام يجمعهم واذا استمرت بهم هذه الحال زمانا طويلا فسدت طباعهم وتبدلت أخلاقهم الى ملكات رديئة تحماهم على البطالة والكسل وتكلمهم الى الآمال العاطلة والاماني الكاذبة وتورثهم الخمول والذل والفتور فاذا توالى عليهم الحوادث وعلمتهم أسفار الاخبار طرفا من سير الامم تذكروا انه قد كان لهم من حقوق الاجتماع ما يسوقهم الى العيش الرغد ويصون عناصرهم الشريفة من لوث الخسة ودناسة الانضاع فتقوم نفوسهم بتقويم دعائم الاجتماع على أصولها التي نطالبهم بها طبيعته فتمانعهم تلك الاخلاق التي نشأوا بها ممانعة تضعف منهم قوة العمل فكلمما قويت فيهم دواعي الاجتماع اشتدت كراهم للنقاعد عن الاخذ بالوسائل وطفقت نفوسهم تنفض عنها درن الملكات الفاسدة وتوفرت فيهم بواعث الاعمال المختلفة وأصبحت المقاصد متجهة الى غاية واحدة وهي المعاودة على حفظ الهيئة الاجتماعية فعند ذلك ترى من لم تهزه الشفقة منهم على المنافع العامة ولم يقفه حقيقتها يوما يفضلها على غاياته الخاصة ويعلمها حق العلم بدون ان يتلنى درسها من معلم فان الحاجة هي الاستاذ الذي لا يضيع تعليمه

ولا يخيب ارشاده ومن هنا ينشأ بين الناس ما يعبر عنه بالرأي العام وهو الاساس الذي بدونه لا يمكن أن تتوجه الكلمة في أمر ما يراد التداول فيه ونقطة التلاقي التي تجتمع بها أطراف الافكار المتشعبة وتتمحى فيها الاغراض المتعددة اذ ليست في الحقيقة أغراضاً ذاتية وان تلبست بصورها وانما هي طرق متخالفة تؤدي الى مقصد لا يخرج عن الرأي العام وسالكوها بلغوا درجة الاجتهاد وكل عامل للامة مسخر لانتقاء أقرب الطرق الخالية عن أعباء الكلفة كما يشهده من وقف على مشارب القدماء والمتأخرين من السياسيين حيث يتفرقون احزابا وينصبون جلبة الجدل في البحث عن الصالح العام

فادا بلغت أمة من الناس هذه الدرجة من التنور وأصبحوا جميعاً على رأى واحد في وجوب ضبط المصالح وتقييد الاعمال بمحدود مقدسة تصان ولا تهان اندفعوا جميعاً الى طلب هذه الحقوق الشريفة بدون ان يخشوا لومة ولا يكنفون دون أن يروا بين أيديهم قانوناً عادلاً لا تقابحهم منطبقاً على أخلاقهم وعوائدهم كافلاً بمصالحهم يرجعون اليه في أمر المساواة والامن على العباد والبلاد ولا يعجبهم ان يكلوا وضعه لواحد منهم ينولاه بنفسه اذ الواحد لا يتأتى له ان يشخص مصالح الجميع مع تباينها وهذا أمر ينبني عليه صحة القوانين وما يترتب عليهما من الفوائد ولا يمكنهم أن يباشروا وضعه جميعاً اذ فيهم من تمنعه موانع قوية عن ذلك فلم يبق الا ان ينتخبوا منهم نواباً بقدر الحاجة للقيام بهذا الواجب من كل جهة ومن كل ذوي حرفة ليكونوا جميعاً على علم بأحوال موكلهم عموماً وطبائع أمكتهم فاذا آمنوا هذا القانون على وجه كامل شامل بعد البحث الدقيق وان استغرق عملهم أمداً كان هو القانون المعول عليه علماً وعملاً أما علماً فلأن أحكامه كلها صارت معلومة لدى أفراد الناس جميعاً لان من وضعها هم نوابهم ولا يخفى أن نفس المنوب عنهم لا يغفلون طرفة عين عن كل أمر من أمورهم يشرع النواب في المداولة فيه ليقفوا على طريق الجدال في كل مبحث ويعلموا تمام عليه الرأي فيه على أن صحف الاخبار التي لا يخلو منها قطر من الاقطار تتكفل بنشر المفاوضات والاحكام في كل مسألة فتكون هي السفراء بين مجالس النواب وبين

الرعابا على اختلافهم ولا يضر عدم العلم لافراد منها كالسوقة الرعاع والعملة وان كثروا فانهم كالات الصماء الموقوفة على الاعمال البدنية ليس الا فتبين من ذلك أن العلم بأحكام القانون الذي يضمنه جملة النواب لا بد أن يتحقق بين الافراد فبعد اتمامه لا يحتاج الامر الى المدارس فيه الا لمن هو حديث عهد به وأما عملا فلان القانون عادل منطبق على المصالح ومثله حقيق بأن يرسم في صفحات القلوب خصوصا وأن واضعيه هم النواب والنائب لسان المنوب عنه فكان من وضع الامة بتمامها وتلك حجة عليهم بأنهم جميعا متعاهدون عليه سيما وأنهم هم الذين تقاسموا بالايمان على الاخذ بالاحسن من كل شيء نافع وأن قلوبهم طويت على المحافظة على الرأي العام وأنهم جميعا سائرون الى غاية واحدة فكيف بعد هذا كله يتركون القانون حبرا على ورق بدون علم ولا عمل

فقد وضح مما ذكرناه أن أفضل القوانين وأعظمها فائدة هو القانون الصادر عن رأي الامة العام أعني المؤسس على مبادئ الشورى وان الشورى لا تنجح الا بين من كان لهم رأي عام يجمعهم في دائرة واحدة كأن يكونوا جميعا طالبين تعزير شأن مصالح بلادهم فيطلبونها من وجوهها وأبوابها فما داموا طالبين هذه الوجوه فهم طلاب الحق ونصراؤه فلا يلتبس عليهم بالباطل ولا لوم عليهم اذا لم يأت مطلوبهم على غاية ما يمكن من الكمال فان الحصول على أقصى المراد يستحيل أن يكون دفعة واحدة كما قضت حكمة الله تعالى في خلقه أن الشيء لا يبلغ حده في الكمال الا بالتدريج بل اللوم كل اللوم ان يضرب الطالب صفحا عن مطلبه ويقصر في السعي ويرضى بحالته فيقف عندها وقد هيا الله له الاسباب ومهد له الوسائل اذ ذلك ضرب من الجهل المركب القبيح الذي يجعل صاحبه أدنى درجة من الحيوانات المعجم

وان استعداد الناس لان يتهجوا المنهج الشورى غير متوقف على أن يكونوا متدرجين في البحث والنظر على أصول الجدل المقررة لدى أهله بل يكفي كونهم نصبوا أنفسهم وطمحت أبصارهم للحق وضبط المصالح على نظام موافق لمصالح البلاد وأحوال العباد ولا يتوهم أن القانون العادل المؤسس على الحرية هو الذي

يكون منطبقاً على الاصول المدنية والقواعد السياسية في البلاد الاخرى انطباقاً تاماً فان البلاد تختلف باختلاف المواقع وتباين أحوال التجارة والزراعة وكذلك سكانها يختلفون في العوائد والاخلاق والمعتقدات الى غير ذلك فرب قانون يلائم مصالح قوم ولا يلائم مصالح آخرين فينفع أولئك ويضر هؤلاء اذ على مؤسس القوانين أن يراعي أخلاق الناس على اختلاف طبقاتهم وأحوالهم وطبيعة أراضيتهم ومعتقداتهم وكافة عوائدهم ليتسنى له ان يحدد مصالحهم ويربط أعمالهم بحدود تجر اليهم جلائل الفوائد وتسد عليهم أبواب المفاسد وحينئذ لا يسوغ لارباب الشورى ان يجاروا غير بلادهم في سن القوانين بل عليهم ان يجعلوا أوضاع بلادهم وأحوال الاهالي الحاضرة نصب أعينهم حتى يتهيأ لهم حينئذ ان يرسموا مالا بد منه من الاحكام الملائمة فاذا أمعنوا النظر ودققوا في البحث وطلبوا الحق حيث كان وان من صغير وكان هذا المقصد السائق للجميع على البحث والتنقيب انفتحت لهم عيون المسائل وسهلت عليهم صعب المطالب وحومت أفكارهم على ما كان يحسب أبعد خطور بالباب فتغلغل أفكارهم في ما وراء ذلك من الامور التي لا يكاد يكشف الحجاب عنها في مبدأ الأمر حتى يحصلوا على مباد أولية يتخذونها قواعد كلية لما يرد عليهم من الابحاث كأن يستعملوا قاعدة القياس والحكم على النظائر والاستدلال بالاصل والعادة والعرف وأمثال ذلك في محاوراتهم بعد ان صارت لديهم من المسلمات الاولية وقد كانت في بداية الامر من الغوامض التي يحتاجون في حلها الى نظر وبحث وهكذا يتدرجون من الوسائل الى المقاصد ثم ينساقون من المقاصد التي لديهم بدئية المبادي الى مقاصد أعلا وأسمى حتى يثبت قدمهم في الشورى كل الثبات

ومما تقدم سرده تعلم ان اهالي بلادنا المصرية دبث فيهم روح الاتحاد وأشرفت نفوسهم منه على مدارك الرأي العام وأخذوا ينصلون من جرم الاهمال ويستيقظون من نومة الاغفال وقد مرت عليهم حوادث كقطع الليل المظلم ثم تقشعت عنهم فطالعوا من سماء الحق ما كحل عيونهم بنور الاستبصار حتى اشرأبت مطامعهم الى بث أفكارهم في ما يصلح الشأن ويلم الشعث و يجمع

المتفرق من الامور ليكونوا أمة ممتعة بمزاياها الحقيقية فهم بهذا الاستعداد العظيم أهل لأن يسلكوا الطريق الأقوم طريق الشورى والتعاقد في الرأي فقد أزف الوقت ولم تسمح لهم ظروف الاحوال بأن يتأخروا عن سن قانون يراعى فيه ضبط المصالح على وجه ملائم يتبادلون فيه الافكار الحرة والآراء الصائبة فلذا أجمعوا رأيهم على تأليف مجلس الشورى ممن لهم دربة ودراية تامة بشؤون البلاد وصدرت الاوامر السامية بانتخابهم نوابا حسب ما قضت به نواميس الحرية وانشرحت صدور الناس عامة بهذا الامر واستبشروا بما يكون من عاقبة هذا المسعى الجليل سيما وقد عهدوا من الحضرة الخديوية ارتياحا تاما لما يؤيد شأن البلاد ويعلي كلمة الوطن ولما أمل لا يخيب في أهل البلاد وحضرات النواب فهم أجل من ان يعدلوا عن طريق النجاح أو يكون سعيهم الا في حب الاصلاح وهذه هي خطوة نعلها ان شاء الله في سبيل تقدمنا فاتحة الالطاف

وكتب في العدد ١٤٠٠ الصادر في ١٦ جمادى الثانية سنة ١٢٩٩ - ٤ مايو

سنة ١٨٨٢

التمرن والاعتیاد

حصول صورة الشيء في النفس علم وميلها الى طلبه أو تركه ارادة والتصميم على أحد الامرین عزم وليس بعده الا الطلب بالفعل أو الترك والتارك لا يحمل النفس كبير مشقة سوى الوقوف على كون المتروك من الامور التي تكلف بها النفس تكليفا ضروريا أو كإليا كان من الامور المباحة أو المحظورة فاذا وقفت على حقيقته انصرفت عنه انصرافاً

أما الطلب فهو أحد الامرین الذي يحمل النفس عنائين أحدها يتعلق بها من جهة قوتها الفكرية والثاني من جهة القوة العملية المودعة في أعضاء البدن والاول مقدمة الثاني وسابق عليه ونسبته اليه لدى أر باب الحل والعقد ورجال النقد نسبة الامرین المتضايقين لا يوجد أحدهما بدون الآخر

أما الاول فهو البحث في أصل الطلب واسمئقصاء ما يعود منه على الطالب أو غيره من المنافع والتنقيب عن الوسائل التي توصل الى الغاية بلا مشقة ولا فوات منفعة وتقدير الاعمال إزاء الفائدة لتكون المنفعة مساوية على حكم التبادل في الاعمال البشرية أو زائدة عنها على أصل التفاضل وذلك كله انما يكون بعد ان نعرف نسبة الطلب الى غيره من المطالب ليترجح عما سواه بخاصية من الخواص حتى لا يلزم على الشروع فيه الترجيح بلا مرجح هذا شرح حال العناء الاول وليس بعده الا الشروع في العناء الثاني عناء الاعمال البدنية

أما فوائد الاعمال فهي وان كانت جزئياتها غير قابلة للدوام والاستمرار اذ هي نتيجة أعمال منجددة وكل متجدد فنتائجه كذلك ولكنها تقبل الدوام بكليات أنواعها دواماً غير مطلق والطالب لا يستغني عن هذه الفوائد وقتاً من الاوقات وكيف يستغني مع أن الحامل له على العمل حاجته الى فوائده سواء كانت من الضروريات أو الكليات فهو محتاج الى دوام الفوائد ودوامها يتوقف على دوام الاعمال وهو أمر موقوف على العامل وليس ادمانه العمل المطلوب في موضوعنا هذا أمراً من لوازم وجود ذاته فيحتاج الى صفة زائدة تقضي عليه ان يكون دائم العمل بقدر الحاجة وليس احتياجه كافياً لهذا الاقضاء اذ ربما تحققت الحاجة بدون أن يتحقق دوام العمل وإلا لم نسمع بذكر التهاون والكسل والاهمال وما شا كما على أن الحاجة متفاوتة فما كان منها في الدرجة الاولى درجة الاضطراب البحث فهو بنفسه كاف لادمان العمل بخلاف ما كان منها في الدرجات الثانوية فما فوق والصفة القاضية بالادمان أي المتممة لعلته هي التمرن والاعتیاد وعبارة أوفق بالفرض: ان ما لا تدعو اليه الحاجة أصلاً في زمن من الازمان قد تدعو اليه في زمن آخر لا لسد الاضطراب البحث بل لما زاد عنه من الحاجات الثانوية كالكماليات والمحسنات وقد تدعو اليه بعد زمن طويل أو قصير لسد الاضطراب البحث فلا يجد الانسان عنه فراراً فيتكلفه مقهوراً مقسوراً يتصور المنفعة على بعد ولكنه غائب في دهشة آلام الاعمال التي لم يتكفها يوماً من الأيام لولا حكم الصروف والحادثات التي تقلبه على بساط القهر تقلب العصفور

في يدي الطفل فلا يزال بحس بالالم ويدمن العمل حتى يهون عليه شيئاً فشيئاً الى ان يزول الألم بالكلية ولا يجد الاعمال بدون ألم فاذا مضت برهة بعد الابداء يحس من نفسه بعض الميل الى العمل فكأن الألم الاول استحال الى ضده (على حكم تلاقي الطرفين) ويجد منه باعثاً طبيعياً اليه وهكذا يزداد الميل ويشد العشق حتى لا يميل به الكسل يوماً ما الى اهمال العمل وهذا هو المقصود من التمرن والاعتیاد

أما كون الشيء ربما يكون ضرورياً في وقت دون وقت فالامر فيه وان كان على ما أظن لا يحتاج الى البيان غير اني بحكم الحاجة لتوضيحه لبعض الناظرين أقول

ان الانسان من حيث هو مفكر لا يقف عند حد محدود فيما يتعلق بلوازم حياته وهو في ذاته غير مكلف بكل فرض مطلوب بعده من قبيل الثمن أو الحضارة أو الترف في المعيشة أو غير ذلك بل يكفيه ما يسد الرمق من القوت ويقيه الحر أو البرد من اللباس ويكفيه وقت الايواء من البيوت غير أنه لما تأتق في هذه الضروريات بعض التأتق ورأى أنها تقبل التحسين شيئاً فشيئاً أخذ على نفسه أن لا يقف له قرار ولا يهدأ له جاش حتى يستخرج من دائرة الامكان كل ما تآدى اليه فكرته فجد واجتهد واستطلع بقوته النظرية خواص العناصر فحسبها عند ما اكتشف منها معدات تساعده على غرضه أنها لم تخلق الا له فتسلط عليها بصفتي التحليل والتركيب حتى فتح أبواباً للتجارة والزراعة والصناعة ووصل الى ما وصل اليه الآن وهو في هذا السير الطويل ينحمل أثقالاً على أكتاف كلما وصل منه الى درجة ظنها آخر الدرجات وحسب نفسه فيها غريباً فيتخذ نتائج تقاليداً الغريبة زينة شأن كل أمر غريب نادر الوجود اذ كل نادر عزيز قال الشاعر

سبحان من خص القليل بهزه والناس مستغنون عن أجناسه

وأذل أنفاس الهواء وكل ذي نفس محتاج الى أنفاسه

فاذا توطنت نفسه الى هذه الغرائب زمنا استمراد منها حتى يبلغ بها حد

الكثرة فيسنعلمها في لوازمه الضرورية في كافة أحواله ولا يخص بها وقتا دون وقت الى ان تصير من قبيل الأمور المعتادة التي لا يستغني عنها بحيث يعتبر كل ما كان أقدم منها وفي درجة قبلها من التقاليد ساقطاً عن درجة الاعتبار وغير جائز الاستعمال ويتوهم أن استعماله في الحالة التي وصل اليها يزري بمقامه المنهف ويحط بمقداره الشريف ولا يذكر أنه هو هو الانسان أيام كان يقنات بسائط النبات ويستتر بأوراق الاشجار ويأوي الكهوف والأغوار فبان بما ذكر أن الشيء قد يكون ضرورياً في وقت دون آخر

ومن وجه آخر نقول انا اذا سبرنا أخبار الأمم نعلم يقيناً ان الهبة الاجتماعية البشرية ما وصلت الى درجة من درجات التمدن والحضارة في وقت من الأوقات دفعة بل لا بد كما يشهد العيان ان تسبق أمة من الأمم الى غاية في المدنية فاذا نظرت الى جارتها وقد بقيت في مركزها متأخرة عنها والانسان (قنل الانسان ماأ كفه) بحكم الحيوانية مطبوع على النعدي والشره فتفاخرها بما يدهش العقول ويهر النواظر من صناعاتها الغريبة وأوضاعها الجميلة فمرمقها تلك بعين الذاهل المدهش وتتوهم أن ضعفها واقعي فتنبض نوعاً من الانقباض فاذا توسمت فيها هذه الانكماش والذعر (الخوف) أخذت تهددها بما تقلب عليها من ضروب الحيل والدهاء وبما تظاهر به من قوة الجند وكثرة العتاد فتتف تلك وقعة الحائر المنفكر الى أن يرشدها التأمل الى أن هذه ما وصلت الى ما وصلت الا بالعلم والعمل المتوقفين على الكد والاجتهاد فتندفع وراء الجذب محكم الاضطرار حتى تصل الى ما وصلت اليه أو تكاد غير ان تلك أيضاً بعد ان تذوق لذة التقدم وتنسيها سكرة التيه طعم الذل الذي كانت تقاسيه تحت رهبة جارتها الأولى تعامل الأمة المجاورة لها أيضاً بمثل ما كانت تعامل به في مبدأ الأمر حتى تضطرها كذلك الى ان تترك متن الاجتهاد في السير وراء من تقدمها وهكذا كلما دخلت أمة من باب كلفت به من يجاورها من الامم حتى تنتظم الامم جميعاً في سلك واحد في هذا الباب ولاكن حيث ان حب التسابق طبيعية في الناس فلا تراهم يقفون لدى نقطة بل متى وصلوا الى حد ما من حدود التقدم

فلا يمضي زمن طويل حتى يقال ان أمة كذا انتهت فرصة عظيمة وفتحت بابا من أبواب التقدم عاد عليها بالنماء في الاموال والانفس والثروات و بأن مجاورها يخشون بأسها ويرقبون حركاتها فتضطرب الهيئة الاجتماعية البشرية من هذا النازل الذي لم يكن في الحسبان ولا تسكن خواطر بقية الامم والممالك حتى ينساقوا الى هذه الخطوة التي خطاها غيرهم على غفلة منهم وهم كارهون فبان ان الامم قد يحتاجون في زمن مالا يحتاجونه في آخر فصدق القول أن الشيء قد يكون ضروريا وقد لا يكون

وما ذكرناه من التلقبات والتقلبات يحكي حال الجمعية الانسانية من يوم ان تفرقت شعوبا وقبائل يتخالفون في العوائد والاخلاق فيتنافسون وينحاسدون على التقير والقطير ويناب عليهم حب الذات والميل الى الخصوصيات فيدعون أهم أجناس شتى ولا يزال حالهم كذلك يتقلبون على جمر الشحناء ويعذبون بعوامل البغضاء فذارة ترمي بهم الاطاع في مخالب التكلف ومشاق التنقل من حال الى حال فيضطربون لهذا الأمر اضطرابا وينقبضون منه انقباضا وآونة يليق بهم الجهد الجهد بعد أن يروا من الصعوبات ألوانا في بوادي الراحة عند ما يصلون الى نقطة التمرن والاعتیاد ولكنها نقطة غير ثابتة كما أن درجات تقدمهم غير متناهية فلا يزالون يترددون من التعب الى الراحة حتى يرجعوا الى المجرى الطبيعي فيلتئمون بعد التفرق ويرفعون عن أعينهم حجاب هذا التشتت و ياليت شعري ما هو النازل الذي حل بالانسان فغير معالمة الطبيعية وبدل أخلاقه السلمية وحل رابطة النوعية والا فهدنا به ان لم نقل انه من أم وأب تسليما جدليا فهو من نوع واحد يشف مرآه عن الوحدة النامة الناطقة بأن الانسان من جرثومة واحدة نشأ عنها عائلة واحدة حواها بسيط واحد ربطتها عادات وأخلاق منحددة الصفة ولقد رمزت تعاليمه الحاضرة - التي منها وهو أكبرها تعميم المواصلات وتأکید الروابط بين الممالك وحركة الاجتماع والتألف -- الى هذا السير المكثون وبشرتنا المحافظة العامة على دعائم السلام والراحة العمومية موجهة الى النقطة الاولى الإنسان وصونا لذمة الشرف بان الحركة العمومية موجهة الى النقطة الاولى

وكما قربت الى المركز زادت سرعتها شان كل حركة طبيعية ولقد أثرت هذه الحال تأثيراً خفياً في الجسم الغفير من عقلاء الناس فمالوا الى خدمة الانسانية من غير ان يتعمصوا الجنس ولا دين ولا مذهب فاذا رجع الانسان الى مركزه الطبيعي لا ترى الجمعية البشرية بعد إلا كساكني منزل واحد يرتفقون بمنافعه على السواء ويجدون من بركات الارض ما يكفيهم مؤنة التعب ويكفهم عن الشقاق والعناد اذا أصاب قبيل منهم منفعة عادت على الجميع بدون اختصاص على حكم تبادل الاعمال واذا نزل بقبيل نازل توجه الكل الى انقاذه مما ألمّ به وساروا جميعاً على وفق القانون الطبيعي المودع في فطرة الانسان يهديه اليه من علم الطير النياحة ومرنه على السباحة ثم لا ترى فيهم اذ ذاك ما يحتاج معه الانسان الى كلفة وعناء بل لا ترى الا أعمالاً جارية على منهج السهولة منهج التمرن والاعتقاد.

وكتب في العدد ١٤٥٨ الصادر في ١٢ القعدة سنة ١٢٩٩ - ٢٥ سبتمبر

سنة ١٨٨٢

جملة سياسية

ان صوالح الافراد وان تكن مما لا أهمية لها بالنسبة الى الصوالح العمومية فالافراد هم الذين يقومون بها وبرحونها فالناس بالملوك والجيوش بالقواد وكما أن الخراب قد يطرأ على بلد أو أمة بسوء ادارة أفراد أو بعدوانهم وسطوتهم فكذلك يتم العمران بافراد يحسنون الادارة ويصلحون الفساد ويصح ذلك في البلدان التي لم تبلغ فيها الشورى الدرجة الكمالية أكثر مما يصح في البلدان التي تقيدت فيها القوة الاجرائية بسلاسل الرأي العام وآراء أهل المشورة واذا تأملنا في أعمال أحمد عرابي في مصر نرى أنه أوقف دولاب تجارة ذات أهمية ودمر عمراناً متسع الدائرة وحجب الوفا عن أعمالهم في أهم أوقاتها وبدر من الذهب خزائن وجلب العار على وطن عزيز قد اتصف أهله باللطف والالتقياد بأعمال نسبتها أوروبا الى البربرية مع أن الذين قاموا بها هم قليلون من جهلاء القوم الذين سمعوا كلمته وأنفذوا

أوامره وجلب على نفسه لوم كل الذين ينطقون بالضاد لانه هو وأعوانه سودوا وجه تاريخهم باعمال بينها وبين روح العصر يون عظيم بعد أن أفرغت حكوماتهم وعلماؤهم ورؤساؤهم الجهد في سبيل اظهار اكتسابهم روح المدنية المصري لا اكتساب المنزلة السياسية واعتبار الرأي العام ولو كان ذلك ترويحاً للصالح جلي أو مقروناً بأمل نوال غاية ممدوحة أو حرية مفقودة أو حقوقاً مهضوماً منها لما صعب علينا إدراك غايته وفهم مقاصده على اننا بالنظر الى ما نعهده في سياسة أوروبا في الشرق خاصة في مصر وما هو معلوم من قوتها التي اذا ضعف قسم منها تعززت بقسم آخر لا تقدر أن ننسب الاعمال العراقية الا الى طمع أعمى الابصار عن صالح الوطن وداس المصلحة العامة ترويحاً للمصلحة الخصوصية وعلق رئيس الفتنة وأعوانه أملمهم بان يستبدوا في القطر ويقبضوا على أزمة الامور ويرتقوا سلم المجد والعز ويجرزوا الملايين وفي بايدي أمرهم خدعوا بكلامهم وادعوا آتهم بحبي القطر المصري حتى توهوا أن في مطالبهم خيراً وفي مقاصدهم تعزير الوطن على أنهم منذ وجهوا خواطرم الى تقوية العنصر العسكري وتبذير الاموال في سبيل استجلاب رضائه وابعاده عن الحكومة القانونية انكشف الستار عن مقاصدهم الشخصية وابتعدت عنهم قلوب الذين يهتمهم شأن بلادهم وراحة أبناء وطنهم وبحسبون حساباً لدوس المعاهدات الدولية والحقوق العادية التي لا تنجرأ الى ان تسمها أعظم الدول على أن العسكرية في يدها القوة المجموعة فانقادت بجهلها لما تقتضيه الادارة والسياسة الى قوادهم اقليادا قد جعل وطنهم ينحط من ذروة التقدم والراحة والرفاهية الى وهدة حالة الفوضى وجرت حملة اجنبية طالما حذرناهم منها مبيين لهم أن تصرفهم لا بد من أن يجلبها ويهضم من الحقوق التي لا تزال محفوظة للوطن وبسطنا لديهم بأجلى بيان الوسائل التي تمكنهم من نوال ما يرومون بالتدريج وما هي الا استمرار الانتظام المالي والاداري فالذين عاثوا وأفسدوا وخرّبوا وهدموا وبدروا وألقوا الناس في تهلكة أفراد حادوا عن السبيل المستقيم وانقادوا الى دواعي المطامع الشخصية وخانوا وطنهم وأمتهم وروجوا ما ادعوا أنهم راغبون في دفعه عنهم فكما أن حلول تلك البلايا تم بأولئك الافراد لا بد من ان يتم اصلاح الشؤون ورجوع

﴿تنبیه﴾ هذه الجملة السياسية ليست من مقالات الفقيده وقد كان طبع ما تقدم منها خطأ

وكتب في العدد ١٠١٧ الصادر في ١٩ صفر سنة ٢٩٨ و ٢٠ يناير سنة ٨٨١

التمدن

ما وصلت اليه أمة الا وحط عن كاهلها جميع الاتعاب والبلايا، والاضطرابات
والرزايا ولا رقي اليه شعب الا وأمن غائبة الاعنات والاعتساف، وتحصنت أعماله
من جائحة السلب والاعتداء، فصاحبه هو الساكن في منازل الرغد والهناء، واللابس
حلة الاسعاد، نقول ولا مغالاة في الحق انه هو الضامن لتوطيد أركان العمران
والكفيل بتشديد دعائم الاجتماع، كيف لا وهو الحقيقة الجامعة لكل فرد من
أفراد الكمالات من غير فرق بين أن يكون أدبيا، أو ماديا حسياً أو معنويًا، فالتقنين
في الصنائع فصل من فصوله، والتساق في مبادئ العلوم باب من أبوابه، والتجاني
عن مواضع النقيصة جزء منه، والتجمل بالاخلاق الفاضلة نبذ من جواهره فاذا
لابدع اذا قلنا ان صاحبه هو السعيد، والواطيء بنعله غرف النعيم، جد في طلبه
من أدرك نتيجته من الامم فجنى ثمره اليانعة، تراه يتقلب على بساط العز، ويتدرج
في معارج الاجلال والجمال، عمرت دياره بعد أن كانت قاعا صافصفا بالابنية
العالية وتزينت بالاسواق الفسيحة، والصنائع العديدة، وصارت محط رحال السياسة
ومطمح أنظار النبلاء ضاق بسيطها عن القيام بنفقائه الواسعات فطار على جناح
العلم يستطلع بقاعا ربها الجهالة، وثلمتها يد البغي، ليكون فيها هو الوارث بمسند
بنيها، يستخرج منها الكنوز بحكمته، ويفجر منها ينابيع بقدرته، ليحني وأهلها
الغارسون، ويقيضي وهم المطيعون، تسمع أهل تلك الديار، صدى صوته في العشي
والابكار، والغدو والآصال، ولكن يغالطون الحس و يكابرون بانكار البداة
ويسلون أنفسهم بأن هذا الاجنبي لاسطوة له ولا حكم وأما هو غريب دعتيه
الحاجة فتجول في البلاد لطلب الرزق ثم تحدهم خواطرم بأننا أرفع شأننا من
أولئك الغرباء وأسبق منهم يدا في المدنية ولئن تأخرنا عنهم حيننا من الزمن

لكننا لحقنا بهم في انتظام الهيئة وحسن السلوك وهذه قصورنا المشهدة وثيابنا الملوثة وقدودنا المجلجلة وأطعمتنا المتنوعة تشهد بأننا قوم غمسنا في الترف وحظينا بالثروة ونهجنا الصراط المستقيم

يحسبون تلك الاوهام حنائق نجم لهم من ذوي النعمة واليسار، والعزة والكمال اعتمادا على كونها سنة الامم المثريّة، والشعوب المتنورة، وأيم الله انها بالنسبة الى أولئك البسطاء لداعية الفقر المدقع ومجلبة الشر، وان هذه الصور الظاهرية التي يظنونها تمدنا كسحابة حشيت بالصواعق بتوهم الغافل من يريقها ولعانها أهما تأتي بوابل ينعش البقل ويحيي الموات ولكن اذا حل الاجل أمطرت ما يذهب بالحياة ويبدد الاجسام وذلك لان الامم المتقدمة وان أنفقت الاموال الكثيرة في تشييد القصور وتزيين الملابس وتحسين الاثاث الى غير ذلك من المصارف فانما يكون على نسبة مخصوصة من ايراداتهم الحائزين لها بالسكد والتعب في ابراز المصنوعات الجميلة والمخترعات الجملة التي تكسب صاحبها في قليل من الزمن ثروة واسعة وقدرار رفيعاً ولا يجيزون الانفاق من رأس المال الا اذا مست ضرورة لا يحيص عنها ومع ذلك فنفقاتهم هذه لا تتجاوز حد الزوم ولا تخرج عن دائرة احتياجاتهم فكلها مؤسسة على قاعدة جلب المصلحة ورفع الحاجة. تدخل منزل الرجل منهم فترى غرفه ومخادعه مشغولات بامتعهه وبضائمه ونقوده وليس فيها قدر شبر عمر لغير حاجة حتى حديقته ولا يشترى ثوباً له اول زوجته وأولاده الا بقدر العوز وحلي آل بيته ثلاثة ارباعه من النحاس مهما كثرت ثروته وليس في اصطبله سوى عربة أو حمار للركوب لا يجمع بينهما الا نادراً. فرشه وغطاؤه لا يخرج عن نوعي الفطن والصوف كشيابه

أما أهل تلك الديار الذين يزعمون أنهم قوم متمدنون (وهم في ذلك مخطئون) فقد ركبوا الشطط وحملوا أنفسهم مالا يطيقون من النفقات الباهظة بصرف الواحد منهم آلافاً من النقود في سبيل تجميل أرض فسيحة وربما كفاه مالا يبلغ العشر من مساحتها ويفرشها من أعلى أنواع الفرش ويزينها بأبهج أصناف الزينة فتبقى غرف المنزل بلا ساكن يعلو التراب على ما فيها من

الاثاث والغرش المغشاة بالفضة والذهب حتى يببدها وربما لا يستعملها مرة في العام يتختم في أصبعه بما تجاوز قيمته عقد الالوف من الفرنكات ولدى زوجته من الالماس والجواهر ما يكفي ربحه لنفقات بيته أو يزيد لو استعمل ثمنه في شيء ينجر به (إذا كان ممن يفتهور) الى غير ذلك من المصارف التي يضيق بنا المقام عن تفصيلها وما حملها عليها سوى الطيش والانهاك في الشهوات والسفه المفرط الذي بلغ مرتبة الجنون فان رجونا الى سيرهم في طرق جلب انصاف وتخفيف انجاب المعيشة وتحسين وسائل الاكتساب رأيناهم واقفين على نقطة واحدة من آلاف من السنين فايرادتهم الآن واقفة عند الحد الذي كانت عليه قبل أن كانوا يسكنون المنازل المصنوعة من اللبن الاخضر المفروشة بقصب (الخلفاء) المفروشة بقضبان شجر (الجيز) وجذوع النخل مكتفين من الثياب بما يستر البشرة ومن الطعام بما يذهب التهمة فزروعانهم الآن هي على ما كانت عليه في تلك الايام لم تتغير أشكالها ولم تتبدل أصنافها نعم قد زادت حاصلاتها نظراً للتسهيلات التي ربما أجريت في طرق الري ولكن هذا النمو لا يعادل في الحقيقة الضعف الذي يلم بتجارة أبناء البلاد فقد كان يوجد قبل ورود الغريب اليهم في القرية الصغيرة أشخاص عديدون يتجرون في جميع اصناف المزرعات وغيرها من الاقمشة والمأكولات ويربحون من ذلك أجراً عظيماً أما بعد ذلك فلا ترى بينهم الا يتضورون جوعاً ويشنون تحت أحمال المشقات لبوار التجارة وكسادها واختصاصها بيد النزيل ويتبع ذلك سقوط صنعة النجارة والحدادة والحيكة وغيرها من الحرف اللاتي نسختها مستحدثات الامم المتمدنين وربما ينتهي بهم الامر لو استمروا على الجهالة والسفه الى خلو أيديهم من الزراعة ايضاً لوجود من يحسنها سواهم ولا عجب بعد هذا اذا رأينا هؤلاء السفهة واقعين في وهدة الفاقة والاضمحلال يشنون تحت أثقال الديون التي تستغرق جميع ما في حوزتهم من الاملاك وهذا ما يجعلهم حترأً أذلاء في قبضة الدائن الذي يكونون رهنوه أملاكهم يتصرف فيهم بما يريد فيلاقون منه شمالاً تقدر على تحمله النفوس ولا تستطيعه الطبائع وربما كان الدائن من سفلة قومه والمدين من اعيان بلاده ولا تغني عنه يومئذ قصوره العالقة

ولا ثيابه المزركشة ولا أثاثاته الخزية والحريرية وهذا فضلاً عما يعتبره من البلبال وكثرة الوسائل والافكار. بيت ليله ينقلب على الفراش ولا تقلبه على حجر الغضا يقدر محصولات زراعته قبل بذرها وينسبها لمقدار المطلوب في إبان الحصاد فإذا وجدها على قدره حصل له نوع من الاطمئنان ذاهلاً عما عساه يحدث من الفرق أو الشقوق أو الاندية المتساقطة من الجو حتى إذا حل الاجل ولم يجد لديه ما يفي بالمطلوب لأصاغة الزرع باحد الاسباب التي ذكرناها ضرب كفا على كف واسود وجهه وساءت حالته وتسل الناس ليكفلوه عند عميله إذا لم يف ما عنده بالرهن فلا يجد مجيباً ولا نصيراً. لعمر الحق ان المفترش للحصى المتوسد لحجر الصخر المستكن في منازل الحيوانات المتكفف في معيشته خير من هؤلاء الناس الذين لا يقر لهم قرار ولا يهدأ لهم بال (ومما يسوءنا أن نراهم أكثر من الكثير في بلادنا) أهذا ما حسبه تمدناً وزعموه نعماً مقبلاً أنه هو الشقاء الابدي الجالب للفقر المدقع والعذاب الأليم

هذه مشاربهم في الاحوال المعاشية تحزن المحب وتفرح قلب الرقيب واعلمنا بان تلك الحالة لا يرضاها الشرع ولا القانون لم نقصر في النصح فيما مضى ولم نقصر في البيان الآن وسأني بعد على هذا الموضوع كما أئدنا عليه سابقاً مبيّنين علة الميل الى الانهماك في السرف الذي نعده تمدناً وتبعه ان شاء الله بشرح بعض ما ألفناه من العادات المستهجنة في الافراح والميائم والمولد والضيافات وبيان ما نتحدث به في متدياتنا مما هو عقبات في طريق تقدمنا ونمو ثروتنا مفردين في البيان كل موضوع على حدته انذاراً من سوء عاقبته لعلمنا نعمتاً بما هو خير منه فستبشر بانهاجنا صراطاً قويماً وطريقاً مستقيماً وما ذلك على الله بعزيز

(يقول جامع الكتاب) قد كان ينبغي أن توضع هذه المقالة بين مقالة (ما أكثر القول وما أقل العمل) ومقالة (منتدياتنا العمومية وأحادتها) وهذا ما علمناه من مقالات الاستاذ في جريدة الواثق المصرية لرسمية. وله ما فيها كتابة أخرى في ضروب من الاصلاح كان يكتبها بمناسبة الاخبار والحوادث تجد الكلام عليها في الجزء الاول من هذا الكتاب

٤

مقالات العروة الوثقى

الاصلاحية

أنشئت جريدة العروة الوثقى في باريس وصدر العدد الاول منها في ٥ جمادى الاولى سنة ١٣٠١ الموافق ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ وكان مدير سياستها الفيلسوف العظيم السيد جمال الدين الافغانى ورئيس تحريرها فقيدنا الاستاذ الامام (رحمهما الله تعالى) فالآراء والافكار فيها كانت مشتركة بين هذين الحكيمين والمحرم لجميع مقالاتها هو الثاني وقد كتب في فاتحة العدد الاول منها مانصه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ربنا عليك توكلنا واليك انبنا واليك المصير . هذا ما تمده العناية الالهية من قول الحق ، متعلقا بأحوال الشرق ، وعلى الله المتكفل ، فى نجاح العمل ، خفيت مذاهب الطامعين أزمانا ثم ظهرت ، بدأت على طرق ربما لا تنكرها الانفس ثم التوت ، وأرغل الاقوياء من الامم فى سبهم بالضعفاء حتى تجاوزوا بيداء الفكر ، وسجروا ألباهم حتى أذهلهم عن أنفسهم وخرجوا بهم عن محيط النظام وبلغوا بهم من الضيم حدا لا تحمله النفوس البشرية .

ذهب أقوام الى ما يسوله الوهم ، وبغرى به شيطان الخيال ، فظنوا أن القوة الآلية وان قل عمالها ، يدوم لها السلطان على الكثرة العددية وان اتفقت آحادها ، بل زعموا أنه يمكن استهلاك الجم الغفير ، فى النزر اليسير ، وهو زعم يأباه القياس بل يبطله الرهان فان تقلبات الحوادث فى الازمان البعيدة والقريبة ناطقة بأنه أن ساغ أن عشيرة قليلة العدد فنيت سواد فى أمة عظيمة ونسيت تلك العشيرة اسمها ونسبتها فلم يجز فى زمن من الازمان احماء أمة أو ملة كبيرة بقوة أمة مماثلها فى العدد أو تكون منها على نسبة متقاربة وان بلغت القوة اقصى ما يمثل الخيال .

والذي يحكم به العقل الصريح وبشهاد به سير الاجتماع الانسانى من يوم

علم تاريخه الى اليوم أن الامم الكبيرة اذا عراها ضعف لا فترق في الكلمة ، او غفلة عن عاقبة لا تحمد ، أو ركون الى راحة لا تدوم ، او افتتان بنعيم يزول ، ثم صالت عليها قوة أجنبية ازعجتها ونهتها بعض النذبة فاذا توالى عليها وخزات الحوادث وأقلقتها آلامها فزعت الى استبقا الموجد ورد المعقود ولم تجد بدا من طلب النجاة من اي سبيل وعند ذلك تحس بقوتها الحقيقية وهي ما تكون بالثناء أفرادها، والتحام آحادها ، وان الالهام الالهي والاحساس الفطري والتعليم الشرعي ترشدها الي ان لا حاجة لها الى ما وراء هذا الاتحاد وهو أيسر شيء عليها .

ان النفوس الانسانية وان بلغت من فساد الطبع والعادة ما بلغت اذا كثر عديدها تحت جماعة معروفة لا تحتمل الضيم إلا الى حد يدخل تحت الطاقة ويسعه الامكان فاذا تجاوز الاستطاعة كرت النفوس الى قواها واستأسد ذئبها وتمتر ثعلبها وتمست خلاصها وان تعدم عند الطلب رشادا .

ربما نخطئ مرة فتكون عليها الدائرة لكن ما يصيبها من زلة الخطأ يلهمها تدارك ما فرط والاحتراس من الوقوع في مثله فتصيب أخرى فيكون لها الظفر والغلبة . وان الحركة التي تبعث لدفع ما لا يطاق اذا قام بتدبيرها قيم عليها ومدبر سيرها لا يكفي في توقيف سريانها أو محو آثارها قهر ذلك القيم واهلاك ذلك المدبر فان العلة ما دامت موجودة لا تزال آثارها تصدر عنها فان ذهب قيم خلفه آخر أوسع منه خبرة وأنفذ بصيرة نعم يمكن تخفيف الأثر او ازالته بازالة علته ورفع اسبابه .

جرت عادة الامم أن تأنف من الخضوع لمن يباينها في الاخلاق والمعادات والمشارب وإن لم يكلفها بزائد عما كانت تدين به لمن هو على شاكلتها فكيف بها اذا حملها ما لا طاقة لها به ، لا ريب أنها تستنكره ، وان كانت تستكبره ، وكلما أنكرته بعدت عن الميل اليه ، وكلما ابتعدت منه بجهة كونه غريباً تقرب بعضها من بعض فعند ذلك تستصغره فتلفظه كما تلفظ النواة وما كان ذلك بغريب

ان مجاوزة الحد في تعميم الاعتداء تنسي الامم ما بينها من الاختلاف في الجنسية والمشرب فترى الاتحاد لدفع ما يعمها من الخطر أزم من التحزب للجنس

والمذهب وفي هذه الحالة تكون دعوة الطبيعة البشرية الى الانفاق اشد من دعوتها اليه للاشتراك في طلب المنفعة . ابعاد هذا يأخذنا العجب اذا احسنا بحركة فكرية في أغلب أمحاء المشرق في هذه الايام . كل بطاب خلاصاً و يتغني نجاة و ينتحل للدلاء، من الوسائل والاسباب ما يصل اليه فكره على درجته من الجودة والافن وأن العقلاء في كثير من اصقاعه يتفكرون في جعل القوى المنفرقة قوة واحدة يمكن لها القيام بحقوق الكل

بلى كان هذا أمراً ينتظره المستصر وان عمي عنه الطامع وليس في الامكان اقناع الطامعين بالبرهان ولكن ما أني به الزمان من عاداته في ابتائه بل ما يجري به القضاء الألهي من سة الله في خلقه سيكشف لهم وهمهم فيما كانوا يظنون الخ ،

الجنسية والديانة الاسلامية

(من العدد الثاني الذي صدر في ٢٢ جمادى الثانية سنة ١٣٠١)

ان استقراء حال الأفراد من كل أمة واستطلاع أهواها ثبت لجلي النظر ودقيقة وجود تعصب للجنس ونعرة عليه عند الاغلب منهم وان المنعصب لجنسه منهم ليتيه بمفاخر بنيه ويفض بل ما يحسهم حتى يقتل دون دفعه بدون تنبه منه لطاب السبب ولا بحث في علة هذا الوجدان حتى ظن كثيرون من طلاب الحقيقة أن المنعصب للجنس من الوجدانيات الطبيعية الا أنه يععد ظنهم ما نراه في حال طفل ولد في أمة من الأمم ثم نقل قبل التمييز الى أرض أمة أخرى وربي فيها الى ان عقل ولم يذكر له مولده فانا لا نرى في طبعه ميلا اليه بل يكون خالي الذهن من قبله ويكون مع سائر الاقطار سواء بل ربما كان آلف لمرباه وأميل اليه والطبيعي لا يتغير . ولهذا لا نذهب الى أنه طبيعي ولكن قد يكون من المملكات العارضة على الأنفس ترسمها على ألواحها الضرورات فان الانسان في أي أرض له حاجات حجة وفي أفراده ميل الى الاختصاص والاستئثار بالمنفعة اذا لم يصبغوا بتربية ذكية . وسمة المطمع اذا صاحبها اقتدار يطبعها على العدوان

فلهذا صار بعض الناس عرضة لاعتداء بعض آخر فاضطروا بعد منازل الشرور أحقاباً طوالاً الى الاعتصاب بلحمة النسب على درجات متفاوتة حتى وصلوا الى الأجناس فنوزعوا أمماً كالهندي والانجليزي والروسي والتركي ونحو ذلك ليكون لكل قبيل منهم بقوة أفراده المتلاحمة قادراً على صيانة منافعه وحفظ حقوقه من تعدي القبيل الآخر ثم تجاوزوا في ذلك حد الضرورة كما هي عادة الانسان في أطواره فذهبوا الى حد أن يأنف كل قبيل من سلطة الآخر عليه علماً بأنه لا بد أن يكون جائراً اذا حكم ولئن عدل فان في قبول حكمه ذلاً تحس به النفس وينفعل له القلب فلوزالت الضرورة لهذا النوع من العصبية تبع هو الضرورة في الزوال كما تبعها في الحدوث بلا ريب وتبطل الضرورة بالاعتماد على حاكم تتصاغر لديه القوى وتتضاءل اعظمتها القدر وتخضع لسلطته النفوس باطبع ويكون بالنسبة اليه متساوية الاقدام وهو مبدأ السكل وقهار السموات والارض ثم يكون القائم من قبله بتنفيذ أحكامه مساهماً للكفاة في الاستكاثرة والرضوخ لأحكام أحكم الحاكمين فاذا أذعنت الأنفس بوجود الحاكم الأعلى وأيقنت بمشاركة القيم على أحكامه لعامتهم في النظام لما أمر به اطمانت في حفظ الحق ودفع الشر الى صاحب هذه السلطة المقدسة واستغنت عن عصبية الجنس لعدم حاجة إليها فمحي أثرها من النفوس والحكم لله العلي الكبير

هذا هو السر في إعراض المسلمين على اختلاف أقطارهم عن اعتبار الجنسيات ورفضهم أي نوع من أنواع العصبية ما عدا عصبيتهم الاسلامية فان المتدين بالدين الاسلامي متى رسخ فيه اعتقاده يلبو عن جنسه وشعبه ولتفت عن الرابطة الخاصة الى العلاقة العامة وهي علاقة المعتد لأن الدين الاسلامي لم تكن أصوله قاصرة على دعوة الخلق الى الحق وملاحظة أحوال النفوس من جهة كونها روحانية مطلوبة من هذا العالم الأدنى الى عالم أعلى بل هي كما كانت كافلة لهذا جاءت وافية بوضع حدود المعاملات بين العباد وبيان الحقوق كليلها وجزئها وتحديد السلطة الوازعة التي تقوم بتنفيذ المشروعات واقامة الحدود وتعيين شروطها حتى لا يكون القابض على زمامها الا من أشد الناس خضوعاً لها ولن

ينالها بوراثة ولا امتياز في جنس أو قبيلة أو قوة بدنية أو ثروة مالية وإنما ينالها بالوقوف عند أحكام الشريعة والقدرة على تنفيذها ورضا الأمة . فيكون وازع المسلمين في الحقيقة شريعتهم المقدسة الإلهية التي لا تميز بين جنس و جنس واجتماع آراء الأمة وليس للوازع أدنى امتياز عنهم الا بكونه أحرصهم على حفظ الشريعة والدفاع عنها

وكل فخر تكسبه الانساب وكل امتياز تفيده الأحساب لم يجعل له الشارع أترافى وقاية الحقوق وحماية الأرواح والأموال والأعراض بل كل رابطة سوى رابطة الشريعة الحققة فهي ممقوتة على لسان الشارع والمعتمد عليها مذموم والمتعصب لها معلوم فقد قال صلى الله عليه وسلم « ليس منامن دعا الى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية وليس منا من مات على عصبية » والآحاديث النبوية والآيات المنزلة متضافرة على هذا ولكن يمتاز بالكرامة والاحترام من يفوق الكفاة في التقوى (اتباع الشريعة) « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » ومن ثم قام بأمر المسلمين في كثير من الأزمان على اختلاف الأجيال من لا شرف في جنسه ولا امتياز له في قبيله ولا ورث الملك عن آباءه ولا طلبه بشيء من حسبه ونسبه وما رفعه الى منصة الحكم الا خضوعه للشرع وعنايته بالمحافظة عليه

وان بسطة ملك الوازعين في المسلمين كانت يسديها اليهم على حسب امتثالهم للأحكام الإلهية واهتدائهم بهديها وتجردهم من الاعتلاء الشخصي وكلما أراد الوازع أن يختص نفسه بما يفوق به غيره في ابته ورفاهة معيشته وأن يستأثر على المحكومين بمحظ زائد رجعت الأجناس الى تعصبها ووقع الاختلاف وانقبضت سلطة ذلك الوازع

هذا ما أوردنا اليه سير المسلمين من يوم نشأة دينهم الى الآن لا يعتدّون برابطة الشعوب وعصبات الأجناس وإنما ينظرون الى جامعة الدين لهذا ترى العربي لا ينفر من سلطة التركي والفارسي يقبل سيادة العربي والهندي يدعن لرياسة الافغاني ولا اشميراز عند احد منهم ولا انقباض . وان المسلم في تبدل حكوماته لا يأنف ولا يستنكر ما يعرض عليه من أشكالها وانقلها من قبيل الى

قبيل ما دام صاحب الحكم حافظاً لشأن الشريعة ذاهبا مذهبها . نعم اذا نبا في سيره عنها وجار في حكمه عما نصت عليه وطالب الاثرة بما ليس من حقه انصدت منه القلوب وانحرفت عن محبته الانفس وأصبح وان كان وطنياً فيهم أشنع حالاً من الاجنبي عنهم

ان المسلمين اختصوا من بين سائر أرباب الأديان بالناثر والأسف عند ما يسمعون بانفصال بقعة اسلامية عن حكم اسلامي بدون التفات الى جنسها وقبيلها ولو أن حاكماً صغيراً بين قوم مسلمين من أي جنس كانت تبع الاوامر الالهية وثابر على رعايتها وأخذ الدهماء بمحدودها وضرب بسهمه مع المحكومين في الخضوع لها وتجافي عن الاختصاص بمزايا الفخفة الباطلة لأنه لا يجوز بسطة في الملك وعظمة في السلطان وان ينال الغاية من رفعة الشأن في الاقطار المعمورة بارباب هذا الدين ولا يتجشم في ذلك اتعاباً ولا يحتاج الى بذل النفقات ولا تكشير الجيوش ولا مظاهره الدول العظيمة ولا مداخله أعوان التمدن وأنصار الحرية . ويستغني عن كل هذا بالسير على نهج الخلفاء الراشدين والرجوع الى الاصول الاولى من الديانة الاسلامية القويمة ومن سيره هذا تنبعث القوة وتتجدد لوازم المنفعة . أكرر عليك القول بأن السبب هو أن الدين الاسلامي لم تكن وجهته كوجهة سائر الأديان الى الآخرة فقط ولكنه مع ذلك أتى بما فيه مصلحة العباد في دنياهم وما يكسبهم السعادة في الدنيا والتنعيم في الآخرة وهو المعبر عنه في الاصطلاح الشرعي بسعادة الدارين وجاء بالمساواة في أحكامه بين الاجناس المتباينة والامم المختلفة

ايضت عين الدهر وامتقع لون الزمان حتى أصاب أن بعضاً من المسلمين على حكم الندرة يعز عليهم الصبر ويضيق منهم الصدر لجور حكامهم وخروجهم في معاملتهم عن أصول العدالة الشرعية فياجأون للدخول تحت ساطة أجنبية على أن الندم يأخذ بارواحهم عند أول خطوة يخطونها في هذا الطريق فمثلهم مثل من يريد الفتك بنفسه حتى اذا أحس بالالم رجع واسترجع . وان بعض ما يطرأ على الممالك الاسلامية من الانقسام والتفريق إنما يكون منشأه قصور الوازعين وحيدانهم

عن الاصول القويمة التي بنيت عليها الديانة الاسلامية وانحرف عنهم عن مناهج اسلافهم الاقدمين فان منابذة الاصول الثابتة والنكوب عن المناهج المألوفة اشد ما يكون ضررها باسلطه العليا فاذا رجع الوازعون في الاسلام الى قواعد شرعهم وماروا سيرة الاولين السابقين لم يمض قليل من الزمان الا وقد آتاهم الله بسطة في الملك والحثهم في العزة بالراشدين من ائمة الدين وفقنا الله للسداد وهدانا طريق الرشاد

ماضي الامة وحاضرها وعلاج عللها

نشرت في العدد الثالث من العروة الوثقى بالعنوان الآتي

سنة الله في الدين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا

أرأيت أمة من الامم لم تكن شيئا مذكورا ثم انشقت عنها عماء العدم فاذا هي بحمية كل واحد منها كون بديع النظام قوي الاركان شديد النيان عليها سجاج من شدة البأس ويحيطها سور من منعة الهمم تخمد في ساحاتها عاصفات النوازل وتنحل بأيدي مدبرها عقد المشا كل نمت فيها افنان العرة بعد ما ثبتت اصولها ورسخت جذورها وامتد لها السلطان على البعيد عنها والداني اليها ونفذت منها الشوكة وعلت لها الكلمة وكملت القوة فاستعلت آدابها على الآداب وسادت أخلاقها وعاداتها على ما كان من ذلك لسابقيها ومعاصريها وأحست مشاعر سواها من الامم بان لا سعادة الا في انتهاج منهجها وورود شريعته وصارت وهي قليلة العدد كثيرة الساحات كأنها للعالم روح مدبر وهو لها بدن عامل

وبعد هذا كله وهي بناؤها وانتثر منظومها وتفرقت فيها الاهواء وانشقت العصا وتبدد ما كان مجتمعاً وأنحل ما كان منعقدا وانفصمت عرى التعاون وانقطعت روابط التعاضد وانصرفت عزائم أفرادها عما يحفظ وجودها ودار كل في محيط شخصه المحدود بنايات بدنه لا يلمح في مآظره بارقة من حقوقها السكينة والجزئية وهو في غيبة عن ان ضروريات حاجاته لا تنال الا على أيدي الملتخبين معه بلحمة الامة وأنه أحوج الى شد عضدهم من تقوية ساعده والى

توفير خبرهم من تنمية رزقه وكأنه بهذه الغيبة في سبات يخيله الناظر اليه صحوا وذبول يظنه المفرور زهوا وأخذ القنوط بأمال اوائك المدهوشين فأبادها وحدثت فيهم قناعة بهم والرضا بكل حال ولئن تنبه خاطر للحق في خيال احدهم او استنفضه داع من قلبه الى ما يكسب ملته شرفاً او يعيد لها مجدا عدده هوساً وهذياناً اصيب به من ضعف في المزاج او خلل في البنية او حسب أنه لو أجاب داعي الذمة لعاد عليه بالو بال واورده موارد الهلكة او لصار من اقرب الاسباب لزوال نعمته ونكد معيشته ويحكم لنفسه سلاسل من الجبن وأغلالا من اليأس فنزل يدها عن العمل وثقف قدماءه عن السعي ويمحس بعد ذلك بغاية العجز عن كل ما فيه خيره وصلاحه ويقصر نظره عن درك ما أتى اسلافه من قبله وتجمد قريحته عن فهم ما قام به أولئك الآباء الذين تركوه خلية على ما كسبوا وقيا على ما أورثوه لآعقابهم ويبلغ هذا المرض من الامة حدا يشرف بها على الهلاك ويطرحها على فراش الموت فريسة لكل عاد وطعمة لكل طاعم .

نعم رأيت كثيراً من الامم لم تكن ثم كانت، وارتفعت ثم انحطت، وقويت ثم ضعفت، وعزت ثم ذلت، وصحت ثم مرضت، وليكن أليس لكل علة دواء؟ بلى وأسفا ما أصعب الداء وما اعز الدواء . وما اقل العارفين بطرق العلاج كيف يمكن جمع الكلمة بعد افتراقها وهي لم تفرق الا لأن كلا عكف على شأنه . . . استغفر الله ، لو كان له شأن يعكف عليه لما انفصل عن اخيه وهو أشد اعضائه اتصالا به ولكنه صرف لشؤون غيره وهو يظنها من شؤون نفسه نعم ربما التفت كل الى ما هو في فطرة كل حي من ملاحظة حفظ حياته بمادة غذائه وهو لا يدري من أي وجه يحصلها ولا بأية طريقة يكون في أمن عليها . كيف تبعث الهمم بعد موتها وما ماتت الا بعد ما سكنت زمانا غير قصير الى ما ليس من معاليها؟ هل من السهل رد الثائت الى الصراط المستقيم وهو يعتقد ان الفوز في سلوكه سواء خصوصا بعدما استدبر المقصد وفي كل خطوة يظن انه على مقربة من الخطوة؟ كيف يمكن تنبيه المستغرق في منامه المبهج بأحلامه وفي اذنه وقر في ملامسه خدره؟ هل من صيحة تقرر قلوب الآحاد المتفرقة من أمة عظيمة

تتبعها انحوائها وتتناهى أطرافها وتباین عاداتها وطبائعها؟ هل من نبأة تجمع أهواها المتفرقة وتوحد آراءها المتخالفة بعد ما تراكم جهل وران غبن وخيل للعقول ان كل قريب بعيد وكل سهل وعز؟ أيم الله انه لشيء عسير يعيا في علاجه النطاسي ويحار فيه الحكيم البصير . هل يمكن تعيين الدواء الا بعد الوقوف على أصل الداء وأسبابه الأولى والعوارض التي طرأت عليه؟ ان كان المرض في أمة فكيف يمكن الوصول الى علله وأسبابه الا بعد معرفة عمرها وما اعترها فيه من تنقل الاحوال وتنوع الاطوار؟ أيمكن لطبيب يعالج شخصا بعينه أن يخار له نوعا من العلاج قبل ان يعرف ما عرض له من قبل في حياته ليكون على بينة من حقيقة المرض؟ والا فان كثيرا من الامراض تتولد جراثيمها في طور من اطوار العمر ثم لا تظهر الا في طور آخر لتغلب قوة الطبيعة على مادة المرض فلا يبدو أثرها . كلا انه ليصعب على الطبيب الماهر تشخيص علة لشخص واحد سنو عمره محدودة وعوارض حياته محصورة فكيف بمن يريد مداواة ملة طويلة الأجل وافرة العدد؟ لهذا يندر في أجيال وجود بعض رجال يقومون باحياء أمة أو ارجاع شرفها ومجدها اليها وان كان المشبهون بهم كثيرين . وكما ان المتطبب القاصر في الامراض البدنية لا يزيد علاجه المرض الا شدة لولا مساعدة الاتفاق والصدفة بل ربما يفضي بالمريض الى الموت كذلك يكون حال الذين يقومون بتعديل أخلاق الامم على غير خبرة تامة بشأنها وموجب اغتلاها ووجوه العلة فيها وأنواعها وما يكتنف ذلك من العادات وما يوجد في أفرادها من المذاهب والاعتقادات وحوادثها المتتابعة على اختلاف مواقعها من الارض ومكانتها الاولى من الرفعة ودرجتها الحالية من الضعة وتدرجها فيما بين المراتبين فان أخطأ طالب اصلاحها في اكتناه شيء مما ذكرنا تحول الدواء داء والوجود فناء . فمن له حظ من الكمال الانساني ولم يطمس من قلبه موضع الالهام الالهي لا يجرأ على القيام بما يسمونه تربية الامم واصلاح ما فسد منها وهو يحس من نفسه أدنى قصور في أداء هذا الامر العظيم علما أو عملا . نعم يكون ذلك من محبي الفخفة الباطلة وطلاب العيش في ظل وظائف ليسو من حقوقها في شيء .

ظن أقوام في هذه الازمان ان امراض الامم تعالج بنشر الجرائد وأنها تكفل أنهاض الهمم وتنبيه الافكار وتقويم الاخلاق . كيف يصدق هذا الظن وإنا لو فرضنا أن كتاب الجرائد لا يتصدون بما يكتبون الانجاح الامم مع التثوره عن الاغراض فبعد ماعم الذهول واستولت الدهشة على العقول وقل القارئون والكتابون لا تجد لها قارئاً ولئن وجدت القاري فقلما تجد الفاهم والفاهم قدي يحمل ما يجده على غير ما يراد منه لضيق في التصور أو ميل مع الهوى فلا يكون منه الا سوء التأثير فيشبهه غذاء لا يلائم الطبع فيزيد الضرر اضعافاً . على ان الهمة اذا كانت في درك الهبوط فمن يستطيع تفهيمها فائدة الجرائد حتى تتجه منها الرغبات لاستطلاع ما فيها مع قصر المدة وتدفق سيول الحوادث ان هذا وحقك لعز يز .

ويظن أقوام آخرون ان الامة المنبثة في أقطار واسعة من الارض مع تفرق أهوائها واخلادها الى مادون رتبها بدرجات لا تحصر ورضاها بالدون من العيش والتماس الشرف بالانتماء لمن ليس من جنسها ولا مشربها بل لمن كان خاضعاً لسيادتها راضخاً لاحكامها مع هذا كله يتم شفاها من هذه الامراض القاتلة بانشاء المدارس العمومية دفعة واحدة في كل بقعة من بقاعها وتكون على الطرز الجديد المعروف بأوربا حتى تعم المعارف جميع الافراد في زمن قريب ومتى عممت المعارف كملت الاخلاق واتحدت الكلمة واجتمعت القوة . وما أبعد ما يظنون فان هذا العمل العظيم انما يقوم به سلطان قوي قاهر يحمل الامة على ما تكره ازمانا حتى تذوق لذته وتجنح ثمرته ثم يكون ميلها الصادق من بعد نائباً عن سلطانه في تنفيذ ما أراد من خيرها ويلزم له ثروة وافرة تفي بنفقات تلك المدارس وهي كثيرة وموضوع كلامنا في الضعف ودأوته فهل مع الضعف سلطة تقهر وثررة تغني ولو كان للامة هذان لما عدت من الساقطين . فان قالوا يمكن التدريج مع الاستمرار والثبات وافقناهم على الامكان لولا ما يكون من طمع الاقوياء حتى لا يدعون لهم سبيلا لان يستنشقوا نسيم القوة فأين الزمان لنجاح تلك الوسائل البطيئة الاثر . . علي أنا لو فرضنا مسالة الدهر ومنحت الامة مدة من الزمان

تكفي لبث تلك العلوم في بعض الافراد والاستزادة منها شياً فشيأً فهل يصح الحكم بأن هذا التدرج يفيد فائدة جوهرية وان ما يصيبه البعض منها هبوطه للكمال الاثني وبمكته من القيام ارشاد الباقي من أبناء امته واعجباً كيف يكون هذا وان الامة في بعد عن معرفة تلك العلوم الغريبة عنها وكيف بذرت بذورها وكيف نبتت واستوت على سوقها وأينعت وأثمرت وبأي ماء سقيت وبأي تربة غذيت ولا وقوف لها على الغاية التي قصدت منها في مناشئها ولا خبرة لها بما يترتب عليها من الثمرات وان وصل إليها طرف من ذلك فانما يكون ظاهراً من القول لانبا عن الحقيقة . فهل مع هذا يصيب الظن بأن مفاجأة بعض الافراد بها وسوقها الى اذهانهم المشحونة بغيرها يقوّم من أفكارهم ويعدل من اخلاقهم ويهديهم طرق الرشاد في افادة اخوانهم . لعل الاقرب ان ناقلي تلك العلوم وهم من امة هذا شأنها مع ما ينعكس اليهم من الادهام المألوفة فيها وما رسخ في نفوسهم على عهد الصبا وما يعظمونه من أمر الامة التي تلقوا عنها علومهم يكونون بين أمتهم كخلط غريب لا يزيد طبائعها الا فساداً .

ماذا يكون من أولئك الناشئين في علوم لم تكن بناييعها من صدورهم ولو صدقوا في خدمة أوطانهم ؟ يكون منهم ما تعطيه حالهم . يؤدون ما تعلموه كما سمعوه لا يراعون فيه النسبة بينه وبين مشارب الامة وطبائعها وما حرنت عليه من عاداتها فيستعملونه على غير وضعه ولبعدهم عن أصله ولهولهم بحاضره عن ماضيه وغفلتهم عن آتية يظنونهم على ما بلغهم هو الكمال لكل نفس والحياة لكل روح فيرومون من الصغير ما لا يرام الامن الكبير وبالعكس غير ناظرين الا الى صور ما تعلموه ولا مفكرين في استعداد من يعرض عليهم وهل يكوزله من طبائعهم مكان يحمد أو يزيد لها على ما بها أضعافاً وما هذا الا لكونهم ليسوا أربابها وانما هم لها نقلة وحملة . فهو لاء الصادقون الامن وفقه الله منهم بعنايته الالهية يكون مثلهم كمثل والدته حنون يلد لها غذاء فتقبض منه على ولدها وهو رضيع ليساهمها في اللذة وسنه سن اللبان لا يقبل سواه فيسرع اليه المرض وبنتهي به الى التاف فتكون منزلتهم من الامة منزلة الآلة المحملة يشتنون بقية الجمع ويبددون أخرياب اللثام ان كان الفساد أتقى للقوم بعض الروابط

فهؤلاء المغرورون يغشونهم بما يذهلهم عنها وما قصدوا الاخيرا ان كانوا مخلصين ويوسعون بذلك الحصص (الخرق في باب ونحوه) حتى تعود ابوابا ويواعدون ما بين الضفاف حتى تصير ميادين لتداخل الاجانب تحت اسم النصحاء وعنوان المصلحين ويذهبون بأمتهم الى الفناء والاضمحلال وبتئس المصير .

شيد العثمانيون والمصريون عددا من المدارس على النمط الجديد وبعثوا بطوائف منهم إلى البلاد الغربية ليحملوا اليهم ما يحتاجون له من العلوم والمعارف والصنائع والآداب وكل ما يسمنونه تمدناً وهو في الحقيقة تمدن للبلاد التي نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الانساني . هل انتفع المصريون والعثمانيون بما قدموا لأنفسهم من ذلك وقد مضت عليهم ازمان غير قصيرة . هل صاروا أحسن حالاً مما كانوا عليه قبيل التمسك بهذا الحبل الجديد . هل استنقذوا أنفسهم من أذياب الفقر والفاقة هل نجوا بها من ورطات ما يلجئهم اليه الاجانب بتصرفاتهم . هل أحكموا الحصون وسدوا الثغور هل نالوا بها من المنعة ما يدفع عنهم غارة الأعداء عليهم . هل بلغوا من البصر بالعواقب والتصرف في الافكار - حدا يميل عزائم الطامعين عنهم . هل وجدت فيهم قلوب مازجتها روح الحياة الوطنية فهي تؤثر مصلحة البلاد على كل مصلحة وتطلبها وان تجاوزت محيط الحياة الدنيا وان بادت في سبيلها خلفها وراث على شاكلتها كما كان في كثير من الامم

نعم ربما يوجد بينهم افراد يتفهمون بألفاظ الحرية والوطنية والجنسية وما شاكلها ويصوغونها في عبارات متقطعة براء لا تعرف غايتها ولا تعلم بدايتها وسموا أنفسهم بزعماء الحرية أو بسمة أخرى على حسب ما يخنثرون ووقفوا عند هذا الحد ومنهم آخرون عمدوا الى العمل بما وصل اليهم من العلم فقلبوا أوضاع المباني والمسكن وبدلوا هيئات المآكل والملابس والفرش والآنية وسائر الماعون وتنافسوا في تطبيقها على أجود ما يكون منها في الممالك الاجنبية وعدوها من مفاخرهم وعرضوها معرض المباهاة فنسفوا بذلك ثروتهم الى غير بلادهم واعتاضوا عنها أعراض الزينة بما يروق منظره ولا يحمد أثره فأماتوا أرباب الصنائع من قومهم وأهلكوا العاملين في المهن لعدم اقتدارهم ان يقوموا بكل ما تستدعيه تلك العلوم

الجديدة والكليات الجديدة لأن مصانعهم لم تتحول الى الطرز الجديد وأيديهم لم تعود على الصنع الجديد وثروتهم لانسع جلب الآلات الجديدة من البلاد البعيدة وهذا جدع لأنف الأمة يشوه وجهها ويحط بشأنها وما كان هذا الا لأن تلك العلوم وضعت فيهم على غير أساسها وفجأتهم قبل أوانها . . .

علمتنا التجارب ونطقت مواضي الحوادث أن المقلدين من كل أمة المتحلين اطوار غيرها يكونون فيها منافذ وكوى لتطرق الاعداء اليها وتكون مداركهم مما ط الوساوس ومخازن الدسائس بل يكونون بما أفعمت أفئدتهم من تعظيم الذين قدوهم واحتقار من لم يكن على مثالهم شوماً على أبناء أمتهم يذلونهم ويحقرن أمرهم ويستهنون بجميع أعمالهم وان جلت وان بقي في بعض رجال الأمة بقية من الشم أو نزوع الى معالي المهم انصبوا عليه وأرغوا من أنفه حتى يمحي أثر الشهامة وتخمد حرارة الغيرة ويصير اولئك المقلدون طلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات يمدون لهم السبيل ويفتحون الأبواب ثم يشبتون أقدامهم ويمكنون سلطانهم ذلك بهم لا يعلمون فضلاً لغيرهم ولا يظنون ان قوة تغالب قواهم .

أقول ولا أخشى لوما لو كان في البلاد الافغانية عدد قليل من تلك الطلائع عند ما تغلب على بعض أراضيها الانكليز لما بارحوها أبد الأبدان . ان نتيجة العلم عند هؤلاء ليست الا توطيد المسالك والركون الى قوة مقلديهم واستقبال مشارق فنونهم فيياغون في تطمين النفوس وتسكين القلوب حتى يزولن الوحشة التي قد يصون بها الناس حقوقهم ويحفظون بها استقلالهم ولهذا لو طرق الاجانب أرضاً لاية أمر ترى هؤلاء المتعلمين فيها يقبلون عليهم ويعرضون أنفسهم لخدمتهم بعد الاستبشار بقدمهم ويكونون بطانة لهم ومواضع لثقتهم كأنما هم منهم ويعدون الغلبة الاجنبية في بلادهم مباركة عليهم وعلى أعقابهم .

فما الحيلة وما الوسيلة والجرائد بعيدة الفائدة ضعيفة الأثر لو صحت الضمائر فيها والعلوم الجديدة لسوء استعملها رأينا مارأينا من آثارها والوقت ضيق والخطب شديد؟ أي جهوري من الاصوات يوقظ الراقدين على حشايا الغفلات؟ أي قاصفة تزعج الطباع الجمادة وتحرك الافكار الحامدة؟ أي نفخة تبعث هذه

الأرواح في أجسادها، وتحشرها الى مواقف صلاحها وفلاحها؟ الاقطار فسيحة الجوانب، بعيدة المناكب، المواصلات عمرة بين الشرقي والغربي والجنوبي والشمالى، الرووس مطرقة الى ماتحت القدم أو منغضة الى مافوق السماء، ليس للابصار جولان الى الأمام والخلف واليمين والشمال ولا للأسماع إصغاء ولا للنفوس رغبات وللأهواء تحكم وللوساوس سلطان ما ذا يصنع المشفقون على الأمة والزمن قصير؟ ماذا يحاولون والا خطار محمّدة بهم؟ بأي سبب يتمسكون ورسل المنايا على أبوابهم؟

لا أظيل عليك بحثاً ولا أذهب بك في مجالات بعيدة من البيان ولكني استلفت نظرك الى سبب يجمع الاسباب ووسيلة تحييط بالوسائل . أرسل طرفك الى نشأة الأمة التي خلت بعد النباهة وضعفت بعد القوة واسترقت بعد السيادة وضيمت بعد المنعة وتبين أسباب نهوضها الأول حتى تتبين مضارب الخلل وجراثيم العلل فقد يكون ما جمع كلمتها وأنهمض همم آحادها ولحم ما بين أفرادها وصعد بها الى مكانة تشرف منها على رؤوس الأمم وتسوسهم وهي في مقامها بدقيق حكمتها انما هو دين قويم الأصول محكم القواعد شامل لانواع الحكم باعث على الألفة داع الى المحبة مركز للنفوس مطهر للقلوب من أدران الحسائس منور للعقول باشراف الحق من مطالع قضاياه كافل لكل ما يحتاج اليه الانسان من مباني الاجتماعات البشرية وحافظ وجودها وينادي بمعتقديه الى جميع فروع المدنية . فان كانت هذه شرعتها ولها وردت وعنها صدرت فما تراه من عارض خللها وهبوطها عن مكانتها انما يكون من طرح تلك الأصول ونبذها ظهرياً وحدوث بدع ليست منها في شيء اقامها المعتقدون مقام الاصول الثابتة وأعرضوا عما يرشد اليه الدين وعما أنى لأجله وما أعدته الحكمة الإلهية له حتى لم يبق منه الا أسماء تذكر وعبارات تقرأ فتكون هذه المحدثات حجاباً بين الامة وبين الحق الذي تشعر بندائه أحياناً بين جوانبها فعلاجها الناجع انما يكون برجوعها الى قواعد دينها والاخذ بأحكامه على ما كان في بدايته وإرشاد العامة بمواعظه الوافية بتطهير القلوب وتهذيب الاخلاق وايقاد نيران

الغيرة وجمع الكلمة وبيع الارواح لشرف الامة ولأن جرثومة الدين متأصلة في النفوس بالوراثة من أحقاب طويلة والقلوب مطمئة اليه وفي زواياها نور خفي من محبته فلا يحتاج القائم بإحياء الامة الا الى نفخة واحدة يسري نفعها في جميع الارواح لا قرب وقت فاذا قاموا لشؤونهم ووضعوها اقدامهم على طريق نجاتهم وجعلوا أصول دينهم الحقة نصب أعينهم فلا يعجزهم بعد ان يبلغوا بسيرهم منتهى الكمال الانساني ومن طاب اصلاح أمة شأنها ما ذكرنا بوسيلة سوى هذه فقد ركب بها شططاً وجعل النهاية بداية وانعكست التربية وخالف فيها نظام الوجود فينعكس عليه القصد ولا يزيد الامة الانحسار ولا يكسبها الاتعسا .

هن تعجب أيها القارئ من قولي ان الاصول الدينية الحقة المبرأة عن محدثات البدع تنشى الأمم قوة الاتحاد وتلاف الشمل وتفضيل الشرف على لذة الحياة وتبعثها على اقتناء الفضائل وتوسيع دائرة المعارف وتنتهي بها الى أقصى غاية في المدنية ؟ ان عجبت فان عجبك أشد . هل نسيت تاريخ الامة العربية وما كانت عليه قبل بعثة الدين من الهمجية والشتات واتيان الدنيا والمنكرات حتى اذا جاءها الدين فوحدها وقواها وهذبها ونور عقولها وقوم أخلاقها وسدد أحكامها فسادت على العالم وساست من تولته بسياسة العدل والانصاف وبعد ان كانت عقول أبنائها في غفلة عن لوازم المدنية ومقتضياتها نهبها شريعتها وآيات دينها الى طلب الفنون المتنوعة والتبخر فيها وتقلوا الى بلادهم طب بقراط وجالينوس وهندسة أفليدس وهيئة بطليموس وحكمة أفلاطون وأرسطو وما كانوا قبل الدين في شيء من هذا وكل أمة سادت تحت هذا اللواء انما كانت قوتها ومدنيتها في التمسك بأصول دينها

وقد تكون نشأة الأمة قائمة بدعوة الملك وافتتاح الاقطار وطلب السيادة على الأمصار وتلك الدعوة لما تستدعيه من عظم الهمم وارتفاع النفوس عن الدنيا وبعد الغايات وعلو المقاصد هي التي هذبت أخلاقهم وقومت أفكارهم وكفقتهم عن معاطاة الرذائل وخسائس الامور وسوافلها ثم بعد ماضى زمان من نشأتها أصابها من الإنحطاط ما أصابها . فبيان أسباب الخلل فيها وعلائمه نفرده فصلًا

مستقلا في عدد آخر ان شاء الله وهو الموفق للصواب

النصرانية والاسلام واهلهما

مقابلة بينهما في طلب العزة والسيادة من العدد الرابع نشرت بالعنوان الاتي

إِزَّ فِي ذَلِكَ لِذِكْرِي لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ

خلق الله الانسان عالما صناعياً ويسر له سبيل العمل لنفسه وهداه للإبداع والاختراع وقدر له الرزق من صنع يديه بل جعله ركن وجوده ودعامة بقائه فهو على جميع أحواله من ضيق وسعة وخشونة ورفاهة وتبدل وحضارة صنيمية أعماله - أقوانه من معالجة الارض بالزراعة أو قيامه على الماشية وسرايله وما يقميه الحر أو البرد والوجي من عمل يديه نسجا أو خصفا واكثانه ومساكنه ليست الا مظاهر تقديره وتفكيره وجميع ما ينفن فيه من دواعي ترفه ونعيمه إنما هي صور أعماله ومجالي أفكاره ولو نفن يديه من العمل لنفسه ساعة من الزمان وبسطاً أ كفه للطبيعة ليستجديها نفساً من حياة لشحت به عليه بل دفعته الى هاوية العدم وهو في صنعه وإبداعه محتاج الى اسنذ يثقفه وهاد يرشده فكما يعمل لتوفير لوازم معيشته وحاجات حياته يعمل ليعلم كيف يعمل وليقتدر على ان يعمل فصنعتة ايضاً من صنعه فهو في جميع شؤونه الحيوية عالم صناعي كأنه منفصل عن الطبيعة بعيد من آثارها حاجته اليها كحاجة العامل لآلة العمل هذا هو الانسان في مأ كله ومشر به وملبسه ومسكنه

دعه في هذه الحالة وخذ طريقاً من النظر الى أحواله النفسية من الادراك والتفعل والأخلاق والمسلكات والانفعالات الروحية تجده فيها ايضاً عالماً صناعياً شجاعته وجبنته، جزعه وصبره، كرمه وبخله، شهامته وندائته، قوته ولينه، عفنه وشره، وما يشابهها من السلالات والنقائص جميعها تابع لما يصادف في تربته الأولى وما يودع في نفسه من أحوال الذين نشأ فيهم وتربي بينهم مراحي أفكاره ومناهج تفعله ومذاهب ميله ومطامح رغباته ونزوعه الى الأسرار الإلهية أو ركونه الي

البحث في الخواص الطبيعية وعنايته باكتشاف الحقيقة في كل شيء أو وقوفه عند بادي الرأي فيه وكل ما يرتبط بالحركات الفكرية انما هي ودائع اختزنها لديه الآباء والامهات والاقوام والعشائر والمخاطون أما هواء المولد والمربي ونوع المزاج وشكل الدماغ وتركيب البدن وسائر الغواشي الطبيعية فلا أثر له في الاعراض النفسية والصفات الروحانية، الا ما يكون في الاستعداد والقابلية، على ضعف في ذلك الاثر فان التربية وما ينطبع في النفس من أحوال المعاشرين وأفكار المتقنين تذهب به كأن لم يكن أودع في الطبع . نعم ان أفكارنا تنجدد، ومعتقدات من اخرى تتولد، وصفات تسمو، وهمما تعلو، حتى يفوق اللاحقون فيها السابقين ويظن أن هذا من تصرف الطبيعة لا من آثار الاكتساب ولكن الحق فيه أن ثمرة ما غرس ونتيجة ما كسب فهو مصنوع يتبع مصنوعا فالانسان في عقله وصفات روحه عالم صناعي هذا مما لا يرتاب عليه العقلاء والسذج ولكن هل تذكرت مع هذا ان الاعمال البدنية، انما تصدر عن الملائكات والعزائم الروحية، وان الروح هي السلطان القاهر على البدن؟ أظنك لا تحتاج فيه الى تذكير لأنه مما لا يعزب عن الاذهان انما قيل الدخول في موضوعنا أقول كلمة حق في الدين ولا أظن منكرها مجدها،

ان الدين وضع آلهي ومعلمه والداعي اليه البشر تلقاه العقول عن المبشرين المنذرين فهو مكسوب لمن لم يختصهم الله بالوحي ومنقول عنهم بالبلاغ والدراسة والتعليم والتلقين وهو عند جميع الامم أول ما يمتزج بالقلوب ويرسخ في الافئدة وتصبغ النفوس بعقائده وما يتبعها من المملكات والعادات وتتمرن الابدان على ما ينشأ عنه من الاعمال عظيمها وحتيرها فله السلطة الاولى على الافكار وما يطاوعها من العزائم والارادات فهو سلطان الروح ومرشدها الى ما تدبره بدنها وكأنما الانسان في نشأته لوح صقيل واول ما يخط فيه رسم الدين ثم ينبعث الى سائر الاعمال بدعوته وارشاده وما يطرأ على النفوس من غيره فانما هو نادر شاذ حتى لو خرج مارق عن دينه لم يستطع الخروج عما أحدثه فيه من الصفات بل تبقى طبعته فيه كأثر الجرح في البشرة بعد الاندمال

و بعد هذا الموضوع بحثنا الآن الملة المسيحية والملة الاسلامية وهو بحث

طويل الذيل وانما تأتي به على اجمال يذئك عن تفصيل . ان الديانة المسيحية بنيت على المسالمة والمياسرة في كل شيء وجاءت برفع القصاص واطراح الملك والسلطة ونبذ الدنيا وبهرجها ووعظت بوجود الخضوع لكل سلطان بحكم المندوبين بها وترك أموال السلاطين للسلاطين والابتعاد عن المنازعات الشخصية والجنسية بل والدينية ومن وصايا الانجيل: من ضربك على خدك الايمن فأدرله الايسر: ومن أخبره ان الملك انما ولايتهم على الاجساد وهي فانية والولاية الحقيقية الباقية على الارواح وهي لله وحده . فمن يقف على مباني هذه الديانة ويلاحظ ما قلنا من ان الدين صاحب الشوكة العظمى على الافكار مع ملاحظة ان لكل خيال أثر في الارادة يتبعه حركة في البدن على حسبه يعجب كل العجب من أطوار الآخذين بهذا الدين السلمي المنتسبين في عقائدهم اليه فهم يتسابقون في المفاخرة والمباهاة بزينة هذه الحياة ورفه العيش فيها ولا يقفون عند حد في استيفاء لذاتها ويسارعون الى افتتاح الممالك والتغلب على الاقطار الشاسعة ويخترعون كل يوم فنا جديدا من فنون الحرب وبيدعون في اختراع الآلات الحربية القاتلة ويستعملها بعضهم في بهض ويصولون بها على غيرهم وبيالغون في ترتيب الجيوش وتدبير سوقها في ميادين القتال ويصرفون عقولهم في احكام نظامها حتي وصلوا غاية صار بها الفن العسكري من أوسع الفنون وأصعبها وان أصول دينهم صارفة لعقولهم عن العناية بحفظ أملاكهم فضلا عن الالتفات الى طلب غيرها

الديانة الاسلامية وضع أساسها على طلب القلب والشوكة والافتتاح والعدة ورفض كل قانون يخالف شريعته ونبذ كل سلطة لا يكون القائم بها صاحب الولاية على تنفيذ أحكامها فالناظر في أصول هذه الديانة ومن يقرأ سورة من كتابها المنزل بحكم حكما لاربية فيه بأن المعتقدين بها لا بد ان يكونوا أول ملة حربية في العالم وان يسبقوا جميع الملل الى اختراع الآلات القاتلة واتقان العلوم العسكرية والتبحر فيما يلزمها من الفنون كالطبيعة والكيمياء وجر الاثقال والهندسة وغيرها ومن تأمل في آية «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة» أيقن ان من صبغ

بهذا الدين فقد صبغ بحب الغلبة وطلب كل وسيلة الى ما يسهل له سبيلها والسعي اليها بتمدر الطاقة البشرية فضلاً عن الاعتصام بالمنعة والامتناع من تغلب غيره عليه ومن لاحظ ان الشرع الاسلامي حرم المراهنة الا في السباق والرماية انكشف مقدار رغبة الشارع في معرفة الفنون العسكرية والتمرن عليها ولكن مع كل ذلك تأخذ الدهشة من أحوال المتمسكين بهذا الدين لهذه الاوقات اذ يراهم يتهاونون بالقوة ويتساهلون في طلب لوازمها وليست لهم عناية بالبراعة في فنون القتال ولا في اختراع الآلات حتى فاقهم الامم سواهم فيما كان أول واجب عليهم واضطروا لتقليدها فيما يحتاجون اليه من تلك الفنون والآلات وسقط كثير منهم تحت سيطرة مخالفهم واستكانوا لها ورضخوا لأحكامها ومن وازن بين الديانتين حار فكره كيف اخترع مدفع الكروب والمتراليوز وغيرها بأيدي أبناء الديانة الأولى قبل الثانية وكيف وجدت بندقية مرتين في ديار الألبان قبل وجودها عند الآخرين وكيف أحكمت الحصون ودرعت البواخر وأخذت معانق البحار بسواعد أهل السلامة والسلم دون أهل الغلبة والحرب

لم لا بحار الحكيم وان كان نطاسياً، لم لا يقف الخبير البصير دون استئكناه الحقيفة؟ هل القرون الخالية والاحتجاب الماضية لم تكن كافية لرسوخ الديانتين في نفوس المستمسكين بهما؟ هل نبذت كل ملة من الملتين عقائد دينها ظهرياً من اجيال بعيدة؟ هل اقتصر النصراني في دينهم على الاخذ بشريعة موسى واقنفاء سيرة يوشع بن نون؟ هل تحملت بعض آيات الانجيل من حيث يدرى ولا يدرى بين الخطب والمواعظ التي تتلى على منابر المسلمين أو ألقى شي منها في أمانى معلمهم وناشري شريعته عند ما يتربعون في محافل دروسهم؟ هل تبدلت سنة الله في الملتين؟ هل تحول مجرى الطبيعة فيهما؟ هل استبدت الابدان فيهما على الارواح أو وجد للارواح دبير سوى الفكر والخيال أو انقلبت الافكار من سلطة الدين أو تعاصت النفوس عن الانتقائ بنقشته وهو أول حاكم عليها وأقوى موثر فيها؟ هل تتخلف العمل عن معلولاتها؟ هل تنقطع النسب بين الاسباب ومسبباتها؟ ماذا عساه يرشد العقول الى كشف المساتير وحل المعميات .

أينسب هذا الى اختلاف الاجناس وكثير من أبناء الملتين يرجعون الى أصول واحدة ويتقاربون في الانساب الدانية؟ أينسب هذا الى اختلاف الاقطار وكثير من القبايل يتشابهون في طبائع البلدان ويتجاورون في مواقع الامكة؟ ألم يصدر من المسلمين وهم في شببية دينهم أعمال بهرت الابصار وأدهشت الاباب؟ ألم يكن منهم مثل فارس والعرب والترك الذين دوخوا الممالك واستنوا على كرسي السيادة فيها . كان للمسلمين في الحروب الصليبية آلات نارية اشباه المدافع فزع لها المسيحيون وغابوا عن معرفة أسبابها . ذكر ملككم سرجم (الانكليزي) في تاريخ فارس ان محموداً الغزنوي كان يحارب وثني الهند بالمدافع وكانت هي السبب في انحزاهم بين يديه سنة (٤٠٠) من الهجرة وما كان المسيحيون لذلك العهد يعرفون شيئاً منها . فأني عون من الدهر أخذ بأيدي الملة المسيحية فقدمها الى مالم يكن في قواعد دينها وأي صدمة من صدماته دفعت في صدور المسلمين فأخترتهم عن تعاطي الوسائل لما هو أول مفروض في دينهم . مقام للحجرة وموضع للعجب ، ويظن ان لابد لهذا التخالف من سبب ، نعم وتفصيله يطول ولكن تجمل على ماشرطنا :

ان الدين المسيحي انما امندظله وعمت دعوته في الممالك الاوربية من ابناء الرومانيين وهم على عقائد وآداب وملكات وعادات ورثوها عن اديانهم السابقة وعلوهم وشرائعهم الاولى وجاء الدين المسيحي اليهم مسالماً لعوائدهم ومذاهب عقولهم وداخلهم من طرق الاقناع ومسارة الخواطر لا من مطارق البأس والقوة فكان كالطراز على مطارفهم ولم يسلبهم ماورثوه عن اسلافهم ومع هذا فإن صحف الانجيل الداعية للسلامة والسلم لم تكن لسابق العهد مما يتناول الكافة من الناس بل كانت مذخورة عند الرؤساء الروحانيين ثم ان الاحبار الرومانيين لما أقاموا أنفسهم في منصب التشريع وسنوا محاربة الصليب ودعوا البهادرة للدين النحمت آثارها في النفوس بالعقائد الدينية وجرت منها مجرى الاصول ولحقها على الاثر تزعزع عقائد المسيحيين في أوربا وافترقوا شيعاً وذهبوا مذاهب تنازع الدين في سلطته وعادوا وميض ماأودعه أجدادهم في جرائم وجودهم

ضراماً وتوسعوا في فنون كثيرة وانفسخ لهم مجال الفكر فيها وكانت براعتهم في الفن العسكري واختراع آلات الحرب والدفاع مساوقة لبراعتهم في سائر الفنون أما المسلمون فبعد ان نالوا في نشأة دينهم ما نالوا وأخذوا من كل كمال حربي حظاً وضرّبوا في كل فنّار عسكري بسهم بل تقدموا سائر الملل في فنون المقارعة وعلوم الرزال والمكافحة ظهر فيهم أقوام بلباس الدين وأبدعوا فيه وخطوا بأصوله ما ليس منها فانتشرت بينهم قواعد الجبر وضربت في الأذهان حتى اخترقتها وامتزجت بالنفوس حتى أمسكت بعنانها عن الأعمال هذا الى ما أدخله الزنادقة فيما بين القرن الثالث والرابع وما أحدثه السوفسطائية الذين أنكروا مظاهرها لوجود وعدوها خيالات تبدو للنظر ولا تثبتها الحقائق وما وضعه كذبة النقل من الأحاديث ينسبونها الى صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم ويثبتونها في الكتب وفيها السم القاتل لروح الغيرة وان ما يلصق منها بالعقول يوجب ضعفاً في الهمم وفتوراً في العزائم وتحتهق أهل الحق وقيامهم ببيان الصحيح والباطل من كل ذلك لم يرفع تأثيره عن العامة خصوصاً بعد حصول النقص في التعليم والتقصير في ارشاد الكافة الى أصول دينهم الحق ومبانيه الثابتة التي دعا اليها النبي وأصحابه فلم تكن دراسة الدين على طريقها القويم الا منحصرة في دوائر مخصوصة وبين فئة ضعيفة . لعل هذا هو العلة في وقوفهم بل الموجب لتقهقرهم وهو الذي نعاني من عنائه اليوم مما نسأل الله السلامة منه

الا ان هذه العوارض التي غشيت الدين وصرفت قلوب المسلمين عن رعايته وأن كان حجابها كشيئاً لكن بينها وبين الاعتقادات الصحيحة التي لم يحرموها بالمرّة تدافع دائم وتغالّب لا ينقطع والمنازعة بين الحق والباطل كالمداخلة بين المرض وقوة المزاج وحيث ان الدين الحق هو أول صبغة صبغ الله بها نفوسهم ولا يزال وميض برقه يلوح في أفئدتهم بين تلك الغيوم العارضة فلا بد يوماً ان يسطع ضياؤها ويقشع سحب الاغيان وما دام القرآن يتلى بين المسلمين وهو كتابهم المنزل وامامهم الحق وهو القائم عليهم يأمرهم بحماية حوزتهم والدفاع عن ولايتهم ومغالبة المعتدين وطالب المنعة من كل سبيل لا يعين لها وجهاً ولا

يخصص لها طريقا فإننا لا نرتاب في عودتهم الى مثل نشأتهم ونهوضهم الى مقاضاة الزمان ماسلب منهم فيتقدمون على من سواهم في فنون الملاحة والمنازلة والمصاولة حفظا لحقوقهم وضنا بأنفسهم عن الذل وملتهم عن الضياع والى الله نصير الامور.

انحطاط المسلمين وسكونهم (*)

وسبب ذلك

وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا

ان للمسلمين شدة في دينهم وقوة في ايمانهم وثباتا على يقينهم يباهون بها من عداهم من الملل وان في عقيدتهم أوثق الاسباب لارتباط بعضهم ببعض وبما رسخ في نفوسهم ان في الايمان بالله وما جاء به نبيهم صلى الله عليه وسلم كفالة لسعادة الدارين ومن حرم الايمان فقد حرم السعادتين ويشفقون على أحداهم أن يمرق من دينه أشد ما يشفقون عليه من الموت والفناء وهذه الحالة كما هي في علمائهم متمكنة في عامتهم حتى لو سمع أي شخص منهم في أي بقعة من بقاع الارض عالما كان أو جاهلا ان واحدا ممن وسم بسمه الاسلام في أي قطر ومن أي جنس صبا عن دينه رأيت من يصل اليه هذا الخبر في تحرق وتأسف يلهج بالحوقلة والاسترجاع ويعمد النازلة من أعظم المصائب على من نزلت به بل وعلى جميع من يشاركه في دينه ولو ذكرت مثل هذه الحادثة في تاريخ وقرأها قارئهم بعدهم من السنين لا يتمالك قلبه من الاضطراب ودمه من الغليان ويسنفزه الغضب ويدفعه لحكاية ما رأى كأنه يحدث عن غريب أو يحكي عن عجيب .

المسلمون بحكم شريعتهم ونصوصها الصريحة مطالبون عند الله بالمحافظة على ما بدخل في ولايتهم من البلدان وكلهم مأمور بذلك لافرق بين قر يبيهم وبعيدهم ولا بين المتحددين في الجنس ولا المختلفين فيه وهو فرض عين على كل واحد منهم ان لم يرق قوم بالحماية عن حوزتهم كان على الجميع أعظم الآثام ومن فروضهم في

(*) نشرت في العدد الخامس من جريدة العروة الوثقى بالعنوان الآتي

سبيل الحماية وحفظ الولاية بذل الاموال والارواح وارتكاب كل صعب واقترحام كل خطب ولا يباح لهم المسالمة مع من يغال بهم في حال من الاحوال حتى ينالوا الولاية خالصة لهم من دون غيرهم وبالغت الشريعة في طلب السيادة منهم على من يخالفهم الى حدلو عجز المسلم عن التملص من سلطة غيره لوجبت عليه الهجرة من دار حرب - وهذه قواعد مثبتة في الشريعة الاسلامية يعرفها أهل الحق ولا يغير منها تأويلات أهل الاهواء وأعوان الشهوات في كل زمان .

المسلمون يحس كل واحد منهم بهاتف يهتف من بين جنبيه يذكرة بما تطالبه به الشريعة وما يفرض عليه الايمان وهو هاتف الحق الذي بقي له من إلهامات دينه ومع كل هذا نرى أهل هذا الدين في هذه الايام بعضهم في غفلة عما يلزم بالبعض الآخر ولا يألمون لما يألم له بعضهم فأهل بلوجستان كانوا يرون حركات الانكيز في أفغانستان على مواقع انظارهم ولا يجيش لهم جاش ولا تكون لهم نعمة على اخوانهم والافغانيون كانوا يشهدون نداخل الانكيز في بلاد فارس ولا يضجرون ولا يتألمون

تمسك المسلمين بتلك العقائد وإحساسهم بداعية الحق في نفوسهم مع هذه الحالة التي هم عليها مما يقضي بالعجب ويدعو الى الحيرة ويسبق الى بيان السبب فخذ مجلامنه: ان الافكار العقلية والعقائد الدينية وسائر المعلومات والمدركات والوجدانيات النفسية وان كانت هي الباعثة على الاعمال وعن حكمها تصدر بتقدير العزيز العليم لكن الاعمال نشئها وتقويها ونطبعها في النفس ونطبع الأ نفس عليها حتى يصير ما يمبر عنه بالملكة والخلق وترتب عليه الآثار التي تلائمها نعم ان الانسان انسان بفكره وعقائده الا أن ما ينعكس الي مرآة عقله من مشاهد نظره ومدركات حواسه يؤثر فيه أشد التأثير فكل شهود يحدث فكرا وكل فكرا يكون له أثر في داعية وعن كل داعية نشأ عمل ثم يعود من العمل الى الفكر ولا ينقطع الفعل والانفعال بين الاعمال والافكار مادامت الارواح في الاجساد وكل قبيل هو لآخر عماد .

ان للاخوة وسائر نسب القرابة صورة عند العقل ولا أثر لها في الاعتصاب والالتحام لولا ما تبعث عليه الضرورات وتلجىء اليه الحاجات عن تعاون الانبياء والعصبة على نيل المنافع وتضافرهم على دفع المضار وبعد كرور الايام على المضافة والمناصرة تأخذ النسبة من القلب مأخذاً يصرفه في آثارها بقيمة الاجل ويكون انبساط النفس لعون القريب وغضاضة القلب لما يصيبه من ضيم أو نكبة جارياً مجرى الوجدانيات الطبيعية كالا حساس بالجوع والعطش والري والشبع بل اشبه امره على بعض الناظرين فعده طبيعياً . فلوأهملت صلة النسب بعد ثبوتها والعلم بها ولم تدع ضرورات الحياة في وقت من الاوقات الى ما يمكن تلك الصلة ويؤكدها أو وجد صاحب النسب من يظاھرہ في غير نسبه أو ألبآته ضرورة الى ذلك ذهب أثر تلك الرابطة النسبية ولم يبق منها إلا صورة في العقل تجري مجرى المحفوظات من الروايات والمنقولات . وعلى مثال ما ذكرنا في رابطة النسب وهي أقوى رابطة بين البشر يكون الامر في سائر الاعتقادات التي لها أثر في الاجتماع الانساني من حيث ارتباط بعضه ببعض . اذا لم يصحب العقد الفكري ملجى الضرورة أو قوة الداعية الى عمل تنطبع عليه الجارحة وتمرن عليه وبعود أثر تكريره على الفكر حتى يكون هيئة للروح وشكلاً من اشكالها فلن يكون منشأ لآثاره وانما يعد في الصور العلمية له رسم يلوح في الذاكرة عند الالتفات اليه كما قدمنا .

بعد تدبر هذه الاصول البينة والنظر فيها بعين الحكمة يظهر لك السبب في سكون المسلمین الى ما هم فيه مع شدتهم في دينهم والعلّة في ثباطهم عن نصره اخوانهم وهم أثبت الناس في عقائدهم فانه لم يبق من جامعة بين المسلمین في الأغلب الا العقيدة الدينية مجردة عما يتبعها من الأعمال وانقطع التعارف بينهم وهجر بعضهم بعضاً هجر غير جميل فالعلماء وهم القائمون على حفظ العقائد وهداية الناس اليها لا تواصل بينهم ولا ترسل فالعالم التركي في غيبة عن حال العالم الحجازي فضلاً عن يبعد عنهم والعالم الهندي في غفلة عن شؤون العالم الافغاني وهكذا بل العلماء من أهل قطر واحد لا ارتباط بينهم ولا صلة تجمعهم الا ما يكون بين افراد العامة لدواع خاصة من صداقة أو قرابة

بين أحدهم وآخر أما في هيئتهم الكليّة فلا وحدة لهم بل لأنساب بينهم وكل ينظر الى نفسه ولا يتجاوزها كأنه كون برأسه .

كما كانت هذه الجفوة وذلك الهجران بين العلماء كانت كذلك بين الملوك والسلاطين من المسلمين . أليس بعجيب أن لا تكون سفارة للعثمانيين في مرا كش ولا لمرأ كش عند العثمانيين ؟ أليس بغريب أن لا تكون للدولة العثمانية صلات صحيحة مع الافغانيين وغيرهم من طوائف المسلمين في المشرق ؟ هذا التدابر والتقاطم وارسال الحيال على العوارب عم المسلمين حتى صح أن يقال لاعلاقة بين قوم منهم وقوم ولا بلد و بلد الاطيف من الاحساس بان بعض الشعوب على دينهم ويعتقدون مثل اعتقادهم وربما يعرفون مواقع أقطارهم بالصدفة اذا التقى بعض ببعض في موسم الحجيج العام وهذا النوع من الاحساس هو الداعي الى الاسف وانقباض الصدر اذا شعر مسلم بضياح حق مسلم على يد أجنبي عن ملته لكنه لضغفه لا يبعث على النهوض لمعارضته . كانت الملة كجسم عظيم قوى البنية صحيح المزاج فنزل به من العوارض ما أضعف الائتنام بين أجزائه فتداعت للتناثر والانحلال وكاد كل جزء يكون على حدة وتضمحل هيئة الجسم .

بدا هذا الانحلال والضعف في روابط الملة الاسلامية عند انفصال الرتبة العلمية عن رتبة الخلافة وقما قنع الخلفاء العباسيون باسم الخلافة دون أن يحوزوا شرف العلم والتفقه في الدين والاجتهاد في أصوله وفروعه كما كان الراشدون رضي الله عنهم . كثرت بذلك المذاهب ونشعب الخلاف من بداية القرن الثالث من الهجرة الى حد لم يسبق له مثيل في دين من الاديان ثم انثلمت وحدة الخلافة فانقسمت الى أقسام خلافة عباسية في بغداد و فاطمية في مصر والمغرب وأموية في أطراف الاندلس . تفرقت بهذا كلمة الامة وانشقت عصاها وانحطت رتبة الخلافة الى وظيفة الملك فسقطت هيئتها من النفوس وخرج طلاب الملك والسلطان يدايئبون اليه من وسائل القوة والشوكة ولا يرعون جانب الخلافة .

وزاد الاختلاف شدة وتقطعت الوشائج بينهم بظهور جنكزخان وأولاده وتيمورلنك وأحفاده وابقاعهم بالمسلمين قتلا واذلالا حتى أذهلهم عن أنفسهم

فتفرق الشمل بالكليلة وانفصمت عرى الائتئام بين الملوك والعلماء جميعاً وانفرد كل بشأته وانصرف الي ما يليه فتبدد الجمع الى آحاد وافترق الناس فرقا كل فرقة تتبع داعيا اما الى ملك أو مذهب فضعفت آثار العقائد التي كانت تدعو الى الوحدة وثبتت على اشتباك الوشيعة وصار مافي العقول منها صوراً ذهنية تحويها مخازن الخيال وتلحظها الذاكرة عند عرض مافي خزائن النفس من المعلومات ولم يبق من آثارها الا أسف وحسرة يأخذان بالقلوب عند ما تنزل المصائب ببعض المسلمين بعد أن ينفذ القضاء ويبلغ الخبر الى السامع على طول من الزمان وما هو الا نوع من الحزن على الفاتت كما يكون على الاموات من الاقارب لا يدعو الى حركة لتدارك التازلة ولا دفع الغائلة .

وكان من الواجب على العلماء قياما بحق الوراثة التي شرفوا بها على لسان الشارع ان ينهضوا لإحياء الرابطة الدينية ويتداركوا الاختلاف الذي وقع في الملك بتمكين الاتفاق الذي يدعو اليه الدين ويجعلوا معاقده هذا الاتفاق في مساجدهم ومدارسهم حتى يكون كل مسجد وكل مدرسة مهبطاً لروح حياة الوحدة ويصير كل واحد منها كحلقة في سلسلة واحدة اذا اهتز أحد اطرافها اضطرب لركته الطرف الآخر ويرتبط العلماء والخطباء والائمة والوعاظ في جميع انحاء الارض بعضهم ببعض ويجعلون اهم مراكز في أقطار مختلفة يرجعون اليها في شؤون وحدتهم وبأخذون بأيدي العامة الى حيث يرشددهم التنزيل وصحيح الاثر ويجمعوا أطراف الوشائج الى معتد واحد يكون مركزه في الاقطار المقدسة واشرفها معهد بيت الله الحرام حتى يتمكنوا بذلك من شد أزر الدين وحفظه من قوارع العدوان والقيام بحاجات الامة اذا عرض حادث الخلل وتطرق الاجانب للتداخل فيها بما يحيط من شأنها ويكون كذلك ادعى لنشر العلوم ونزير الافهام وصيانة الدين من البدع فان إحكام الربط إنما يكون بتعيين الدرجات العلمية وتحديد الوظائف فلو أبدع مبدع أمكن بالنواصل بين تطبيقات تدارك بدعته ومحوها قبل فشوها بين العامة وليس بخاف على المستبصرين ما يتبع هذا من قوة الامة وعلو كلمتها واقتدارها على دفع ما يغشاها من النوازل . الا أنا نأسف غاية الاسف إذ لم تتوجه

خواطر العلماء والعقلاء من المسلمين إلى هذه الوسيلة وهي أقرب الوسائل وإن التفت إليها في هذه الأيام طائفة من أرباب الغيرة ورجاؤنا من ملوك المسلمين وعلمائهم من أهل الحمية والحق أن يؤيدوا هذه الفئة ولا يتوانوا فيما يوحد جمعهم ويجمع شيتهم فقد دارستهم التجارب ببيان لا مزيد عليه وما هو بالعسير عليهم أن يبتشوا الدعاة إلى من يبعد عنهم ويصافحوا بالاكف من هو على مقربة منهم ويتعرفوا أحوال بعضهم فيما يعود على دينهم وماتهم بفائدة أو ما يخشى أن يمسها بضرر ويكونون بهذا العمل الجليل قد أدوا فريضة وطلبوا سعادة والرقم باق والآمال مقبلة وإلى الله المصير

اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ (*)

التعصب

لفظ شغل مناطق الناس خصوصا في البلاد الشرقية تلوكه الاسن ورمي به الافواه في المحافل والمجامع حتى صار تكأة المتكلمين ياجأ اليه العبي في مهمته والذملقاني في تفهيقه (١) أخذ هذا اللفظ بمواقع التعبير فقلما تكون عبارة الا وهو فاتحتها او حشوها او خاتمتها يعدون مسماه علة لكل بلاء ومنبعا لكل عناء ويزعمونه حجابا كشيئا وسدا منبعا بين المنصفين به وبين الفوز والنجاح ويجعلونه عنوانا على النقص وعلما للذائل . والمتسربلون بسراويل الافرنجج الذاهبون في تقليدهم مذاهب الخبط والخلط لا يميزون بين حق وباطل هم أحرص الناس على التشدق بهذا البدع الجديد فتراهم في بيان مفساد التعصب يهزون الرؤس ويعبثون بالحي ويبرمرون السبال واذا رموا به شخصا للخط من شأنه أردفوه للتوضيح بلفظ أفرنجي (فئاتيك) فان عهدوا بشخص نوعا من الخالفة لمشر بهم عدوه متعصبا وهمزوا به وغمزوا واوزوا ، واذا رأوه عبسوا وبسروا ، وشهخوا بانوفهم كبرا

(*) نشرت في العدد السادس من جريدة العروة الوثقى

(١) التكاة كهمزة العصا والعبي الذي لا يبين والنهته ضرب من اللكنة ورجل ذملقاني سريع الكلام والتفهيق في المنطق التوسع والتنطع فيه

وولوه دبرا ، ونادوا عليه بالويل والثبور . ما ذا سبق الى افهامهم من هذا اللفظ وماذا اتصل بعقولهم من معناه حتى خالوه مبدأ لكل شناعة ومصدرا لكل نقيصة وهل لهم وقوف على شيء من حقيقته ؟

التعصب قيام بالعصبية والعصبية من المصادر النسبية نسبة الى العصبية وهي قوم الرجل الذين يعززون قوته ويدفعون عنه الضيم والعداء . فالتعصب وصف للنفس الانسانية تصدر عنه نهضة لحماية من يتصل بها والذود عن حقه ووجوه الانصال تابعة لاحكام النفس في معلوماتها ومعارفها

هذا الوصف هو الذي شكل الله به الشعوب وأقام بناء الامم وهو عقد الربط في كل أمة بل هو المزاج الصحيح يوحد المتفرق منها تحت اسم واحد وينشئها بتقدير الله خلقا واحدا كبدن تألف من أجزاء وعناصر تدبره روح واحدة فتكون كشخص يمتاز في أطواره وشؤونه وسعادته وشقائه عن سائر الاشخاص . وهذه الوحدة هي مبعث المباراة بين أمة وأمة وقبيل وقبيل ومباهاة كل من الامتين المتقابلتين بما يتوفر لها من أسباب الرفاهة وهناء العيش وما تجمهه قواها من وسائل العزة والمنعة وسمو المقام ونفاذ الكلمة . والتنافس بين الامم كاللتنافس بين الاشخاص أعظم باعث على بلوغ أقصى درجات الكمال في جميع لوازم الحياة بقدر ما تسعه الطاقة

التعصب روح كلي . يهبه هيئة الامة وصورتها . وسائر أرواح الافراد حواسه ومشاعره فاذا الم بأحد المشاعر مالا يلائمه من أجني عنه انفعال الروح الكلي وجاشت طبيعته لدفعه فهو لهذا مثار الحمية العامة ومسرعة النعرة الجنسية . هذا هو الذي يرفع نفوس آحاد الامة عن معاطاة الدنيا وارتكاب الخيانات فيما يعود على الامة بضرر او بول بها الى سوء عاقبة ، وان استقامة الطبع ورسوخ الفضيلة في امة تكون علي حسب درجة التعصب فيها والالتحام بين آحادها . يكون كل منهم بمنزلة عضو سليم من بدن حي لا يجد الرأس بارتفاعه غنى عن القدم ولا يرى القدمان في تطرفها انحطاطا في رتبة الوجود وانما كل يودى وظائفه لحفظ البدن وبقائه وكلما ضعفت قوة الربط بين افراد الامة بضعف التعصب فيهم استرخت

الاعصاب ورثت الاطناب ورقت الاوتار وتداعى بناء الامة الى الانحلال كما ينداعى بناء البنية البدنية الى الغناء . بعد هذا يموت الروح الكلي وتبطل هيئة الامة وان بقيت آحادها فما هي الا كالأجزاء المنثائرة اما ان تتصل بابدان اخرى يحكم ضرورة الكون واما ان تبقى في قبضة الموت الى ان ينفخ فيها روح النشأة الاخرى . سنة الله في خلقه ، اذا ضعفت العصبية في قوم رماهم الله بالفشل وغفل بعضهم عن بعض وأعقب الغفلة تقطع في الروابط وتبعه تقاطع وتدابر فيتسع للاجانب والعناصر الغريبة مجال التداخل فيهم ولن تقوم لهم قائمة من بعد حتى يعيدهم الله كما بدأهم بافاضة روح التعصب في نشأة ثانية

نعم ان التعصب وصف كسائر الاوصاف له حد اعتدال وطرفا إفراط وتفریط واعتداله هو الكمال الذي بينا مزاياه والتفریط فيه هو النقص الذي أضرنا لرزاياه والافراط فيه مذمة تبعث على الجور والاعتداء فالمفرط في تعصبه يدافع عن الملتحم به بحق وبغير حق ويرى عصبته منفردة باستحقاق الكرامة وينظر الى الاجنبي عنه كما ينظر الى الهمل لا يعترف له بحق ولا يرعى له ذمة فيخرج بذلك عن جادة العدل فتقلب منفعة التعصب الى مضرة ويذهب بهاء بل الامة يتقوض مجدها فان العدل قوام الاجتماع الانساني وبه حياة الامم وكل قوة لا تخضع للعدل فمصيرها الى الزوال . وهذا الحد من الافراط في التعصب هو الممقوت على لسان صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم في قوله (ليس منا من دعا الى عصبية)

التعصب كما يطلق ويراد به الزعة على الجنس ومرجعها رابطة النسب والاجتماع في منبت واحد كذلك توسع أهل العرف فيه فأطلقوه على قيام المنتحمين بصلة الدين لمناصرة بعضهم بعضاً والمتنطعون من مقلدة الافرنج يمحضون هذا النوع منه بالقت ويرمون بالنعس ولا نخال مذهبهم هذا مذهب العقل فان لجة يصير بها المتفرقون الى وحدة تندفع عنها قوة لدفع الغائلات وكسب الكمالات لا يختلف شأنها اذا كان مرجعها الدين أو النسب وقد كان من تقدير العزيز العليم وجود الرابطين في أقوام مختلفة من البشر وعن كل منهما صدرت في العالم آثار جليلة يفتخر بها الكون الانساني وليس يوجد عند العقل أدنى فرق بين مدافعة

القريب عن قريبه ومعاونته على حاجات معيشته وبين ما يصدر من ذلك عن
 الملاحمين بصلة المعتقد ورابطة المشرب . فنعصب المشتركين في الدين المتوافقين
 في أصول العقائد بعضهم لبعض اذا وقف عند الاعتدال ولم يدفع الى جور في
 المعاملة ولا انتهاك لحرمة المخالف لهم أو نقض لزمته فهو فضيلة من أجل الفضائل .
 الانسانية وأوفرها نفعا وأجزؤها فائدة بل هو أقدس رابطة وأعلاها اذا استحتمت
 صعدت بذوي المكنة فيها الى أوج السيادة وذرورة المجد خصوصا ان كانوا من
 قبيل قوي فيهم سلطان الدين واشتدت سطوته على الأهواء الجنسية حتى أشرف
 بها على الزوال كما في أهل الديانة الاسلامية . ولا يؤخذ علينا في القول بأنه من
 أقدس الروابط فانه كما يطمس رسوم الاختلاف بين أشخاص وآحاد متعددة
 ويصل ما بينهم في المقاصد والعزائم والاعمال كذلك يمحو أثر المنازعة والمنازعة
 بين القبائل والعشائر بل الاجناس المتخالفة في المنابت واللغات والعادات بل المتباعدة
 في الصور والاشكال ويحول أهواءها المتضاربة الى قصد واحد وهو تأصيل
 المجد وتأيد الشرف وتخليد الذكورت تحت الاسم الجامع لهم . هذا الاثر الجليل
 عهد لقوة التعصب الديني وشهد عليه ان تاريخ بعد ما أرشد اليه العقل الصحيح .
 وما كانت رابطة الجنس لتقوى على شيء منه

تفتح جماعة من متزذقة هذه الاوقات في بيان مفاسد التعصب الديني
 وزعموا ان حمية أهل الدين لما يؤخذ به اخوانهم من ضيم وتضافرهم لدفع ما يلم
 بدينهم من غاشية الوهن والضعف هو الذي يصددهم عن السير الى كمال المدنية
 ويحجبهم عن نور العلم والمعرفة ويرمي بهم في ظلمات الجهل ويحملهم على الجور
 والظلم والعدوان على من يخالفهم في دينهم ومن رأي أولئك المنفتحين ان لا
 سبيل لدرء المفاسد واستكمال المصالح الا بانحلال العصبية الدينية ومحو أثرها
 وتخليص العقول من سلطة العقائد وكثيرا ما يرجفون بأهل الدين الاسلامي
 ويخوضون في نسبة مذام التعصب اليهم

كذب الخراصون ان الدين أول معلم وأرشد أستاذ وأهدى قائد للانفس
 الى اكتساب العلوم والتوسع في المعارف وأرحم مؤدب وأبصر مروض يطبع

الارواح على الآداب الحسنة والخلائق الكريمة و يقيمها على جادة العدل وينبه فيها حاسة الشفقة والرحمة خصوصا دين الاسلام . فهو الذي رفع أمة كانت من أعرق الامم في التوحش والقسوة والخشونة وسما بها الى أرقى مراتب الحكمة والمدنية في أقرب مدة وهي الامة العربية

قد يطراً على التعصب الديني من التغالي والافراط مثل ما يعرض على التعصب الجنسي فيفضي الى ظلم وجور بل ربما يؤدي الى قيام أهل الدين لإبادة مخالفينهم ومحو وجودهم كما قامت الامم الغربية واندفعت على بلاد الشرق لمحض التملك والابادة لا للفتح ولا للدعوة الى الدين في الحرب الهائلة المعروفة بحرب الصليب وكما فعل الاسبانوليون بمسلمي الاندلس وكما وقع قبل هذا وذلك في بداية ما حصلت الشوكة للدين المسيحي ان صاحب السلطان من المسيحيين جمع اليهود في القدس وأحرقهم الا ان هذا العارض لمخالفة لاصول الدين قلما تمتد له مدة ثم يرجع ارباب الدين الى أصوله القائمة على قواعد السلام والرحمة والعدل

أما أهل الدين الاسلامي فمنهم طوائف شطت في تعصبها في الاجيال الماضية الا انه لم يصل بهم الافراط الى حد يقصدون فيه الابادة واخلاء الارض من مخالفينهم في دينهم وما عهد ذلك في تاريخ المسلمين بعد ما تجاوزوا حدود جزيرة العرب ولنا الدليل الاقوم على ما نقول وهو وجود الممال المختلفة في ديارهم الى الآن حافظة لعقائدها وعوائدها من يوم نسلطوا عاينها وهم في عنفوان القوة وهي في وهن الضعف . نعم كان للمسلمين واع بتوسيع الممالك وامتداد الفتوحات وكانت لهم شدة على من يعارضهم في سلطانهم الا أنهم كانوا مع ذلك يحفظون حرمة الاديان ويرعون حق الذمة ويعرفون لمن خضع لهم من الملل المختلفة حقه ويدفعون عنه غائلة العدوان ومن العقائد الراسخة في نفوسهم (ان من رضي بذهمتا فله مالنا وعليه ما علينا) ولم يعدلوا في معاملتهم لغيرهم عن أمر الله في قوله (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والاقربين) اللهم الا مالا تخار عنه الطباع البشرية

ومن نشأة المسلمين الى اليوم لم يدفعوا أحدا من مخالفينهم عن التقدم الى ما يستحقه من علو الرتبة وارتفاع المكاة ولقد سما في دول المسلمين على اختلافها الى المراتب العالية كثير من أرباب الاديان المختلفة وكان ذلك في شبيبتها وكال قوتها ولم ينزل الامر على ما كان وفي الظن ان الامم الغربية لم تبلغ هذه الدرجة من العدل الى اليوم) فسحقا لقوم يظنون ان المسلمين بتعصبهم يمنعون مخالفينهم (من حقوقهم)

لم يسلك المسلمون من عهد قوتهم مسلك الالزام بدنيهم والاجبار على قبوله مع شدة بأسهم في بدايات دولهم وتغلغلهم في افتتاح الاقطار واندفاع همهم للبطشة في الملك والسلطة وانما كانت لهم دعوة يبلغونها فان قبلت والا استبدلوا بها رسما ماليا يقوم مقام الخراج عند غيرهم مع رعاية شروط عادلة تعلم من كتب الفقه الاسلامي . هذا على خلاف متصرة الرومانيين واليونانيين ايام شوكتهم الاولى فانهم ما كانوا يطأون أرضا الا ويلزمون أهلها بلخج أديانهم والنطوق بدين أولئك المساطين وهو الدين المسيحي كما فعلوا في مصر وسور يابل وفي البلاد الافرنجية نفسها . هذا فصل من الكلام ساق اليه البيان وفيه تبصرة لمن يتبصر وندكرة لمن يندكر ثم أعود بك الى سابق الحديث فيما كنا بصدهه — هل لما قل لم يصب برزية في عقله ان يعد الاعتدال من التعصب الديني نقضية وهل يوجد فرق بينه وبين التعصب الجنسي الابعمايكون به التعصب الديني أقدر وأطهر وأعم فائدة . لانخال عاقلا يرثاب في صحة ما قررناه فما لأ أولئك القوم يهدرون بما لا يدرون؟ أي أصل من أصول العقل يستندون اليه في المفاخرة والمباهاة بالتعصب الجنسي فقط واعتقاده فضيلة من أشرف الفضائل ويمهرون عنه بحجة الوطن؟ وأي قاعدة من قواعد العمران البشري يعتمدون عليها في النهاون بالتعصب الديني المعتدل وحسبانها نقضية يجب الترفع عنها؟

نعم ان الافرنج تأكد لديهم أن أقوى رابطة بين المسلمين انما هي الرابطة لدينية وأدركوا أن قوتهم لا تكون إلا بالعصبية الاعتقادية ولأ أولئك الافرنج مطامع في ديار المسلمين وأوطانهم فتوجهت عنايتهم الى بث هذه الافكار الساقطة بين

أر باب الديانة الاسلامية وزبنوا لهم هجر هذه الصلة المقدسة وفصم حبالها لينقضوا بذلك بناء الملة الاسلامية ويمزقوها شيعا وأحزابا فانهم علموا كعلمنا وعلم العقلاء اجمعون ان المسلمين لا يعرفون لهم جنسية الا في دينهم واعتقادهم وتسنى للمفسدين نجاح في بعض الاقطار الاسلامية ولبعثهم بعض الغفل من المسلمين جهلا وتقليدا فساعدوهم على التنفير من العصبية الدينية بعدما فقدوها ولم يستبدلوا بهار اربطة الجنس (الوطنية) التي يباغون في تعظيمها واحترامها حقما منهم وسفاهة فمثلهم كمثل من هدم بيته قبل ان يهيء لنفسه مسكنا سواه فاضطر للاقامة بالعرء معرضا لقواغل الجو وما تصول به عل حياته

هذا أسلوب من السياسة الاوربية اجدت الدول اختباره وجنت ثماره فأخذت به الشرقيين لتنال مطامعها فيهم فكثير من تلك الدول نصبت الحبال في البلاد العثمانية والمصرية وغيرها من الممالك الاسلامية ولم تعلم صيدا من الامراء والمنتسبين الى العلم والمدنية الجديدة واستعملتهم آلة في بلوغ مقاصدها من بلادهم وليس عجبنا من الدهريين والزنادقة ممن يتسترون بلباس الاسلام ان يميلوا مع هذه الاهواء الباطلة ولكننا نعجب من أن بعضاً من سذج المسلمين مع بقائهم على عقائدهم وثباتهم في ايمانهم يسفكون الكلام في ذم التعصب الديني ويلهجون في رمي المتعصبين بالخشونة والبعث عن معدات المدنية الحاضرة ولا يعلم أولئك المسلمون انهم بهذا يشقون عصاهم ويفسدون شأنهم ويخربون بيوتهم بايديهم وأيدي المارقين . يطلبون محو التعصب المعتدل وفي محوه محو الملة ودفعا الى أيدي الاجانب يستعبدونها مادامت الارض أرضا والسماء سماء . والله ما عجبنا من هؤلاء وهؤلاء بأشد من العجب لأحوال الغربيين من الأمم الافرنجية الذين يفرغون وسعهم لنشر هذه الافكار بين الشرقيين ولا ينجحون من تبشيع التعصب الديني ورمي المتعصبين بالخشونة . الافرنج أشد الناس في هذا النوع من التعصب وأحرصهم على القيام بدواعيه ومن القواعد الاساسية في حكوماتهم السياسية الدفاع عن دعاة الدين والقائمين بنشره ومساعدتهم

على نجاح أعمالهم واذا عدت عادية مما لا يخلو عنه الاجتماع البشري على واحد
 ممن على دينهم ومذهبهم في ناحية من نواحي الشرق سمعت صياحا ووعولا
 وهيئات ونبات تتلاقى أمواجها في جو بلاد المدينة الغربية وينادي جميعهم: الا
 قد ألمت ملة وحدثت حادثة مهمة فأجمعوا الأمر وخذوا الالهة لتدارك الواقعة
 والاحتياط من وقوع مثلها حتى لا نئخذش الجامعة الدينية: وتراهم على اختلافهم
 في الاجناس وتباغضهم وتحاقدهم وتنازدهم في السياسات وترقب كل دولة منهم
 لعثرة الاخرى حتى توقع بها السوء يتقاربون ويتآفون ويتحدون في توجيه قواهم
 الحربية والسياسية لحماية من يشاكلهم في الدين وان كان في أقصى قاصية من
 الارض ولو تقطعت بينه وبينهم الانساب الجنسية . أما لو فاض طوفان الفتن
 وطم وجه الارض وغمر وجهه البسيطة من دماء المتخالفين لهم في الدين والمذهب
 فلا يذبض فيهم عرق ولا يتنبه لهم احساس بل يتآفون ويزدرون وما يجرف
 حتى يأخذ مده الغاية من حده ويذهلون عما أودع في الفطر البشرية من الشفقة
 الانسانية والمرحمة الطبيعية كأنما يعدون الخارجين عن دينهم من الحيوانات السائمة
 والهمل الراحية وليسوا من نوع الانسان الذي يزعم الأوربيون أنهم حماته وانصاره .
 وليس هذا خاصاً بالمتدينين منهم بل الدهريون ومن لا يعتقدون بالله وكتبه ورسله
 يسابقون المتدينين في تعصبهم الديني ولا يألون جهداً في تقوية عصبيتهم وليتهم
 يقفون عند الحق ولكن كثيراً ما تجاوزوه . اما ان شأن الافرنج في تمسكهم
 بالعصبة الدينية لغريب .

يباغ الرجل منهم أعلى درجة في الحرية كغلاستون واضرابه ثم لا تجد كلمة
 تصدر عنه الا وفيها نفثة من روح بطرس الراهب بل لا ترى روحه الا نسخة
 من روحه (انظر الى كتب غلاستون وخطبه السابقة)

فيا أيتها الامة المرحومة هذه حياتكم فاحفظوها ودمائكم فلا تريقوها وأرواحكم
 فلا نزهقوها وسعادتكم فلا تبيعوها بثمان دون الموت . هذه هي روابطكم الدينية
 لا تفرنكم الوسوس ولا تستهوي بكم الترهات ولا تدهشكم زخارف الباطل ارفعوا
 غطاء الوهم عن باصرة الفهم واعتصموا بحبال الرابطة الدينية التي هي أحكم رابطة

اجتمع فيها التركي بالعربي والفارسي بالهندي والمصري بالمغربي وقامت لهم مقام
الرابطة النسبية حتى ان الرجل منهم ليألم لما يصيب أخاه من عاديات الدهر وان
تئات دباره وتفاقت أقطاره

هذه صلة من امتن الصلات ساقها الله اليكم وفيها عزتكم ومنع عنكم وسلطانكم
وسيادتكم فلا توهنوها ولكن عليكم في رعايتها أن تخضعوا لسطوة العدل فالعدل
أساس الكون وبه قوامه ولا نجاح لقوم يزدرون العدل بينهم وعليكم أن تتقوا الله
وتلزموا أوامره في حفظ الدم ومعرفة الحقوق لاربابها وحسن المعاملة وإحكام
الالفة في المنافع الوطنية بينكم وبين ابناء أوطانكم وجيرانكم من أرباب الاديان
لختلابة فان مصالحكم لا تقوم الا بمصالحهم كما لا تقوم مصالحهم الا بمصالحكم
وعليكم أن لا تجمعوا عصبية الدين وسبلة للعدوان وذريعة لانتهاك الحقوق فان
دينكم ينهاكم عن ذلك ويوعدهم عليه بأشد العقاب . هذا ولا تجمعوا عصبيةكم
قاصرة على مجرد ميل بعضكم لبعض بل تضافروا بها على مباراة الامم في القوة
والمنعة والشوكة والسلطان ومنافستهم في اكتساب العلوم النافعة والفضائل
والكجالات الانسانية . اجعلوا عصبيةكم سبيلا لتوحيد كلمتكم واجتماع شملكم
وأخذ كل منكم بيد أخيه ليرفعه من هوة النقص الى ذروة الكمال «وتعاونوا على
البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان»

القضاء والقدر (*)

مضت سنة الله في خلقه بأن للعقائد القلبية سلطانا على الاعمال البدنية فما يكون في
الاعمال من صلاح أو فساد فانما مرجعه فساد العقيدة وصلاحها على ما بيننا في
بعض الاعداد الماضية ورب عقيدة واحدة تأخذ باطراف الافكار فيتبعها عقائد
ومدرجات أخرى ثم تظهر على البدن باعمال نلائم اثرها في النفس، ورب أصل من
أصول الخبر وقاعدة من قواعد الكمال اذا عرضت على النفس في تعليم أو تبليغ

(*) نشرت في العدد السابع من جريدة العروة الوثقى

شرع يقع فيها الاشتباه على السامع فتلتبس عليه بما ليس من قبيلها أو تصادف عنده بعض الصفات الرديئة أو الاعتقادات الباطلة فيعلق بها عند الاعتقاد شئ مما تصادفه وفي كلالها ينغير وجهها ويختلف أثرها وربما تتبعها عقائد فاسدة مبنية على الخطأ في النهم أو على خبث الاستعداد فتنشأ عنها أعمال غير صالحة وذلك على غير علم من المعتقد كيف اعتقد ولا كيف يصرفه اعتقاده والمغرور بالظواهر يظن أن تلك الاعمال إنما نشأت عن الاعتقاد بذلك الاصل وتلك القاعدة ومن مثل هذا الانحراف في الفهم وقع التحريف والتبديل في بعض أصول الاديان غالباً بل هو علة البدع في كل دين على الاغلب وكثيراً ما كان هذا الانحراف وما يتبعه من البدع منشأ لفساد الطباع وقبائح الاعمال حتى أفضى بمن ابتلاه الله به الى الهلاك وبئس المصير وهذا ما يحمل بعض من لاخبرة لهم على الطعن في دين من الاديان أو عقيدة من العقائد الحققة استناداً الى أعمال بعض السذج المنتسبين الى الدين أو العقيدة .

من ذلك عقيدة القضاء والقدر التي تعد من أصول العقائد في الديانة الاسلامية الحققة . كثير فيها لفظ المغفلين من الافرنج وظنوا بها الظنون وزعموا انها ما تمكنت من نفوس قوم الا وسلبتهم الهمة والقوة وحكمت فيهم الضعف والضعمة ورموا المسلمين بصفات ونسبوا اليهم أطواراً ثم حصروا علتها في الاعتقاد بالقدر فقالوا ان المسلمين في فقر وفاقة وتأخر في القوي الحربية والساسية عن سائر الامم وقد فشا فيهم فساد الاخلاق فكثير الكذب والفياق والحيانة والتحاقد والتباغض وتفرقت كلمتهم وجعلوا أحوالهم الحاضرة والمستقبلة وغفلوا عما يضرهم وما ينفعهم وقنعوا بحياة يأكلون فيها ويشربون و ينامون ثم لا ينافسون غيرهم في فضيلة ولكن متى أمكن لاحد من أن يضر أخاه لا يقصر في إلحاق الضرر به فجعلوا بأسهم بينهم والأهم من ورائهم تبطلعهم لغمعة بعد أخرى رضوا بكل عارض واستعدوا لقبول كل حادث وركنوا الى السكون في كسور بيوتهم يسرحون في مراعهم ثم يعودون إلى مأواهم الامراء فيهم يقطعون أزمتهم في اللهو واللعب ومعاطة الشهوات وعليهم فروض وواجبات تستغرق في أداها أعمارهم ولا يؤدون منها شيئاً . يصرفون

أموالهم فيما يقطعون به زمانهم اسرافا وتبذيرا . نفاقهم واسعة ولكن لا يدخل في حسابها شيء يعود على ملئهم بالمنفعة ، يتخاذلون ويتنافرون وينيطون المصالح العمومية بمصالحهم الخصوصية ، فرب تنافر بين أميرين يضيع أمة كاملة كل منهما يخذل صاحبه ويستعدي عليه جاره فيجد الاجنبي فيهما قوة فانية وضعفا قائلا فينال من بلادهما ما لا يكلفه عددا ولا عدة . شملهم الخوف وعمهم الجبن والخور يفزعون من الهمس ، ويألمون من اللبس . قعدوا عن الحركة الى ما يباحقون به الامم في العزة والشوكة وخالفوا في ذلك أوامر دينهم مع رؤيتهم لجيرانهم بل الذين تحت سلطتهم يتقدمون عليهم ويباهونهم بما يكسبون وإذا أصاب قومامن إخوانهم مصيبة أوعدت عليهم عادية لا يسعون في تخفيف مصابهم ولا ينبعثون لمناصرتهم ولا توجد فيهم جمعيات ملية كبيرة لاجهرية ولا سرية يكون من مقاصدها إحياء الغيرة وتنبيه الحمية ومساعدة الضعفاء وحفظ الحق من بغي الاقوياء وتسلبت الغرباء . هكذا نسبوا الى المسلمين هذه الصفات وتلك الاطوار وزعموا أن لا منشأ لها الا اعتقادهم بالقضاء والقدر وتحويل جميع مهماتهم على القدرة الالهية وحكموا بأن المسلمين لوداموا على هذه العقيدة فلن تقوم لهم قائمة ولن ينالوا عزاولن يعيدوا مجدا ولا يأخذون بحق ولا يدفعون تعديا ولا ينهضون بتقوية سلطان أو تأييد ملك ولا يزال بهم الضعف يفعل في نفوسهم ويركس من طباعهم حتى بوادي بهم الى الفناء والزوال (والعياذ بالله) يعني بعضهم بعضا بالمنازعات الخاصة وما يسلم من أيدي بعضهم بحصده الاجانب .

واعتقد أولئك الافرنجان انه لا فرق بين الاعتقاد بالقضاء والقدر وبين الاعتقاد بمذهب الجبرية القائمين بأن الانسان مجبور محض في جميع أفعاله وتوهموا أن المسلمين بعقيدة القضاء يرون أنفسهم كالريشة المعلقة في الهواء تقلبها الرياح كيفما تميل ومتى رسخ في نفوس قوم انه لا اختيار لهم في قول ولا عمل ولا حركة ولا سكون وانما جميع ذلك بقوة جابرة وقدرة قاسرة فلا ريب تمنعل قواهم ويفقدوا ثمره ما وهبهم الله من المدارك والقوى وتمحى من خواطرهم داعية السعي والكسب وأجدر بهم بعد ذلك أن يتحولوا من عالم الوجود الى عالم العدم . هكذا ظنت

طائفة من الأفرنج وذهب مذهبها كثيرون من ضعفاء العقول في المشرق ولست أخشي أن أقول كذب الظان وأخطأ الواهم وبطل الزاعم واقبروا على الله والمسلمين كذبا . لا يوجد مسلم في هذا الوقت من سني وشيعي واسماعيلي وزيدي ووهابي وخارجي يرى مذهب الجبر المحض ويعتقد سلب الاختيار عن نفسه بالمرّة بل كل من هذه الطوائف المسلمة يعتقدون بأن لهم جزءاً اختيارياً في أعمالهم ويسمى بالكسب وهو مناط الثواب والعقاب عند جميعهم وأنهم محاسبون بما وهبهم الله من هذا الجزء الاختياري ومطالبون بامتثال جميع الاوامر الالهية والنواهي الربانية الداعية الى كل خير الهادية الى كل فلاح وان هذا النوع من الاختيار هو مورد التكليف الشرعي وبه تتم الحكمة والعدل .

نعم كان بين المسلمين طائفة تسمى بالجبرية ذهبت الى أن الانسان مضطر في جميع أفعاله اضطراراً لا يشوبه اختيار وزعمت أن لافرق بين أن يحرك الشخص فكه للأكل والمضغ وبين أن يتحرك بقففة البرد عند شدته ومذهب هذه الطائفة يعده المسلمون من منازع السفطة الفاسدة وقد انقرض أرباب هذا المذهب في أواخر القرن الرابع من الهجرة ولم يبق لهم أثر . وليس الاعتقاد بالقضاء والقدر هو عين الاعتقاد بالجبر ولا من مقتضيات ذلك الاعتقاد ما ظنه أولئك الواهمون .

الاعتقاد بالقضاء يؤيده الدليل القاطع بل ترشد اليه الفطرة وسهل على من له فكر أن يلتفت الى أن كل حادث له سبب يقارنه في الزمان وانه لا يرى من سلسلة الاسباب الا ما هو حاضر لديه ولا يعلم ماضيها الا مبدع نظامها وان لكل منها مدخلا ظاهرا فيما بعده بتقدير العزيز العليم . واردة الانسان إنما هي حلقة من حلقات تلك السلسلة وليست الارادة الا أثرا من آثار الادراك والادراك أنفعال النفس بما يعرض على الحواس وشعورها بما أودع في الفطرة من الحاجات فإظواهر الكون من السلطة على الفكر والارادة مالا يذكره ابله فضلا عن عاقل وان مبدأ هذه الاسباب التي ترى في الظاهر مؤثرة إنما هو بيد مدبر الكون الأعظم الذي أبدع الأشياء على وفق حكمته وجعل كل حادث تابعا لشبهه كأنه جزء له خصوصا في العالم الانساني .

ولو فرضنا أن جاهلاً ضل عن الاعتراف بوجود إله صانع للعالم فليس في إمكانه أن يتماص من الاعتراف بتأثير الفواعل الطبيعية والحوادث الدهرية في الارادات البشرية فهل يستطيع انسان أن يخرج بنفسه عن هذه السنة التي سنّها الله في خلقه . هذا أمر يعترف به طلاب الحقائق فضلاً عن الواصين وان بعضاً من حكماء الافرنج وعلماء سياستهم التجأوا الى الخضوع لسلطة القضاء وأطالوا البيان في اثباتها ولسنا في حاجة الى الاستشهاد بأمرهم .

إن للتاريخ علماً فوق الرواية عني بالبحث فيه العلماء من كل أمة وهو العلم الباحث عن سير الأمم في صعودها وهبوطها وطبائع الحوادث العظيمة وخواصها وما ينشأ عنها من التغيير والتبديل في العادات والاخلاق والافكار بل في خصائص الاحساس الباطن والوجدان وما يتبع ذلك كله من نشأة الامم وتكون الدول أو فناء بعضها واندراس أثره .

هذا الفن الذي عدوه من أجل الفنون الادبية وأجزلهما فائدة بناء البحث فيه على الاعتقاد بالقضاء والقدر والاذعان بأن قوى البشر في قبضة مديرة للكائنات ومصرف للحادثات ولو استقلت قدرة البشر بالتأثير ما انحط رفيع ولا ضعف قوي ولا أنهمد مجد ولا تقوض سلطان .

الاعتقاد بالقضاء والقدر اذا تجرد عن شناعة الجبر يبعثه صفة الجراءة والاقدام وخلق الشجاعة والبسالة ويبعث على اقتحام المهالك التي توجف لها نلوب الاسود وتنشق منها مرائر النور . هذا الاعتقاد يطبع الانفس على الثبات واحتمال المكارّه ومقارعة الاهوال ويحمليها بحلي الجود والسخاء ويدعوها الى الخروج من كل ما يعز عليها بل يحملها على بذل الأرواح والنخلي عن نضرة الحياة كل هذا في سبيل الحق الذي قد دعاها للاعتقاد بهذه العقيدة .

الذي يعتقد بأن الاجل محدود والرزق مكفول والاشياء بيد الله يصرفها كما يشاء كيف يرهب الموت في الدفاع عن حقه واعلاء كلمة أمته أو ملته والقيام بما فرض الله عليه من ذلك وكيف يخشى الفقر مما ينفق من ماله في تعزيز الحق وتشديد المجد على حسب الاوامر الالهية وأصول الاجتماعات البشرية .

امتدح الله المسلمين بهذا الاعتقاد مع بيان فضيلته في قوله الحق (الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل * فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم) . اندفع المسلمون في أوائل نشأتهم الى الممالك والاقطار يفتحونها ويتسلطون عليها فأدهشوا العقول وحيروا الالباب بما دوخوا الدول وقهروا الامم وامتدت سلطتهم من جبال بيريني الفاصلة بين اسبانيا وفرنسا الى جدار الصين مع قلة عددهم وعددهم وعدم اعتيادهم على الالهوية المختلفة وطباع الاقطار المتنوعة أرغموا الملوك وأذلوا القياصرة والا كاسرة في مدة لا تتجاوز ثمانين سنة . ان هذا ليعد من خوارق العادات وعظائم المعجزات

دمروا بلادا ودكدكوا أطوادا ورفعوا فوق الارض أرضا ثانية من القسطل وطبقة أخرى من النقع وسحقوا رؤس الجبال تحت حوافر جيادهم وأقاموا بدلها جبالا وتلالا من رؤس النابذين لسلطانهم وارجفوا كل قلب وأرعدوا كل فريضة وما كان قائدهم وسائقهم الى جميع هذا الاعتقاد بالقضاء والقدر .

هذا الاعتقاد هو الذي ثبتت به أقدم بعض الاعداد القليلة منهم امام جيوش يفتخرون بها القضاء ويضيق بها بسيط الغبراء فكشفوهم عن مواقعهم وردوهم على أعقابهم .

بهذا الاعتقاد لمعت سيوفهم بالمشرق وانقضت شهبها على الحيارى في هبوات الحروب من أهل المغرب وهو الذي حملهم على بذل أموالهم وجميع ما يملكون من رزق في سبيل اعلاء كرامتهم لا يخشون فقرا ولا يخافون فاقة .

هذا الاعتقاد هو الذي سهل عليهم حمل أولادهم ونسائهم ومن يكون في حجبورهم الى ساحات القتال في أقصى بلاد العالم كأنما يسيرون الى الحدائق والرياض وكأنهم أخذوا لأنفسهم بالنوكل على الله أمانا من كل غادرة، وأحاطوها من الاعتماد عليه بحصن بصونهم من كل طارقة، وكان نساؤهم وأولادهم يتولون سقاية جيوشهم وخدمتها فيما تحتاج اليه لا يفترق النساء والاولاد عن الرجال والكهول الا بحمل السلاح ولا تأخذ النساء رهبة ولا تعشى الأ ولاد مهابة . هذا الاعتقاد

هو الذي ارتفع بهم الى حد كان ذكر اسمهم يذيب القلوب ويبدد أفلاذ الالكباد حتى كانوا ينصرون بالرعب يقذف به في قلوب أعدائهم فيهنزومون بجيش الرهبة قبل أن يشيخوا بررق سيوفهم ولعان أسننتهم بل قبل أن تصل الى تخومهم أطراف جحافلهم . (بكائي على السالفين، ونحبي على السابقين، أين أنتم يا عصابة الرحمة وأولياء الشفقة، أين أنتم يا اعلام المروءة، وشواخ القوة، أين أنتم يا آل النجدة، وغوث المصميم يوم الشدة، أين أنتم يا خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر؟ أين أنتم أيها الامجاد الانجاد القوامون بالقسط الآخذون بالعدل الناطقون بالحكمة المؤسسون لبناء الأمة؟ ألا تنظرون من خلال قبوركم الى ما أتاه خلفكم من بعدكم وما أصاب أبناءكم ومن ينتحل نحلتمكم !! انحرفوا عن سنتكم، وجاروا عن طريقكم، فضلوا عن سبيلكم وتفرقوا فرقا وأشياء حتى أصبحوا من الضعف على حال تذوب لها القلوب أسفاً، وتحترق الالكباد حزناً، أضحوا فريسة للأمم الأجنبية لا يستطيعون ذوداً عن حوزتهم، ولا دفاعاً عن حوزتهم، ألا يصيح من برازخكم صائح منكم يذبه الغافل، ويوقظ النائم، ويهدي الضال الى سواء السبيل . انالله وانا اليه راجعون .)

أقول وربما لأخشى واحما ينازعي فيما أقول انه من بداية تاريخ الاجتماع البشري الى اليوم ما وجد فاتح عظيم ولا محارب شهير نبت في أوسط الطبقات ثم رقي بهمة في أعلى الدرجات، فذلت له الصعاب، وخضعت الرقاب، وبلغ من بسطة الملك ما يدعو الى العجب، ويبعث الفكر لطلب السبب، الا كان معتقداً بالقضاء والقدر . سبحان الله!! الانسان حر يص على حياته شحيح بوجوده على مقتضى الفطرة والجملة فما الذي يهون عليه اقتحام المخاطر وخوض المهالك ومصارعة المنايا إلا الاعتقاد بالقضاء والقدر وركون قلبه الى أن المقدر كأن ولا أثر لهول المظاهر . أثبتت لنا النوارين ان كورش الفارسي (كيخسرو) وهو أول فاتح يعرف في تاريخ الاقدمين ما نسنى له الظفر في فتوحاته الواسعة إلا لأنه كان معتقداً بالقضاء والقدر فكان لهذا الاعتقاد ليهوله هول ولا توهن عزيمته شدة . وان الاسكندر الاكبر اليوناني كان ممن رسخ في نفوسهم هذه العقيدة الجميلة وجنسكيزخان النوري صاحب

الفتوحات المشهورة كان من أرباب هذا الاعتقاد بل كان نابليون الاول بوناپرت
الفرنساوي من أشد الناس تمسكا بعقيدة القضاء وهي التي كانت تدفعه بعساكره
القليلة على الجماهير الكثيرة فيتهباً له الظفر وينال بغيته من النصر .

فنعلم الاعتقاد الذي يطهر النفوس الانسانية من رذيلة الجبن وهو أول عائق
للمهندس به عن بلوغ كماله في طبقته أيا كانت . نعم اننا لانكر أن هذه العقيدة
قد خالطها في نفوس بعض العامة من المسلمين شوائب من عقيدة الجبر وربما كان
هذا سبباً في رزيتهم ببعض المصائب التي أخذتهم بها في الاعصر الأخيرة
ورجاؤنا في الراسخين من علماء العصر أن يسعوا جهدهم في تخليص هذه العقيدة
الشريفة من بعض ما طرأ عليها من لواحق البدع ويذكروا العامة بسنن السلف
الصالح وما كانوا يعملون وينشروا بينهم ما أثبتته أممتنا رضي الله عنه كالشيخ الفزالي
وأمثاله من أن التوكل والركون الى القضاء إنما طلبه الشرع منا في العمل لافي
البطالة والكسل وما أمرنا الله أن نهمل فروضنا وننبذ ما أوجب علينا بحجة التوكل
عليه فذلك حجة المارقين عن الدين الحائدين عن الصراط المستقيم ولا يرتاب
أحد من أهل الدين الاسلامي في أن الدفاع عن الملة في هذه الاوقات صار من
الفروض العينية على كل مؤمن مكلف وليس بين المسلمين وبين الالتفات الى
عقائدهم الحقبة التي تجمع كلمتهم وترد اليهم عزيمتهم وتنهض غيرتهم لاسترداد
شأنهم الأول الادعوة خير من علمائهم وان جميع ذلك موكول الى ذمتهم .
أما ما زعموه في المسلمين من الانحطاط والتأخر فليس منشؤه هذه العقيدة (ولا
غيرها من العقائد الاسلامية) ونسبته اليها كدسبة النقيض الى نقيضه بل أشبه
ما يكون بنسبة الحرارة الى الثلج والبرودة الى النار .

نعم حدث للمسلمين بعد نشأتهم نشوة من الظفر وتمل من العز والغلب وفاجأهم وهم
على تلك الحال صدمتان قويتان صدمة من طرف الشرق وهي غارة النمر من جنكيزخان
وأحفاده وصدمة من جهة الغرب وهي زحف الأمم الأوربية بأسرها على ديارهم
وان الصدمة في حال النشوة تذهب بالرأي وتوجب الدهشة والسبات بحكم الطبيعة .
وبعد ذلك تداولتهم حكومات متنوعة ووسد الأمر فيهم الى غير أهل وولي

على أمورهم من لا يحسن سياستها فكان حكامهم وأمراؤهم من جرائم الفساد في أخلاقهم وطباعهم وكانوا مجلبة لشقاؤهم وبلائهم فتمكن الضعف من نفوسهم وقصرت أنظار الكثير منهم على ملاحظة الجزئيات التي لا تتجاوز لذته الانية وأخذ كل منهم بناصية الآخر يطلب له الضرر ويلتمس له السوء من كل باب لالةلة صحيحة ولاداع قوي وجعلوا هذا ثمرة الحياة فأل الامر بهم الى الضعف والقنوط وأدى الى ماصاروا اليه .

ولكني أقول وحق ما أقول ان هذه الملة لن تموت مادامت هذه العقائد الشريفة آخذة مأخذها من قلوبهم ورسومها تلوح في أذهانهم وحقائقها مندولة بين العلماء الراسخين منهم وكما عرض عليهم من الامراض النفسية والاعتلال العقلي فلا بد أن تدفعه قوة العقائد الحققة ويعود الامر كما بدا وينشطوا من عقلمهم ويذهبوا مذاهب الحكمة والنبصر في انقاذ بلادهم وارهاب الأمم الطامعة فيهم وايقافها عند حدها وما ذلك ببعيد والحوادث التاريخية تؤيده فانظر الى العثمانيين الذين نهضوا بعد تلك الصدمات القوية (حروب التتر والحروب الصليبية) وساقوا الجيوش الي ارجاء العالم واتسعت لهم ميادين الفتوحات ودوخوا البلاد وأرغموا أنوف الملوك ودانت لسلطانهم الدول الافرنجية حتى كان السلطان العثماني يلقب بين الدول بالسلطان الاكبر .

ثم ارجع البصر تجدهزة في نفوسهم وحركة في طباعهم أحدثها فيهم ما توعدتهم به الحوادث الأخيرة من رداثة العاقبة وسوء المنقلب . حركة سرت في أفكار ذوي البصيرة منهم في أغلب الأنحاء شرقا وغربا وتألفت من خيارهم عصابات للحق كتبت على نفسها نصره العدل والشرع والسعي بغاية الجهد لبث أفكارها وجمع الكلمة المنفرقة وضم الاشتات المتبددة وجعلوا من أصغر أعمالهم نشر جريدة عربية لتصل بما يكتب فيها بين المتباعدين منهم وتنقل اليهم بعض ما يضره الاجانب لهم وانا نرى عدد الجمعية الصالحة يزداد يوما بعد يوم نسأل الله تعالى نجاح أعمالها وتأييد مقصدها الحق ورجاؤنا من كرمه أن يترتب على حسن سعيها أثر مفيد للشرقين عموما وللمسلمين خصوصا .

الفضائل والردائل وأثرهما *

وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ

قالوا للإنسان كمال مفروض عليه ان يسعى اليه، وقالوا انه عرضة لنقص يجب عليه الترفع عنه، وقالوا كماله في استيفاء ما يمكن من الفضائل، ونقصه في التلوث برذيلة من الردائل، فما هي الفضائل وما هي الردائل؟ الفضائل سجايا للنفس من مقتضاها التأليف والتوفيق بين المتصفين بها كالسخاء والعفة والحياء ونحوها فالسخيان لا يتشاحان ولا يتنازعان في التعامل فان من سجية كل منهما البذل في الحق والمنع اذا اقتضاه الحق فكل يعرف حده فبقف عنده فلا يوجد موضوع للنزاع عند معاطاة الاعمال المالية والأعفاء لا يتزاحمون على مشتهى من المشتهيات فان من خلق كل منهم التجافي عن الشهوة وفي طبيعته الايثار بالرغائب وهكذا اذا استقرت جميع ماعده علماء التهذيب من الصفات الفاضلة تجدد أن من لوازم كل فضيلة منها التأليف بين المتصفين بها في متعلق الاثر الناشئ عن تلك الفضيلة فاذا اجتمعت الفضائل أو غلبت في شخصين ماتت نفوسهما الى الاتحاد والائتام في جميع الاعمال والمقاصد أو جلها ودامت الوحدة بينهما بمقدار رسوخ الفضيلة فيها وعلى هذا النحو يكون الامر في الاشخاص الكثيرة فالفضائل هي مناط الوحدة بين البيئة الاجتماعية وعروة الاتحاد بين الاحاد تامل بكل منهما الى الآخر وتجذب الآخر الى من يشاكله حتى يكون الجمهور من الناس كواحد منهم يتحرك بارادة واحدة ويطلب في حركته غاية واحدة .

مجموع الفضائل هو العدل في جميع الأعمال فاذا شمل طائفة من نوع الانسان وقف بكل من آحادها عند حده في عمله لا يتجاوز به بما يمس حقا لآخر فيه يكون التكافؤ والتوازن .

لكل شخص من أفراد الانسان وجود خاص به وأودعت فيه العناية الالهية

* نشرت في العدد الثامن من جريد العروة الوثقى بعنوان الآلية الكريمة

من القوى مابه يحفظ وجوده وما به التناسل لبقاء النوع وهو في هذا يساوي سائر أفراد الحيوان لكن قضت حكمة الله ان يكون الانسان متمازا عن بقية الأنواع الحيوانية بكون آخر وجود أرقى وأعلى وهو كون الاجتماع حتى يتألف من افراده الكثيرة بنية واحدة يعمها اسم واحد والافراد فيها كاعضاء تختلف في الوظائف والاشكال وانما كل يؤدي عمله لبقاء البنية الجامعة وتقويتها وتوفير حفظها من الوجود ليعود اليه نصيب من عملها الكلي كما أودع الله في أعضاء أبداننا وبنيتنا الشخصية . والفضائل في المجتمع الانساني كقوة الحياة المستكملة في كل عضو ما يقدره على اداء عمله مع الوقوف عند حد وظيفته كاليد بها البطش والتناول وليس من خصائصها الابصار والعين بها الابصار وتمييز الاشكال والالوان وليس من وظائفها البطش والكل حي بحياة واحدة وان شئت قلت الفضائل في عالم الانسان كالجذبة العامة في العالم الكبير فكما ان الجذبة العامة يحفظ بها نظام الكواكب والسيارات وبتوازن في الجاذبية ثبت كل كوكب في مركزه وحفظت النسبة بينه وبين الكوكب الآخر وانتظم بها سيره في مداره الخاص بتقدير العزيز العليم حتى تمت حكمة الله في وجود الأكون وبقائها . كذلك شأن الفضائل في الاجتماع الانساني بها يحفظ الله الوجود الشخصي الى الاجل المحدود ويثبت البقاء النوعي الى أن يأتي أمر الله .

أي أمة يكون الواضع فيها والرافع، والحارس والوازع، والجالب والدافع، وجميع من يدبر أمورها ويسوسها في شؤونها انما هم افراد منها من هأمانها أو من لهازمها (من الاعلياء أو الأوساط بل سائر الاطراف) ويكون كل واحد منها قائما بحق الكل ولا يختار مقصدا يعكس مقصد الكل ولا يسعى الى غاية تميل به عن غاية الكل ولا يهمل عملا يتعلق بالأمة حتى يكون الجميع كالبنيان المئين لانزعزعه العواصف ولا تدكه الزلازل وبقوة كل منهم يجتمع للأمة قوة تحفظ بها موقعها وتدفع بها عن شرفها ومجدها وترد غارة الاغيار عليها فهي الأمة التي سادت فيها الفضائل واسنعت فيها مكارم الاخلاق .

ان أمة هذا شأنها لا يتخالف أفرادها الا للتآلف ولا يتفابرون الا للاتحاد

فمثالهم في اختلاف أعمالهم كمثل المندابرين علي محيط دائرة يتفارقان في مبدأ السير ليتلاقيا على نقطة من المحيط ومثالهم في تغاير مآخذهم لجلب منافعهم كجاذبي طرف خيطة واحدة (حبل واحد) كل أخذ بطرف مع تعادل القوتين ففني جذب أحدهما لصاحبه ابعاد لنفسه عنه من وجه، وحفظ لمكان قر به منه من وجه آخر فلا يفترقان ولا يتباينان ولا تنفي منفعة أحدهما في منفعة الآخر أما ان مسالك الافراد من مثل هذه الأمة بما منحوه من الارتباط بينهم كانصاف دائرة مركزها حياة الأمة وعظمتها ولا يخرج ولا واحد منهم عن محيط الجذبية وأنهم في جلب منافعها واستكمال فوائدها كالجدول تمد البحر لتستمد منه

يرى كل واحد منهم ان ما يتجهج به النفوس البشرية وتمتاز بالميل اليه عن سائر الحيوانات من رفعة المسكنة والغلب وبسط الجاه ونفاذ الكلمة انما يمكن نياله اذا توفر للأمة حظها من هذه المزايا فيسمى جهده لا لبلاغ كل واحد من الأمة أقصى ما يؤهلها استعداده ليأخذ بسهم مما يناله فلا يهمل ولا يخون في الدفاع عن فرد من أفرادها فضلا عن هيئتها العامة وإلا فقد خان نفسه لأنه أبطل آلة من آلات عمله وقطع سببا من أسباب غايته ولا يحتمر واحداً من الآحاد ولا يزدرى بعمله ويحسب الشخص من الأمة وان كان صغيرا بمنزلة مسمار صغير في آلة كبيرة لو سقط منها تعطلت الآلة بسقوطه .

عليك ان تنظر في حقائق هذه الصفات الفاضلة للتحكم بما ينشأ عنها من الأثر الذي يدناه - التعقل والتعروي وانطلاق الفكر من قيود الاوهام والعمى والسخاء والفناعة والدأثة (ابن الجائب) والوقار والتواضع وعظم الهمة والصبر والحلم والشجاعة والايثار (تقديم الغير بالمنفعة على النفس) والنجدة والساحة والصدق والوفاء والامانة وسلامة الصدر من الحقد والحسد والعمو والرفق والمرورة والحمية وحب العدالة والشفقة - أترى لو عمت هذه الصفات الجليلة أمة من الأمم أو غلبت في افرادها يكون بينها سوى الاتحاد والائتام التام هل يوجد مشار للنافر والخلاف بين عاقلين حرين صادقين وفيين كريمين شجاعين رفيقين صابرين حليمين متواضعين وقورين عفيفين رحيمين . أما والله لو نفخت نسمة من أرواح هذه

الفضائل على أرض قوم وكانت مواتا لأحييتها أو قفرا لأنبتها أو جدبا لأمطرتها من غيث الرحمة ما يسبغ نعمة الله عليها ولأقامت لها من الوحدة سجايا لا يخرق وحرزا منيعا لا يهتك وان أولى الامم بأن تبلغ الكمال في هذه السجايا الشريفة أمة قال نبهم « انما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق . الفضيلة حياة الامم تصون اجسامها عن تداخل العناصر الغريبة وتحفظها من الانحلال المؤدي الى الزوال (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) .

وأما الردائل فهي كصفات خبيثة تعرض للأفئس من طبيعتها التحليل والتفريق بين النفوس المتكيفة بها كالمحقة (قلة الحياء) والبذاء (التطاول على الأعراس بما لا تقتضيه الحشمة والأدب من الكلام) والسفه والبله والطيش والنهور والعجب والدناءة والجزع والحقد والحسد والكبرياء والعجب والابجاج والسخرية والفدر والحيانة والكذب والنفاق فأى صفة من هذه الصفات ثلوث بها نفسان أقت بينهما العداوة والبغضاء وذهبت بهما مذاهب الخلاف الى حيث لا يبقى أمل في الوفاق فإن طبيعة كل واحدة منها اما مجاوزة الحدود في التعدي على الحقوق وإما السقوط الى مالا يمكن معه للشخص اداء الواجب عليه لمن يشاركه في الجنسية أو الملية أو القبيلة أو العشيرة أو بأي نوع من أنواع التعامل والانسان مجبول بالطبع على النفرة ممن يتعدى على حقوقه أو يمنعه حتما منها وان شئت فتخييل وقبحين بذيئين سفهين جبانين بخيلين (كل يمنع الآخر حقه) شرهين حاقدين حاسدين متكبرين (كل لا يستحسن الا فعل نفسه) لجوجين خائنين غادرين كاذبين منافقين هل يمكن ان يجمعهم مقصد أو توحد بينهما غايات؟ أليس كل وصف على حدته قاضيا بانثابذ كل من صاحبه وان لم تكن داعية وكفى بخلقه وصفته باعثا قويا للتناوذ .

هذه الردائل اذا فشت في أمة تقضت بناءها وثرت أعضاؤها وابدتها شذمرذر واستدعت بمد ذلك طبيعة الوجود الاجتماعي أن تسطو على هذه الأمة قوة أجنبية عنها لتأخذها بالقهر وتصرفها في أعمال الحياة بالقسر فان حاجاتهم في المعيشة طلبة للاجتماع وهو لا يمكن مع هذه الأوصاف ولا بد من قوة خارجية تحفظ صورة الاجتماع الى حد الضرورة . هذه صفات اذا رسخت في نفوس قوم صار بأسهم

بينهم شديدا تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى، تراهم أعزة بعضهم على بعض أذلة للأجنبي عنهم، يدعون أعداءهم للسيادة عليهم، ويفتخرون بالانتماء إليهم، يهدون السبل للغالبيين الى النكايه بهم، ويمكنون مخالبا المقاتلين من احشائهم، ويرون كل حسن من أبناء جنسهم قبيحا، وكل جليل منهم حقيرا، اذا نطق أجنبي بما يدور على السنة صبيانهم عدوه من جوامع الكلم ونفائس الحكم، واذا غاص أحدهم بحر الوجود واستخرج لهم درر الحقائق وكشف لهم دقائق الاسرار عدوه من سقط المتاع، وقالوا بلسان حالهم أو مقالهم ليس في الامكان ان يكون منا عارف، ومن المحال ان يوجد بيننا خبير. ويغلب عليهم حب الفخفة والفخر الكاذب ويتنافسون في سفاسف الأمور ودنياها، يرتابون في نصيح الناصحين، وان قامت على صدقهم أقطع البراهين، يسخرون بالواعظين، وان كانوا في طلب خيرهم من أخلص المحلصين، يبذلون جهدهم لحية من يسعى لاعلاء شأنهم وجمع كلمتهم، ويقعدون له بكل سبيل يقيمون في طريقة العقبات ويهثون له أسباب العثار، تراهم بتضارب أخلاقهم، ونعا كس، أطوارهم كالبدن المصاب بالفالج لا تنظم لأعضائه حركة ولا يمكن تحريك عضو منه على وجه مخصوص لمقصد معلوم فتنتفت أعمالهم عن حد الضبط، وتخرج عن قواعد الربط. فساد طباعهم بهذه الأخلاق يجعلهم منبعا للشر ومبعثا للضرر، يصير الواحد منهم كالكلب الكلب أول ما يبداً بعض صاحبه قبل الأجنبي، بل كالميتلى بمنون مطابق أول ما يفتك بمربيه ومهذبه، ثم يشي بطيبيه ومعالج دانه، تكون الآحاد منهم كالأمرض الأكلة من نحو الجذام والآكلة يمزقون الأمة قطعا وجذاذات بعد ما يشوهون وجهها ويشوشون هيئتها. أولئك قوم يسامون في مراعي الدنيا والخصائس لتغلب الذللة على سائر أوصافهم فينتفخون على أبناء جلدتهم ويذلون لقزم الأجانب فضلا عن عليتهم وبهذا يمكنون الذلة في نفوسهم لمن دونهم ويطبعونها على الخضوع للغرباء، بل الاعداء الألداء، من طبقة الى طبقة حتى يضمحل الأمة وتنسخ هيئتها وتفتى في أمة أوملة أخرى، سنة الله في تبدل الدول وفناء الأمم (وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهي ظالمة ان أخذها أليم شديد) أعاذنا الله من هذه العاقبة وحرص أمتنا وملتنا من المصير الى هذه النهاية .

بقيت لنا المحنة نظر الى ما به تقمى الفضائل، وتمحص النفوس من الردائل، حتى تستعد الجميعة البشرية بالاتحاد وتصون به أكوانها من الفساد: كل مولود يولد على الفطرة مادة مستعدة لقبول كل شكل والتلون بأي لون فهل ينال كمال الفضيلة من آباءه وأسلافه؟ انى يكون لهم حظ منها وقد كانوا ناشئين على مثل ما نشأ عليه وليدهم يرشدنا رائد الحق الى أن الاعتدال في أصول الأخلاق وانتحلي بحلية الفضائل وترويض القوى والآلات البدنية على العمل بأثارها انما يكون بالدين وان يتم أثر الدين في نفوس الآخذين به فيصيروا حفاً وافرا مما يرشد اليه فيتمتعوا بحياة طيبة وعيشة مرضية الا اذا قام رؤساء الدين وحملنه وحفظته بأداء وظائفهم من تبدين أو امره ونواهيته ونثيبتها في العقول ودعوة الناس الى العمل بها وتنبه الغافلين عن رعايتها ونذ كير الساهين عن هديها. أما اذا أهمل خدمة الدين وظائفهم أو تهاونوا في تأدية أعمالها ضعف اليقين في النفوس وذهلت العقول عن مقتضيات العقائد الدينية وأظلمت البصائر بالفغلة وتحكمت الشهوات البهيمية وتسالطت الحاجات المعاشية ومال ميزان الاختيار مع الهوى فخشدت الى الانفس أوفاد الردائل فيحقق على الناس كلمة العذاب ويحل بهم من الشقاء ما أشرنا اليه سابقاً.

هذه علل الخراب في كل أمة ولقد ظهر أثرها في أمم لا تحصى عدداً من بداية كون الانسان الى الآن ولم يزل بقايا بعضها يشهد على ما فتكت به الردائل فيهم بعد ما بدلوا وغيروا كما في طائفة الدهير و(ملك) من سكنة الأقطار الهندية المعروفين عند الأوربيين بطائفة (ياربا) (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلكم). فالدين هو السائق الى السعادة في الدنيا كما يسوق اليها في الآخرة.

تقاب قاب الدهر على بعض طوائف من المسلمين في أقطار مختلفة من الأرض وسلبهم تيجان عزهم وألقاها على هامات قوم آخرين واليوم ينازع طوائف أخرى ولا يخله يتغلب عليهم فكشف هذا عن نوع من الضعف ولا يكون ناشئاً إلا عن شيء من الإهمال في اتباع أوامر الشرع الاسلامي ونواهيته بحكم قول الله في كتابه (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) وقد يكون ذلك وربما لا يشكر الآن

ان كثيرا من عامة المسلمين وان صحت عقائدهم من حيث ماتعلق به الاعتقاد الا أنهم لا يتهجون في بعض أعمالهم منهاج الشريعة الغراء وهذا مما يحدث ضعفافي قوة الأمة بقدر الميل عن جادة الاعتدال في الفضائل والأعمال (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم .)

الا ان المسلمين لم يزالوا على أصول الفضائل الموروثة عن اسلافهم ولهم حسن الاذعان لما جاء به شرعهم وكتاب الله متلو على ألسنتهم وسنة نبينهم يتناقضونها رواية ودراية وسير الخلفاء الراشدين والسلف الصالح مرسومة على صفحات نفوس الخاصة منهم فليس ما طرأ على بعضهم من الغفلة عن متابعة الشرع وما تسبب عنه من الضعف في القوة إلا عرضا لا يبقى وحالا لا يدوم .

انظر نظرة انصاف الى ما أودعته آيات القرآن من غرر الفضائل وكرام الشيم والى حرص المسلمين على احترام كتابهم وتبجيله تبحر من نفسك حكما باننا بأن علماء الديانة الاسلامية لو نشطوا لأداء وظائفهم المفروضة عليهم بحكم وراثتهم لصاحب الشرع والمحتومة على ذمتهم بأمر الله الموجه الى الذين يعقلونه وهم هم في قوله الحق (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) وبالخص الالهى المفهوم من قوله (فلولا نفر من كل فرقة منهم « المؤمنين » طائفة لمتفقوها في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون) ولو قاموا يعظون العامة بما ينطق به القرآن ويزكروهم بما كان عليه صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الناهجون على سنته من الاخلاق الحمودة والاعمال المبرورة لرأيت الأمة الاسلامية ناشطة من عقالها متضافرة على اعادة مجدها وصيانة ولايتها العامة من الضعف وبيضة دينها من الصدع كل ذلك في أقرب وقت وان تكون الا صيحة واحدة فاذا هم قيام ينظرون . ولا ريب ان الراسخين في العلم من أهل الدين الاسلامي يعلمون أن ما أصيب به المسلمون في هذه الازمان الاخيرة انها هو مما امتحنهم الله به جزاء على بعض ما فرطوا وليس للناس على الله حجة فالرجاء في همهم وغيرتهم الدينية وحميتهم الملية ان يوجهوا العناية الى رتق الفتق قبل اتساعه ومداواة العلة قبل استحكاها

فيذكروا أبناء الملة بأحكام الله ومحكموا بينهم روابط الاخوة والالفة كما أمر الله في كتابه وعلى لسان نبيه وبيدلو الجهد لمحو اليأس والقنوط الذي ملك أفئدة البعض منهم ويقنعوهم بأنه لا يأس من لطف الله الا الذين في قلوبهم مرض وفي عقائدهم زيغ ويسيروا بهم في سبيل يجمع كلمتهم ويوحد وجهتهم ويقوي فيهم اباة الضيم والنفرة من الذل ويحرك فيهم روح الالفة حتى لا تسمح نفس أحدهم ان يأتي الدنيا في دينه ويكشفوا لهم حقيقة وعد الله ووعد الحق في قوله : (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين)

الوحدة الاسلامية (*)

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ

أظلت ولاية الاسلام ما بين نقطة الغرب الاقصى الى تونسكاني على حدود الصين في عرض ما بين قازان من جهة الشمال وبين سرنديب تحت خط الاستواء .
 أقطار متصلة وديار متجاورة يسكنها المسلمون وكان لهم فيها السلطان الذي لا يغالب . أخذ بصوابع الملك منهم ملوك عظام فأداروا بشوكتهم كرة الارض الا قليلا . ما كان يهزم لهم جيش ولا ينكس لهم علم ولا يرد قول على قائلهم . قلاعهم وصياصيمهم متلاقية ومنابتهم ومغارسهم في سهوبهم (أراضيهم السهلة الواسعة) واخيافهم (الاراضي المنحدرة عن الجبل) رابية مزدهية بأنواع النبات حالية باصناف الاشجار صنع أيدي المسلمين ومدنهم كانت آهلة . مؤسسة على أمن قواعدا العمران تباهي مدن العالم بصنائع سكانها وبدائعهم وثفاخرها بشموس الفضل وبدور العلم ونجوم الهداية من رجال كان لهم المكان الاعلى في العالم والآداب . كان في نقطة الشرق من حكمائهم مثل ابن سينا والفارابي والرازي ومن يشاكلهم وفي الغرب ابن باجه وابن رشد وابن الطفيل ومما ثلوم وما بين

(*) نشرت في العدد التاسع من العروة الوثقى في بيان مفاصل أمراء المسلمين

وفي دعوتهم الى الوحدة .

ذلك أمصار تتراحم فيها أقدام العلماء في الحكمة والطلب والهيئة والهندسة وسائر العلوم العقلية هذا فضلا عن العلوم الشرعية التي كانت عامة في جميع طبقات الأمة . كان خليفةهم العباسي ينطق بالكلمة فيخضع لها فغفور الصين وترتعد منها فرائص أعظم الملوك في أوروبا . ومن ملوكهم في قرونهم المتوسطة مثل محمود الغزنوي وملكشاه السلجوقي وصلاح الدين الايوبي وكان منهم في المشرق مثل تيمور الكوركان وفي الغرب مثل السلطان محمد الفاتح والسلطان سليم والسلطان سليمان العثماني أولئك رجال قضوا ولم يطو الزمان ذكرهم ولم يمح أثرهم كانت لأساطيل المسلمين سلطة لا تبارى في البحر الأبيض والاحمر والمحيط الهندي ولها الكلمة العليا في تلك البلاد الى زمن غير بعيد . كان مخالفوهم يدينون للملوك فضلهم كما يذلون لسلطان غابهم . والمسلمون اليوم هم هم يملؤون تلك الاقطار التي ورثوها عن آباؤهم وعديدهم لا ينقص عن مئتي مليون (*) وأفرادهم في كل قطر بما أشربت قلوبهم من عقائد دينهم أشجع وأسرع إقداما على الموت ممن يجاورهم وهم بذلك أشد الناس ازدياء بالحياة الدنيا وأقاربهم مبالاة بزخرفها الباطل جاءهم القرآن بحكم آياته يطالب الناظرين بالبرهان على عقائدهم ويعيب الأخذ بالظنون والتمسك بالاهام ويدعو الى الفضائل وعقائل الصفات وأودع في أفكارهم جرائم الحق وبذر في نفوسهم بذور الفضل فهم بأصول دينهم أنور عقلا وأنبه ذهنا وأشد استعدادا لنيل الكمالات الانسانية وأقرب الى الاستقامة في الاخلاق وبما يرون لانفسهم من الاختصاص بالشرف وما وعدوا به على لسان كتابهم الصادق من اظهار شأنهم على شؤون العالم أجمع ولو كره المبطلون لا يرغبون بسلطة لغيرهم عليهم ولا يحوم بفكر واحد منهم ان يخضع لذي سطوة من سواهم وان بلغت من الشدة واللين ما بلغت . ولما بينهم من الاخاء المؤزر بمناطق العقائد يحسب كل واحد منهم ان سقوط طائفة من بني ملته تحت سلطة الاجانب سقوط لنفسه . ذلك احساس يشعر به وجدانه ولا يجد عنه مسليا . وبما ساخ (غاص ورسب) في نفوسهم من جذور المعارف التي أرشدهم اليها دينهم ونالوا

(*) هذا بحسب الاحصاء لذلك العهد وقد ثبت أخبارا أنهم ٣٠٠ مليون أو يزيدون

منها النصيب الاعلى في عنفوان دولتهم يعدون أنفسهم أولى الناس بالعلم وأجددهم بالفضل ذلك شأنهم الاول وهذا وصفهم الآن ولكنهم مع هذا كله وقفوا في سيرهم بل تأخروا عن غيرهم في المعارف والصنائع بعد ان كانوا فيها أساتذة العالم وأخذت مسائلهم تنقص من أطرافها وتمزق حواشيتها مع ان دينهم يرسم عليهم أن لا يدينوا لسلطة من يخالفهم بل الركن الاعظم لدينهم طرح ولاية الأجنبي عنهم وكشفها عن ديارهم بل منازعة كل ذي شوكة في شوكته (١) هل نسوا وعد الله لهم بأن يرثوا الارض وهم العباد الصالحون ؟ هل غفلوا عن تكفل الله لهم باظهار شأنهم على سائر الشؤن ولو كره المجرمون ؟ هل سهوا عن أن الله اشترى منهم لاعلاء كلمته أنفسهم وأمواهم بأن لهم الجنة ؟ لا لا . ان العقائد الاسلامية مالكة لقلوب المسلمين حاكمة في ارادتهم وسواء في العقائد الدينية والفضائل الشرعية عامتهم وخاصتهم . نعم يوجد للتصير في إتمام العلوم للضعف في القوة أسباب أعظمها تحالف طلاب الملك فيهم لأننا بينا ان لاجنسية للمسلمين الا في دينهم فتعدد الملكة عليهم كتعدد الرؤساء في قبيلة واحدة والسلاطين في جنس واحد مع تباين الاغراض وتعارض الغايات فشغلوا أفكار الكفاة بمظاهرة كل خصم خصمه وألوا العامة بذهيئة وسائل المغالبة وقهر بعضهم بعض فأدّت هذه المغالبات وهي أشبه شيء بالمنازعات الداخلية الى الذهول عما نالوا من العلوم والصنائع فضلا عن التصير في طاب مالم ينالوا منها والاعسار دون الترقى في عواليها ونشأ من هذا ما نراه من الفاقة والاحتياج وعقبه الضعف في القوة والخلل في النظام وجلب تنازع الامراء على المسلمين تفرق الكلمة وانشقاق العصا فلها بأنفسهم عن تعرض الأجانب بالعدوان عليهم هذا كان من أمراء المسلمين مع ما فيه من الضرر الفادح عند ما كانوا

(١) جامع الكتاب : كل أمة وكل دولة تتمنى لو يكون العالم كله تابعا لها في جنسيتها ودينها ولكن الاوربيين يقومون علينا هذا الاعتقاد الذي لا نعمل بمقتضاه وهم يعملون ويسمونه تعصبا وما انتعصب المذموم الاهضم حقوق المخالف في الدين وايدأوه لأنه مخالف أو اكرأه على ترك دينه وكل هذا يحظره الاسلام ويذمه

منفردين في ميادين الوغى لا يجاريهم فيها سواهم من الملل ولكن ضرب الفساد في نفوس أولئك الأمراء بمرور الزمان وتمكن من طباعهم حرص وطمع باطل فانقلبوا مع الهوى وضلت عنهم غايات المجد المؤثّل وقنعوا بألقاب الإمارة وأسماء السلطنة وما يتبع هذه الاسماء من مظاهر الفخفخة وأطوار النفخة ونعومة العيش مدة من الزمان واخثاروا موالاة الأجنبي عنهم المخالف لهم في الدين والجنس ولجؤا للاستنصار به وطالب المعونة منه على أبناء ملتهم استبقاء لهذا الشبح البالي والنعيم الزائل .

هذا الذي أباد مسلمي الاندلس وهدم أركان السلطنة التيمورية في الهند ومحا أطلالها وعلى رسومها شيد الانكليز ملكهم بتلك الديار . هكذا تلاعبت أهواء السفهاء بالممالك الاسلامية ودهورتها أمانيتهم الكاذبة في مهاري الضعف والوهن قبيح ما صنعوا وبئس ما كانوا يعملون . أولئك اللاهون بلذاتهم العاكفون على شهواتهم الذين بددوا شامل الملة وأضاعوا شأنها وأوقفوا مسير العلوم فيها وأوجبوا الفترة في الأعمال النافعة من صناعة وتجارة وزراعة بما غلوا من أيدي بنيتها . ألا قاتل الله الحرص على الدنيا والتهالك على الحسائس ما أشد ضررها وما أسوأ أثرها: نبدوا كلام الله خلف ظهورهم وجحدوا فرضا من أعظم فروضه فاختلفوا والعدو على أبوابهم وكان من الواجب عليهم أن يتحدوا في الكرامة الجامعة حتى يدفعوا غارة الأبعاد عنهم ثم لهم أن يعودوا لشؤونهم . ماذا أفادتهم المغالاة في الطمع والمنافسة في السفاسف ؟ أفادتهم حسرة دائمة في الحياة وشقاء أبديا بعد الممات وسوء ذكر لا تمحوه الأيام . اما وعزة الحق وسر العدل لو ترك المسلمون وأنفسهم بما هم عليه من العقائد مع رعاية العلماء العاملين منهم لتعارفت أرواحهم واثلفت آحادهم ولكن وا أسفاً تخلصهم أولئك المفسدون الذين يرون كل السعادة في لقب أمير أو ملك ولو على قرية لأمر فيها ولا نهى . هؤلاء الذين حولوا أوجه المسلمين عما ولاهم الله وخرجوا على ملوكهم وخلفائهم حتى ثنا كرت الوجوه وتباينت الرغائب . الانفاق والتضافر على تعزيز الولاية الاسلامية من أشد أركان الديانة المحمدية والاعتقاد به من أوليات العقائد عند المسلمين لا يحتاجون

فيه الى أستاذ يعلم ولا كتاب يثبت ولا رسائل تنشر .

ان رعاية المسلمين فضلا عن علام تنصاعد زفراتهم وتفيض أعينهم من الدمع حزناً وبكاء على ما أصاب ملتهم من تفرق الآراء ، وتضارب الأهواء ، ولولا وجود الغواة من الأمراء ذوي المطامع في السلطة بينهم لاجتمع شرفهم بغير بينهم وشمالهم بجنو بينهم ولبي جميعهم نداء واحدا . ان المسلمين لا يحتاجون في صيانة حقوقهم الا الى تنبيه أفسكارهم لمعرفة ما به يكون الدفاع وانفاق آرائهم على القيام به عند لزومه وارتباط قلوبهم الناشيء عن احساس بما يطرأ على الملة من الاخطار . ألم تر أمة الروس هل تجرد فيها ما يزيد على هذه الاصول الثلاثة . هي أمة متأخرة في الفنون والصنائع عن سائر أمم أوربا وليس في ممالكها ينابيع للثروة ولئن كانت فليس هناك ما يستفيضها من الاعمال الصناعية فهي مصابة بالحاجة والايغواز غير أن تنبيه أفسكار آحادها لما به يكون الدفاع عن أمنهم وانفاقهم في النهوض به وارتباط قلوبهم صير لها دولة تميد اسطوتها رواسي أوربا . لم يكن للروسيا مصانع لمعظم الآلات الحربية ولكن لم يمنعه ذلك عن اقتنائها ولم يرتق فيها الفن العسكري الى حد ما عليه جبرائها الا أن هذا لم يقهدها عن جلب ضباط من الامم الأخرى لتعليم عساكرها حتى صار لجيشها صولة تخيف وحملة تخشاهها دول أوربا

فما الذي أقعدنا عن مشاكة غيرنا في ما هو أيسر الأشياء علينا ونحن أشد الناس ميلا اليه من رعاية شرف الملة والتألم بما يحط منه وانتعارن على صون الوحدة الجامعة لنا عن كل ما يثلمها ؟ ما رد الافكار عن الحركة وما أقعد المهتم عن النهوض الا أولئك المترفون ، يحرصون على طيب في المطاعم ولين في المضجع وتناول في البنيان وتفاخر بالخدم والحوول ولا يراعون في حرصهم ما بعد يومهم ويحافظون على لقبه ووضوع ورسمه يتبعون يقتنعون منه بالاحتفال لهم في الموسم والاعياد وهز الرؤس وثني الاعطاف تعظيما وتجيلا ثم تذييل الاوراق الرسمية بأسماء ليس لها مسميات . هؤلاء الساقطون يرضون لتخيل هذه المواثيل (جمع مائل من الرسوم ما ذهب أثره) بكل دنبة هؤلاء يقبلون من تصرف أعدائهم في بيوتهم ما لا يقبله واحد من آحاد الناس دون موته أو لثك صاروا في أعناق المسلمين سلاسل

وأغلا لا يحبسون هذه الأسود عن فرستها بل يجعلونها طعمة للثعالب لا حول ولا قوة الا بالله .

أيا بقية الرجال ، ويا خلف الابطال ، ويا نسل الاقيال ، هل ولى بكم الزمان؟ هل مضى وقت الندارك هل آن أو ان اليأس؟ لا . لا . معاذ الله أن ينقطع أمل الزمان منكم . ان من أدركه الى يشاور دولا إسلامية متصلة الاراضي متحدة العقيدة بجمعهم القرآن لا ينقص عددهم عن خمسين مليوناً وهم ممتازون بيز أجيال الناس بالشجاعة والبسالة أليس لهم أن يتفقوا على الذب والاقدام كما اتفق عليه سائر الامم ولو اتفقوا فليس ذلك بيدع منهم فالاتفاق من أصول دينهم . هل أصاب الخدر مشاعرهم فلا يحسبون بحاجات بعضهم لبعض أليس لكل واحد منهم أن ينظر الى أخيه بما حكم الله في قوله « إنما المؤمنون اخوة » فيقيمون بالوحدة سدا يحول عنهم هذه السيول المندفعة عليهم من جميع الجوانب . لا أتمس بقولي هذا ان يكون مالك الامر في الجميع شخصاً واحداً فان هذا ربما كان عسيراً ولكني أرجو أن يكون سلطان جمعهم القرآن وجهة وحدتهم الدين وكل ذي ملك على ملكه يسمى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع فان حياته بحياته وبقائه ببقائه . الا ان هذا بعد كونه أساساً لدينهم تقضي به الضرورة وتحكم به الحاجة في هذه الاوقات . هذا آن الاتفاق . هذا آن الاتفاق . الا ان الزمان يواسيكم بالفرض وهي لكم غنائم فلا تفرطوا . ان البكاء لا يجيي الميت . ان الاسف لا يرد الفائت . ان الحزن لا يدفع المصيبة . ان العمل مفتاح النجاح . ان الصدق والاخلاص سلم الفلاح . ان الوجل يقرب الأجل . ان اليأس وضعف الهمة من أسباب الختف . « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » . ألا لا تكونوا ممن كره انبئانهم فبظهم وقيل اقمعدوا مع القاعددين . احذروا ان تقعوا تحت قول الله « رضوا بأن يكونوا مع الخوائف وطبع الله على قلوبهم فهم لا يفقهون » ان القرآن حي لا يموت ومن أصابه نصيب من حمده فهو محمود ومن أصيب بسهم من مقتته فهو ممقوت . كتاب الله لم ينسخ فارجعوا اليه وحكموه في أحوالكم وطبائعكم (وما الله

بمقابل عما نعملون) وأهل أمراء المسلمين قد وعظوا بسوء مغيبة أعمال السافين وهموا بملافة أسرهم قبل أن يقضى عليهم بما رزى به المفرطون من قبلهم ورجاؤنا أن أول صيحة تُبعث إلى الوحدة وتوقظ من الرقدة تُصدر عن اعلام مرتبة وأقوام شوكة ولا ترتاب في ان العلماء العاملين ستكون لهم اليد الطولى في هذا العمل الشريف والله يهدي من يشاء والله الامر من قبل ومن بعد

الوحدة والغلب (*)

المؤمن لله مؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً

أمران خطيران تحمل عليهما الضرورة تارة ويهدي اليهما الدين تارة أخرى وقد تفيدهما التربية وممارسة الآداب وكل منها يطلب الآخر ويستصحبه بل يستلزمه وبهما نمو الامم وعظما ورفعتها واعتلاؤها وهما الميل إلى وحدة تجمع والسكف بسيادة لا توضع. واذا أراد الله بشعب ان يوجد ويلقى بوانيه (يثبت ويقيم) إلى أجل مسمى أودع في ضيائه (أصوله) هذين الوصفين الجليلين فانشأ خلقاً سويا ثم استبقى له حياته بقدر ما مكن فيه من الصفتين إلى منتهى أجله . كل أمة لا تمد ساعدها لمغالبة سواها لتنال منها بالغلب ما تنمو به بنيتها ويشد به بناؤها فلا بد يوماً ان تقضم وتمضم وتضمحل ويمحى أثرها من بسيط الأرض . ان التغلب في الأمم كالتغذي في الحياة الشخصية فاذا أهمل البدن من الغذاء وقفت حركة النمو ثم ارتدت إلى الذبول والنحول ثم أفضت إلى الموت والهلاك . وليس من الممكن لأمة ان تحفظ قوامها وتصلو على من يلبيها لتختزل منه ما يكون مادة لتماها الا ان تكون متفقة في تحصيل ما تحتاج اليه هيئتها . اذا أحسست من أمة ميلا إلى الوحدة فبشرها بما أعد الله لها في مكنون غيبه من السيادة العاليا والسلطة على متفرقة الأمم . اذا نصفحنا تاريخ كل جنس واستقر بنا أحوال الشعوب في وجردتها وفنائها وجدنا هذه سنة الله في الجمعيات

(٥) نشرت في العدد العاشر من جريدة العروة الوثقى بعنوان الحديث الآتي

البشرية: حظها من الوجود على مقدار حظها من الوحدة ومبلغها من العظمة على حسب تطاولها في الغلب. وما انحط شأن قوم وما هبطوا عن مكانتهم الا عند هههم بما في أيديهم وقناعتهم بما تسنى لهم ووقوفهم على أبواب ديارهم ينظرون طارقهم بالسوء وما أهلك الله قبيلة الا بعدد ما رزقوا بالاقتراق وابتلوا بالشقاق فأورثهم ذلًا طويلا وعذابا وبيلا ثم فناء سرمديا

الوفاق تواصل وتقارب يحدثه إحساس كل فرد من افراد الأمة بمنافعها ومضارها وشعور جميع الآحاد في جميع الطبقات بما تكسبه من مجد وسلطان فيلذ لهم كما يلذ أشهى مرغوب لديهم وبما تفقده من ذلك فيألمون له كما يألمون لأعظم رزء يصابون به وهذا الاحساس هو ما يبعث كل واحد على الفكر في أحوال أمته فيجعل جزءا من زمنه للبحث فيما يرجع اليها بالشرف والسؤدد وما يدفع عنها طوارق الشر والغيلة ولا يكون همه بالفكر في هذا أقل من همه بالنظر في أحواله الخاصة ثم لا يكون نظرا عميقا حائرا بين جدران الخيلة دائرا على اطراف الألسنة بل يكون استبصارا تتبعه عزيمة يصدر عنها عمل يثابر على استكمالها بما يمكن من السعة وما تحتمله القدرة على نحو ما يكون في استحصال مواد المعيشة بلا فرق بل تجدد الأنافس أن شأن الأمة في المكان الأول من النظر والدرجة الأولى من الاعتبار والشؤون الخاصة في المنزل الثانية منها . ولا نفق فيما تجد عند جاب المصالح ودرء المفاسد لأوقاتنا الحاضرة بل يأخذ العقلاء منها سبلا من التفكير ويختارون سيونا من الهمة ليصيبيوا من سعيهم شوارد من القوة ، ونواد من الميكنة ، ويستخرجوا دفاًن من الثروة، ويجمعوا ذلك للأمة ، لصيانة حياتها الى حد العمر اللائق بها كما يسعى الحازم جهده لتوفير ما يلزم لمعيشته وما يطمئن به قلبه في دفع حاجته مدة العمر الغالب بل يز يد عليه ما فيه الكفاية لأبنائه من بعده . وان الدور الأول من أعمار الأمم لا ينقص عن خمسة قرون ثم تتلوه سائر الادوار وأولها أقصرها وهو سن الطفولية و بدء الكمال فيما يليه فما أرفع همم العقلاء في الأمم المستبصرة .

اذا بلغ الأاحساس من مشاعر افراد الأمة الى الحد الذي يدناه رأيت

في الدهاء منهم والخاصة هما تعلو، وشيا تسمو، واقداما يقود، وعزما يسوق، كل يطلب السيادة والغلب فتتلاقى همهم وتلاحق عزائمهم في سبيل الطلب فيندفعون لتغلب على الذين يلونهم كما تندفع السيول على الوهاد ولا تقف حركتهم دون الغاية مما نهضوا اليه ويكون نزوهم على الأمم بعد الغلب الأول تدفقا من الطبع لا يحتاج الى فكر وروية الا في إعداد وسائل الفوز والظفر . هذات الأمران الوفاق والغلب عمادان قويان وركنان شديدان من أركان الديانة الاسلامية وفرضان محتومان على من يسئسك بهما ومن يخالف أمر الله فيما فرض منهما عقب من مقتته بالخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة . جاء في قول صاحب الشرع ان المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا وان المؤمن ينزل من المؤمن منزلة أحد أعضائه اذا مس أحدهما ألم تأثر له الآخر وجاء في نهيه « لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله اخوانا » . وأندرن شدعن الجماعة بالخسران والهلكة وضرب له مثل الشاة القاصية تكون فريسة للذئاب .

هذا كله بعد ما أمر الله عباده بالاعتصام بحبله ونهاهم عن التفرق والتغابن وامتحن عليهم بنعمة الأخوة بعد أن كانوا اعداء ونطق الكتاب الإلهي بأينا المؤمنون إخوة وطلب من المخاطبين بآياته ان يبادروا بإصلاح ذات البين عند التخالف ثم شدد في وجوب الاصلاح وان أدى الى مقاتلة الباغي فقال (وإن طائفتان من المؤمنين اختلفوا فأصلحوا بينهما فإن بغت احدهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفي الى أمر الله) وانا أمر الله الدخول فيما انفق عليه المؤمنون وتوحيد الكلمة الجامعة (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات) وأوعد الكتاب الأقدس كل من انحرف عن سبيل المؤمنين بالعقاب الأليم فحكم بان من يتبع غير سبيل المؤمنين يوله ما تولى ويصله جهنم وساءت مصيرا .

وفي أمره الصريح ايجاب التعاون على البر والتقوى ولا برأ حق بالتعاون عليه من تعزيز كلمة الحق واعلاء منار الامة وأخبر الصادق صلى الله عليه وسلم ان يد الله مع الجماعة وكفى بالقدرة الإلهية هونا اذاصح الاجتماع وصدقت الألفه

وقد بلغت مكانة الاتفاق في الشريعة الاسلامية أسعي درجة في الرعاية الدينية حتى جعل إجماع الأمة واتفاقها على أمر من الأمور كاشفاً عن حكم الله وما في علمه وأوجب الشرع الاخذ به على عموم المسلمين وعد ججوده مروفاً من الدين وانسلاخاً عن الايمان ومن عناية الشارع بامر الاتفاق قوله صلى الله عليه وسلم « لو دعيت الى حلف الفضول لعلت » (حلف الفضول ما كان من هاشم وزهرة وتيم حبث وفدوا على عبد الله بن جدعان وتحالفوا على أن يدفعا الظلم ويأخذوا الحق من الظالم وسمي حلف الفضول لانهم تحالفوا على أن لا يدعوا عند احد فضلاً يزيد عن حقه ويكون نواله بالظلم الا أخذوه منه وردوه لمستحقه) فهو من حلف الجاهلية وقد صرح الشارع بقبوله لو دعي اليه . هذا اجمال الادلة على وجوب الاتفاق وخطر المنابذة والمغابنة بين المسلمين بل وبينهم وبين غيرهم ممن رضي بدمئهم وقبل جوارهم بالمعروف في شرعهم فان سبيل المؤمنين يسعه ولا يضيق عنه * وأما السعي لإعلاء كلمة الحق وبسطة الملك وعموم السيادة فلا تجرد آية من آيات القرآن الشريف الا وهي داعية اليه جاهرة بمطالبة المسلمين بالجد فيه حاضرة عليهم أن يتوانوا في أداء المفروض منه ومن الأوامر الشرعية أن لا يدع المسلمون تنمية ملتهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله وفي السنة المحمدية والسيرة النبوية مما يضافر آيات القرآن ما جمعه العلماء في مجلدات يطول عدها هذا حكم ديننا لا يرتاب فيه أحد من المؤمنين به والمستمسكين بعروته .

هل يمكن لنا ونحن على ما نرى من الاختلاف والركون الى الضيم أن ندعي القيام بفروض ديننا ؟ كيف ومعظم الاحكام الدينية موقوف اجراؤه على قوة الولاية الشرعية فان لم يكن الوفاق والميل الى الغلب فريضين لذاتهما أفلا يكونان مما لا يتم الواجب الالاهي فكيف بهما وهما ركنان قامت عليهما الشريعة كما قدمنا . هل لنا عذر نقيمه عند الله يوم العرض والحساب يوم لا تنفع فيه خلة ولا شفاعاة بعد هدم هذين الركنين وأيسر شي علينا اقامتهما وعديداً مثناً مليوناً أو يزيد ؟ هل ييسر لنا اذا خلونا بأنفسنا وجادلنا ضمائرنا أن نقنعها ونرضيها بما نحن عليه الآن ؟

لكل هذه الرزايا التي حطت باقطارنا ووضعت من أقدارنا ما كان قاذفاً

ببلائها ورامينا بسهامها الا اقتراقنا وندابرنا والتقاطع الذي نهانا الله ونبيه عنه . لو أدينا حقوقا تطالبنا بها تلك الكلمة التي تهل بها أسننتنا وتطمئن قلوبنا بذكرها وهي كلمة الله العليا هل كان يمكن للغرباء أن يمزقوا ممالكنا كل ممزق وهل كان يلمع سيف العدوان في وجوهنا وهل كنا نشيم نيران الاعداء الا وأقدامنا في صياصياهم ، وأيدينا على نواصيهم ، ؟ ان لأبناء الملة الاسلامية يقينا بما جاء به شرعهم لكن أليس على صاحب اليقين بدين أن يقوم بما فرض الله عليه في ذلك الدين ؟ « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون » * ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » ولا ريبة في أن المؤمن يسره أن يعلمه الله صادقا لا كاذبا وأي صدق تظهره الفتنة ويمتاز به الصادق من الكاذب الا الصدق في العمل ؟ هل يود المسلم لو يعمر ألف سنة في الذل والهوان وهو يعلم أن الازدراء بالحياة الدنيا دليل الايمان ؟ أنرضى ونحن المؤمنون وقد كانت لنا الكلمة العليا أن تضرب علينا الذلة والمسكنة وأن يستبد في ديارنا وأموالنا من لا يذهب مذهبنا ولا يرد مشربنا ولا يحترم شريعنا ولا يرقب فينا الا ولا ذمة بل أكبرهمه أن يسوق علينا جيوش الفناء حتى يخلي منا أوطاننا ويستخلف فيها بعدنا أبناء جلدته والجالية من أمته . لا . لا . ان المخلصين في ايمانهم الواثقين بوعد الله في نصر من ينصر الله الثابت في قوله (ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) لا يتخلفون عن بذل أموالهم وبيع أرواحهم والحق داع والله حاكم والضرورة قاضية فابن المفر المبصر بنور الله يعلم أنه لا سبيل لنصر الله وتعزير دينه الا بالوافق وتعاون المخلصين من المؤمنين . هل يسوغ لنا أن نرى أعلامنا منكسة وأملاكنا ممزقة والقرعة تضرب بين الغرباء على ما بقي في أيدينا ثم لا نبدي حركة ولا نجتمع على كلمة وندعي مع هذا أننا مؤمنون بالله وبما جاء به محمد ؟ واخجلناه لو خطر هذا ببالنا ولا أظنه يخطر ببال مسلم يجري على لسانه شاهد الاسلام

ان الميل للوحدة والتطلع للسيادة وصدق الرغبة في حفظ حوزة الاسلام كل هذه صفات كامنة في نفوس المسلمين قاطبة ولكن دهاهم بعض ما أشرنا اليه في

أعداد ماضية فألهاهم عما يوحي به الدين في قلوبهم وأذهلهم أزمانا عن سماع صوت الحق يناديهم من بين جوانحهم فسهوا وما غووا وزلوا وما ضلوا واكنههم دهشوا وتاهوا فمثلهم مثل جوارب المجاهيل من الارض في الليالي المظلمة كل يطلب عوناً وهو معه ولكن لا يهندي اليه . وأرى أن العلماء العاملين لو وجهوا فذكرتهم لا يصال أصوات بعض المسلمين الى سامع بعض لا يمكنهم أن يجمعوا بين أهوائهم في أقرب وقت وليس بعسير عليهم ذلك بعد ما اختص الله من بقاع الارض بيته الحرام بالاحترام وفرض على كل مسلم أن يحجه ما استطاع وفي تلك البقعة يحشر الله من جميع أجيال المسلمين وعشائرهم وأجناسهم فما هي الا كلمة تقال بينهم من ذي مكانة في نفوسهم تهتز لها أرجاء الارض وتضطرب لها سواكن القلوب . هذا ما أعدتهم له العقائد الدينية فاز أضفت اليه ما أذاب قلوبهم من تعدييات الاجانب وما ضاقت به صدورهم من غارات الغرباء على بلادهم حتى بلغت أرواحهم التراقي ذهبت الى أن الاستعداد بلغ من نفوس المسلمين حدا يوشك أن يكون فعلا وهو مما يؤيد الساعين في هذا المقصد ويهي لهم فوزا ونجاحا بعون الله الذي ماخاب قاصده وهو ربي اليه أدعو واليه أنيب

الامل وطلب المجد (*)

إِنَّهُ لَا يَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ * وَمَنْ يَقْنَطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ

تلك آيات الكتاب الحكيم، تنبئ عن سر عظيم، اختص الله به الانسان، ورفع به على سائر الالكوان، ليلبغ به المقام المحمود، ويجوز ما أعدته له العناية الالهية من الكمال اللائق به . راجع نفسك، واصنع لمناجاة سرك، تجد في وجدانك ميلاقويا وحرصا شديدا يدفعك الى طلب المجد وعلو المنزلة في قلوب أبناء جنسك ثم ارفع بصرك الى سواد أمة بتامها تجد مثل ذلك في كليتها كما هو

(*) نشرت في العدد الحادي عشر من جريدة العروة الوثقى بالعنبر الآتي

في آحادها تبثني رفعة المسكينة في نفوس الأمم سواها . ذلك أمر فطري جبل الله عليه طبيعة هذا النوع منفرداً ومجتعماً : ليس من السهل على طالب المجد أن يصل الى ما يطلبه ولكنه يلاقي في الوصول اليه وعرا في السبل ، وعقبات تصد عن المسير ، ومع هذا فلا يضعف حرصه ، ولا ينقص ميله . يقطع شعاباً ، ويعاني صعاباً ، حتى يرقى ذروة المجد ، ويتسنى شاطئ العزة ، ولو قام في وجهه مانع عن الاسترسال في مسيره والتجأ للسكون رأيته يتعامل وينضجر كأنما يتقلب على الرمضاء . لوسبر الحكيم الخبير أعمال البشر ونسب كل عمل الى غاية العامل منه رأى أن معظمها في طلب الكرامة وعلو المقام كل على حسبه وما يتعلق منها بتقويم المعيشة ليس شيئاً مذكوراً بالنسبة لما يتعلق بشؤون الشرف . هذه خلة ثابتة في الكفاية من كل شعب على اختلاف الطبقات من أرباب المهن الى أصحاب الامر والنهي كل ينافس أهل طبقته في أسباب الكرامة بينهم ويأنف من وضعه فيهم ويحرص على ما يحل في قلوبهم محل الاعتبار حتى اذا بلغ الغاية مما به الرفعة عندهم نخطى حدود تلك الطبقة ودخل في طبقة أخرى ونافس أهلها في الجاه ولا يزال يتبع سيره مادام حياً يخاطر في بساط الارض . ذلك لان الكمال الانساني ليس له حدوداً نهائية وليس في استطاعة أحد من الناس أن يقنع نفسه ويعتقد أنه بلغ من الكمال حداً ليست بعده غاية . سبحان الله ماذا أخذت محبة الشرف من قلب الانسان وماذا ملكت من أهوائه . بعده ثمرة حياته وغاية وجوده حتى أنه يحتمر الحياة عند فقده والعجز عن دركه ، أو عند مسه والحواف من سلبه . أرايت أن فقيراً ذا أسمال لا يؤبه له اذا اعتدى عليه من تطول يده اليه بفعله تهيئه أو قذفة تشينه يغالبه الغضب للدفاع عن المنزلة التي هو فيها فيرتكب مخاطرة ربما تفضي به الى الموت وان القذف أو الاهانة ما نقصت من طعامه ولا شرابه ولا خشت مضجعه في مبيته . آلاف مؤلفة من الناس في الاجيال المختلفة والاجناس المتنوعة ألقوا بأنفسهم الى المهالك وماتوا دفاعاً عن الشرف أو طلباً للكرامة والمجد . جل شأن الله لا يهنا للانسان طعام ولا شراب ولا يابن له مضجع الا أن يحفظ فيه ان ما نال منه أعلى مما نال سواه مع وقوف بعض من الناس

على ذلك ليعترفوا له بالاعلوية فيه كأن لذة التغذية والتوليد انما وضعت لتكون وسهولة للذة المباهاة والمفاخرة فما ظلك بسائر اللذائد . كم يعاني الانسان من التعب البدني وكم يقاسي من مشاق الاسفار وكم يحاطر بروحه في اقتحام الحرب والمكافحات وكم يحتمل في الانقطاع عن الذات مع اتتمكن منها كل ذلك لينال شهرة أو ليكسب فخارا أو ليحفظ ما آناه الله منه . ما أجل عناية الله بالانسان لا يعش الا يشرف فيشرف به العالم وكل لذة له دون الشرف فهي وسيلة اليه بل الحياة الدنيا هي السبيل الوعرة يسلكها الحي الى ما يستطيع من المجد وفي نهاية الاجل يفارقها ويراهن بما قارب منه ، آسف الفؤاد على ما قصر عنه .

ما هو المجد الذي يسعى اليه الانسان بالالهام الآهي وبخوض الاخطار في طلبه وبقارع الخطوب في تحصيله؟ هو شأن تعترف النفوس لصاحبه بالسودد وتدعن له بالاعتلاء وتلقي اليه قياد الطاعة يكون هذا ولكل من يدخل في نسبه اليه من ذوي قرابته وعشيرته وسائر أمته فتنفذ كلمته وكلمة المتصلين به والمتحدين معه في شؤون من سواهم وهو أعظم مكافأة من العزيز الحكيم على معاناة الاوصاب لتحصيل ذلك الشأن في هذه الحياة الأولى . فما كان يحسبه طالب المجد عائدا الى نفسه بالمنفعة يبارك فيه مدبر الكون فيفيض خيره على بني جادته أجمعين . واه! تلك حكمة بالغة اذا نال الواحد من الامة مطلبه من المجدنات الأمة حظها من السودد نعم وهل نال ما نال الابعون سائر الآحاد منها « ذلك تقدير العزيز العليم » . ماذا يستطيع الجاهد وحده وماذا يكسبه من سعيه ان لم يكن له أعضاء من بني قبيله فمن كان همه أن يصعد الى عرش العزة ويرقى الى ذروة السيادة فليبه أن يهيئ نفسه والمتبين اليه بتحصيل كل ما يعد في العالم فضيلة وكالا . ما أصعب القيام بخدمة هذا الميل الفطري والالهام الالهي وما أشد ما تحتمل النفوس في قضاء بعض الوطر مما يتصل به وما أعظم الحامل للأفئس على تجشم المصاعب لنيل ما تميل اليه من هذا الامر الرفيع . ما هذا الباءث الشريف الذي يسهل على الارواح كل صعب ويقرب كل بعيد ويصغر كل عظيم ويأين كل خشن ويسايبها عن جميع الآلام ويرضيها بالعرض للتهلكة ومفارقة الحياة فضلا عن بذل كل نفيس والسماح بكل عزيز؟

هذا الباعث الجليل وهذا الموجب الفعال هو الأمل .
 الأمل ضياء ساطع في ظلام الخطوب ، ومرشد حاذق في بهما الكروب ،
 وعلم هاد في مجاميل المشكلات ، وحاكم قاهر للعزائم اذا اعترتها فترة ، ومسئفز
 لهمم ان عرض لها سكون ، ايس الأمل هو الامنية والتشهي اللذان يلحهما الذهن
 تارة بعد أخرى و يعبر عنهما بلبت لي كذا من الملك وكذا من الفضل مع الركون
 الى الراحة والاستلقاء على الفراش واللهو بما يبعد عن المرغوب كأن صاحبهما يريد
 أن يبدل الله سنته في سير الانسان عناية بنفسه الثرىفة أو الخسيسة فيسوق اليه
 ما يهيجس بخاطره بدون أن يصيب تعباً أو يلاقى مشقة . انما الأمل رجاء يتبعه
 عمل و يصحبه حمل للنفس على المكاره ، وعرك لها في المشاق والمتاعب ، وتوطئتها
 لملاقاة البلاء بالصبر ، والشدائد بالجلد ، وتهوين كل ألم يعرض لها في سبيل الغرض
 من الحياة حتى يرسخ في مداركها ان الحياة لغوا اذا لم تغدّ بنيل الارب فيكون
 بذل الروح أول خطوة يخطوها القاصد فضلا عن المال الذي لا يقصد منه الاوقاية
 بناء اياة من صدمات حوادث الكون . وكما كان الميل للرفعة أمراً فطرياً
 كذلك كان الأمل وثمة النفس بالوصول الى غاية سعيها من ودائع الفطرة . غير
 ان ثبوتها في فطرة عموم البشر كان داعياً للمزاحمات والممانعات فان كل واحد
 بما أودع في جبلته يطالب الكرامة والتمكن في قاب الآخر فكل طالب مطلوب
 ولم يباغ سعة العقل الانساني الى درجة تعين لكل فرد من الافراد عملاً تكون
 له به المنزلة العليا في جميع النفوس غير ما يكون به الآخر مثل تلك المنزلة حتى يكون
 جميعهم انجادا شرفاء بما يأتون من أعمالهم وليكنهم تزاوجوا في الأعمال كما تزاوجوا
 في الآمال والاهواء ومسالكهم ضيقة ومشارعتهم ضنكة فنشأت تلك المقاومات
 والمصادمات بين النوع البشري حكمة من اللدليعلم الذين جاهدوا ويعلم الصابرين .
 فاذا توالى الصدام على شخص أو قوم حدث في الههم ضعف وأصابها انحطاط
 وحصل الفساد في هذين الختئين الشريرين (الرجاء وطلب المجد) كما يحصل
 الفساد في سائر الاخلاق الفاضلة بسوء التربية و ربما يؤل الضعف الى اليأس والقنوط
 (نعوذ بالله منهما)

ماذا يكون حال القانطين المنقطعة آمالهم؟ يحكون على أنفسهم بالحطة، ويسجلون عليها العجز عن كل رفعة، فيأتون الدنيا ويتعاطون الرذائل ولا ينفرون من الالهانة والتحقير بل يوطنون أنفسهم على قبول ما يوجه اليهم من ذلك ايّما كان فقلاب منهم جميع الاحساسات والوجدانات الانسانية التي يمتاز بها الانسان على الانعام فيرضون بما ترضى به البهائم فلا يهتمون الا بحاجات قلوبهم وذبذبهم ثم ياليتهم يكونون هملا وسوائب يرعون النبات ويتبعون مواقع الغيث ولكنهم وان تركوا العمل لأنفسهم فالله تعالى يسلط عليهم من يكافهم بالعمل لغيرهم فيكونون كالجمال الجمالة لا تستفيد مما تحمل شيئاً وظيفتها ان تسعى وتشتق ليسعد غيرها ويستريح فيعالجون العمل في الفلاحة والصناعة وغيرها من الاعمال الشاقة ويدأبون بأشد مما يدأب العامل لنفسه ثم لا ينالون مما يعملون شيئاً . ثمرات كسبهم بأسرها محولة الى الذين سادوا عليهم بهمهم (هذا الذي يتجشمه الذليل في ذله من مشاق الاعمال ومعاناة المكاره لو تحمل بعضاً منه في طلب العزة لاصاب حظه منها) بل تصير درجة القانطين عند من سادوا عليهم أدنى من درجة الحيوانات العاملة فإن السائدين يشعرون بحكم البسادة أن هؤلاء أسقطوا انفسهم عن منزلة كانوا يستحقونها بمقتضى الفطرة الانسانية ورضوا لها بما دون حقها بل بما لا يصح أن يكون من شأنها وكفروا نعمة الله في تكوينهم على الشكل الانساني وايداعهم ما اودع في أفراد الانسان فيعاملهم أولئك السادات بما لا يعاملون به ما يقتنون من الحيوانات ولنا على ذلك شاهد العيان في الامم التي أدركها اليأس وسقطت في أيدي الاجانب

ونظن أن يوجد أقوام آخر ساءهم ساداتهم في الزمن السابق ويسومونهم الآن ما لا تناسم به السوائم الراحية وهم على القرب منا وليسوا ببعيد عنا .
عجبا كيف تتبدل أحكام الجبلية وكيف يمحي أثر الفطرة؟ كيف تسفل النفس حتى لا تطاب رفعة وكيف تقنط حتى لا يكون لها أمل والامل وحب الكرامة طبيعيتان في الانسان . بعد إمعان النظر نجد السبب في ذلك نطن الانسان أن جميع أعماله انما تصدر عن قدرته وإرادته بالاستقلال وان قوته هي سلطان أعماله

وليس فوق يده يدمده بالمعونة أو تصده بالفهر فاذا صادفته الموانع مرة بعد اخرى وقطعت عليه سبيل الوصول رجع الي قدرته فوجدها فانية، وقوته فراها واهنته، فيعترف بوهنه، ويسكن الى عجزه، فييأس ويقنط، ويذل ويسفل، اعتمدا منه بأنه لا دافع لتلك الموانع التي تعاصت على قدرته ومتي كانت قوة المانع أعظم من قوته فلا سبيل الى العمل لاستحالة قهر المانع فينقطع الأمل فيقع في الشقاء الابدي . أما لو أيقن بان لهذا الـكون مدبرا عظيم القدرة تخضع كل قوة لعظمته وتدين كل سطوة لجبروته الاعلى وأن ذلك القادر العظيم بيده مقاليد ملكه يصرف عباده كيف يشاء لما أمكن مع هذا اليقين أن يتحكم فيه اليأس وتفئال آماله غائلة القنوط فان صاحب اليقين لو نظر الى ضعف قدرته لا يفوته النظر الى قوة الله التي هي أعلى من كل قوة فيركن اليها في أعماله ولا يجد اليأس الى نفسه طريقا فكلمها تعاضت عليه الشدائد زادت همته انبعاثا في مدافعها معتمدا على أن قدرة الله أعظم منها وكلما أغلق في وجهه باب فتحت له من الركون الى الله أبواب فلا يمل ولا يكل ولا يندركه السامة لاعنقاده أن في قدرة مدبر الـكون أن يقهر الأعداء ويلقي قيادهم الى الأذلاء وان يدك الجبال وبشق البحار وبمكن الضعفاء من نواصي الاقوياء وكما كانت لقدرة الله من هذه الآثار فتشدد عزيمته وبدأب فيما كافه الله من السعي لنيل الكمال والفوز بما أعد الله له من السعادة في الاولى والاخرة وما كان لموقن بالله وبقدرته وعزته وجبروته ان يقنط وييأس ولهذا اخبر الله تعالى عن الواقع والحقيقة التي لا ريبه فيها بما قال وهو أصدق القائلين «انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون» وبما حكى من قول نبيه ابراهيم «ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون» فقد جعل الله اليأس والقنوط دليلا على الكفر والضلال ومن اين يطرق اليأس قلبا عقد على الايمان بالله وبقدرته الكاملة . لهذا نقول ان المسلمين لا يسمح لهم يقينهم بالله وبما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام ان يقنطوا من رحمة ربه في اعادة مجدهم مع كثرة عددهم ولا يسوغ لهم ايمانهم أن يرضخوا للذل ويرضوا بالضميم ويتقاعدوا عن اعلاء كلمتهم وهم الى الآن محفوظون مما ابتلي به كثير من الامم فان

لهم ملوكا عظاما ولا يزال في ايديهم ملك عظيم على بسبط الارض وان من الحق ان تقول ان ابواب رحمة الله مفتحة لديهم وما عليهم سوى أن يلجوها، وان روح الله نافحة عليهم وما يلزمهم سوى ان يستشقوها، والفرص دائما تمتد ايديها اليهم تطلب انهاضهم وتذبه غافلهم وتوقظ نائمهم وليس عليهم في استرجاع مكانتهم الاولى والصعود الى مقامهم الاول الا أن يجمعوا كلمتهم ويتعاونوا على ما يقصدون من إعزاز ملتهم وذلك أيسر ما يكون عليهم بعد تمكن الجامعة الدينية بينهم فاي موجب لليأس وأي داع للقنوط وبين ايديهم كتاب الله الناطق بأن اليأس من أوصاف الضالين؟ وهل توجد واسطة بين الرشد والغى فاذا بعد الحق إلا الضلال؟ هل يكون للقناطين فيهم من عذر؟ أيرضون بالعبودية للاجانب بعد تلك السيادة العليا؟ ماذا يتبعون من الحياة ان كانت في ذل واهانة وفقر وفاقة وشقاء دائم بيد عدو وعاشم؟ يطهثون وهم بين اجنبي حاكم وبعيوض شامت ومقبح غبي ومشنع ذني ومعيبر خسيس يرمونهم بضعف العقول ونقص الاستعداد ويحكون بأن محال عليهم أن يصيروا أمة في عداد الامم؟ اذا لم ينسلخ الانسان عن كل خاصة انسانية كيف يرضى بحياة مكتشفة بكل هذه التعاسات والمكدرات أينسون انهم كانوا الاعين في الارض وما طال على ذلك الزمان، ولا محيت التواريب، ولا عففت الآثار، ولا اضمحلت بالكلية شوكة المسلمين من وجه الارض؟ ان كان للامة عذر في الغفلة عما أوجب الله عليهم فأبي عذر يكون للعلماء وهم حفظة الشرع والراسخون في علومه؟ لم لا يسعون في توحيد منفرق المسلمين؟ لم لا يبذلون الجهد في جمع شملهم؟ لم لا يفرغون الوسع لإصلاح ما فسد من ذات بينهم؟ لم لا يأتون على ما في الطاقة لتقوية المسلمين وتذكيرهم بوعود الله التي لا تخلف لمن صدق في طاعته واليقين به وتبشيرهم بهبوب روح الله على ارواحهم . بلى ان قوما شرح الله صدورهم للايمان قاموا بهذا الامر في مواقع مختلفة من الارض يجمع التواصل بينها عقدة واحدة الا ان أملنا في بقية المسلمين ان يتفقوا معهم ويقوموا بتعصيدهم لئتمكن الجميع من نصر الله « ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم »

رجال الدولة و بطانة الملك

﴿ كيف يجب ان يكونوا ﴾ (*)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأُولُوكُمْ خَبَالًا وَدُوا
مَا عَسَيْتُمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تَخْفَى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا
لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ

قالوا اتصان البلاد وبحرس الملك، بالبروج المشيدة والقلاع المنيعة والجيوش
العاملة والأهب الوافرة والاساحة الحيدة قلنا نعم هي أحرار وآلات لا بد منها
للعمل فيما يقي البلاد ولكنها لا تعمل بنفسها ولا تحرس بذاتها فلاصيانة بها
ولا حراسة الا أن يتناول أعمالها رجال ذور خبرة واولو رأي وحكمة يتمهدونها
بالإصلاح زمن السلم ويستعملونها فيما قصدت له زمن الحرب وليس بكاف حتى
يكون رجال من ذوي التدبير والحزم وأصحاب الحدق والدراية يقومون على
سائر شؤون المملكة يوطئون طرق الامن ويبسطون بساط الراحة ويرفعون بناء
الملك على قواعد العدل و يوقفون الرعية عند حدود الشريعة ثم يراقبون روابط
المملكة مع سائر الممالك الاجنبية ليحفظوا لها المنزلة التي تليق بها بينها بل يحملوها
على أجنحة السياسة القويمة الى أسنى مكانة تمكن لها ولن يكونوا أهلا للقيام على
هذه الشؤون الرفيعة حتى تكون قلوبهم فائضة بمحبة البلاد طافحة بالمرحمة
والشفقة على سكانها وحتى تكون الجهة ضاربة في نفوسهم آخذة بطباعهم يجدون
في أنفسهم منها على ما يجب عليهم وزاجرا عما يليق بهم وغضاضة وأماموجعا
عند ما يمس مصاحبة المملكة ضرر ويوجس عايبها من خطر ليتيسر لهم بهذا
الاحساس وتلك الصفات أن يودوا أعمال وظائفهم كما ينبغي ويصونوها من الخلل
الذي ربما يفضي قليله الى فساد كبير في الملك . فهو لاء الرجال بهذه الخلال
هم المنعمة الواقية والقوة الغالبة . يسهل على أي حاكم في أي قبيل أن يكتب المكتائب

(*) نشرت في العدد الحادي عشر من جريدة العروة الوثقى بعنوان الآية

(٣٨ ج ٢ تاريخ الاستاذ الامام)

ويجمع الجنود ويوفر العدد من كل نوع بنقد النقود وبذل النفقات ولكن من أين يصيب بطانة من أولئك الذين اشرفنا اليهم عقلاء رحماء أباة أصفيا، تمهم حاجات الملك كما تمهم ضرورات حياتهم . لا بد ان يتبع في هذا الامر الخطير قانون الفطرة ويراعى ناموس الطبيعة فان متابعة هذا الناموس تحفظ الفكر من الخطأ وتكشف له خفيات الدقائق ولما يخطي في رايه أوتياؤد في عمله من أخذ به دليلا وجمل له من هديه مرشدا . واذا نظر العاقل في أنواع الخطأ التي وقعت في العالم الانساني من كلبية وجزئية وطلب أسبابها لا يجد لها من علة سوى الميل عن قانون الفطرة والانحراف عن سنة الله في خلقه .

من أحكام هذا الناموس الثابت ان الشفقة والمرحمة والحمية والنعمة على الملك والرعية انما تكون لمن له في الامة أصل راسخ ووشيح يشد صلته بها هذه فطرة فطر الله الناس عليها ان المتحم مع الامة بعلاقة الجنس والمثرب يراعي نسبه اليها ونسبتها اليه ويراه لا تخرج عن سائر نسبه الخاصة به فيدافع الضيم عن الداخلين معه في تلك النسبة دفاعه عن حوزته وحرمة (راجع رأيك فيما تشهده كثيرا حتى بين العامة عندما يرمي أحدهم أهل البلد الآخر او دينه بسوء على وجه عام كسوري ينتقد المصريين أو مصري ينتقد السوريين) هذا الى ما يعلمه كل واحد من الامة أن ما ناله أمة من الفوائد يلحقه حظ منها وما يصيبها من الازراء يصيبه سهم منه خصوصا ان كان بيده هامات امورها وفي قبضته زمام التصرف فيها فان حظه (حينئذ) من المنفعة أوفر ومصيبته بالمضرة أعظم وسهمه من العار الذي يلحق الامة أكبر فيكون اهتمامه بشؤون الامة التي هو منها وحرصه على سلامتها بمقدار ما يؤمله من المنفعة أو ينحشا من المضرة .

فعلى ولي الامر في مملكة أن لا يكل شيئا من عمله الا الى أحد رجلين إما رجل يتصل به في جنسية سالمة من الضعف والتمزيق موقرة في نفوس المنتظمين فيها محترمة في قلوبهم يحلمهم توقيرها واحترامها على التغالي في وقايتها من كل شين يدنو منها ولم توهن روابطها اختلافات المشارب والاديان وإما رجل يجتمع معه في دين قامت جامعته تمام الجنسية بل فاقت منزلته من اقلوب منزلتها كالدين

الاسلامي الذي حل عند المسلمين وان اختلفت شعوبهم محل كل رابطة نسبية فان كلا من الجامعيين (الجنسية على النحو السابق والدينية) مبدآن للحماية على الملك ومنشآن للغيرة عليه .

أما الأجانب الذين لا يتصلون بصاحب الملك في جنس ولا في دين تقوم رابطة مقام الجنس فمثالهم في المملكة كمثل الاجير في بناء بيت لا يهيمه الا استيفاء أجرته ثم لا يبالي أسلم البيت أو جرفه النيل أو دكته الزلازل هذا اذا صدقوا في أعمالهم يؤدون منها بمقدار ما يأخذون من الاجرواقين فيها عند الرسم الظاهر فان الواحد منهم لا يشرف بشرف الامة الذي هو خادم فيها ولا يمسه شيء مما يمسها من الضعة لأنه منفصل عنها اذا فقد العيش فيها فارتد الى منبته الذي ينتسب اليه بل هو في حال عمله وخدمته لغير جنسه لاصق بمنبته في جميع شؤونه ماعدا الأجر الذي يأخذه وهذا معلوم ببداهة العقل فلا يجد في طبيعته ولا في خواطر قلبه ما يبعثه على الحذر الشديد مما يفسد الملك أو الحرص الزائد على ما يعلي شأنه بل لا يجد باعثا على الفكر فيما يقوم مصاحته من أي وجه . هذه حالهم هي لهم بمقتضى الطبيعة لو فرضنا صدقهم وبراءتهم من أغراض آخر فما ظنك بالأجانب لو كانوا نازحين من بلادهم فرارا من الفقر والفاقة وضربوا في أرض غيرهم طلبا للعيش من أي طريق وسواء عليهم في تحصيله صدقرا أو كذبوا وسواء وفوا أو قصروا وسواء راعوا الذمة أو خانوا أو لو كانوا مع هذا كله يخدمون مقاصد لا مهم يهدون لها طرق الولاية والسيادة على الاقطار التي يتولون الوظائف فيها (كما هو حال الأجانب في الممالك الإسلامية لا يجدون في أنفسهم حاملا على الصدق والأمانة ولكن يجدون منها الباعث على الغش والخيانة) زمن تتبع التوار يخ التي تمثل لنا أحوال الامم الماضية وتحكي لنا عن سنة الله في خليقته وتصريفه لشؤون عباده رأى أن الدول في نموها وبسطتها ما كانت مصونة الابرجال : منها يعرفون لها حقها كما تعرف لهم حقهم وان كان شيء من أعمالها بيد أجنبي عنها وان تلك الدول ما انخفض مكانها ولا سقطت في هوة الانحطاط الا عند دخول العصر الاجنبي فيها وارتقاء الغريب الى الوظائف السامية في أعمالها فان ذلك كان في كل دولة آية الخراب والدمار

خصوصا اذا كان بين الغرباء وبين الدولة التي يتناولون أعمالها منافسات وأحقاد مزجت بها دماؤهم وعجنت بها طبيعتهم من أزمان طويلة . نعم كما يحصل الفساد في بعض الاخلاق والسجيا الطبيعية بسبب العوارض الخارجية كذلك يحصل الضعف والفنور في حمية أبناء الدين أو الأئمة ويطرأ نقص على شفتهم وورحهم فينتص بذلك اهتمام العظماء منهم بمصالح الملك اذا كان ولي الامر لا يقدر أعمالهم حق قدرها وفي هذه الحالة يقدمون منافهم الخاصة على فرائضهم العامة فيقع الخلل في نظام الامة ويضرب فيها الفساد ولكن ما يكون من ضره أخف وأقرب الى التسلافي من الضرر الذي يكون سببه استلام الاجانب لهامات الأمور في البلاد لأن صاحب اللحمة في الأمة وان مرضت أخلاقه واعتلت صفاته الا انما أودعته الفطرة وثبت في الجبلة لا يمكن محوه بالكلية فاذا أساء في عمله مرة أزعجه من نفسه صائح الوشيحة الدينية أو الجنسية فيرجع الى الاحسان مرة أخرى وان ماشد بالقلب من علائق الدين أو الجنس لا يزال يجذبه آونة بعد آونة لمراعاتها والالغيات اليها ويميله الى المتصلين معه بتلك العلائق وان بعدوا .

لهذا يحق لنا أن نأسف غاية الأسف على أمراء الشرق وأخص من بينهم أمراء المسلمين حيث سلموا أمورهم ووكوا أعمالهم من كثابة وإدارة وحماية للأجانب عنهم بل زادوا في موالاته الغرباء والثقة بهم حتى ولهم خدمتهم الخاصة بهم في بطون بيوتهم ل كادوا يتنازلون لهم عن ملكتهم في ممالكهم بعدما رأوا كثرة المطامع فيهم لهذا الزمان وأحسوا بالضعف والاحقاد الموروثة من أجيال بعيدة وبعد ما علمتهم التجارب أنهم اذا ائتموا خانوا، واذا عززوا أهانوا، يقابلون الاحسان بالاساءة، والنزير بالتحقير، والنعمة بالكفران، ويجازون على القمة بالطمة، والركون اليهم بالجفوة، والصلة بالقطيعة، وثقة فيهم بالخدعة . اما أن لامراء الشرق أن يدينوا لأحكام الله التي لا تقض؟ ألم أن لهم أن يرجعوا الى حسهم ووجدانهم؟ ألم يأت رقت يعملون فيه بما أرشدتهم الحوادث وذلهم عليه الرزايا والمصائب؟ ألم يحزن لهم أن يكونوا عن تحرب بيوتهم بايديهم وأيدي أعدائهم . ألا أيها الأمراء العظام مالكم وللأجانب عنكم «ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم» قد علمتم شأنهم ولم تبق ريبة في أمرهم «إن تمسككم

حسنة نسوهم وان تصمكم سيئة يفرحوا بها» سارعوا الى أبناء أوطانكم واخوان دينكم
وملائكم وأقبلوا عليهم ببعض ما يقبلون به على غيرهم تجردوا فيهم خيرعون وأفضل
نصبر. اتبعوا سنة الله فيما ألهمكم وفطركم عليه كما فطر الناس أجمعين، ورأوا حكمة البالغة
فيما أمركم وما نهاكم كيلا تضلوا ويهوي بكم الخطل الى أسفل سافلين، ألم تروا
ألم تعلموا ألم تحسوا ألم تجربوا الى متى الى متى انا لله واينا اليه راجعون .

كرم حكمت الله في حب المحمودة الحقّة (*)

العالم الانساني كتاب المعبر، وسفر المستبصر، وكل قرن من قرونه صفحة،
وكل جيل من الناس سطر فيه أوجلة، ولنا في كل ما خطه القلم الالهي عبرة،
أول ما يفيدنا النظر فيه وقوفنا على أحوال الشعوب في أطوارها المختلفة وأدوارها
المتبدلة ففري بما علت وسمت وحلقت في جو المعالي وجازت في الرفعة مسارح
النظر ثم انحدرت بعد هذا وتدهورت وعفت رسوما ولم يبق لها أثر الا في الروايات
والأحاديث ومنها أجيال كانت في نبي العدم بما كتست حلية الوجود وأخذت
من الاجتماع الانساني مكان الهامة من الجسد ثم انطوت وأخذت عليها أمهات
قشع. ومنها ما اراه الى اليوم يسحب مطارف العزّة، ويشرف على العالم بالأمر والنهي
من شواهد القوة

فمن الناس من تتجلى له هذة الشؤون وتلك الأطوار كما تعرض عليه الصور
والتماثيل ينسبط لبعضها اذا أعجبه وينقبض للآخر اذا أنكره وهو في غفلة من
مذشأ ظهورها وعلل انقلابها . فان سئل عن السبب قال : سبحان الله هكذا كان
وهكذا يكون وما هو الا بخت يسعد فيسعد به السعداء وينحس فيتعس به الاشقياء .
ومنهم من تنفذ بصيرته الى الحقيقة فيتقف على ما هياه الله من الاسباب التي
تتبعها أحوال الامم في صعودها وهبوطها ويعلم أن ما سبق من الخير لامة انما كان
بأيدي آحاد من أمثالها جدوا وجاهدوا وبما بذلوا من نفائسهم وأنفسهم فازوا

بتأصيل المجد لشعوبهم وبنو جنسهم ويرى لأوثك الأعلام ذكر ايرفع ومكانة من القلوب تحمد وتميزا عند الخلف بالكرامة وهم لم يخالفوا الناس في جسومهم ودمائهم وانما تقدموهم بهمهم وقد يسوقه الاعتبار الى الاقتداء بهم رغبة في اقتطاف ثمار الثناء وتخليد الذكر فاذا أخذ مأخذهم واستقام على طريقهم فلا يكاد يخطو بعض خطوات ومبدأ المسير تحت نظره حتى تتعثر أقدامه في آياد مقطعة وروؤس مجذوزة وأشلاء مبددة وشعور منشورة وصدور مدقوقة وبشهاد الطريق مخرسة بقبور الشهداء من طلاب الحق والناهجين في منهاجه ولا يحصي له عن سلوكها وتبدوله غابات وأدغال يرجع اليه منها صدى زئير الآساذور مجررة الضراغم ولا بد له من اختراقها

هكذا تتكشف لطالب المعالي موحشات مدهشات مصاولة المخاطر أدناها، والموت الشريف أقصاها وأعلاها، فتارة يخور عزمه، ويضعف همه، فينكص على عقبيه، ويرتد الى أسوأ حاله، ويرتع في مراتع أمثاله حتى يروح الى عطنه الاولى به وهو العدم، وتارة يوحى اليه الالهام الالهي أن الشخص في خاصته والام في هيئاتها ونوع الانسان في مجموعه تطالبها صورة الابداع بأعمال شريفة دونها اجهاد النفس في السعي وحملها على مالا تهوى ومغالبة الاهوال والغوائل وفيما أودع الله الانسان من القوى العالية والخواص السامية أكبر مساعد على ماتدفع اليه الهمة وتنبعث له العزيمة.

ان من أحياء الله بالحياة الانسانية كلما هاجمته المصاعب لايزداد الاحرصا على قهرها كما ان صاحب الشمع لايزيده الخصام الاحدة في الجدل واصرارا على اقناع الخصم . وكثير ممن على شكل الانسان يحيا حياته هذه بروح حيوان آخر وهو يعانى فيها من الشقاء أشد مما يعانىه الانسان فى ابراز مزايا الانسان . ان صاعد الجبل ربما يجد شيئاً من التعب ويحشى مقترسة الكواسر ولكن قد ينجو منها ويستريح على القمة ويعتصم بمكانة من الرفعة وتقصر عنه يد المتناول . أما من أخذ الى السفلى فحظه من الحياة خوف لا يقطع واشفاق لا يزول . كل لحظة توعده بالسقوط في صيد الصائد، والوقوع بين أنياب الغائل،

مات من الناس كثير في طلب العلا ولم ينالوا، وبلغ كثير من الطالبين غاية ما أملاوا، ولكن هلك بالفتك أضعاف هؤلاء وهؤلاء ممن رنموا الخول ورضوا بالحياة الحيوانية - هذه أحاديث الحق ونفثات الروح الزكية تبعث من أيده الله ووهبه نعمة العقل الى مدارمة السير واقتفاء أثر الماضين الى أشرف المقاصد فاما وصل واما مات كما يموت الكرام

لم تنل أمة من الامم مزية من المزايا المحمودة عند بني البشر سواء في العلوم والمعارف أو الآداب والفضائل أو القوانين والنواميس العادلة أو العسكرية وقوة الحماية حتى خرج آحاد منها الى ما تحشاه النفوس وتمناه به القلوب وسلكوا تلك المسالك الوعرة فبلغوا بأهمهم، أقصى ما بلغت بهم همهم، مع الاعتماد على العناية الالهية في جميع سيرهم

ماذا يريد العاوان في خدمة الامم أو النوع الانساني والمنفقون لحياتهم في أعمال فادحة يعود نفعها على من نجمعه معهم جامعة الأمة أو الملة أو يشاركهم في النوع ! أليس قد جعل الله لكل شيء سبباً ؟ أليس من سنة الله في عباده أن لا يتجه الارادة البشرية الى حركة تصدر عن المرید الا بعد تصور غاية تعود الى ذاته وبعده اليقين أو راجح الظن بأنه يستفيد الغاية من العمل ؟ فإن كان الاجل يذهب في مساورة الآلام الروحية، والعمر ينفد في مناهدة الأوصاب البدنية، فماذا يقصدون من أعمالهم ؟ ان كان يوجد في أبناء جلدتهم ، وذوي ملتهم ، من يساعد حوادث الكون على ايلامهم ، وممانعتهم في مقاصدهم ، وصددهم عن السعي فيما يرجع خيره الى أنفس المعارضين و يشحن فيهم جراح اللوم والتقريع والشتمنة والتشنيع ، أو يدافعهم بالمكافحة والمنازلة فما الذي يبتغون من جدهم وكدهم ؟ لا لذة تجنئ ، ولا ألم يتقي ، فما هذا الباعث القوي الذي غلب الاهواء ولم يضعفه جهد البلاء ؟

نعم أودع الله في الانسان ميلاً أقوى من كل ميل وهو أخص خاصة فيه يمتاز بها عن غيره من الانواع وهو حب المحمودة الحققة وحسن الذكر من وجوه الحق - أقول هذا نقادها من حب المحمودة من أي وجه حقاً كانت أو باطلاً

وطلب الثناء بالزور والغش والرياء والظهور بمظاهر الاخيار، مع تبطن سراير
الاشرار، فان هذا من أسوأ الخلال وانما يعرض بعد اعتلال الفطرة وفساد الطبيعة .
المحمدة هي الغذاء الروحاني، والمقوم النفساني، وكلما قرب الشخص من السكالم
الانساني تمهون بالشهوات وازدرى اللذائذ الحسية وقوي فيه الميل الى المحمودة
الباقية وبذل الوسع فيما يفيدها من جلائل الاعمال * تأمل * ان الفاضل يرى
له في هذا العالم أجلين أقصاهما الاجل المحدود من يوم ولادته الي نهاية العمر
المقدر والآخر أبعد من هذا نهاية وبدائنه عند ما ينجم من عمله الصالح أثر لمنفعة
تشمل أمته أو تعم النوع الانساني وغاية هذا الاجل عند ما يحى أثره من ألواح
النفوس وصفحات التاريخ . فلاروح الفاضلة وجودات وجود في بدنها الخاص
ووجود في جميع الابدان وهو ما يكون بحلولها من كل روح محل الكرامة والتبجيل
ولا ريب أن هذا الاجل الطويل وهذا الوجود العريض خير من ذلك الاجل
القصير والوجود المكز (١) وحقيق بالانسان أن يبيع ما هو أدنى بالذي هو خير
يطول بي الكلام فأقصر : ان الله الذي وهب كل نوع ما به كماله وضع في
جيلة البشر ميلا الى الحمد وألهمهم تأدية حقه لمستحقه . ألم تر انطلق الاسن
في كل أمة بالثناء على من كان سبباً لها في مجد ورفعة أو نهوض من سقطة أو
توحيد كلمة أو تجديد قوة أو كمال في فضيلة أو تقدم في علم أو صنعة ورسومونه
في الألواح ويسجلون مدحته في بطون التواريخ ويرفعون له الهياكل والتماثيل
ويحفظون له ذكراً حميدا يتناقله الابناء عن الآباء حتى ينقرضوا أو ينقرض
العالم ، اذا جحدت الامة حق العامل لها أو قصرت في استحسان عمله ضعفت
الهمم وقيل السعي في المصالح العامة وانقبضت الايدي عن نعاظيها فهبطت شوون
الامة فافترقت وماتت

ان الله جل شأنه قرن كل حادث بسبب فاذا استوى لدى الامة الحسن
والقبيح والطيب والحبيث والفضيلة والرذيلة والمصاحبة والمفسدة وفقد منها التمييز
ولم تقدر أعمال العاملين حق قدرها ولم تعرف معروفها ولم تنكر منكراً سلبت

(١) الكز اليابس والمنقبض . وكزّ اليدين بخيل والمراد هنا بالاخيرفيه

آحادها الميل الى المعالي والكمالات وكان هذا أشد نكايه بها من جور الظالمين ،
وتغلب الغالبين ، ظلم الظالمين لا يدوم وسطوة الغالب لا تثبت اذا كان جمهور
الامة يقابل الاحسان بالاعتراف والفضل بالحمد فانه يوجد منها من يشترى هذه
المكافأة بتخليصها وانقاذها . أما فقد هذا الاحساس الشريف فهو أشبه علة
بالهرم لاعتقبي له الا الموت والهلاك .

كيف لا تكون المحمودة الحققة نعمة على النفوس الانسانية يسعى لها الأعداء
من بني الانمان وقد امتن الله بها على نبيه فيما يقول له (ورفعنا لك ذكرك)
وكيف لا تكون حقا تطالب به الطبيعة وقد سمح الله لمستحقها بالتحديث
بنعم الاعمال الصالحات كما سوغ ذلك لنبيه في قوله « وأما بنعمة ربك فحدث »
قلب طرفك في توار يخ الامم أقصاها وأدناها تجد برهاننا قاطعا على ان
الامة متى بنحست قيم الاعمال العالية وازدري فيها بشأن الفضيلة ففدت ما به
قوامها وانهدم بناؤها وذهبت كما ذهب أمس ولا جرم أن الكفران مقرون
بزوال النعم .

يمكنني أن أحمم كلامي هذا بكلمة شكر لهذه العصاة الطاهرة التي أقدمت
في هذه الاوقات النحسة ووقفت على شفير الخطر وكتبت على نفسها السعي في
توحيد المسلمين ويسرنا أن نرى عددها كل يوم في ازدياد نسأل الله نجاح
اعمالها وتأيد مقاصدها انه نعم المولى ونعم النصير

الشرف (*)

كلمة بهتف بها أقوام مختلفة من الناس الا ان أكثرهم عن حقيقة معناها
غافلون . فئة ترى الشرف في تشييد القصور والتعالي في البنيان وزخرفة الحوائط
والجدران ووفرة الخدم والحشم واقتناء الجياد وركوب العربات وفئة أخرى

(*) نشرت في العدد الثالث عشر من جريدة العروة الوثقى بنو قيع محمد نجيب
الاسكندرني الحسيني وقد سألت الاستاذ الامام رحمه الله عن محمد نجيب هذا
فقال انه اسم مستعار فالمقالة من انشاء رحمه الله تعالى

تتوهم أن الشرف في لبس الفاخر من الثياب والتزين بألوان الألبسة وأنواعها والنحلي بحلي الجواهر الثمينة مرصعة بالأحجار الكريمة كالماس والياقوت والزمرد ونحوها . وفئة تتخيل الشرف في الألقاب والرتب كالبيك والباشا أوفي الوسامات المعروفة بالنياشين وعلو أسمائها كالأول من الصنف الفلاني والثاني من الدرجة الفلانية . حتى أنك ترى الرجل يسلب مال أخيه وينهب ثروة أقاربه وذويه أو بني ملته ومواطنيه ليثيد بما يصيب من السحت قصرا ويرفع ويزخرف بيتا ويقوم له حراسا من المماليك وخفرا من الغلمان ويظن بذلك انه نال مجدا أبديا وفخار سرمديا وصح لحاله أن يعنون بعنوان الشرف . وتجد الآخر يذهب في الكسب أشنع مما يذهب الأول ليكتسي برفع الثياب وتزين بأجل الحلي أو ليكون له من ذلك ما يفاخر به أمثاله ويتخيل انه بلغ به درجة من الرفعة لا يداني فيها ويعبر عن حاله هذا بلفظ الشرف ويتوهم انه وصل الحقيقة من معناه . ومنهم ثالث يسهر ليله ويقطع نهاره بالفكر في وسيلة ينال بها لقباً من تلك الألقاب أو يحصل بها وساما أو يستفيد وشاحا وسواء عنده الوسائل يطلبها أيا كان نوعها وان أفضت الى خراب بلاده أو تذليل أمته أو تمزيق ملته وعنده انه رقي الذروة من معنى الشرف . نحن نرى هذه الأوهام قائمة مقام الحقائق في أذهان كثير من الناس ولكن لانظنها طمست عين الحق فيهم حتى عوا عن إدراك خطئهم وانحرفهم عن الصواب في وهمهم . ماذا يجد من نفسه المباهي بقصوره، وولدانه وحواره، ألا يحس من نفسه انه وان حاز منها أعلى ما يتصوره العقل فذاته اتى هي أعز لديه من جميع ما كسب لم تستند شيئا من الكمال وان جميع ما حصله فهو أجنبي عنه وليس له نسبة اليه الانسبة العناء في تحصيله الا يرى أن كثيرا ممن بلغ مبلغه أوفاقه سلبتهم صروف الدهر ما بأيديهم فاصبحوا بصفاتهم وجواهر ذاتهم فأن لم تكن على جانب من الكمال الإنساني انحدرت في سلك الطبقات السافلة ولم يبق لهم في القلوب منزلة ولا في النفوس مكانة .

ماذا يشعر به المفاخر بحلجه ولباسه اذا تجرد منه وخلي بنفسه ان لم يكن لذاته حلية من الفضيلة وزينة من الكمال ؟ ألا يكون هو وعرة الفقراء سواء ؟ أولا يجد

من سره عند المغامرة أنه يجول مع الغايات وربات الحدور في ميدان واحد؟ ماذا يتصور الزاهي برتبته المعجب بوسامه ان لم يكن قبل وسمته أو الصعود لرتبته على حال تجل أو كمال يبجل . أليس يشعر أنه لو سلب الوسام أو نزاع عنه الوشاح يعود الى منزلته من الاحتقار فان نال الكرامة عند بعض السذج واللقب معلق عليه أليس ذلك تعظيما للقب لا للملقب به؟ الا تكون هذه الكرامة عارضا سر يع الزوال بل رسما ظاهرا لا يمس بواطن القلوب؟

نعم لهذه الألقاب الشريفة شأن يرتفع به النظر اذا سبق بعمل يعترف عموم العالم بشرفه وكان اللقب دليلا عليه أو مشيرا اليه كما يكون لمثلها حال يسقط به الاعتبار اذا تقدمها فعلة بمقتها العقلاء من النوع البشري وكان الوسام واللقب عنوانا على ما اقترف كاسبه وعلامة على ما اجترم . انظر وتدبر ولا تخطي فإ أنت من الصواب بيعيد ان عثمان الغازي الذي لقبه أعداؤه بأسد لونه نال تبة ومنح لقباً وحظي بمكانة رفيعة بين الطبقة العليا من العظماء في دولته بعد ما دفع بروحه للموت في المدافعة عن ملته وجاهد في اعلاء كلمة دينه بما شهد له به الأعداء والأصدقاء * وان بعض الامراء في ديار اسلامية عاقت عليهم ألقاب شريفة من دولة كدولة الانكلاز جزءاً لهم على ما تقدموا أمام جيوش أعدائهم لافتح بلادهم حتى مكنوا الانكلاز من ديارهم وجميع المسلمين الآن يكابدون الجهد في ايجاد الوسائل لخروجهم منها * أين موقع النيشان من صدر عثمان باشا الغازي من موقعه على صدور أولئك المخدوعين أظن رجوع النظر بين الموقعين يثبت لك أن النيشان يشرف بشرف العمل الذي جعل دليلا عليه ويسقط بسقوطه . ماذا غر أولئك الواهين على اختلافهم ألا يعلمون أن اشياب المعلمة بالدم الموشاة بالنزج الملوثة بالمهيج هي التي حفظت للاسيها ذكرا حسناً لا ينقطع وأترا مجيدا لا يمحي . ان الذين ضرجوا بدمائهم في طلب المجد للتلثم هم الذين خشعت لذكورهم الأصوات وأجمعت على فضلهم خواطر القلوب ، ألم يصل إليهم أن الذين قضوا نحبتهم في غايات الجب وانتهت حياتهم في ظلمات السجن لطلب حق مسلوب ، أو حفظ مجد موجود ، هم الذين سما ذكورهم الى شرف الشمس الأعلى ، وعلت أسماؤهم على جميع الأسماء . أظن ان الذين كانوا في الغرفات

العالية ينظرون الى جناتهم وحدائقهم ويشرفون على الناس من شرفات قصورهم وقصروا حياتهم على التمتع بما نالوا لم يبق لهم ذكر ولم يكن لهم في حياتهم شأن الا ما هو محصور في دوائر بيوتهم ولا يختلف عنهم أولئك الذين كانوا يسحبون مطارف الرفه ويكتسون حلال الخبز والديباج ذهبوا وذهبت معهم أكسيتهم وارتدوا من حيث أتوا لا يعلم متى جاؤا الى الدنيا ومتى انكشفوا عنها * هل سمعنا أن أحدا يذكر بين نبي البشر بأنه نال نيشان كذا وحصل رتبة كذا نعم يقولون علم وعمل وبذل ورفع ووضع وجاهد وكافح وأباد وأبقى وما يشاكل ذلك من الأعمال التي لها أثر ثابت . اذا ذكر الاسكندر الأكبر هل يخطر بالبال ان كان له قصر أولا . أي أبه يطلب سيرة نابليون الأول في آثار قصر كان يسكنه أوفى خرق ثياب كان يلبسها وهل بلغ عظماء العالم ما بلغوا من مقامات الشرف بعد ما شيدوا وزينوا وترفهاوا وتنعموا أو كان جميع ما ينالون من ذلك بعد أن يسودوا ويفتحوا ويغلبوا وبأخذوا بالنواصي * خدع قوم بالأحلام ، وغرهم الأوهام ، ففرطوا في شوون بلادهم وباعوا مجدها الشاخي بتلك السماء التي لا مسمى لها وزعموا وان لم تطاوعهم ضمائرهم أنهم رفقوا مكانة من اشرف وان كان خاصا بهم بعد ما علموا أن الرتب والنياشين جاوزت حدها ونالها غير أهلها فلو أنهم أصغفوا لما تمدحهم به سرايرهم وتعنفهم به خواطرافئذنتهم ورددقوا بأبصارهم ما يحيط بهم لعلموا أنهم في أخس المنازل وأبعد المزاجر وأدركوا خطأهم في معنى الشرف وجورهم عن جادة الصواب في طلبه .

* لو أحسوا بما رزئت به أوطانهم وما لصق من الذل والعار بذر اريهم لطحوا الوشاحات ونبذوا الوسامات ولبسوا أثواب الحداد ونفروا خفافا وثقالا لطلب الشرف الحقيقي .

* الشرف حقيقة محيودة كشفتها الشرائع وحددتها عقول الكمالين من البشر وليس لذي شاكلة انسانية أن يرتاب في فهمها الا من ختم الله على قلبه وجعل على بصره غشاوة .

* الشرف بهاء للشخص يحوم عليه بالانظار ، ووجهه اليه الخواطر والأفكار ،

وجمال يروق حسنه في البصائر والابصار *

ومشرق ذلك البهاء عمل يأتيه طالبه يكون له أثر حسن في أمته أو بني ملته
أوفي النوع الانساني عامة كأنقاذ من تهاكمت، أو كشف لجهالة، أو نبيه لطلب حق
سلب، أو نذ كبير بمجد سبق، وسودد سلق، أو انهاض من عثرة، أو ابقاظ من غفلة،
وارشاد لخير يع، أو تحذير من شريع، أو تهذيب أخلاق، أو تثقيق عقول، أو جمع
كلمة وتجديد رابطة، أو إعادة قوة، وانتشال من ضعف، أو ايقاد حمية أو حضو لغيرة *
من أنى عملا من الأعمال له أثر من هذه الآثار فهو الشريف وان كان
يسكن الخصاص والأكواخ، ويلبس الدلوق والأسال، وبقعات بنبات البر، ويبيت
على تراب القفر، ويتوسد نشز الأرض، ويضرب في كل واد، ويتردد بين الربا
والوهاد . هذا له حلية من عمله، وزينة من فضله، وبهاء من كماله، وضياء من جده
يهدى اليه ضالة الأبواب وتأنه الأفتدة تعرفه المشاعر الحساسة ولا تنكره، وتكتفه
ذرات القلوب المتطايرة اليه ولا تنفصل عنه * له من روجه قصور شاهقة، وغرفات
شائقة ومناظر رائقة، وجمال باهر، ونور زاهر، لا يكاد يخفى حتى يظهر، ولا يكاد يستر
حتى يبصر، اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه الى أعلى عليين * حياة
طيبة في القلوب وعزة مشرقة في جبهة الزمان وفي ذلك فليتنافس المتنافسون *

نعم قد يذبح عليه من أرباب الطباع الفاسدة بعض الكراهة فيسلقونه
بالأسنة ويرشقونه بسهام اللوم ولا تروق في انظارهم ازهار أعماله ولا أنوار
مزاهره لبعدها عن فهمهم وغرابتها على حواسهم لما ألفوه من الانكباب على تلك
السفاسف الساقطة التي عدوها شرفاً وحسبوها مجداً وقد بيناها كما كشفتها الشرائع
وآراء العقلاء وإنما مثلهم مثل الجمل ينفر من رائحة الورد ويألف روائح القدر
* لا يبعد أن يسخر بالعامل الفاضل أناس لاخلاق لهم أو يقصده بالاضرار من
لازمة له ولكنهم بأنفسهم يهزون، وبمصالحهم يضررون . ولا يطول عليهم الزمان
في هذا العمى بل لا يلبثون اذا بدت الثمرة الشهية أن يهرعوا لاقتطافها ويطعموا
من جناها ولا يسهم بعد ذلك الا الحمد لغارس الشجرة، وحافظ الثمرة، وان كان
دونهم في تلك الزخارف التي لا قيمة لها في نظر العاقل . ثم يكون عقابهم على

ما فرط منهم ندم على الخطيئة وأسف على السيئة وألم في قلوبهم يبججه ذكرى ما قدموا من سوء عملهم وانكشاف نقصهم لدى وجدانهم . هكذا تمنح العناية الالهية هذه الكرامة لصاحب العمل الشريف مادام حياً فإذا غابت شمسُه عن أفق هذا العالم لم تحجب أشعة ضيائه التي فاضت منه على نجوم هاديات وبدو رمزيات * نعم انه يموت ويتوارى خلف حجاب العدم بجسمه ولكنه قائم في الافئدة شاهد على الألسنة حي يرزق عند ربه ونعمت الحياة حياته ومثل هذا فيعمل العاملون .

دعوة الفرس الى الاتحاد مع الافغان *

إذا أراد الله بقوم خيراً جمع كلمتهم

سرنا من الجرائد الفارسية صدقها في خدمة أوطانها واعتدالها في مشاربها وزادنا مسرة اهتمامها بترجمة بعض الفصول المهمة من جريدتنا ونقلها الى اللسان العذب الفارسي مما نظن فيه تنبيها لأفكار المسلمين واسئلفاناً لعقولهم الى ما فيه خيرهم فلها منا ومن كل مخلص في محبة مائه أوفر الشكر خصوصاً جريدة (اطلاع) التي تطبع في مدينة طهران . وهذا المنهج القويم مما تعم به الفائدة في جميع الأقطار الاسلامية فان جميعها بعد بلاد العرب وان اختلفت السنة سكانها باختلاف شعوبهم الا أنهم ينطقون باللغة الفارسية فهي في الشرق كاللسان الفرنسي في الغرب وكان بودنا أن يعززوا أفكارنا بما نجود به قرأتهم السليمة وأذهانهم الصافية وترشدهم اليه عقولهم العالية خصوصاً فيما يتعلق بالدعاء للوحدة الاسلامية وإحياء الرابطة الملية بين المسلمين لاسيما في الانفاق بين الايرانيين والافغانين . هاتان طائفتان هما فرعان لشجرة واحدة وشعبتان ترجعان لأصل واحد هو الأصل الفارسي القديم وقد زادهما ارتباط اجتماعهما في الديانة الحقبة الاسلامية ولا يوجد بينهما النوع من الاختلاف الجزئي لا يدعو الى شق العصا وتمزيق نسيج الاتحاد وليس بسائع عند العقول السليمة أن يكون مثل هذا التغابر الخفيف

(*) نشرت في العدد الرابع عشر من جريدة العروة الوثقى بالعنوان الآتي

سببا في تخالف شديد . ليس يبعد على همم الايرانيين وعلو أفكارهم أن يكونوا أول القامئين بتجدد الوحدة الاسلامية وتقوية الصلات الدينية كما قاموا في بداية الاسلام بنشر علومه وحفظ أحكامه وكشف أسرارها وما قصروا في خدمة الشرع الشريف بأية وسيلة .

نعم البخاري ومسلم والنيسابوري والنسائي والترمذي وابن ماجه وأبو داود والبغوي وأبو جعفر البلخي والكليني وغيرهم ممن أنبتهم أراضي ايران أبو بكر الرازي الطبيب الشهير والامام فخر الدين الرازي من نشأوا في طهران . أبو حامد الغزالي حجة الاسلام وابواسحاق الاسفرائيني والبضاوي وخواجه نصير الدين الطوسي والأبهري وعضد الملة والدين وغيرهم من علماء الكلام والأصول ممن تفتخر بهم بلاد فارس وهم فخر المسلمين . الفيلسوف الشهير أبو علي ابن سينا وشهاب الدين المقتول ومن على شاكتهم ممن جبلوا من تراب فارس * ان أهل فارس كانوا من أول القامئين بخدمة اللسان العربي وضبط أصوله وتأسيس فنونه منهم سيديويه وأبو علي الفارسي والرضي ومنهم عبد القاهر الجرجاني مؤسس علوم البلاغة لبيان اعجاز القرآن وفهم دقائقه على قدر الطاقة البشرية وصاحب صحاح الجوهر من احدى قراهم ومجد الدين الفيروزآبادي من احدى بلدانهم الزمخشري والسكاكي وأبو الفرج الاصفهاني وبديع الزمان الهمداني وغيرهم ممن لينوا دقائق القرآن وشيدوا معالم الدين كلهم من أرض فارس . الطبري أول المؤرخين والاصطخري والقزويني أول الجغرافيين كانوا من بلاد فارس . الشبلي كان من نهاوند وأبو يزيد البسطامي كان من بسطام والاسناذ الهروي وهو الاستاذ الحقيقي للشيخ محيي الدين بن العربي كان من هراة وكها بلاد ايران . هل ينسى صدر الشريعة وفخر الاسلام البزدوي والآمدي والمرغيناني والسرخسي والسعد التفتازاني والسيد الشريف والأبيوردي وكلهم من أبناء فارس . من أين كان القطب الشيرازي والصدر الشيرازي ورأس الحكمة في المتأخرين مير باقر الداماد ومير فندر كسي وغيرهم ؟ كانوا من بلاد فارس (١) أي فضل كان

(١) ان كثيرا من هؤلاء العلماء كانوا من العرب فنسبتهم الى بلاد الفرس

نسبة بلد لاجنس . اه جامع الكتاب

ولم يكن لهم فيه اليد الطولى أي مزية من الله بها على الاسلام ولم يكونوا من السابقين لاقتنائها نعم وفيهم جاء من قول النبي صلى الله عليه وسلم « لو كان العلم في الثريا لنالته رجال من فارس »

فيا أيها الفارسيون تذكروا أياديكم في العلم وانظروا الى آثاركم في الإسلام وكونوا للوحدة الدينية دعامة ، كما كنتم للنشأة الاسلامية وقاية ، .

أنتم بما سبق لكم أحق الناس بالسعي في استرجاع ما كان لكم في فتوة الاسلام أنتم أجدر المسلمين بوضع أساس للوحدة الاسلامية وما ذلك ببعيد على طيب عناصركم وقوة عزائمكم . أظن أنه لا يخفى عليكم أن هذا الوقت هو أحسن الاوقات لندائكم بالوحدة مع الافغانيين والتحالف معهم على مقاومة العادين ، لتكونوا بالاتحاد معهم حصنا حصينا وحرزا منيعا تقف دونه أقدام الطامعين ، .

أظنكم لم تنسوا ان استيلاء الانكليز على الممالك الهندية انما تم بوقوع الخلاف بينكم وبين الافغانيين

هل يخفى عليكم أن كل مسلم في الهند شاخص بصره الى طرف بنجاب ينتظر قدومكم اذا اتحدتم مع اخوانكم الافغانيين .

حصلت لكم تجارب كثيرة وشهدتم من مظاهر الحوادث ما فيه أكل عبرة فهل يصح بعد هذا أن تستمروا على النجافي والتباعد مع علمكم أن الوحدة منبت الشوكة . هذا آن التآخي والتوافق ، هذه أوقات التحالف والتوافق ، أحاط الاعداء ببلادكم شرقا وغربا وكل يشحذ سيفه ويسدد سهمه حتى تتمكنه الفرصة من شن الغارة على أطراف بلادكم . فلو ضاعت الفرصة في هذا الوقت فربما لاتصادفوها في غيره . الانكليز في ارتباك شديد في المسئلة المصرية مع ضعفهم في القوة العسكرية ومتورطون باختلاف الدول عليهم ومعا كساتها لمقاصدهم

الامير عبد الرحمن خان أمير أفغانستان على مانعهده من أول شبو بيته أشد الناس عداوة للانكليز وبينه وبينهم حزازات لاتزول بل تقول ان عداوة الانكليز سارية في عروق الافغانيين عموما ممتزجة بدمائهم . فلو حصل الاتفاق

الآن بين سلطنة الشاه وبين امارة الافغان لوجدت قوة اسلامية جديدة في المشرق بين سائر الطوائف الاسلامية وينبعث فيهم وفي سائر المسلمين حياة جديدة وتتجدد لهم آمال جليلة وتنشع بذلك أرواح المؤمنين . هذا وقت نذبت فيه أفكار الافغانيين الى أعمال جيرانهم في المسئلة المصرية وتحركت فيهم السوا كن وهي أعظم فرصة لاهل فارس في دعوتهم للاتحاد معهم

هذا عمل من أجل الاعمال وأجزؤها فائدة وان من أكبر الفضل أن يقوم أهل الفضل من أهالي ايران بتحرير الفصول ونشر الرسائل في بيان فوائد الاتفاق بين الطائفتين وان لذلك لأثراً عظيماً في النفوس خصوصاً ان كانت من أفلام العلماء الاعلام والمجاهدين الكرام

العالم الانساني عالم الفكر والكلام فاحكام الفكر الصالح ونشره في الكتب والرسائل والجرائد مما يؤثر أجمل الأثر في تهذيب الناس وثقيف عقولهم وازالة الضغائن المفسدة لمعاشهم ومعادهم فاذا قام المستبصرون وخطبوا ووعظوا وكتبوا ونشروا مع الوقوف عند الحدود الدينية والأصول الشرعية كان فضل الله كافلاً لهم النجاح .

أي فرق بين الافغانيين واخوانهم الايرانيين ؟ كل يؤمن بالله وبما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم . عبد الرحمن خان بما أكسبته التجارب أول من يتقدم لهذا الاتفاق ولا نشك أن شاه ايران لما اطلع عليه في سياحانه وشاهده في أسفاره لا يأبى المبادرة اليه والسعي فيه . ان البادئ بالعمل في هذا المقصد الاسمي هو صاحب الفضل الاعظم بين المسلمين خصوصاً وبين العالم عموماً ويجني ثمرته في وقت قريب . كان الألمانيون يختلفون في الدين المسيحي على نحو ما يختلف الايرانيون مع الافغانيين في مذاهب الديانة الاسلامية فلما كان لهذا الاختلاف الفرعي أثر في الوحدة السياسية ظهر الضعف في الأمة الألمانية وكثرت عليها عاديات جيرانها ولم يكن لها كلمة في سياسة أوروبا وعند ما رجعوا الى أنفسهم وأخذوا بالاصول الجوهرية وراعوا الوحدة الوطنية في المصالح العامة أرجع اليهم من القوة والشوكة ما صاروا به حكام أوروبا ويدهم ميزان سياستها .

رجاؤنا في الأفاضل الكرام صاحب جرادة (فرهنگ) الأصفهانية وصاحب جرادة (اطلاع) الطهرانية وسائر أرباب الجرائد الإيرانية أن يوجهوا أفكارهم إلى هذا المطالب الرفيع ويجعلوا له محلا فسيحافي جرائدهم وينشروها في بلادهم وبلاد الافغان باللسان الفارسي وهو لسان الطائفتين وماهي الا أيام ثم نرى علائم النجاح ان شاء الله رب العالمين .

امتحان الله للمؤمنين (*)

الْم. أَحْسَبِ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ

من الناس بل أغلب الناس يقول: آمنا: وللايمان آثار. ثم يحسبون ان الله يتركهم وما يقولون، ويدعهم وما يتوهمون، وبعاملهم سبحانه وهو الحكم العدل بما يظنون في أنفسهم قبل ان يبتليهم أيهم أحسن عملا حتى تظهر أنفسهم لأفئدتهم ويعلموا هل هم حقيقة مؤمنون أو هذه دعوى سولتها النفس وغرت بها الأمانى وأنهم تأهون في أوهامهم يحسبون أنهم على كل شيء وهم خلو من كل شيء ولما يدخل الايمان في قلوبهم . الا أنهم في حسابهم لمخبطون فلن يدع الله المغرورين فيه حتى يبتليه في دعوى الايمان ليعلم الله الذين جاهدوا ويعلم الصابرين ولثلا تكون للناس على الله حجة . حاشا حكيما أنزل الكتب وأرسل الرسل ووعد وأوعده وبشرو أنذر وقوله الصدق ووعدده الحق أن يجازي من نبى عقيدته على خيال ليس له أثر وظن ليس له أساس بالسعادة السرمدية والنعيم الأبدي . ان المغتر بزعمه الخائر في ظلمات أوهامه الذي لايسهل عليه الايمان احتمال المشاق وتجشم المصاعب في سبيله ليس بمعزل عن المناققين الذين حكم الله عليهم بالشقاء الأبدي والعذاب المحل. الايمان يغلب كل هوى ويقهر كل أمنية ويدفع بالنفس الى طلب مرضاة الله بلا سائق ولا قائد سواه .

يقول الله وهو أصدق القائلين (لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر ان يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والله عليم بالمتقين *) انما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون *) هذا قضاء الله وهذا حكمه على الذين يستأذنون في بذل أرواحهم وأموالهم في أداء فريضة الايمان . حكم عليهم بأنهم لا يؤمنون

صدق الله وصدق كتبه ورسله ان للعقائد الراسخة آثارا تظهر في العزائم والأعمال وتأثيرا في الأفكار والارادات لا يمكن للمعتقدين ان يزيحوها عن أنفسهم ماداموا معتقدين . هكذا الايمان في جميع شؤونه وأطواره له خواص لا تفارقه ونزعات لا تزيله ، وصفات جليلة لا تنفك عنه ، وخلائق عالية سامية لا تباينه ، بها كان يمتاز المؤمنون في الصدر الأول وكان يعترف بمزيتهم وعلو منزلتهم من كان يجحدون عقيدتهم

نعم هم الذين صبروا في نيران امتحان الله وابتلائه حتى ظهر ايمانهم ذهباً ابريزاً صافياً من كل غش وأعد الله لهم جزاء على صبرهم نعيماً مقبلاً * ما أصعب ابتلاء الله وما أشد فتنته وما أدق حكمته في ذلك ليميز الله الخبيث من الطيب . نعم ان دون ابتلاء الله خلع العادات وتحمل الصعوبات وبذل الأموال وبيع الأرواح . كل خطر فهو تهلكة ينبغي البعد عنها الا في الايمان فكل تهلكة فيه فهي نجاة وكل موت في المحاماة عن الايمان فهو بقاء أبدي وكل شقاء في أداء حقوق الايمان فهو سعادة سرمدية . المؤمن يبذل ماله فيما يقتضيه ايمانه ولا يخشى الفقر وان كان الشيطان يعده الفقر . ليس في النفقة لأداء حق الايمان تبيذير ولو أتت على كل ما في أيدي المؤمنين . ان للمؤمن حياة وراء هذه الحياة وان له لذة وراء لذتها وان له سعادة غير ما يزينه الشيطان من سعاداتها * هكذا يرى المؤمن ان كان الايمان مس قلبه ولو لم يبلغ الغاية من كاله * ان الفرار من محنة الله في الايمان مجلبة للخزي الأبدي . ان الفرار من صدمة جيش الضلال وان بلغت أقصى ما يتصور موجب للشقاء السرمدى . لاسعادة الا بالدين ودون حفظ الدين تطاير الأعناق . ان للايمان تكاليف شاقة وفرائض صعبة الاداء الاعلى الذين امتحن الله قلوبهم

للتقوى . ان القيام بفرائض الايمان مخفوف بالمخاطر مكثف بالمكاره كيف لا وأول ما يوجبه الايمان خروج الانسان عن نفسه وما له وشهوته ووضع جميع ذلك تحت أوامره . ان يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون الله ورسوله أحب إليه من نفسه . أول احساس يلم بنفس المؤمن أنه في هذه الدنيا عابر سبيل الى دار أخرى خير من هذه الحياة وأبقي وأول خطوة بخطوها المؤمن بذل روحه اذا دعاه داعي الايمان ولا داعي أرفع صوتاً وأبين حجة من نداء الحق على لسان أنبيائه . لا يقبل الله في صيانة الايمان عذراً ولا تعلقة مادامت الرجل تمشي والعين تنظر واليد تعمل . ان امتحان الله للمؤمن سنة من سنته يميز بها الصادقين من المنافقين قرنا بعد قرن الى ان تنقضي الدنيا . في كل قرن يدعو الله المؤمنين الى قوم أولي بأس شديد فان يطيعوا يؤثمهم الله أجراً حسناً وان ينولوا يعذبهم عذاباً أليماً . فميزان عدل الله منصوب الى يوم القيامة وهناك الجزاء الأوفى فلا يحسبن الواسعون أنفسهم بسمة الايمان القانعون منه برسوم يلوح في مخيلاتهم ان عدل الله يتركهم وما يظنون كلا أنهم في كل عام يفتنون فلينظر المفرطون في دينهم ضناً بأموالهم أو صوتاً لأرواحهم ماذا يكون موقعهم من علم الله هل من الذين صدقوا أو من الكاذبين . أرشد الله المؤمنين الى وسائل خيرهم وبصرهم بعاقبة أمرهم .

أسباب حفظ الملك (*)

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ

أهلك الله تعالى شعوبا وأباد قبائل ودمر بلادا ولا يزال عدل الله يبدل قوما بقوم ويأتي لكل حين أناس آخريين * حكيم سبقت رحمته غضبه جعل لكل عمل جزاء وعين بحكمته لكل حادث سببا «ولا يظلم ربك أحدا» وليست أفعاله جزافا ولا يصدر عنه شيء عبثا * أمر الله عباده بالسير في الأرض (قل سيراوا

(*) نشرت في العدد السادس عشر من جريدة العروة الوثقى

في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين (ليريهم قضاءه الحق وحكمه العدل فيمن سلف ومن خلف فيطيعوا أوامره ويقفوا عند حدود شرائعه ويفوزوا بنجیر الدنيا وسعادة الآخرة * من كان له قلب يعقل وعين تبصر وعقل يفقه ، وتنبع حوادث العالم وتدير كيفية انقلاب الأمم وخاض في تواریخ الأجيال الماضية واعتبر بما قص الله علينا في كتابه المنزل بحكم حكما لا يخالطه ريب بأنه ما حاق السوء بأمة وما نزلت لها نازلة البلاء وما مسها الضر في شيء الا وكانت هي الظالمة لنفسها بما تجاوزت حدود الله وانتهكت حرمانه ونبتت أوامره العادلة وانحرفت عن شرائعه الحققة وحرقت الكلم عن مواضعه وأولت من كلامه تعالى على حسب الأهواء والشهوات

كما ان للأغذية واختلاف الفصول والأهوية أثرا ظاهرا في الأمزجة بتقدير العزيز العليم كذلك اقتضت حكمة الله ان يكون لكل عمل من الأعمال الانسانية ولكل طور من أطوار البشر أثر في الهيئة الاجتماعية . ولهذا كان من رحمته بعباده تحديد الحدود وتقرير الاحكام ليتبين الخير من الشر ويتميز النفع من الضر فأرسل الرسل وأنزل الكتب فمن خالف الأوامر الالهية فقد ظلم نفسه فليسنعذ لحزبي الدنيا وعذاب الآخرة .

ان تأثير الفواعل الكونية في أطوار الحياة قد يخفى سببه حتى على الطبيب الماهر أما تأثير أحوال بني الانسان في هيئة اجتماعهم فيسهل الوقوف على سره لكل ذي ادراك ان لم تكن عين بصيرته عمياء

ألم تر أن الله جعل اتفاق الرأي في المصلحة العامة والاتصال بصلة الألفة في المنافع الكلية سببا للقوة واستكمال لوازم الراحة في هذه الحياة الدنيا والتمكن من الوصول لخير الابد في الآخرة . وجعل التنازع والتفاين علة للضعف وداعيا للسقوط في هوة العجز عن كل فائدة دنيوية أو أخروية ومهيئا لوقوع المتنازعين في مخالب العاديات من الامم . فمن نظر نظرة في أحوال الشعوب ماضيها وحاضرها ولم يكن مصابا بمرض القلب وعمى البصيرة أدرك سر أمر الله في قوله تعالى (واعصموا بحبل الله جميعا) وسر نهيته في قوله (ولا تفرقوا - وقوله - ولا تنازعوا

فتمشوا وتذهب ربحكم) أي جاهكم وعظمتكم وعلو كلمتكم
ان الله تعالى جعل الركون الى من لا يصح الركون اليه والثقة بمن لا تدبغي الثقة
به سببا في اختلال الامن وفساد الحال فمن وثق في عمله بمن ليس منه في شيء ولا
تجمعه معه جماعة حقيقية ولا اتصله به رابطة صحيحة وليس في طبعه ما يبعثه على
رعاية مصالحته أو كتم سره ولا ما يحمله على بذل الجهد في جلب منفعته وودفع
المضار عنه فلا ريب يفسد حاله ويسوء مآله وان كان ملكا ضاع ملكه أو أميرا
بطل أمره والحوادث شاهدة وأحوال المغرورين ناطقة فمن لم يرزأ بمعنى البصيرة
يدرك بأول التفات سر نهي الله تعالى في قوله « لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء
تلقون اليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق » وقوله « لا تتخذوا بطانة
من دونكم لا يألونكم خبالا ودواما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي
صدورهم أكبر » وسائر نواهيه المبنية على الحكمة البالغة المرشدة الى مصالح الدارين .
لكل شخص في طبقته من أمته عمل مفروض عليه وواجب يلزمه القيام به
ليحفظ بذلك لنفسه حياة طيبة في هذه الدنيا ويعد لها ما لا صالحا في الآخرة .
وهو انسان له قلب واحد لو جعل معظم همه في شيء فاته سائر الاشياء فلو توغل
في الشهوات وبالغ في الترف وبطر فيما أنعم الله عليه فقد أغفل فرائضه وأضر
بنفسه وحرّم من منافعه وحلّ به من عقاب الله أشد الوال وخسر الدنيا والآخرة
معاً وربما مست آثار أعماله بالسوء من يجاوره واحترق بناره الموقدة بفساد
أخلاقه وانحرافه عن سنن الحق من يساكنه في بلدته أو يوطنه في مدينته .
وهذه آثار المترفين في كل أمة تنطق بما لا يحجم الا على أذن صماء ، وتشهد بما
لا يخفى الا على بصيرة كهؤلاء ، وان فيما قص الله علينا من أحوال المترفين لأكبر
عبارة (وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فذلك مساكنهم لم نسكن من بعدهم الا
قليلاً وكننا نحن الوارثين حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب اذا هم يجارون * لا يجاروا
اليوم انكم منا لا تنصرون * ذلك بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم
تمرحون) هذه عواقب اللاهين بمحظوظهم عما أوجب الله عليهم (ومن أعرض
عن ذكرى فان له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى) . ما أوتي الانسان

من العلم الا قليلا . لا يمكن الانسان وحده أن يحيط بوجوه المنافع الخاصة بنفسه ولا أن يطلع على منابع فوائده ليكسبها أو يكشف مكامن مضاره فيقتها . خلق الانسان ضعيفا فأرشده الله للاستعانة بغيره من بني جنسه (جعلكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) خلقنا محتاجين للعون مضطرين للتصير وهدانا ربنا للتعاون والتناصر . هذا مما يحكم به العقل في المصالح الخاصة فكيف لو كان شخص ولاء الله رعاية أمة والتي اليه يزمم شعب مصالحة العامة تحت ارادته وهو الوازع فيه والواضع والرافع . لا ريب أن مثل هذا الشخص أحوج الى المشورة والاستفادة من آراء العقلاء . وهو أشد افتقارا الى ذلك ممن يكون سعيه لمتعلقات ذاته وتكون سعة دائرة افتقاره الى التشاور على مقدار سعة سلطانه وقد أمر الله نبيه وهو المعصوم من الخطأ تعليما وارشادا فقال (وشاورهم في الامر) وقال فيما امتدح به المؤمنين (وأمرهم شورى بينهم) أي بصريزوغ عن هذا الصراط المستقيم . وأي بصيرة لا تهندي الى هذا المنهج القويم (أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأوابين) ان وازع البلاد والقائم على الملك لو لمح لمحمة الى نفسه لرأى أن بلاده في كل وقت معرضة لاطاع الطامعين وان الحرص المودع في طباع البشر يحرك جيرانه كل آن للسطوة على ممالكه ليدلوا قومه ويستعبدوا أهله ويستأثروا بمنافع أرضهم وثمار كدهم ويمنحوها أبناء جلدتهم . فعليه وعلى من يشركه في أمره من عماله والحكام النائبين عنه في إيالاته وقواد جيشه وعلى كل أرباب الرأي ومن بهم قوام الملك أن يستعدوا لدفع طوارئ العدوان ورفع نوازل الغارات الاجنبية . فلو فرطوا في اعداد لوازم الدفاع أو تساهلوا فيما يكف عنهم سبيل الاطاع أو تهاونوا فيما يشد قوتهم ويقوي شوكتهم بأي وجه كان ومن أي نوع كان فقد عرضوا ملكهم للهلاك وألقوا بأنفسهم في مهاوي الاخطار . هذا مما يفهمه الابله والحكيم ، ويصل اليه ادراك الجاهل والعليم . وهو سر الافصاح والابهام في قوله تعالى (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) أمر باعداد القوة ووكلها الى الطاقة وحكم الاستطاعة على حسب ما يقتضيه الزمان وما تكون عليه حالة من تخشى غوائلهم ، هذا أمر الله ينبه الغافل ، ويذكر الذاهل ، (فما لهؤلاء القوم

لا يكادون يفقهون حديثاً)

اعطاء كل ذي حق حقه ووضع الاشياء في مواضعها وتفويض أعمال الملك للقادرين على أدائها مما يوجب صيانة الملك وقوة السلطان ويشيد بناء السلطة ويحكم دعائم السطوة ويحفظ نظام الداخل من الخلل ، ويشفي نفوس الأمة من العلل ، هذا مما تحكم به بداهة العقل وهو عنوان الحكمة التي قامت بها السموات والارض وثبت نظام كل موجود وهو العدل المأمور به على لسان الشرع في قوله تعالى (ان الله يأمر بالعدل والاحسان) كما أن الجور عن الاعتدال والميل عن سبيل الاستقامة في كل جزء من أجزاء العالم يوجب فناءه واضمحلاله كذلك الجور في الجمعيات البشرية بسبب دمارها . لهذا حثت الاوامر الالهية على العدل وكثير النهي في الكتاب المجيد عن الظلم والجور . والحكام أولى من توجه اليهم الأوامر والنواهي في هذا الباب . العدل هو الحكمة التي امتن الله بها على عباده وقرنها بالخير الكثير فقال (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً) . هي مظهر من أجل مظاهر صفاته العلية فهو الحكيم العدل وهو اللطيف الخبير

من سار في الارض وتبع تواريح الامم وكان بصير القلب علم أنه ما انهدم بناء ملك ولا انقلب عرش مجد الا لشقاق واختلاف أو ثقة بمن لا يوثق به وتخلل العنصر الاجنبي أو استبدال الرأي واستنكاف عن المشورة واهمال في اعداد القوة والدفاع عن الحوزة أو تفويض الاعمال لمن لا يحسن أداءها ووضع الاشياء في غير مواضعها فيكون جور في الحكم واختلال في النظام وفي كل ذلك حيد عن سنن الله فيجلب غضبه بالخاطئين وهو أحكم الحاكمين ،

لو تدبرنا آيات القرآن واعتبرنا بالحوادث التي ألمت بالممالك الاسلامية لعلمنا أن فينا من حاد عن أوامر الله وضل عن هديه ومنا من مال عن الصراط المستقيم الذي ضربه الله لنا وأرشدنا اليه وبيننا من اتبع أهواء الانفس وخطوات الشيطان (ذلك بان الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وان الله سميع عليم) فعلى العلماء الراسخين وهم روح الأمة وقواد الملة المحمدية أن يهتموا بتنبية الغافلين عن ما أوجب الله وايقاظ النائمة قلوبهم عما فرض الدين

ويعلموا الجاهل ويزعجوا نفس الذاهل وينذكروا الجميع بما أنعم الله به على آباؤهم ويستلطفوهم الي ما أعد الله لهم لو استقاموا ويحذروهم سوء العاقبة لو لم ينداركو أمرهم بالرجوع الي ما كان عليه النبي (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه (رضي الله عنهم) ورفض كل بدعة والخروج عن كل عادة سيئة لا تنطبق على نصوص الكتاب العزيز ويقصوا عليهم أحوال الامم الماضية وما نزل بها من قضاء الله عند ما حادت عن شرائعه ونبذت أوامره فأذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا (ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) . على العلماء أن يزيلوا اليأس بتذكير وعد الله ووعدده الحق في قوله تعالى (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً) هذه وظيفة العلماء الراسخين وما هم بقليل بين المسلمين ولا نظنهم يتهاونون فيما فوض الله اليهم ووكل الي ذمتهم وهم أمناء الدين وحملة الشرع ورافعو لواء الإسلام وأوصياء الله على المؤمنين أعانهم الله على خير أعمالهم ونفع المؤمنين بإرشادهم

سنن الله في الامم

وتطبيقها على المسلمين (*)

إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ . ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ

تلك آيات الكتاب الحكيم ، تهدي الى الحق والى طريق مستقيم ، ولا يرتاب فيها الا القوم الضالون، هل يخلف الله وعده ووعيده وهو اصدق من وعد وأقدر من أوعده؟ هل كذب الله رسله ؟ هل ودع أنبياءه وقلامه؟ هل غش خلقه وسلك بهم طريق الضلال ؟ نعوذ بالله !! هل أنزل الآيات البيّنات لغوا وعبثا؟ هل افترت

(*) نشرت في العدد السابع عشر من جرّدة العروة الوثقى بالعنوان الآتي

(٤١ ج ٢ تاريخ الاستاذ الامام)

عليه رسله كذبا؟ هل اختلقوا عليه افكا؟ هل خاطب الله عبيده بمرموز لا يفهمونها
 واشارات لا يدركونها؟ هل دعاهم اليه بما لا يعقلون؟ نسئف ان الله ! أليس قد أنزل
 القرآن عربيا غير ذي عوج وفصل فيه كل أمر وأودعه تبينا لكل شيء؟ تقدمت
 صفاته ونعالي عما يقول الظالمون علوا كبيرا * هو الصادق في وعده ووعيده ما اتخذ
 رسولا كذابا ولا أتى شيئا عبثا وما هداانا الا سبيل الرشاد ولا تبديل لا ياتيه
 نزول السموات والارض ولا يزول حكم من أحكام كتابه الذي لا يأتيه الباطل
 من بين يديه ولا من خلفه .

يقول الله (واقدم كتبنا في الزبور من بعد الذكركر أن الارض يرثها عبادي
 الصالحون - ويقول - والله العزة ولسوله وللمؤمنين - وقال - وكان حقاً علينا نصر
 المؤمنين - وقال - ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا *) هذا ما وعد الله في
 محكم الآيات مما لا يقبل تأويلا ولا ينال هذه الآيات بالتأويل الا من ضل عن
 السبيل ورام تحريف الكلم عن مواضعه . هذا عهده الى تلك الامة المرحومة وان
 يخلف الله عهده وعدها بالنصر والعزة ، وعلو الكلمة ، ومهد لها سبيل ما وعدها الى
 يوم القيامة وما جعل الله لمجدها أمدا ولا لعزتها حدا .

هذه أمة أنشأها الله عن قلة ورفع شأنها الى ذروة العلى حتي ثبتت أقدامها
 على قن الشامخات ، ودكت لعظمتها عوالي الراسيات ، وانشقت لهيبتها مرائر الضاريات ،
 وذابت للارعب منها أعشار القلوب . هال ظهورها الهائل كل نفس ، وتخيير في سببه
 كل عقل ، واهتدى الى السبب أهل الحق فقالوا : قوم كانوا مع الله فكان الله
 معهم ، جماعة قاموا بنصر الله واسترشدوا بسنته فأمدهم بنصر من عنده . هذه
 أمة كانت في نشأتها فاقدة الذخائر معوزة من الاسلحة وعدد القتال فاخترقت
 صفوف الامم واخنطت ديارها ولا دفعتها أبراج المجوس وخنادقهم ، ولا صدتها
 قلاع الرومان ومعاقلهم ، ولا عاقها صعوبة المسالك ولا أثر في همتها اختلاف
 الاهوية ولا فعل في نفوسها غزارة الثروة عند من سواها ولا راعها جلالة ملوكهم
 وقدم بيوتهم ولا تنزع صنائعهم ولا سعة دائرة فنونهم ولا عاق سيرها أحكام
 القوانين ولا تنظيم الشرائع ولا تقلب غيرها من الامم في فنون السياسة . كانت

تطرق ديار القوم فبحقرون أمرها ويستهيون بها وما كان يخطر ببال أحد أن هذه الشرذمة القليلة تزعزع أركان تلك الدول العظيمة وتحولها من لوح المجد وما كان يمتلج بصدر أن هذه العصابة الصغيرة تقهر تلك الامم الكبيرة وتمكن في نفوسها عقائد دينها وتخضعها لاورامها وعاداتها وشرائعها لكن كان كل ذلك ونالت تلك الامة المرحومة على ضعفها ما لم تنله أمة سواها . نعم قوم صدقوا ما عاهدوا الله عليه فوفاهم أجورهم مجدا في الدنيا وسعادة في الآخرة

هذه الامة يبلغ عددها اليوم زهاء مئتي مليون من النفوس وأراضيها آخذة من المحيط الاثلاثيكي الى أحشاء بلاد الصين - تربة طيبة، ومنايات خصبة، وديار رحبة، ومع ذلك نرى بلادها منهوبة، وأموالها مسلووبة، تتغلب الاجانب على شعوب هذه الامة شعبا شعبا، ويتقاسمون أراضيها قطعة بعد قطعة، ولم يبق لها كلمة تسمع، ولا أمر يطاع، حتى ان الباقيين من ملوكها يصبحون كل يوم في مله، ويمسسون في كربة مدلهمة، ضاقت أوقاتهم عن سعة الكوارث التي تلم بهم، وصار الخوف عليهم أشد من رجاء لهم . هذه هي الامة التي كان الدول العظام يؤدين لها الجزية عن يد وهن صاغرات استبقاء لحياهن وملوكها في هذه الأيام يرون بقاءهم في التزلزل الى تلك الدول الأجنبية . يا المصيبة يا للرزية !! أليس هذا بخطب جليل، أليس هذا بلاء نزل، ما سبب هذا المهبوط وما علة هذا الانحطاط ؟ هل نسى الظن بالمعهد الالهية؟ ماذا لله اهل نسيئس من رحمة الله ونظن أن قد كذب علينا؟ نعوذ بالله اهل نرتاب في وعده بنصرنا بعد ما أكد لنا؟ حاشاه سبحانه لا كان شيء من ذلك ولن يكون فعلينا أن ننظر لانفسنا ولا لوم لنا الا عليها ان الله تعالى برحمته قد وضع لسير الامم سنا متبعة ثم قال (ولن تجد لسنة الله تبديلا) .

أرشدنا سبحانه في محكم آياته الى أن الامم ما سقطت من عرش عزها ولا بادت ومحى اسمها من لوح الوجود الا بعد نكوبها عن تلك السنن التي سننها الله على أساس الحكمة البالغة . ان الله لا يغير ما بقوم من عزة وسلطان ورفاهة وخفض عيش وأمن وراحة حتى يغير اولئك القوم ما بأنفسهم من نور العقل وصحة

الفكر واشراق البصيرة والاعتبار بأفعال الله في الامم السابقة والتدبر في أحوال الذين جاروا عن صراط الله فهلكوا وحل بهم الدمار ثم الفناء لعدولهم عن سنة العدل وخروجهم عن طريق البصيرة والحكمة . حادوا عن الاستقامة في الرأي والصدق في القول والسلامة في الصدر والعفة عن الشهوات والحمية على الحق والقيام بنصره والتعاون على حمايته، خذلوا العدل ولم يجمعوا وهمهم على اعلاء كلمته، واتبعوا الاهواء الباطلة وانكبوا على الشهوات الفانية وآتوا عظام المنكرات ، خارت عزائمهم فشحوا ببذل مهجهم في حفظ السنن العادلة واخثاروا الحياة في الباطل على الموت في نصره الحق فأخذهم الله بذنوبهم وجعلهم عبرة للمعتبرين . هكذا جعل الله بقاء الامم ونمائها في التحلي بالفضائل التي أشرنا اليها وجعل هلاكها ودمارها في النخلي عنها . سنة ثابتة لا تختلف باختلاف الامم ولا تبدل بتبدل الاجيال كسنته تعالى في الخلق والايجاد وتقدير الارزاق وتحديد الآجال علينا أن نرجع الى قلوبنا ونمتحن مداركنا ونسبر أخلاقنا ونلاحظ مسالك سيرنا لنعلم هل نحن على سيرة الذين سبقونا بالايمان هل نحن نقضي أثر السلف الصالح هل غير الله ما بنا قبل أن نغير ما بأنفسنا وخالف فينا حكمه وبدل في أمرنا سنته؟ حاشاه وتعالى عما يصفون بل صدقنا الله وعده حتى اذا فشلنا وتنازعنا في الامر وعصيناه من بعد ما أرى أسلافنا ما يحبون وأعجبنا أكثرتنا فلم تغن عنا شيئاً فبدل عزنا بالذل وسمونا بالانحطاط وغنانا بالفقر وسيادتنا بالعبودية . نبذنا أوامر الله ظهريا وتخاذلنا عن نصره فجازانا بسوء أعمالنا ولم يبق لنا سبيل الى النجاة والانابة اليه . كيف لا نلوم أنفسنا ونحن نرى الاجانب عنا يقتصبون ديارنا ويستذلون أهلنا ويسفكون دماء الابرياء من اخواننا ولا نري في أحد منا حراكا .

هذا العدد الوافر والسواد الاعظم من هذه الملة لا يبذلون في الدفاع عن أوطانهم وأنفسهم شيئاً من فضول أموالهم يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة كل واحد منهم يود لو يعيش الف سنة وان كان غذاره الذلة وكساره المسكنة مسكنه الهوان . تفرقت كلمتنا شرقاً وغرباً وكاد يقطع ما بيننا لا يمن أخ

لاخيه ولا يهتم جار بشأن جاره ولا يرقب أحدنا في الآخر الاً ولا ذمة ولا تحترم شعائر ديننا ولا ندافع عن حوزته ولا نعززه بما نبذل من أموالنا وأرواحنا حسب أمرنا أيحسب الالبسون لباس المؤمنين أن الله يرضى منهم بما يظهر على اللسنة ولا يمس سواد القلوب هل يرضى منهم بأن يعبدوه على حرف فان أصابهم خير اطمانوا به وان أصابتهم فتنة اقلبوا على وجوههم خسروا الدنيا والآخرة ؟ هل ظنوا أن لا يبئلي الله ما في صدورهم ولا يمحص ما في قلوبهم ؟ ألا يعلمون أن الله لا يذر المؤمنين على ما هم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ؟ هل نسوا أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم للقيام بنصره وإعلاء كلمته لا يبخلون في سبيله بمال ولا يشحون بنفس ؟ فهل لمؤمن بعد هذا أن يزعم نفسه مؤمناً وهو لم يخط خطوة في سبيل الايمان لا بماله ولا بروحه ؟ انما المؤمنون عم الذين اذا قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم لا يزيدهم ذلك الا ايماناً وثباتاً ويقولون في اقدمهم حسبنا الله ونعم الوكيل . كيف يخشى الموت مؤمن وهو يعلم أن المقبول في سبيل الله حي يرزق عند ربه ممتع بالسعادة الابدية في نعمة من الله ورضوان كيف يخاف مؤمن من غير الله والله يقول فلا (نخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين) .

فليظن كل الى نفسه ولا يتبع وساوس الشيطان وليرحم كل واحد قلبه قبل أن يأتي يوم لا تنفع فيه خلة ولا شفاعاة وليطبق بين صفاته وبين ما وصف الله به المؤمنين وما جعله الله من خصائص الايمان فلو فعل كل منا ذلك لرأينا عدل الله فينا واهتدينا . ياسبحان الله ان هذه أمتنا أمة واحدة والعمل في صيانتها من الاعداء أهم فرض من فروض الدين عند حصول الاعتداء . يثبت ذلك نص الكتاب العزيز واجماع الأمة سلفاً وخلفاً فلما اننا نرى الأجانب يصلون على البلاد الاسلامية صولة بعدصولة ، ويستولون عليها دولة بعد دولة ، والمتسمون بسمة الايمان آهلون لكل أرض ، متمكنون بكل قطر ، ولا نأخذهم على الدين نفرة ، ولا تستفزهم للدفاع منه حمية ه ألا يا أهل القرآن لستم على شيء حتى تقيموا القرآن وتعملوا بما فيه من الأوامر والنواهي وتتخذوه اماماً لكم في جميع أعمالكم مع مراعاة

الحكم في العمل كما كان سلفكم الصالح . ألا يا أهل القرآن هذا كتابكم فاقرأوا منه : (فاذا انزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون اليك نظر المغشي عليه من الموت) ألا تعلمون فيمن نزلت هذه الآية ؟ نزلت في وصف من لا ايمان لهم . هل يسروا منا أن يتداوله هذا الوصف المشار اليه بالآية الكريمة أو غير كثيرين من المدعين للايمان ما زين لهم من سوء أعمالهم وما حسنته لديهم أهواؤهم (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) .

أقول ولا أخشي تكبرا : لا يمس الايمان قلب شخص الا ويكون أول أعماله تقديم ماله وروحه في سبيل الايمان . لا يراعي في ذلك عذرا ولا تعلقة وكل اعتذار في القعود عن نصره الله فهو آية النفاق وعلامة البعد عن الله

مع هذا كله نقول ان الخير في هذه الامة الى يوم القيامة كما جاءنا به نبأ النبوة وهذا الانحراف الذي نراه اليوم نرجو أن يكون عارضا يزول ولو قام العلماء الاتقياء وأدوا ما عليهم من النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين وأحيوا روح القرآن وذكروا المؤمنين بمعانيه الشريفة واستلقتهم إلى عهد الله الذي لا يخلف لأيت الحق يسمو والباطل يسفل ولرأيت نورا يبهر الابصار ، وأعمالا تحار فيها الافكار ، وان الحركة التي نحسها من نفوس المسلمين في أغلب الاقطار هذه الايام تبشرنا بان الله تعالى قد أعد النفوس لصيحة حق تجمع بها كلمة المسلمين ، ويوحد بها بين جميع الموحدين ، ونرجو أن يكون العمل قريبا فان فعل المسلمون وأجمعوا أمرهم للقيام بما أوجب الله عليهم صحت لهم الأوبة ولصحت منهم التوبة وعفا الله عنهم والله ذو فضل على المؤمنين فعلى العلماء أن يسارعوا الى هذا الخير وهو الخير كله جمع كلمة المسلمين والفضل كل الفضل لمن يبدأ منهم بالعمل و (من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وائيا مرشدا)

الجبن (*)

أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي رُوحٍ مُّشِيدَةٍ -
 قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ

شهد العيان ودلت الآثار على ما صدر من بعض افراد الانسان من اعمال تحير الالباب، وتدهش الأفكار، ينظر اليها ضعفاء العقول فيعدونها معجزات، وان لم تكن في أزمنة النبوات، وبحسبونها خوارق عادات، وان لم تكن من تحديي الرسالات، وقد ينسبها العقل لى حركات الافلاك وأرواح الكواكب وموافقة الطوالع . ومن القاصرين من يظنها من أحكام الصدف وقذفات الاتفاق عجزا عن درك الاسباب وفهم الصواب * اما من آتاه الله الحكمة ومنحه الهداية فيعلم ان الحكيم الخبير جل شأنه وعظمت قدره اناط كل حادث بسبب وكل مكسوب بعمل وانه قد اخنص الانسان من بين الكائنات بموهبة عقلية ومقدرة روحانية يكون بهما مظهرا لعجائب الأمور وبهذه المقدرة وتلك الموهبة مناط التكليف الشرعية وبهما استحقاق المدح أو الذم عند العقلاء والثواب، أو العقاب عند واسع الكرم سريع الحساب .

اذا رجع البصير الى القياس الصحيح رأى في تشابه القوى الانسانية وتمائل الفطرة البشرية ما يدل على تقارب العقول بل على اسنواء المدارك وأرشدته الفكر السليم الى ان فضل الله قداعد كل انسان للكمال ومنحه ما يكون به مصدرا لفضائل الأعمال على تفاوت لا يظهر به الاختلاف بينهما الا للنظر الدقيق * هنا وقفه الحيرة - استعداد فطري للكمال في خلقه الانسان . ميل كلي في كل فرد لأن يتفرد بالفخار ويمتاز بجلال الآثار، وفضل عام من الجواد المطلق سبحانه ونعالي لا يخيب طالبا ولا يرد سائلا اذا صدق القاصد في قصده وأخلص السالك في جده . فما العلة في اخلاص الجمهور الأعظم من نبي الانسان الى دنيا

المنازل وقصورهم عن الوصول الى ما أعدته لهم العناية ويستغفونهم اليه الميل الغريزي خصوصاً ان كانت النفوس مؤمنة بعدل الله مصدقة بوعدده ووعيده ترجو ثواباً على الباقيات الصالحات، ونخشى عقاباً على ارتكاب الخطيئات، وتعترف بيوم العرض الأكبر - يوم تجزى كل نفس بما كسبت (من يعمل مثقال ذرة خيراً يره* ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره*) ماذا يقعد بالنفوس عن العمل؟ ماذا ينحدر بها في مزلق الزلل؟ اذارت المسببات الى أسبابها وطلبت الحقائق من حدودها ورسومها وجدنا لهذا علة هي أم العلل، ومنشأ يقرب به كل خلل، - الجبن *

الجبن هو الذي أوهى دعائم الممالك فهدم بناها، هو الذي قطع روابط الامم فحل نظامها، هو الذي وهن عزائم الملوك فانقلبت عروشهم، وأضعف قلوب العالمين فسقطت صروحهم، هو الذي يعلق أبواب الخير في وجوه الطالبين، ويطمس معالم الهداية عن انظار السائرين، يسهل على النفوس احتمال الذلة، ويخفف عليها ماض المسكنة، ويهون عليها حمل نير العبودية الثقيل، يوطن النفس على تلقي الاهانة بالصبر والتذليل بالجلد ويوطئ الظهور الجاسية لأحمال من المصاعب اثقل مما كان يتوهم عروضه عند التحلي بالشجاعة والاقدام. الجبن يلبس النفس عارادون القرب منه موت أحمر عند كل روح زكية وهمة عليّة. يرى الجبان وعز المذلات سهلاً، وشظف العيش في المسكنات رفهاً ونعيماً.

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح يميت ايلام
لا بل يتجرع مرارات الموت في كل لحظة وليكنه راض بكل حال وان لم
يبق له الا عين تبصر الأعداء، ولا ترى الاحباء، ونفس لا بصعداً بالصعداء،
واحساس لا يلم به الا ألم الادواء. هذه حياته. اضاع كل شيء في القناعة
بلا شيء وهو يظن انه أدرك البغية وحصل المنية.

ما هو الجبن؟ انخزال في النفس عن مقاومة كل عارض لا يلائم حالها وهو
مرض من الامراض الروحية يذهب بالقوة الحافظة للوجود التي جعلها الله ركناً
من أركان الحياة الطبيعية وله أسباب كثيرة لو لم حظ جوهر كل منها رأينا جميعها
يرجع الى الخوف من الموت. الموت مآل كل حي ومصير كل ذي روح.

ليس للموت وقت يعرف ولا ساعة تعلم ولكنه فيما بين النشأة وأرذل العمر ينتظر في كل لحظة ولا يعلمه إلا مقدرُ الآجال جل شأنه (وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت) يشتد الخوف من الموت الى حد يورث النفس هذا المرض القاتل بسبب الغفلة عن المصير المحتوم والذهول عما أعده الله للانسان من خير الدنيا وسعادة الآخرة اذا صرف قواه الموهوبة فيما خلقت لأجله . نعم يفعل الانسان عن نفسه فيظن ما جعله واقياً للحياة وهو الشجاعة والاقدم سبياً في الفناء . يحسب الجاهل ان في كل خطوة حتماً ويتوهم ان في كل خطوة خطراً مع ان نظرة واحدة لما بين يديه من الآثار الانسانية وما ناله طلاب المعالي من الفوز بآمالهم وما ذلوا من المصاعب في سيرهم تكشف له ان تلك المخاوف انما هي أوهام وأصوات غيلان ، ووساوس شياطين ، غشينة فأدهشته ، وعن سبيل الله صديته ، ومن كل خير حرمة .

الجبن فح تنصبه صروف الدهر وغوائل الايام ، لتغتنل به نفوس الانسان ، وتلتهم به الامم والشعوب ، هو حباله الشيطان يصيد بها عباده لله ويصد هم عن سبيله ، هو علة لكل رذيلة ، ومنشأ لكل خصلة ذميمة ، لاشقاء الا وهو مبدؤه ، ولا فساد الا وهو جرثومته ، ولا كفر الا وهو باعته وموجبه ، ممزق الجماعات ، ومقطع روابط الصلات هازم الجيوش ومنكس الاعلام ، ومهبط السلاطين من سماء الجلالة الى أرض المهانة . ماذا يحمل الخائنين على الخيانة في الحروب الوطنية أليس هو الجبن ؟ ماذا يبسط أيدي الاذنياء لدينة الارثشاء أليس هو الجبن ؟ ربما تتوهم بعد المثال فتأمل فإن الخوف من الفقر يرجع بالحقيقة الى الخوف من الموت وهو علة الجبن . سهل عليك أن تعتبر هذا في الكذب والنفاق وسائر أنواع الامراض المفسدة لمعيشة الانسان * الجبن عار وشنار على كل ذي فطرة إنسانية خصوصاً الذين يؤمنون بالله ورسوله واليوم الآخر ويؤمنون أن ينالوا جزاء لاعمالهم - أجراً حسناً ومقاماً كريماً .

ينبغي أن يكون أبناء الملة الاسلامية بمقتضى أصول دينهم أبعد الناس عن هذه الصفة الرديئة (الجبن) فانها أشد الموانع عن أداء ما يرضي الله وانهم لا يبتغون

الارضاه . يعلم قراء القرآن ان الله قد جعل حب الموت علامة الايمان وامنح
الله به قلوب المعاندين ويقول في ذم من ليسوا بومنين (ألم تر الى الذين قيل
لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال اذا فريق
منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال
لولا أخرتنا الى أجل قريب) الخ الآيات الاقدام في سبيل الحق وبذل الاموال
والأرواح في اعلاء كلمته أول سمة يتسم بها المؤمنون . لم يكتب الكتاب الالهي
بأن تقام الصلاة وتؤتى الزكاة وتكف الأيدي وعد ذلك مما يشترك فيه المؤمنون
والكافرون المنافقون بل جعل الدليل الفرد هو بذل الروح في اعلاء كلمة الحق
والعدل الالهي بل عده الركن الوحيد الذي لا يعتد بغيره عند فقده . لا يظن ظان
انه يمكن الجمع بين الدين الاسلامي وبين الجبن في قلب واحد . كيف يمكن
هذا وكل جزء من هذا الدين يمثل الشجاعة ويصور الاقدام وان عماده الأخلص
لله والنخلي عن جميع ما سواه لاستحصال رضاه .

المؤمن من يوقن ان الآجال بيد الله يصرفها كيف يشاء ولا يفيد التباطو
عن أداء الفروض زيادة في الأجل ولا ينقصه الاقدام دقيقة منه . المؤمن من
لا ينتظر بنفسه الا احدى الحسنين اما أن يعيش سيدا عزيزا واما أن يموت مقرباً
سعيداً وتضع روحه الى أعلى عليين ويلتحق بالكروبيين والملائكة المقربين .
من يتوهم انه يجمع بين الجبن والايمان بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم
فقد غش نفسه وغرر بعقله ولعب به هوسه وهو ليس من الايمان في شيء . كل
آية من القرآن تشهد على الجبان بكذبه في دعوى الايمان . لهذا تؤمل من ورثة
الانبياء أن يصدعوا بالحق ويدكروا بآيات الله وما أودع الله فيها من الامر
بالاقدام لاعلاء كلمته والنهي عن التباطى والتقاعد في أداء ما أوجب الله من ذلك
وفي الظن ان العلماء لو قاموا بهذه الفريضة (الامر بذلك المعروف والنهي عن هذا
المنكر) زمناً قليلاً ووعظوا الكفاة بتبيين معاني القرآن الشريف واحياها في أنفس
المؤمنين رأينا لذلك أثراً في هذه الملة يبقى ذكره أبد الدهر وشهدنا لها يوماً
تسترجع فيه مجدها في هذه الدنيا وهو مجد الله الاكبر فالمؤمنون بما ورثوا عن

اسلافهم وبما تمكن في أفئدتهم من آثار العقائد لا يحنجون الا لقليل من انتبيه
ويسير من التذكير فينهضون نهضة الاسود فيستردوا مفقودا ويحفظوا ، موجودا ،
وينالوا عند الله مقاما محمودا .

الامة وسلطة الحاكم المستبد (١)

وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ

ان الامة التي ليس لها في شؤونها حل ولا عقد ولا تستشار في مصالحها
ولا أثر لارادتها في منافعها العمومية وانما هي خاضعة لحاكم واحد ارادته قانون
ومشيتها نظام يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد فتلك أمة لا تثبت على حال واحد
ولا ينضبط لها سير فتعورها السمادة والشقاء ، ويتداولها العلم والجهل ، ويتبادل
عليها الغنى والفقر ، وينتار بها العز والذل ، وكل ما يعرض عليها من هذه الاحوال
خيرها وشرها فهو تابع لحال الحاكم . فان كان حاكما عالما حازما أصيل الرأي
عليه الهمة رفيع المقصد قويم الطبع ساس الامة بسياسة العدل ورفع فيها منار العلم
ومهد لها طرق اليسار والثروة وفتح لها أبواباً للتفتن في الصنائع والحذق في جميع
لوازم الحياة وبعث في أفراد المحكومين روح الشرف والنخوة وحملهم على التحلي
بالمزايا الشريفة من الشهامة والشجاعة والشهامة وإبائه الضيم والانفة من الذل
ورفعهم الى مكانة عليا من العزة ووطأ لهم سبل الراحة والرفاهة وتقدم بهم الى
كل وجه من وجوه الخير .

وان كان حاكما جاهلا سيء الطبع سافل الهمة شرها مغتلاما جباناً
ضعيف الرأي أحق الجنان خسيس النفس معوج الطبيعة أسقط الامة بتصرفه
الى مهاوي الخسران وضرب على نواظرها غشاوات الجهل وجلب عليها غائلة
الفاقة والفقر وجار في سلطته عن جادة العدل وفتح أبوابا للعدوان فيتغلب

(١) نشرت في العدد الرابع عشر من جريدة العروة الوثقى بالعنوان الآتي

وأخرناها لاخصصارها

القوي على حقوق الضعيف ويختل النظام وتفسد الاخلاق وتخفص الكلمة ويغلب اليأس فتمتد اليها أنظار الطامعين وتضرب الدول الفاتحة بمخالبها في أحشاء الامة عند ذلك ان كان في الامة رمق من الحياة وبقيت فيها بقية منها وأراد الله بها خيرا اجتمع أهل الرأي وأرباب الهمة من أفرادها وتعاونوا على اجتثاث هذه الشجرة الخبيثة واستئصال جذورها قبل أن تنشر الرياح بذورها وأجزاءها السامة القاتلة بين جميع الامة فتميتها وينقطع الامل من العلاج وبادروا الى قطع هذا العضو المجذم قبل أن يسري فساده الى جميع البدن فيمزقه وغرسوا لهم شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء وجددوا لهم بنية صحيحة سالمة من الآفات (استبدلوا الخبيث بالطيب) وان انحطت الامة عن هذه الدرجة وتركت شوئونها بيد الحاكم الابله الغاشم يصر فيها كيف يشاء فانذرنا بمحض العبودية وعناء الذلة ووصمة العار بين الأمم جزاء على ما فرطوا في أمورهم وما ربك بظلام للعبيد

الوهم

وكتب في فاتحة مقالة سياسية نشرت في العدد السابع عشر
ألا قاتل الله الوهم ، الوهم طورا يكون مرآة المزعجات ، ومجلى المفزعات ،
وطورا يكون ممثلا للمسرات ، حاكيا للمنعشات ، وهو في جميع أطواره حجاب
الحقيقة ، وغشاء على عين البصيرة ، لكن له سلطان على الارادة وحكم على العزيمة
فهو مجلبة الشر ومنفاة الخير

الوهم يمثل الضعيف قويا والقريب بعيدا والمأمّن مخافة والموتل مهلكا
الوهم يذهل الواهم عن نفسه ، ويصرفه عن حسه ، يخيل الموجود معدوما والمعدوم
موجودا الواهم في كون غير موجود وعالم غير مشهود يخبط فيه خبط المصروع
لا يدري ماذا أدركه وماذا تركه الوهم روح خبيث يلبس النفس الانسانية
وهي في ظلام الجهل : اذا خفيت الحقائق تحكمت الاوهام وتسلطت على الارادات
فتقود الواهمين الى بيداء الضلالة فيخبطون في مجاهيل لا يهتدون الى سبيل
ولا يستقيمون على طريق اه المراد منه

مقالات جريدة ثمرات الفنون

لما كان الاستاذ الامام في بيروت كتب مقالات كثيرة في جريدة ثمرات الفنون ظهر نامنها بالمقالة الآتية وكنا نشرناها في المجلد الرابع من المنار

الانتقاد

﴿ ما وعظك مثل لأم * وما قومك مثل مقاوم ﴾

الانتقاد نفثة من الروح الالهى في صدور البشر تظهر في مناطقهم سوقاً للناقص الى الكمال وتنبهها يزعج الكامل عن موقفه الى طلب الغاية مما يلبق به الانتقاد قاصف من الائمة تنفس عنه القلوب، وتفتق به الاسنة، لتقريع الناقصين في اهمالهم، ودفع طلاب الكمال الى منهي ما يمكن لهم

جعل الله للحياة قواماً وقوام الحياة بالادراك

انما الانسان كون عقلي سلطان وجوده العقل فان صلح السلطان ونفذ حكمه صلح ذلك الكون وتم امره . ان الله لم يهمل العقل من ناصرين عزيزين حاذقين أحدهما له والثاني له وعليه أما الاول فما قرن الله به من غريزة الميل للافضل ، والاصطفاء للأمثل ، وأما الثاني فما أزمه الصانع من الانقباض عن الدون ، والنفور عن منازل الهون ، فذاك يحدوه ، وهذا يسوقه ، وذاك يزين له الطلب ، وهذا يزعجه الى الهرب ، وكل منازل العقل صعودا لا أدناها فعجز يقف بأهله على شفير العدم ، وكل منزلة بعد الاذنى دنوً من الكمال ، غير أن ما يسمو اليه العقل ، أشبه بما يندسط اليه الوجود ، يمتد الى غير نهاية ، ويرتفع دون الوقوف عند غاية ، فليس يصل منشجع الكمال الى مقام الا ويرمي بطرفه الى أبعد منه ومساقط المعجز ويئة المقام ، كثيرة الآلام ، تستوكرها أفاعي الهموم ، وغائلات الغموم ، وقد جعلها الله من وراء العقل كلما التفت اليه رآه هول منظرها، فتحفز

عنها ، الى منجاة منها ، ولا يزال بزجيه الخوف وتطير به الرغبة حتى يدنو من
رفرف السعادة الاعلى

ولكن كلال البصائر البشرية قد يقف بها عند مظاهر غرارة ، وظواهر
خنارة ، فتخالطها ليتها ، وتحسبها منيتها ، ولا تدري أن بها هلكتها ، وفيها منيتها ،
فتلها مثل الطير ينظر الى الحب المنتور ، ويفجى عن الفخ المنسوب ، فاذا سقط للالقط
وقع في يد الخابل ، أو مثل المفترس يلوح له لائح الفريسة ولا يشعر بما أعد له
صائده فاذا وثب عليها أتاه الصائد من مقتله ، وأعجله عن مأكله

لهذا وكل الله بالعقل منبها لا يغفل ، وحسبها لا يهمل ، وكائلا لا ينام ، يزعج
الواقف ، ويحث المترث ، ويمسك الواجف ، ما سكن ساكن الى حال ،
ولا قنع قانع بمنال ، الا هنف به : إن ما تطلب أمامك . ولا أوغل موغل فيما لا
ينفعه ، ولا أوضع موضع الى ما يضره ، الا صاح به : تعست الحدود ، وأضرعت
الحدود ، فخفض من سيرك ، وقوم من سيرك ، والا فالذل مقيلك ، والهلكة مصيرك ،
ذلك الواعظ الحكيم والمؤدب العليم هو (الاتقاد) ، يثبت في الفؤاد ، ثم يتجلى
في البيان ، على أسلمة اللسان ، فيفتقه العالمون ، ولا يهمله العاملون ، « فطرة الله التي
فطر الناس عليها » أودع في كل ناطق بصرا بشأن غيره ، أشد احاطة من بصره
بشأن نفسه ، وممكن كلا من تمييز أحوال الآخر حسنها من قبيحها ، وفاسدها من
صحيحها ، ثم دفعه للنطق بما ألهمه ، والقضاء بما أحكمه ، فكان لكل انسان
أبصار بعدد الناظرين اليه ، والعارفين بما عليه عمله ، كما كبره تربه الخبير
فيطلبه ، وتكشف له الشر فيجتنبه ، وجعل الله الناقدين أقساما فمنهم ناظر الى
الفضل لا يعدوه فهو يذكّر المنقبة ، ويفض عن المثلية ، ومن هذا القسم المفرطون
في الوفاء من الاصدقاء . ومنهم رقباء النقائص وجواسيس العيوب يرؤون
المسآت ، ويسكتون عن الحسنات ، وفيهم الحساد ، وأهل الاحقاد ، ومنهم
ناظرون بالعينين ، عارفون بالوجهين ، يذكرون للكمال نبله ، ويلزمون النقص
ويله ، وهو لأ في أعلى المنازل وفيهم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر
والحافظون لحدود الله . ومن الناقدين فاسقون يكتمون ما يعرفون ، ويهرفون

بما لا يعلمون ، وهم في أخس المنازل ، وليس في الناس الا من يجتمع هذه
الاقسام له وعليه . وما جعل الله بشرا يسلم منها ويحرم من بعضها فكأنها التي
قال فيها « وان منكم الا واردها » وكلها صدى صوت الكمال الالهي الأعلى
ينادي الكاملين أن يستزيدوا ، والناقصين أن يستجيدوا ،

هل لجاحد أن يصغر قدر الحسيب على أي وجه كان حسابه ؟ أو لجاهل
ينكر حكمة الله في تقييضه لنا ؟ أو لواهم أن يذهب الى أنه ليس من نظام الفطرة ؟
واني أحيلك على خواطر نفسك اذا بلغك وأنت غربي مثلاً أن ملك الصين غدر
بأحد أوليائه أو استصفي أموال رعيته أو كفهم مالا يطيقون احتماله أو أهمل في
مصلحة بلاده حتى تجرأ عليها أعداؤها أو جبن عن حادث ألم به وكان يستطيع
دفعه ألا ترى من قلبك امتعاضا عليه ، ومن نفسك ازدراء بعمله ، وفي لسانك لهجة
بلومه ، وهو منك على بعد المشرقين ! ولئن وصلت اليك روايات عدله ورعايته
حقوق بلاده وحفظه لدمامه وجدت اليه من فؤادك ميلاً ، ومن رأيك لعمله
استحساناً ، ومن لسانك عليه ثناء

ولو شئت حا كمتك الى مذاهب ميلك عند ما تنظر في تاريخ لمن سبقك
فان مثل لك النظر فضلا في سيرة ، أو خزنية في جريرة ، ألسنت تجد من نفسك
انبساطاً الى فواضل الغرر ، وانقباضاً عن مخازي الغرر ، ثم انطلقا الى نشر ما
وجدت ثم رأيت عضداً منك لاحدهما كأنه قائم يستنصر فانت تنصره ، وتغيظا
على الآخر كأنما يدعوك لعونه فانت تخذله

لاجرم أن النقد نائرة غريزية تقدر شررها على السابقين واللاحقين وكل
نقد فحشوه لوم حتى ما كان منه قاصراً عند بث المحمدة والاقرار بالفضيلة فان
حمد الكامل عدل للناقص على التقصير وازعاج للمحمود وزجر له عن ملابسة
الاعياء فكاني وصاحب الثناء يقول : ألا أيها القاعدون انهضوا . ويأياها المبرزون
اركضوا . واحذروا الوقفة فانها بداية القهقري : تلك أقلام الحق ، في السنة
الخلق ، لا يصم عن نداءها الا أصم ، ولا يفغي عن اندارها ألا أيهم
علي ذلك قام النظام الانساني فلولو الانتقاد ماشب علم عن نشأته ، ولا

امتد ملك عن منبته ، أترى لو أغفل العلماء نقد الآراء وأهملوا البحث في وجوه المزاعم أ كانت تتسع دائرة العلم ، وتنجلي الحقائق للفهم ، ويعلم المحق من المبطل ؟ أو لو أغمض الاصدقاء والاولياء عن سياسة السائس ، وتدبير الحاكم ، وهجروا النظر في قوة الملك ، ولم يقرعوا كل عمل بمقامع النقد، أ كانت تستقيم محجة ، وتعتمد حجة ، أو تعظم قوة ؟ كلا بل كان يتحكم الغرور ، وتسلط الغفلة ، ويعود الصواب خطلا ، والنظام خللا ، تلك سنة الله في الاولين . وهي كذلك في الآخرين

فالمنعوط في حاله من يستمع قول اللاتمين ، ويستطلع خواطر المعترضين ، ويتصفح وجوه المتنكرين ، ذلك روح الحياة فيه يطلب حاجاته ، ويتحفظ من آفاته ، وليس فيما يملك الخازمون أنفس لديهم ، من الانحاء عليهم ، بما ينبتهم اذا غفلوا ، ويعلمهم اذا جهلوا ، ويهديهم اذا ضلوا ، وينعشهم اذا زلوا ، وكما توجد نفائس الارشاد هذه عند الاولياء ، توجد عند الاعداء ، بل هي عندهؤلاء أجود فانهم يرفعون للمعايب أعلاما بيّنة حتى لا تعود فيها شبهة لناظر وأحجي بالعقل أن لا يمجج من الانتقاد شيئا حتى أ كاذيب أهل الضغينة ، ورجوم ذوي السخيمة ، على مخالفتها للحقيقة ، فان أباطيل اللوم تكون للعقل بمنزلة المسالح تقام في الثغور زمن السلم حذرا مما عساه يطرقتها من عدوان الغيرين عليها واقل ما يكون من العاقل فيها أن يقول : قيل فينا ولم نعمل فكيف بنا لو عملنا : فهي ان لم تهده الى مطلب ضل عنه ، ولم ترد اليه فائتا كان ينفلت منه ، فقد تحفظه من السقوط فيما يجعل الكذب صدقا ، والباطل حقا ، فمن فسق لسانه ، وخالف بيانه جناه ، وجاء بغير الحق في ثلب غيره فقد أفسد نفسه لصالح عدوه والله ما يقول بعض الصوفية : جزى الله الاعداء عنا كل خير فلولاهم ما نزلنا منازل القرب ، ولا حللنا حظار القدس ، هذا وقد كفر قوم نعمة الانتقاد فظنوا صنع الله فيه عيبا « نعوذ بالله » فوقروا عنه آذانهم ، وعطلوا من ناحيته سمعهم ، وجعلوا أصابهم في صماليخهم (١) من صواعق زجره ، وقواصف نهيه وأمره ، وضربوا

(١) الصماليخ ج صملاخ وصملوخ وهو داخل خرق الاذن ويطلق على وسخها

بينهم وبين أهل النقد حجبا ، وأقاموا دونهم أسنارا . وخيل لهم الجهل أن صومهم عنه ، يقيهم منه ، وان قبوعهم في أهب الغفلة (١) يدرأ عنهم سهام اللوائم كأنهم لا يعلمون أن ذلك وقوع في أشد مما خافوا ، وان دفاع الى شر مما رهبوا ، فمثلهم كمثل بعض الطيور اذا رأى الصائد غمس رأسه في الماء ظنا منه أنه متى أغمض عن طالبه أغمض الطالب عنه فيكون بذلك قد يسر للصائد صيده ، وسهل عليه كيده ، ومن ثم نجدهم في عى عن شؤونهم وتخط في أعمالهم قد لزموا خطة من الهون لو أبصر عقلم بعض أطرافها لما اتوا جزعا من هول ما فيها كل ذلك وأسالات الاسن واسنة الاقلام لا تألو في تقريعهم بل وصوت الحق الصريح بناديتهم من عمائق ضمائرهم : بئس ما اشترىتم لانفسكم لو كنتم تعلمون .

وليهم عاتب ، وعدوهم عائب ، وهم في غفلة عن هذا بل لا يشعرون أولئك الذين ختم الله على سمعهم وطبع على قلوبهم فرقوا من ناموس الفطرة الالهية فهم أموات الارواح . مضطربو الاشباح . ولا تنشق عنهم قبور الخمول حتى ينشرهم الله في حياة أخرى يخضعون فيها للاحكام الكونية . ويعملون على السنن الالهية . فليتنظروا انا معهم من المنتظرين

(١) الاله بضم تين جمع اهاب ككتاب وهو الجلد الذي لم يدبغ أو أعم

لوائح الاصلاح والتعليم الديني

اللائحة الاولى

كتبها في منفاه بيروت ووقع عليها مع بعض وجهاء المسلمين وأرسلها الى سماحة شيخ الاسلام بالاستانة وذلك في ٢٦ جمادى الثانية سنة ١٣٠٤ ومنها يعلم أنه لم يأل جهداً في النصح للدولة وانها لو عملت بارشاده وصدقته أمله ورجاءه الحسن فيها لأحيت الاسلام وجددت مجده وكانت بذلك ذات سيادة اسلامية حقيقية * وهذا نص ما كتبه رضي الله عنه

بسم الله الرحمن الرحيم

لا اله الا الله وحده لا شريك له وبه الحول والقوة وصلى الله وسلم على نبيه وآله وصحبه * وبعد فقد رأينا وسررنا كإسار المسلمون كافة بما نشر في جريدة الطريق من أنه صدرت الارادة السنية الى حضرة صاحب السماحة مولانا شيخ الاسلام بأن تولى تحت رئاسته العلمية لجنة أعضاؤها حضرات صاحبي السماحة نوري أفندي أمين الفتوى وحسني أفندي رئيس مجلس المعارف وصاحب العطفة عبد النافع أفندي وصاحب الفضيلة خوجه اسحاق أفندي وان يناط بهذه اللجنة اصلاح جداول الدروس في المكاتب الاسلامية (١) وتقويمها حتى تكون كافلة بجميع الوسائل الصحيحة لتعليم أولاد المسلمين وتلقينهم ضروريات الدين الاسلامي وتربيتهم بالآداب والاخلاق الاسلامية على وفق الحق المطلوب. وان حضرة مولانا شيخ الاسلام وحضرات أعضاء اللجنة الكرام وان كانوا في غنى بأراهم القويمة ومعارفهم الواسعة عن أن يتقدم اليهم أمثالنا بالمشورة ولكنها الحمية للدين تبعثنا على بسط ما يلوح بخواطرنا الى أولياء أمورنا مع الاعتراف بالعجز والاقرار

(١) لفظ المكتب يطلق في البلاد العثمانية على المدرسة وان كانت عالية

بالقصور عملاً بقول سيدنا علي كرم الله وجهه : « من واجب حقوق الله على العباد النصيحة بمبلغ جهدهم ، وليس امرؤ وان عظمت في الحق منزلة ، وتقدمت في الدين فضيلته ، يفوق أن يعان على ما حمله الله من حقه ، ولا امرؤ وان صغرت النفوس ، واقتحمته العيون ، بدون أن يعين على ذلك أوبعان عليه »

إن من له قلب من أهل الدين الاسلامي يرى ان المحافظة على الدولة العلية العثمانية نائلة العقائد بعد الايمان بالله ورسوله فانها وحدها المحافظة لسلطان الدين ، الكفالة ببقاء حوزته ، وليس للدين سلطان في سواها ، وانا والحمد لله على هذه العقيدة عليها نحيا وعليها نموت

إن للخلافة الاسلامية حصوناً وأسواراً وان أحكم أسوارها ما استحکم في قلوب المؤمنين من الثقة بها ، والحمية للدفاع عنها ، ولا معقد للثقة ولا موقد للحمية في قلوب المسلمين الا ما أتاهم من قبيل الدين ومن نخلن ان اسم الوطن ومصاحبة البلاد وما شا كل ذلك من الألفاظ الطماننة يقوم مقام الدين في إيهامهم وسوقها الى الغايات المطلوبة منها ففضل سواء السبيل

المسلمون قد تحيف الدهر نفوسهم ، وأنحت الأيام على معاقد ايمانهم ، ووهت عرى يقينهم ، بما غشيتهم من ظلمات الجهل بأصول دينهم ، وقد تبع الضعف فساد في الاخلاق ، وانتكاس في الطباع ، وانحطاط في النفس ، حتى أصبح الجمهور الأغلب منهم أشبه بالحيوانات الرتع غاية همهم أن يعيدشوا الى منقطع أجيالهم يا كاون ويشربون ويدناسلون ويتنافسون في اللذات البهيمية وسواء عليهم بعد ذلك أكانت العزة لله ورسوله وخليفته أوكانت العزة لسائد عليهم من غيرهم . وهؤلاء الهنديون وسكان ماروا والنهر وقبائل التركان واشباههم يمثلون هذه الرزية أظهر تمثيل ولم تكن هذه المحنة خاصة بقوم من المسلمين دون قوم ولكن عمت بها البلية حتى خشي على قلوب كثير من العثمانيين أن يمسها هذا المرض الخبيث لولا أن تدركها قوة مولانا أمير المؤمنين خلد الله ظله

هذا الضعف الديني قد نهج لشياطين الأجانب سبيل الدخول الى قلوب كثير من المسلمين واسمالة أهوائهم الى الاخذ بدساتسهم والاصاخة الى وساوسهم

فخلبوا عقول عدد غير قليل ثم انبثت دعواتهم في أطراف البلاد الاسلامية حتى
العثمانية لنضليل المسلمين فلا ترى بقعة من البقاع الا فيها مدرسة للامريكانيين
أو اليسوعيين أو العزارية أو الفرر أو لجمعية أخرى من الجمعيات الدينية الاوربية
والمسلمون لا يستنكفون من ارسال أولادهم الى تلك المدارس طمعا في تعليمهم
بعض العلوم المظنون نفعها في معيشتهم أو تحصيلهم بعض اللغات الاوربية التي
يحسبونها ضرورية لسعادتهم في مستقبل حياتهم . ولم يختص هذا التساهل المحزن
بالعامة والجهال بل تعدى الى المعروفين بالتعصب في دينهم بل لبعض ذوي
المناصب الدينية الاسلامية . وأولئك الضعفاء أولاد المسلمين يدخلون الى تلك
المدارس الاجنبية في سن السذاجة وغرارة الصبا والحادثة ولا يسمعون الا ما
يناقض عقائد الدين الاسلامي ولا يرون الا ما يخالف أحكام الشرع المحمدي
بل لا يطرق أسماعهم الا ما يزرى على دينهم وعقائد آبائهم ويعيب عليهم التمسك
بعمى الطاعة لأوليائهم ويقع ذلك من نفوسهم موقع القبول لانه من أساتذتهم
القوام على تربيتهم بإذن آبائهم ولا نظيل القول فيما يثلقونه من العقائد الفاسدة
والآراء الباطلة ، فذلك أمر أعرف من أن يبين . فلا تنقضي سنو تعليمهم الا
وقد خوت قلوبهم من كل عقد اسلامي وأصبحوا كفارا تحت حجاب اسم
الاسلام ولا يقف الامر عند ذلك بل تعقد قلوبهم على محبة الاجانب وتجدب
أهواؤهم الى مجاراتهم ويكونون طوعا لهم فيما يريدونه منهم ثم ينفضون ما تداست
به نفوسهم بين العامة بالقول والعمل فيصبرون بذلك ويلا على الامة ، ورزية على
الدولة ، نعوذ بالله . ولو فقه المسلمون لبذلوا من أموالهم ما يجيدون به تربية أبناءهم
مع استبقائهم مسلمين في العقيدة ، عثمانيين في النزعة ، هذا ما جلبه الجهل على
الامة الاسلامية وان غائلته لمن أشد العوائل وقد كنا نخاف أن تحل بوائقها لو لم
تدفعها عزيمة مولانا أمير المؤمنين

أما المكاتب والمدارس الاسلامية فقد كانت إما خالية من التعليم الديني
جملة واما مشتملة على شيء قليل منه لا يتجاوز أحكام العبادات على وجه مختصر
وطريق صوري لا يعدو حفظ العبارات مع الجهل بالمدلولات ولهذا رأينا كثيرا

من قرواً العلوم في المدارس العسكرية وغيرها خلوا من الدين وجهالاً بعقائده منسكين على الشهوات وسفساف المذات لا ينجشون الله في سر ولا جهر ولا يراعون له حكماً في خير ولا شر وأمحط بهم ذلك إلى الكذب في الكسب والانصباب على طلب النوسعة في العيش لا يلاحظون فيه حلالاً أو حراماً ولا طيباً أو خبيثاً فإذا دعوا إلى الدفاع عن الملة والدولة ركنوا إلى الراحة ومالوا إلى الخيانة وطلبوا لأنفسهم الخلاص بأية وسيلة

وبالجملة فإن ضعف العقيدة والجهل بالدين قد شمل المسلمين على اختلاف طبقاتهم إلا من عصم الله وهم قليلون ولهذا تراهم يفرون من الخدمة العسكرية ويطلبون للتخلص منها أية حيلة وهي من أهم الفروض الدينية المطالبة منهم ونرى غيرهم من الأمم يتسابقون إلى الانتظام في سلك جندبتهم مع أنها غير معروفة في دينهم بل مضادة لصريح نصوصه ونرى المسلمين يبخلون بأموالهم إذا دعت الأحوال إلى مساعدة الدولة والانفاق على مصالح الأمة ولا يبخلون بذلك على شهواتهم بعكس ما ترى في سائر الأمم . هكذا انطفاً من المسلمين مصباح العقل فلا يعرفون لهم رابطة يرتبطون بها ولا يهتدون إلى جامعة بلجأون إليها وتقطع ما بينهم (تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يفقهون) ولا حول ولا قوة إلا بالله هذه أحوال نذكر منها القليل والله يعلم أن الواقع منها أكثر من الكثير نذكرها مقرونة بأنفاس الأسف وصعداء الحزن لما نعلم أن الأجانب قد أرسلوا ذئابهم يتخطفون شاذتهم وأغلبهم شاذة ويقترسون نادتهم وجمهورهم نادة ومسارة الفساد فيهم مشهورة يحس بازديادها كل سنة عما قبلها وإن عواقب ذلك لتخشى ولا حول ولا قوة إلا بالله

وإذا استقر بنا أحوال المسلمين للبحث عن أسباب هذا الخذلان لانهجنا أولاً سبباً واحداً وهو القصور في التعليم الديني إما بإهماله جملة كما هو في بعض البلاد وأما بالسلوك إليه من غير طريقه القويمة كما في بعض آخر أما الذين أهمل فيهم التعليم الديني فجمهور العامة في كل ناحية لم يبق عندهم من الدين إلا أسماء يذكرونها ولا يعبرونها فإن كانت لهم عقائد فهي بقايا من عقائد الجبرية والمرجئة من

نحو أنه لا اختيار للعبد في ما يفعله وإنما هو مجبور في ما يصدر منه جبراً محضاً
 فهذا لا يؤخذ على ترك الفرائض ولا اجترام السيئات ومثل أن رحمة الله لا تدع
 ذنباً حتى تشمله بالغفران قطعاً لا احتمال معه للعقاب فليفعل الانسان ما يفعل
 من الموبات وليعمل ما يعمل من المفروضات فلا عقاب عليه وما شا كل ذلك
 مما أدى الى هدم أركان الدين من نفوسهم واستل الحمية من قلوبهم ولا منشأ
 له الا عدم تعليمهم عقائد دينهم وغفلتهم عما أودع في كتاب الله وسنة رسوله
 وأما الذين أصابو شيئاً من العلم الديني فمنهم من كان همهم علم أحكام الطهارة
 والنجاسة وفرائض الصلاة والصيام وظنوا أن الدين منحصر في ذلك ومتى أدوا
 هاتين العبادتين على ما نص في كتب الفقه فقد أقاموا الدين وان هدموا كل ركن
 سواهما وبشركون مع الاولين في تلك العقائد الفاسدة . ومنهم من زاد على ذلك
 علم الفروع في أبواب من المعاملات متخذاً ذلك آلة للكسب وصنعة من الصنائع
 العادية وأولئك الاغلب من طلاب الإفتاء والقضاء ووظائف التدريس وما شا كل
 ذلك لا ينظرون من الدين الا من وجه ما يجلب اليهم المعيشة فان مال بهم طلب
 العيش الى مخالفته لم يباليوا بذلك معتقدين على مثل عقائد الجهلة مما قدمنا وهو لاء
 لا يمتنع مفسد أعمالهم بذواتهم ولكنها تتعدى الى أخلاق العامة وأطوارهم
 فهذا القسم أعظم الاقسام خطراً وأشد هاضراً في العامة والخاصة وما أفراده بقليل
 نعم لا ينكر أن الخير في أمة محمد صلى الله عليه وسلم وأنه يوجد في هذه الطبقة
 رجال وقفوا عند ما حد الكتاب واستمسكوا في الدين بالعرفة الوثيق وأضرم الدين
 في قلوبهم نار الحمية، واستفزز اليقين همهم للنصرة الملية، الا أنهم قليل والموجود منهم
 قد يكون خامل الذكر، أو قاصر الاقتدار عما تطالبه به الشريعة في ارشاد الأمة،
 وبالجملة فوجود أمثالهم لم يكن كافياً في دفع الشرور الوافدة من غيرهم ولولا
 ما لطف الله بهذه الأمة بسر توجه مولانا الخليفة الأعظم لعجل لها من الوبال
 ما استحقته لسوء أعمالها ونبذها أحكام الله وراء ظهرها وانحرف قلوبها عن مقاصد
 ولاية أمورها الصادقين . وقد نظر مولانا أعزه الله ونصره الى عظم هذا الأمر
 وهول عواقبه فأصدر ارادته السامية بالنظر في وجوه تداركه . فيا للنعمة العظيمة

وبالمرحة الكبرى، هشت لها قلوب المؤمنين، وبشت لورود بشرها ووجه الصادقين،
وارفعت أصوات التضرع الى الله بتأييد شوكة مولانا أمير المؤمنين، وتأيد
دولته، واعلاء كلمته،

وإنه بعد التأمل في الأحوال المتقدمة وهي ظاهرة مشهورة والوقوف على
سببها الذي أشرنا اليه وهو غير خفي على مدارك مولانا شيخ الإسلام وأعضاء
اللجنة الكرام نعلم أن أمير المؤمنين لم يرد من اصلاح الجداول أن يدرج في فنون
المدارس الاسلامية بعضها الكتب الفقهية مع بقاء التعليم على طرقة المعهودة في المساجد
وفي دروس بعض العلماء فان العلوم العملية اذا لم تبين على عقائد صحيحة وإيمان
صادق لا تلبث أن تضمحل ولئن ثبتت فانما تسوق الى أعمال خالية عن النيات
وخاوية من سر الإخلاص فذكون أشبه شيء بالباطلة في عدم ترتب الأثر المطلوب
عليها كما قدمناه فلا بد أن يكون مولانا الخليفة أعز الله نصره قد أراد أن يوجه
النظر الى فن تقوى به العقيدة ويستحكم سلطانها على العقول ثم الى تربية تذكريها
ثمال النفس من ذلك الفن فيكون التذكار مستحفظا لما يصل اليها منه ثم الى فن
الفقه الباطني وهو ما نعرف به أحوال النفس وأخلاقها والمهلك منها كالكذب والحياة
والنميمة والحسد والجبن وسائر الرذائل والمنجني كالصدق والأمانة والرضى والشجاعة
وسائر الفضائل ويضم الي ذلك باقي علم الحلال والحرام على ما هو مذكور في الكتاب
والسنة ومتفق عليه بين أئمة الملة الاسلامية . ثم الى تربية تحفظ ذلك وتروض النفس
على العمل بما تعلم منه . ثم يكون التعليم في هذه الفنون المذكورة والتربية على وفق
قواعدها مستندين الى الشرع الشريف بحيث تذكر ما أخذها من القرآن والسنة
الصحيحة وما صح أثره من أقوال الصحابة وعلماء السلف الأول ومن هذا حذوهم
كحجة الاسلام الغزالي وأمثاله فالقصد بالذات علمان وهما أصلان ومجموعهما ركن
من الإصلاح والركن الآخر التربية بما يهديان اليه حتى تصير العلوم ملكة راسخة
تصدر عنها الأفعال بلا تعمل ثم يتبعها فن آخر يقوى على الغرض منهما وهو فن
التاريخ الديني خصوصا سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وسيرة أصحابه والخلفاء
الراشدين ومن تأثرهم من الخلفاء العثمانيين

هذا اجمال ما اليه الحاجة منه العلوم الدينية الا أن كل واحد منها مقول على المبدأ والتوسط والنهاية وكل منها غذاء لطبقة من الناس لا اقوام لحياتها الدينية والسياسية الا به

فلهذا نقسم طبقات الناس الى ثلاث ونعين لكل واحدة منها حدا من هذه الفنون فالطبقة الاولى العامة من أهل الصناعة والتجارة والزراعة ومن يتبعهم . والثانية طبقة الساسة ممن يتعاطى العمل للدولة في تدبير أمر الرعية وحمايتها من ضباط العسكرية وأعضاء المحاكم ورؤسائها ومن يتعلق بهم ومأموري الادارة على اختلاف مراتبهم . والطبقة الثالثة طبقة العلماء من أهل الارشاد والتربية ولا نريد بهذا التقسيم منع الآحاد من كل طبقة أن يطلبوا الكمال الذي خص به من فوقهم ولكن الغرض تحديد ما يلزم لكل واحدة ثم ان الله لا يضيع أجر العاملين

✽ التعليم الديني الابتدائي لطبقة العامة المسلمين ✽

﴿الطبقة الأولى﴾ هم أولاد المسلمين الذين يوقف بهم عند مبادي الكتابة والقراءة وشي من الحساب يعلمون ذلك الى درجة محدودة ينتفعون بها في معاملاتهم ثم ينصرفون الى أعمالهم الصناعية والتجارية والزراعية وما يشبهها وأولئك كتلامذة المكاتب الرشدية والعسكرية والملكية والمكاتب الخيرية الاهلية فهؤلاء بهم الدولة منهم أن يكونوا في قياد الطاعة ان جاذبتهم ارواحهم سلموها وان استقرضتهم أموالهم بذلوها محتسبين ذلك في سبيل الله غير ساخطين ولا متكرهين ثم لا يكون لوسوسة اجنبي منفذ الى قلوبهم فيجب أن يودع في أفئدتهم لبدايات تعليمهم مواقد الحمية ومعاصم الانفة الملية كما كان ذلك في نشأة الاسلام وبداءة الخلافة العمانية وكما هو معروف الآن عند الامم الاورباوية مما نعلموه من أسلافنا ولا تدرك هذه الغاية من أبنائنا الا بعقيدة صادقة واستقامة ثابتة ومحبة خالصة ولهذا ينبغي أن توضع لهم كتب التعليم الديني على الوجه الآتي

أولا -- كتاب مختصر في العقائد الاسلامية المنفق عليها عند أهل السنة بلا تعرض للخلاف بين الطوائف الاسلامية مطلقاً مع الاستدلال عليها بالادلة الاقناعية القرية المنال والاستشهاد بالآيات القرآنية والاحاديث الصحيحة ومع

الإمام بشيء من الخلاف بيننا وبين النصارى وبيان شبههم في معتقداتهم لتكون الخواطر في استعداد لدفع ما يرد عليهما من وساوس دعاة الانجيل المنبئين في كل قطر ثانيا - كتاب مختصر في الحلال والحرام من الاعمال وبيان الاخلاق الخبيثة والصفات الطيبة واتنبيه على البدع المستحدثة التي لم يرد في الكتاب فرضها ولا في السنة أثرها وظهر في العامة ضررها مستدلا فيه بآيات الكتاب واحاديث السنة مؤيداً بأعمال الصديقين من سلف الامة ولا بد أن يكون مدار الكتاب تقرير ان الانسان انما خلق ليكون عبد الله فكل شيء دون الله ورسوله مبذول ثالثاً - كتاب في التاريخ مختصر يحتوي على مجمل سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وسيرة أصحابه من وجه ما يتعلق بالاخلاق الكريمة والاعمال العظيمة وفداء الدين بالارواح والاموال مع الامام بالسبب في تسلط الاسلام على الامم في وقت قصير مع قلة أهله وكثرة معارضيهم وقوتهم وإثبات ان ذلك يسر الصدق في المكافأة والاتحاد في المجاهدة ثم ينبع ذلك بتاريخ الخلفاء العثمانيين كل ذلك على وجه مختصر سهل التناول

ثم هذه الكتب تكون للعثمانيين من العرب عربية ومن اترك تركية ومن غيرهم بلسانهم ان وجدوا وما يذكرون فيها من آية وحديث يفسر باللغة الموضوعه فيها

التعليم الديني الوسيط للطبقة المرشحة للوظائف

﴿ الطبقة الثانية ﴾ هم أبناء المسلمين الذين ينتظمون في المدارس السلطانية والشرعية والملكية والعسكرية والطبية وما ينلونها والذي هم الدولة منهم أن يكونوا أمناء لها حفاظاً لما استحفظوا عليه من شؤونها - الجندي منهم حامل لنفسه على ذباب سيفه حتى ينتصر أو يموت ، والمحكم منهم بفصل المحاصمات قابض على ميزان العدالة ناظر الى كفاف النظام برجح مارجح فيه ويسقط ماسقط منه فهو يتحرى الحق ويحكم به أو يموت ، والمولى منهم آراء في ادارة أمور الرعية آخذ لمنظار الحذق والدراية ليستبين ما ينحني من مصالح وما يدق من مسالك أهواؤها ليضبط الاعمال ويلزم الحدود ويوفر وسائل العمران فهو يقيم للدولة ما قامت به مصالح رعاياها الا أن يحول دون ذلك الموت فيموت . فهذه الطبقة بعد أن تشارك الطبقة السابقة

في مبدأ التعليم الديني يزاها بعد ما تقدم كتب أعلى من تلك الفنون نفسها فتوضع لهم في المدارس العالية والاعدادية على الوجه الآتي

أولاً - كتاب يكون مقدمة للعلوم يحنوي على المهم في فن المنطق وأصول النظر وشي من آداب الجدل

ثانياً - كتاب في العقائد يوضع على قواعد البرهان العقلي والدلائل القطعي مع التزام النوسط وايتان الطريق الاقرب ومجانبة الخلاف بين المذاهب الاسلامية أيضاً الا أن يتوسع فيما بيننا وبين النصارى لا يوضح ما تستلزمه عقائدهم بوجه أجلى وأوضح وتفصيل شيء من فوائد العقائد الاسلامية في تقويم المعيشة المدنية قضاء عن غاية السعادة الأخروية

ثالثاً - كتاب يفصل فيه الحلال والحرام وأبواب الفضائل والردائل ببيان أكمل مما في البداية وتوضيح لاسباب الاخلاق وعللها وآثارها على وجه يقنع به العقل وتطمئن به النفس ثم بيان الحكم لبعض الاحكام الدينية وفوائدها في الحياة البشرية مع الاستناد في هذا وفي سابقه الى نصوص الدين وسير السالف الصالح كما تقدم ويكون مدار الكلام في الكنايين على ما يخرم الحمية في القلوب ويرفع النفوس الى مقام لا تطلب فيه الامعالي الأمور

رابعاً - كتاب تاريخ ديني يحنوي على تفصيل سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وسيرة أصحابه والفتوحات الاسلامية العظيمة في القرون المختلفة وما جاء به الخلفاء العثمانيون من ذلك والاتيان على كل هذا من وجه ديني محض فإن ذكرت فيه الوجوه السياسية كانت تابعة للفرض الديني ويبين في هذا الكتاب ما كانت تنبسط اليه سيادة الاسلام من أقطار الارض ويودع فيه من العبارات ما يحرك القلوب الى طلب المفقود فضلاً عن حفظ الموجود ثم تبسط فيه أسباب التقدم الاسلامي بأدق مما كان في السابق

وأبناء هذه الطبقة كالسابقين من اخوانهم يكفهم أن يتعلموا هذه الكتب بالسنة آبائهم وما يذكر من النصوص العربية يفسر لغير العرب كما سبق ولا يلزم لثريتهم الدينية أن يتعلموا اللسان العربي الا ما يفرض عليهم في العبادات وما

يتلونه من ذلك فلا بد من ايقافهم على حقيقة معناه بالتفسير حتى يكون كل قائل عارفاً بمدلول ما ينطق به ليترك الذكر اثره في الفكر كما هو مطلوب الشارع وقد يندرج في هذه الطبقة بعض من يناط بهم أمر التعليم في المدارس والمكاتب الابتدائية اذا وجدت فيهم الاوصاف التي تؤهلهم لذلك من الحمية والعفة ومحبة الدولة والوقوف عند أحكام الشرع الشريف مع التبصر في المنوعات والمطلوبات وتمييز ما هو من الدين عما ليس منه وإن خالف أو هاهم العامة

التعليم الديني العالي لطبقة المعلمين والمرشدين

الطبقة الثالثة هم أبناء المسلمين الذين عقلوا ما تقدم من كتب الطبقتين السابقتين وكشف الامتحان امتيازهم في فهمها وتفهمهم بالصفات المقصودة بوضوحها فانه خبوا لذلك على أن يرقى بهم الدرجة العليا من العلم والعمل حتى يكونوا عزاء الأمة وهداة الملة فيناط بهم التعليم الديني في المدارس العالية والاعدادية بل والابتدائية اذا كثر عددهم وبهم يناط التعليم لاهل طبقتهم فهؤلاء لا يكفي لابلانهم الغاية المطلوبة للدولة فهم دراسة ثلاثة أو أربعة من الكتب الدينية بل يجب أن يزداد لهم على ما تقدم كتب كثيرة يزدادون بدراستها بصيرة في دينهم ويستوسعون بها القدرة في البيان لإفادة غيرهم فمن المعلوم أنه لا يكفي المرشد ما يكفي لامسترشد ولأجل هذا تقتصر في بيان ما يحتاجون اليه على ذكر الفنون دون التعرض لآعيان الكتب الا قليلا فلتكن الفنون على الوجه الآتي ان شاء الله

أولا - فن تفسير القرآن وهو أهم ما يحتاج اليه ليقرأ القرآن تفهما وتطلبا لما أودع الله فيه من الأسرار والحكمة فالقرآن سر نبجاح المسلمين ولا حيلة في تلافي أسرارهم الا إرجاعهم اليه ومالم تفرغ صحبته أعماق قلوبهم ونزول هزته رواسي طباعهم فالأمل مقطوع من هبوعهم من نومهم ولا بد أن يؤخذ القرآن من أقرب وجوهه على ما ترشد اليه أساليب اللغة العربية ليستجاب لدعوته كما استجاب لها رعاة الغنم وساقاة الإبل ممن أنزل القرآن بلغتهم والقرآن قريب لطالبه متى كان عارفاً باللغة العربية ومذاهب العرب في الكلام وتاريخهم وعوائدهم أيام الوحي فعلم ذلك من أجود الوسائل لفهمه فإن احتيج الى وسيلة أخرى فأولها مطالعة كتب التفسير

لذهابة مذهب تطبيق مفاهيم الكتاب على المعروف عند العرب كتفسير الكشاف
وتفسير القمي الذي سابوري ومن أخذطر يقهما

ثانياً - فنون اللغة العربية من نحو وصرف ومعان وبيان وثار يخ جاهلي وما
يتبع ذلك ليتمكن بها من فهم القرآن والحديث

ثالثاً - فن الحديث على شرط أن يؤخذ مفسراً للقرآن ميدينا له مع اطراح
ما يخالف نضه من الأحاديث الضعيفة والاجتهاد لإرجاع الأحاديث الصحيحة
اليه ان كان ظاهرها يوهم المخالفة

رابعاً - فن الأخلاق والآداب الدينية بتفصيل تام وإحاطة كاملة على نحو
ماسلك الإمام الغزالي في الإحياء مع تطبيق تلك القواعد الأدبية الشرعية على
الاصول المشهورة

خامساً - فن أصول الفقه من وجه ما يمكن من صحة الاستدلال بالنصوص
الشرعية ويوقف على كليات الشريعة ليستأنس بها في فهم الاحكام ونرى أفضل
كتاب يفيد لهذا المقصد كتاب الموافقات للشيخ الشاطبي المطبوع في تونس
سادساً - فن التاريخ القديم والحديث ويدخل في ذلك سيرة النبي صلى الله
عليه وسلم بالتفصيل وسير أصحابه وتاريخ الانقلابات التي عرضت في الممالك
الاسلامية الاولى وتاريخ الدولة العثمانية وما كان منها في انهاض الاسلام من
كبوته التي كباها في القرون الوسطى بعد الحروب الصليبية مع التوفيق في أسباب
ما وصلت اليه الملة في هذه الايام ليتبين أنه لا سبب لذلك الا الجهل بالدين والانحراف
عن أحكامه وانشقاق عصا الامة بالخلاف الذي لا طائل له

سابعاً - فن الاقناع والخطابة وأصول الجدل لغرض التمكن من تقرير المعاني في
الأذهان وتثبيت العقائد في النفوس والزامها الأخذ بمكارم الأخلاق وفضائل
الأعمال والارتفاع بها عن دنايا الصفات وسفاسف الأمور

ثامناً - فن الكلام والنظر في العقائد واختلف المذاهب والبحث في أدلة كل
لا لتحصيل العقيدة ولكن لزيادة البسطة في الفكر والسعة في الرأي ولا بأس بقراءة
بعض الكتب الحكيمية الاسلامية لتكميل الاحاطة بوجوه المسائل العقلية

فهذا جملة ما يلزم انحلية نفوس هذه الطبقة بفضليتي العلم والعمل ولم تتعرض لغير الفقه في العبادات والمعاملات لأنه في العبادات سهل التناول من أفواه الطلبة وفي المعاملات يشترك في طلبه المسلم والذمي والأجنبي إذ يضطر إليه كل ساكن في الممالك العثمانية ليعرف كيف يطالب بحقه أو يدافع عنه أما سائر العلوم من اللغات والرياضيات والطبيعيات والنظامات وكل ما حددته نظارة المعارف العثمانية فهي على رسمها كل مدرسة تتبع قانونها لا يضر شيء منها بالدين بل الدين يقويها كما أنها تقويه

هذه الطبقة الأخيرة ينبغي أن تكون تحت نظر مولانا شيخ الاسلام خاصة وتكون ادارتها تحت عنايته في سلك مخصوص . ويدعى لها بالمدرسين المتبصرين من أي أرض يوجدون بها وينتخب طلبة العلوم لها من أقوى الناس ادراكاً وأذكاراً أخلاقاً ويراعى في الانتخاب كمال الدقة في الامتحان . ثم لا يعطى الطالب منها شهادة ببلوغه الغاية من علومها وتأهله للتدريس الا بعد الامتحان الشديد في العلوم المتقدمة والبحث الكامل عن سيرته في أحواله وأعماله والتحقق من تقدمه في الفضيلتين العلم والعمل

التدريس في جميع تلك الدرجات إنما يقصد منه اشراب القلوب حب الدين وتوقيره وجعله الغاية المطلوبة من كل عمل حتى تكون للملة وجهة واحدة يقصدونها بأعمالهم فتلتم قواها الروحية والمالية لخدمة الدين وتأيد حافظه الاعظم المدافع عن بيضته . حضرة مولانا أمير المؤمنين فتكون الملة ملة مهيبه يخشى بأسها وتخاف بوائق غضبها ويؤول بالدولة الى علو الكلمة في سياستها الخارجية بعدما عادت بركانه على المسلمين في راحتهم الدخلية وبالجملة فالقصد من اصلاح الجداول إنما هو الى إحياء الملة وقد كانت كادت تموت والعياذ بالله

ولهذا يجب أن يكون التدريس في أغلب العلوم المتقدمة خصوصاً في الاخلاق والآداب أشبه شيء بالحطابة ترسل في المعاني الى القلوب لنهزها وتستفزها من مقار الخول والغفلة الى مقامات التنبه والبصيرة ثم يتبع الدرس رعاية لأحوال المعلمين وأعمالهم ومواخذة لهم اذا خالفوا حكماً من أحكام ما نعلموه ، أو قصرُوا

في عمل من لوازم ما اعتقدوه، وتذكيرهم في ذلك بوثر في قلوبهم وبحرك الساكن من خواطرم ومن ثمة يجب أن يكون القائمون بالتعليم على أكمل الصفات العقلية وأفضل الاعمال النفسية يراعى فيهم ذلك بقدر الامكان

وإن ثقتنا بوعد الله في قوله (ان ننصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) وقوله (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) وقوله (ان الله مع الذين اتقوا) (ليطهره على الدين كله ولو كره الكافرون) واعتبارنا بقوله (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) وخبرتنا بأحوال الامم الاوربية والاسباب التي وصلت بهم الى ما نراهم عليه في القوة والدراية كل ذلك يوجب لنا اليقين القطعي بأن اصلاح التعليم الديني على الوجه المتقدم يكون نشأة حياة جديدة تسري في جميع أرواح المسلمين العثمانيين بل هو الذي سيفضي في أسرع وقت الى توحيد كلمة الأسلام وجمع أطرافه تحت كنف الدولة العلية العثمانية رغماً عن أنف كل مخاصم ومنه رأي هؤلاء العاجزين ان لا حافظ للدولة ولا واثق للملّة سواه وأن جميع ما صرف في سبيله من المتاعب والنفقات فهو أعود بالفائدة مما يصرف لأي عمل سياسي خارجي أو داخلي فانه لا سياسة الا بالقوة ولا قوة الا بالنجدة ولا نجدة الا بالوحدة ولا وحدة الا بالطاعة ولا حقيقة للطاعة الا بالعتيدة الحسنة ولا عتيدة الا بحياة الدين ولا حياة للدين الا بالتعليم حتى يجري على أحكام التجربة وليس ذلك الا ما عرضناه وان جمهور المسلمين ممن يعرف أفكارهم في الاقطار العثمانية بل وفي غيرها لا يرون دواء لدوائهم الا رجوعهم لأصول دينهم في أخلاقهم وأعمالهم وان يكونوا يجهلون الوسائل الى ذلك فالحمد لله الذي وفق الدولة حرسها الله لتقريب مرغوبهم وتحقيق أمانيتهم هذا ما نرفعه الى مقام شيخ الاسلام فان صادف قبولا فذلك مانوئل ويوئل المسلمون وان كانت الأخرى فقد أدينا ما حضر لنا على حسب عجزنا ونسأل الله ان يوفق مولانا أمير المؤمنين وأركان دولته الى تقرير ما هو أعلى من أفكارنا وأنجح منها في اصلاحنا وإننا في جميع الاحوال نوالي الدعوات الصالحات بنصر مولانا الخليفة الاعظم وتأيدته وبقائه ظل الله ورحمة لعبيده آمين

٥- كلام في الدعاة والمرشدين

وبقي في موضوع الإصلاح الديني كلام هو كالتسمة له فتقدم عرضه وهو أن المكاتب والمدارس المنشأة في الممالك العثمانية ان لم تكن قليلة بالنسبة للرعايا العثمانيين فالداخل اليها قليل بالنسبة الى عدد الأهالي فان الجمهور الأعظم من سكان القرى والاعراب المتقلين في أكناف المملكة وأشباههم لا يرون ضرورة لتعليم أولادهم ولا يقدرّون التربية الحسنة حتى قدرها فإصلاح جداول التعليم في المدارس لا نصيبهم فائدته بل يحرمون منها كما يحرم الكبار من العامة الذين جاوزوا سن التعليم وهؤلاء وأولئك من جسم الدولة ولهم وظائف من الأعمال يطالبون بأدائها والحال فيهم من الجهل ما وصفنا والمضرة اللاحقة بالدولة من جهلهم هي كما ينال من الواجب الالتفات اليهم بإصلاح أرواحهم لتستفيد الدولة منهم فائدتها من سواهم

وذلك لا يكون الا بترتيب دعوة تذهبهم الى الواجب عليهم من تعليم أبنائهم وتحملهم على السعي في تربيتهم وتهذيبهم ثم نخدمهم عن أطباعهم وتلين من قسوة قلوبهم ثم أمهم لورغبوا في التعليم وكففت الدولة بإنشاء مكاتب لتربية أبنائهم والافتاق عليها لزادت عليها النفقات مع كثرة ما يلزمها من المصاريف في إدارة شؤون المملكة فلا بد أن يكون من وظائف الدعاة تحريض الموسرين والأغنياء أن يبذلوا من فضلات أموالهم ما ينفق على إنشاء المكاتب وعمل التعليم فيها ويؤلفوا لذلك لجانا وجماعات في كل بلد وبقعة لتدبيرة والقيام عليه تحت مراقبة من يقوم بالدعوة فيهم ثم يكون من وظائف الدعاة إلقاء الوعظ العام في المساجد والمجامع ليذكروا الناس ما نسوا من دينهم ويعرفوهم ما جهلوا منه ويشربوا قلوبهم حب الدولة ويقرروا في نفوسهم بلطف البيان أن أمير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين أولى بهم من أنفسهم وعلى ذلك يجب أن يكون لأهل الدين دعاة مرشدون ينبشون بين العامة ليقفوا على أمور دينهم ويبادروهم بالدواء قبل استفحال الداء وهؤلاء المرشدون يجب أن يكونوا على الأوصاف التي شرطناها في أهل الطبقة الثالثة علما وعملا وبالجملة فلا بد أن يكونوا من أطول الناس باعافى الفنون الأدبية الشرعية وأوسعهم علما بعلم الأخلاق وأمراض النفوس وأقدرهم على

الناس منافذ القلوب للدخول اليها بما يصلحها ثم يكونوا اقوم الناس سيرة لا يخالف
عمالهم قوتهم فيكونون مثالا للناس يحتذونه وقدوة لهم يتبعونها ثم لا بد أن يكون
في كل قوم بلغتهم بل يجب أن يكونوا ممتازين بفصاحة اللسان وجودة المنطق بين
القوم الذين يرشدونهم ليقبلوا عليهم بالاسماع

ومن هذا نلزم المبادرة الى اصلاح الخطبة في مساجد الجمعة وتوليبتها قوما
يحسنونها ويدرجون فيها ما يمس احوال العامة في تصرفاتهم المشهودة ويبينون لهم
مضار الفساد ويهدونهم الى سبل الرشاد كما هو مقصود الشارع من فرض الخطبة
في الجمعة وهذا باب عظيم من الاصلاح اذا وجهت العناية اليه رجونا منه النفع
الكثير والخير الغزير .

فإن سأل سائل أين الكتب التي توضع للطبقة الأولى والثانية من المتعلمين ؟
وأين الرجال الذين يصلحون للتعليم والتربية وأين الذين يقومون بتربية الطبقة الثالثة
وتهذيبها ؟ وأين الذين يمكن للدولة أن تعتمد عليهم في ارشاد العامة وتبشيم دعاة ؟
ثم من أين توجد مصاريف هذه الأعمال ثم كيف شرطت في أهل الطبقة الثالثة
أن يحصلوا تلك العلوم مع الاطفال فيها والوصول الى حقايقها وذلك يستدعي زمناً طويلاً
فالجواب: أما وضع الكتب للطبقتين فسهل جداً لو كلف أحدنا بوضعها
لتيسر له ذلك بمعونة الله عز وجل في أقرب وقت يمكن متى صدر الأمر بذلك
تحت نظر مولانا شيخ الاسلام . وأما الرجال الذين يعلمون في الطبقتين
الأوليين وفي الثالثة أيضاً والذين يليقون لوظيفة الارشاد فهم أن تعسر وجودهم
في بلد واحد أو مدينة واحدة فالبحث عنهم في أطراف بلاد المسلمين يهدي
الى الكفاية منهم لبداية المشروع متى صدقت النية وخلصت الوجهة لله وللحق
في البحث والاختيار وأمثال أولئك الرجال أهل الدين والاستقامة قلما يقفون
بأبواب الأمراء أو يتطلبون المناصب الا اذا رأوا في ذلك مصلحة لدينهم فوولاء
لا يعرفون الابد التفتيش عليهم ثم اذا حسنت البداية وتبها الاجتهاد مع
الاخلاص في العمل وصل الامر بتوفيق الله الى الكمال المطلوب
وأما طول الزمان في التعليم على أهل الطبقة الثالثة فقد علمنا أن الروساء

الروحانيين من الطائفة النصرانية يقيمون في تعلم لاهوتهم خاصة خمس عشرة سنة بل وعشرين زيادة على الزمن الذي صرفوه في سائر العلوم ومن المقرر عندئذ أن ما يشتغلون به هو الباطل فليس من المنكر ولا الغريب أن يطول على طلاب الحق زمن البحث للاحاطة بأطرافه حتى يتمكنوا من نصره وتأييده

وأما المصائب فإنه متى وجد ولو قليل من الرجال العارفين الصادقين (وهم موجودون في زوايا الخفاء يظهرهم البحث الصحيح والطلب الدقيق) وقاموا في الناس بالنصيحة من قبل الدولة وظهر من حسن تصرفهم واستقامتهم ما أكد ثقة الناس بهم فلا تقصر أيديهم عن تخلص الأموال الوفيرة من أيدي المترفين من أهالي المملكة العثمانية لتصرف في هذا السبيل وأقل تجربة تحقق هذا الذي نقوله متى فوض الأمر لأهله فإننا لم نأت بشيء من الكلام في هذا الباب إلا عن خبرة بأحوال اخواننا المسلمين وطول ممارسة لأخلاقهم والصادقون في خدمة الدين لا يدركهم اليأس من إصلاحه فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون . هذا مجمل ما حضر لخواطر العاجزين وفي التفاصيل ما يطول به القول أضعافاً مضاعفة فإن دعينا إليه لم نتأخر عن بثه والله الهادي إلى سواء السبيل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، وصلى الله على سيدنا محمد سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين
جمادى الثانية سنة ١٣٠٤

يقول جامع الكتاب : هذه نصيحة الرجل الذي كان يشي به أهل الفساد في مصر للسلطان بأنه يبغض الدولة فليأتنا أحد يمثل نصحه للدولة في هذه اللائحة وفي اللائحة التالية لها .

اللائحة الثانية

في اصلاح القطر السوري قدمها الى دولة والي بيروت بعد تقديم
اللائحة السابقة الى شيخ الاسلام وهي

ارفع الى مقام دولتكم السامي ان للدولة العلية أدام الله سلطانها وعزز مكانها
حقوقا ثابتة على ذم المسلمين تنقضاها العقيدة بعد ان قضت بها طبيعة الحياة
الملية ولا هوادة بين الله وبين أحد من خلقه في إغفال حق من تلك الحقوق
وأذناها صرف الفكر الى النظر فيما يعزز جانب تلك الدولة ويقوي أركانها وأقصدها
بذل ما استطاع من السعي لدفع ما لا يلتم مع مصلحتها واعلاها الجود بالنفس
واستقبال هول الموت في ذلك السبيل الاقوم

وإني على ضعفي - والحمد لله - مسلم العقيدة عثمانى المشرب وإن كنت
عربي اللسان لأجد في فرائض الله بعد الايمان بشرعه والعمل على أصوله فرضا
أعظم من احترام مقام الخلافة والاسم ساك بعصمته والخضوع لجلالته وشحذ
الهمة لنصرته بالفكر والقول والعمل ما استطعت الى ذلك سبيلا وعندى ان لم أقم
على هذه الطريق فلا اعتداد عند الله بإيماني فإنما الخلافة حفاظ الاسلام ودعامة
الايمان فخاذلها محادّ لله ورسوله ومن حادّ الله ورسوله فأولئك هم الظالمون
فهذا الذي أزعج همي للفكر في أحوال هذه البلاد مدة إقامتي بها غريبا عن
أهلها مفكرا في مجاري أعمالهم وما أخذ مشاربهم وضروب مذاهبهم من وجهه
ما يتعلق بالدولة رعاها الله وهو الذي بعثني على أن أعرض ما ألمت به من ذلك
على مقام دولتكم بعد الثقة بأنكم من أغزر رجال الدولة علما وأرجحهم حلما وأقومهم
سيرة وأشدهم حرصا على تعزيز عرش الخلافة وأصدقهم إخلاصا في خدمة أمير
المؤمنين أعز الله نصره وأرفع الى عليّ نظركم ما لو ألقى بين يدي سواكم لحشيت
إغفاله وتوجست إهماله ولو نال الحظ من جليل رأيكم فيه لكساه قبولكم حلة
الفخار وأكسبته لحظات التفاتكم العالي مسحة الحق والنصفة فان كان مارجوت
فذلك فضل الله وكأل سجاياكم الطاهرة وعلو رأيكم وإن كانت الأخرى فمأهو

الا الفرض أقضيه مع الاعتراف بالعجز وقصور الفكر وكلال النظر هذه البلاد من أجدر بلاد الدولة العلية بالرعاية وأولاها بالاهتمام وموقعها من سائر البلاد العثمانية لا يخفى على نظر دولتكم وقد توهم بعض من تولوها من خدمة الدولة ان في نفوس أهاليها ميلا للاستقلال وطموحا للانفصاخ عن دوحه الخلافة نعوذ بالله فهذا وهم لا أساس له ولا يمس جانب الحقيقة فنفس السكان على اختلاف طبقاتهم لا ترى من أجل أحوالها ما يؤهلها لأقل شأن بل هذه الغاية وهم أطوع للسلطة الحاكمة عليهم من ظلمهم ولا هم لهم الا في استرضاء العاميين عليها بأية وسيلة كانت ولو فرض أن خيالاً بالياً مثل هذا لاح بذهن أحد مما له صلة بالاجانب منهم فليس بخارج عن حد الاماني المستحيلة وليس في البلاد ولا فيما يجاورها من مجتمع له الكرامة أو نعقد على التسليم له العزائم نعم نشأ هذا الوهم من أفاظ صدرت من بعد الطغام السذج الذين لا مقام لهم بين العامة ولا الخاصة على عهد بعض الولاة لتسامحه فيها وعدم ميلانه بها وهي قد فأت لا يمكن للقصد منها وطائشات كالم لا شمة للرأي فيها وهي بما صدر عن الاطفال أشبه منها بما يكون عن الرجال ولهذا لم يكن أثرها في أنفس العامة فوق وصول أفاظها الى أجمعهم ثم ترد على قائلها ويحجى بها التراب في وجوههم ولكن مما يوجب الاسف أن بعض الظانين بالرعية هذا الظن من عمال الدولة قد عولوا عليه وجاؤا بما عاد على المسلمين بالضرر في تربيتهم وأخذ أفكارهم وأفاد غيرهم في الاستعلاء عليهم كما جرى من بعض أولئك العمال في إلقاء الجمعيات الخيرية الاسلامية على قيام أمثالها في سائر الطوائف

على انه يوجد أمر آخر ان لم يكن أعظم ضررا من هذا الوهم على فرض ثبوته فليس بأقل غائلة منه وذلك أن سكان هذه البلاد ينقسمون أولا الى قسمين الاول سكان جبل لبنان والثاني سكان ولايتي بيروت وسورية

— حالة أهالي جبل لبنان —

أما سكان جبل لبنان فهم طوائف مختلفة أكثرها عددا وأقواها عدة طائفة الموارنة من النصارى ويلبها طائفة الدرروز ويوجد نزر يسير من أهل السنة وعدد

قليل من الشيعة وعائلات من سائر الطوائف المسيحية . فالموارنة يعتقدون أنفسهم فرنساويين وهو اهمهم للدولة الفرنسية وصنغاهم معها لاعتقادهم أنها الحامية لهم والواقية لحقوقهم وقوي الاعتقاد فيهم من نحو ثلاثين سنة بعد حوادث لبنان والشام المشهورة وامتياز الجبل والحكومة الفرنسية لآتني في تمكين هذه العقيدة ببناءيد الجمعيات الفرنسية ومساعدتها على انشاء المدارس والمكاتب في جميع أنحاء الجبل وتلك الجمعيات انما وضعت مدارسها على أساس التربية الفرنسية واشراب المعلمين فيها مذهب الميل الى فرنسا واخراجهم بما أمكن من الوسائل عن عوائد بلادهم وابعادهم عن معرفة حقوق أوطانهم حتي لقد يخرج التلميذ من المدرسة وكأنه أتى من بلاد فرنسا لا يعلم من أحوال وطنه ودولته الا ما يعله بعض السياحين وطراق البلاد من الأجانب ثم بعد استتمام دروسهم لا يرى النبيل منهم مطلباً أشرف من نيل وظيفة دانية أو عالية في احدى دوائر الاجانب إما ترجمانا لقنصل أو كاتباً في شركة أو ماشا كل ذلك وروساء هذه الطائفة لا مفزع لهم يلجؤون اليه الا قنصل الدولة الفرنسية وفي كل عام تبذل حكومة فرنسا مبالغ وافرة من الدنانير لا بلاغ هذا الفساد حده

والدروز كانوا قبل ١٨٦٠ من أقوى أنصار الدولة وأشد الطوائف تعلقاً بها ولهم صفات في الشجاعة والثبات تخولهم مقاماً يزيد في الرفعة على مقام الموارنة في الجبل ولكن بدأ فيهم الضعف بعد امتياز لبنان عند ما صار النظام قاضياً بأن متصرفه يكون كاثوليكياً وأغلب رجال حكومته من المسيحيين وأصبحت قوة البأس لا توصلهم الى المناصب كما كانت في سابق العهد واضطروا لموالاته أهل السلطة ليحفظوا بعض ما بقي لهم أو ينالوا شيئاً مما يخولهم النظام نيله فأنحطت بذلك أحوالهم وقد كانوا ولا يزالون فثنين جنبلاطية ويزبكية للجنبلاطهون استمالتهم حكومة انكلترا وأخص علاقتهم مع قنصل الانكليز واليزبكيون وهم أقرب الفثنين الى الدولة مالوا الى المشرب الفرنسي وكرعوا منه حتى عموا غير أن الحكومة الانكليزية لم تأل جهداً في استمالتهم أيضاً بواسطة المدارس والمكاتب التي ينشئها المرسلون من البروتستانت لتربية أبناء الدروز أولاً وبالذات وتربية

غيرهم ثانياً وبالتبع

والدروز قوم خلو من العلوم بالمرّة سدّج كأنهم في بدايات البداوة ولكنهم أذكاء بمجودة الفطرة ولا يخشى على كبارهم أن يخلعوا مذهبهم الى مذهب آخر وإنما يخاف على أبنائهم من ذلك وعلى كبارهم من الانقياد السياسي الى دولة الانكليز أما المسلمون السنيون والشيعة وغيرهم فلا نظر اليهم وإنما هوامهم هوى جيرانهم فالخاطون للموارنة طوع لهم والخاطون للدروز تبع لهم وقلما يعرفون شيئاً من شؤون دينهم فلبنان يتنازع النفوذ فيه دولنا فرنسا وانكلترا وليس بخاف ما تأتي به هذه المسابقة السياسية بعد ما ظهرت آثار مثلها في بلاد آخر والدولة أعزها الله مع ان البلاد بلادها ليس لها من بروج سياستها ويؤيد كلمتها وأمرها يتبع ميل المتصرف ان صدق في خدمتها كان لها والا صار الى غيرها والمتصرف شخص يعزل ويولى وأهل البلاد هم القوة الراسخة وبهم تؤزر السلطة فيهم

ولكن كل هذه المساعي الأجنبية على ما يحفها من عناية المتدربين بها تخشى عواقبها وترعد بوائقها اذا جاء المستقبل على أثر الماضي لا يعارض فيه السعي بمثله ولا تقطع الطريق على السالكين فيها أما اذا توجهت من الدولة لمحة نظر الى استقباء قلوب رعاياها اللبنانيين لها وتطهيرها من تلك الأغيان الطارئة عليها فما أيسر أن يتم لها قصدها وتذهب تلك المساعي هباء منثورا ولا سبيل الى ذلك الا بالترية ومدافعة الأجنبي بمثل سلاحهم فلا بد من النظر في وسيلة لترية اللبنانيين على المشرب العماني ولن دعيت الى تفصيلها بذلت ما في الوسع للفكر فيها

حالة أهالي ولايتي بيروت وسورية

أما ولايتا بيروت وسورية ففيهما من سكان الأعراب المتبدون وفيهما القريون وأهل الحضر أما القريون وسكان المدن فمنهم المسلمون أهل السنة وهم الجمهور الأغلب ومنهم الدروز في حوران ومنهم الشيعة سكان الشقيف وبلاد بشارة في نواحي صيدا وصور ومنهم النصيرية في لواء اللاذقية ومنهم الطوائف المسيحية من موارنة وروم كاثوليك ملكيين وروم ارثوذكس وبروتستانت

الطوائف النصرانية على اختلافها تذهب مذهبها واحداً في تربية أبنائها

وتهمتهم للأعمال وهو مذهب التقليد الأفرنحي غير أن منهم من يروقه المشرب الفرنسي وهو لاء هم الموارنة والروم المملكون يدفعون بأولادهم في المدارس الأجنبية الفرنسية مثل مكاتب الجزويت وغيرهم لينشأوا كما ينشأ الموارنة في جبل لبنان وإذا أسسوا مكاتباً لأنفسهم كما فعل الموارنة في تأسيس مدرسة الحكمة ببيروت والمملكون في المدرسة البطركية بها ومنشآت أخرى في أطراف البلاد فلا يضعونها الا على قواعد فرنسوية واللسان الأول فيها الفرنسي والهوى والميل فرنساوي ومنتهى أمرهم في التحصيل على ما يبتغون في الموارنة ودروس تلك المدارس التي يدعونها وطنية إنما تقر في كتب من التاريخ وغيره من مؤلفات الأفرنج مما يمتنع دخوله في البلاد العثمانية لاحتوائه على الطعن في الدين والدولة وهكذا يعلمون أبناء البلاد الى أن يتنسبوا الى غير أبيهم الحقيقي وأجل شيء يفتخر به الناشئون في تلك المدارس أن يكون لأحد من ذوق فرنساوي ومذهب من مذاهب الفرنسيين السياسية وما من مكتب من هذه المكاتب الا وفرنسا مساعدة مادية وأدبية له

ومنهم البروتستانت ومشرهم انكليزي ومنهم من لا مشرب له في التربية وهم الروم الارثوذكس ومدارسهم الخاصة بهم قلما تكون لها غاية سياسية ولكنهم نارة يبعثون بأبنائهم الى مدارس الجزويت وأمثالهم فينشئون فرنساويين ونارة الى مدارس أخرى منهم ينشئون على المشرب الذي نموا عليه وهذه الطائفة أقرب الطوائف المسيحية الى الدولة غير أنها لم تشأ أن تكون محرومة من النسبة الى الاجانب حتى لا يكون ذلك عاراً عليها في أعين اخواتها من بقية الطوائف فاخترت ما وافقها في المذهب الديني فانسبت الى دولة الروس غير ان الروس لم يوجد لهم الى الآن أعوان للتربية على مشربهم السياسي (١)

ولو نظم بين هذه المدارس وهذه الطوائف مكتب عثمانى على قواعد توافق حال أهل البلاد وقام بإدارته رجال متبحرون حذاق في إصابة الاغراض والرمي

(١) بعد هذه الكتابة بسنين قليلة أنشأت روسيا منشآت المدارس في

اليها لبرت تر بيته جميع تلك الندابير واجتثت أصول تلك المفاسد وانما يلزم لذلك سعي خارج المكتب لجلب التلامذة اليه كما يفعل أرباب تلك المكاتب . واذا دعيت لبيان طريقة ذلك السعي استعنت بالله على بيانه

(النصيرية) قوم أجلاف أشداء يعتقدون بألوهية علي بن أبي طالب فذهبهم الديني غير مذهب الدولة وصغار المأمورين منهم ربما كانت منهم معاملات تخالف الواجب عليهم في صداقة الدولة ولهذا كثيرا ما انتقض أولئك القوم على الحكام وشقوا عصا الطاعة وكان ذلك منهم بسعي وكلاء الاجانب وبث الوسوس من المرسلين البروتستانت بما أنشأوا بينهم من المكاتب حتى انه من نحو ثلاثين سنة اشتد أمرهم في الشقاق وكان راشد باشا واليا على سورية فذهب بنفسه لإخضاعهم وبعد البحث رأى أن أسباب العصيان كانت إغراء أولئك الشياطين فالتمس من الباب العالي تقرير ستمين ألف قرش لتصرف على إنشاء مكاتب عثمانية في قرى هذه الطائفة وصدر الامر بذلك الا انه لم يجر العمل به حتى الآن ويوجد أسماء مكاتب يأخذ مأموروهامعاشاتهم من خزينة الدولة وهم في اللاذقية ولا مكاتب ولا تعليم . وما أقرب هؤلاء من الدولة لو التفت الى تربيتهم في مكاتب عثمانية منتظمة بل لو اعنتي بإخراجهم من مذهبهم الى الاسلام الصحيح لم يصعب ذلك اذا أحكم أساس التربية فيهم وبنى على قواعد الحكمة والدربة وقام بالعمل عليه أرباب المكنة والقدرة العقلية والاستقامة النفسية

(الشيعة) لا يقرون بالخلافة الا للقائم المنتظر ولهذا وجد الاجانب سبيلا للدخول على قلوبهم لكن بغير تلك الطرق التي دخلوا بها على غيرهم فان لهذه الطائفة حمية على مذهبها الديني تفوق حمية جميع المذاهب يعتقدون بنجاسة اليهود والنصارى وغيرهم من مخالفني الاسلام ولهذا لا يلقون أولادهم في المكاتب المسيحية ولكن وكلاء الاجانب وشياطينهم يصورون لهم عمال الدولة في صورة مشوهة وربما كان من بعض المأمورين ما يصدق مزاعم أولئك المفسدين وكثيراً ما يخيلون لهم الاحتماء بدولة أخرى وليس من البعيد أن تميل أفكارهم الى خلاف ما يرغبه الصادقون في محبة الدولة ولا تؤمن غائلة ذلك واستعمال الشدة في مراقبتهم لا

يزيدهم الا نفوراً ولكن ما أسهل سدّ تلك المنافذ على أولئك الاجانب بإنشاء معهد للتربية العثمانية بل ما أسهل نذليل شدتهم المذهبية واسنصافهم للدولة بإقامة مهندسين من أهل الافكار الصائبة الذين يسطون على النفوس بجمال أفكارهم وصالح أخلاقهم لا بشكاسة طباعهم وصعوبة شكائهم لا ريب أنهم بعد ذلك يفضلون جانب الدولة على جانب غيرها فان أهملوا كانت العاقبة ضد المأمول

(الدروز في حوران) لم يخف حالهم على رجال الدولة غير انه زاد في سوءها عناية الانكليز برسالة رجال من رؤساء البروتستانت لتعليمهم وبث الدسائس فيهم حتى انهم عينوا أسقفاً في القدس بعاش ألف وخمسمائة ليرا في كل شهر لتدبير التربية في حوران خاصة . ولا طريق لاصلاحهم وراحة الدولة من ناحيتهم الا ما يسلكه غيرنا لمثل هذه الغاية وهو التربية والتعليم مع اختيار الصالحين للقيام بها

(المسلمون من أهل السنة) هم عماد الدولة وركنها الشديد وهم قومها الحقيقيون وفيهم عصبها الثابتة . ومن البين ان قوائم الدولة العلية ثبتها الله مستقرة علي أديم الدين لأنها دولة خلافة فعاملها في القلوب ساطان الدين فكلمها قومي الدين في الافئدة ظهرت آثاره في الاعمال فاستامت أهله لحماية مسند الخلافة وكما ضعف الدين ضعف أثره بحكم الضرورة ولكل وسيلة خلف منها أماً الدين فلا عوض عنه للدولة العلية أيدها الله

المسلمون السنيون يتفقون مع الدولة في المذهب الديني تمام الاتفاق وهي علاقة من أمتز العلاقات في طبيعتها ولكن عرض عليها ما يوجب الاتفات ويستدعي دقة النظر وهو غشيان الجهل بحقائق الدين بعدما أهمل التعليم الاسلامي الصحيح وبيان ذلك مفصل بعض التفصيل في اللائحة المعروضة لدولة شيخ الاسلام وقد كان للمسلمين من نحو ثلاثين سنة حال يحمد في نظر المسلم فقد تسابقوا ركبانا ورجالا متطوعين الى الجهاد المقدس في حرب سباستبول المشهورة ثم كانت حالهم أيام الحرب الاخيرة من التقاعد مالا يسر وفي هذه الأيام الأخيرة يبذل الرجل منهم كل ما لديه للفرار من الخدمة العسكرية وان جاءت لاقدار الله حرب ذهبوا اليها كارهين بعد ان كانوا يذهبون راغبين كل هذا والجهاد من فرائض دينهم

يفيض به كذاب الله في أغلب سوره وما كان خمود الحمية في نفوسهم الا ضعف العقيدة بمخالطة الاوربيين وإهمال التعليم المذهبي . وقد قال المستر (جي دبليوتيز) مفتش المكاتب الهندية فيما كتبه الى جر يدة الدالي لتعريف الصادرة في فبراير سنة ١٨٨٨ أثناء كلامه على لزوم تقوية العقائد الدينية في قلوب الرعايا الهنديين « لا بد أن نؤمن بما آمن به أكبر شاه الهندي من أن الدين والملك توأمان فكما أن كل دولة تحمد الافكار الدينية من نفوس رعاياها يسرع اليها العدم ويقضي عليها الزوال بحكمه ويستحيل عليها أن تدوم كذلك كل دولة لاتسند عقائد رعاياها ولا تعينهم على التمسك بها لا يتسنى لها الى النجاح سبيل » اه فهذا انكليزي يطلب من دولته أن تعين المسلمين على التمسك بعقائدهم لتثبت محبتهم فمأجدرنا بالعناية بذلك والملة ملتنا والقوم قومنا

انتبه المسلمون في هذه لسوء حالهم من نيف وعشر سنين وضارعوا سائر الطوائف فشككت منهم جمعيات خيرية كجمعية المقاصد الخيرية لتربية أبناء المسلمين واحياء العقائد الدينية في قلوبهم ووقايتهم من سطوة الاجانب على أفكارهم وجدء أعضاء تلك الجمعيات في رعاية المكاتب الابتدائية التي أنشئت على نفقة أهل الخير فساء ذلك الطوائف المسيحية فأخذ المفسدون منهم في الوسوسة لبعض العمال حتى أقنعوهم بأن لهذه الجمعية مقاصد سياسية وساعد أولئك السعاة جماعة ممن يدعون الاسلام ولا يعرفونه فكانت العاقبة إلغاء هذه الجمعيات وتحويلها الى مجالس رسمية ثم محي أثرها بالمرء والله يشهد ورسوله أن الساعين كاذبون ولم أر شيئاً كان أشد على نفوس المسلمين من إلغاء تلك الجمعيات فخدمت أفكارهم وتقطعت آمالهم ورجعوا الى جاهلية اما لا رغبة لهم في العلم أصلاً أو لهم رغبة فيما يتعلمه المسيحيون من اللغات الاجنبية . وبعض مبادئ علوم لا تفيد في اصلاح النفس شيئاً ولكن تؤثر في افسادها

فالزاعمون انهم من رغبة العلوم يبعثون بأبنائهم الى تلك المكاتب المسيحية فرنساوية أو ألمانية أو انكليزية أو وطنية بالاسم اجنبية بالحقيقة ولا فرق بين صالحهم وطالحهم في ذلك وكل هذه المكاتب دينية أنشئت لغرضين : تحويل

(٤٦ ج ٢ تاريخ الاستاذ الامام)

العقائد الى المسيحية وإمالة المشارب الى الدول المنسوبة اليها فكان من آثار ذلك أن المتعلمين فيها اما أن يخرجوا مسيحيين في الاعتقاد مسلمين بالاسم أو دهرين لا عتيدة لهم . ولو دعيت الى توضيح ما في تلك المدارس من الطرق لافساد قلوب المسلمين لأوضححتها كما هي عندهم

فالمسلمون السنيون هم أحوج رعايا الدولة الى عنايتها حتى لا يذهب أغوان التربية الشيطانية بقلوبهم ولا ينحط بهم الفساد النفسي الى أسفل مما وصلوا اليه وأول ما يلزم لذلك تنظيم مكاتب داخلي يؤكل ويشرب فيه في مدينة بيروت من صنف المكاتب العالية يوضع له قانون وبروجرام دروس يوافق حالة البلاد وأول شرط فيه أن يكون مديره عارفاً باللغة العربية يخاطب أهل البلاد بمثل كلامهم وثاني شروطه أن يكون التعليم باللغة العربية في جميع العلوم حتى يقوى التلامذة في التركية ثم يكون التعليم بالتركية بعد ذلك ولا بد أن يجعل اللسان الفرنسي مما يقصد تعليمه في بادئ الامر حتى يقبل الناس عليه وأن يكون في درجة لا تنقص عن مكاتب الأجنبي في شيء . وثالث شروطه أن يكون أساسه على احياء الدين وحب الدولة ولا بد أن يكون بروجرام فنونه على وضع خاص ورابع شروطه أن يكون مديره من عشاق الدين والدولة وليس ينحصر همه في اخذ راتبه الشهري وأن يكون حكماً في تصرفه وفي حال يجلب ثقة الناس به والله بعد ذلك كفيل بان يدفع اليه جميع الطوائف المسيحية وضامن لنجاح الدولة في مقصدها منه

ثم نشأ مكاتب ابتدائية في أطراف الولاياتين على هذا الاساس لافرق الا بالدنوت والعلو . والتربية في جميع الاحوال لا بد أن تكون على بذل المال والنفس في سبيل الله ووقاية السلطنة كما هو جار في ممالك أوروبا وكما كان عليه أسلافنا وان تكون الغاية منها طبع هذا الخلق في النفس حتى لا يحوله محمول من فقر أو غنى أو ايثار أو حرمان أو ظلم أو عدالة وليس هذا بالعمل الصعب اذا وجهت اليه النية الصالحة واصطفي له رجال من أهله وماهم بالمعدومين ولكنهم ربما يكونون غير معروفين والبحث يظهرهم

وأما أهل البداوة من الاعراب المتنقلة في أطراف البلاد فهم مادة غزيرة من مواد المنافع للدولة ولكن مما يؤسف عليه أنهم كلٌّ عليها ضررهم أكثر من نفعهم ولبعض رجال الاجانب علاقات خبيثة معهم حتى انني رأيت عند بعض رجال الانكليز أيام كنت في لنديرا رسائل من بعض مشايخهم توددا وما ذلك الا من اهمالهم وعدم العناية بتربيتهم واذا دعيت الى وضع لأئحة في تهذيبهم وجعلهم في حالة لا تنقص عن التركان بالنسبة الى روسيا بل تزيد عليها أضعافاً مضاعفة لاستمددت من الله التوفيق في ذلك

وربما يقال ان هذا الامر وما قبله يحتاج الى نفقات لا فضل لها في خزينة الدولة فأجيب أن أهل العمل وذوي البصيرة فيه يمكنهم أن يفيضوا من الاغنياء على الفقراء بالسعي والجد خصوصا اذا أعيدت جمعية مثل جمعية المقاصد ولا تحتاج خزينة الدولة بعد سنين الى أن تصرف شيئاً في هذا السبيل وطريق الصواب واضح لاهله متى ثبتت العزيمة ولا أطيل القول في هذه العجالة فانما الغرض سوق مائتبه اليه الفكر اجمالاً الى ساحة الفضل والكرم والمرجو شمولي بالعمو عن تقصيري والله يطيل عمر مولانا الخليفة الاعظم ويرفع الاسلام في خلافته الى أوج المجد والشرف آمين

اللائحة الثالثة

يظهر انه كتبها لأجل اقتناع ألي الامر في مصر بالعناية بالتربية الدينية بعد عودته من سوريا وعفو الامير عنه وقد وجدت مسودتها بخطه بالعنوان الذي تراها مفتوحة به وجامع الكتاب وضع سائر العنوانات قال رحمه الله تعالى

﴿ هذا مجمل أفكار فيما يجب الالتفات اليه من نظام التربية بمصر ﴾
« ويمكن تفصيله عند ارادة العمل به »

اذا كان الناس في حاجة الى صلاح الحاكم فما حاجة الحاكم الى صلاحهم بأخف من حاجتهم الى صلاحه فان السلطة سلطتان جيدة وريثة فالجيدة ما كانت على المحكومين للمحكومين والريثة ما أخذها المحكومون لغاية الحاكم وقضاء غرضه الثابت اما الأولى فان منزلتها من المحكومين منزلة الروح من الجسد لها التدبير وعلى أعضاء الجسد وظائف العمل وغاية التدبير والعمل حفظ حياة الكائن الحي وهو مجموع الروح والبدن فكل يستفيد من الآخر ما به بقاءه ونماؤه . وكما تحتاج الآلات البدنية الى سلامة الروح من العلل النفسية كالجنون والخمود والجهل ونحو ذلك تحتاج الروح الى سلامة الآلات البدنية من الآفات التي تعطلها عن الحركة كالشلل والحذر والتشنج وما شابه ذلك وماذا يمكن للروح السليمة أن تأتيه في بدن نعطلت آلاته وفسدت أعضاؤه

وأما السلطة الثانية فمنزلتها منهم منزلة الصانع من آله فصاحب السلطة صانع والمحكوم آله في الصنع فهو كاتب ومثلا والمحكومون قلمه أو هو حارث والمحكوم محراثه وكما أن الآلة لا تعمل الا بالعامل ولا يظهر أثرها الا في يده كذلك العامل لا يمكن له العمل الا بآله . وكما يجب أن تكون اليد العاملة قادرة على ادارة الآلة يجب أن تكون الآلة وأجزاؤها صالحة للعمل فان فقد أحد الأمرين امتنع العمل أو نقصت ثمرته — فكل من السلطتين في حاجة إلى صلاح المحكوم فكما يطلب المحكوم في كل حال أن يكون حاكمه صالحا لأن يحكمه كذلك يطلب

صاحب السلطة في أيّ منزلة كان أن يكون المحكوم بحيث ينقاد الى كل ما يحكم به وعلى الصفات التي تنساق به الى الغاية التي يذهب اليها حاكمه

اما مارسخ في خيال بعض الشرقيين ومن اغتر بحالمهم ممن خالطهم من الاوربيين من ان صاحب السلطة قوته علوية والمحكوم طبيعته سفلية ولا نسبة بينهما الا أن الأول قاهر والثاني مهور وأن الثاني في حاجة الى صلاح الأول ليكون به رؤفا رحيا وأن الأول لا حاجة به الى صلاح الثاني لأنه مهور له على كل حال فذلك منشأ الغرور والجهل بطبيعة الجمعيات الإنسانية ونظامها الفطري . ولذلك نرى أرباب هذا الاعتقاد من ذوي السلطة لا تدوم لهم دولة ولا يثبت لهم سلطان لتخطبهم في سيرهم بجهلهم منزلتهم من محكوميههم وتصرفهم فيهم على خلاف ما يجب أن يصرفهم فيه وتعافلهم عن استطلاع طباعهم بما يؤهلهم للعمل على ما يريدون منهم

يقال ان الرعية في كثير من البلاد آلة للحاكم في بلوغ مقاصده في دولته . فقد يكون ذلك حقاً لكنها آلة ذات شعور وارادة وماله شعور وارادة فجميع أعماله انما تكون عن شعوره وارادته فصلاح الأعمال بصلاح الشعور والارادة وتفسد بفسادهما فلا يمكن أن تكون تلك الآلة صالحة للعمل الا اذا كان الشعور والارادة صالحين له، وصلاحهما بأن يكون الشعور وجدانا للفرق بين النافع والضار وبين النظام والاختلال ليكون ما يقرره الحاكم من القوانين وأصول الادارة معروفا عند أغلب الرعية وأن تكون الارادة صادرة عن ذلك الوجدان حتى يكون النظام منها في مكانة الاحترام . فاذا كان الشعور مختلفا والارادة فاسدة كانت الاحلام طائشة والاهواء متحركة ومداخل السوء كثيرة فويل لذي السلطة من تلك الرعية وبعيد عليه أن يستقر لسلطانه فيها قرار وكل ما يبخيله اصلاحاً لهم أوله فيودعه في أصول حكومته فهو كالنقش على الماء أو الرسم في الهواء

طبيعة مصر والمصريين

أرض مصر ضيقة عن حاجة أهلها فمساحة الصالح منها للسكنى لا تزيد عن حاجة الساكنين زيادة بينة وهي محاطة من أطرافها بالصحاري الجردية والمياه

المالحة وليس فيها من الغابات ما يعوذ به الوحشي من الجبوان فضلا عن الانسان ولذلك نرى كثيرا من أنواع الوحوش التي كنا نراها كثيرة في البلاد من نحو أربعين سنة كالضباع والذئاب والخنازير قد كادت تنقرض باصلاح الاراضي الزراعية وانتشار الانسان في أطرافها وتعهدها بالزرع والعمارة وأهل مصر لا يعرفون معنى المهاجرة من دار الى دار ولا يمكن أن يتصوروا ذلك مادام في أرضهم نبات ينبت فاذا أحملت أرضهم فضلوا الموت فيها على المهاجرة منها وتاريخ الماضي وشاهد الحال ينطقان بذلك . ولذلك كان أهل مصر سكان أرضهم من آلاف من السنين وكل قادم اليهم امتزج بهم وغلبت عليه عوائدهم وأطوارهم وانتسب نسبهم فصار مصر يا واحرز جميع خواص المصر بين ونسي أصله وغاب عن أعقابه منشأه . ثم ان طباعهم مرنت على الاحتمال وألفت مقاومة القهر بالصبر فلو أن سيف المتقلب كان أعدى من سيف الممالك وجوره أشد من جور اسماعيل باشمالما أمكنه أن ينقص من عددهم مقدارا يذكر ، ولا أن يزيلهم عن مواقعهم مسافة تعتبر ، ولهذا كان المتغلبون يغنون فيهم وهم باقون

أهل مصر قوم سر يعو التقليد أذكيا الاذهان أقويا الاستعداد للمدنية بأصل الفطرة فما أينس أن تفعل الحوادث فيهم فتنبههم الى الأخذ بما يحفظ عليهم حياتهم في ديارهم من أي الوجوه فلا يبيدون من حاجه فأهل مصر على ذلك هم رعية حاكمهم ولا يمكن لحاكمهم أن يستبدل بهم رعية أخرى في بلادهم فحاكمهم اذا كان رأسا فهم بدنه واذا كان عاملا فهم آلتة فلا بد من استصلاحهم حتى يستقر سلطانه عليهم زمنا مديدا ترمي اليه أظار الدول السامية المقام في المدنية

أهل مصر في موقع عرف كل الناس منزلته من الارض وهو ممر أهل المشرق الى المغرب وأهل المغرب الى المشرق وهو في حلق أوربا تتلاقى فيه سيارة الأمم فقلما توجد بلاد يكثر فيها اختلاط الأمم مثل هذه البلاد الأمم العظيمة الأوربية يحسد بعضها بعضا على التمكن في أرض مصر والفوز بإحراز المنافع السياسية أو المالية فيها فالوساوس والدسائس لاتقطع نفثاتها من

أولئك الأحزاب يبشونها بين المصريين ليوغروا صدورهم على من علت كلمته فيهم .
وأعظم فاعل في نفوسهم (وأغلبهم مسلمون) أن يقال ان صاحب هذه المنفعة ليس من
دينكم وانكم مأمورون ببغضه وانتهاز الفرص لكشف سلطانه متى أمكنت

أهل مصر شديدو الانفعال بما يلقى اليهم كثيرا وانتدكار لما ينطبق على أهواهم
فلكل كلمة من هذا القبيل مكان من نفوسهم ولكن ربما لا يظهر أثر ذلك لاحتجابه
بحجاب العجز أحيانا، غير أن طماع المصريين كالكرة المرنة تتأثر بالضغط فينخفض
بعض سطحها قليلا من الزمن ثم لا يلبث أن يعود إلى حاله فإله يعلم متى يظهر أثر تلك
الانفعالات التي يمكن أن تتأثر بها نفوسهم بما يلقى اليهم

يقال أن أهل مصر ضعفاء ولكن قد أظهر التاريخ انه متى وجد القائد كانوا
أشد على الخصم من أشجع الأمم وأثبتهم قدما في المواطن ولا يعلم متى يوجد
القائدون من أي جنس يكون اذا تركت أهواؤهم بغير تهذيب تجري حيث تجدد
سبيلا للدفاع ثم هم لا يقدرون النظام قدره مها كان بالغا من الصلاح ولا يباليون
به بل يعتقدون ان كل نظام حبر على ورق فلا يستطيع حاكمهم ان يثبت سلطته
عليهم على أمر ممكن بل هم دائما في اتواء عليه بالخلافة متى أمكنت الفرصة الا اذا
أخذوا بتربية صحيحة فهناك تنضبط أحوالهم وينشأ النظام احترامه في قلوبهم ويهتدي
صاحب السلطة الى طرق تصر يفهم

احتقار أمر النظام والتأثر بالسواوس اذا لم يكن مبعثهما الحق ينشأ عند المصريين
من امرين الأول بعد جهورهم عن المعرفة بوجوه المصالح والثاني حرمانهم من
التربية التي تطبع في نفوس أغلبهم الاستقامة والتؤدة والتبصر في العواقب ومرجع
الأمرين الى سوء العقيدة وظن ما ليس بواجب واجبا وظن الواجب غير واجب
فدامت هذه حالهم فمهم رعية غير صالحه فلا يصلحون بدنا لرأس ولا آلة لعامل لا ختم
المدارك وفساد الارادات

أهل مصر لم يأتهم التاريخ القديم بذي سلطة يفهم هذا السر وتنفذ بصيرته
الى هذه الحقيقة فلهذا لم تثبت فيهم دولة لقبيل زما يعتدبه وكل اصلاح نظامي
نشأ فيهم كان كالبناء على الهواء فالسلطة التي تسعى في أن يجعلهم رعية صالحه

تكون قد فتحت في نفوسهم فتحا جديدا وظفرت ببغيتها منهم ظفرا مبينا وأمنت كل غائلة تخشى من دسائس الأعداء ووساوسهم

اهل مصر قوم أذكاء كما قلنا يغلب عليهم لبن الطباع واشتداد القابلية للتأثر لكنهم حفظوا القاعدة الطبيعية وهي ان البذرة لا تنبت في أرض الا اذا كان مزاج البذرة مما يتغذى من عناصر الأرض ويتنفس بهوائها والا ماتت البذرة بدون عيب على طبقة الأرض وجودتها ولا على البذرة وصحتها وإنما أقيت على الباذر أنفس المصر بين أشربت الانقياد الى الدين حتى صار طبعا فيها فكل من طلب اصلاحها من غير طريق الدين فقد بذر بذرا غير صالح للثريية التي أودعه فيها فلا ينبت ويضيع تعبه ويخفق سعيه وأكبر شاهد على ذلك ماشوهد من أثر التريية التي يسمونها أدبية من عهد محمد علي الى اليوم فان المأخوذين بها لم يزدادوا الا فسادا - وان قيل ان لهم شيئا من المعلومات - فإلم تكن معارفهم العامة وآدابهم مبنية على أصول دينهم فلا أثر لها في نفوسهم

لا اتكلم عن اصلاح لدين غير الاسلام في مصر فان غير المسلمين فيها العدد القليل والجمهور الاغلب من المسلمين

الدين الاسلامي الحقيقي ليس عدو الالفة ، ولا حرب المحبة ، ولا يحرم المسلمين من الانتفاع بعمل من يشاركون في المصلحة ، وان اختلف عنهم في الدين ، وفي آدابه كفاية لتعريف الآخذ به بوجوه المصالح ، وارشاده الى مظان الفوائد والبصر بالعواقب ، وتقويمه بفضائل الاخلاق ، وبالجملة فهو أفضل كافل لجعل الرعية صالحه لان تكون بدنا لرأس أوآلة لعامل . وقد أرشدتنا التجربة الى أن كل عارف بحقيقة الدين الاسلامي كان أوسع نظراً في الأمور وأطهر قلبا من التعصب الجاهلي وأقرب الى الألفة مع أبناء الملل المختلفة وأسبق الناس الى ترقية المعاملة بين البشر وإنما يبعد المسلم عن غيره جهله بحقيقة دينه وهذه آيات القرآن شاهدة على ما نقوله اللهم لمن يفهمها كما جاءت ويعرف معناها كما وردت

ان القرآن وهو منبع الدين يقارب بين المسلمين وأهل الكتاب حتى يظن المتأمل فيه أنهم منهم لا يختلفون عنهم الا في بعض أحكام قليلة ولكن عرض على

الدين زوائد أدخلها عليه أعداؤه اللابسون ثياب أحيائه فأفسدوا قلوب أهاليه
ولا قلوب أقرب الى الاصلاح من قلوب أهل مصر

أهل مصر مضى عليهم الزمن الطويل والقرون العديدة ولم يروا من يبا يأخذهم
بدينهم فخرموا خيره ولم يبق عندهم الا ما فيه المضرة لهم ولغيرهم تحت اسم الدين
وليس بدين . على أنه ليس فيهم من ينكر ان القرآن كلام الله وأنه ينبوع الدين
ولكن ليس لهم من معاهد التربية الا جهتان المدارس الأميرية ومدرسة الازهر
الدينية وليس في الجهتين ما يهديهم لما يجعلهم رعية صالحة وهم الآن على غاية
الاستعداد لقبول ما يصالحهم

من يتوجه من ذوي السلطان الى ذلك لا يجد أقل مقاومة من العامة ولا أغلب
الخاصة وفي مصر فرصة لا توجد في غيرها لمن أراد ذلك فان بلادا غير مصر يوقف
فيها مثل هذا الأمر على همة أهل الدين وسلامة أفكارهم ونشاطهم لفتح المدارس
الدينية على الطرق المناسبة لحالة البلاد . أما مصر فلها مدارس أميرية يمكن أن
يسلك فيها أي مسلك يختار للتربية وليس عليها رقيب سوى أهل السلطة السياسية
لا غير فلهم أن يأخذوا من الدين أصوله ويفرسوها في المدارس ويحملوا نفوس
طلاب العلم عليها ولا يتعرضون لما زاد عنها لا بالنفي ولا بالاثبات ويندبون لتدريس ذلك
ذوي قدرة على الاذهان عما قر فيها وتطيرها مما علق بها من الزوائد الضارة ولا
يجدون معارضا لهم من أهل الدين لأنهم لا يهتمون بما يقع تحت نظرهم مباشرة
وما دامت الأصول محفوظة فأنظارهم عن غيرها منصرفه وأكبر دليل على ما نقول
سكوت أهل الدين عن نوع التربية المعروف في المدارس على ما فيه من مباينة
الدين والانتهاى الى خلعه بالمرة

﴿ المدارس الاميرية ﴾

المدارس الاميرية ليس فيها شيء من المعارف الحقيقية ولا التربية الصحيحة .
هذه المدارس أنشأها محمد علي باشا بإشارة بعض الفرنسيين لتعليم بعض اولاد
الأرنؤط والاتراك والمورلية ليكون منهم رجال عندهم إلمام ببعض الفنون المحتاج
اليها في نظام الحكومة التي أسسها وأهم تلك الفنون الهندسة والطب والترجمة اما

غيرها من العلوم فما كان الا وسيلة اليها ثم لم يشترط في العلم بها أن يكون تاما .
أما التربية على أخلاق سليمة فلم تخطر له ولا لمن تولى ادارة هذه المدارس على
بال ثم لما لم يكن في أبناء تلك الأجناس وفاء لمطلبه في الوظائف ادخل في تلك
المدارس بعض المصرين جبرا وما كان يدخل مجبورا الا الذين لا قوة لهم من
الفقراء وكان دخول المدارس أشبه بدخول العسكرية في ثقله على المصرين

ثم جاء خلف محمد على من عباس وسعيد فأهموا النظر في المدارس بالمرّة
حتى جاء اسماعيل فوسع نطاقها وزاد فيها من المعارف ماله دخل في الادارة
والقضاء وله تعلق بتثقيف العقول في ظاهر الامر . غير ان جميع ما أتاه من
ذلك كان صوريا ليقال ان له في حكومته مثل مالا وريا في حكوماتها ولم يكن
القصد منه تربية العقول ولا تهذيب النفوس ولا تحصيل رجال يصلحون لتولي
أعمال الحكومة

وفي زمن اسماعيل باشا كثرت رغبة الناس في المدارس ولكن من الاعيان
الذين يطالبون لا وولادهم مساند في الحكومة يحتاج في الوصول اليها الى بعض الفنون
ومن الفقراء الذين لا يجدون ما يقتات به أبناءهم فيرسلونهم الى المدارس ليستريحوا
من نفقتهم ولم يكن القصد من جميع تلك الاحوال الا أن يتعلم التلميذ ما يؤهله
للقيام بعمل ما من أعمال الحكومة ، أو بعبارة أخرى ليكون في يده شهادة تبيح له
أن يشغل كرسيًا من كراسي أقلام الدواوين . اما تكوينه بالتعليم والتربية
رجلا صالحًا في نفسه يحسن القيام بالعمل الذي يفوض اليه في الحكومة أو في غيره
فذلك لم يخاط عقول المعلمين ولا من ولاهم أمر التعليم فسرى ذلك من السابقين
الى اللاحقين حتى اليوم

ولو كشفنا عن أذهان التلامذة لم نجد فيها غاية تعلمهم سوى أن يعيشوا كما
عاش غيرهم على أي صفات كانوا ولو استفرغنا أذهان المعلمين لم نجد فيها من
المقاصد سوى أنهم يلقون ما يجدونه في الكتب المقررة للتلامذة ويطالبونهم
بمحفظة وفهم عبارته ان كان ليعيدوا يوم الامتحان ثلاثا ما ألقى اليهم حتى تم
مدتهم في المدرسة ولا يسألونهم مرة واحدة عن مجال أفكارهم هل هو في صالح

أوفاسد ، ولا مطامح أنظارهم هل الى نافع أو ضار ، وذلك رسم يؤديه المعلمون ليأخذوا مرتباتهم الشهرية لا غير ولهذا لا يكون تلامذتها في آخر الأمر الا صناعا أو ناطقين ببعض الألسنة ولا ثقة في الأغلب بشيء من عقولهم ولا أخلاقهم الا من كانت له فطرة سليمة وله موهبة طبيعية فأولئك تؤدبهم الأيام وتهذبهم التجارب وعلى مثل ذلك كانت مكاتب الأوقاف ولا تزال . فان استمر السير على الطريقة المعروفة الآن كانت النتيجة دائماً كما بيناه فلا يبول ذلك بالمصر بين الى أن يكونوا رعية صالحة لان تكون بدنا لرأس أو آلة لصانع

○ المدارس الأجنبية ○

وأما المدارس الاجنبية على تنوعها فاختلاف المذاهب بين المعلمين والمتعلمين في الاغلب يضعف أثر تلك المدارس من التربية العمومية فقليل من المصريين من يرغب في تعليم أولاده فيها ومن أرسل بولده اليها دائم نصيحته بعدم الالتفات الى ما يقوله المعلمون فيها حفظاً لاعتقاده ثم ذلك يحدث من الاضطراب في طبيعة الفكر والتززل في الاخلاق ما يكون ضرره أكثر من نفعه . وقد غلط من زعم ان لتلك المدارس الاجنبية أثراً سياسياً أو أدبياً في مصر بل قد أحدثت بعض النفرة في قلوب المسلمين من رؤساء تلك المدارس وأممهم ولذلك تاريخ في البلاد معروف فهي ضارة بالأمة ، مبعدة للمعجة ، رغماً عما يزعمه أربابها ما يخالف ذلك فلا يصح الاكتفاء بها في التربية عن المدارس الاهلية على اختلافها .

﴿ الجامع الأزهر ﴾

الجامع الأزهر مدرسة دينية عامة يأتي اليها الناس إما رغبة في تعليم علوم الدين رجاء ثواب الآخرة واما طمعاً في بعض الامتيازات لطلاب العلم فيه ولا يزال بعضها الى اليوم ولكن مما يؤسف عليه انه لا نظام لها في دروسها ولا يستل فيها التلميذ أيام الطلب عن شيء من أعماله ولا يبالي أستاذه حضر عنده في الدرس أم غاب ، فهم أم لم يفهم ، صلحت أخلاقه أم فسدت . ويمر عليه الزمان الطويل لا يسمع فيه نصيحة من استاذه تعود عليه بالاصلاح في دنياه أو دينه وإنما

يسمع منه ما يعلأ القلب بفضاً لكل من لم يكن على شاكلته في الاعتقاد حتى من بني ملته ويطبق على الذهن غفلته ويستفزه الطيش لتصديق كل ما يسمع اذا كان موافقا لمبدأ التعصب الجاهلي فأغاب الاوقات تمر على أهل الجدم منهم في فهم مباحثات لبعض المتأخرين لا فائدة فيها ولا يتعلمون من الدين الا بعض المسائل الفقهية وطرفا من العقائد على نهج يبعد عن حقيقته أكثر مما يقرب منها . وجل معلوماتهم تلك الزوائد التي عرضت على الدين ويخشى ضررها ولا يرجي نفعها ثم ان المعروفين بالعلماء وهم الذين يتممون دروسهم في هذه المدرسة ويوذن لهم بالتدريس فيها هم قدوة الناس وأئمتهم مع انهم أقرب للتأثر بالأوهام والالتقياد الى الوسواس من العامة وأسرع الى مشابعتها منهم وذلك بما ينشأون عليه من التعليم الرديء والتربية المختلفة التي لا ترجع الى أصل صحيح فبقاؤهم فيهما عليه اليوم مما يؤخر الرعية عن تقدير السلطة الصالحة قدرها .

إصلاح مدرسة الأزهر لا بد ان يكون بالتدريج في تغير نظام الدروس وجعلها في الابتداء تحت قواعد ساذجة قريبة من الحالة الحاضرة فيها بحيث يقرر فيها ان كل من أدرج اسمه في جدول الطلبة يلزم بالحضور في الدروس والاحرم الامتياز وكل استاذ يستل عن طلبته ثم يجعل ما ينالونه من المنافع الطفيفة منوطاً بالفهم لا بالالكتب وتغيير بروغرام الدروس ويزاد عليه أصناف من الالكتب بحيث يدخل فيه تدريس الآداب الدينية المفقود الآن بالكلية و يكلف الاستاذ بتعهد أخلاق تلميذه لتكون منطبقة على تلك الآداب بقدر الامكان ويجعل شيخ الجامع رقيباً على الاسانذة والتلامذة في ذلك ثم يعدل نظام الامتحان النهائي وشروطه وكل ذلك يكون على طرق بسيطة لا تسئلفت الأذهان الى شيء خلاف المصلحة وتفصيلها يكون في لائحة مخصوصة .

ولا بأس ان يجعل نظام هذه المدرسة مرتباً بالمعارف العمومية أو بادارة الأوقاف على قواعد تفصل في اللائحة المخصصة به وقد يظن بعض من لم يتفكر في حالة البلاد ومرتبها الأدبية والدينية ان إصلاح الأزهر لا يمكن لأنه يترتب على مجرد الشروع فيه تشويش أذهان العلماء والعامة على أمرهم فهذا ظن فاسد لا يؤيده

دليل ولم تقض به تجربة الا ما كان من بعض الرؤساء من مدة نحو عشرين سنة عند ما أراد ادخال بعض العلوم الصناعية فيه فقاومه بعض من كان موجوداً من العلماء فيئس من الاصلاح وترك الأمر الى اليوم فقد كان ذلك قبل ان تنقلب الحوادث على مصر ولم يكن بالتدريج اللائق اما الآن فقد تغيرت الأحوال وأصبح الاصلاح فيه أهون منه في جميع المصالح وكل رئيس للنظار يمكنه أن يأتي هذا الاصلاح بمجرد التوجه اليه وما يعجز عنه من ذلك فصاحب هذا الفكر هو الكفيل بتنفيذه اذا فوض ذلك اليه على أن العناية في ذلك لا يطول اذا صلحت المدارس الأميرية فان الناس لا يختارون الأزهر الا لسوء ظنهم بالمدارس أو لاعتقادهم أن الأزهر أحفظ للدين منها فاذا حصل الاصلاح فيها وجدوها أدنى الى المنفعة منه فعند ذلك تنفرد بكونها معاهد التعليم و يصبح الناس كلهم في طريق واحدة

الكتاتيب الأهلية

المدارس الأميرية تتعلق النظر فيها بنظارة المعارف ولا يتم لها احسان النظر من وجه التربية الا بتوجيه العناية أولاً الى الكتاتيب الصغيرة المنتشرة في القرى والمدن فانها هي المغذية للمكانب المنتظمة التابعة للمعارف وللمدارس الاميرية وللأزهر فان كان الغذاء فاسداً كان المزاج المتغذي أشد فساداً . وقد خطر ببال أحد نظار المعارف أن ينظر فيها ولكن من الوجه التعليمي واصلاح الامكنة بحيث تكون أوفق للصحة لامن الوجه التهذيبي واثاني هو أنهم مطلوبون دون الأول فانما ينظر اليه من حيث هو وسيلة للثاني . فالمعلمون في تلك الكتاتيب يسمون الفقهاء وهم لا يعرفون شيئاً سوى حفظ القرآن لفظاً بغير معنى . واذا كان في أذهانهم شيء باسم الدين فما هو الا الزائد الضارّ دون الاصل النافع وقد عرفوا بأنهم أفسد حالاً من العامة . على ان الكتاتيب يرد عليها أبناء الاهالي جميعاً الا القليل ثم يرجع الغالب الى ما كان عليه آباؤهم فهي منابت للعامة ولكنها لاتنتبت الان الا جهلاً

ولا يمكن اصلاح تلك الكتاتيب الا باصلاحهم (أي الفقهاء) واصلاحهم مرة واحدة أو إبدالهم بخير منهم متعسر ولكن اذا وجهت العناية اليهم أمكن

اصلاحهم واصلاح طرق تعليمهم بالندر يج في بضع سنين ثم ان ذلك الاصلاح يستدعي عملا يتعلق بعضه بالمعارف وبعضه بالأوقاف من حيث ان أولئك المعلمين خطباء المساجد في الأغلب فلا بد أن ينظر في انتخابهم من المستعدين للفهم وقبول الاصلاح بقدر الامكان وهو يقتضي سعيًا حثيثًا وتدقيقًا شديدًا وسيرا في أرض مصر أجمعها ونظرا في كل قرية من قرأها وهو ليس بعسير على الشخص الواحد فضلا عن أشخاص كثيرين متى وجهت العناية بذلك

ثم يلزم لذلك تقرير بعض المعلومات التي لا يستغني عنها مصري مما يزداد على تعليمه القرآن في تلك الكنائس حتى اذا خرج التلميذ من الكتاب كان شاعرا بأنه في أي جمعية محكومة بأي طريقة فاذا دخل المدرسة أو الأزهر كان نماء معلوماته على ذلك الأساس وذلك يستدعي تقرير بعض الكتب الصغيرة وتعيين ما يدرج فيها على نمط سهل يفهمه الصغير والكبير بأن تبين لهم فيه نسبتهم الى المأمور والمدير والناظر والمهندس والطبيب والعالم والى المقام الخديوي وغير ذلك. وتحدد الطريقة التي يتعلم بها الفقهاء هذه الأمور القرية من الاذهان والمكان الذي يتعلمون فيه والوقت الذي يخصص لذلك والمعلم الذي يعلمه ثم تقرير العلاقة بين أولئك الفقهاء وبين ادارة الاوقاف ونظارة المعارف

المكاتب الرسمية الابتدائية

تلامذة هذه المكاتب لا يزالون الى الآن من الأطفال الذين يقصد كفلاؤهم بتعليمهم التوصل بهم الى خدمة الحكومة سواء نالوا ما قصدوا أم لا الا أنهم في الغالب لا يستطيعون أن يذهبوا بهم الى نهاية التعليم المعد لذلك فيرجع الولد الى أبيه أو من يقوم مقامه بعد نهاية المكتتب عارقاً ببعض مبادئ العلوم التي لا يجد لها موضعاً تستعمل فيه فلا يلبث أن ينساها فيضيع الزمن الذي شغله بالتحصيل بلا فائدة ثم انه يعود بأخلاق أشد فسادا من أخلاق الذين بقوا على الفطرة لم يمسهم التعليم ويجد في نفسه نفرة وعجزا عن العمل فيما كان يعمل والده وأهله من قبله فيقضي عمره في البطالة أو ما يقرب منها فنزداد أخلاقه فسادا وأفكاره اختلالا ويقف نفسه على عبادة الأوهام وخدمة الدسائس التي تنبئه الى طلب

ما يغير الحالة التي عليها الناس طمعا في تغيير حالة نفسه بلا تعقل فيكون زيادة في أمراض البلاد بدل أن يكون عضوا نافعا لها

وأول ما يجب لاصلاح هذه المكاتب ووضعها على أساس يفيد العامة ان يراعى في البر وجرام إدخال مبادئ العلوم من وجهها العملي الذي ينطبق على المعاملات الجارية في البلاد فقواعد الحساب مثلا تؤخذ من وجهها العملي مطبقة على المعروف في المعاملات التجارية وحساب الصيارفة الاميريين وغيرهم فيتعلمون طريقة وضع المدفوع من الاموال في الاوراق والدفاتر وطرق التحصيل لاموال الحكومة ونحو ذلك ويدخل فيها فن الاوزان والمكاييل وان كانت مبادئ هندسية فليدخل فيها شيء من المساحة على الطريقة المعروفة في البلاد أو على أفضل منها وما يؤخذ من قواعد العربية يكون مصحوبا بالعمل في المكاتبات العادية والمشارطات المتداولة بين الاهالي حتى اذا انفصل التلميذ من المكتب يكون عنده ما يحتاج اليه شخصه أو عائلته وأقاربه وأهل بلده فلا ينقطع عن العمل به لكثرة ما يرد عليه منه ثم يضم الى ذلك تعويده على بعض الاعمال الزراعية أو الصناعية في اوقات الرياضة أو يخصص لذلك يوم في الاسبوع ليعلم كفلاء التلامذة ان للتعليم غاية سوى خدمة الحكومة وأنهم اذا لم ينالوا الخدمة فإن لهم شأنًا سوى البطالة والتفرغ للاوهام الرديئة ثم يضاف الى البر وجرام مبادئ العقائد الدينية على الاصل النصح وأصول الآداب الدينية على ما يجمع الالفة ويعرف وجه المصلحة في المعاملة والمخالطة وشيء من تاريخ البلاد وما كانت ثعانيه في سابق زمنها وما صارت اليه من الراحة في هذه الاوقات وشيء من القواعد العامة للنظام الذي هم فيه ليعلم التلميذ انه من أي جنس وفي أي شكل من أشكال الحكومة فيتعلم الخضوع والانقياد لكل مسند فيما يصدر منه ثم يكون أهم العناية بحمل التلامذة على العمل بما يعلمونه من الآداب وتثديد المراقبة عليهم في ذلك وتوضع لهذا لائحة مخصوصة يحدد فيها البروغرام اللازم للمكاتب الابتدائية وطريق التعليم ويبين فيها المسلك الذي يتخذه المربي المفوض اليه مراقبة أخلاق التلامذة وملاحظة أعمالهم فاذا أتم التلميذ مدة المكتب الابتدائي ولم يتيسر له أن ينتهي الى غاية التعليم رجع اليه بشيء نافع ونمت فيه

الاخلاق الصالحة والافكار الحسنة وانطبع قلبه على الخير والسلامة وكانت له بصيرة في وجوه المعاملة مع من يشترك معهم في المصلحة ونبت في قلبه احترام النظام الذي يضبط مصالحته ومصالحه بني وطنه ونشأ على محبة العمل والرغبة فيه فلا يكون الى فؤاده سبيل للوساوس ولا منفذ للدسائس

المدارس التجهيزية والمدارس العالية

لا أتكلم في بروغرامات دروس الفنون التي تقرأ فيها لأن النظر في ذلك يتعلق بالفرض الذي جعلته الحكومة غاية لإقامة تلك المدارس وإنما كلامي فيها منحصر فيما يتعلق بالتربية وتهذيب الفكر وغرس مبدأ الصلاح في نفوس التلامذة ليحسنوا في استعمال ما تعلموا

قلنا فيما سبق ان التربية مفقودة في تلك المدارس لا يخطر ببال أحد ان يعنينا بها عناية حقيقية وإنما الموجود فيها صور ورسوم تفر الناظر فيها وهي بمعزل عن الحقيقة فالذي يجب لتأسيس التربية فيها تعليم العقائد الدينية على الأصل الصحيح - تعليم الآداب الدينية على الطريق الصالحة - إزام التلامذة في تصرفهم بموافقة ما تعلموا كل ذلك على نمط أرق مما كان في المكاتب الابتدائية - تعليمهم الاجادة في الكتابة كل في فنه الذي يريد الوصول الى غاية التعليم فيه - تعليمهم أصول النظام العام ثم زيادة التوسع فيما يتعلق بقرنه من النظام فالقانونيون يتوسع لهم في أصول النظام المتعلق بالقضاء والادارة وهو شيء غير نفس القانون والمهندسون في أصول النظام المتعلق بالري وتدير النيل وهو شيء غير الهندسة - وعلى هذا القياس

والمربي في كل ذلك يودع في أفكارهم ان القيام بهذه الأعمال مما يطالب به الدين وان فوائدها ليست قاصرة على خدمة الحكومة بل هي من لوازم الحياة الطيبة ويورد الأدلة على ذلك وهي كثيرة لا تعد حتى اذا بلغ التلميذ نهاية التعليم أمكنت الثقة به وأئتمن على عمل يفوض اليه وكانت الأنفس مطهنة من جهته لعلمه ان للنظام علاقة بحياته الروحانية كما له علاقة بحياته الجسدانية فان لم يكن له نصيب في خدمة الحكومة وجد سبيلا آخر للعمل وهو في رضى عن النظام المحيط باعمال وطنه فيكون بذلك عضوا صالحاً ويقوم بينه وبين الدسائس حجاب منيع

من الاستقامة الفكرية والخلقية حتى لو أن التلميذ بعد ذلك حمل الشطط في الفكر علي خلع العقيدة الدينية بقيت فيه ملكات الأخلاق الفاضلة طبيعة ثابتة لا تتبدل بتبدل العقيدة

﴿ المعلمون والمربون ، ومدرسة دار العلوم ﴾

وجود مثل هؤلاء المعلمين عسير كما يقوله كثير ممن له تعب في البلاد ولم يتفكر في حالتها ، ولم يدقق البحث في مصلحتها ، اما أنا فلا أرى في ذلك صعوبة بقدر ما يتصورونها كما أن كثيراً مثلي لا يرون ذلك

اما أولاً فلأن بلادنا واسعة مثل مصر لا تعدم افراداً مثفرين في أنحاءها يعرفون من الدين حقيقته، وللزمان ما يلزم له، وإنما يجمعهم البحث والتنقيب. وكما ساحتنا المدرسة الزراعية ليختبر الأرض ويعرف الطرق المسلوكة في البلاد لخدمتها واستنباتها كذلك يجب أن يسيح مدير التربية في الاطراف ليعرف الصالحين لتوليها على أن المعروف منهم ليس دون الكفاية للابتداء في العمل فان لم يكن الموجود بالغاً للغاية في المقصود فلا أقل من أن يكون قريباً منها - واما ثانياً فلأنه يمكن تكوين جماعة كثيرة ممن يحتاج اليهم في الغرض بطريقة هي مرسومة الآن ولكن لم يطبق العمل منها على الرسم الحقيقي على ان في الرسم نقصاً يجب تميمه وتلك الطريقة قد رسمت في المدرسة المسماة بدار العلوم

دار العلوم مدرسة ابتدعها سعادة علي باشا مبارك من نحو خمس عشرة سنة وشرط أن يكون نلامذتها من طلبة الأزهر وان يكونوا حصلوا من العلوم المقررة فيه مبلغاً يكاد يؤولهم للتدريس ثم جعل في دروس تلك المدرسة دروساً لجميع ما كانوا يقرأونه في الأزهر من العلوم الدينية ليتمموه على وجه أجلى وأنفع وأضاف الى ذلك أطرافاً من الفنون الصناعية كالطبيعة والكيمياء والحساب والهندسة وشيئاً من الجغرافية والتاريخ وقدر غاية الدراسة أن يكون التلميذ المتم لدروسه فيها صالحاً لأن يكون أستاذاً في العلوم العربية والدينية في المسكن والمدارس الرسمية ولكن جاءت على تلك المدرسة أدوار كثيرة أسقطتها عن مرتبتها التي كانت تنبغي لها ثم لم يوضع فيها أساس للتربية التي كان يجب أن تكون أهم شيء يقصد من الانتظام

فيها ولهذا كان يخرج تلامذتها على ما يخرج عليه تلامذة غيرها من الأخلاق والافكار لا يمتازون عنهم الا قليلا وان كانت مع ذلك أنشأت أفرادا من أهل العلم والأدب هم الآن معروفون تشهد لهم حالهم بأنهم أفضل من جميع الناشئين في غير تلك المدرسة ولكنهم أقل عددا مما كان ينتظر

ثم من غريب التصرف أن هذه المدرسة مع انه لم يكن الغرض منها الا تكوين أساتذة قادرين على التربية عارفين بالعلوم الدينية والعربية حق المعرفة لا يقيمون عليها من النظار الاجاهلاً بالدين واللغة العربية بل غير معتمد بالدين بالكلية كما فعلوا سابقاً ويريدون أن يفعلوا في هذه الأيام ولا يعينون فيها من المعلمين للدروس الدينية الا من يقصد تعيشتهم بمرتباتهم وفيهم من لا تجوز معاشرته التلامذة له فضلا عن أخذهم العلم عنه وفيهم من لا يحسن أداء ما كلف به وليس فيهم أهل لوظيفته الاشخصان فقط والكل لا عناية له بأمر التربية ولا يهتمه فساد أخلاق التلامذة أو صلاحها ، ولا استقامة عقولهم وأفهامهم أو اعوجاجها ، وتعليمهم الدين على ما هو المعروف في الأزهر لا يغيرون منه فاسدا ، ولا يزيدون عليه صالحا ، وسائر المعلمين للفنون يؤدونها نقلا من الكتب لا يبينون للتلامذة الغاية من تعلمها . وليس العيب في ذلك راجعاً اليهم ولكن الى من لم يضع أصلا لسيرهم في تعليمهم ولم يؤسس قاعدة ترجع اليها جميع الأعمال صادرة من المعلمين أو المتعلمين ولم يقيم على تلك القاعدة خيرا بالبناء عليها ، عارفاً بالغاية التي توجه المدرسة اليها ، حكما في تصرفه بأذهان التلامذة والاساتذة حتي يقيم للتربية بناء معنويا حقيقيا يأوي اليه كل معلم ومتعلم يأتي من بعده

هذه المدرسة تصلح أن تكون ينبوعاً للتهديب النفسي والفكري ، والديني والخلقي ، ويمكن أن ينتهي أمرها الى أن تحل محل الأزهر وعند ذلك يتم توحيد التربية في مصر ولكن يلزم لذلك أمور

(الأول) إصلاح البروجرام وحذف بعض العلوم التي اشتغل بها التلامذة في الأزهر والاكتفاء بتمرينهم على العمل بها وتقدير ما يلزم من الفنون الباقية وزيادة بعض علوم ليست فيها الآن منها علوم الآداب الدينية وفن أصول

النظام مع تعلقه بالدين

- (الثاني) تغيير طريقة تدريس تفسير القرآن وتعلم الاحاديث النبوية
 (الثالث) اختيار معلمين صالحين للقيام بالعمل الموصل الى الغاية المطلوبة للمدرسة
 (الرابع) تعيين ناظر للمدرسة قدماً لقلبه وغمر فكره الميل الى المقصد الذي
 وصفت له المدرسة عالماً بالدين ولغته موثقاً به عند العامة
 (الخامس) إعطاء تلامذتها بعد نهاية التعلم حق التدريس في الأزهر
 (السادس) توسيعها الى مايسع مئة تلميذ
 (السابع) أن يزداد في مدتها سنة بعد الدراسة للتمرين على التعليم في نفس المدرسة
 (الثامن) وهو أهم مايجب - أن يكونوا تحت نظام شديد في التهذيب
 وملازمة العمل بما يعلمون

- (التاسع) أن تكون وظائف التدريس في المدارس والمكاتب منحصرة فيهم
 (العاشر) أن تكون درجاتهم في الوظائف على حسب أدبهم واقتدارهم على التأديب
 (الحادي عشر) أن يكون للموظف منها في مدرسة ماسلطة تامة على تهذيب
 التلامذة وتربية نفوسهم وتقويم أخلاقهم وطبائعهم وأرقامهم وظيفه في تلك المدرسة
 يكون رئيساً لمن دونه
 (الثاني عشر) أن يبقوا بلباسهم الذي هو لباس أهل الدين مهما ترقوا
 في الوظائف

ثم انه يلزم لهذا المشروع كتب تولى جديد اولاً ثم تنظيم للعمل على مقتضاها
 وذلك كله يمكن بعد العزم على الاجراء

﴿ نفقات الإصلاح ﴾

يمكن أن يظن أنه يلزم للإصلاح زيادة نفقات ولكن اذا دبرت مصاريف
 المعارف على الوجه اللائق فلا أظن أنه يحتاج الى زيادة على أنه لو احتجج اليها لا يشغل
 احتمالها بعد اليقين بأن هذا الإصلاح بؤول الى تمكن السلطة وجعل الرعية صالحه لأن
 تكون بدنناً لرأس أو آلة لعامل وأظن أن بذل النفقات في هذا السبيل - وهو سبيل
 حياة السلطة وحياة الرعية - أفضل منه في جميع السبل فان كانوا يهرفون آلافاً

من الجنيات على بعض المباني الخربة بدعوى أنه أحفظ للآثار القديمة فأولى أن يصرف بعض تلك المبالغ على حفظ الذين تبقى لأجلهم تلك الآثار فإن التربية هي الحصن الحقيقي للبلاد، الذي يصونها من جيش الفساد، وهي آلة صاحب السلطة في الانتفاع بالمحكومين له ولا وسيلة للمحكومين سواها في تعريفهم حدودهم التي يجب أن يقفوا عندها بالنسبة إلى مقام صاحب السلطة عليهم . وإني أجد هذا الإصلاح في مدارس الحكومة يأتي بفائدة أعم من الفوائد التي جاء بها مشروع السيد أحمد خان في الهند وهو أبعد من ذلك المشروع عن سوء الظن

— شبهة من يعارض المشروع ومكائنه في نفسه —

ربما يوجد أشخاص خصوصاً من الرؤساء يقولون ان هذه الطريق بعيدة النهاية لا توصل إلى الغاية — كما قالوا ذلك من قبل — فنقول لهم ان الطريق التي سلكوها وسلكها أسلافهم من محمد علي إلى الآن قد جربت فلم تعد بخير على البلاد فليسلكوا الآن هذه الطريق على سبيل التجربة بعض سنوات فليس هناك ضرر ينتظر فإن لم تكن فائدة فلا خوف من المضرة

ان من يزعم العجز انما يلجأ إليه لأنه لم يتصور ما يرد من الأمر عليه فإن كانت له أداة فليوردها ولا نعدم لها من الحقيقة ذافعاً فإن أبي الاعجز فر بما يوجد من لو وكل إليه الأمر قام به ولم يعجز عنه والتجربة مشرق الحقيقة ان شاء الله تعالى . على انه يمكنني أن أضمن كل ضرر يتصور في هذا المشروع وأكفل ان يكون له من النفع ما هو أوفر من الفائدة المطلوبة في السبر الحاضر

وإني لأزال أكرر أن غارس هذا الفرس يجني ثمرته الطيبة وأن فوائده ربما نقلت إلى اقطار أخر فعدت بجزيل الخير على من نماه وفي الزمن القريب بيد صلاحه لصاحب السلطة وللمحكومين له، ويسهل له تقرير أمره فيمن صلحوا باصلاحه على قاعدة المحبة والالفة، الأعلى طائفة الاخافة والرهبنة، ويكون بذلك قد كوّن لنفسه شعباً جديداً بعينه في الشدة، وينصره في الفتنة، ويعضده في ساعة المحنة، ويمحو من نفسه خيال التعلق بغيره، وتزول من طريقه عقبات نعصب الجاهلية، وحمية الحماقة اللابسة ثوب الحمية الدينية، وفي ظني أن من عارض هذا المشروع فقد عادى

سلطته وعرض نفسه لغير الزمان وسياسته لنفوذ شياطين الفتن من مقاوميه والله ولي الأمر ويده كل شيء يهدي من يشاء الى صراط مستقيم اهـ

﴿ بقول جامع الكتاب ﴾

نقلت هذه اللائحة عن مسودة للامام غير منقحة ولا معروضة للنشر كما سبقت الاشارة بل كتبت لأجل أن نترجم وهي مع ذلك آية في البلاغة وحسن العبارة . ومن كان حديد الفهم بعيد الفوص في أسرار الكلام يعلم أنها لامست سماء الاعجاز أو كادت على عدم العناية فيها بزينة اللفظ وزخرف القول ، ذلك أنه لا يرى لعقله مذهباً آخر أرجح من مذهب الامام فيها لا قناع السلطة في مثل هذه البلاد بالترية الاسلامية التي كانت قصده في أمنه مع الصدق في القول والاخلاص في النية . واذا قارن هذه اللائحة باللأحتين قبلها نجلى له معنى « لكل مقام مقال » ففرض إمامنا في الاصلاح الديني واحد ولكنه كان يتوسل اليه في كل بلاد بأقرب الوسائل التي يرجى أن ترضى بها السلطة وهو ما يجعله موافقاً لمصلحتها وتلك هي الحكمة البالغة والبلاغة السابقة

ناهيك بما تومئ اليه مقدمة هذه اللائحة من الرسوخ في علوم العمران كطبائع الامم وأخلاقها ونظام التربية والتعليم والسياسة . فبالت الاستاذ الامام فرغ للتأليف لم يشغله عنه الاصلاح العملي ومحاولة تربية الأزهر واصلاح الشورى والمحاكم ، اذاً لكان لنا منه مصنفات تفعل في النفوس بعد وفاته ، أكثر مما كان يريد أن يعمل في حياته ، رحمه الله تعالى على نيته وحسناته

٧

﴿ ما كتبه في الصحف المصرية * بعد عودته من سورية ﴾

(الرد على هانوتو)

هو الرد الذي سارت به الركبان ، وانتشر ذكره في كل مكان ، وعده له المؤيدون الغربيون والشرقيون ، وأطنب في مدحه عليه الشعراء الرثمون ، وسببه ان موسيو هانوتو وزير خارجية فرنسا من قبل كئيب في جريدة الجرنال الباريسية مقالاً في الاسلام والمسألة الاسلامية ترجمته جريدة المؤيد ونشرته بالعربية ، وكان من عادة الاستاذ الامام عليه الرضوان أن يتصفح الجرائد في الواور بين القاهرة وعين شمس التي فيها داره غدواً وورواً فلما كان راحاً بعد العشاء من الأزهري وقد قرأ درس المساء فيه نظر في المؤيد فاذا فيه قسم من مقال هانوتو فقرأه في الواور والانفعال يساوره فما عم بعد وصوله الى الدار أن شرع في الرد على ما قرأه في فرصة تهيئة طعام العشاء وأتم المقالة الأولى بعد تناول الطعام وأرسلها الى المؤيد صباحاً فنشرت فيه . واننا ننشر مقال هانوتو قبل الرد عليه وهو

﴿ ترجمة مقال هانوتو ﴾

قد أصبحنا اليوم أزاء الاسلام والمسألة الاسلامية

اخترق المسلمون أبناء آسيا شمال القارة الافريقية بسرعة لانجاري حاملين في حقائبهم بعض بقايا تمدن البيزنطيين « يونان الشرق » ثم تراموا بها على أوروبا ولكنهم وجدوا في نهاية انبعاثهم هذا مدينة يرجع أصلها الى آسيا بل أقرب في الوصلة الى المدينة البيزنطية مما حملوه معهم ألا وهي المدينة الآرية المسيحية ولذلك اضطروا الى الوقوف عند الحد الذي اليه وصلوا ، وأكروهوا على الرجوع الى افريقية حيث ثبتت أقدامهم أحقاباً متعاقبة ولكن كان لا يزال الهلال ينهني طرفاه من جهة بمدينة (القسطنطينية) ومن أخرى ببلدة (فاس) في الغرب الاقصي معانقاً بذلك الغرب كله

في تلك البقعة الافريقية التي أصبحت مكرماً للاسلام جاءت الدولة الفرنسية

لمباغته . جاء القديس (لويس) الذي ينتمي الي أسبانيا بالده ليضرم نيران القتال في مصر وتونس وتلاه لويس الرابع عشر في تهديده بالايالات الافريقية الاسلامية وعاود هذا الخاطر (نابوليون الاول) فلم يوفق الي تحقيقه الفرنسيون إلا في القرن التاسع عشر حيث أخذوا على دولة الاسلام التي كانت لانتي في متابعة الغارات على القارة الأوربية فأصبحت الجزائر في أيديهم منذ ٧٠ عاماً وكذلك القطر التونسي منذ عشرين عاماً

قد وصلت طلائع قوانا الآن الي أصقاع من الصحراء تنتهي اليها كشيابها الرملية فمعظم اندهاش الباقين من خصوصنا ونزايدهم لانهم بعد اندفاعهم شيئاً فشيئاً في الفيافي وبطن الخبوت، وظنهم أنهم صاروا في أمنع موئل شعروا بأنفسهم وقد حلق عليهم الأوربيون من جميع الجهات وكانت القبائل الواردة اليهم من (السنغال) أخبرتهم بأن الأوربيين امتهلكوها وتقدموا منها الي (باقل) (وباما كوا) (وسيجو سيكورو) وتوغلوا في جهات أخرى حتى وصلوا الي (النيجر) وبحيرة (شاد) وان مدينة (تمبكتو) المقدسة قد سقطت في أيديهم منذ أعوام وأكدهم هذه الأخبار أيضاً رسلهم الذين يخترقون أفريقيا الوسطى ويجوبون نواحيها بما ذكره لهم من أن جهات (صانفا) و (تجاوندرة) قد وطأها أقدم الحاملين للعلم المثلث الالوان الذين يصعدون الانهار لتنظيم البلاد وترقية شورتها وأن وابوراتهم في (الاصل بابور على التحريف الشائع عند الامم الشرقية من تسمية البواخر النهرية أو البحرية باليابورات بدلا من البواخر) تشق عباب نهري (الكونغو) و (الشاري) وتنعكس على سطحها صورة الدخان الاسود المسترسل خلفها عندئذ كان يطرق الآذان صوت اليائسين وقد جلسوا أمام دورهم واضعين رؤسهم بين أفخاذهم لكثرة الغم والكدر وهم يدعون الله ويكررون قولهم عن (فرنسا) يشبهونها بسرادق كبير اذا حاول الانسان قلعه فلا يزال له السمو عليه ويختمون كلامهم بقولهم (قد كان هذا قدرا مقدورا)

إذا فقد صارت (فرنسا) بكل مكان في صلة مع الاسلام بل صارت في صدر الاسلام وكبده حيث فتحت أراضيها وأخضعت لسلطوتها شعوبه وقامت تجاهه

مقام رؤسائه الاولين وهي تدبير اليوم شوء، ونه ونجبي ضرائبه وتحشد شبانه لخدمة الجندية وتتخذ منهم عساكر يذبون عنها في مواقف الطعان ومواطن القتال . تلك المملكة الفسيحة الارحاء التي أنشأتها في باطن القارة الافريقية هي الوارثة لما أبقته الدول السابقة والأم البائدة من (قرطاجيين) (ورومانيين) (وعرب) من آثار المدنية التي كانت القارة الافريقية منبثاً لثمارها اليانعة

ان شعباً جمهوري انبأدىء يبلغ عدد نفوسه أربعين مليوناً لا مرشد له الا نفسه لا عائلات ملوكية فيه يتنازعن الحكم ولا رؤساء يتناولون الرئاسة بطريق الوراثة هو الذي تقلد زمام ادارة شعب آخر لا يلبث أن ينمو حتى يساويه في العدد وهو ذلك الشعب المنتشر في الارحاء الفسيحة والاصقاع المجهولة والمتبع لتقاليد وعادات غير التي نعوها ونحترمها هو الشعب الاسلامي السامي الاصل الذي يحمل اليه الشعب الآري المسيحي الجمهوري الآن ملح وروح المدنية نعم ان ظروف وشروط هذه المعضلة نادرة ولكن ليس على الشعب الغالب أن يحاول جهده لمعرفة والاطلاع عليها

ليس الاسلام فينا فقط بل هو خارج عنا أيضاً قريب منا في (مراكش) تلك البلاد الخفية الاسرار التي يشبه وجودها الحاضر مقدور الابد في الغموض والاشتباه - قريب منا في (طرابلس الغرب) التي تم بها المواصلات الاخيرة بين مركز الاسلام في البحر الابيض المتوسط وبين الطوائف الاسلامية في باطن القارة الافريقية - قريب منا في (مصر) حيث تصادمت (الدولة البريطانية) فصادمتها اياها في الأقطار الهندية وهو موجود وشائع في (آسيا) حيث لا يزال قائماً في (بيت المقدس) وناشراً اعلامه على مهد الانسانية وبحسب أنصاره وأشباعه في قارات الارض القديمة بالملايين وقد انبعثت شعبة منه في بلاد (الصين) فانتشر فيه انتشاراً هائلاً حتى ذهب البعض الى القول بأن العشرين مليوناً مسلماً الموجودين في الصين لا يلبثون أن يصيروا مائة مليون فيقوم الدعاء لله مقام الدعاء (لساكياموني) وليس هذا بالامر الغريب فانه لا يوجد مكان على سطح المعمورة إلا واجتاز الاسلام فيه حدوده منتشراً في الآفاق فهو الدين الوحيد

الذي أمكن انتحال الناس له زوراً وأفواجاً وهو الدين الوحيد الذي تفوق شدة المهل الى التدين به كل ميل الى اعتناق دين سواه ففي البقاع الافريقية ترى المرابطين وقد أفرغوا على أبدانهم الحلل البيضاء يحملون الي الوثنيين من العبيد العارية أجسامهم من كل شعار قواعد الحياة ومبادئ السلوك في هذه الدنيا كما أن أمثالهم في القارة الآسيوية ينشرون بين الشعوب الصفر الا لوان قواعد الدين الاسلامي ثم هو أي هذا الدين قائم الدعائم ثابت الاركان في أوروبا وعينا أعني في الاستانة العلية حيث عجزت الشعوب المسيحية عن استئصال جرثومته من هذا الركن المنيع الذي يحكم منه على البحار الشرقية ويفصل الدول الغربية بعضها عن بعض شطرين

في باحات قصر يلذ ترى العلماء والدرائش وقد تدرؤا بثياب الصوف وتمعموا بالعمائم الكبيرة جالسين على الارائك بجانب سفراء الدول . هم هناك يمثلون في الخاطر أشخاص ألف ليلة وليلة لا يحركون من مقاعدهم ينسون بكلمات تطابق تحريك أيديهم حبات السبيح منتظرين محيي دورهم في المقابلات لعرض طلب أو توجيه لوم . وكل المسلمين من مقيم في (الاستانة) أو في (مراكش) في أرجاء آسيا أو اصقاع افريقية من بدو كانوا أو حضر واقفين في أماكنهم أو سارين مع القوافل يركون مع الركاب اذا حانت الصلاة يتوضئون أو يقيمون بالتراب مولين وجوههم جميعاً شطر الكعبة وسواء منهم الذين يلبسون الثياب الواسعة أو يتزيون بالسفرة الاسلامبولية والذين يلبسون الطربوش أو العمائم على رؤسهم والذين يضعون السيف واليطلقان في نطاقهم أو يتلقون العلوم في مدرسة برابن الجامعة أو يدرسون علوم السياسة في باريس فانهم يولون وجوههم شطر مكان واحد ، هي الارض المقدسة ، هي الارض التي تكنفها الصحراء ، هي الارض التي عاش فيها محمد ، هي الارض التي تتضمن جسمه المبارك في قبر لا يجسر أحد على الوصول اليه إلا مغطى الوجه حياء وهيبة ، هي الارض التي جاء منها الآباء ويعود اليها الابناء بحركة مستمرة ، هي الحج الأبدى الى بيت الله الحرام . وجميع المسلمين عن بكرة أبيهم يرنون بطرفهم الى هذا المكان المقدس ويمدون اليه أعناقهم ولا يجردون لذة في الحياة إلا بأمل

العودة اليه ومن مات منهم ولم يكن أدى فريضة الحج مات على أسف وحسرة .
 و خلاصة القول ان جميع المسلمين على سطح المعمورة تجمعهم رابطة وحدة بها
 يدبرون أعمالهم ويوجهون أفكارهم الى الوجهة التي ينتغونها وهذه الرابطة تشبه
 السبب المتين الذي متصل به أشياء تتحرك بحركته وتسكن بسكونه بل هي القطب
 الذي تنتهي اليه قوة المغناطيسية ومتى اقتربوا من الكعبة - من البيت الحرام - من
 برز زمزم الذي ينبع منه الماء المقدس - من الحجر الاسود المحاط بإطار من فضة -
 من الركن الذي يقولون عنه انه سره العالم وحققوا بأنفسهم أمنيتهم العزيزة التي
 استحثتهم على مبارحة بلادهم في أقصى مدى من العالم للفوز بجوار الخالق في بيته
 الحرام - اشتعلت جذوة الحمية لدينية في أفئدتهم فتهافتوا على أداء الصلاة صفوفاً
 وتقدمهم الامام مستفتحاً العبادة بقوله « باسم الله » فيعم السكون والسكوت
 و يذشران أجنحتهما على عشرات الألوف من المصلين في تلك الصفوف ويملاً
 الخشوع قلوبهم ثم يقولون بصوت واحد « الله أكبر » ثم تمنو جباههم بعد
 ذلك قائلين « الله أكبر » بصوت خاشع يمثل معنى العبادة

ولا تظنوا ان هذا الاسلام الخارجي الذي تجمعه جامعة فكر واحد غريب
 عن اسلامنا ولا علاقة له به لأنه وان كانت البلاد التي تحكها شعوب مسيحية
 ليست في الحقيقة « بدار سلام » وانما هي « دار حرب » فأها لا تزال عزيزة
 وموقرة في قلب كل مسلم صحيح الايمان . والفضب لا يزال يحوم حول قلوبهم
 كما تحوم الاسد حول قفص حبست فيه صغارها ووربها كانت قضبان هذا القفص
 ليست متقارنة ولا بدرجة من المائة تمنعها عن الدخول اليهم من بينها

ترى في قرانا وبلداننا درويشاً فقيراً شاحب اللون مدثراً بأرديته البيضاء
 المعلمة بخطوط سوداء يلهج لسانه بذكر الله والصلاة على نبيه لا يلو به عن ذلك
 شيء - هذا الدرويش الذي ينتقل من خيمة الى خيمة ومن قرية الى قرية راويا
 حوادث الأقطاب والأولياء من مشايخ الاسلام انما يندثر في القلوب حيثما حل
 وأينما توجه بذور الحقد والضغينة علينا . ان العالم الاسلامي منقسم الى طوائف
 وطرائق لاعدادها ينخرط في سلكها الألوف من رعايانا المسلمين ولكن ليس لها في

الغالب مرا كز ولا زوايا بالاراضي الداخلة في دائرة نفوذنا وغاية الامر ان العاملين في هذه الطوائف والمذاهب الكثيرة بخرقون بلا انقطاع ولا توان مستعمراتنا الافريقية فيستقبلهم أهلها بالترحاب ويحسنون وفادتهم ويكرمون مشواهم حتى إن الفقير منهم لا يرى في إكرامه له أقل من أن ينحر له شاة هذا عدا ما يجمعه له من صدقات ذوي البر والاحسان أو من المرتبات المالية السنوية التي يبلغ ما يدفعه أهالي الجزائر وخدمهم منها ثمانية ملايين من الفرنكات كل عام وهذا ما يستوجب العجب والدهشة لأن مقدار ما يجنيه من الضرائب كل سنة من أهالي الجزائر لا يتجاوز ضعف هذا المبلغ

ومن بين تلك الطرائق والطوائف ما يخلد أعضاؤه الى السكون وربما كانت علاقتهم مع رجال حكومتنا في الجزائر وتونس على أحسن ما يرام . وما ذلك الا لان الرابطة التي تربط بعضهم ببعض قد اعترها الوهن ولان الفوضى التي أصابت الاسلام الافريقي قد أخذت نصيبها منهم ولكن توجد طوائف غيرها بلغت شدة العصبية منها مبلغا عظيما لانها مؤسسة على مبدأ كفاح غير المؤمنين وعلى كراهة المدنية الحاضرة . وقد أسس الشيخ السنوسي في جهة ليست بعيدة عن الاصقاع التي نلي أملا كنا في الجزائر مذهبا خطيرا له اشياع وأنصار ومقر هذا الشيخ بلدة جغبوب الواقعة على مسيرة يومين من الواحة التي كان قائما بها هيكل المرجيس آمون وقد هاجر أولاده الى (كوفرة) ومن مذهبهم التشديد في رعاية القواعد الدينية وقد لبثوا زمنا مديد الا يرتبطون بعلاقة ما مع الدولة العلية بسبب ما بينها وبين الدول المسيحية من العلاقات ولكن يظهر ان اخلاقهم الشديدة قد تلطفت فنقر بوا أخيرا من الدولة العلية غير ان هذا لم يمنهم من طرح حياثل الدسائس التي أوقفت رجال بعثاتنا عن كل عمل مفيد لصالحها في افريقية الجنوبية ولم يكن الامر قاصرا على وسط القارة الافريقية فانه توجد بالاستانة نفسها وبالشام وبلاد العرب ومرا كش عصابة خفية ومؤامرة سرية تحيط بنا أطرافها وتضغظ علينا من قرب ويخشى أنها تفترسا اذا اغمضنا الطرف

كنا نرى من زمن حديث رعايانا الوطنيين في الجزائر ينقادون لأوضاع

سرية تناقلوها بالافواه وكانت تُقضى عليهم بتأليف الزمر والافواج منهم لهاجرة
 أوطانهم والذهاب الى آسيا الصغرى حيث يجدون الأمن المرجو
 يؤخذ مما تقدم أن جرائم الخطر لانزال موجودة في ثنيات الفتوح وطي أفكار
 المقهورين الذين اتبعتهم النكبات التي حاقت بهم ولكن لم تثبط همهم . نعم
 ليس لمقاومتهم رؤساء يدبرون هذه المقاومة ولكن رابطة الاخاء الجامعة لافراد
 العالم الاسلامي بأمره كافلة بالرئاسة ففي مسألة علائقنا مع الاسلام نجد المسألة
 الاسلامية والمسألة الدينية والمسائل الداخلية والخارجية شديدة الاتصال والارتباط
 بعضها ببعض وهذا ما يجعل حلها صعباً ومتعذراً كما سنبينه

المسائل الأساسية في كل دين هي التي ترتبط بالقدر والمغفرة والحساب .
 وهي كلمات ثلاث مصبوغة بصبغة دينية تلقي في النفس الاعتقاد بوعورة المسلك
 في تفهمها مع أنها من الامور التي ينبغي الوقوف عليها والعلم بها مهما صعّب منالها
 وتعذر مرامها . ان الدين هو الوسيلة التي تمهد للانسان طريق الوصول الى
 الحضرة الالهية وهو بعبارة اخرى الوسيلة في وقوف الخلق بين يدي الخالق .
 اذا تقرر ذلك فهل الخالق بقدرته المطلقة يودع في نفس الخلق استعداداً للعمل
 بمقتضى ارادته السرمدية بحيث لا يجحد عما تأمره به هذه الارادة أم للانسان
 متى تم خلقه ارادة خاصة يعمل بحسبها واختيار مستقل لا يستمد من اختيار أسمى
 منه؟ وهل للانسان الذي خلقه الله وسواه ارادة مطلقة من نفسه وتصرف مطلق
 في ذاته أم ترجع جميع أعماله من خير وشر الى القدرة الربانية القابضة على زمام
 الكون والمسببة لوجوده فيه

في دائرة هذا البحث نحصر الخلافات الدينية والفلسفية التي لم يوفق دين من
 الاديان ولا مذهب فلسفي الى حسمها بكيفية يقتنع بها الادراك ويرضاها العقل مع أن
 البحث فيها لاصابة هذا الغرض السامي لم يكن بالامر الحديث اذ طالما بحث فيها
 فلاسفة الاقدمين فلم يجدوا لها حلاً وكان حظهم منها كحظ فلاسفة وعلماء المتأخرين
 وغاية ما عرف منذ العصر السالفة الى الآن انه وجد مذهباً ان نشاطاً فيما بينهما
 العقائد البشرية من تلك الوجهة المهمة فالاول منهما يقول بتساخي الربوبية في

العظمة والعلو وجعل الانسان في حضيض الضعف ودرك الوهن وبذهب الثاني الى رفع مرتبة الانسان ونحو يله حق القربي من الذات الالهية بما فطر عليه من ايمان و ارادة و بما أناه من أعمال صالحات وحسنات

والنتيجة الطبيعية للاعتقاد بمذهب الفريق الأول هي تحريض الانسان على اغفال شؤون نفسه و بث القنوط في فؤاده و تثبيط همته و ايهان عزيمته بيناتسوقه نتيجة الاعتقاد بمذهب الفريق الثاني الى ميدان الجلال والعمل و تلقى بدني غمرات التنافس الحيوي و من الأمثال على الفريقين البوذية الذين يدينون بدني يقضي عليهم بالتجرد اذ من قواعده أن الانسان والكون يفنيان في الذات الالهية و قدماء اليونان الذين يدينون بدني من قواعده تشبيه الآلهة بالانسان في أوصافه المادية يقضي عليهم هذا الدين بالعمل و الحياة لاعتقادهم بأن الانسان أو «البطل» يمكنه أن يصير في عداد الآلهة بحسناته وخيراته

وقد ظهرت على أطلال العالم القديم بعد خمسمائة عام من انقضائه ديانتان احدهما رانية و الثانية بشرية تمثلان ذينك المذهبين المتناقضين و لكن بتلطيف في التناقض . أما الاولى فهي الديانة المسيحية الوارثة بلا واسطة آثار الآريين و المقطوعة الصلات بالمرّة مع مذهب السامية و ان كانت مشنقة منه و غصناً من دوحته و من خصائص هذه الديانة ترقية شأن الانسان بتقريبه من الحضرة الالهية على حين أن الديانة اثنائية و هي الاسلام المشوبة بتأثير مذهب السامية تحط بالانسان الى أسفل الدرك و ترفع الآلهة عنه في علاء لا نهاية له»

هذان الميلان المحتفلان يظهران ظهوراً واضحاً في الاعتقاد الاساسي لكلا الديانتين و هو أصل الالهية أما المسيحي فيذهب في هذا الاصل الى الثالث أي أن الآلهة الاب و اوجد الآلهة الابن و اتصل الاثنان بصلة هي روح القدس و عليه فيكون يسوع المسيح إلهاً و بشراً — هذا الثالث السري المشنقة أصوله من ضرورة وجود إلهة بشري يمحو ذنب الجنس البشري و يغديه من الخطيئة التي اقترنها يرفضه المسلم الذي يعتقد بوحداية الرب و يتمسك بهذا الاعتقاد متمسكاً شديداً حيث يقول « لا إله إلا الله »

غير أن إدراك المسيحيين من هذا القبيل هو أخف وأعلى وأجلب للثقة إذ هو يحملهم على اتيان الأعمال التي تقر بهم الى الله حيث الوسائط بينهم وبين ذاته العلية موصولة في حين أن المسلمين يحملهم ديانتهم كمن يهوي في الفضاء بحسب ناموس لا يتحول ولا يتبدل ولا جيلة فيه سوى متابعة الصلوات والدعوات والاستغاثة بالله الاحد الذي هو مستودع الآمال ولفظة الاسلام معناها « الاستسلام المطلق لارادة الله »

نرى الديانتين أو بعبارة أخرى المدينتين المسيحية والاسلامية احدهما بازاء الاخرى وتتصل الاثنتان بعضهما ببعض من حيث المنشأ العام لها اذها مشتقتان من الأصول اليونانية والسامية ومنهما استمدتا جانباً من العقائد والمذاهب والآداب فيها إذا متداخلتان في بعضهما من وجوه عدة ولكن مسافة الخلف بينهما شاسعة في الحقيقة من حيث البحث في القدرة الالهية والحرية البشرية

وقد كانت هذه المناقضات وتلك الاشباه نقطة تفرع الطريقين المختلفين للذين اتبعناهما فيما يربطنا من العلائق بالاسلام والمسلمين . قصر فريق منا بحثه وحكمه على ماشاهده من المناقضات والخلافات بين الدينين المسيحي والاسلامي فرأى في الاسلام العدو واللدوا لخصم الأشد قال المسيو كيمون في كتابه (باتولوجيا الاسلام) ان الديانة المحمدية جذام فشا بين الناس وأخذ يفتك بهم فتكاذريعاً بل هي مرض مريع وشلل عام وجنون ذهولي يبعث الانسان على الخول والكسل ولا يوقظه منهما الا ليسفك الدماء ويدمن على معاقرة الخمر ويجمع في القبائح وما قبر محمد في مكة الا عمود كهر باني يبيت الجنون في رؤس المسلمين ويلجئهم الى الاتيان بمظاهر المستيريا (الصرع) العامة والذهول العقلي وتكرار لفظة الله الى ما لانهاية والتعود على عادات تنقلب الى طباع أصلية ككراهة لحم الخنزير والنيبذ والموسيقى والجنون الروحاني والليمانيا أو الما ليحولها وترتيب ما يستنبط من أفكار القسوة والفجور في اللذات الخ الخ

أمثال هذا الكاتب يعتقدون أن المسلمين وحوش ضارية وحيوانات مفترسة كالنهد والضبع كما يقول المسيو كيمون) وان الواجب ابادة خصمهم (كما يقول

أيضاً) والحكم على الباقيين بالاشغال الشاقة وتدمير الكعبة ووضع ضرب محمدي متحف اللوفر (وهذا أيضاً قوله) ٠٠٠٠ وهو حل بسيط وفيه مصلحة للجنس البشري ٠٠ أليس كذلك ؟ ولكن قد برح عن خاطر المكاتب أنه يوجد نحو ١٣٠ مليون مسلماً وان من الجائز أن يهب هؤلاء « المجانين » للدفاع عن أنفسهم والذود عن بيضة دينهم

ويذهب غير أصحاب هذا الرأي الى أن الاسلام دين ومدنية يتصلان مع دهننا ومدنيتنا بعروة الاخاء والنصاحب وتطرف البعض منهم فاعتبروا الاسلام أرقى مبدأ وأسمى كعباً من الدين المسيحي قال المسيو لوازون (القس باسنت سابقاً) معترفاً ومقراً بأن الاسلام هو الدين المسيحي محسناً ومحوراً ونصح للفرنسيين الذين يلتمسون دينهم المفقود أن يستعينوا بالاسلام للعثور على ضالتهم المشوذة ويذهب قوم غير الذين سبقت الاشارة اليهم الى وجوب احترام الاسلام وتبجيله مستنديين في ذلك على مادونه أحد مؤرخي الكنيسة الذي صار فيما بعد كروينالا حيث قال « ان الاسلام قنطرة للأمم الافريقية ينتقلون بواسطتها من ضفة الوثنية الى ضفة المسيحية فليس الواجب والحالة هذه قاصراً على معاملة الاسلام بالتساهل والتسامح بل لابد من رعايته وتعضيده بأن نسعى في توسيع نطاقه وترتيب الارزاق على المساجد والمدارس وجعله رائداً لمدينة فرنسا وآلة تسعين به على فتوح البلاد »

هذان هما الرأيان السائدان بما بينهما من درجات الاعتدال والتلطف والمساملة ولكنهاها وان افرقا متصل بعضهما ببعض وموجودان في حيز واحد وقد لوحظ كثيراً أن كل فرد من افراد موظفينا أو وكلائنا أو أبنائنا المستعمرين قد حار بين المبدئين وسلك الخطة التي رسمها لنفسه تجاه المسلمين طبقاً لامباله نحو قطب من القطبين المتناقضين اللذين يوجد باحدهما المتطرفون وبالآخر المتعصبون ولاوسط بينهما

وتلك الاميال المنعكسة التي برزت من مكامن الاعتقاد الى مجالي الفعل والتنفيذ هي التي أحدثت التناقض في اعمالنا الاجتماعية والسياسية والادارية

وأدت الى الشكوك والريب ونقض ما أبرم واهرم ما نقض الى غير ذلك مما جرت عليه حكومتنا ولاسيما في البلاد الافريقية من عدم السير على وتيرة واحدة . هذا الخلل ينمو شيئاً فشيئاً ويتضاعف خطره كل يوم اذا فكر الانسان في انه لا يصيب بسوئه بلاد الجزائر مع سكانها الوطنيين الذين يبلغ عددهم اربعة أو خمسة ملايين فقط بل يسري على نصف قارة بأكملها عديدة السكان وسيزداد ويتضاعف عددها بامتداد رواق الامان على الاهالي وابطال النجارة في الرقيق

فالمسئلة اذا خطيرة جدا ولا بد من الاعتماد على امر واحد في حلها إذ لا يكفي للوصول الى هذا الحل تنسيق عبارات وتسطير كلمات ولذلك خبرت ان أعرضها على محك الرأي العام مبينا أحكام الوسائل وأكثرها انطباقا على العقل والصواب للوصول الى نتيجة فعالية وموردا شيئاً واحدا هو من أزم الأشياء لموضوع تلك المسئلة وأشدها ارتباطا به

قد سبق لي وقمتا تم تشكيل مملكتنا الافريقية تشكيلا تاما ان سألت - ولا زلت أكرر هذا السؤال - الحكومة أن تبحث بحثا علميا في علاقاتنا مع الاسلام والمسلمين بمعرفة أناس خبيرين وعلماء عارفين لينجلي هذا البحث عن الخطة التي يتحتم على الجميع اتباعها من حاكم منا ومحكوم عليه

ان الراغب في الاستعمار من ابناء بلادنا يصل الى الجزائر أو تونس أو السنغال فيجد نفسه في اتصال مع العربي أو بعارة أعم مع المسلم إذ منه يشتري الارض التي يريد استنباتها ومنه يطلب اليد العاملة ومعه يدبر شؤنه المعيشية فبالرغم عن هذا الاتصال وعن هذا الجوار والتلاصق تراهما يجهل أحدهما الآخر وتنفرج مسافة هذا الجهل وتكون عواقبها أكثر خطرا اذا كانت العلاقة بين الاهالي وبين الموظف أو الحاكم أو القاضي أو الضابط أو غيرهم ممن هو منوط بالفصل في خصوصياتهم والقيام على شؤونهم وتنفيد قوانيننا بينهم وما أسوأ مغبة ذلك الجهل اذا كانت العلاقة بينهم وزارة مستعمراتنا أو رجال حكومتنا المركزية التي يديرها أحد عشر وزيرا ، ربما لا يوجد من بينهم سوى واحد أو اثنين أمعنا النظر في خريطة الانحاء الواسعة والاصقاع القصية التي عهد اليهم أمر ادارتها وتنظيمها

مع ان الواجب متى رضينا باحتمال هذه المسؤولية على عواتقنا وولنا هذه السلطة أن نطيل البحث ونعمن النظر في طرق استخدام هذه السلطة وأن نسأل الخبيرين والعارفين ونستفيد ممن شاهدوا واختبروا ونستمد من معلوماتهم ما نستعين به على تحرير متن سياسي وجيز يتضمن أصول ومبادئ علاقاتنا مع العالم الاسلامي. ان فر يقا كبير من العلماء النظريين والعمليين من موظفين وضباط وأساتذة ومهندسين ومزارعين ومستعمرين قد كانوا ولا يزالون في اتصال بالمسلم وجعلوا أحوالهم وعيشته وطرق أعماله موضوع بحثهم ودراساتهم. ولكن المسلمين أنفسهم قد ينبؤنا بما نجهله من يقين أخبارهم فهم اذا سئلوا أجابوا واذا أجابوا أفاضوا وقد كثرت الابحاث في كل موضوع حتى في الموضوعات الصريحة الواضحة ولم يفكر أحد في الامر الذي نحن بصددده وهو من أكثرها غموضاً والتباساً فلماذا لانستعين بالوسيلة التي تفيض علينا أنوار الحقيقة ونطرح من هذه الأنوار شعاعاً على من يريدون اتباع الصراط المستقيم حتى اذا ماتم التحقيق والبحث حرراً بما ينبعث عنهما من الحقائق رسالة تداع على الالسنه وتداولها أيدي الموظفين والمستعمرين وتنشر بين الطلاب في المدارس فتتمحي بها آثار الاضاليل والنهرات الكثيرة وتزول العقبات القائمة وتقال الاقدام من العثرات وتكون تلك الرسالة بمثابة قانون ثابت لفرنسا الاستعمارية يجري على نهجها كل عامل فيعم نفعه وتجنني ثماره وربما كان سبباً في أن نعيش مدة نصف جيل على أساس اختبار الفرنسيين المستعمرين الذين انتشروا في عرض البلاد وطولها الارابطة بينهم ولاصلة، واصلون الصباح بالمساء في الندم والحسرة من عواقب هفوة هفوها أوزلة سقطوا فيها وكانت كلمة واحدة كافية لاقتلهم من عثرتهم واصلاح هفوتهم

ولست أظن أحداً يرتاب في نتائج ذلك التحقيق. وانما قبل ختام هذا الفصل أورد بعض اعتبارات اخلاها ضرورية للوصول الى الغاية المقصودة من أقوم طرقها. أشرت سابقاً الى الصلة الاكيدة بين السياسة والدين في العالم الاسلامي، والمسلمون في الاحوال الراهنة شاعرون شعوراً قوياً بإيمانهم العام غير أن ادراكهم مبهم من حيث الجامعة السياسية وما كان يسميه القدماء بالرابطة المدنية أو الوطنية إذ ينحصر

الوطن عندهم في الاسلام . وهم يقولون ان السلطة مستمدة من الالهية فلا يجوز أن يتولاها إلا من كان من عقيدتهم ولم تدخل في رؤسهم حتى الآن فكرة سوى هذه التي تمكنت من أفئدتهم وأخذت من قلوبهم أمتن مأخذ فكان ذلك سبباً في حدوث سوء التفاهم بين الحاكمين والمحكومين في البلاد الاسلامية الخاضعة لحكومات مسيحية

على أنه بالرغم عن ذلك قد حصل انقلاب عظيم في بلد من هذه البلاد فصلت فيه السلطة الدينية عن السلطة السياسية بدون جلبه ولا ضوضاء نريد به القطر التونسي الذي وضعت عليه الحماية التي مؤداها احترام النظام السابق على الفتح بصيانة القوانين والعادات من المساس والمحافظة على مركز البايع وقد بالغنا في ذلك بحيث تمكنا بواسطة ما أدخلناه من التعديلات الطفيفة شيئاً فشيئاً وأجريناه من المراقبة على الامور الادارية والسياسية من الداخل في شؤون البلاد والقبض على أزمته بدون شعور من أهلها

تم هذا الانقلاب بسرعة ولين فلم يتألم منه الاهلون ولم تنخدش له احساساتهم إذ لبثت المساجد مغلقة في أوجه المسيحيين والاملاك الموقوفة محبوسة على السبل التي خصصت لها وتركت ازمة الاحكام بأيدي القواد والقضاة ولم يغير شيء من القوانين الالهية الابرضى وتصديق من الاهالي وربما كان يطلب منهم وقام باعمال هذا التغيير والتبديل وهذا النسخ والتحويل عدد قليل من الموظفين أكثرهم من التونسيين وجملة القول ان انقلاباً عظيماً حصل بدون ان يحجر وراءه ألماءاً وتوجعا أو شكوى بحيث وطدت الآن دعائم السلطة المدنية من غير ان يلحق بالدين مساس وتسربت الافكار الاوربية بين السكان بدون ان يتألم منها الايمان المحمدي واقترنت السلطة الفرنسية بالسلطة الوطنية اقتراناً لم تفشه سحابة كدر

إذاً يوجد الآن بلد من بلاد الاسلام قد ارتخى بل انفصم الحبل بينه وبين البلاد الاسلامية الاخرى الشديدة الاتصال بعضها ببعض، إذاً توجد أرض تغفلت شيئاً فشيئاً من مكة ومن الماضي الاسيوي . أرض نشأت فيها نشأة جديدة انبتت في قضائها وادارتها وعاداتها واخلاقها أرض يصح أن تتخذ مثالا يقاس عليه

وتمودجا ينسج على منواله ألا وهي البلاد التونسية
 كانت هذه البلاد ميدان التنافس والحلاد اذ حكمت فيها قرطاجة ورومية
 وبيزنطية والعرب وسان لويس وشارلوكان فأصبحت الآن مهبط المسالمة ومعهد
 التصالح والوثام ففيها الدبانتان بل المدينتان متلاصقتان بل متداخلتان حتى تأكدت
 نقط التشابه بينهما وانحسرت فرجة الخلاف وارتفعت الاحقاد من الصدور رغبة
 من الفريقتين في التمتع بمزايا الاراضي الخصبة والسماء الصافية الاديم التي ينزل
 منها على القلوب برد وسلام بلطفاتها ولعل الاطلال العديدة الشاهدة على ماتعاقب
 في الاقطار التونسية من المدينيات القديمة لم تندثر تماما ولم تمنح أثرها كي تهتز لاستقبالنا
 ويوصل بعضها ببعض ما انقطع من حلقات سلسلة الدهر الماضي والزمن الغابر
 ان مسجد القيروان الجامع شيدت عقوده على الاعمدة القديمة وبنيت
 كنيسة الكرد بنال لا فيجرى الكاندرائية تجاه أكمة (بيرسا) التي عبدت فيها
 تانيت . وخلاصة القول أن مزيجاً من التاريخ يرك في هذه الارض تحت
 رعاية فرنسا وانسانيتها ومن المحتمل أن نبعث تلك الآثار من قبور الماضي فتعيش
 في خلال الجيل الذي نطرق الآن أبوابه للترنوع في واسع رحابه اه

رد الاستاذ الامام

١

قرأت الساعة مقال مسيو هانوتو المترجم في جريدتكم نقلا عن جريدة
 « الجورنال » الباريسية تكميلا لبحثه السابق
 بجمه السابق وشيء من ثمنته إنما هو دافق من غيرته على شؤون دولته يريد
 أن يدعو قومه الى التبصر في وضع قاعدة لمعاملة المسلمين الذين يدخلون تحت
 ولايتهم أو يجاورونهم في ممالكهم وذلك لا يتم على مذهبه الا بالبحث في طبيعة
 الأمر الذي صار به المسلمون غير مسيحيين وبه يفضل المسلمون سلطة إسلامية على
 سلطة فرنساوية . فان أمكن تفتيح ماعليه المسلمون بالولاء الفرنسي وسهل الجمع
 بين ماوقفي نفوسهم وبين الخضوع الاعنى لسلطان فرنسا وطاب الجوار في قلوب

الملة الاسلامية لعقيدة الاسلام والطاعة لكل أمر يصدر من آخر فرنساوي في طبقته صح للدولة الفرنسية أن تمن على المسلمين بالبقاء في الارض والاوجب عليها أن تحمل عليهم قبيدهم من البسيطة أو تجلبهم الى قارة أخرى

ولهذا جره البحث الى النظر في أصول دين المسلمين والمضاهاة بينه وبين الدين المسيحي بل بينه وبين أديان كثيرة أشار اليها في كلامه ثم الحكم في تفضيل أحد الدينين على الآخر بأثار كل منهما في نفوس معتقديه

اما غايته من البحث وتناوله بيده محضاً يحرك به نيران العداوة في قلوب الفرنسيين لتثير عزائمهم الى حرب المسلمين وليكون مسيو هانتو للأمة الفرنسية اليوم مثل ذلك الراهب الذي أثار تلك الحروب المعروفة فذلك أمر نكل فائدته اليه والى علمه بمكان دولته من القوة ومنزلة تمدنه من المرحمة والانسانية ونلفت اليه ذكراً بعض شباننا من المسلمين الذين يعرفون اللغة الفرنسية ويتجملون بأداب الامة الفرنسية ويطربون اذا ذكرت المدينة الفرنسية

ولولم يتعرض مسيو هانتو الى الطعن في أصل من أصول الدين ما حركت قلبي لذكر اسمه وكان حظي من النظر في مقاله هو العظة والاعتبار - حظ الناظر في أحوال الامم وأعمال رجالها - حظ المورخ الذي يقرأ ليفهم ويفهم ليعلم ويحكم ولا يهجم أخطأ القائل أو أصاب

أما ما جاء به في التعجك بأصول الدين فهو الذي أغمره بما أكتب اليوم يرى الناظر في كلام مسيو هانتو لاول وهلة أنه مقلد في التاريخ كما هو مقلد في العقائد وأنه جمع خليطاً من الصور وحشرها الى ذهنه ثم هو سلب عليها قلمه ينثرها كما يشاء القدر لهدش بها من لا يعرف الاسلام من الفرنسيين وهو جمهورهم أكثر من ذكر التمدن الآري والتمدن السامي والتفرق بينهما وان أحدهما قهر الآخر وان التمدن الآري هو الذي ظفر بقرنه التمدن السامي وما يشبه ذلك ان مهد التمدن الآري ومنبت غراسه (الهند) لا يزال الى اليوم على الوثنية التي يحبها مسيو هانتو في أغلب أنحاء . ولكن أهلهم الذين قضوا على الآخذين بعقائدهم أن ينقسموا الى أقسام لا يمكن الخلط بينها بل يدوم ثباتها مادامت الارض

أرضاً . ومن طبقاتهم من قضي عليه بالانحطاط في العقل والحلق والصناعة ولا يباح له أن يرتقي الى طبقة ما فوقه الى انتضاء العالم وهو الجمهور الاغلب منهم . وفيهم من حكم عليه بالنجاسة حتى لا يباح لاهل طبقة أخرى أن تمسه . والاعتقاد بفناء العالم وانه لا يليق بالانسان أن يهتم بشؤون العيش فيه هو مبني عقائدهم فهل جاء هذا للآخذين بدين البراهمة من التمدن السامي وهو لم يعرفهم الا في آخر الزمان . ولم يخاطب إلا قلوب القليل منهم كما لا يخفى على من له إلمام بجغرافية البلاد الهندية

ثم هل يظن مسيو هانوتو أن التمدن الذي وصل اليه الاوربيون حمل الى أوربامع المهاجرين الاولين الذين رحلوا من البلاد الشرقية الآرية الى الاقطار الغربية؟ ألم يخطر بباله تلك العظائم التي انتفخ بها بطن التاريخ وما كانت عليه أورب بالآرية من الهمجية وأن العلم والمدنية لم ينبعا من معينها وانما جاءها بمخالطة الأمم السامية كما يعلمه المطلع على تاريخ اليونان الاقدمين وهم أساتذة الاوربيين الآخرين كما يزعم مسيو هانوتو ما هذا التمدن الآري الذي كانت عليه أوربا عند ما انتقص أطرافها المسلمون؟ هل كانت تلك المدنية هي التسافك في الدماء واشهار الحرب بين الدين والعلم وبين عبادة الله والاعتراف بالعمل؟ نعم !!! هذا هو الذي كان معروفاً عند الغربيين وقت مآظهم الاسلام

ماذا حمل الاسلام الى أوربا وما هي المدنية التي زحف عليهم بها فردوها؟ زحف عليهم بما استفاد من صنائع الفرس وسكان آسيا من الآريين، زحف عليهم بعلوم أهل فارس والمصريين والرومانيين واليونانيين، نظف جميع ذلك ونقاه من الأدران والاوزاخ التي تراكت عليه بأيدي الرؤساء في الامم الغربية لذلك التاريخ وذهب به أبلج ناصعاً يبهه به أعين أولئك الغافلين المتسككين الذين كانوا في ظلمات الجهالة لا يدرون أين يذهبون

اني أكيل لمسيو هانوتو إجمالاً باجمال والتفصيل لا يجمله قومه وكثير من منصفينهم لم يستطع الا الاعتراف به

ان أول شرارة ألهبت نفوس الغربيين فطارت بها الى المدنية الحاضرة كانت

من تلك الشعلة الموقدة التي كان يسطع ضوءها من بلاد الاندلس على ماجاورها
وعمل رجال الدين المسيحي على اطفائها مدة قرون فما استطاعوا الى ذلك سبيلا
واليوم يرعى أهل أوربا مانت في أرضهم بعد ماسقيت بدماء أسلافهم المسفوكه
بأيدي أهل دينهم في سبيل مطاردة العلم والحريه وطوال المدينة الحاضرة
يحار القاريء لكلام مسيو هانوتو في معنى المدينة السامية التي جاء بها الاسلام
وتصادم بها مع المدينة الآرية

واعل عنايته بالالفاظ التاريخية مع قصوره عن النفوذ الى حقائق ما أودعته
هو الذي قصر به عن النجاح في أعماله في السياسة الخارجية بين أمة مثل الامة
الفرنساوية التي تنقاد بذكائها الى الاذكياء والعارف بطباع الأمم لا يعسر عليه
أن يقودها الى ما يضمن لها الفوز علي جيرانها وانما العسر كل العسر أن يوجد
فيها ذلك العارف اليوم

ان الناظر في التاريخ تحمر عيناه من مناظر الدماء المتجسدة على جليد الازمان
ذلك ما سفكه أهل ذلك الدين المتحد بالمدينة الآرية ليقاوموا دعاة تلك
المدينة السامية ويخمدوا نارها

ان صح الحكم على الاديان بما يشاهد في أحوال أهلها وقت الحكم جاز
لنا أن نحكم بأن لا علاقة بين الدين المسيحي والمدينة الحاضرة فان الانجيل
بين أيدينا نقرأ ونفهمه ولا يغيب عنا شيء من دقائق معناه، يأمر الانجيل أهله
بالانسلاخ عن الدنيا والزهادة فيها ويوجب عليهم اذا سلبهم السالب قيصاً أن يعطوه
الرداء أيضاً، واذا ضربهم الضارب على خدهم الايمن أن يديره والى خدهم الايسر،
وأن يفنوا بكليتهم في الاب، ويقص عليهم أن دخول الجمل في سم الخياط أيسر
من دخول الغني ملكوت السموات وما شابه ذلك من الوصايا المملوكوتية التي
تليق برسول الهي رباني يدعو الناس الى الانقطاع عن هذا العالم الفاني ليليقوا
بالانتظام في أهل ذلك العالم الباقي

هل خطر ببال مسيو هانوتو أن يجعل مالله لله وما لقيصر لقيصر كما أوصى
الانجيل وهل رأى مثالا لذلك في المدينة الآرية التي تآخت مع لدين المسيحي 119

العيان يدلنا على أن شيئاً من ذلك لم يكن . فان هذه المدينة انما هي مدينة الملك والسلطان ، مدينة الذهب والفضة ، مدينة الفخفخة والبهرج ، مدينة الخنل والنفاق ، وحاكما الاعلى هو الجنه عند قوم واليرا عند قوم آخرين ولا دخل للانجيل في شيء من ذلك

أوصى المسيح بأن يترك ما لقيصر لقيصر حتى لا يشغب المسيحيون على ملوكهم من غيرهم فانقلبت الحال بهم وأصبحوا لا يحمون أن يروا لهم رعايا من غير دينهم فضلا عن ملوك

نعم يوجد قوم الآن يقيمون أوامر الانجيل وهم جماعة من الاميركان تركوا بلادهم وخرجوا من ديارهم وأموالهم وجاءوا الى القدس الشريف ينتظرون نزول المسيح ليستقبلوه لاول هبوطه على المنارة المشهورة وايقنوا أول من يقبل قدميه ويديه . وهم من طهارة القلب وسلامة النفس ونزاهتها عن الطمع بحيث انقطعوا عن كل عمل سوى النظر في الكتب المقدسة فان كانت هذه هي المدينة الآرية التي صارها الدين الاسلامي فأنا أول من يسلم لحججه ويقنع بأدلته

من الساميين الفينقيون وهم أساندة القوم في الصناعة والتجارة بل والقراءة والكتابة ومنهم الآراميون وقد كانت لهم مدينة لا تنكر أيام الرومانيين وما كان الغريون لينكروا فضلهم في ذلك . ومبادئ الصناعة والعمل عند جميع الاقوام المرتقية في سلم الانسانية واحدة وانما يختلف قوم عن قوم بما تحده في نفوسهم ضرورات المعيشة وما تجلبه عليهم عاصفات الحوادث وما تطبعه فيهم طبائع الاقاليم . ولا زالت الامم يأخذ بعضها عن بعض في المدينة لافرق عندهم بين آري وسامي متى مست الحاجة الى تناول عمل أو مادة أو ضرب من ضروب العرفان لدفع ضرورة من ضرورة الحياة أو استكمال شأن من شؤونها وقد أخذ الغرب الآري عن الشرق السامي أكثر مما يأخذه الآس الشرق المضمحل ، عن الغرب المسنقل ، فلم يبق من معنى للمدينة يريده حضرة الكاتب الا الدين وقد ظهر في كلامه أن الدين السامي يراد منه التوحيد والدين الآري يعنى به ما يقابله واني أقرر لهذا الوزير الشهير حقيقة بديهية يعرفها صبيان لمكاتب وهي أن

دين التوحيد ليس ديناً سامياً بل هو دين عبراني فقط عرف به ابراهيم عليه السلام وبنوه ومنهم عيسى من جهة أمه وأصحابه وأنصاره الأولون . أما بقية الساميين من عرب وفينقيين وآراميين وغيرهم من الامم المذكورة في الكتاب المقدس وهو يعرفها فقد كانوا وثنيين مشبهين ولم يخالفوا في ذلك بني عمهم أو أعدائهم الآريين وقد خاض الكتاب في تفضيل التشبيه والتجسيم على التوحيد وذكر لذلك عللاً وأسباباً أدته إليها سعة اطلاعه في الفلسفة وأحوال الاجتماع الانساني وسنأتي على الكلام فيها وهي المفصّد من مقالنا غداً ان شاء الله تعالى وقبل إلقاء القلم أذكر الذين يتفانون في اجلال مثل هذا الوزير كما يتفانى المسلم في الله على رأيه اني انصغرت شأن هانوتو في معارفه التاريخية فذلك لانه صغير فيها حقيقة وكثير من قومه يعرف ذلك منه ولأنه لا أمير في العلم الا العلم والسلام .

٢

نحرش مسيو هانوتو بمسئلتين من أمهات مسائل الدين - القدر والتوحيد أو التنزيه . وبعد أن خلط في بيان وجه الاشكال في المسئلة الاولى واختلاف الناس فيها قديماً وانهم انقسموا إلى فريقين قائل بأن العبد مسير بقدره الله لا عمل لارادته في فعله وذاهب الى أن خالقه وهبته اختياراً يتصرف به فله ما كسب وعليه ما اكتسب ، قال ان الرأي الاول يحط الانسان الى حضيض الضعف والثاني يرفعه الى ذروة القوة ثم وصل الاول بمذهب البوذيين القائلين بفناء الموجودات في الوجود الازلي والثاني بمذاهب اليونانيين القدماء الذين يدينون بتشبيه الآلهة بالانسان في أوصافه المادية وان الاول قعد بأهله والثاني ارتفع بمعتقديه الى مراتب السمكالات الانسانية !! وهو خلط وخبط لم يعهد لهما مثل

ثم انصب على الديانتين المسيحية والاسلامية وقال انهما تمثلان ذنك المذهبين أي مذهبي الناس في القدر وأن الأولى ربانية ورثت ما ترك الآريون، والثانية بشرية أخذت ما ترك الساميون، وان الأولى ترقى بالانسان الى المقام الالهي ، والاخرى تنزل به الى أسفل درك حيواني، ويظهر ميل كل من الدينين ظهوراً بيئاً في الاصل الذي بني عليه كل منهما فأصل الأول هو إيجاد الآله

الاب للاله الابن حتى كان الها بشرا واتصال الالهين بروح القدس . وأصل الثانية تنزيه الاله عن البشرية وتقديسه الى حد تنقطع فيه النسبة بينه وبين الانسان ثم رجع بعد هذا الى الخلط بين الدينين وردهما الى أصول واحدة وعقد التشابه بينهما الى آخر ما أطال به على غير جدوى

هل عهد بين الكتاب وأهل النظر تشويش في الفكر وخلل في المقال يشبه ما جاء به هذا الكتاب؟ أذع الحكم في ذلك لمن له أدنى إلمام بمذاهب الامم وآرائهم لم يختص الكلام في القدر بملة من المثل مشبهين أو منزهين ولا دخل للتشبيه والتنزيه في شيء من ذلك بل كان منشأ الكلام في ذلك الاعتقاد باحاطة علم الله بكل شيء وشمول قدرته لكل ممكن

وقد عظم الخلاف في المسئلة بين المسيحيين أنفسهم وهم مشبهة في رأي مسيو هانوتو وبدأ النزاع بينهم قبل الاسلام واستمر الى هذه الايام ولعل هانوتو اطلع على مذهب التوميز - اتباع القديس توما - أو الدومينيكيين وهم جبرية وأشباع (لو يولا) وهم قدرية اختيارية ولكل من المذهبين شيعة بين أهل الملة المسيحية . وليس هذا بمذهب سامي كما يزعم بل لم تنبت أصوله ولم تشعب فروعه الا بين الآريين ثم انتقلت عدواه الى غيرهم

هل سمعت يهودي استلقى على قفاه وترك العمل اتكالا على القدر؟ هل سمعت بأحد من الفينيقيين (وقد وصلوا بزوارقهم ذات المجاذيف الى جزائر بريطانيا) انه كان ينام ويتلذذ بالاحلام اعتمادا على ما يسوقه اليه الغيب؟ لكن سمعنا بذلك في الاديار وبين الرهبان وعرفنا أخبار ذلك الجيش العرمم من المتكدين الذين كانوا يعيشون عالة على الناس حتى ضجت منهم أوربا في زمن من الازمان وطلبت الخلاص منهم بالصارم البتار

وقد اشتهر مذهب أهل البخت والاتفاق بين اليونانيين ولم يخف أمره على صغار المتعلمين لمبادي الفلسفة - ذلك المذهب الذي يبنثون كتب الفلسفة بابطاله وهو مذهب القائلين ان الاشياء توجد بالاتفاق أو بالمصادفة ولا يحتاج الممكن في وجوده الى سبب . أليس هذا أدخل في باب الجبرية من اسناد كل

أمر الى خالق الكون ؟ وهل يرتفع هذا المذهب بمعتقده الآري الى منازل الرفعة
ومكانات الشرف ؟

جاء القرآن الشريف وهو الكتاب المنزل بالاسلام يعيب على أهل الجبر
رأيهم وينكر عليهم قولهم « لو شاء الله ما أشر كنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء »
بقوله « كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم
فتمخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن وان أنتم الا منحرفون » وأثبت الكسب والاختيار
في نحو أربع وستين آية . وما جاء به مما يقوم الناظر فيه ما يخالف ذلك فانما جاء في
تقرير السنن الالهية العامة المعروفة بنواميس الكون كما في آية (ولو شاء ربك
لجعل الناس أمة واحدة) الخ ونحوها

والعاقل يرى الفرق الجلي بين مسألة اخنيار العبد في أفعاله وبين اثر القدرة الالهية في
أخلاق الأمم أوفي تعريز الفرائض مثلا . فاخنيار العبد في أفعاله مما يقربه الوجدان ولا
ينكره إلا من جهل نفسه لكن ما عليه الامم من الاختلاف في الطباع والفرائض والسجيا
ليس لاحد من خلق الله فيه اختيار بل خلقه كخلق السموات والارض وما بينهما
وجاء النبي صلى الله عليه وسلم في عمله وقوله بما يؤيد ذلك فكان العامل
الذي لا يكل ، والدائب الذي لا يمل ، والساهر الذي لا ينام ، والحاد الذي لم يبلغ
شأوه أحد من الأنام ، هل نقل عنه أنه اتسكأ يوما على سادته واكتفى بالتسليم
للقدر في إتمام دعوته قائلا : الذي كف لي النصر يكفيني التعب ، وضمان الله لاعلاء
كلمة دينه تفنيني عن النصب ؟ كلا بل لم تكن تزيده الوعود الصادقة إلا نشاطاً ،
ولانجد العصمة الالهية من نفسه إلا حزماً واحتياطاً

جاء أصحابه على أثره وتبعهم من جاء بعده من السلف الاولين وكانوا أكمل
الناس إيماناً باحاطة علم الله وشمول قدرته وأعرف الناس بقدر ما آتاهم الله من
قوتي العقل والاختيار وكانوا أسوة في السعي ومثلاً في الدأب والكسب حتى كان
من آثارهم في نشر الاسلام ما يتألم منه اليوم هانوتو وأمثاله

هذه هي العقيدة السامية أو الدعوة المحمدية أو المدنية الاسلامية ارتقت
بأربابها وهم من أهل البداوة في قاصية من الارض لم يتعلموا بشيء من نعيم

الحضر ، ولم يتذوقوا طعم العلم والصنعة، حتى بلغت بهم ما بلغت واستوت بهم على عروش العزة والسلطان ، ثم بلغوا بها من رقة الوجدان وصفاء العقل مبلغاً مكنهم من التلطف بالامم حتى وقفوا على ما كان خفياً لديها وكشفوا ما كان مستوراً عندها واستخرجوا من كنوز معارفها ما ظهر فضله على الأوربيين بعد عدة قرون من البعثة النبوية ولكن وأسفاه نتأت روءوس بين المسلمين ، كأنها روءوس الشياطين، واحتملت غناء من قمش الآريين، وقذفت به في الارض الطاهرة فتدنس به أديها ، وانتشر قدره ، وعظم ضرره ،

جاء الموالي من عجم الفرس والرومان ولبسوا لباس الاسلام وحملوا اليه ما كان عندهم من شقاق ونفاق وأحدثوا في الدين بدعة الجدل في العقائد وخالفوا الله ورسوله في النهي عن الخوض في القدر وخدعوا المسلمين ببرج القول وزور الكلام حتى كان ما كان من تفرقهم شيعاً والله يقول لنبيه (ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء)

وجد بين المسلمين طائفة تعرف بالجبرية ولكنها كانت ضعيفة ضئيلة يقذفها الحق ، ويطردها العقل ، وينبذها الدين، حتى انقرضت بعد ظهورها بقليل ولم تبق بينهم بقاء الثوميين بين النصارى . وغلب على المسلمين مذهب التوسط بين الجبر والاختيار وهو مذهب الجد والعمل وصدق الايمان وأخذة عن المسلمين في أخريات الايام أهل النظر من النصرانية مثل «بوسويه» ومن مال ميله وتبعهم الجمهور الاعظم منهم ولكن لأنكر أن الزمان تجهم للمسلمين كما كان قد تنكر لغيرهم وابتلاهم بمن فسد من المتصوفة من عدة قرون فبثوا فيهم أوهاما لانسبة بينها وبين أصول دينهم فلصقت بأذهانهم لاعلى أنها عقائد ولكنها وساوس قد تملك الجاهل وتربك العاقل اذا لم يغلبها بعوامل الدين الصحيح فنشأ الكسل بين المسلمين بقشو الجهل بأصول دينهم وعاون على ذلك ميل الاعلياء منهم الى توريطهم فيما هم فيه كما هو شأنهم في كل أمة

وهذا الضرب من المتصوفة أيضاً من حسنات الآريين فانه جاءنا من الفرس والهنود بما بقي فيهم من عقائدهم الاولى

ما أضل هانوتو وأمثاله من قصار النظر الا أوائلك الدراويش الحبيثاء أو البله الذين
 يغشون أطراف الجزائر وتونس ولا يخلو منهم اليوم قطر من أقطار الاسلام ممن
 اتخذ دينه متجراً يكسب به الحطام، وجعل من ذكر الله آلة لسلب الاموال من الطعام
 أما لورجع المسلمون الى الحقيقة من دينهم لأدوا فرضهم، واستنبتوا أرضهم،
 واستغزروا من الثروة، وأعدوا لفرنسا ما استطاعوا من قوة، واعتمدوا في نجاح أعمالهم
 على معونة القدر، وأيقنوا في صولتهم علماً أن ليس من الموت مفر، ثم صال صائلهم
 على مكان العزة منها، ونال ما ينال القوي من الضعيف، والعزيز من الدليل، ولا تقلب
 جنونهم لدى هانوتو عقلاً، وتحول هذيانهم حكمة وعلماً،
 هذا ما يتعلق برأيه الضئيل في مسألة القدر عند المسلمين أما التنزيه والتشبيه فانا
 نوفيه حقه في تلمة لهذا المقال ونشفق على القارئ اليوم من الاملال والسلام»

٣

اليوم آني على آخر القول لكسر شرية هانوتو في توثبه على الاسلام وما نفي بالكلام
 فيه اليوم هو التوحيد والتنزيه وخصمه التشبيه والتجسيد (الاعتقاد بتجسد الالهية)
 ونبدأ بالكلام في الثاني ونحتم بالحديث عن الاول
 ان كان مسيو هانوتو قرأ شيئاً في أحوال الأمم ونشأة العقائد وعقله يعلم أن
 الوثنية وتوهم السلطان الالهي ظاهراً في بعض الموجودات المادية كانت عقيدة
 الواقفين على أبواب الانسانية لم يدخلوها ولم يتوسطوا منازلها وكانت ولا تزال
 دليلاً على انحطاط عقول أهلها مع تفاوت في درجات ذلك الانحطاط تبتدىء
 من وثني أفريقيا وتنتهي الى بوذي الصين وبرهن الهند
 كلما ارتقى الانسان في العلم، ولطف وجدانه بالفهم، ونفذ عقله في أسرار
 الكون، تميزت دون روجه حجب المادة وأنجلي له الوجود الاعلى على تفاوت
 كذلك في درجات الظهور والانجلاء تنتهي الى الاعتقاد بوجود واحد واجب
 يستحيل عليه أن يلبس لباس المادة على النحو الذي يظنه مسيو هانوتو وأمثاله
 لان ما لاحد له محال أن تحيط بوجوده الحدود
 وقد كان هذا شأن اليونانيين الذين يفتخر هانوتو بمدنيتهم نشواً وثنيين

ولازالت الوثنية ترق وترث بارتقائهم في العلوم وبمحت فلاسفتهم في طبائع الكائنات حتى انتهوا وهم في ذرى مدنيتهم الى التوحيد وتنزيه واجب الوجود عن مخالطة المادة . وقف فيثاغورس على غنبة التقديس وجاء بعده سقراط وأفلاطون وأرسطو مجاهدين في كشف الغمة عن عيون شعوبهم باذلين الوسع في محو ماغشي نفوسهم من ظلمات الوثنية الاولى ومن قرأ جمهورية أفلاطون التي نقلت الى العربية أيام المأمون تحت اسم (المدينة الفاضلة) علم كيف كان يقارع أفلاطون ما بقي من آثار الوثنية من الآراء السخيفة والعادات الرديئة التي كانت تحول بين الامة اليونانية وما ينبغي لها من الفضائل التي كان يطمع الفيلسوف أن تكون عليها

و بعد أن أوصلهم العلم الى التوحيد لم يرند بهم التنزيه الى الجهل بل بقيت شمس مدنيتهم تشرق في العالم قرونا متعددة وكانت أشد صفاء وأبهر سطوعا كذلك قدماء المصريين لم يقف بهم العلم دون التوحيد غير أن رؤساء دينهم لم ينشروا تلك العقيدة بين عامتهم واستبقوا صور العبادات الاولى وألبسوا التنزيه ثوب التشبيه استثنارا منهم بشرف العقيدة على من دونهم

فترى ضعف العقل وقلة العلم ونقص الادراك تقف بصاحبها عند الوسائط وقوة العقل ونفوذ البصيرة وسعة العلم تصعد باهلها الى مشهد الوجود الأعلى وتشرق بهم من هناك على العالم بأسره فيرونه عظيمه وحقيقه سواء في النسبة الى تلك القدرة الشاملة والعظمة الغالبة - الفاضل والمفضول ، والفروع والاصول، وماظهر للابصار وما نفذت اليه العقول ، كل ذلك يستمد وجوده من مشرق الوجود على مراتب قدرتها الحكمة ، وتمت بها النعمة ، فأى مقام أعلى من مقام صاحب هذه العقيدة حيث قام شاهدا على الكون بجملته ما فصل منه في فهمه، وما أجمل في كليات علمه، يحكم عليه بأنه مربوب لرب واحد هو رب العالمين وأن لاسلطان لشيء من هذا جميعه على نفسه لافي الایجاد ولا في الامداد بل هو وحده يمكنه بما سن له الشرع الآلهي أن يصل بنفسه الى تلك الحضرة وان يستمد منها المعونة في كل شؤونه ينقسم أهل التشبيه الى قسمين أحدهما من يعتقد الألوهية في بعض الموجودات المشهودة ويقف عند ما يعتقد منها والآخر يعتقد بأن الكون يظهر في بعضها

أما الاولون فهم الذين ضعف الادراك فيهم عن الاحاطة بمحقائق الاكوان
فاذا ظهرت عليهم آثار قوة من القوى أو سلطنة حيوان من الحيوانات ظنوه المنفرد
بالقدرة عليهم، وأنهم اليه يرجعون في جميع أمورهم، فهو لاء يسלטون على أنفسهم
ماشوا وشاء لهم الجهل من جناد وحيوان وانسان ولا يزالون حيارى في شؤون
حياتهم حيرتهم بين معبوداتهم ثم هم يقيسون معبوداتهم بأنفسهم لأنها ليست بأبعد
منهم في النوع أو الجنس و يقدرون لها رغائب وشهوات تفوق رغائبهم وشهواتهم ،
يسارعون في ارضائها بما يعين لهم وكما تشرع لهم أهواؤهم ومن ذلك كانت ترتكب
القبائح في هياكل الآلهة وتنهنك حرمت الفضائل في محاربيها وتقدس الذبائح
الانسانية بين يدي التماثيل الحجرية وأي درك ينحط اليه الإنسان أنزل من
هذا وأمر ذلك معروف في التاريخ ولا تزال مشاهدته الى اليوم معروفة

أما الآخرون فهم أرقى درجة من اولئك في الادراك ولكن ماذا أصابهم ويصيبهم
من ذلك الاعتقاد؟ كانوا اذا فاقهم انسان في عقل أو شجاعة أو صدر منه ما لا يألون
من الاعمال أو ظهر بما لا يعرفون من الاحوال ظنوه مظهرا للوجود الالهي فدانوا
لسلطانه ، واستكانوا لغيره ، وأخذوا أنفسهم بالخضوع لارادته فسلبهم كل ما كانوا
يملكونه من عقل و ارادة وعزم ، وحق عليهم الصغار ما داموا على تلك العقيدة

وقد سهل هذا الوهم على كثير من أهل الدهاء أن ينزلوا من الناس منازل الآلهة
طمعا في استعبادهم . وكم قاست الامم من الرزايا التي جلبتها عليهم هذه العقائد الضالة
ويقرب من هؤلاء قسم ثالث ليس بخير من القسمين الآخرين وهم
المعتقدون بالوسائط . ما قدروا الله حق قدره فقاوسوه على الكبراء وأهل السمو
منهم فظنوا أنه في مذكوته ، كذلك في جبروته ، يصطفي لنفسه مدبرين من خلقه ،
ويستصنع عمالا للتصرف في شؤون عبادته ، فاذا امتاز أحدهم بما يعتقدونه
زلفى الى الله ، أو صدر منه ما يظنونه دليلا على انه من المقرين اليه رفعوه الى تلك
المرتبة — منزلة الاصطفاء للتصرف في الكون فاتخذوه شفيعا لديه . يلجؤون اليه في
مهات اعمالهم ويستجدون منه المعونة بما له من الدالة على ربه . واذا سئلوا عما
يفعلون وما به يدنون قالوا « ما نعبدهم الا ليقربونا اليه زلفى »

ماذا أصاب هؤلاء من شر ما اعتقدوا؟ استعبدوا للسادن والكاهن
والزعماء ووارثيهم واستسلموا لهم في جميع شؤونهم، فكانت علومهم من أوهامهم،
وأفهامهم واقفة عند خيالاتهم، ينكرون الأليات من المعلومات، اذا توهموا انها
تخالف تلك الموهومات التي نلقوها من زعمائهم. ثم كانوا يتركون مسائل العمل
انكالا على ما يستمدونه منهم ولا يزال التاريخ يشهد على ما قاسته الانسانية من
بلايا هذه العقائد والعيان يؤيده في كثير من الامم في الشرق والغرب الى اليوم
هذه مفسد الوثنية وما جاورها لا ينكرها مطلع على مبادي العلوم الصحيحة

بل يعرفها كثيرون من العامة الذين لم ينشوا في جوها الفاسد
أما زعم هاتوتو أن وثنية اليونانيين كانت ترتقي بالافراد في سلم الفضائل
طعنا في نيل مرتبة الألوهية فهو زعم لم يقل به من المسيحيين سواه فيما أعلم .
ولم يقل أحد من اليونانيين أنفسهم أنهم كانوا يسعون في كسب الفضائل من طريق
التوصل الى مقام الألوهية ولان الألوهية البشرية تركت فيهم أثرا صالحا بل لم
تورثهم الا تلك الرذائل التي قام سقراط وأفلاطون لمحاربتها. أما السعي الى الفضائل
فكان للتقرب لاربابها كما هو معلوم

أما حكمة على المسيحية بأنها من ناحية الديانة اليونانية فذلك أدع الكلام
فيه الى المسيحيين أنفسهم . ولكني أقول ان المسيحية بذلت وسعها في بداية
امرها لتطهير الارض من الوثنية التي كان الناس عليها في عهدا وجاهدت من
تلوث بعقائدها من اليهود والرومانيين وانبث رجالها من الوثنيين بدعوتهم الى
الاله الواحد وكان التنزيه قوام دعوتهم كما يعلمه المدقق في فهم كلامهم ولم تظهر
آثار التشبيه فيها إلا بعد قرون من نشأتها وثار يخ الامبراطور قسطنطين معروف
عند اهل التاريخ وغيرهم لاحاجة الى تفصيل ما كان منه

ثم لما امتد الفلوف في التشبيه ظهرت المظالم وعظمت المغارم واختفى العلم وخسى
العقل وتهدمت أركان النظام واستشرى الفساد في الامم النصرانية حتى ظهر
الاصلاح وقضى على ما سبقه واستقامت أوربا في طريقها المعروفة اليوم وقد
اشرنا الى شيء من أسباب ذلك

لم نسمع أن أحد من المسيحيين يعبد الله لينال رتبة المسيح فيكون الهاً بشراً كما يؤخذ من عبارته . ولم نر أثراً لاحدهم يدل على أنه عقل عقيدة التثليث على هذا النحو الذي ذكره . ولكنهم يصرحون بأنها عقيدة لا مجال للعقل فيها ، فلا يمكنه له في أن يخطئها ، وقد قامت طوائف منهم في أزمان مختلفة تصرح بأن فرقاً بين ما لا يصل اليه العقل وما يناقض حكم العقل وذهبت الى أن المسيح لم يكن الانبياء مختاراً بعثه الله لخلاص البشر من سلطان الشيطان وحلوا الابن على المصطفى (المختار) والاب على الرب الرحيم * وأعرف بعض طوائف البروتستانت اليوم وان كانت قليلة العدد يذهب الى تأويل الكلمة بالعلم بروح القدس بالحياة وقد لا يقر بعضهم في بعض أسفاري وأكد لي أن لهم شيعة تدين بذلك

وهل كانت المسيحية في سالف الأزمان تجاهد من حولها من الوثنيين لتخرجهم من وثنية الى وثنية ؟ نعوذ بالله من هذا الخطب الصادر من محب غير عالم اني أرفع أدبا من أن أعلم في عقائد المسيحية في جرادة وقد أمرت أن اجادل بالتي هي أحسن . ولكنني أرجع الى الكلام في الآثار التي غني هانوتو باتخاذها دليلاً

جاء الاسلام يدعو العالم بأسره الى التوحيد وصرح بأن دين التنزيه هو دين الله من لدن آدم ونوح وإبراهيم الى موسى . ثم هو دين الانبياء بعد موسى ودين خاتم رسل اسرائيل عيسى عليه السلام ولم يذكر أن في اليهود وفي المسيحيين خصوصاً أهل تنزيه وذكروا أنهم من مال الى التشبيه ودعاه الى الرجعة الى أصل دينه حتى يقوم بالعبادة لله وحده ويعتق من سلطة الرؤساء والزعماء الذين اغتصبوا عقله وملكوها وهم

هبت الوثنية واليهودية والنصرانية لما واة الاسلام وكانت أكثر عدداً وأوفر عدداً وأعظم قوة وأشد بأساً فلم يكن الا قليل من الزمن ثم ظهر الحق ونفذ شعاعه الى القلوب فدخل الناس فيه أفواجا من كل ملة من هذه الملل فأعنت المهمم وافسكت العزائم من أسرها وأخذ كل يطلب من الكمال ما يعد له استعدادة الممنوح له من واجب الوجود وأخذ المعتقدون بالتوحيد والتنزيه يشرفون من

شرفات الايمان على أسرار الوجود ومزقوا تلك الحجب والاوهام واتصلوا بمنابع العلم من الفكر والنظر والدين ولم يكد أهل الملة يستريحون من الشغب الذي هبت ريحه بينهم حتى سطعت أنوار العلم فيهم ولم يبق باب من أبوابه الا دخلوه ، ولا مرتقى من مراقبه الاعلوه ، ولم يبق متروك من مخلقات اليونان والفرس والرومان الا استخرجوه من زوايا النسيان وجلو صدأه وأبرزوه للانظار

هذا أثر الاسلام وهو دين التنزيه ولم يكد ينتهي القرن الثاني من ظهوره حتى جال المسلمون في علوم السموات والارض وصححوا الاغاليط ونقحوا القواعد وحرروا الاصول وفي مفتتح القرن الثالث أقاموا المراصد ومسحوا الارض وآتوا في ذلك بما هو معهود لاهل العلم في ديارنا وديار موسيو هانوتو

اتي أكتفي فيما يقابل هذا بقول جماعة من أهل النظر في الامم الغربية اليوم: أقامت النصرانية في الارض ستة عشر قرنا ولم تأت بفلكي واحد وأخذ المسلمون يبحثون في هذه العلوم بعد وفاة نبيهم بوضع سنين: ومع هذا لا يعد ذلك طعنا في أصول الديانة المسيحية وإنما هو طعن في تصرف القائمين عليها والمحرفين لها عما جاءت له يظن هانوتو ان الاسلام قطع الصلة بين العبد وربه ولكنه وهم في ذلك فان الاسلام افضى بالعبد الى ربه وجعل له الحق أن يقوم بين يديه وحده بلا واسطة تبينه رضاه - قضى الاسلام بأن لا يكون للكون الا قاهر واحد يدين له بالعبودية كل مخلوق وحظار على الناس مقامين لا يمكن الرقي بهما - مقام الالهية التي تفرد بها ومقام النبوة التي اخص بمسماها من شاء ثم أغلق بابها وما عدا ذلك من مراتب الكمال فهي بين يدي الانسان وينالها استعداده لا يحول دونها حجاب الا ما كان من نقصيره في عمله أو قصوره في نظره

إذا اعتقدت بقصور فضل الله عنك وقفت نفسك حيث وضعتها ولن تستطيع الى التقدم سبيلا هكذا يرفع الاسلام الصحيح نفس صاحبه وهذا هو معنى الاسلام والاستسلام الذي أخطأ في فهمه مسيو هانوتو فهل بقي الانسان مع هذا المعنى من الاسلام في درك من الحيوانية وفي هجرة عن التوسل بالاسباب الى مسبباتها في كيب الفضائل والكمالات

يجب على الباحث في الاسلام أن يطلبه في كتابه كما يجب عليه ان يطلب آثاره والاسلام اسلام والمسلمون مسلمون ولو استشم مسيو (كميون) الذي استشهد هانوتو بكلامه ريح العلم لما استفرغ ذلك القدر من فيه، ولا حاجة إلى الكلام فيه، فسخافة رأيه وقلة ادبه تكفيه

من أين أتى المسلمون وكيف دخل عليهم في عقائدهم بالتشبيه، وفي عوائدهم بالتقوية، ومن تعلموا الاقتراس وعن أخذوا الضراء بالشهوات؟ أنا أعلم ذلك وأهل العلم يعلمون والله من ورائهم محيط

اتبع المسلمون سنن من قبلهم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى سقطوا في مساقطهم، وطارحوم الاوهام حتى انجروا الى مطارحهم، وباروا بما كان لهم وما عليهم حدثت في الدين بدع أكلت الفضائل، وحصدت العقائل، وترامت بالناس إلى حيث يصب عليهم ما استفرغه (كميون)

أما لورجع المسلمون إلى كتابهم، واسترجعوا باتباعه ما فقدوه من آدابهم، سلمت نفوسهم من العيب وطلبوا من أسباب السعادة ما هداهم الله إليه في تنزيله وعلى لسان نبيه ومهده لهم سلفهم وخطه لهم أهل الصلاح منهم واستجمعت لهم القوة، ودبت فيهم روح الفتوة، وكان ما يلقاه هانوتو وكميون من دين صحيح، شراً عليها مما يخشونه من دين شوهته البدع

يرى كميون أن يخلى وجه الارض من الاسلام والمسلمين ويستحسن رأيه هانوتو لولا ما يقف في طريق ذلك من كثرة عدد المسلمين وبشما اختارا لسياسة بلادها أن يظهرها ضعفها ويعلنا خطل رأيهما وضعف حلمها

أما فليعلمنا وليعلم كل من يخدع نفسه بمثل حلمها ان الاسلام إن طالت به غيبة، فله أوبة، وان صدعته النوائب فله نوبة. وقد يقول فيه المنصفون اليوم من الانكليز مثل اسحق طيلر وهو قس شهير ورئيس في كنيسة :

« انه يمتد في أفر يقياومعه تسير الفضائل حيث سار فالكرم والعفاف والنجدة من آثاره، والشجاعة والاقدام من أنصاره، »

و يأسف أشد الأسف من أن السكر والفحش والقمار انتشرت بين السكان بانتشار

دعوة المبشرين بينهم . وقال « انه يختار اسلاماً لا سكر فيه على مسيحية فيها سكر » ثم هو لا يزال ينتشر في الصين وغيره من أطراف آسيا وسترشده الحوادث الى طريق الرجوع الى طهارته، وتنثني به الملمات الى ما كان عليه لاول نشأته، وتدرك عند ذلك الامم منه خير ما نرجو ان شاء الله

لوا سلمت الامة الفرنسية بأسرها وفي مقدمتها مسيو هانوتو وكانت معاملة الغير الفرنسية وبين على مانعه في الجزائر ومدغسقر هل ترجو من سكان مستعمراتها أن يميلوا اليها وأن لا يتهزوا للفرص للثورة عليها . كلا فها ظنك بالمسلمين وهم يسمعون قصف هذا الرعد ولا يرون من المتغلبين عليهم الا الجدفي اهلاكم والدأب في إفناهم ان العدل ورعاية الحقوق واحترام المعتقدات بعد معرفة أصولها هي التي تخفف على المغلوب سلطة الغالب وتدنو به منه وتهون عليه الرضا عنه ولكن هانوتو وأترابه من ساسة الفرنسية بين لا يعرفون شيئاً من هذه الاركان الثلاثة ولا يزالون يهرفون بما لا يعرفون حتى يصلوا الى ما كانوا يحسبون فلينتظروا انا معهم من المنتظرين اه

﴿ بقول جامع الكتاب ﴾

لما نشر هذا المقال انبرت جريدة الاهرام للمناقشة فيه والرد على كاتبه زاعمة انه مبني على تحريف في ترجمة مقال هانوتو ولكن شهد كثيرون من العارفين بالفرنسية ان الترجمة صحيحة ومنهم صاحب جريدة اللواء . ولما اطلع موسيو جبرائيل هانوتو على ما كتب في الاهرام الفرنسية كتب مقالة أخرى في جريدة (الجرنال) موضوعها الاسلام أيضا وترجمتها جريدة المؤيد في عددها (٣٠٦٦) الصادر في ٢٢ المحرم ١٣١٨ (٢١ مايو ١٩٠٠) قال فيها انه لم يرض فيما كتبه أولاً والنصارى لأنهم عدوه منحيزاً الى المسلمين ولا المسلمين لان أحد أمتهم رد عليه ناسباً اليه أقوال كيمون التي احتاط في نقاها ولم يقرها ثم قال ما ترجمته « ولذلك أرى أن ذلك الامام العظيم صار في بحثه أشبه بمن يدفع باباً مفتوحاً من ذاته سواء قرأ ما سطرته في الاصل الفرنسي أو وقف عليه من الترجمة إيماناً لم يفهم مرادى وإيماناً الترجمة كانت فاسدة لم تتوفر فيها شروط الامانة لذلك أناشده بذمته الطاهرة أن يوقف من يأتمرون بأمره ويصيخون لأقواله على حقيقة فكفرتي التي كشفت القاب عنها في آخر مقالتي وكلها احترام واعتدال ومسالمة وتوفيق »

بسمارك والدين

﴿ نبذة نشرت في العدد ٤٤ من السنة الاولى من المنار وكانت جريدة ﴾
 رأيت في وقائع بسمارك التي نشرت بعد موته بقلم كاتب أسراره موسيو بوش
 كلاماً جاء به البرنس وهو على مائدة الطعام مع جلسائه يتعلق بالدين فاستحسنت
 ترجمته ليطلع عليه من لم يعن بقراءة هذا الكتاب من شباننا الذين يعدون
 النسبة الى دينهم سبة والظهور بالمحافظة عليه معرفةً ويعلموا أن الايمان بالله وبالوحي
 الآلهي الى أنبيائه ليس نقصاً في الفكر ولا ضللة عن صحيح العلم ولا عيباً في
 الرياسة ولا ضعفاً في السياسة

جلس البرنس بسمارك على مائدة الطعام فرأى بقعة من الدهن على غطاء
 المائدة فقال لاصحابه « كما تنتشر هذه البقعة في النسيج شيئاً فشيئاً كذلك ينفذ
 الشعور باستحسان الموت في سبيل الدفاع عن الوطن في اعماق قلوب الشعب ولو
 لم يكن هناك أمل في الاجر والمكافأة . ذلك لما استكن في الضمائر من بقايا
 الايمان . ذلك لما يشعر به كل أحد من ان واحداً مهيمناً براه وهو يجالذ ويجاهد
 ويموت وان لم يكن قائده براه ، فقال بعض المرتابين : أنتظن سعادتكم أن
 العساكر يلاحظون في أعمالهم تلك الملاحظة ؟ فأجابه البرنس :

« ليس هذا من قبيل الملاحظات وإنما هو شعور ووجدان . هو بوادر تسبق
 الفكر . هو ميل في النفس وهوى فيها كأنه غريزة لها . ولو أنهم لاحظوا لفقدوا
 ذلك الميل وأضلوا ذلك الوجدان . هل تعلمون اني لا أفهم كيف يعيش قوم
 وكيف يمكن لهم أن يقوموا بتأديبة ما عليهم من الواجبات أو كيف يحملون غيرهم
 على أداء ما يجب عليه ان لم يكن لهم ايمان بدين جاء به وحي سماوي واعتماد
 بالله يحب الخير وحاكم ينتهي اليه الفصل في الاعمال في حياة بعد هذه الحياة »
 ثم ساق الوزير كلامه على هذا النمط بأسلوب آخر فقال

« لو نقضت عقيدتي بديني لم أخدم بعد ذلك سلطاني ساعة من زمان .
 اذا لم أضع ثقتي في الله لم أضعها في سيد من أهل الارض قاطبة . لكن انظروا

اليّ تجدونني قد ملكت من موارد الرزق ما يكفيني وارتقيت من المناصب مالا مطمع بعده فلماذا اشتغل؟ ولم أجهد نفسي في العمل؟ ولم أعرضها للهوم والالام؟؟ لا يعنني على شيء من هذا الاشعوري بأنني في جميع ذلك أعمل عملي لوجه الله. لو لم يكن لي ايمان بالعناية الالهية التي قضت بأن يكون لهذه الامة الالمانية شأن كبير وأثر في الخير عظيم طرحت لساعتي ما حملته من أثقال ووظائف الحكومة . ماذا أقول؟ بل لولا ذلك الايمان لما قبلت شيئاً من هذه الوظائف لان الرب والالاقاب لا بهاء لها في نظري . لولا يقيني بحياة بعد الموت ما كنت من حزب الملكية . لو لم يكن هذا اليقين لكنت جمهورياً . نعم أنا جمهوري بالفطرة يتبين ذلك من الغارات التي أشنها على هنات (خصال، الشر) رجال الحاشية من مدة تزيد على عشر سنين . من هذا يظهر أن ايماني قد بلغ من القوة أعلاها حتي حملني بقوته على ان أكون ملكياً . أسلبوني هذا الايمان تسلبوني محبتي لوطني اعلموا انني لو لم أكن مسيحياً مخلصاً لم يكن لسكم وزير كبير مثلي يدبر أمر الاتحاد الالمانى . لو لم أكن مخلصاً في ديني لوليت ظهري جميع الحاشية ولو وجدتم لي في الغد خلفاً يكون أخلص مني في يقينه لا نقلت من المنصب في الحال . ما أعظم مسرتي بهجر الوظائف لو تعلمون . اني أحب المعيشة في القرى والحقول أحب الآجام ومناظر الخليقة . انزعوا مني هذه الرابطة التي تصلني بالله تجدونني من الغد رجلاً يأخذ أهبتة للسفر الى (وارزين) ليشتغل بجرانة أرضه وتنمية غرسه . ان لم أكن خاضعاً لامر آلهي فلم أضع نفسي تحت طاعة هذه العائلة المالكية مع انها تتصل بأصل ليس بالاعلى ولا بالانبل من الاصل الذي تتصل به عشيرتي »

هذا كلام بسمارك وهو يدلنا على ان هذا الرجل العظيم كان يعتقد ان عظام أعماله انما كانت من مظاهر ايمانه وان الاعتقاد بالله والتصديق باليوم الآخر هما الجناحان اللذان طار بهما الى عالم يدركه فيه مفاخر ولم يكتره مكائثر

آثار محمد علي في مصر

﴿ نشرت في الجزء الخامس من مجلد المنار الخامس ﴾

لفط الناس هذه الأيام في محمد علي وماله من الآثار في مصر وأهلها وأكثرت الجرائد من الخوض في ذلك والله أعلم ماذا بحث المادح على الاطراء، وما ذاحل القادح على الهجاء، غير انه لم يبحث باحث في حالة مصر التي وجدها عليها محمد علي وما كانت تصير بالبلاد اليه لو بقيت وما نشأ عن محوها واستبدال غيرها بها على يد محمد علي. اذ كر الآن شيئاً في ذلك ينفع به من عساه ينتفع، ويندفع به من الوهم ما ربما يتدفع،

كانت حكومة البلاد المصرية قبل دخول الجيش الفرنسي فيها أنواع من الحكومات التي كانت تسمى في اصطلاح الغربيين حكومات الاشراف وتسمى في عرف المصريين حكومات الالتزام وتعرف عند الخاصة بحكومات الأقطاع. وأساس هذا النوع من الحكومات تقسيم البلاد بين جماعة من الامراء يملك كل أمير منهم قسماً يتصرف في أرضه وقوى ساكنيها وأبدانهم وأموالهم كما يريد فهو حاكمهم السياسي والاداري والقضائي وسيدهم المالك لرقابهم. ومن طبيعة هذا النوع من الحكومة أن تنمو فيه الأثرة وتغلظ فيه أصول الاستبداد وفروعه وتنزع نفس كل أمير الى توسيع دائرة ملكه بالاستيلاء على ما في يد جاره من الامراء. فكان من مقتضى الطبيعة ان كل أمير لا ينفك عن التدبير والتفكير فيما تعظم فيه شوكته، وما يدفع به عن حوزته، وان يكون الجميع دائماً في استعداد إما للوثوب وإما للدفاع. ولكن الامراء في مجموعهم كانوا يقاومون سلطة الملوك فيضطر الملوك لاستئثارهم ومحابة بعضهم للاستعانة به على البعض الآخر فضعف بذلك استبداد الملوك فيهم

حاجة الامراء الى المال كانت تسوقهم الى ظلم رعاياهم وكانت شدة الظلم تميل برعاياهم الى خذلانهم عند هجوم العدو عليهم، ظهر ذلك في خصوماتهم المرة بعد المرة فاضطر الامراء أن يخففوا من ظلمهم وان يتخذوا لهم من الالهيين

أنصاراً بضبطونهم عند قيام الحرب بينهم وبين خصومهم . أحس الأهليون بحاجة الامراء اليهم فزادوا في الدالة على الامراء واضطروهم الى قبول مطالبهم فعضمت قوة الارادة عند أولئك الذين كانوا عبيداً بمقتضى الحكومة وانتهى بهم الامر ان قيدوا الامراء والملوك معاً ولم يكن ذلك في يوم أو عام ولكنه كان في عدة قرون كما هو معروف عند أهل المعرفة

نعم كانت الحكومة في مصر على نوع مخالف به جميع الحكومات المشرقية وكانت البلاد متوزعة بين أمراء كل منهم يستغل قسماً منها ويتصرف فيه كما يهوى وكان كل يطلب من القوة ما يسمح له بمد يده الى مافي يد الآخر أو يدفع به صولته فالخصام كان دأبهم والحرب كانت أهم عملهم . لذلك كان كل منهم يستكثر من الممالك ما استطاع ليعد منهم جنده ولكن كانت تعوزه مؤنتهم اذا كثروا فاضطروا الى اتخاذ اعوان من أهالي البلاد فوجدوا من العرب أحزاباً كما وجدوا منهم خصوماً . ثم رجعوا الى سكان القرى فوجدوا فيهم ما يحتاجون اليه فائخذوا بيوتاً منها أنصاراً لهم عند الحاجة وعرف هؤلاء حاجة الامراء اليهم فارتفعوا في أعينهم وصار لهم من الامر مثل مالهم أو ما يقرب من ذلك . لهذا كنت ترى في البلاد المصرية بيوتاً كبيرة لها رؤساء يعظم نفوذهم ويعلو جاههم ذلك كان يقضي على كل أمير من أولئك الامراء أن يصرف زمنه في التدبير ، واستجلاب النصير ، واعداد ما يستطيع من قوة لحفظ مافي يده والتمكن من اخضاع غيره . أنصاره من الأهالي كانوا يجارونه في ذلك خوفاً من تعدي أعوان خصمه عليهم فوقعت القسمة بين الأهالي ولا تزال أسماء الاقسام معروفة الى اليوم . - سعد وحرام . هذا يحدث بطبعه في النفوس شتماً وفي العزائم قوة ويكسب القوى البدنية والمعنوية حياة حقيقية مها احتقرت نوعها . فكانت العناصر جميعها في استعداد لأن يتكوّن منها جسم حيّ واحد يحفظ كونه ويعرف العالم بمكانته جاء الجيش الفرنسي والبلاد في هذه الحالة ، دخل البلاد بسهولة لم يكن ينتظرها . احتل عاصمتها واستقر له السلطان فيها . لم تكن الا أيام قلائل حتى ظهر فيه القلق وعظمت حوله القلائل ، أخذت القوى الحيوية السكّانة في البلاد

تظهر فكثرت الفتن ولم تنقطع الحروب والمناوشات ولم يهدأ لرؤساء العساكر بال . بذلك على ذلك شكوى نابليون نفسه في تقاريره التي كان يرسلها الى حكومة الجمهورية من اصطياذ العربان لعساكره من كل طريق . وسلبهم أرواحهم بكل سبيل . واضطر نابليون أن يسير في حكومة البلاد بمشورة أهلها وانتخب من أعيانها من يشركه في الرأي لتديبرها طوعاً لحكم الطبيعة التي وجدها قتل بعض رؤساء الجيش واضطرت عليه البلاد وجاء الجيش العثماني وعاونه الجيش الانكليزي وخرجت عساكر فرنسا بين من مصر ولا أطيل الكلام فقد ظهر محمد علي بالوسائل التي هياها له القدر

ما الذي كانت تنتظره البلاد من نوع حكومتها ؟ كانت تنتظر ان يشرق نور مدنيّة يضيء لرؤساء الاحزاب طرقهم في سيرهم لبلوغ آمالهم وقد كان ذلك يكون لو أمهلهم الزمان حتى يعرف كل منهم ما بلغ به غيره الغاية التي كان يقصدها في بلاد غير بلاده . وما كان بينهم وبين ذلك الا أن يختلطوا بأهل البلاد الغربية ويرتفع الحجاب الذي أسد له الجهل دونهم . أو كانت تنتظر أن يأتي أمير عالم بصير فيضم تلك العناصر الحية بعضها الى بعض ويؤلف منها أمة يحكمها حكومة منها ويأخذ في تقوية مصباح العلم بينها حتى ترتقي بحكم التدريج الطبيعي وتبلغ ما أعدته لها تلك الحياة الأولى

ما الذي صنع محمد علي ؟ لم يستطع ان يحجي ولكن استطاع أن يميت . كان معظم قوة الجيش معه وكان صاحب حيلة بمقتضى الفطرة فأخذ يستعين بالجيش وبمن يستميله من الاحزاب على اعدام كل رأس من خصومه ثم يعود بقوة الجيش وبحزب آخر على من كان معه أولاً وأعانته على الخصم الزائل فيمحقه وهكذا حتى اذا سحقت الاحزاب القوية وجه عنايته الى رؤساء البيوت الرفيعة فلم يدع منها رأساً يستتر فيه ضمير (أنا) واتخذ من المحافظة على الامن سبيلاً لجمع السلاح من الاهلين وتكرر ذلك منه مرارا حتى فسد بأس الاهالي وزالت ملكة الشجاعة منهم وأجهز على ما بقي في البلاد من حياة في أنفس بعض أفرادها فلم يبق في البلاد رأساً يعرف نفسه حتى خلعه من بدنه أو نقاه مع بقية بلده الى السودان فهلك فيه

أخذ يرفع الاسافل ويعلمهم في البلاد والقرى كأنه كان يحن لشبه فيه ورثه عن أصله الكريم حتى انحط الكرام وساد اللثام ولم يبق في البلاد الا آلات له يستعملها في جباية الاموال وجمع العساكر بأية طريقة وعلى أي وجه فحق بذلك جميع عناصر الحياة الطيبة من رأي وعزيمة واستقلال نفس ليصير البلاد المصرية جميعها أقطاعاً واحداً ولاً وولاداً على أترارقات كثيرة كانت لأسراء عدة

ماذا صنع بعد ذلك ؟ اشترأبت نفسه لأن يكون ملكاً غير تابع للسلطان العثماني فجعل من العدة لذلك أن يستعين بالأجانب من الأوربيين فأوسع لهم في المجاملة وزاد لهم في الامتياز خارجاً عن حدود المعاهدات المنقذة بينهم وبين الدولة العثمانية حتى صار كل صعلوك منهم لا يملك قوت يومه ملكاً من الملوك في بلادنا يفعل ما يشاء ولا يسئل عما يفعل . وصفرت نفوس الاهالي بين أيدي الاجانب بقوة الحاكم وتمتع الأجنبي بحقوق الوطني التي حرم منها وانقلب الوطني غريباً في داره ، غير مطمئن في قراره ، فاجتمع على سكان البلاد المصرية ذلان - ذل ضربته الحكومة الاستبدادية المطلقة وذل ساهمهم الاجنبي اياه ليصل الى ما يريد منهم غير واقف عند حد أو مردود الى شريعة

قالوا : أنه اطلع نجم العلم في سما البلاد . نعم عني بالطب لاجل الجيش والكشف على المجني عليهم في بعض الاحيان عند ما يراد ايقاع الظلم بمتهم . وبالهندسة لأجل الري حتى يدبر مياه النيل بعض التدبير ، ليستغل أقطاعه الكبير ،

هل تفكر يوماً في اصلاح اللغة عربية أو توكية أو أرنودية ؟ هل تفكر في بناء التربية على قاعدة من الدين أو الادب ؟ هل خطر في باله أن يجعل للاهالي رأياً في الحكومة في عاصمة البلاد أو أمهات الاقاليم ؟ هل توجهت نفسه لوضع حكومة قانونية منظمة يقام بها الشرع ويستقر العدل ؟ لم يكن شيء من ذلك بل كان رجال الحكومة اما من الارنود أو الجراكسة أو الأرمن المورلية أو ما أشبه هذه الاوشاب وهم الذين يسميهم بعض الأحداث من أنصاره اليوم دخلاء وكانوا يحكمون بما يهونون لا يرجعون الى شريعة ولا قانون وإنما يبنفون مرضاة الامير ، صاحب الاقطاع الكبير

أين البيوت المصرية التي أقيمت في عهده على قواعد التربية الحسنة . أين البيوت المصرية التي كانت لها القدم السابقة في ادارة حكومته أو سياستها أو سياسة جندها مع كثرة ما كان في مصر من البيوت الرفيعة العماد، الثابتة الاوتاد؟! أرسل جماعة من طلاب العلم الى أوربا ليتعلموا فيها فهل أطلق لهم الحرية أن يبتثوا في البلاد ما استفادوا؟ كلا ولكنه استعملهم آلات تصنع له ما يريد وليس لها ارادة فيما تصنع . وجد بعض الأطباء الممتازين وهم قليل . ووجد بعض المهندسين الماهرين وليسوا بكثير، والسبب في ذلك ان محمد علي ومن معه لم يكن فيهم طبيب ولا مهندس فاحتاجوا الى بعض المصريين ولم يكن أحد من الأعوان مسلطاً على المهندس عند رسم ما يلزم له من الأعمال ولا على الطبيب عند تركيب أجزاء العلاج فظهر أثر استقلال الارادة في الصناعة عند أولئك نفر القليل من التابعين ، وكان ذلك مما لا تحشى عاقبته على المستبدين

هل كانت له مدرسة لتعليم الفنون الحربية؟ أين هي وأين الذين نبغوا من طلابها؟ فان وجد أحد نافع فهل هو من المصريين؟ عدوا إن شئتم أحياء أو أمواتاً وجد كثير من الكتب المترجمة في فنون شتى من التاريخ والفلسفة والادب ولكن هذه الكتب أودعت في المخازن من يوم طبعت وأغلقت عليها الابواب الى أواخر عهد اسماعيل باشا فأرادت الحكومة تفرغ المخازن منها ، وتخفيف ثقلها عنها ، فنثرتها بين الناس فنناول منها من تناول . وهذا يدلنا على أنها ترجمت برغبة بعض الرؤساء من الأوربيين الذين أرادوا نشر آدابهم في البلاد لكنهم لم ينجحوا لأن حكومة محمد علي لم توجد في البلاد قراء ولا منتفعين بتلك الكتب والفنون

كانوا يتخطفون تلامذة المدارس من الطرق وافناء القرى (الأفاء الناس المجهولون) كما يتخطفون عساكر الجيش فهل هذا مما يجب القوم في العلم ويرغبهم في ارسال أولادهم الى المدارس؟ لابل كان يخوفهم من المدرسة كما كان يخيفهم من الجيش

حمل الأهالي على الزراعة ولكن ليأخذ الغلات ولذلك كانوا يهربون من

ملك الاطيان كما يهرب غيرهم من الهواء الاصفر والموت الاحمر وقوانين
الحكومة لذلك العهد تشهد بذلك

يقولون انه أنشأ المعامل والمصانع ولكن هل حجب الى المصر بين العمل
والصنعة حتى يستبقوا تلك المعامل من أنفسهم . وهل أوجد أساتذة يحفظون
علوم الصنعة وينشرونها في البلاد ؟ أين هم ؟ ومن كانوا ؟ وأين آثارهم ؟
لا بل بغض الى المصر بين العمل والصنعة بتسخيرهم في العمل والاستبداد بشمرته
فكانوا يتربصون يوماً لا يعاقبون فيه على هجر العمل والمصنع لينصرفوا عنه
ساختلين عليه ، لا عين الساعة التي جاءت بهم اليه .

يقولون انه أنشأ جيشاً كبيراً فتح به الممالك ودوخ به الملوك ، وأنشأ
أسطولا ضخماً تنقل به ظهور البحار ، وتتخجر به مصر على سائر الامصار ، فهل
علم المصر بين حب التجند وأنشأ فيهم الرغبة في الفتح والقلب وحب اليهم
الخدمة في الجندية وعلمهم الافتخار بها ؟ لا بل علمهم الهروب منها وعلم آباء الشبان
وأماهم أن ينوحوا عليهم معتقدين أنهم يساقون الى الموت بعد ان كانوا ينتظمون
في أحزاب الأمراء ونجار بون ولا يبالون بالموت أيام حكم المماليك وكان من
ينظم في الجندية على عهد محرر مصر لا يخرج منها الا بالموت ! هل شعر مصري
بعظمة أسطوله أو بقوة جيشه ، وهل خطر ببال أحد منهم أن يضيف ذلك اليه
بأن يقول هذا جيشي وأسطولي أو جيش بلدي أو أسطوله ؟ كلاً لم يكن شيء
من ذلك فقد كان المصري يعد ذلك الجيش وتلك القوة عوناً لظانه . فهي قوة
خصمه . كذلك كان يعدها كل عثماني في مصر او في غير مصر . ليقبل لنا
أنصار الاستبداد كم كان في الجيش من المصريين الذين بلغوا في رتب الجندية
الى رتبة البكباشي على الاقل ؟ فما أثر ذلك في حياة مصر والمصر بين الا أسوأ
الأثر — أثر كله شر في شر لذلك لم تلبث تلك القوة أن تهدمت واندثرت

ظهر الأثر العظيم عند ما جاء الانكباب لاختاد ثورة عرابي . دخل الانكباب
مصر بأسهل ما يدخل به دامر^(١) على قوم ثم استقروا ولم توجد في البلاد نخوة

(١) الدامر هو الذي يدخل على القوم بلا استئذان

في رأس تثبت لهم أن في البلاد من يحامي عن استقلالها وهو ضد ما رأيناه عند دخول الفرنسيين الى مصر وبهذا رأينا الفرق بين الحياة الاولى والموت الاخير وجهله الاحداث فهم يسألون أنفسهم عنه ولا يهتدون اليه

لا يستحي بعض الأحداث من ان يقول ان محمد علي جعل من جدران سلطانه بنية من الدين . أي دين كان دعامة لسلطان محمد علي ؟ دين التحصيل دين الكبرياج دين من لا دين له الا ما يهواه ويريده . والا فليقل لنا أحد من الناس أي عمل من أعماله ظهرت فيه رائحة للدين الاسلامي الجليل ولا يذكرون الا مسألة الوهابية وأهل الدين يعلمون أن الاغارة فيها كانت على الدين لا للدين . نعم ان الوهابية غلوا في بعض المسائل غلوا أنكره عليهم سائر المسلمين وما كان محمد علي يفهم هذا ولا سفك دماءهم لارجاعهم الى الاعتدال وانما كانت مسألة سياسية محضه تبعها جراءة محمد علي على سلطانه العثماني وكان معه ما كان مما هو معروف

نعم أخذ ما كان للمساجد من الرزق وأبدلها بشيء من النقد يسمى « فائض رزنامة » لا يساوي جزءاً من الالف من ايرادها . وأخذ من أوقاف الجامع الازهر ما لو بقي له اليوم لكانت غلته لا تقل عن نصف مليون جنيه في السنة وقرر له بدل ذلك ما يساوي نحو أربعة آلاف جنيه في السنة

وقصارى أمره في الدين انه كان يستميل بعض العلماء بالخلع أو اجلاسهم على الموائد لينفي من يريد منهم اذا اقتضت الحال ذلك وأفاضل العلماء كانوا عليه في سخط ما تواعليه

ولا أظن أن أحداً يرتاب بعد عرض ذاريخ محمد علي على بصيرته ان هذا الرجل كان تاجراً زارعاً، وجندياً باسلاً، ومستبداً ماهراً، ولكنه كان لمصر قاهراً، ولحياتها الحقيقية معدماً، وكل ما نراه الآن فيها مما يسمى حياة فهو من أثر غيره متعنا الله بخبره ورحمانا من شره والسلام

بلمر - صقلية

(نشر هذا الفصل في اجزاء مجلدي المنار السادس والسابع)

« أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ »

قضت المقادير أن أغبر خطة سفري عن طريق مرسيليا الى طريق ايطاليا وكان لي في ذلك خطان من السير أحدهما يمر ببلمر ثم يصل الى نابولي ثم تكون الإقامة في نابولي نحو أربعة أيام وبعدها المركب بنا الى ماسينا ومنها يذهب الى الاسكندرية والآخر ينتهي عند بلمر أو « بالبلمر » وتكون الإقامة خمسة أيام نذهب بعدها الى ماسينا كذلك وكان بودي لو ذهبت مع الخط الاول فكنت رأيت بلدانا كثيرة وآثارا عظيمة تزيد في علمي كثيرا مما لم أعلم الى اليوم غير أن بعض أصحابي قال لي ان بلمر هي عاصمة صقلية ويوجد فيها من الآثار العربية ما يهيم العربي ان يراه وفيها داران للكتب لا تخلو كل منهما من كتب عربية قديمة بما يستغرق الاطلاع عليها زمنا مثل الزمن الذي تقضي الضرورة بصرفه الى يوم السفر الى مسينا : فضلت النزول الى بلمر ولا أذكر لأن شيئا مما لاقيت من الحمالين وغيرهم من مستقبلي المسافرين ولكن أعود اليه

بعد ان أخذت مكانا في نزل سنترال بشارع رومه خرجت لا يصلح بعض رسائل التوصية الى من أرسلت اليهم فلاقيت منهم ماسرني وكان أحدهم موسى بأن يسهل لي طريق زيارة المكتبة العمومية ودار المحفوظات الرسمية والتمكن من رؤية ما يكون فيها فوعدني المحيي في الغد لمرافقتي الى المكتبة . ثم بعد ذلك بدأت زيارة قصر الملك ولا حاجة بي الى وصفه فان ذلك من شأن صاحب جريدة أوسائح يطلب اظهار البراعة في حسن الوصف وسعة العبارة . وغاية ما أقول انه قصر أو (سراي) واسع كبير البيوت باهر الزينة والأثاث كسائر قصور الملوك في أوروبا أو في غيرها من البلاد الشرقية والعربية مما نثقف فيه الاموال بحساب وبغير حساب ولا شيء منها من كد الملك أو الامير وانما هي من أموال الرعية وكسب

الحفاة العراة الذين لا يجدون مابه يستترون ويشتهون لو أنفق على جدران أبادتهم وأركان أجسادهم جزء من المليون مما انفق على حيطان تلك القصور وزواياها وسقفها - ما أنا بذا كرشياً من وصف ذلك الغنى في بلد الفقر ولكن أذكر ما رأيت فيه مما يجب الشرقي أن يطالع عليه اما عبرة وامالفاكاهة . ذهب بي حارس القصر أولاً الى حيث توجد كنيسة الملك ولا حاجة الى وصفها كذلك - الا لو كان الله يجب أن تزين له معابده ، وتنقش لمجده مساجده ، كما يجب ذلك ملوك الارض - فوجدت في الممر الموصل إليها على الحائط المتصل بالكنيسة حجراً قد كتبت عليه هذه العبارة :

« خرج الأمر من الحضرة الملكية المعظمية الرجارية العلية أبد الله أيامها وأيد أعلامها بعمل هذه الآلة لرصد الساعات بمدينة صقلية المحمية سنة ست وثمانين وخمسةائة » ثم في أعلى الحجر سطور بالحرف اليوناني يظهر أنها ترجمة هذه العبارة . والحضرة الرجارية هي حضرة الملك رجار أو (روجير) النرمندي الذي دخل جزيرة صقلية وفتحها على العرب وكان لسانه الرسمي في حكومته اللسان العربي واليوناني . أما ميله في البناء والزينة فكان الى الرسم اليوناني . ولهذا الملك آثار كثيرة في بلرم ويوجد كثير من المحررات العربية والصكوك مما كتبت في أيامه . ويقال ان العرب كانوا في زمن النرمنديين ممتعين بحرية تامة في اقامة شعائر دينهم ونصرفهم في شؤوهم وان كان هذا الملك قد هدم مساجد كثيرة لنقل أعمدها الجميلة الى الكنائس التي رأى تجديدها في المدينة ويظهر من العبارة المرقومة على الحجر أن هذا النرمندي كان عند ما دخل البلاد ذهب مذهب أهلها من العرب في المدينة ولم يحتقر ما وجد من آثار العلم فكان يأمر بصنع الآلات الفنية والفلكية ويساعد القائمين بعملها

رأيت في خزينة الجواهر من قصر الملك صندوقاً عربياً في طول نحو ثلثي ذراع وارتفاع ثلاثة أرباع الذراع صنع من نحو ثمان مئة سنة على ما يقول الحارس وهو مغطى بالنقوش الذهبية من أجمل ما تراه عين الآن وقيمته عند الدولة خمس مئة ألف فرنك ورأيت في أحد بيوت القصر باباً من الحديد مطلياً بطلاء أصفر جميل

من أجل ما يصنع من الابواب وهو من صنع أيدي العرب أيام دولتهم رأيت بيتاً من بيوت القصر فيه صور نواب الملك في عهد البربون بعد الترمنديين ومع كل نائب منهم كوردينال كما كان للملوك كرادلة يصحبونهم ويشركونهم في كثير من شؤون الملك . لذلك كان النائب عن الملك يصحبه كوردينال يرجع اليه في أمور دينه وفي أعماله السياسية أيام كانت الاحكام المدنية والسياسية مما يدخل فيه رجال الدين كما نقول عندنا « المقفي أو شيخ الاسلام » في عهد الملوك الذين لا تسمح لهم أوقاتهم بتعلم العلوم الدينية فيحتاجون الى من يرجعون اليه من علماء الدين . غير أن المقفي وشيخ الاسلام إنما يجيب عما يسئل عنه أو يؤدي ما كلف به . أما الكوردينال فكان يتبدي المشورة ويقترح المطلب ويقدم نائب الملك على المذهب ، ويكلف يده عن العمل الذي لا يرضاه ، ويحمله على بسطها فيما يتوخاه ، فكانت السلطة الحقيقية مدنية سياسية دينية في نظام واحد لا فصل فيه بين السلطين وهذا الضرب من النظام هو الذي يعمل البابوات وعاملهم من رجال الكنيسة على ارجاعه لانه أصل من أصول الديانة المسيحية عندهم وان كان ينكر وحدة السلطة الدينية والمدنية من لا يدين بدينهم

كان مما قيده بعض أصدقائي في جريدة الامكنة التي يرغب في رؤيتها محل يسمى بالدوم أي القبة فذهبت اليه واذا هو الكنيسة الكبرى التي تسمى كاتيدرال رئيسها هو مرجع رؤساء بقية الكنائس في المدينة أو الولاية وهي من عظمة البناء وبهجة الزينة على ما يطول شرحه وأصل هذه الكنيسة الكبرى مسجد باق على ما هو عليه حتى بابه الخشبي الجميل ، غاية ما في الامر انه زيدت فيه الصور والتماثيل ، وضروب أخرى من الزينة الكنيسية ويمكن للناس ان يتفحص ذلك بمجرد رؤيته من الظاهر لان رسم البناء على الطريقة العربية في عامة المساجد زرت بعد ذلك ديرا يسمى دير سانت جواني وهو مما كان قد كتب في جريدة الاماكن ولم أرفيه شيئاً سوى أن أسفل الدير كان مسجداً فلما جاء الترمنديون حولوه الى كنيسة بناها راجار ونقل اليها هذه الاعمدة من المساجد التي خر بها لما أعجبه من أعمدها ، ثم أخذني السادن بعد ذلك الى قبة قرية من

الكنيسة وقال لي انها على شكل عربي ولما رأيتها خالية من الزينة المعتادة رؤيتها في أما كن العبادة النصرانية سألته في ذلك فاجبرني ان الاسابنين عند ماغلبوا على سيسيليا سلبوا ما كان في هذه الكنيسة من الموزاييك (زينة من أجل ماتزين به الاما كن والادوات تصنع من قطع دقيقة من الحجارة على أشكال مختلفة بحيث يصور بها جميع ما يمكن تصويره من الرسوم والصور) وحلوا ذلك الى بلادهم وقال أنهم لم يقتصروا على ذلك بل سلبوا الكنائس كل ما كان فيها من المصنوعات الفضية كذلك . فقلت لصاحب كان معي يظهر أن كل فاتح يرى من الواجب عليه ان يفسد شيئا من عمل من سبقه فكل منهم يقوم بما رآه واجبا عليه :

عرفت قسيسا حليبا معلما للعربية بمدرسة دير الكوشيين في بلم - وسنأتي على ذكره - فما أرشدني اليه رؤية بقية من قصر يسمى العزيزة وهو اسمه في الطليانية فذهبت معه اليه وإذا هو قاعة كبيرة فيها سلسبيل ماء بنيت على نمط ما كنا نسميه عندنا (القاعات الحرمية) حيطانها مزينة بالموزاييك من أجل ما تحب عين أن تراه ولم يبق من القصر مكان ينظر اليه السائحون الا تلك القاعة . اما أعلى القصر فيسكنه أناس من أهل المدينة وقد دخل بتامه في ملك بعض الاغنياء . والقصر من بناء الملك راجار النرمندي بناه لابنته عزيزة . وعلى مقربة من هذا القصر قبة يقول القسيس انها مسجد عربي فأخذنا نحوها فاذا هي في بستان كبير قد أغلق بابه وقيل لنا ان خادم البستان فيه ، وذهب ذاهب ليناديه ، وطال بنا الوقوف ، واجتمعت علينا من الصغار والنساء صفوف او زحوف ، جلبتهم علينا تلك المهامة وصاحبها الحبة ، وكلما طردنا فوجا أقبل فوج ، أو نجونا من موج علا علينا موج ، الى ان جاء رجل قيل انه هو حارس البستان وبعد قيل وقال في فتح الباب ، واحتياجه الى اذن من صاحب البستان ، رضي بالفتح ، طمعا في النفع ، فدخلنا ورأينا صعوبة جديدة في فتح القبة فذلناها . القبة من قباب المنايخ التي يقيمها المسلمون على قبور الاولياء أو الامراء على خلاف ما يأمر به الدين وأظن أنها على قبر من هذه القبور وليس فيها من أثر عربي سوى شكلها هذا

✠ كنيسة موربالي، وتساهل العرب، وأين هم اليوم ✠ -

مما رأته في بلرم (صقلية) كنيسة موربالي وجميع سقها والاعلب من جدارنها مفضى بالموراييك أوانا واشكالا من ابهى ما يبهج الناظر وأجل ما يسرح فيه الخاطر وفي ناحية منها قبة تعرف بمعبد الصليب فيها من التماثيل وضروب الزينة ما يقصر عنه الوصف . وأهم ما يذكرك في شأنها أنها مبنية في القرن السادس من التاريخ المسيحي فيكون لها نحو الف وثلاث مئة سنة والمصنوعات الخشبية الجميلة محفوظة من ذلك العهد لم يجزأ السوس على قرض شيء منها ببركة العناية والاهتمام بالتنظيف، وأما ما يقول به بعض الخذاق في معرفة طبائع هذه الهوام الدقيقة من أنها تعرف الصليب وما خصص له من الأدوات وتشعر باحترام تلك الصور والتماثيل التي صورت في تلك الأخشاب وأنها بذلك صارت مسيحية كاثوليكية فلا يباح لها قرض الخشب المسيحي، ثم ان اعتقادها بحرمه القرض، حملها على العمل فخالفت شهوة الأكل قياما بالفرض، فلا أظنه في غاية الصحة بل ولا في أولها كذلك . ويقال ان الكنيسة من بناء الملك كيلولو الثاني وقبره فيها صندوق من حجر فيه جثته

ومن ذلك تعرف ان العرب رحمهم الله لم يمساوا هذه الكنيسة بسوء مع عظمة سطونهم وامتداد ملكهم في سيسيليا، وتلمح من هذا أن العرب - وان فسق كثير منهم عن أمر ربهم - فروح الدين الاسلامي كانت تنور في كثير من أعمالهم، نهى الدين عن هدم الكنائس اذا لم تكن مر بضا لشرب يخشى خطره على الدولة فحفظوا لرعاياهم كنائسهم ومعابدهم ولم يصنعوا بها ما صنع غيرهم ممن جاء بعدهم ولم يريدوا أن يقتفوا أثر خصومهم ممن كان يهدم مساجدهم ويحرب معابدهم فحيا الله أيامهم . لا جرم ان الاسلام عربي وأحق الناس برعايته والوقوف عند حدوده بعد فهم حقيقته هم العرب فأين هم ؟ يمكن ان يقول قائل : أنهم في جزيرة العرب أو في الشام أو في العراق أو في مصر أو في تونس والجزائر أو في المغرب الأقصى أفلم يكفك كل هذا العدد، في أكثر من ألف بلد، حتى تقول أين هم ؟ ولكني أقول له انما يكون القوم أولئك القوم اذا بقيت لهم أخلاقهم وحياة

أرواحهم فان كان لم يبق الأشباح تشبه أشباحهم فليسوا بهم فلي الحق ان أقول
عن العرب فأين هم ؟

﴿ دير الكبوشيين ومدرستهم ومقبرتهم في بلرم ﴾

(وفيه بحث الدعوة الى الدين واحياء اللغة)

للكبوشيين دير في بلرم فيه معبد ومدرسة ومقبرتان . أما المعبد فهو المعبد
لا يحتاج الى الكلام عليه ولا يختلف عن غيره من المعابد واما المدرسة فهي لتعليم
اللغات والفنون والعلوم التي يحتاج اليها المرسلون الذين يكلفون بالدعوة الى الدين
المسيحي والتبشير بالانجيل ونشر ما تقتضي الفيرة الدينية نشره في الاقطار النائية
كبلاد العرب والترك والفرس وغيرها . ومما يعلم فيها اللغة العربية واستاذها الراهب
جبرائيل ماريالكبوشي وهو من حلب وتعلم العربية في بيروت واخبرني أن من
أساتذته صديقنا الشيخ سعيد الشرتوني صاحب (أقرب الموارد) في اللغة . لاقت
ذلك الراهب وحادثته في شأنه والزمن الذي قضاه في إيطاليا والداعي الى الإقامة
فيها فقبين لي انه جاء اليها ليخدم دينه هذه الخدمة - تعليم اللغة العربية لنشر
الدين في بلاد العرب مثلاً . وكان يتحرى في كلامه قواعد اللغة العربية بقدر الامكان
فحمدت منه ذلك . كأنه اعتقد انه إنما تعلم العربية ليتنفع بها في منطقته وان كان
في بلاد ايطاليا وعمل بما اعتقد وما كان أسهل عليه أن يكلمني بالخليية كما يكلمني
البيروتي بالبيروتية والتونسي بالتونسية ولايبالي أ كنت أفهم أم لا أفهم كما لايبالي
الكثير ممن ذكرناهم .

وفي هذه المدرسة تعلم العلوم اللاهوتية كذلك للغة التي ذكرناها ولا حاجة
الى ذكر ما فيها من العلوم فان ماتحتاج اليه للبراعة في نشر الدين والدعوة اليه معروف
عند من يعرف ما هو الدين ويتصور معنى الدعوة اليه . أما من لا يعرف ذلك
فلا نكتب له حرفاً واحداً من هذا الكلام فان قال قائل : فلن تكتب ما
تكتب ؟ قلت ان فقد القام فاني احفظه لنفسى والسلام . هل خطر بالنا - وكل
منا يدعي الفيرة على دينه ويرى انه الحق الذي يجب على الناس كافة أن يخلصوا
أرواحهم باعتقاده والاخذ باصوله - أن ننشيء فرعاً من فروع التعليم لنشر الدين

وتقوم اصوله بين أهله فضلا عن نشره بين من ليسوا من أهله ؟ أريد من أهله أولئك الذين لبسوا رداءه واعترفوا ان الدين دينهم سواء عرفوه حق معرفته وهم في غنى عن الدعوة اليه أوجهلوه وانحرفوا عن طريقه وهم أحوج الناس الى الارشاد وأشدهم افتقارا الى من يحول اليه نظرم ويعطف عليه اختيارهم ؟ هل من بيانا ان نهي - لهذا الفرع من التعليم ما يلزم له من فنون وأسائد لتلك الفنون كما يهي - هؤلاء ما يهيئون لتعليم من يقوم بدعوة من ليس من دينهم الى دينهم ؟ ما كان أحوجنا الى انشاء ضرب من التعليم خاص بمن يكلف بارشاد من يسيء الى الدين باسم الدين ومن يهدم شرف الدين بعمل ينسبه الى الدين ؟

الأبحق لنا أن نطلب من أولئك الذين صعدت بهم ألقاب الرئاسة الدينية الى أسمى المنازل ان يفكروا في هذا الامر ويقوموا بما يجب عليهم منه ان لم يكن لمصلحة الدين فلمصلحة أنفسهم فان في تقوية جانب الدين تقوية لمساندهم وفي تبصير العامة بشؤون الدين تمكين الحارمتمهم في نفوس الدهماء وتسجيلا لسيادتهم عليها ؟ ليس لنا على ضعفنا أن نذكرهم بالامر الآلهي القارع للقلوب المزعج لهمم في قوله تعالى (ولنكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) الخ فهل يليق بهم أن يصموا آذانهم عن هذا الخطاب ولا يخشوا ان يكون التصام عنه بمنزلة الخروج من مدلول كاف الخطاب ومشعرا بأهم ليسوا من أولئك الذين خوطبوا به ؟ لما بل علينا أن نطالبهم بذلك وأن نزيد عليه مطالبتهم بالنظر في انشاء فرع لتعليم ما يلزم لنشر الدين بين بقية الامم ان كانوا يعتقدون ان دينهم هو الحق فان السكوت عن الدعوة الى الحق رضاء بالباطل . أولئك الملوك والامراء الذين لا فضل لشيء عليهم في تمتعهم بملكهم واخضاع رعاياهم لسلطانهم مثل فضل الدين، لم لا ينقطعون شبا من مالهم وقطعا من زمانهم ينفقونها في الاشتغال باحياء روح الدين ، ولا يكتفون بغش العامة بالمحافظة على رسوم كلها أوجهلوا يعرفه الدين ، ؟ أفلا يجب عليهم ان يسعوا في زيادة تمكين قوتهم ، وتعزز سلطتهم ، ؟ اللهم الا اذا ظن هؤلاء وأولئك ان الدين حيوان يمشي على رجلين يطلب رزقه من القلوب حيث يجد الحاجة اليه ، ويفدوا الى مرعاه من النفوس متي

اشتد الجوع عليه ، فاذا قصر في ذلك حتى أهلكه الجوع ومات قائما أمه على نفسه لا عليهم ،

ربما يقول قائل : ولم تستبعد هذا الظن منهم فتعبر في جانبه بكلمة « اللهم » وهم قد يزعمون أنهم من أهل السنة وربما طلبوا الدخول في أبواب حمة السنة بهذا الظن الذي تستبعده وما عليهم في ذلك الا ان يقولوا نحن سنيون لانقول باستحالة شيء ، ونخرنا أن نجوز المحال ونذهب الى جواز تجسم المعاني ونعتقد ان الاعمال والعقائد وهي معان نفسية وحركات بدنية يمكن ان تُقلب اشخاصا حيوانات تمشي ، وأناسي تتكلم ، أليست هذه العقيدة هي مطبنا الى الجنة ؟ فليكن الذين رجلا عاقلا أو ميكروبا متقلبا مفيدا لا قاتلا ، يفعل لنفسه ما كان فاعلا ، وبدعنا نتمتع بالنسبة اليه ، وان لم يكن لنا عطف عليه : فنجيب القائل بأنهم مغرورون وان السنة بريئة مما يزعمون ، وسيعلمون أي منقلب ينقلبون

خرج بنا الكلام عما نحن بصدده . هذا الراهب استاذ العربية في الدير وضع طريقة سهلة لتعليم قواعد اللغة العربية من الصرف والنحو للايطاليين - يضع القاعدة العربية ثم يفسرها باللغة الايطالية بأسلوب يسهل معه تناولها بقدر الامكان وقد رأيت من تلامذة الراهب من يحسن قراءة العربية وان كان لا يحسن التكلم بها لعدم التمرين على السماع والنطق وما أحوج كل عربي الى تعلم ما يحتاج اليه من لغته : لكن ما اشق العمل وما أوعر الطريق وما أكثر العقبات في طريق العربي الساعي في تحصيل ملكة لسانه !! هفتى عمره وهو لا يزال يضرب برجليه في أول الطريق أفلا نشعر بالحاجة الى تقريب المطالب وتيسير المذهب في تحصيل ما ندعو اليه الحاجة من لغتنا حتى نستطيع فهم ما أودع فيها من النفائس ، والتعبير بها عما نجد في أنفسنا ونحب ان نسوقه الى بني لغتنا على وجه صحيح ؟ وبأسلوب فصيح ؟ ألم يأن لنا أن نرجع الى المعروف مما كان عليه سلفنا فنحيا بما كان قد أحياهم وترك ما ابتدعه أخلافهم مما أماتهم وأماتنا معهم ؟

أما المقبرتان فاحدهما في بناء متسع الارعاء تحت الارض ينزل اليه بسلم وفيه نوافذ يأتي اليه منها الضياء وقد وضعت فيه الجثث على ضروب شتى فمن الجثث

ما هو في صناديق مقفلة من الخشب أو الحجر أو البرنز ومن ذلك جثة موسيو كرسبي رئيس الوزارة الايطالية السابق فانه في ذلك المحل في صندوق مغلق ومنها ما وضع في صناديق من البلور بحيث تظهر الجثة للرائي من داخل الصندوق على الهيئة التي كانت عليها عند الموت . وقد يوجد في الصندوق الواحد عدة أشخاص بادية هياكلهم ، ظاهرة وجوههم ، على أتم ما يحزن له قلب وتعتبر به نفس وهذان القسمان من الاموات انما يناولون حظوة الاستيداع في هذا المكان اذا كانوا من الاغنياء الذين يتمكنون ان يدفعوا الى الدير ما يطلبه من قيمة هذه الحظوة . وهناك قسم آخر وهو جثث مخنطة قائمة في جوانب المكان عليها ثيابها في الحالة التي كانت عليها عند موتها وهي جثث الرهبان والقسيسين الذين يحبون ان يودعوا في هذا المكان ليسعدوا بيركاتهم ولهم هيئات تنقبض لها النفس ويضيق بها الصدر ولا حاجة بنا الى تعداد ذلك ويكفي القاري ان يتصور مينا في أشد ما تكره النفس مما يصوره الموت في البدن

واما المقبرة الاخرى فهي كسائر المقابر على ظهر الارض وان كان الاموات في بطنها وهي من أجل الاماكن وأنظفها والقبور فيها نظيفة البناء بهجة الظاهر . وقد غرس في المقبرة أشجار السرو بنظام بدع وقبل لنا ان الذين يدفنون فيها هم الامراء والاغنياء اما الفقراء فلمهم مقبرة تليق بقرمهم في مكان آخر . وكأنه قضى عليهم بأن لا يساوا الاغنياء حتى في الموت مع أن الموت قد سوى بين الاغنياء وبين أذن طبقة من الاحياء بل جعلهم طعمة لا قدر الديدان ، كما جعل ذلك حظاً مثالمهم من سائر الحيوان ،

قيل ان الحكومة بعد ان استولت على رومية منعت الدفن في المقبرة الاولى على تلك الطريقة وأمرت أن لا يدفن الميت الا في المقابر المعتادة كهذه المقبرة الثانية ونحوها وانما حفظت الحق في الاستيداع في المعابد للبابا والملك دون سائر الناس فهما وحدهما توضع جثتهما في صندوق وتودع في الكنيسة وقد أحسنت الحكومة في ذلك فان من كان محجبا بعظمته عن الناس في حياته ، يجب ان يكون عبرة العامتهم بعد مماته

﴿ المكتبة العمومية . ودار المحفوظات ﴾

أما المكتبة العمومية فقد جاءني من أوصي بصحبتني - وبثقل عليّ ذكر اسمه لطوله - فذهبت معه الى تلك المكتبة وهو أخو مديرها وله احترام في نفوس خدمتها وكان يعرف قليلا من اللغة الفرنسية فسألته أن يطالب لي فهرس الكتب العربية إن كانت فطلب ذلك فبدت حركة شديدة في الخدمة وأكثر الداخل والخارج ، والذاهب والآب ، ولغطت الألسن ، وارتفعت الأيدي بالإشارات ، وطال الزمن نحو ربع ساعة ، كل ذلك وأنا لا أفهم أسباب هذا الاضطراب . وآخر الامر جيء إلي بدفتر صغير جداً يحتوي على نحو خمسين صفحة وكانت تلك الضوضاء للبحث عنه وكل يتهم صاحبه بأنه هو الذي يعرف مقره والآخر يدافع عن نفسه تهمة معرفته . ولم يرعني عند تصفحه الا كثرة ما فيه من كتب الأدعية والصلوات كأنه فهرس خزانة اشيخ من مشايخ الطريقة الخلوتية ، أو مكتبة السادات البكرية ، قدس الله أرواحهم جميعاً وانما رأيت فيها قطعة من شرح ابن رشد على مدونة الامام مالك رضي الله عنه وكتاباً في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام الا أنه لا يمكن قراءة سطر واحد من تلك السيرة لان خطوطاً قد جرت على السطور بعناية غريبة حتى عمت الحروف الاصلية وحجبت حقيقتها عن النظر مع سلامة الظاهر من التشويه فعمجت لذلك وسألت عن السبب فقيل لي ان قديساً من أهل القرن الثامن حمله التعصب على أن يأتي الى المكتبة و يطلب الكتاب بحجة انه يريد قراءته وكان يعرف العربية حق المعرفة فسلم اليه فصنع به ذلك حتى يصد الناس عن مطالعة ما فيه وقد فعل مثل ذلك بمصحف من المصاحف وزور كتباً كثيرة أفسدها . وقد انكشف للحكومة حاله فحوكم وصدر الحكم عليه بالحبس مدة عشر سنين في رواية ومدة خمس عشرة سنة في رواية أخرى . أما القطعة من شرح ابن رشد فكانت سليمة وخطها مغربي جيد تسهل قراءته على طالب العلم

والكتاب الفرد الكامل الذي رأيت في المكتبة هو كتاب النخل لابي حاتم السجستاني وهو صغير في نحو ستين ورقة بخط ضيق مضبوط صحيح .

قرأت منه عدة صفحات ونقلت منه عدة فقرات في تفسير قوله تعالى « ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفروعها في السماء . توّتي أكلها كل حين باذن ربها » الخ . ومما نقلته في ذلك قول أبي حاتم رحمه الله : ومما كرم الله به الاسلام وكرم به النخل أنه قدر جميع نخل الدنيا لأهل الاسلام فغلبوا عليه وعلى كل موضع فيه نخل وليس في بلاد الشرك منه شيء . فرحم الله أبا حاتم ما كان أبعداه عن صحة الحكم في طبائع العمران وان كان من أفضل أهل السير وأجل علماء اللغة . والكتاب مفيد في اللغة وهو بخط مشرقى تاريخ نسخه شهر جمادى الآخرة سنة ٣٩٤ وقد بلغنا أنه طبع في المانيا وكان الاجدر به أن يطبع في مصر ولعل ذلك يكون ان شاء الله متى ساوى المصريون أهل ألمانيا في اهتمامهم باللغة العربية ونقائسها .



ثم زرت دار محفوظات الدولة وهي مثل (الدفترخانة) عندنا الا أنها لم تبع أوراقها ولا دفانرها لا بالقنطار ولا بالرطل كما فعل بالدفترخانة المصرية بل هي محفوفة على ما كانت عليه من عدة قرون لا يفرط في ورقة واحدة منها . وقد طبعت الدولة مافي الاوراق التاريخية المحررة باللسان العربي وغيره من اللسان الشرقية حتى يسهل على الناظر فيها معرفة ما كتب في تلك الاوراق ويتيسر له بعد ذلك قرائنها في أصولها خصوصاً اذا كان غير متعود على قراءة الخطوط العربية المختلفة فاذا قابل بين المطبوع والمرقوم عرف صحة العبارة في النسختين . ولعل المكتبة المصرية الكبرى تصنع مثل ذلك في الخطوط المكتوبة على أوراق البردي وغيرها مما كتب بالكوفية أو النسخ القديم أو ماعنى بعضه القدم لتم فائدة حفظ هذه الاوراق والانتفاع بها ان شاء الله

من العادة في المكاتب وديار حفظ الاوراق ان يجعل لها دفانر يكتب فيها الزائر اسمه ولقبه وتاريخ الزيارة وهي عادة حسنة لئلا يكون أقيمت لحفظ الآثار العلمية والمذكرات التاريخية . أما عمال المكتبة العمومية في بلرم فلم يحفظوا بهذه العادة واكتفوا بتقديم ورقة من أوراق طلب المطالعة لوضع امضائي عليها كما

فعل ذلك خدمة المكتبة العمومية في مسينا لكن عمال دار محفوظات الدولة قرأوا ان تجري تلك العادة مجراها فطلبوا ذلك الدقر فلم يجده فجدوا في البحث والتنقيب وأخذت الاصوات ثنقاذف ، والاشارات تنمو وتزايد ، على نحو ما فعل عمال المكتبة العمومية ، في اكتشاف فهرس الكتب العربية ، وكننت على عجل أريد زيارة محل آخر فحبست مدة حتى يسر الله ووجد الدقر ووضعت إضائي فيه . وأظنهم حمدوا الله لأن كنت السبب في العثور عليه بعد ضياعه

هذا وذلك بدلانك على أحد أمرين : إما قلة الزائرين لهذه الاماكن العلمية من الاجانب وطلاب النظر في الآثار العربية وقلة الدارسين من أهل البلاد في تلك الكتب التي كتبت في لسان غير لسانهم اكتفاء بتراجمها أو لعدم الحاجة اليها واما شدة الاهمال من موظفي هذه الديار وقد يتيسر لك الجمع بين الامرين ولم أعهد في مكتبة أوربية أن وقع لي مثل ما وقع في مكتبي بلرم
(حاجة السائح الى معرفة اللغات وأيها أنفع)

ومن الامور التي لا أجد بدأ من نقدها أن موظفي هاته المسكان لا يعرفون من اللغات الا الايطالية فلا يعرفون الفرنسية مع قربها من لغتهم ومن عرف منها بعض كلمات يصعب عليه ان يؤدي بها مراده وكان رفيقي يترجم بيني وبينهم عندما كان معي في المكتبة العمومية لكي بعد انصرفه وقعت في وحشة بزيدها لزم الصمت وعدم الفائدة في الكلام وضيق الصدر عند ارادة الاستفهام عما يراد فهمه ولا يوجد السبيل اليه الا من طريق الاشارة . ولا يخفى عليك ان الاشارة انما تصلح للفائدة والاستفادة من الاخرس اذا كنت والدة له على ما في المثل « أم الاخرس أعرف بلغته » فلا بد من التعود على ضرب من الاشارة مخصوص حتى يتيسر الفهم والافهام . ولهذا لم يمكنني ان أستفيد شيئاً فيما ينبغي ان يصنع لاستفساخ شيء من الكتب العربية كتلك القطعة من شرح ابن رشد مثلا . وبعد طول الكلام بفرنسية لا يفهمونها وإيطالية لا أفهمها انصرفت وأنا من الجهل على مثل ما دخلت به لكن قد انكشفت عني غمة هذا الجهل بملاقة من أمكنه فهم ما أقول وأمكنني فهم ما يقول من أهل المدينة

يناسب في هذا المحل ذكر ما يقال من أن الذي يعرف اللغة الفرنسية يسهل عليه السفر في جميع بلاد أوروبا ويتيسر له الفهم والافهام لانها لغة عامة لا تجرد نزلا ولا مكاناً يرغب في زيارته الا وأنت تجد فيه من يكفيك حاجتك فيما تريد . وقد رأيت ان هذا القول اضحلت صحته في مكاتب بلرم ولم ألق ما يقوي صحته في مكتبة مسينا والمكاتب من ديار العلم التي يكثر فيها العارفون باللغات الاجنبية ولا ينبغي ان تخلو منهم لمسيس الحاجة اليهم . وقد بت ليلة في لوندرا ونزلت في أكبر نزل فيها يسمى (كيرافنور اوئيل) فيه ما يزيد على ست مئة بيت للنوم ولم أجد فيه من يعرف الفرنسية الا خادمين أحدهما بواب والآخر من خدمة قاعة الطعام . أما خدمة أما كن النوم وغيرهم فلا يفهمون كلمة واحدة والحاجة اليهم أشد فان المطالب الخاصة جميعها منوطة بهم . أو بهن . اذا طلبت ماء أو لبنا أو قهوة أو تهيئة حمام أو نقل متاع من مكان الى مكان أو تصحيح منكسر أو كسر صحيح لم تجد من تطالبه الا أولئك الذين لا يعرفون كلمة من الفرنسية ، غير أنهم لتعودم فيما يظهر على كثرة ورود هذا النوع من الخرس صاروا أو صرن كوالدة الاخرس يسهل عليهم أو عليهن فهم الاشارات بدون إعجاب شديد لأعضاء المشيرين (أي الذين يتفاهمون بالاشارة لا الذين حازوا رتبة المشيرية العسكرية العثمانية) لكن لا يخفى عليك ان من المطالب مالا تعبر عنه الاشارة فإذا تصنع اذا كنت أعلم العلماء بالفرنسية وعرض لك مثل هذا الطلب وليس عندك وقت يسع تعلم اللغة الانكليزية ؟ لا يسمعك الا الاقرار بأن ذلك القول الذي قالوا مبني على تجربة قاصرة لا تصلح ان تكون مقدمة من مقدمات البرهان المدودة في فن المنطق

أزيدك شيئاً في هذا وهو انك اذا كنت لاتعرف لسان القوم الذين تنزل فيهم بجدتك طعمة أو هبة من الله سيقت اليهم فهم يكلفونك من النفقات ما يشاؤون ولا يجدون في أنفسهم دائقاً من الرأفة بك ، أو الرحمة لفرقتك ، ولا يمكنك ان تبحث مع ناهيك في موضوع نهيك ، لأنه لا يفهم ما تقول ، وأنت لاتفهم ما يقول ، فينتهي أمرك بدفع ماركم لك رغم أنك ، وغاية ما يمكنك فصله ان (٥٥ ج ٢ تاريخ الاستاذ الامام)

تتمس الصعداء وتهز رأسك وتلوي عنقك علامة على غضبك ولكن هذا كله لا يوفر عليك ما نقصه منك الجبل باللسان

وفي ظني أن من أراد ان يسافر الى بلد لا يعرف لسانه فأولى له ان يتعلم من لسان ذلك البلد ما يكفيه للتعامل ومدة سنة قبل السفر تكفي لذلك وأجرة الاستاذ المعلم لا تصل الى نصف ما يخسر به بركة الجبل باللسان

أستغفر الله من خطأ فيما قلت . اذا أراد السفر الى صقلية (سيسيليا) من بلاد ايطاليا فعليه ان يجتهد لمعرفة اللغة الايطالية حتى يتكلم بسرعة ويفهم بسرعة يسبق بها كلامه وفهمه كلام الايطاليين وفهمهم والا سأل الله العوض فيما يفقد من متاعه أو ما يؤخذ منه أجرة على ضياعه . عند وضع قدمه على ساحل صقلية يجتمع عليه الحملون والمرشدون المضلون ويتجادون متاعه وثيابه كل يأخذ قطعة فان كان لا يعرف اللسان ، كان ما كان مما لا يسمعه الامكان ، فاذا سلم له متاعه من التحطيم أو الضياع ، أو أصابه من ذلك ما لم يفد فيه الدفاع ، وجد أمامه جيشاً من الطالبين كل واحد يطالبه بقيمة عمله ، وما هو ذلك العمل ؟ هو حمل قطعة من المتاع وكلمة قيلت غير مفهومة في هدايته الى المحل الذي وصل اليه ، مع انه وصل برجليه ، ومن طريق كل الناس يمشون فيه . ولا تنس انهم يجاذبونك أعضائك حتى ان جميع أجزاءك لي خطر من مجاذبتهم اذا لم تكن حريصاً عليها . فاذا كنت في حاجة الى السفر الى هذه البلاد والاقامة فيها مدة من الزمان لتبديل الهواء وترويح النفس بحال المناظر خصوصاً أيام الربيع فعليك ان تصرف سنتين في تعلم اللغة الايطالية وما تنفقه في التعلم أقل مما تخسر مع تعذر التفاهم

وجدت ان الذي يعرف الانكليزية أسعد حظاً في فرنسا ممن يعرف الفرنسية في انكلترا فانك لا تجد نزلاً في البلاد الفرنسية الا وفيه كثير من الخدم الذين يعرفون الانكليزية . سألت عن السبب في ذلك فقيل لي ان أهل فرنسا قلما يسبحون في بلاد الانكليز . أما الانكليز والامريكيون فيملأون سهول فرنسا وجبالها ، ويدهشون بالذهب صفارها ورجالها ، فاضطر الفرنسي الى ترويح

الانكليزية في بلاده لتعجب الزائرين ، وليستكثر من الناثرين ،
 ويل لك اذا أقمت يوما أو يومين في نزل بمسينا من أكبر ما يقصده السائحون .
 رب النزل يعرف بعض كلمات قليلة من الفرنسية يمكنه بها ان يفهمك أن أجرة
 محل النوم وحده بلا أكل ولا شرب عشرة فرنكات في الليلة ويمكنك أن تفهمه
 بأنك قبلت ذلك على شرط النظافة وتوفر الراحة وان كان لا يعمل من ذلك بما فهم
 منك وانما العمل على ما فهمت أنت منه

تنام عند الساعة العاشرة فلا يمر عليك نصف ساعة الا وقد أطار نومك صباح
 وجلبية ودوي حركات تذهب وتجيء خارج منامك فيضيق صدرك وتطلب الفرج
 ولا تجده فتفتح الباب وتقول كلاما كثيرا يفهم منه انك في شدة الضيق مما نسمع
 ولا سبيل الى النوم فيقال لك ما تفهم منه ان هؤلاء مسافرون جاؤا الى المحل من
 جديد وماذا يصنع معهم ؟ فتطلب محلا آخر للنوم ويأخذون فراشك من محلك
 الأول الى محلك الثاني فتحمد الله على الهدوء وإقبال الراحة ثم تلقي جسمك على
 الفراش ويقبل النوم على عنيدك بثقله ثم لا يمضي نصف ساعة الا وقد أخذت
 يدك تحك وجهك وعنقك واليسرى تحك اليمنى واليمنى تحك اليسرى ولا يزال
 الحك يزيد والمحكوك يتألم حتى تنبته أعصاب الدماغ والعين ويصبح ذلك النوم
 الثقيل ، أخف من نفس الجميل ، فيطير عنك الى حيث تبحث عنه ولا تجده ولا يبقى
 لك الا الحك والحكة : وما هذا كله ؟ هذا هو البق الذي تروءك حمرته ،
 وتقلقك عضته بل حركته ، بل تطير نومك رؤيته ، فتطلب الخلاص وماذا
 تصنع ، مضت مدة من الليل نام فيها الصائجون فتعود الى محلك الاول وقد نام
 الخادم فتعود الى غير فراش أو تفرش لنفسك وهذا أفضل لك ، فاذا أصبحت
 حوسبت على شمتين في مكانين لم تصرف منهما شيئا وعلى شيتين آخرين ،
 وكنت نحاسب على أجرة مخدعين ،

أنظر ما وقع لي مع خادم هذا النزل ! طلبت منه ماء باردا فلم يفهم فاشرت
 الى فمي ومثلت بيدي صورة انا الماء فاذا هو يفتح الباب وينظر الي كأنه فهم
 اني أشرت بيدي الى أن الباب مغلق وبقي الى فتحه لانه فتحة من فتحات

بدني ، وبعد تعب أعضائي من الاشارة ولساني من التكلم بالفرنسية قمت وبمحت عن كوب وأشرت به اليه ففهم اني اريد ماء لكن لم يفهم أي أريده باردا وما اشد التعب في تصوير الجليد له ، فرغ ماء الغسل فطلبت منه تجديدده فرفع في وجهي كرسيًا طويلًا اشتريته لاجلس عليه في المركب ففرغت لذلك وظننت انه يريد رمي به فلنا منه اني شتمته غير ان ذلك سرّي عني عند مارأيته بنظر اليّ نظر الاحترام ويطلب مني بعينه أين يضع الكرسي ، فاستلقيت من الضحك وذهبت الى موضع الغسل وأشرت اليه ان يجدد الماء ففعل ، أفلا يملك ذلك على تعلم اللسان الايطالي اذا أردت السفر الى سيسيليا وان لا تصدق ما يقال لك من ان معرفة الفرنسية تكفيك الحاجة في كل بلاد اوروبا ؟

﴿ مسينا ومقبرتها ﴾

نسيت ان أضع في جانب المقابر مقبرة مسينا وهي مقبرة في الجنوب الغربي من المدينة وانك اذا قلت لصقلي: اني ذاهب الى مسينا: يقول لك في الحال: لا بد ان ترى المقبرة : وهي جزء من المدينة تحسب مدينة بنفسها فيها مدافن للامراء والاعيان مبنية على أجمال نظام وأقربه الى السذاجة وفيها مكان شامخ رفيع يدفن فيه أرباب الشهرة من المهندسين والشعراء ونحوهم . وطريقة الدفن في تلك الاماكن تختلف فبعضها على الطريقة المعهودة من وضع صندوق الجثة تحت الارض وبعضها بوضعه في صندوق ضخم كبير لا يمكن سرقة على ظهر الارض ، وبعضها في بيوت تفرض في عرض الجدر العريضة وهكذا . والمقبرة مزينة بأغراس من شجر الصنوبر وضرب من فصيلة الصنوبر يشبه الاثل وليس به ولا أعرف اسمه بالعربية سوى انه شيء من كبار الطرفاء لكنها نظمت بيد أوربية تعرف كيف تخضع النبات لارادتها فتوجهه الى الوجهة التي تريد . والطرق فيها على غاية مايرام من النظافة والانتظام ، وهي انظف وأجمل من كثير من شوارع مدينة الاحياء (مسينا) ثم أنها تأخذ من أسفل الطريق الى قمة جبل اذا صعدت عليه نظرت وأنت في المقبرة من البحر والساحل أجمال ما تنظر عيناك من اللآلئ والنضرة في المواقع المختلفة ، ومن الاشكال الطبيعية ، وبدائع الاعمال الصناعية ،

يظهر ان المقبرة أعجبتني حتى انطلق قلبي في وصفها كأنه قلم صاحب جريدة ينطلق في السياسة المصرية ببيان مناحيها ووصف ضواحيها - أعوذ بالله - يوجد في هذه المقبرة مواضع مخصوصة للفقراء قد صفت فيها قبورهم على نظام محكم تراها كأنها خطوط مزارع القطن في أرض غير معتدلة تقصر وتطول وعلى رأس كل قبر صليب أسود يخيل للرأي من بهيبتها أجنحة الغربان الجاثمة على بقايا الجثثان . لا يزال في وصف المقبرة كما لا يزال بعض الغافلين عن أنفسهم في بلادنا يشغلون بالسياسة ، عن الادب والكياسة

ماذا أقول في وصف هذه المقبرة ؟ مدينة جميلة المناظر، بديعة المداخل ، بعيدة المحارج ، الداخل فيها أكثر من الخارج منها ، قد اختير لها شجر الصنوبر زينة من بين الاشجار لانه في خضرة دائمة وحياة مستمرة كأن ارواح من يموت تنتقل اليه بعد مفارقة الاجساد فهو لا يزال دائم الحياة في الصيف وفي الشتاء والحريف والربيع ، مدينة زينها الاحياء في حياتهم ، ليعدوها لاقامتهم - فيما يزعمون - بعد مماتهم ، وهكذا من كان على يقين من الرحيل الى دار هيا تلك الدار للسكنى وأعد لنفسه فيها أنواع النعيم ليطيب له المقام ، ولا يقلق به المكان ، لكن هل يكفي أن تزين لنفسك مقرا الجثثك وأنت لا تدري هل تشعر هناك بما زينت ، أو تؤخذ عنه اذا مت ، نهل زينت دارا لروحك بالطيبات ، كما زينت دار الجثثك بالزهر والنبات ؟ أخطبك وأنت مصري من سكان القاهرة لا ترى في مقبرتك ولا في الطريق الموصلة اليها الا ما يخيفك من الموت وينغصك فيه غمر من الغبار ونلول من التراب لتذكر بها انك من التراب والى التراب

اذا بنيت فيها مسكنا فلست تبنيه لنفسك يوم تموت ولكن تبنيه لتقيم فيه بجانب الاموات وتشاركهم في المسكن وأنت حي تقضي فيه الايام من رجب ومن شعبان ومن شوال ومن ذي الحجة وبعض ايام من بقية الشهور تأكل وتشرب وتنام ولا تشبه جيرانك من أهل المقابر الا في النوم الثقيل ولا تستحي من معاشرتهم وأنت تأكل وهم لا يأكلون ، ونضحك وهم ربما يبكون ، وتلعب وهم لا يلعبون ، نلهو بالفيل والقال ، وملاعبة النساء والاطفال ، وربما أقت في المقبرة ما تسميه بالموالد

وجلبت بذلك اليها من المغنين، والمطربين والعازين ، ونصبت فيها الحيام ، وصنعت من لذيذ الطعام ، ما تدعو الى تناوله العلماء الاعلام ، والاتقياء الكرام، فلبوا دعوتك زرافات وحدانا ، مشاة وركبانا ، ويخوضون في غمار اللاهين الى ان يصلوا الى حيث نصبت خيامك ، وهيات طعامك، على ظهور الاموات، وبجوار تلك الرفات ، وتبيت ليلتك تلهو وتلعب ، وتصيح وتصخب ، كأن الموت قد فارق ديارك ، وكره جوارك ، وفر من بين يديك ، مشمزا بما يري لديك، اما مقبرة مسينا فلا ترى فيها آكلا ولا اشار باوانما ترى الزائرين في سكينه ووقار لا يشكلون الا همسا، تماشيهم ولا تكاد نسمع لهم جرساً (١)

﴿ صخب الصقليين وتسولهم وكسلهم ﴾

أهل مسينا من اهالي سيسيليا وسيسيليا هي جزيرة صقلية التي ملك فيها العرب نحو مئتي سنة وكان منها كثير من العلماء والفقهاء والمؤرخين والفلاسفة والصوفية وبعض الزنادقة وكل صنف من صنوف أهل العلم والمنتسبين اليه كما كان في العراق والشام والاندلس . وقد ترك العرب آثارا في البلاد منها ما تقدم ذكره وهو مما لا يذكر ومنها كلمات في لسانهم كثيرة كالشروق للريح الشرقية وكالقبه والطلعة والشر ونحو ذلك من الكلمات التي ترشدك لأول وهلة الى أصلها والى البلاد التي حلت منها . ولا أظن ان الصياح والصخب الذي اختص به اهالي سيسيليا يكون من ميراث العرب رحمهم الله فان اصوات السيسيليين أشد قوعا، وآلم في الاذن وقعا، واني لأشك في ان حناجرهم أشد تمرنا على الصراخ بغير داع من حناجر أهل كفر الجاموس (٢) أو سكان عرب يسار أما العرب فكانوا يصيحون في الحرب والجلاد، ويسكتون عند الرجوع الى البلاد، ولعل هؤلاء استعملوا في السلم ما كان يستعمله أولئك في الحرب كما يفعل بحرية يافا وبيروت من ثغور سوريا أما الاهمال والكسل فلا أدري هل هو من طبيعة البلاد أو من ميراث تركه بعض السلف من الفاتحين ؟

(١) الجرس بفتح الجيم وسكون السين هو الصوت الخفي

(٢) كفر الجاموس مزرعة بالقرب من عين شمس في ضواحي مصر

ويل لك اذا عرفت بأنك غريب فانه يتبعك السائلون الملحفون، والمكندون
المجدون، ويلزمونك حتى تعطي شيئاً من النقد ولا فاق في حالك بين ان تجلس
في قهوة أو تكون في زيارة معبد أوفى تفقد مكتبة أو دار آثار تجد من ذلك
مالاتجده عند المتبولي ولا عند ضريح الاستاذ البيومي (رضي الله عنه) ثم تجد
الناس في الساحات وقوفاً أو جوالين لا يدرون ماذا يعملون وإنما يتقرب الى الغرباء
من يظن القدرة في نفسه على أن يفترس منهم فرسة لكن يمكنك ان كان عندك
صبر أبوب وسماجة بعض السياسيين عندنا من المصر بين أو السوريين ان لا تعطي شيئاً
أو تهرب اذا أردت

لعلك تفرست شيئاً من الكسل في حكاية ما وقع في فهرس الكتب العربية
في المكتبة العمومية ودفتر الاسماء في دار المحفوظات وأز يدك انك اذا ذهبت عند
شركة الملاحة (بكسر الميم وتخفيف اللام لا الملاحة بفتح الميم وتشديد اللام كما يقول
بعض أكابرنا (١) فان التشديد يجعل الكلمة موضعاً للملح الذي يوضع على الطعام
ويتناول أحياناً للأسهال . أما التخفيف فهو اللازم في اسم الشركة لخفة مراكبتها
في السفر على البحر المالح وأظن اللفظ يرجع أيضاً الى رقيقه فان في البحر ملحا أيضاً
لكنه ليس يكثر كالذي في تلك الكلمة المشددة) وجئت مكتب الشركة لطلب
تذكرة سفر مثلاً نجد العامل بمحرك يده يبط . كأن بعض أجزائه ينازع بعضها فاذا
فرغ من الكتابة على هذا الوجه القتال أسرع بمد يده اليك لطلب المبلغ فاذا
دفعته اليه وكانت لك بقية من النقد يلزمه ردها اليك كادت يده نثل بجانبه
وأنت تنظر اليه وتنتظر أن تناول مالك وتنصرف وهو ينظر اليك كأنه يعني ان
ننسي مالك عنده أو تمل الانتظارو يأخذك الوقت فتتركه له وهذا ضرب من الكسل
في أداء الحق ونوع من البطء في العمل لاتجده حتى في مصر حرسها الله فان العمال
عندنا حتى في زمن الصيف لا يسمعون لاعتنائهم ان تعود هذه العادة الرديئة

(١) هو أحد أعضاء مجلس شورى القوانين كان يتكلم في المجلس عن

حرية الملاحة ويضبطها هكذا

﴿ رثانة الصقليين ووساختهم ومقابلتهم بالمصريين ﴾

امارثانة الملبس عند الفقراء وذنس الثياب وعدم العناية بالنظافة في كثير من الشؤون فذلك مما نجدله مثالا في كثير من الاحياء عندنا . واني أقص عليك فكاهتين وقعتا في النزل الكبير الذي نزلت فيه . رفع الله عماده - كنت أطلع في جريدة خطابا ألفاه بعض أساتذة السوبون في باريس لمناسبة رفع تمثال للكاتب المؤرخ الفرنسي رنان القاه في بلدة رنان التي ولد فيها وكنت مستغرقا فيما يقول الخطيب عن الفسدين وتعالجهم وعن الاحرار اطال الله في أسنتهم وما يرونه في فلسفتهم واذا أخذوا النزل دخل علي ونحت ابطه ولد صغير في الخامسة من سنه تقريبا وقد علا الوسخ وجه الصبي وهجم القدر على عينيه يربد أكلهما وانته فمه يسيلان ذلك بما نعرف وهذا بما لا يخفى عليك وبيده عقود عنب يتناول منه حبة بعد حبة وماء كل حبة يسيل من شدقيه اذا رأته امكنتك ان تحلف بشيء من الطلاق أو العتاق ان أمكن ان هذا من ذرية (الشيخ الدعكي) رحمه الله من أو ان روح الاستاذ ظهرت في مظهره اللطيف واذا كنت واحداً من بعض الاعيان أو بعض من يترج بنفسه في العلماء الذين نعهدهم أقسمت في الحال انه ولي من الاولياء مجذوب من المجاذيب . فاذا ذكرك مذكر أنه ايطالي قلت لا يبعد على الله ان يكون قد ملأ قلبه جذبا وولها ورزقه من ذلك في صغره مالم ينله الدعكي في كبره والا فكيف نسيل سعائيه الى هذا الحد ويكون ليس بمجذوب ؟ هذا خلف . وربما حملك حسن الاعتقاد على ان تذهب الى المحمل الذي تعرفه وتستخرج من بحر الانساب ما يصل نسبه بمن لا يصح لاحد ان ينتسب اليه مادام على مثل هذا الاعتقاد . فانظر بعيشك الى هذا الطباق والتقابل بين ما كنت مستغرقا ذيه وبين ما فاجاني من هذا المنظر الكريه هل يمكنك ان تحدث نفسك بماذا دافعت عن نفسي في هذه الشدة دفعت فرنكا واحدا رميته على الارض فالتقطه الصبي كما يلتقط العصفور حبة الارز وكرر اجمعا لا يبالي بتأخر أبيه عنه ليشكرني على ذلك الاحسان كأن الصبي كان يخاف ان أتبعه لاخذ الفرنك منه . لا تنظن اني أبالغ في كلمة مما قلت فما رأيك بهذه الوساخة ! :

اما الفكاهة الثانية فقد كنت على ماندة الطعام في محل نومي من ذلك النزول لقلة السياح وسعة قاعة الطعام بحيث تكبر عن ان يجلس فيها شخص واحد فلما جاء صنف من الطعام يحتاج الى الملح تهبته الى الملاحه (هذه المرة بتشديد اللام لان فيها ملحاً) كما سترى . نظرت الى الملح فاذا فيه النقط السوداء أكثر من نزغات الشيطان ، في قلوب أهل الفسق والعصيان ، وأغزر من الخطيئات ، في بعض المزارات ، فنظرت الى الخادم وأخذت الملاحه وأنشأت أنك ما فيها من النقط السوداء نكتة نكتة وأصعد نظري في وجه الخادم وأقرب وأظهر التقرز ولا زلت كذلك حتى فهم ان هذا شيء من الوسخ لا أستطيع تناوله فعند ذلك تناول مني الملاحه بغاية الكسل ثم ذهب وأطال الغيبة وبعد ما كدت أغضب مع سعة حلبي في السفر جاء بملاحه أخرى أوسع من الأولى وأظهر منها ملحاً فكانه يفهم ان الوساخه مما لا يليق لكن لا يتم له هذا الفهم الا اذا قال له شخص آخر ان النظافة خير منها وان الوسخ شيء تنقرز منه النفس، وينفر منه الحس، اما مثال هذه الواقعة الثانية فما يكثر في خدمنا بل في بعض ساداتنا رثاثة الله حياتهم فانهم ينظرون بأعينهم الى الخبيث والخبائث وربما حكموا فيه بوصفه لكنهم لا ينزهون المكان عنه بل ربما لا ينزهون أنفسهم عن التلوث به الا اذا أمرهم بذلك أمر فعند ذلك يتشلون الامر بغيرة لمختار ، وعزيمة الجبار ، ثم يحدثك أحدهم بحسن ما يصنع مما أمر به كأنه هو الذي اندفع اليه من نفسه كأن الامر الصادر اليه هو الذي اكسب الشيء حسنه وحلاه بوصفه وأعوذ بالله أن يكون هذا هو مذهب الاشاعرة الذين يقولون ان حسن الفعل هو الامر به وقبحه هو النهي عنه وأنه لاجس ولا قبح للشيء في ذاته فاني على يقين أنهم لا يعنون به ما يجده أولئك الآلات في أنفسهم . وما عليك الا أن تبحث في رأي الفريقين حتى تقف بنفسك على تحقيق الشبه أو نفيه فاني الآن لا أكتب كتاباً في علم الكلام ، ولا أكتب أسطري هذه للافاضل من أهل الفن فانهم أعلى من ان يستفيدوا من قراءة أمثال هذه القصص أوسع الله من عقولهم حتى تسع أهالي بلرم ومسينا معاً وما ذلك على الله بعزيز

الذي يحظر بيالي من أسباب ذلك اذا أخذنا بالجد أن هذا شأن العامة من الامم التي طال فيها زمن الاستبداد وتصرف الارادة الواحدة في جميع الارادات مع ما يطرأ على تلك الارادة الواحدة من الاختلال وفساد المزاج فتأمر بالشيء اليوم لانه من هواها ، وتنهى عنه غدا لانه لم يبق من مشتهاها ، وأمرها واجب الاطاعة ، وفي مخلفته إضاعة أي اضاءة ، فن تعود الانفس على تعاطي الاعمال لالأنها مما تخناره ، بل لانها مما توهم به ، وبخفي عليها وجه الحسن والقبح لأن التعود على العمل مهما كان قبيحاً يزينه للنفس أو يسهل عليها مقارفته . وسهولة المقارفة انما تنشأ عن عدم الاحساس براءحة القبح ولو بقي نذته في شامة النفس لعافته ولما أمكنها تعاطيه . وكذلك يخفي وجه الحسن في الشيء متى خفي وجه القبح في ضده كما لا يخفى عليك ان كنت من المدققين خصوصاً في علم أصول الفقه الحنفي وقرأت ما كتبه العلامة الغزالي والمحقق الحفيد وغيرهما على اتلويح للعلامة الثاني سعد الدين التنازاني حاشية التوضيح على مختصر البزدوي . اذا سألتني عن العلامة الاول في مقابلة العلامة الثاني فاني لا أتذكره الآن وان صدق ظني يكون هو عبد القاهر الجرجاني ولكن الافضل لك أن تسأل شخصاً اخر من مدرسي حاشية التجريد للبناني فان من يقرأ هذه الحاشية يسهل عليه وزن العامين ، وتحديد الفرق بين العلامتين - وربما قال لك ان الاول هو القطب الشيرازي لان سهولة كلام الامام عبد القاهر وسلاسته تمنعهم من جعله العلامة الاول - وان شئت ان لا تشغل بهذه المسألة فهو أفضل من ذلك الافضل ويكون أفضل التفضيل الاول على غير بابيه والسلام . وانما المهم فيما نحن بصده ان الارادة السليمة ، والطبيعة المستقيمة ، يمكنها أن تميز الملح النظيف من الوسخ وتعتني بتقديم النظيف الى الضيف من أول الامر ، بدون احتياج الى اصدار أمر ، وقس على ملح الطعام بقية الاملاح كالنحو ملح العلم والعلماء ملح العالم وهكذا كل ما يحتاج اليه في اصلاح الاغذية بدنية كانت أو روحية ذنوبية كانت أو دينية . اما اذا كنت لا تميز ولا تفهم الا بأمر فتر بص حتى يأتي الله بأمره والله شديد العقاب

❦ دور الآثار وبتاتين النبات ❦

لا تبخس أهل سيليا (صقلية) حقهم فانهم فهموا مسألة لا بأس بفهمها وأظنهم عرفوا ذلك من أخوانهم أهل شمالي ايطاليا وبقية الاوربيين وهي لمحة على الآثار القديمة والجديدة أما القديمة فتحفظ بذواتها وأما الجديدة فتحفظ ولو بنموذج منها . بنوا ملعما في بلرم فصنعوا له مثالا من الحشب ووضعوه في دار الآثار . مدينة بلرم لها مثال مجسم رسمت فيه البساتين والجمال والكنائس مجسمة مصغرة بأوانها الطبيعية وألوان الارض نفسها وذلك المثل في دار الآثار . حفظوا لباس امرأة مسلمة من مسلمي صقلية وهو زي يشبه الأزياء الاوربية مع ساتر للوجه يدل على أن ستر الوجه كان عاماً حتى في صقلية أيضاً وان كان ذلك قد يفضب قاسم بيك أمين فانه يجد له اضداداً في مسلمي أوربا فضلاً عن مسلمي آسيا وأفريقيا

يحفظ القوم في متاحفهم هذه كل ما يوجد من آثار المتقدمين من مصنوعات وأشجار وأحجار ولا يدخرون جهداً في حفظ ذلك حتى اذا وجدت اسم شيء في كتاب تاريخ مثلاً أو عرض لك اسم في علم من العلوم كان يدل على معنى في الزمن السابق أمكنك أن تعرف المدلول بالعيان والمشاهدة وتحقق صحة الوصف والتعريف فما استعمله الاقدمون من آلات وأدوات وأنواع ثياب وضروب مراكب ونحو ذلك تجد شيئاً منه في متحف من المتاحف أو في قصر من القصور أو في كنيسة من الكنائس أو في داهية من الدواهي التي هناك . وهذا مما يفيد في تحقيق المعاني التاريخية واللغوية فائدة لا يعرف مقدارها إلا من يسمع اسم الأمة والدلاص والدرع والخوذة والعمامة (عمامة الحرب) ونحو ذلك من الالفاظ العربية الكثيرة الاستعمال ثم يراجعه في القاموس أو غيره من كتب المعجمات وبعد ذلك لا تستقر في خياله صورة لمدلول من مدلولات هذه الالفاظ وقد يتخيل صورة لا مناسبة بينها وبين الحقيقة وهو جهل باللغة فاضح وكثيرمناً يأكلون اللوز والحوز وينطقون باسمه في البيت وعند البائع اذا طلبوا شراء شيء منه وهم اذا رأوا شجرة الجوز أو اللوز لا يميزون بينها وبين شجرة الحميز أو الفلفل أما الجماعة فعندهم

في بساين النبات جميع هذه الأنواع من الأشجار، وما لا تناسبه درجة الحرارة في الهواء يحدون له جواء تناسبه بالتسخين أو التبريد حتى يعيش في جو مثل جوه . ولكل من يريد معرفة شيء ان يذهب ويعرفه بعينه ، ذلك وقد رسموا صور هذا كله فيما كتبوا من كتب اللغة ومعجمات العلوم ويتيسر للحاذق ان يعرف هذه الاشياء بصورها المرسومة في تلك الكتب أما اذا قل لك صاحب القاموس: الجوز شجر من أي معروف فماذا تستفيد من هذا وأنت في مصر وليس في قرب الازهر شيء من شجر الجوز بل ولا في الازبكية نفسها فكيف يصبر هذا عندك معروفا وكيف يمكنك ان تحدث عن هذا الشجر اذا كنت كاتباً أو شاعراً أو طبيبياً أو عالماً أو أدبياً

الصور والتماثيل وفوائدها وحكمها

لهؤلاء القوم حرص غريب على حفظ الصور المرسومة على الورق والنسيج ويوجد في دار الآثار عند الامم الكبرى ما لا يوجد عند الامم الصغرى كالصقليين مثلاً، يمحققون تاريخ رسمها والهد التي رسمتها ولهم تنافس في اقتناء ذلك غريب حتى ان القطعة الواحدة من رسم روائيل مثلاً ربما تساوي مئتين من الألاف في بعض المتاحف ولا يهتكم معرفة القيمة بالتحقيق وإنما المهم هو التنافس في اقتناء الامم لهذه النقوش وعد ما أتقن منها من أفضل ماترك المتقدم للمتاخر، وكذلك الحال في التماثيل وكلما قدم المتروك من ذلك كان أعلى قيمة وكان القوم عليه أشد حرصاً، هل تدري لماذا؟

اذا كنت تدري السبب في حفظ سلفك للشعر وضبطه في دواوينه والمبالغة في تحريره خصوصاً شعر الجاهلية وما عني الأوائل رحمهم الله بجمعه وترتيبه أمكنك أن تعرف السبب في محافظة القوم على هذه المصنوعات من الرسوم والتماثيل فان الرسم ضرب من الشعر الذي يرى ولا يسمع والشعر ضرب من الرسم الذي يسمع ولا يرى . ان هذه الرسوم والتماثيل قد حفظت من أحوال الاشخاص في الشؤن المختلفة ومن أحوال الجماعات في المواقع المتنوعة ما نستحق به أن نسمي ديوان الهيئات والاحوال البشرية . يصورون الانسان أو الحيوان في حال الفرح والرضى والطمأنينة والتسليم . وهذه المعاني المدرجة في هذه الالفاظ متقاربة لا يسهل عليك

تتميز بعضها من بعض ولكنك تنظر في رسوم مختلفة فتجد الفرق ظاهرا باهرا بصورونه مثلا في حالة الجزع والفرع والخوف والخشية والجزع والفرع مختلفان في المعنى ولم أجمعها هنا طمعا في جمع عينين في سطر واحد بل لانهما مختلفان حقيقة ولكنك ربما تعتصر ذمك لتحديد الفرق بينهما وبين الخوف والخشية ولا يسهل عليك أن تعرف متى يكون الفرع ومتى يكون الجزع وما الحياة التي يكون عليها الشخص في هذه الحال أو تلك . أما اذا نظرت الى الرسم وهو ذلك الشعر الساكت فانك تجد الحقيقة بارزة لك تتمتع بها نفسك ، كما يثلذ بالنظر فيها حسك . اذا نزعنا نفسك الى تحقيق الاستعارة المصروفة في قولك : رأيت أسدا : تريد رجلا شجاعا فانظر الى صورة أبي الهول بجانب الهرم الكبير تجد الأسد رجلا أو الرجل أسدا ، فحفظ هذه الآثار حفظا للعلم في الحقيقة وشكر لصاحب الصنعة على الابداع فيها . ان كنت فهمت من هذا شيئا فذلك بغيري أما اذا لم تفهم فليس عندي وقت لتفهمك بأطول من هذا وعليك بأحد اللغويين أو الرسامين أو الشعراء المقلقين ليوضح لك ما غمض عليك اذا كان ذلك من ذرعه

ربما تعرض لك مسألة عند قراءة هذا الكلام وهي ما حكم هذه الصور في الشريعة الاسلامية اذا كان القصد منها ما ذكر من تصوير هيئات البشر في انفعالهم النفسية ، أو أوضاعهم الجمانية ، هل هذا حرام أو جائز أو مكروه أو مندوب أو واجب ؟ فأقول لك ان الراسم قد رسم ، والفائدة محققة لانزاع فيها ، ومعنى العبادة وتعميم التمثال أو الصورة قد محي من الازهان فاما أن نفهم الحكم من نفسك بعد ظهور الواقعة وإما ان ترفع سؤالا الى المفتي وهو يجيبك مشافهة فاذا أوردت عليه حديث : ان أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون : أو ما في معناه مما ورد في الصحيح فالذي يغلب على ظني انه سيقول لك ان الحديث جاء في أيام الوثنية وكانت الصور تتخذ في ذلك العهد لسببين : الاول للهو والثاني التبرك به مثل من رسم صورته من الصالحين والاول مما ينفسه الدين والثاني مما جاء الاسلام لمحوه والمصور في الحالين شاغل عن الله أو ممدد للاشراك به فاذا زال هذان العارضان وقصدت الفائدة كان تصوير الاشخاص بمنزلة تصوير النبات والشجر في

المصنوعات وقد صنع ذلك في حواشي المصاحف وأوائل السور ولم يمنعه أحد من العلماء مع ان الفائدة في نقش المصاحف موضع النزاع أما فائدة الصور فيما لا نزاع فيه على الوجه الذي ذكر (١) وأما اذا أردت أن ترتكب بعض السيئات في محل فيه صور طمعا في أن الملكين الكاتبين أو كاتب السيئات على الاقل لا يدخل محلا فيه صور كما ورد فإياك ان تظن ان ذلك بنجيك من احصاء ما تفعل فان الله رقيب عليك، ونظر اليك، حتى في البيت الذي فيه صور ولا تظن ان الملك يتأخر عن مراقبتك اذا تعمدت دخول البيت لان فيه صوراً . ولا يمكنك ان تجيب المفتي بأن الصورة على كل حال مظنة العبادة فإني أظن انه يقول لك ان لسانك أيضا مظنة الكذب فهل يجب ربطه مع انه يجوز ان يصدق كما يجوز ان يكذب

و بالجملة انه يغلب على ظني ان الشريعة الاسلامية أبعد من أن تحرم وسيلة من أفضل وسائل العلم بعد تحقيق أنه لا خطر فيها على الدين لان جهة العقيدة ولا من وجهة العمل . على أن المسلمين لا يتساءلون الا فيما تظهر فائدته ليعزموا أنفسهم منها والا فما بهم لا يتساءلون عن زيارة قبور الأولياء أو مسامح بعضهم بالأولياء وهم ممن لا تعرف لهم سيرة ، ولم يطلع لهم أحد على سريرة، ولا يستفتون فيما يفعلون عندها من ضروب التوسل والضراعة وما يعرضون عليها من الاموال والمتاع ، وهم يخشونها كخشية الله أو أشد . ويطلبون منها ما يخشون ان لا يجيبهم الله

(١) ان الذين رسموا الصالحين والأنبياء انما أرادوا التبرك بصورهم وتعظيمها اكراما لهم وهذا التعظيم يسمى في كل اللغات عبادة وجميع الصور والنماثيل التي كانت عند العرب كانت معظمة للدين ولذلك سمي في القرآن تعظيمها عبادة وكذلك النصراني كانوا يصرحون أن تعظيم الايقونات ونحوها من الصور عبادة فلما عارض المصلحون في ذلك صار بعض المصريين عليه يسمي تعظيمها اكراما وأصر بعضهم على تسميته عبادة ، هذا وان النهي عن التصوير في الاسلام لم يزد على النهي عن تعظيم القبور وتشريفها وبناء المساجد عليها وإيقاد السرج عليها وقد فعل المسلمون هذا مع بقاء علته وهم يتركون التصوير وفوائده مع انتماء علة النهي عنه افنو من بظاهر بعض الدين ونكفروا بحقيقة بعضه ؟

فيه و يظنون أنها أسرع الى اجابتهم من عنايته سبحانه و تعالى . لاشك أنه لا يمكنهم الجمع بين هذه العقائد و عقيدة التوحيد ولكن يمكنهم الجمع بين التوحيد و رسم صور الانسان و الحيوان لتحقيق المعاني العلمية ، و تمثيل الصور الذهنية ،

هل سمعت أنا حفظنا شيئاً حتى غير الصور و الرسوم مع شدة حاجتنا الى حفظ كثير مما كان عند اسلافنا ؟ لو حفظنا الدراهم و الدينار التي كان يقدر بها نصاب الزكاة و لا يزال يقدر بها الى اليوم أفما كان يسهل علينا تقدير النصاب بالجنهيات و الفرنكات و نحو ذلك مادام المثال الاول موجودا بين أيدينا ؟ ولو حفظ الصاع و المد و غيرها من المكاييل أفما كان ذلك مما يسر لنا معرفة ما تصرف في زكاة الفطر و ما تجب فيه الزكاة من غلات الزرع بعد تغيير المكاييل و ما كان علينا الا ان نقيس ميكاناتنا بتلك المكاييل المحفوظة فنصل الى حقيقة الأمر بدون خلاف . أنظرك توافقني على أنه لو حفظ درهم كل زمان و ديناره و مده و صاعه لما وجد ذلك الخلاف الذي استمر بين الفقهاء يتوارثونه سلفاً عن خلف كل منهم يقدر المكيال و الميزان بما لا يقدر به الاخر حتى جاء في آخر الزمان أحمد بيك الحسيني يخطي ، بعضهم و يوفق بين أقوال البعض الاخر بدون ان يكون بين يديه صاع و لا مد من تلك الآصع و الامداد ، و ما أصعب التخطيطة و التوفيق ، اذا لم يكن العيان هو المميز بين فريق و فريق ،

لو نظرت الى ما كان يوجب الدين علينا ان نحافظ عليه لوجدته كثير الا يحصى عده و لم نحفظ منه شيئاً فلنتركه كما تركه من كان قبلنا ولكن ما نقول في الكتب و ودائع العلم هل حفظناها كما كان ينبغي ان نحفظها أو أضعناها كما لا ينبغي أن نضعها !!! ضاعت كتب العلم و فارقت ديارنا نفائسه فاذا أردت أن تبحث عن كتاب نادر أو مؤلف فاخر أو مصنف جليل أو أثر مفيد فاذهب الى خزائن بلاد أوربا نجد ذلك فيها . أما بلادنا فقلما نجد فيها الا ما ترك الاوربيون و لم يحفظوا به من نفائس الكتب التاريخية و الادبية و العلمية و قد نجد بعض النسخة من الكتاب في دار الكتب المصرية . مثلاً و بعضها الاخر في دار الكتب بمدينة كبردرج من البلاد الانكليزية . ولو أردت أن أسرد لك ما حفظوا و ضمنا من

دفا تر العلم لكتبت لك في ذلك كتابا يضيع كما ضاع غيره وتجده بعد مدة في يد أوربي في فرنسا أو غيرها من بلاد أوربا

نحن لانعي بمحفظ شيء نستبقي نفعه لمن يأتي بعدنا ولو خطر ببال أحد منا ان يترك لمن بعده شيئاً جاء ذلك الذي بعده أشد الناس كفراً بتلك النعمة وأخذ في اضاءة ما عني السابق بحفظه له فليست ملكة الحفظ مما يتوارث عندنا وإنما الذي يتوارث هو مملكات الضعائين والاحقاد تنتقل من الآباء الى الاولاد حتى تفسد العباد، وتخرّب البلاد، ويلتقي بها أربابها على شفير جهنم يوم المعاد

﴿ أمير وأميرة من الاسرة الخديوية ﴾

البحر هادىء والهواء عليل وقد قرب الغروب واليوم آخر أيام السفر وانا محبوس في هذا المكان الضيق لتحرير هذه الاحرف اجابة لطلب بعض الناس وبودي لو استنشقت الهواء لكن بقيت على قصة اقصها ولو تركتها اليوم لم يعد اليها القلم في يوم

صعدت الى المركب من مسينا وجلست انتظر مسيره وبينانا كذلك واذا بأب امير من أعضاء العائلة الخديوية يصعد من السلم الى السطح فنهضت للسلام عليه وتساءلنا عن مراحل أسفارنا وفهمت منه ان معه حرمه وهي من أعضاء العائلة الخديوية كذلك . فقلت أمير جليل ربي على الطريقة الاروية وتعود السفر الى بلاد اروبا مع حرمه وهي كذلك قدر بيت على العظمة والحرية فلا ريب ان ترى الاميرة مع الامير ولا يقدر ذلك في كرامة واحد منهما فان الاميرات المصونات قديرين الناس من حيث لا يراهن الناس لالأنهن من عالم غير عالمهم ولكن لأن الناس يفضون الطرف احتراماً لمن ولا حظ عليهم في رؤية من لا يراهن . لكني مكثت مع الامير الى وقت العصر ثم تركته وذهبت الى محل الاكل لا تناول شيئاً مما يتناول في هذا الوقت فكان جلوسي مع بعض أرباب البيوت من الفرنسيين المقيمين في الاسكندرية فبدأوني بالكلام فتكلمت وامتدني وبهم الحديث الى حالة المركب وازدحامه بالركاب وضيقة عنهم فقال قائل أو قالت قائلة : ما أسوأ ما صنعت الشركة مع البرنسيس فانها وضعتها في قرة ضيقة لاشباك لها وهي ملازمة لها ليلاً ونهارها

ولو كانت ممن يخرجون ويستنشقون الهواء لسهل الامر والى الاميرة لا تخرج قط من يوم ركبت المركب ومن القمريات ما هو افضل من قرأتها واوسع : فسألت هل بها شيء تألم له لو خرجت ؟ فقيل لي : لا الظاهر انها في غاية الصحة وكال العافية غير انها لا تحب ان تخرج والقمرة مغلقة في جميع الاوقات :

امكنتني بعد ذلك ان اسأل حتى يتم سروري بما فرحت لأوله فعلت ان الاميرة كانت في اروبا تسدل على وجهها نقابا أزرق على نحو ما يسدل نساء الاستانة اوسوريا بحيث لا يميز الناظر شيئاً من وجهها ومتى ركبت المركب لزمتم قمرتها وأغلقتها عليها الى ان تصل الى غاية سفرها . وكل ذلك نفعله حرصاً منها على كرامتها ومحافظتها على المعروف من عوائدها من حيث هي أميرة مسلمة فقلت مثل صالح لا بد من ذكره والثناء عليه حتى يتعلم أولئك المقلدون ان من أمرائهم وأميرائهم من هم أولى بتقليده . وان خيرا لهم ان يقلدوا أميرا مصريا من العائلة الخديوية الكريمة من أن يقلدوا جماعة من الاروبيين غير معروفين لهم ، لا يحسون بتقليدهم ولا يستفيدون من حذوهم حذوهم الا تجردهم مما يميزهم من حيث هم مصريون أو مسلمون واختفاءهم في غمرة أولئك الاروبيين لا يتميزون عن عامتهم في شيء وسريان ما يشكونه القوم من الفساد الى أنفسهم وانفس نسايتهم فبارك الله في الامير وفي الاميرة وأرشد الله شباننا الى الناسي بهما ان كان لا بد لنسايتهم ان يذهبن الى اروبا لمداواة علة ، أو ايناس في غربة

لعلك تسأل من هذا الامير ومن هذه الاميرة ؟ فاني أقول لك الامير هو الامير عباس باشا حليم والاميرة هي الاميرة خديجة أخت أفندينا الخديو عباس باشا حلبي . وما يسرك ان كنت مثلي تحب العفة ووضع الشيء موضعه ان الامير لا ينفق في سفره ان كان وحده اكثر من ثلاث مئة وخمسين جنينها واذا كان مع الامير فلا ينفق اكثر من ستمائة جنينه في مدة شهر بن ونصف وهو يعيش عيشة الامراء

نقول : لعله يقصد ليكتنز ، ويوفر ليستكثر ، فأقول لك اني علمت انه ينفق من ماله في تربية تلامذة في مصر وفي الاسنانه وفي انكلترا يتعلمون العلوم العاليه في

المدارس الحربية أو مدارس الطب أو الزراعة فما قولك في نفقة مثل هذه بدل النفقة في الشهوات وفوائت اللذات؟ ألت تواقفتي على أنه من أفضل الامراء عملا ومن انبلهم قصدا فإنه يربي اناسا يقومون بشؤون بيوتهم اعرف بعضهم واجهل بعضا؛ ألا يكسب بهذا حسن الاحدوثة وتخليد الذكر خصوصا اذا استزاد من هذا الخير فإنه بذلك يقوي عناصر العلم في البلاد وهو الاصل الذي نحتاج اليه لاسيما اذا انضم اليه حسن التربية كما هو مقصد الامير . ولواقندي به الامراء لاصبحنا في ثروة من العلم ولم نضب حضراتهم بالافلاس من المال بعد الافلاس من الكمال وفقه الله وأرشدهم والسلام اه

(يقول جامع الكتاب) كتب الاستاذ الامام هذا الفصل عن بلرم عند زيارته لياها عائداً من الجزائر وتونس وفيه من شجون الحديث وقنون الاصلاح المفرغ في قالب الفكاهة ما رأيت وأهمها رأيه في التصوير والحجاب . واخبرني انه كتب مذكرات بشأن تونس والجزائر يريد ايداعها في فصول إصلاحية بهذا النحو من الاسلوب وقضى قبل أن يجد فراغاً لذلك ولم توجد تلك المذكرات في أوراقه الى هذا اليوم

﴿ انما ينهض بالشرق مستبد عادل (١) ﴾

مستبد يكره المثنا كربين على التعارف، ويلجئ الى الاهل الى التراحم، ويقهر الجيران على التناصف، يحمل الناس على رأيه في منافعهم بالرهبة، ان لم يحملوا أنفسهم على ما فيه سعادتهم بالرغبة، عادل لا يخطو خطوة الا ونظرته الأولى الى شعبه الذي يحكمه فان عرض حظ لنفسه فليقع دائماً تحت النظرة الثانية فهو لهم اكثر مما هو لنفسه .

يكفي لا بلانهم غاية لا يسقطون بعدها خمس عشرة سنة وهي سن مولود يبلغ الحلم يولد فيها الفكر الصالح وينمو تحت رعاية الولي الصالح ويشد حتى

يصرع من يصارعه . خمس عشرة سنة يثني فيها اعناق الكبار الى ما هو خير لهم
ولأعقابهم وبعالج ما اعتل من طباعهم بانجع أنواع العلاج ومنها البتر والكي اذا
اقتضت الحال وبنشيء فيها نفوس الصغار على ما وجه العزيمة نحوه ويسد دياتهم
بالثقيف يتعهدا كما يتعهد الغارس شجره بضم اعواد مستقيمة الى سوقها للنمو
على الاستقامة . خمس عشرة سنة تحشد له جمهوراً عظيماً من اعوان الاصلاح من
صالحين كانوا ينتظرونه، وناشئين شبوا وهم ينظرونه، وآخرين رهبوه، فاتبعوه وغيرهم
رغبوا في فضله فجاروه

حتى اذا عرفت الافكار مجاريها بالتعريف، وانصرفت الى ما أعدت له
بالتصريف، وضح الشعور بالتعليل، واستقامت الاهواء بالتعديل، اباح لهم من
غذاء الحرية ما يستطيع ضعيف السن قضمه، والناقة من المرض هضمه، وأول
ما يكون ذلك بتشكيل المجالس البلدية ثم بعد سنين تأتي مجالس الادارة لاعلى ان
تكون آلات ثدار، بل على ان تكون مصادر للآراء والافكار، ثم تتبعها بعد ذلك
المجالس النيابية . نعم ربما لا يتيسر لرجل واحد ان يشهد هذا الامر من بدايته الى
نهايته ولكن الخطوة الاولى هي التي لها ما بعدها ويكفي لمدتها خمس عشرة سنة
وما هي بكثير في تربية أمة فضلاً عن أمة .

هل يعدم الشرق كله مستبداً من أهله عادلاً في قومه يتمكن به العدل ان
يصنع في خمس عشرة سنة مالا يصنع العقل وحده في خمسة عشر قرناً ۱۱۹



هانوتو والاسلام

نشر هنا المقالة التي كتبها موسيو جبرائيل هانوتو بعد وصول رد الاستاذ الامام اليه بلغته . وكنا أشرنا اليها بعد نشر الرد في (ص ٤١١) ثم رأينا ان نشرها برمتها لثلا يظن ظان ان فيها رداً لشيء مما كتبه الاستاذ الامام في حقيقة الاسلام والنصرانية ، ولتقي عليها بمقال آخر لهانوتو حدث به صاحب الاهرام (بشاره باشا تقلا) في باريس فكتبه وأرسله الى جريدته فرد عليه الاستاذ الامام وكنا ذهلبنا عن هذا الرد فاستدركناه هنا . وهذا مقال هانوتو

الاسلام أيضاً

من المسلم انه يتعذر عليّ الرد في هذه الجريدة على جميع الرسائل التي ترد الي بشأن ما أنشره فيها من الفصول والمقالات ولذا أشكر جميع الذين راسلوني شكراً جزيلاً وأرجوهم أن يعتقدوا ويثقوا بأن ما أشاروا به علي وأبانوه لي محفوظ في مخيلتي ولا يبرح عن ذا كرسي وانتي أجد في تبادل الافكار على هذا المثال خير معوان وأحسن مشجع وبالرغم عما يخالفني من الميل الى عدم قصر البحث في نوع خاص من الموضوعات أرى أن لا مندوحة لي من العود الى بعض المناقشات التي أثار عجاجها الفصلان اللذان نشرتهما حديثاً في مسألة الاسلام والحق يقال انني أصبحت بسببهما كما يقال بين نارين فالمسيحيون أنحو عليّ باللعينف واللوم قائلين انني تظاهرت بالميل للاسلام واتخذني المسلمون خصماً لدوداً لدينهم وهو ما يشبط همه الانسان عن اتباع خطة المسالمة والتوفيق لولم يعرف من قديم الزمان ان الذين يتصدون الى بيان الحقائق بالصور والتعقل انما يشبهون سندان الحداد تتلاقى فيه ضربات لمطرقتين

ويجب قبل الدخول في الموضوع أن أشير الى طريقة من الجدل : كان الجهل

بلغنا وهو في نظري أكثر تأثيراً من سوء القصد سبباً في اتباع بعض الجرائد الإسلامية لها وسيرها على سننها فان جريدة المؤيد التي تظهر في مصر القاهرة قد نشرت ترجمة أو بالأحرى خلاصة فاسدة من الفصلين اللذين كتبتهما على الإسلام ولعل القراء يذكرون اني أوردت فيها آراء كيمون التي أبدأها في كتابه (باتولوجيا الإسلام) وان إيرادي لهما كان على سبيل الحكاية والنقل إذ أشرت الى خطر شدتها وأبنت العواقب الضارة التي يفضي اليها الجدل السياسي في الخواطر السريعة التأثير والانفعال ولكيلا يختلط على الذهن شيء من أقوال كيمون التي أوردتها وضعت في آخر كل عبارة من عباراته كلمتي (أنا أنقل) (أنا أنقل) محصورتين بين قوسين دفعاً للالتباس ومنعا للشك

بالرغم عن هذه الاحتياطات نسبت الي تلك الافكار التي عمدت الي دحضها واطهار فسادها حتى ان أحد كبار أئمة الدين الإسلامي كلف نفسه مؤونة الأجابة في جريدة المؤيد على أفكار ليست أفكاري بل هي نقيض ما ذهبت الي تهذيبه واستحسانه في بحثي ولذلك أرى أن ذلك الامام العظيم صار في بحثه أشبه بمن يدفع باباً مفتوحاً من ذاته سواء قرأ ماسطرته في الاصل الفرنسي أو وقف عليه من الترجمة إما انه لم يفهم مرادي وإما ان الترجمة كانت فاسدة لم تتوفر فيها شروط الامانة لذلك أناشده بذمته الطاهرة أن يوقف من يأمرون بأسره ويصيخون لاقواله على حقيقة فكريتي التي كشفت النقاب عنها في آخر مقالتي وكلها احترام واعتدال ومساملة وتوفيق على ان احدى الجرائد العربية التي تُنشر بمصر ولها شهرة فائقة في جميع العالم الإسلامي الا وهي جريدة الاهرام قد أتت بتلك الملحوظات أحسن مما يستطيع ابرادها به فان محررها (المسيو تقلال) المكناب الشهير الذي يدبر في آن واحد جريدة البيراميد الفرنسية قد اقنفي أثر ملحوظات الامام فرد عليها نقطة نقطة ولم يبق لي بعد مناقشته التي روعيت فيها أساليب اللطف والحدق مجال للكلام أو شيء كثير من القول أضمه الى قوله على انني أستنتج من هذا الحادث عبرة تزداد قوتها في نظري كلما تقدمت في طريق العمر وحبوت نحو الشيخوخة وهي ان منشأ المشاكل والصعوبات التي تقوم بين الناس سوء

التفاهم والخطأ في معرفتهم مقاصد بعضهم بعضا اذ كثيرا ما كان الغلط الناشئ من سوء تلاوة كلمة أو التصور عن ادراك معنى جملة أو فهم مغزى رأي أو سراحي حيلة من حيل المناظرة سبباً في جر ما لا يحصى من المصائب بل سبباً في انشقاق قوم كانت نجمهم لحة الاتحاد ورابطة الجوار وكانوا الى الائتثار والانفاق أقرب منهم الى الخلف والانشقاق

ولو أمكن محو ماترا كم شيئاً فشيئاً حول ما يقع بشأنه سوء التفاهم من العواقب الضارة والشدائد التي لا فائدة منها وتيسر العود الى النقطة الاولى التي كانت مبدأ النزاع وسبب الاختلاف لاندھش الانسان من السهولة في تدليل الصعاب وتهديد المشاكل التي جعلت الفارق عظيماً ومسافة الخلف بعيدة . ولقد قيل ان العالم ميدان يتنازع فيه بنو الانسان وهو قدر مقدور لولاه لتعذر على الفهم ان يدرك كيف تكون مقدمات أمثال تلك النتائج البالغة في الرداءة والسوء مبلغاً عظيماً تافهة واسبابها بسيطة الى هذا الحد حتى لقد تمر على الانسان لحظات يسائل فيها نفسه عما اذا كان في الامكان اصلاح ما انتم من حوادث التاريخ باجتهاد الناس في فهم مقاصد بعضهم بعضاً على فرض ان تبادل المودة فيما بينهم لم يكن من الامور المتاحة لهم

ومن الامور التي كان لا يزال خاطري منصرفاً اليها ان المسائل المشككة ولو كانت من أهم المسائل واخطرها تتضمن في ذاتها الحل الملائم لها والمطابق للانصاف والسلام وكنت ولا زلت على اعتقاد وطيدي في المباحثات المتعلقة بمصلحة من المصالح وفكرة من الافكار بانها متى كان الطرفان على جانب من طهارة الذمة وحسن النية وجملاً غايتهما القصوى المسالمة والانفاق واتخذنا لذلك وسائل الحكمة والتدبر وصدق اجتهادهما في التجرد عن الاهواء فانهما يصلان الى نقطة تتفق فيها مقاصدهما وتنتطبق رغائبهما

اعنقدت دائماً ان للسياسة على الخصوص مهمة في هذا المعنى ينحصر فيها شرفها وترجع اليها كرامتها ليس بما تاملنه الشعوب من الشكر والاعتراف بالجميل فقط بل بحسن العمل العقلي الذي يقوم به السياسيون بدون لفظ ولا ضوضاء في سكون قاعات أعمالهم أيضاً وأما الاعتماد على القوة والركون الى العنف الذي هو

أخص ما يلجئ إليه القومي فهو من آخريات الوسائل وأحطها وهو حيلة من لا حيلة له ويظن الناس في الغالب أن الواجب التخيير بين الاتفاق والمجاهرة بالشقاق وهو خطأ بين وغلط ظاهر إذ بين السلم والحرب ميدان فسيح يمكن للسياسة أن تجول فيه جولتها وكما انطبقت هذه الطريقة على السياسة تنطبق أيضا على المناقشات الفلسفية والدينية إذ للأفكار والعقائد سياسة مرجعها التسامح والاحتمال وليس التسامح من مخترعات هذا العصر بل نقيضه من مخترعائه لانا إذا نظرنا في أصول المشا كل البشرية الكبرى يكون اندهاشنا من التشابه بين الآراء التي تُعذر التوفيق بعد فيما بينها اعظم من الانفراج المستحکم بينها. وخلاصة القول ان معيشة بني الانسان مع بعضهم بعضاً بسلام ميسورة لمن يريدون ذلك ويقصدونه برغبتهم وحسن ارادتهم وقد حداني هذا البحث الى نوع آخر من الاتقاد صوبه نحووي بعض المسلمين وليس المقصود به السياسة في هذه المرة بل المقصود به الفلسفة والعلوم الدينية وقد انتهت الي رسالتان غربتان في هذا الباب احدهما من رجل مشهور الاسم في فرنسا وهو (أحمد رضا) مدير جريدة مشورت الذي جمع ملحوظاته في رسالة سماها (التسامح الاسلامي) وقصد بها الرد على الكتاب الغربيين الذين يتهمون العالم الاسلامي بالنعصب الديني واستشهد في خاتمها بكلمات قالها الكردي نال لافي جري وهي (أجهر علانية باتي اعتبار اثاره خواطر الشعوب الاسلامية بعدم التدبر في دعوتهم الى الدين المسيحي أتما من الآثام وضرراً من ضروب الجنون) وأنه ليفيض بي الكلام على الوصف الذي وصف به صاحب الرسالة تسامح المسلمين ولكنني على ثقة من أن تبادل الشكوى أو الشتم لا يحدونا بنا الى الغاية السلمية التي تقصدها وان الاجتهاد في فهم بعضها مقاصد بعض أولى وأحسن من الصياح والعويل لمنع الناس من الاتفاق والوثام

ووردت الى رسالة ثانية من أحد عظماء المسلمين وهو حضرة أحمد أفندي مدحت أكبر كتاب الترك في الوقت الحاضر واني آسف شديد الاسف من عدم إمكاني نشر مضمونها بأ كمله في هذا المقام لطولها وغموض مباحثها ولا ريب في أن القراء الفرنسيين كان يسرهم ان يئلذوا بتلاوة انشاء شرقي مكتوب بلغة فرنسوية

صحيحة غير ان في المباحث الدينية ولو كانت متعلقة بالاسلام شيئا من الاتفهرار والتعجم . على ان هذا لا يمنعني عن ايراد شذرة قصيرة يبين فيها الكاتب مبدأ الدين الاسلامي وهامي « فيما يتعلق بالايمان والضمير كل مسلم قس نفسه فهو لا يقدم لأحد سوى الخالق جل وعلا بدون واسطة حسابه عن أقواله وأعماله ولم ير النبي محمد عليه الصلاة والسلام ولم تسمح له فرصة رأى فيها لنفسه حقاً أو سلطة مما يحوله لانفسهم رجال الاكلهروس في الديانة المسيحية بل لم يفرقه فارق عن بقية العالمين امام عدالة الحق سبحانه وتعالى وهو ما يؤخذ منه انه لو سأل أحدهم ماهو الاسلام لأجاب المسلمون قاطبة على اختلاف مذاهبهم بأنه العمل بما قرره القرآن الشريف - فالديانة القرآنية لا تهوي بالانسان بإقصاء الاله عنه في نهاية الفضاء - اذ جاء في القرآن الشريف : (ونحن أقرب اليه من جبل الوريد) . هذا الدين فرق بين الانسان من وجهتيه الادية والمادية فحدد أحواله فيها بكيفية موافقة للدراك البشري » ثم استنبط الكاتب من هذا الفرق دفاعا عن الدين الاسلامي يراه أرقى وأحسن ما يدفع عنه به وأخذ يعتب علي الكوني اختصرت البحث في المسئلة الفلسفية ذريعة الى قصر الكلام على المسئلة السياسية

واني اعترف بانني انصرفت أثناء سياحتي في الجزائر وتونس الى الوجهة التاريخية السياسية أكثر منها الى غيرها واذا كان القاري لا يمل حديثي فاني أورد هنا بالابجاز كيفية الاسباب التي حملتني على هذه السياحة وقصر مباحثي مؤقتا على أعظم مشكلة قامت منذ قرون بين الديانتين المسيحية والاسلامية

لما كنت أقرر مباحثي في نارينج الكردينال ريشليو وصلت الى النقطة التي أفضت الظروف به فيها الى اتخاذ طريقة من الطرق المختلفة التي حومت حوله واستلقت أنفاره ففي أواخر عام ١٦٢٢ وأوائل عام ١٦٢٣ أي في أبان استلامه زمام الاحكام كانت ظهرت المسئلة البروئستانية وسوف أورد كيفية حله لها ولكن ما يعرفه القليل هو انه عرض عليه الحكم في المسئلة المحمدية أو بعبارة أهل ذلك الوقت في المسئلة الصليبية

وكان يوجد في فرنسا وقتئذ جم غفير من الناس يجاهرون بضرورة استئاف

الحروب الدينية التي اشتهرت بها القرون الوسطى واسترسل في هذا الموضوع كثيرون من أخص أصدقاء الكردينال ريشليو الذين أخذوا بناصره في خطاه الاولى ووالوه بنصائحهم وسطوتهم ومنهم الدوق دي نيفيز والاب جوزيف صديق ريشليو الحميم ومشيره الخاص الذي انطوى معهم في أفكارهم قلباً وقالباً حتى لقد بدى في ذلك الحين بتجهيز الحرب الصليبية ويمكن القول بان حزب الملكة ماري دي متديسي الذي اجلس ريشليو على منصة الاحكام وكان يسمى بحزب الكاثوليكين حزب من الصليبيين .

فما كان من الكردينال ريشليو الا أن قطع كل صلة مع أصدقائه رافضاً أن يكون آلة بأيديهم بل كان منه أن جذب الاب جوزيف الى ناحيته ثم ولى وجهه عن الاسلام فخارب - كما هو مشهور - الاسرة النمساوية والحق يقال ان الكردينال كان من أقل الناس تعصبا فانه قبل أن يأتي بما عمل به بنى عمله على أسباب تأمل لها طويلا واستخبر وقارن وان هذه الاسباب هي التي كنت أروم الوقوف عليها لاطهارها وايقاف غبري عليها

وقد تابعت البحث والنقيب على هذا المثال في اسبانيا وأفريقية الى حيث تلك البقعة التي تم بها الاقتران بين العالمين الشرقي والغربي أريد بها تونس، هذا هو السبب الذي استحثني مع أسباب أخرى على النقلة الى تلك الاصقاع باحثاً ومفكراً . شاهدت فيها اطلال قرطاجنة أي اطلالها في عهد انيبال والقديس اونمستان وفي عهد سان لويس وشارلكان فتجلى لي وأنا واقف على تلك الطول ان الارض التي كانت ميدان النزال والجلاد يمكن أن تكون أبصاً مهبط السكينة والسلام

أما الاسباب التي حملت ريشليو على العدول عن الحروب الصليبية فلسوف أبينها في يوم ما . ولكنني بالبحث في الماضي والمشاهدة العيانية في الحاضر قد توصلت الى البحث عن مبادئ الاتفاق والوثام في عين المكان الذي اشتهر بأسباب الشحنة والبغضاء ، بحثت عن أصول هذه الاسباب فاشترت الى السلم الناشئ من الحماية ونوهت بذكر أمر مهم وهو معيشة فريقيين من الناس كان لا يظن أهميا يجتمعان في وثام واتفاق باحترام كل منهما معتقدات الآخر ، لما لاحظت

هذه الامور كنت أود مداراة العواطف والاقصصار على عبارات التسامح والمسالمة والاكتفاء بالكلام على الحياة الفعلية ولكن يظهر ان هذا صعب المرام اذ الجميع لم يفهموا مرادي ولم يقفوا تمام الوقوف على مقصدي ومهما يكن من الامر فان من الامور المهمة قيام الافكار في البلاد المسيحية والاسلامية قياماً اذا تحركت فيه بالحركة الطبيعية المبنية على حسن النية وطهارة الضمير كانت نتيجتها التقريب والتوفيق لا الابعاد والتفريق

(يقول جامع الكتاب) هذا ما كتبه هانوتو وليس فيه رد لشيء مما خطأه به الاستاذ الامام من المسائل الدينية والتاريخية ولكنه تنسم من الكلام ان الترجمة تشعر بأنه مستحسن لما نقله عن كيمون وما هو بمستحسنه وهذا صحيح . وقد كان بشاره باشا تقلاً يدافع عنه وينجي على المؤيد وعلى الامام ثم سافر الى باريس ولقيه ونقل عنه الحديث الآتي فنشر في العدد ٦٧٨٥ من الاهرام الصادر في ١٦ يوليو سنة ١٩٠٠ بالفنون الآتي ونلخص مقدمة صاحب الاهرام للحديث وهو

حديث مع المسيو هانوتو

رأيت وأنا في باريس ان أقابل المسيو هانوتو واقف منه على حقيقة الاحوال بوجه عام وعلى الغاية التي قصدها ويقصدها من كتاباته الاخيرة عن الشرقيين والمسلمين بوجه خاص ولما كان هذا الموضوع من أهم المباحث لدينا مع رجل مثل هانوتو الكاتب البعيد الصيت والسياسي الواقف على أحوال أوروبا والشرق وكنا نعتقد كما قالت الاهرام مرارا وتكرارا ان تقدم الشرق يكون بتقدم الامة الاسلامية توخيت ان انشر أقواله وآراءه فاستأذنته بذلك فأذن لي . قال

انتم تعرفون من تاريخ أوروبا ان أممها ما تقدمت علماً ومدنية واختراعاً اليوم تقيدت السلطة المدنية وعرف الشعب والحكام فروضهم المتبادلة وانا لم أكتب الا الى ابناء وطني الفرنسيين ولم استشهد بكيمون وهو يوناني الجنس الا لافند أقواله

التي لم يتفرد بها فان كثيرين من الكتاب الالمانيين والفرنسيين والانكليزيين وغيرهم
 حذروا حذره وقالوا قوله وخلاصة كتاباتهم ان تقدم المسلمين مستحيل ومباحهم
 بعيد لان الاسلام معتقدهم يحول دون ذلك وحجة هؤلاء واحدة وهي انه كلما
 تقدمت أوروبا تأخر الشرق لان الواقع يتأخر بقدر ما يسير المشي وان كل حكومة
 انفصلت عن الشرق سارت على منهاج أوروبا عالما ومدنية فنجحت مع ان العثمانية
 وافغانستان ومراكش والعجم لانزال على ما كانت عليه في السنين الغابرة وانا
 ذكرت من هؤلاء الكتاب كيمون وحده ليعرف المسلمون ما يقال عنهم ولأفند
 مزاعم هذا الرجل وغيره من الكتاب الذين على رأيه لاعتقادي ان الاسلام لا يحول
 دون الاصلاح والمدنية واستشهدت على صحة معتقدي هذا بقول بونافرت
 مثلا أو يد به أقوالي وسياسي . هذه هي روح كتابتي السابقة وانها ستكون
 روح اللاحقة

والذي دعاني الى ذلك ما كان من هؤلاء الكتاب الذين لا يخرج مغزى
 كتاباتهم عن اعادة الكرات الصليبية كما كان في الاعصر الخالية وما دفعهم في
 الايام الاخيرة الى ذلك إلا الحوادث الارمنية وغيرها ولما كنت قد وقفت نفسي
 لدرس حياة ريشليه السياسي الشهير وسرت في أكثر أعماله وكتاباتي على منهاجه
 وعرفت ان هذا الرجل مع انه كاثوليكي وكردينال من أعمدة الكنيسة الرومانية
 رفض على عهد وزارته تلك السياسة العوجاء سياسة الصليبيين وحال دونها بدهائه
 المعروف مع انه كان القابض على سياسة فرنسا وأوروبا معا فاذا كان هذا السياسي
 الكاثوليكي قد امتنع عن تأييد سياسة أقرب المقرين اليه في تلك الاعصر أي
 السياسة الصليبية فهل مثل هذه السياسة يجوز اليوم انفاذاها . لاعمري فلهذا عارضت
 بالامس ولهذا أعارض اليوم ولحسن الحظ ان الرأي العام اذا قال بوجود مساعدة
 الضعيف ضد الظالم فهو لا يريد حربا تشب نارها اعنداء ولا سيما الحرب الدينية
 فهي عدوة المدنية بل هي أفضع الاعمال

على أن معارضي لأمثال هؤلاء الكتاب أي نقضي لا قولهم لا يمنعني عن
 ان أقول لكم الحقيقة لانه يستحيل علي ان أقول ان شرقكم سائر على منهاج

حكومات أوروبا في العدل والحرية والمدنية كما أنه يستحيل عليّ أن أقول أن في حالكم الحاضرة ضماناً لمستقبلكم السياسي فأعلم أن أوروبا حاربت السلطة الدينية مدة ثلاثة قرون لاعتقاد بل لفصلها عن السلطة المدنية فإن المتحاربين كانوا من معتقد واحد ولكن أراد أفراد أممها أولاً ولغيف شعوبها ثانياً أن تكون الكلمة الأولى للسلطة المدنية في أحوال الحكومات وشؤون الشعب وأن يكون للمعتقد حق الاديات الدينية بأن يعطي ما ليقصر ليقصر وما لله لله

وأعلم أن الذي أيد هذه السياسة أيضاً في بلادنا فرنسا هو اعظم تلامذة رومه واحد اقطاب الكنيسة الكاثوليكية أي الكردينال ريشليه فهو الذي قال بفصل السلطين ولم نفسه واجباته الكنيسية الدينية معرفة الحقيقة وهو بهذه السياسة خدم السلطين شرف خدمة إذ أيد السلام بينها فتأيدت سطوة الحكومات وتقدمت شعوب أوروبا تقدماً عجبياً واعتزت السلطة الدينية أيضاً وعاشت السلطان بوفاق وسلام

وهذا ما نريد تأييده نحن الفرنسيين في مستعمراتنا بأن يكون الأمر المطلق للسلطة الخاصة مع احترام عقائد الشعوب الذين تحت حكمنا وسلطاننا وهو ما سرنا عليه في الجزائر وتونس وغيرها من المستعمرات الفرنسية واني لا اكلمك كسيحي بل كموثق أو ككاتب حر الضمير لاشأن لغيره في معتقده الخاص ولكنني احترم ادييات كل دين ومعتقد واقدر تلك الادييات قدرها ولكن الماديات غير الادييات والأولى من شؤون عالمنا هذا الذي نعيش فيه ونحجي به وكل أمة لم تتقدم في مادياتها لا بد أن تموت إذ لا حياة بلا مادة واللهم انتم الشرقيين آله أوروبا وآله اميركا. إذ أن آله الجميع واحد ولا يمكن أن يكون أكثر انعطافاً على الاوربي منه على الاميريكي فالشرقي بل أن الشرقيين عموماً أكثر تمسكاً بعقائدهم من الغربيين وقد علمنا أن أوروبا فاقت شرقكم بمراحل ونرى اليوم اميركا تزاحم أوروبا وكثيراً ما فاقتها في اختراعاتها وفنونها ولم يكن ذلك لأن الله سبحانه وتعالى اميل الى الاميريكي منه الى الاوربي أو الشرقي ولكن لأن الاخير مستमित والاول حي هذا يشتمل مجتهداً وكلما زادت

ارباحه زاد نشاطا واقداما وذلك يقضي حياته بين القنوط والباس مستسلما ولهذا تقدم الاوربي وتأخر الشرقي وضيق اوربا باهلها دفعها الى الاستعمار في كل صوب فصادف ابناءؤها ارضا واسعة وشعوبا لاهراك بها فقبضوا على الاعمال السياسية والاقتصادية فيها

وهنا استمحت حضرة المسيو هانوتو وقلت له اذا كنت تحب مصلحة المسلمين وتعتقد انهم راضون في تونس فهل تعتقد ذلك في اهل الجزائر ولماذا لاتسأل الحكومة الفرنسية ان ترى في احوال هؤلاء

قال اما التونسيون فلا خلاف في أنهم مسرورون بحالتهم ونحن قد دخلنا بلادهم وهي قاع صفصف مزق شملها افراد حكموها واما نحن فقد تركنا لسكان حقوقهم المذهبية فاحترمنا جوامعهم وعقائدهم واحوالهم الشخصية ولم نسألمهم الا امرا واحدا أي احترام سلطنتنا السياسية فادركوا هذه الحقيقة وعملوا بها ولهذا كان النجاح عظيما في مدة قريبة وانت تعلم أن مذهبي في الاستعمار وضع الحماية كما هو في تونس لاضم المستعمرة الى فرنسا كما فعلنا في مدغسكر بالرغم عن معارضي ذلك، وقد رضيت به منقادا لاوامر اكثرية دار الندوة ولاانكر أنه يجب تعديل بعض قوانين الجزائر وقد شرعنا في ذلك وسأ كذب كثيرا في هذا الموضوع لاني ذهبت بنفسي الى تلك البلاد ودرست احوالها واملي أن لايعضي طويل زمن حتي ترى ذلك الاصلاح الذي طلبه غيري قبلي وشرعت حكومتنا في انفاذه

قلت اني اعرف ما سردته لي عن تاريخ السلاطين الدينية والسياسية في أوروبا وعن احوال شعوب البلادين ولكن ذلك مستحيل في الشرق ولاسيما في الحكومات الاسلامية والذين يقولون به من الاجانب ليسوا الا خصوصا للمسلمين لاعتقاد هؤلاء أن في فصل السلاطين ضعفا ترومه اوروبا لتنال بغيتهما منهم

قال هانوتو انا لاسأل الشرق ذلك فهو حر يفعل ما يشاء ولكن اعتقد ان اوروبا لم تتقدم الا بعد تعيين حقوق السلاطين وجعل الكلمة الاولى للسلطة الحاكمة كما اني اعتقد أن جمع السلاطين في شخص واحد لم يمنع ان تخسروا في

الحروب الماضية واعتقد ايضاً أن صاحب السلطين ولا سيما في بلاد كالشرق يستطيع أن يجري اصلاحات لا يقدر غيره عليها ويعلم المسلمون ان جمع السلطين في شخص واحد لم يمنع فرنسا من الاستيلاء على الجزائر وتونس، وانكثرتا من التهام الهند، وروسيا من اخذ خيوى وغيرها الى حدود أفغانستان، كما انه لم يمنع استقلال مراكش وبلاد فارس والمملكتان اسلاميئان فاذا كان يستحيل توحيد حكومة اسلامية توحدا سياسياً يستحيل ايضاً توحيد سلطتها الدينية وابن مراكش لا يعرف غير سلطانها خليفة له

وإذا كان الاسلام كما قلتم ويقول كتابكم (وأود أن أعتقد ان مثلكم ايضاً) انه لا يحول دون التقدم العصري فما بالكم متأخرون ونحن متقدمون وبماذا تردون على أولئك الكتاب الذين لا يعتقدون اعتقادي واعتقادكم فاذا قلتم كما يقول اخوانكم ان أوروبا تحول دون تلك الاصلاحات. أجاوبكم ان أ كثر الدول كانت دائماً معكم الى سنة السبعين وبعدها فلم تأخرتم واليابان لم تستغل الا ربع قرن حتى وصلت الى ما وصلت اليه اليوم فأصبحت أوروبا تقدرها قدرها في جميع مسائل الشرق الاقصى

وإذا قال لكم أولئك الكتاب اننا مقتنعون بان أوربا وشعوب تركيا حالت دون اصلاح الولايات الواقعة في أوروبا والقريبة من أوروبا كسوريا مثلاً سألتكم هل مسلو بغداد وما بين النهرين وحلب راضون عن أحوالهم. أيقظ رجالكم وكتابكم اننا نحن وكتابنا جاهلون أحوالهم هنالك حيث لا أوربي ولا غيره يحول دون تعميم العدالة وحفظ حقوق المتقاضين

وأنا أعرف ان امثال هذه الحقائق يجرحكم ذكرها ولكن قدحان لكم ان لا يهميمكم غرضكم عن الحقيقة ولو انها خارجة من فم أجنبي مادام كتابكم ليس فقط لا يقولونها بل يكذبونها كأنني بهم يساعدون الظالمين من حكماكم على ما ياتونه من المغارم والمظالم فكان ذنبهم نحو وطنهم أعظم من ذنب الحكام الظالمين واني أقول لك هذا بعد الذي قرأته في جرائدكم ردا على ما كتبه فقد عدوني خصما لهم ونسوا خدماتي لهم وأنا في منصة الوزارة الخارجية في أيام المسألة

الارمنية فاذا كان هذا رأيهم في صديق خدمهم فاذا يكون حكمهم على خصم جهر بعداوتهم ولكن فليعلم هؤلاء انه اذا حدثت امثال تلك الحوادث في المستقبل فيستحيل على وزير أوربي ان يرأى مثل تلك السياسة ولا أقول هذا من باب العداء بل لما نراه من تعديل أروبا على وجه عام مبادئ سياستها الخارجية مع الشعوب المشرقية فأن الدول ستكون واحدة في المستقبل كما ترى الآن في مسألة الصين

فقلت للمسيو هانوتو: وما شأنكم والشرق وأممه فكلاهما راض عن حاله ومفضل اياها على كل سلطة أجنبية أو أروبية والذي ينفر الشرقي هو ظلم أروبا في سياستها هذه وعتبنا على فرنسا أكثر من غيرها لانها عودتنا حماية الضعيف من القوي

فقال الوزير بعبارة صريحة: ان هذه الاقوال خيالية لا تنطبق على حالة أروبا في هذا الزمان فهي بعد ان كانت لا تهتم بغير قادتها قد اندفعت الى الاستعمار ولا تقف عند دعوى العدالة وغيرها واعلم ان فرنسا مضطرة ما دامت لا تقدر على منع الدول الثانية عن توسيع نطاقها الاستعماري والتجاري الى الاقتداء بالدول المذكورة واني أرى كتابكم وأفراد أمتكم يجهرون في غالب الاحيان بأفكار صبيانية فيستبدون الالماني لنكابة الانكليزي وينتصرون للفرنسوي على الالماني ولكن اما حان لهم ان يعلموا ان الاروبيين مها اختلافت اجناسهم ومذاهبهم سهل اتفاقم على الشرقيين لأن هؤلاء لا يعملون عمل العامل البصير باستخدام مصلحة هذه الدولة أو أغراض تلك الامة لاصلاح شؤونهم بل لمعارضة دولة ثانية وهي سياسة قديمة العهد لا تعتد بها أروبا اليوم وانت تعلم ان ألمانيا أكثر الدول في أروبا استقرارا وأبعدها استعمارا هي التي اقترحت تحديد مناطق النفوذ في الصين وهي التي سألت امتياز انشاء سكة حديد بغداد مما بدلكم على ان أروبا لا تسعى إلا الى مصلحتها السياسية وما سوى ذلك ففضلة عندها أوصعب على طبعها

ثم قال لي أنت تقول لي ان الساسة المسلمين لا يعتقدون باخلاص سياسة أروبا كلها أو بعضها ولهذا يخافون من مضافاة هذه الدولة خووفهم من معاداة تلك لاسيما

وان أكثر الدول طامعات في املاكهم وحضرتك اكدت ذلك في كلامك الآن
عن سياسة أوروبا

والمسلمون يعتقدون أيضا ان مصلحة أوروبا المسيحية تحالف مصالحهم الاسلامية
ولذلك لا يأمنون على أنفسهم من سياسة الدول المسيحية وقد ادى بهم فقدان
هذه الثقة الى ان لا يأمنوا مسيحيا عثمانيا ولو اخلص لهم الخدمة وصدق معهم وهم
يؤيدون سياستهم هذه لما رأوه من تدخل اوربا في أعمالهم ومن أفعال الموظفين
غير المسلمين في المناصب السياسية العثمانية سواء في بلاد الدولة أو في سفارتها
وأنت تقول لي ان في ذلك بعض المغالاة ولكنكم يعذرون

فهذا الذي تقوله لي اليوم قد سمعته منك من قبل وقاله لي بعض العثمانيين
في الاستانة وباريس ولكن تفنيده أمر سهل واليك البرهان لا يسعك والساسة
المسلمين ان تنكروا ان بعض دول أوروبا قد اتفقت مع الدولة العثمانية على دول
ثانية مسيحية في أوروبا فان هذا حصل قولاً وفعلاً في حرب القريم فنحن وانكنا
لم نبخل بالمال والرجال لمساعدة دولتكم العثمانية ونحن وروسيا والمانيا منعنا بعض
دول أوروبا عن نيل اغراضها في المسألة اليونانية وهذه الدول الثلاث خدمت
سلطنتكم أجل خدمة في المسألة الارمنية بالرغم عن هياج الرأي العام الاوربي
وتصريح بعض الدول بمعارضتكم وتلك أمور حديثة العهد يعرفها رجالكم كما
نعرفها نحن

واذا راجعنا حوادث التاريخ القديمة تبين لنا أيضا ان فرنسا وبولونيا وغيرها
حالفت العثمانية ضد دول ثانية مسيحية مما يدل على ان ضالة أوروبا مصالحتها
الاقتصادية فالسياسة ولا دخل للاعتقاد البتة في أعمالها ولعمرك هل منع المانيا
كونها مسيحية ان تحارب أستراليا وفرنسا المسيحيتين . وألم تحارب ايطاليا أستراليا
وهل منع فرنسا مذهبها الكاثوليكي من ان تحالف روسيا ومذهبها أورثوذكسي
وهكذا قل عن التحالف الثلاثي بين البرتسني الالمانى والكاثوليكي النمساوي
والايطالى وهذه الترسفال دينها كدين انكلترا وأهلها من أقرب العناصر الى
الجنس السكسوني وقد حاربها الانكليز وغرضهم سلب استقلالها . كل هذه شواهد

قديمة العهد وحديثه تفند زعم حضرتك ومزاعم ساسة الشرق واذا وجب ان يلوم المسلمون سياسيا مسيحيا يخدمهم فكيف يجب ان يلوم ساستهم العديدين . أفى مرا كش مسيحي موظف وهل غير المسلمين قابضون على سياسة العجم ومتى كانت سياسة الدولة العلية الخارجية في غير أهدى المسلمين؟ (هـ) فاذا كان ذلك السفير غير أهل لمنصبه أو ان رأيه مضر ببلادهم فلما اذا أتى عليه وزير خارجيتكم أو الصدر الاعظم؟ وهل قام ولائكم ووجههم مسلمون بما تتطلبه حقوق الامة ومصصلحة الوطن؟ نعم لانكر ان تداخل أوروبا أوبعضها نتركم ولكن بعض الحوادث التي حدثت في جهات عديدة من بلاد الشرق هي التي كانت سبب ذلك التداخل

واني أنساهل معك وأقول ان بعض دول أوروبا يريد لكم سوءا وان هذا ولد فيكم عدم الثقة بنا نحن الاروبيين ولكن اذا كان قد استحال على دول الشرق وهي في أوج مجدها وشامخ عزها أن تتحد وتوحد كما تها فهل يسهل ذلك عليها اليوم!! وادا كان المسلمون يعدون سياسة أوروبا عداء لمصلحة الاسلام لان أوروبا مسيحية « وهو زعم باطل » فهلا كان ما ينادون به من وجوب الاتحاد الاسلامي وجمع كلمة المسلمين مما يخيف أوروبا ويمنعها عن انفاذ ما يتهمها به المسلمون . وكيف يمكن ذلك الاتحاد المزعوم . أرضى به أوسنريا ولها البوسنة والهرسك وهي طامعة في غيرها؟ أم تقبل به فرنسا مع املاكها الافريقية لواسعة أم تؤيده انكثرا وعدد رعاياها المسلمين عظيم!!! أم تعصده روسيا، أليس ذلك خرقا في الرأي من الذين ينادون بهذه السياسة؟ كأنني بهم هم الذين يريدون انفاذ ما يطلبه كيمون وغيره من كتبة أوروبا وقد كان أولى لمثل أولئك الكتاب ان يكتبوا كتابات أدبية بلغات الكتبة الاوربيين لتفنيد أقوالهم ولاستمالة الرأي العام الاوروبي اليهم

أماما كان يجب عمله على رجالكم سواء الذين عن كثم حوادث السنين الغابرة أو الذين درسوا في أوروبا وتعلموا بعض علومها ووقفوا على قليل من مبادئها

(هـ) الجواب في كل زمن ولا يزال أكثر سفراتها وقناصلها وموظفو نظارة

الخارجية من المسيحيين

(٥٩ ج ٢ تاريخ الاستاذ الامام)

وسياستها فهو ان يهتموا بنشر العلوم العصرية في بلادهم وان يعملوا في الخارج على إزالة سوء التفاهم الواقع بين الشرق والغرب بان يتخذوا اقدام أوربا واجتهاد ابتائها مثالا يسرون عليه وانهم ذجا يعملون بموجبه أي كما فعل اليابانيون في السنين الاخيرة . وأنت تعلم ان الذي نبه اليابان هو خوفها من أوربا وهي لم تنزع عن ضعفها باحتقار الاوربي وذمه والمباهاة بمجد الآباء ولم تقل ياباني تحقير الاجنبي لانه عنصر غريب أو لانه مسيحي ودينه بعيد بمراحل عن دين أهل اليابان بل قال رجال هذه المملكة بوجود محاربة أوربا ولكن بسلاح أوربا أي بان تتشبه بها في العلم والمدنية والاقدم ولهذا فازت في مطابها وحالت دون فتوحات الاوربي الاقتصادية أولا فالسياسية ثانيا ولو أتى رجال الشرق القريب هذا المآتي منذ حرب القريم لما شكك مسلم من أوربا ولما شككا كاتب أوربي من حال الشرق وأهله بل لوقعوا وحدث انقلاب عظيم في السياسة الاوربية سواء في أوربا أو في الشرقين الاقصى والاقرب لكان دون شك حظ دولتكم العثمانية أضعاف حظوظ أعظم دولة أوربية

وأراني في هذا الشرح قد بلغت ما قصدته من تفنيد ما يزعمه رجالكم الذين اذا رجعوا الى نفوسهم عرفوا هذه الحقائق كما نعرفها نحن وقد كان يجب عليهم ان يجهروا بها خدمة لامتهم ولوطنهم لان يتجاهلوا ويكذبوا

وتقول لي ان النهضة العلمية بدأت في مصر وان بعض الافراد انشأوا المدارس وان الجناب السلطاني قد اهتم كثيرا بتوسيع نطاق المعارف في البلاد العثمانية وان أصحاب النشأة الجديدة أدركوا قصور الحكام وتأخر البلاد فقاموا يجهرون بوجود الاصلاح وتميم العدالة والامل وطيد بالنجاح . ولكن انظره محال وهذا أمر يسرني ويشرح صدري لاني أرغب رغبة خالصة في نجاح مشرقكم ولكن يجب ان تعلم ان العبرة ليست فقط في اقامة المدرسة بل في وضع البروغرامات المدرسية كما ان العلم وحده لا يكفي وقد يضر اذا لم يمزج بالتهذيب فاني لأجهل ان كثيرين من أبناء الشرق درسوا في أوربا وقد يربو عددهم على عدد اليابانيين الذين درسوا في أوربا أيضا ولكننا رأينا في اليابان نتيجة لم ترها حتى الآن عندكم ولعلنا نراها

توماما لأنني اعتقد ان رجال النشأة الجديدة يتنجسون نجاحا كاملا اذا كان غرضهم خدمة الوطن منزهة عن كل غاية شخصية أو مذهبية لأن الوطن الواحد قد يجمع أكثر من عنصر ومعتقد ولكن الاعتقاد وحده لا يجمع الا عنصرا واحدا وأنت تعلم ان الفرنسي يشمل الكاثوليكي والبروتستي والمسلم واليهودي ولوثني وغيرهم من سائر عايات فرنسا ولكن الكاثوليكي الفرنسي والفرنسوي الكاثوليكي أو الكاثوليكي أو المسيحي لا يشمل كل فرنسوي

لهذا كانت السلطة المدنية أعم وأشد من الرابطة الدينية وهي التي كانت قاعدة أوربا الأولى في سياستها وبها تقدمت وتمدنت ونجحت . والى هنا قد اجبتك على جميع ما أردت ان تعرفه مني عن رأيي في الشرق هذا آخر ما نقله مدير الاهرام عن هانوتو وبليه رد الاستاذ الامام عليه وهو

هانوتو والاسلام (١)

١

ألفت الي المصادفة نسختين من إحدى الجرائد المشهورة في القطر المصري جاء بها حديث بين صاحب الجريدة ومسيو هانوتو صاحب الفصول المعروفة في الاسلام ولم أشك في ان كثيرا مما جاء في هذا الحديث صادر عن رأي مسيو هانوتو لأنه لا يصدر الا عن عارف مثله بأحوال أوربا وكثير من أحوال المشرق ولهذا رأيت ان حرمانه من حظ النظر فيه وتركه يمر بلا مناقشة معه في بعض ما تضمنه يمدظما له وجورا عليه خصوصا ونسبة القول اليه مما يدع في اذهان الناس أمرا لا يحسن السكوت عنه

وقد جاء في كلامه ما يدل على انه قد أصيب بشيء من سوء الفهم في أحوال المسلمين وما انبعث اليه نفوسهم اليوم . وسوء الفهم منشأ الشقاق والخصام بين أهل المنصد الواحد كما ذكره حضرته في مقال له سابق . فلا يابق بذئ غيرة على

الحق، ان لا يوفيه من الاعتبار ما يستحق، وأرجوان يترجم ما أكتبه في جريدة المؤيد الفرنسية وان يرسل الى مسيو هاتوتو ليقف على ما غاب عنه من مقاصدنا وأفكارنا ان كان المسلمون اليوم يلقفون بشي . ويفتخرون به، لم يكن أنفع لهم من الاعتبار بما جاء في كلام مسيو هاتوتو . فقد أرشدهم الى عيوب فهم لا يسمعون انكارها، وهداهم الى مقاصد لطالب الاستعمار في ديارهم قد شهدوا بالعبان آثارها، وصرح لهم بان الأعماد على العدالة في معاملة الدول ضرب من الخبال، وعقد الآمال بانصاف الامم تلمس للمحال، وما على المهتم بحماية ذماره، وطالب الطهر من عاره، الا ان يدركهم ويعمل عملهم، ليلبغ من الحول حولهم، فيفوقهم في القوة أو يكون مثلهم، فيتعاوض في المنافع معهم معاوضة المالك مع المالك لا أن يتسلى بالاعمال، ويلهو بالاضاليل، ويقنع بالأمانى، ويكتفي من العمل بالصوت الجمهوري واللفظ الطلي، وهو من روح قائله خلي، حتى اذا دهموه وهو في غنلته، وأخذوه في نومه او يقظته، بسط يده يلتمس الرحمة منهم، ويرقب ان يفيس عليه سيب العدل عنهم، فهذا عمل الجاهل الاحق، وهو بالذلة والاستعباد أحق

وهي نصيحة بحب على المسلم قبولها من أجنبي منه، وكان يجب عليه من قبل ان يقبلها من أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فقد قال لخالد بن الوليد حين أرسله لحرب اليمامة « حاربهم بمثل ما حاربونك بالسيف والسيف بالرمح بالرمح » ولا يخفى ان كل نزاع فهو حرب، وكل منافسة فيما هو عماد الحياة فهي جلاذ، وكل عمل يأتيه أحد المتنافسين للظفر بمنافسة فهو جهاد، وكل وسيلة تغفره بطلبه فهي سلاح، وكل نجاذب أو تدافع بينها فهو كفاح، وكل منفعة حفظها أو استخلصها منه فهي غنيمة، وكل انخزال عن حق أو تفويت لمصلحة فهو هزيمة،

فالظافر في ميدان المنافسة من كان رأيه أسد، وقوته أشد، وسلاحه أحد، فاذا قربت القوتان من التكافؤ أمكن بمصالح المتنافسين ان تتفق، وسهل على كل منهما ان يرتفع، والا استحال الاتفاق، واستبد القوي بالارتفاق، بل صعب على الضعيف ان ينال حق البقاء، سنة الله في عالم الاحياء،

وقد فصل مسيو هانوتو ما أجمله بعض أساتذتنا في قوله (العدل تكافؤ القوى)
 صرح مسيو هانوتو بأن أوروبا بعد ان كانت لا تشغل الا بما يجري فيها
 اندفعت الى الاستعمار ولا يرد لها عنه الا قوة الامم التي تريد الاستعمار فيها .
 وضرب المثل باليابان فانها بما ارتقت في المدنية ، وما أصلحت من شؤونها
 الداخلية ، وما أعدت لوقاية ممالكها ، وحماية مسالكها ، قد اذنت أوروبا بقوتها ،
 وحملتها على الاقرار بمكانتها ، فحمت بلادها ومصالحها من صولتها ، وأمكنها
 برهان القوة ان تولف بين منافعها ومنافع الاوربيين ، وهو قول حق وكان على
 المسلم ان يعرفه من قرون وله في كتابه المنزل خير هاد وارشد مرشد وكان يكتبه
 منه آية « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » فقد دعت الية الكريمة الى الاعداد
 وطالبت ان يبلغ منه حد المستطاع ولا حد لما تستطيعه أمة اذا صرفت قواها
 العقلية والجسدية فيما هيئت له وأطلقت له القوة وهي كل ما يقوى به خصم على
 خصم ، ويقدر به على حماية نفسه وحوزه من اعتداء معتد ، أو يستطيع به استخلاص حق
 من يد معتصب ، وخبر القوى ما حفظ به الحق ، وعظمت به المنفعة ، ووقف لميخته
 كل من المتنافسين عند حده ، حتى يستقر السلام بينهم ، وتشمل الطمأنينة شؤونهم ،
 وقد تألفت قوى الامم الاوربية من عناصر هي العلم والأدب والتجارة
 والصناعة والعدل والدين والسلاح . وذكرت الدين في جملة عناصر القوة لان
 مسيو هانوتو لا ينكر ان أوروبا تعتمد على الدين في سياسة الاستعمار وان المرسلين
 والجمعيات الدينية من أهم الوسائل لديها في اعداد الشعوب الى قبول سلطانها عند
 سnoch الفرص لردوقها وتهيشة نفوس الامم لاحتمال ما ينتقض به ذلك السلطان
 متى أظلمهم ، وفي فتح المناق التي لا يستطيع السلاح وحده ان يفتحها وتهيد
 السبل التي لا يمكن لساعد الجندي وحده ان يهداها . وهو من الامور المسلمة التي
 لا يجادل فيها عارف مثل هانوتو فلا حاجة للأطالة في بيانه غير اني أذكر قصة
 كنت شاهدتها لا بأس بذكرها في هذا المقام

تعلم أحد أبناء جبل لبنان من بلاد سوريا في بعض مدارس الجمعيات الدينية
 الفرنسية في تلك البلاد وأخذ عن أساتذته كثيرا من آدابهم وطالع عددا من

مؤلفات كتابهم وامتلأ قلبه بحب فرنسا واستقر في ذهنه انها منبع نور العلم والحرية وانها بحريرة العالم أجمع من ررق الاستبداد ثم انتقل لكتب بعض الفلاسفة الفرنسيين ومؤلفات بعض السياسيين فعظم عنده الاعتقاد بان هذه الامة الجليلة انما يهيمها في سياستها ان تنشر المعارف في العالم لتهديب العقول وتكميل النفوس لترينتها على أصول العقل وحرية الفكر ورأى ان من الزاني عند الحكومة الفرنسية ان يذهب الى باريس ويسألها المعونة على انشاء مدارس في جبل لبنان يبنى التعليم فيها على تلك الاصول السابقة فذهب الى باريس سنة ١٨٨٤ واتصل بأحد أذكيا السوريين الذين طاب لهم المقام في البلاد الفرنسية وطلب منه ان يكون وسيلته في نيل ما يرغبه من معونة الحكومة فسمى الذكي سعيه ثم عاد الى صاحبه وقال له ان ماتمخيلته ضرب من الوسواس وان الحكومة الفرنسية وان كانت تطرد الجزويت من بلادها وتنازع الكنيسة في سلطتها لكن سياستها في الخارج دنيئة محضة ويمكن ان نعرف ذلك من حمايتها للجزويت واعانتها لهم بالمال والقوة في بلادك

فان كنت تريد انشاء مدارس دينية في بلاد لبنان كان أملاك في المساعدة قريبا والا فارجع واشتغل بما يصلح شأنك الخاص بك . فرجع الشاب بالحيرة بعد ما أقام مدة صرف فيها ما كان عنده من النقود ولم يجد من يساعده على الرجوع الى بلده الا من رحمة من أصدقائنا اذ ذاك وكان لي حظ في مساعدته كما كنت شاهدا الحديث الذي رويته

فان لم يسمع المسلم بعزم ثابت في تحصيل هذه العناصر التي سبق ذكرها وتقوية ما ضعف عنده منها وهو مسلم كان مخلفا لكتابه واقول الصديق رضي الله عنه ومستحقا لوم مسيو هانوتو ولم تتفق له مصالحة مع مصالح الاروبيين الى يوم القيامة بقي علي الكلام مع هذا الوزير في أمرين الاول فما فهمه من شأن المسلمين في هذه الايام وما يسمونه دعوة الى توحيد كلمة المسلمين قاطبة وجمع السلطة الدينية والسياسية في شخص واحد . والأمر الثاني سوء ظن أكثر المسلمين بالسياسة الأوروبية بل بالمسيحيين أجمع حتى وصل فقد اشفق بهم الى ان لا يأمنوا

مسيحيا عنما ياتي عمل من اعماله وإن اخلص لهم الخدمة كما سمعه من صاحب هذه الجريدة الناشرة الحديث وغيره . وموعدي بذلك عدد آخر اه

٢

شأن المسلمين اليوم وظهور دعوة فيهم الى توحيد كلمة المسلمين وجمع السلطة الدينية والسياسية في شخص واحد في جميع البلاد الاسلامية
أزكد اوسيو هانوتو ان هذه الدعوة ولم يوجد لها أثر الى اليوم في بلد من بلاد المسلمين ولو خطأ خطورة الى معرفة أحوالهم على ما هي عليه لما خطر بباله ان يشبر الى هذه الدعوة فضلا عن أن يبني عليها حكما وان معلق بالاوهام منها فانما منشؤه سوء فهم بعض مسيحيي الشرق ثم انعكس ذلك في اذهان سياسيي المغرب وقد يكون لسوء نية بعضهم مدخل في تعظيم ماؤم فيها
وإني أعرض الحقيقة كما هي لا يفشاها ستار من تمويه ولا غطاء من تليس وأرجوان يكون في هذا البيان مايقنع موسيو هانوتو بحسن مقاصد المسلمين اليوم في كلامهم عن الدين وما يرد أمثل صاحب الجريدة التي نشرت حديثه الى رشدم حتى يتقوا الله في أنفسهم وأهل بلادهم ولا يتخذ بعضهم من السلم حربا ولا من السكرن شغباً

لا أنكر ان طائفا من الدين طاف في هذه السنين الأخيرة بقول بعض المسلمين في أقطار مختلفة من الارض وان نسمة من نفس الرحمن مرت بانفس قليل من أهل الفضل فيهم فحركت ساكنهم، وأثارت همهم، الى النظر فيما كان عليه أهل هذا الدين، وفيما صاروا اليه، وان منهم من يتكلم بما يرى اذا وجد سبيلا الى الكلام ومنهم من ينشر رأيه في كتاب أو جريدة اذا تهيأت له الوسائل لذلك . ثم يوجد مقلدون لهؤلاء يقولون مالا يعلمون ويهرفون بما لا يعرفون ولا كلام لنا في هذر المقلدين وإنما كلامنا فيما يرمي اليه غرض أولئك الناظرين
ظهر الاسلام لاروحيا مجردا ، ولا جسدا نيا جامدا، بل انسانيا وسطا بين ذلك أخذا من كل من القبيلين بنصيب فتوفر له من ملائمة الفطرة البشرية ما لم يتوفر لغيره ولذلك سمي نفسه دين الفطرة وعرف له ذلك خصومه اليوم وعدوه المدرسة

الاولى التي يرقى فيها البربرة على سلم المدينة . ثم لم يكن من اصوله « أن يدع ما لقيصر لقيصر » بل كان من شأنه أن بحاسب قيصر على ماله ويأخذ على يده في عمله . جاء هذا الدين على الوجه الذي ذكرنا فهدى ضالا ، وألان قاسيا ، وهذب خشنا ، وعلم جاهلا ونبه خاملا ، وأثار الى العمل كسلا ، وأقدر عليه ركلا ، وأصلح من الخلق فاسدا ، وروج من الفضيلة كاسدا ، ثم جمع متفرقا ، ورأب منصدعا ، وأصلح مختلا ، ومحاطما ، وأقام عدلا ، وجدد شرعا ، ومكن للأمم التي دخلت فيه نظاما ، امتازت به عن سواها ممن لم يدخل فيه ، فكان الدين بذلك عند أهله كمالا للشخص وألفة في البيت ونظاما للملك . وظهرت به آثار النعمة عليهم في جميع شؤونهم ولم يفت العلم حظ من عنايته بل كان قائده في جميع وجوه سيره فان شاء قاتل ان يقول ان الدين لم يعلمهم التجارة ولا الصناعة ولا تفصيل سياسة الملك ولا طرق المعيشة في البيت لم يسعه ان ينكر انه أوجب عليهم السعي الى ما يقيمون به حياتهم الشخصية والاجتماعية وأوجب عليهم ان يحسنوا فيه وأباح لهم الملك وفرض عليهم ان يحسنوا الملكة وما ظك بدين يقول خليفته الثاني وهو في المدينة من بلاد العرب « لوان سخلة بوادي الفرات أخذها الذئب لسثل عنها عمر » ويقول خليفته الرابع « أفنع من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين ولا أشاركم في مكاره الدهر، أو كون أسوة لهم في جشوبة العيش ؟ أي خشوته » يريد بذلك أن يساوي المساكين في العيش ليكون قدوة الاغنياء في الاحسان وأسوة الفقراء في حسن الصبر

هكذا كان الاسلام مهمازا للمسلمين يحثهم الى جلائل الاعمال ومصباحا لبصائرهم يسترشدون به في استغراق الاحوال وتقويم الافكار وعاطفا يعطف قلوبهم على الامم بالعفو والمرحمة وحسن المعاملة حتى رضيتهم الارض سادة لها وقادة لسكانها وكان من أمرهم وأمره ما هو معلوم

أبعد هذا يعجب عاقل اذا رأى المسلم برضى مرضيه هذا المرشد الحكيم ويمقت مامقته؟ أيدهشه ان يرى المسلم يهزأ بكل مالم يعتقد سائفا في دينه وان كان فيه ملك الارض أو ملكوت السموات بعد ما شهد المسلم من أثر نعمة الله عليه في هذا الدين ماشهد؟ لا عجب في ذلك فإنه نتيجة ضرورية ينساق اليها الامر بنفسه

بحكم سنة الله في خلقه

وأسفا!! لم يبق للمسلم من الدين الا هذه الثقة فيه اما الدين نفسه فقد انقلب في عقل المسلم وضعه، وتغير في مداركه طبعه، وتبدلت في فهمه حقيقة، وانطمست في نظاره طريقته، وحق فيه قول علي كرم الله وجهه « ان هؤلاء القوم قد لبسوا الدين كما يلبس القوم مقلوبا » .

لا أبحث اليوم في الاسباب التي وصلت بالدين في نفس المسلم اني ماذ كرت ولكن أقول ولا أخشى منكرا لما أقول : قد دخل على المسلم في دينه ما ليس منه، وتسرب في عقائده من حيث لا يشعر ما لا يتصل بأصلها بل ما يهدم قواعدها ويأتي على أساسها . عرضت البدع في العوائد والاعمال ، وحلت محل الاعتقاد الصحيح ، وأخذت مكان الشرع القويم ، وظهرت آثارها في أعماله، وعم شؤنها جميع أحواله

ان صح لفظ الحديث « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » أولم يصح فالقرآن يؤيد معناه ، وعمل الاوابن من المسلمين يحقق صحة ما حواه، فالرجل والمرأة سواء في الخطاب التكليفي ، وكان سواء في علم ما يجب عليهما من فرائض الاسلام ، وخصال الايمان، وفي طلب العلم بما يلزم لصلاح معادها ومعايشها وبما تحسن به المعاملة مع من يتصل بهما قرب أو بعد على تفصيل معروف في كتاب الله وسنة رسوله وعمل الصالحين من بعده حتى لم يبق باب من أبواب العلم الا دخل منه بقدر الاستطاعة وما يسمح الزمان . ضل المسلم بعد ذلك في معنى العلم فظن الرجل ان غاية ما يفرضه الدين منه معرفة فرائض الوضوء والصلاة والصوم في صورة ادائها اما ما يتعلق بسر الاخلاص فيها ووسيلة قبولها عند الله فذلك مما لا يحظر له يبال الا القليل النادر اما آداب الدين وتهذيب الروح واستكمال الحاصل الجليلة مما جملة الاسلام غاية العبادات وثمرة الاعمال الصالحات فهو مع انه أهم علوم الدين مما لا تتوجه اليه عزيمته ، ولا تنصرف نحوه ارادة، اللهم الا من أشخاص قلائل مشورين في أطراف الارض لا ترقى بهم أمة، ولا تسمو بهم كلمة، اما من ينقطعون لطلب العلوم ليحصلوا جملة منها فقد انقسموا الى فريقين

الاول من يظن انه وارث علوم الدين والقائم بحفظها وقد قل افراده في معظم البلاد الاسلاميه ولم يبق منه الارسوم لا يكاد لا يدركها نظر الناظر والمتفنون منهم في بعض البلاد كعصر والاستانة فاعلموا حظ الذكيّ منهم وقليل ما هو ان ينظر في كتب مخصوصة عينها له الزمان وضعف العرفان ويفهمها بمعنى أن يشق بأن هذا اللفظ دال على ذاك المعنى ومتى تم له ذلك فقد استكمل العلم سواء سلم له عقله ودينه وأدبه بعد ذلك أم لم يسلم فكان مثلهم مثل من ورث سلاحاً فكأن هم أن ينظر اليه ويملاً عينه منه ولا يمد يده اليه يستعمله أو يزيل الصدأ عنه فلا يلبث أن يأكله الصدأ ويفسده الخبث ويزعمون ان الدين يصد عما وراء ما عرفوا من العلوم النافعة ومن رأي هؤلاء ان لاشأن لهم مع العامة ولا يجب عليهم ان يأمرؤا بمعروف ولا ان ينهؤا عن منكر وقد ارتكبوا بذلك خطأ في فهم دينهم لا يساويه في سوء عاقبته خطأ للكثير منهم بل الاغلب من سوء الفهم في الدين ما الحاجة الى عده ولا يخفى ان ما يحصله هذا الفريق في العلم لا يظهر له ادنى أثر في صلاح الامة كما هو مشهود

والفريق الثاني من يهيوه اولياؤه لنيل منصب من مناصب الحكومة عال اوسافل وافراد هذا الفريق ان كثروا اوقلوا يحصلون مبادي العلوم المعروفة بالعلوم العصرية ثم يحصل كل واحد ما به ينال المنصب الذي يمد له والده على ان ما يحصل اما لفظ يحفظ أو خيال يخزن والمدار على الوصول الى ورقة الشهادة ومن هؤلاء من يذهبون الى اوروبا لاستعمال التربية فيها ولا غاية لهم سوى هذه الغاية فمن أصاب منهم بعد ذلك وظيفة تقع بها وحصر همه على العمل فيها ومن لم يجد وقف على الابواب ينتظرها فاذا مل لا ينتظار أو تنقضي زمن العمل وجدته في قهوة أو ملهى يسرف في أرقانه و يفسد في أدواته والصالحون منهم وقليل ما هم لا يهمهم شأن العامة شقيت أوسعدت هلكت أوقامت فاي أثر لما تعلمه هؤلاء يظهر في الامة واستثنى منهم شواذ في كل بلد على ضعفهم يرجى ان ينمو عددهم وتنجي الامم ثمار اعمالهم . هذا شأن الرجال مع العلم

أما النساء فقد ضرب بينهن وبين العلم بما يجب عليهن في دينهن أودنياهن

بستار لا يدري متى يرفع ولا يخطر بالبال ان يعلمن عقيدة أو يودبن فريضة سوى الصوم وما يحافظن عليه من الفقه فاعما هو بحكم العادة وحارس الحياء وقليل جدا من موروث الاعتقاد بالحلال والحرام وحشو اذهانهن الحرافات وملاك احاديثهن الترهات اللهم الا قليلا ممن لا يستغرق الدقيقة عدهن وكل من الرجال والنساء يعد نفسه مسلما يعدها الجنة ويعنيها السعادة

اخطاء المسلم في فهم معنى التوكل والقدر فمال الى السكل وقعد عن العمل ووكل الامر الى الحوادث تصرفه حينما تهب ريحها ويظن انه بذلك يرضي ربه ويوفي رغائب دينه

اخطاء المسلم في فهم ما ورد في دينه من ان المسلمين خير الامم وان العزة والقوة مقرورتان بدينهم ابد الدهر فظن ان الخير ملازم لعنوان المسلم وان رذعة الشان تابعة لامظه وان لم يتحقق شيء من معناه فان اصابته مصيبة أوجحت به رزية تسلى بالتضاء وانتظر ما يأتي به الغيب بدون ان يتخذ وسيلة لدفع الطاريء أو ينهض الى عمل لتلافي ما عرض من خلل أو مدافعة الحادث الجلال، مخالفا في ذلك كتاب الله وستة نبيه

اخطاء المسلم في فهم معنى الطاعة لأولي الامر والالتقياد لاوامرهم فالتقى مقاليدته الى الحاكم ووكل اليه التصرف في شؤونه ثم ادبر عنه حتى ظن ان الحكومة يمكنها القيام بشؤونه جميعها من ادارة وسياسة بدون ان يكون لها منه عون سوى الضريبة التي تفرضها عليه ومن رأى حزن الآباء اذا طلب ابناؤهم لاداء الخدمة العسكرية وما يبذلونه من السعي في تخليصهم منها حكم بان ما عقله أكثر المسلمين من معنى الحكومة لا يمكن انطباقه على شيء من أوليات العقل وعرف ان ثقتهم بالحاكم قد بلغت الى حد التألب من حيث ظنوه قادرا على كل شيء بدون عون من احد وانقلبت تلك الثقة الى الادبار والتخلي عنه من حيث انهم تركوه وشأنه لا يساعدونه في حادث، ولا يعينونه في أمرهم، اللهم الا اذا ارغموا على ذلك ومن ذا الذي يحسن عملا اذا ألجئ اليه بالرغم عنه ومن ها انصرف المسلم عن النظر في الامور العامة جملة وضمف شعوره بحسنها وقبيحها اللهم الا بما عيس شخصه منها.

اما الحكماء وقد كانوا اقدر الناس على انتيش الامة مما سقطت فيه فاصابهم من الجهل بما فرض عليهم في اداء وظائفهم ما اصاب الجمهور الاعظم من العامة ولم يفهموا من معنى الحكم الاتسخير الا بدران لاهوائهم وادلال النفوس لحشونة سلطانهم وابتزاز الاموال لانفاقها في ارضاء شهواتهم لارعون في ذلك عدلا، ولا يستشيرون كتابا، ولا يتبعون سنة حتى افسدوا اخلاق الكافة بما حملوها على النفاق والكذب والنس والافتداء بهم في الظلم وما يتبع ذلك من الخصال التي ما فتت في أمة الاحل بها العذاب

هذا كله الى ما حدث من بدع أخرى من مذاهب شتى في العقائد، وطرق متخالفة في السلوك، وارااء مناقضة في الشرائع، وتقليد أعمى في جميع ذلك، تفرقت المشارب، وتوزعت المنازع، وعظم سلطان الهوى على ارباب النزعات المختلفة، كل يجذب الى نفسه، لا ينظر الى حق، ولا يفزع من باطل، وانما همه ان يظهر بخصمه وذلك الخصم هو ما يدعوه أخاه في الاسلام في معرض التشديق بالكلام

وزد على ذلك وهذا اكبر بدعة عرضت على نفوس المسلمين في اعتقادهم وهي بدعة اليأس من انفسهم ودينهم وظنهم ان فساد العامة لا دواء له وان ما نزل بهم من الضر لا يكشف له وانه لا يمر عليهم يوم الا والثاني شر منه . مرض سرى في نفوسهم، وعلته تمكنت من قلوبهم، لتركهم المقطوع به من كتاب ربهم وسنة نبيهم، وتعلقهم بما لم يصح من الاخبار أو خطائهم في فهم ما صح منها وتلك علة من أشد العلل فتسكا بالارواح والعقول وكفى في شناعتها قوله جل شأنه «انه لا يياس من روح الله الا القوم الكافرون»

تبع هذه البدع جميعها واخرى يطول ذكرها هزال في الهم، ووضعة في العزائم، وفساد في الاعمال، يبتديء من البيت وينتهي الى الامة ويمر في كل طبقة ويمجول في كل دائرة خصوصا من دوائر الحكومات وما يرمى به المسلمون من التعصب الديني الاعمى فانما عرض على اقوام في بعض البلاد الاسلامية تبعوا لهذه البدع الضالة على اني لا اسلم انهم لمفوا فيه ادنى درجاته في الامم المسيحية شرقية كانت أو غربية والتاريخ شاهد لا يكذب

هذا ما أصاب المسلمين في عقولهم وعزائمهم واعمالهم بسبب ابتداعهم في دينهم وخطائهم في فهم أصوله، وجهاهم بادنى أبوابه وفصوله، لهذا سلب الله عنهم من يسلمهم نعمة لم يقوموا بشكرها وينزل بهم من عقوبة الكفران ما لا قبل لهم بدفعه الا اذا تداركهم الله بلطفه وقدا بثلامهم بمن يلصق بدينهم كل عيب، ويقرنه اذا ذكره بما يتبرأ منه، ويعدده حججاً بين الأمم والمدنية، بل يعدده منبع شقايتهم وسبب فاتهم

تنبه لذلك أفراد من عقلاء المسلمين في اواسط القرن الماضي من سني الهجرة في أقطار مختلفة من بلاد فارس والهند وبلاد العرب ثم في مصر وكل منهم بحث في الداء وقدر له الدواء بحسب فهمه على تقارب بينهم واعلمهم يلتقون يوماً من الأيام عند الغاية ان شاء الله

مقصد الجميع ينحصر في استعمال ثقة المسلم بدينه في تقويم شؤونه ويمكن ان يقال ان الغرض الذي يرمي اليه جميعهم انما هو تصحيح الاعتقاد وازالة ما طرأ عليه من الخطأ في فهم نصوص الدين حتى اذا سلمت العقائد من البدع تبعها سلامة الاعمال من الخلل والاضطراب واستقامت أحوال الافراد واستضاءت بصائرهم بالعلوم الحقيقية دينية ودنيوية وتهذبت أخلاقهم بالمسكات السليمة وسرى الصلاح منهم الى الامة فاذا سمعت داعياً يدعو الى العلم بالدين فهذا مقصده، أو منادياً يبحث على التربية الدينية فهذا غرضه، أو صاحباً ينكر ما عليه المسلمون من المفاسد فتلك غايته، وهذه سبيل لمريد الاصلاح في المسلمين لا مندوحة عنها، فان اتيانهم من طرق الأدب والحكمة العاربية عن صبغة الدين يحوجه الى انشاء بناء جديد ليس عنده من مواده شيء ولا يسهل عليه ان يمجذ من عماله أحداً، واذا كان الدين كإفلا بهتذيب الاخلاق وصلاح الاعمال وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها ولاهله من الثقة به ما يبناه وهو حاضر لديهم والعناء في ارجاعهم اليه أخف من احداث ما لا امام لهم به فلم العدول عنه الى غيره!! لم يخطر ببال أحد ممن يدعو الى الرجعة الى الدين سواء في مصر أو غيرها ان يشير فتة على الاوربيين أو غيرهم من الأمم المجاورة للمسلمين غير ان بعض

المسيحيين اذا سمع قولاً في الدين أعرض عن فهمه، وأنشأ لنفسه غولاً من خياله، يخاف منه ومخشى غائباته يسميه باسم الدين وبعضهم يظن انه لو اتبه المسلمون الى شؤنهم، ورجعوا الى الأخذ بالصحيح من دينهم لاعتصموا بجامعتهم، واستعانوا على تقويم أمورهم بأنفسهم، واستغنوا عن أدخلوه في أعمالهم من غيرهم، فبحرم الكثير من المسيحيين تلك المنافع التي نالوها بفلتهم، وهو سوء ظن من الزاعم بنفسه فانه بظنه هذا يعتقد انه غاش مغرر، وسالب متلصص، وسوء ظن بالمسلمين أيضاً فان أهل الوطن الواحد لا يستغني بعضهم عن بعض مها ارتقت معارفهم وعظم اقتدارهم على الاعمال وغاية الامر ان ما كان ينال اليوم بدون حق يصبح وهو لا ينال الا بحق والاجنبى الذي كان ينفق الواحد ويربح اثثة يرجع الى الاعتدال في الكسب، ويحتاج الى شيء من التعب في استيراد الربح، وقد كان المسيحيون عاملين في الدول الاسلامية وهي في عنفوان قوتها، والاجانب يطلبون الكسب في ارجائها وهي في أرفع مقام من عزها

نعم يعرض في طريق الدعوة الى الدين على هذا الوجه أن ياتس مسلم بمصر معونة من مسلم آخر سورياً أو بالهند أو بالمعجم أو بافانستان أو بغير هذه الأقطار لان مرض الجميع واحد وهو البدعة في الدين فاذا نجح الدواء في موضع، كان السليم أسوة للمريض في موضع آخر اما السعي في توحيد كلمة المسلمين وهم كما هم فلم يجر بعقل أحد منهم ولو دعا اليه داع لكان أجدر به ان يرسل الى مستشفى المجانين

يكتب بعض ارباب الاقلام من المسلمين في حكمة الحج ويقول انه صلة بين المسلمين في جميع اقطار الارض ومن افضل الوسائل للتعاون بينهم فليهم ان يستفيدوا منه وهو كلام حق لكن لا ينبغي ان يفهم على غير وجهه فان الغرض منه ان يذكر المسلمون ما بينهم من جامعة الدين حتى يستعين بعضهم ببعض على اصلاح ما فسد من عقائدهم أو أضل من اعمالهم وفي مدافعة ما ينزل بهم من قحط أو ظلم أو بلاء. وهو امر معهود عند جميع الامم التي تدين بدين واحد خصوصاً عند الاوربيين

يذكر المسلمون اليوم من ذكر الدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد وبعاقون
 آمالهم بهتمته (ه) وكثير منهم يدعو إلى عقد الولاء له وهذا امر لا ينبغي ان يدهش
 أحدا من هذه الدولة هي أكبر دول الاسلام اليوم و سلطانها انخم سلاطينهم
 ومنه يرتجى انقاذ ما بين يديه من المسلمين لما حل بهم وهو أقدر الناس على اصلاح
 شؤونهم وعلى مساعدة الداعين الى تمحيص العقائد وتهذيب الاخلاق بالرجوع
 الى أصول الدين الطاهرة انفة وأي شيء في هذا يزعم أوربا حتى تعد على هضم
 حقوق المسلمين اذا حدثت حوادث مثل الحوادث الماضية كما يقول موسيو هانوتو

بقي الكلام على جمع السلطة الدينية والسياسية في شخص واحد يقول فيه
 موسيو هانوتو ان أوربا لم تتقدم الا بعد ان فصلت السلطة الدينية من السلطة
 المدنية وهو كلام صحيح ولكنه لم يدر ما معنى جمع السلاطين في شخص عند
 المسلمين . لم يعرف المسلمون في عصر من الاعصر تلك السلطة الدينية التي كانت
 للبابا على الأمم المسيحية عند ما كان يعزل الملوك ويحرم الأمراء و يقرر الضرائب
 على الممالك و يصنع لها القوانين الالهية وقد قررت الشريعة الاسلامية حقوقا
 للحاكم الأعلى وهو الخليفة أو السلطان ليست للقاضي صاحب السلطة الدينية
 وإنما السلطان مدبر البلاد بالسياسة الداخلية والدافع عنها بالحرب أو السياسة
 الخارجية وأهل الدين قائمون برؤسائهم وليس له عليهم الا التولية والعزل ولا لهم
 عليه الا تنفيذ الأحكام بعد الحكم ورفع المظالم ان أمكن وهذه الدولة العثمانية
 قد وضعت في بلادها قوانين مدنية وشرعت نظاما لطريقة الحكم وعدد الحاكمين
 وملاهم وسمحت بأن يكون في محاكمها اعضاء من المسيحيين وغيرهم من الملل التي
 تحت رعايتها وكذلك حكومة مصر انشئت فيها محاكم مختلطة ومحاكم أهلية بأمر
 الحاكم السيامي وشأن هذه المحاكم وقوانينها معلوم ولا دخل لشيء من ذلك في الدين
 فالسلطة المدنية هي صاحبة الكلمة الأولى كما يطلب موسيو هانوتو ولكن مع
 ذلك لم يظهر نفعها في صلاح حال المساكين بل كان الأمر معكوساً فان أمراءنا
 السابقين لو اعترفوا أنفسهم أمراء الدين لاستطاعوا الحامرة بمخالفته في ارتكاب

المظالم والمغالاة في وضع المغارم والمبالغة في التبذير الذي جر الويل على بلاد المسلمين وأعدمها أعز شيء كان لديها وهو الاستقلال
ان فرنسا تسمي نفسها حامية الكاثوليك في الشرق وملكة انكلترا تلقب بملكة البروتستانت وامبراطور روسيا ملك ورئيس كنيسة معا فلم لا يسمح للسلطان عبد الحميد ان يلقب بخليفة المسلمين أو أمير المؤمنين
لاأظن ان موسيو هانوتو يسبي الظن بدعوة دينية على الوجه الذي بيناه وأظنه يكون عوناً للمسلمين على تعضيدها في البلاد الاسلامية الفرنسية اذا وجد فيها من يقوم بها وانا أضمن له بعد ذلك ان تتفق مصالح المسلمين مع مصالح الفرنسيين فان المسلمين اذا تهذبت اخلاقهم بالدين سابقوا الاوربيين في اكتساب العلوم وتحصيل المعارف ولحقوا بهم في التمدن وعند ذلك يسهل الاتفاق معهم ان شاء الله

٣

سوء ظن المسلمين بسياسة أوربا كلها وعدم ثقة سياسيمهم بدولة من الدول واعتقاد المسلمين بأن مصلحة أوربا المسيحية تخالف مصالحهم الاسلامية وعدم اطمئنانهم الى سياسية الدول المسيحية حتى أدى بهم فقدان الثقة بالمسيحيين الى ان لا ياتمنوا مسيحيًا عثمانيا ولو أخلص لهم الخدمة وصدق معهم - سمع بذلك كله موسيو هانوتو من صاحب الجريدة المعروفة ومن بعض العثمانيين في الاستانة وباريس ثم أخذ يبرهن على ان سياسة أوربا اقتصادية ملكية لادينية لاهوتية
لا أدري من هم المسلمون الذين وصفهم موسيو هانوتو ومن أبلغه اخبارهم أهم الهنود وهم في حكم دولة أجنبية ولا تزال نرى في خطبهم وجرائدهم ما يدل على طاعتهم لحكامهم وتعليقهم الآمال بعدلهم والتماسهم الحق من طرفه
هل هم مسلمو روسيا ونقتهم بحكومتهم وثقة حكومتهم بهم لا تحفى على أحد حتى ان الدولة الروسية تفضلهم على المسيحيين من غير المذهب الاورثوذكسي
هل هم الافغانيون واخلاص أميرهم في مصافاة الانكليز أشهر من ان يذكر ولا يبنى اخلاصه حرصه على بلاده ومحافظته على مصلحتها

هل هم الفرص واستقامتهم الى السياسية الروسية لا يجهلها أحد ؟
 هل هم المرء كشيون وهم بعزل عن كل ما يسمى سياسة بل هم في غفلة عن
 الدين والدنيا جميعا شغل بعضهم ببعض فلا يفكرون يتقاتلون وبقسالبون حتى
 يقضي الله فيهم بقضائه

هل هم التونسيون وقد أتى عليهم موسو هانوتو بما هم أهله وثبت له ارتياحهم
 الى السلطة الفرنسية مجرد ما طلقت لهم الحرية في دينهم

لعله لم يقصد الا العثمانيين كما يدل عليه بقية كلامه وكما يفيد قوله ان لا يأتونوا
 مسيحياً عثمانياً والعثمانيون منهم المصريون ومنهم غيرهم فاما المصريون فلا شيء
 عندهم يدل على عدم الثقة بالاوربيين وبالمسيحيين العثمانيين فانهم يشاركون في
 العمل مواطنهم من الاقباط في جميع مصالح الحكومة ماعدا المحاكم الشرعية الخاصة
 بالمسلمين وهم معهم على غاية الوفاق خصوصا أهل الاخلاص وسلامة النية منهم
 ولكل من الفريقين اصدقاء وأحبة في الفريق الآخر ثم شأنهم هو ذلك الشأن مع
 سائر الطوائف المسيحية الا من ظهر منهم بالتعصب البارد للدين وآذاهم في دينهم
 أو في منافعهم الخاصة بهم لا شيء سوى التعصب الاعمى ولا نطلب على ذلك شاهدا
 اقرب من صاحب الجريدة الذي بحادثه موسيو هانوتو إنه بعد أن كان على المسلمين
 أثناء الحرب الروسية العثمانية وبعد ان أتى ما أتى عقب الحوادث العراية شهد له
 المسلمون بأنه صديقهم والساعي في خيرهم كما افتخر بذلك مرارا في جريدته وان
 كانت له اليهم هبات لا تزال تبدو من فيه الى وقت ذلك الحديث فأين فقد هذه الثقة
 بالعثمانيين المسيحيين في مصر ؟ هل طرد أحد من خدمة الحكومة لانه مسيحي عثماني ؟
 هل حرم أحد حق المحاماة أو انشاء الجرائد أو المطابع أو اقامة المصانع أو تأسيس
 البيوت التجارية لانه مسيحي عثماني ؟ فليأت صاحبنا بشاهد واحد

أما حالهم مع الاوربيين فانا نراهم اذا أحسوا بعدل من انكليزي ذكروه،
 أو وصل اليهم معروف من أي عامل أوربي شكروه، بل أزيدك على هذا ان
 المستغيث منهم بالحكومة يطلب منها ان يتولى تحديق مظلمته انكليزي كما شوهد
 ذلك كثيراً في شكاياتهم وليس بقليل من يعرض شكواه على جناب اللورد كرومر

وهو ليس بماكم رسمي فأى دايبل على الثقة أكبر من هذا
ليس بقليل في مصر من يثق بالفرنساو بين ومن له بينهم اصدقاء يركن اليهم
ويعتمد بولانهم وموسيو هانوتو وصاحب الجريدة يعرفان

كثيرا ما أغرى الاوربيون من فرنساو بين وأمريكين من أرباب المدارس
في مصر شبانا من المسلمين بالمروق من دينهم والدخول في الديانة المسيحية وفروا
ببعضهم من القطر المصري الى البلاد الاجنبية وأحرقوا كبد والديه ومع ذلك لانزال
نرى المسلمين برساون أولادهم الى مدارسهم ونظر المعارف عندنا وزير مسلم وأولاده
يتربون في مدارس الجزويت وكثير من أبناء الاعيان في مدارس الفرير فأى اثمان
بفوق هذا الاثمان

زادت ثقة المصر بين من المسلمين بالاور بين خصوصافى المعاملات حتى أساء
أولئك الاوربيون استعمالها وانتهزوا فرصتها وسلبوا كثيرا من أهل الثروة ما كان
بأيديهم ومع ذلك فهم لا يزالون يأمنونهم ويقولون في الاستقامة اليهم وبقلة دوزنهم
فيما يخالف دينهم وعوائدهم فإذا يطلب من الثقة فوق هذا !!

هل يشكو عقلاء المسلمين في مصر من شيء مثل ما يشكون من الثقة العمياء
بالأجنبي من غير تمييز فيما هو عليه من اخلاص أو غش من صدق أو كذب من
أمانة أو خيانة من قناعة أو طمع حتى آل الامر بالناس الى ما آلوا اليه من خسارة
المال وسوء الحال فهل هذا هو فقد الثقة بالاور بين والعمايين المسيحيين الذي
يعينه حضرة صاحب الجريدة وجناب موسيو هانوتو ؟

وأما العمايين من غير المصريين فاذا ارتقينا الى الدولة وسلطانها ايده الله
وجدنا أن نظام الدولة قاض باستعمال المسيحيين في اداراتها ومجما كها في كل بلد
فيه مسيحيون، والمأمورون من المسيحيين يتالون من النياشين والرتب ما يناله المسلمون
على نسبة عددهم أو فوق ذلك وكثير من المسيحيين نالوا من الامتيازات والمنافع
في الدولة ما لم ينله مسلم وسفارات الدولة ومناصبها العالية لا تخلو من المسيحيين
اقبال السلطان على رؤساء الطوائف المسيحية وانعامه عليهم بوسامات الشرف
واختصاصه لبعضهم بشرف المثول في حضرته والاحسان اليه برفيقى المحاطبة لا ينقطع

ذكره من الجرائد، صاحب الجريدة التي نقلت الحديث أمثل شاهد على مثل ذلك فقد جاهر زمنا ليس بالتصير بما لا ترضى الدولة بمثله ولا بأقل منه من مسلم ثم سهل عليه وهو مسيحي ان يكون موضع ثقة للجناب السلطاني حتى أدناه منه وقبله في مجلسه وسمع منه أمير المؤمنين تلك النصيحة المفيدة التي نشرها في جريدته من نحو شهرين أثره به لنصرة مسيو هانوتو ثم والى عليه احسانه بالرتب والنياشين وغيرها فما هي الثقة ان كان هذا فقدها ؟

أما سياسة الدولة الخارجية فالفرنساويون يشكون من مصافاة السلطان وثقته بدولة المانيا وهي دولة مسيحية ولا أظنهم يشكون من ثقة أخرى بدولة اسلامية وكانت للدولة ثقة لا تتزعزع بالسياسة الانكليزية ثم حدثت حوادث أهمها نشأ من ضعف سياسة موسيو غلادستون فأعقبتها اضطراب في تلك الثقة مددة من الزمان بحكم الضرورة ثم اننا تراها اليوم تراجع وفي رجال الدولة من لهم ثقة بصداقة روسيا ويودون لو مالت اليها سياسة الدولة وهم مسلمون

والذي أحب أن يعرفه موسيو هانوتو ان سياسة الدولة العثمانية مع الدول الأوروبية ليست بسياسة دينية ولم تكن قط دينية من يوم نشأتها الى اليوم وانما كانت في سابق الأيام دولة فتح وغلبة وفي آخرياتها دولة سياسة ومدافعة ولا دخل للدين في شيء من معاملاتها مع الأمم الأوروبية

امبراطور المانيا جاء الى سوريا للاحتفال بفتح كنيسة فبالغ السلطان في الاحتفال به الى الحد الذي اشتهر بهر. بجي الامراء المسيحيون من الأوربيين الى الاسنانة فيلاقون من الاحتفال مالا يلاقونه في بلاد مسيحية وينفق في تعظيم شأنهم من المال ما المسلمون في حاجة اليه أليس ذلك لمجاملتهم واكتساب مودتهم؟ وهل بعد المودة الا الثقة بصاحب المودة؟ كان يمكن لاسطان ان يكتبني بالرسيمات ولا يزيد عليها ولكن عهدني معاملته ما يفوق الرسمي بدرجات فان سلمنا ان سياسة أوربا ليست بدنية من جميع وجوهها فسياسة الدولة العثمانية مع أوربا هي كذلك ومسلوها تبع لها فان قل قائل: ان حوادث الارمن لم تنزل في ذاكرة أهل الوقت وينسبون وقائعها الى التعصب الديني بل يقولون ان أسبابها مظالم جر اليها ذلك التعصب؛

أمكن ان يجاب بأن العداوة مع طائفة مخصوصة لا تدل على فقد الثقة بكل مسيحي منها ومن غيرها ومع ذلك فان كثيرا من الارمن في خدمة الدولة الى اليوم ومع ذلك موضع ثقتهما وهذا وذلك يدل على الريب فيما يزعمون من ان منشأ تلك الوقائع التعصب الديني فان المسيحيين سواهم في الممالك العثمانية انعم حالا من المسلمين كما شاهدناه بانفسنا ولو أنصف الاوريون لأنمكنهم فهم أسباب هذا الاضطراب الذي يظهر زمنا بعد زمن في تلك الاقطار ولسهل عليهم ان يعرفوا ان منبعه في أوربالا في آسيا

لايفث علي أن أقول ان المسيحيين في الممالك العثمانية متمتعون بنوع من الحرية في التعليم والترية وسأروجوه الخير يتمنى المسلمون ان يساؤهم فيه فهل هذا عنوان سوء الظن بالمسيحيين وعدم الثقة بهم ؟ لا يليق بكاتب مثل صاحب الجريدة ان يروي عن المسلمين كافة مثل مارواه فان ذلك مما يحزن المسلمين والمسيحيين جميعا واني اعتقد انه عند الكلام على المسلمين لم يكن في ذهنه الا بعض أشخاص لم تعجبه آراؤهم فيه فاستحضر في صورهم جميع المسلمين وسياسيهم

ليعلم موسيو هانوثو ان جميع ما يقال له أو يكتبه بعض العثمانيين لاحقيقة له الا في ذهن القائل أو الكاتب فلا ينبغي ان يعول على مثله في أحكامه وعليه ان يحقق الأمر بنفسه ان كان يهيمه ان يشكلم فيه

وأما ان المسلمين أخذوا عليه فيما كتب عن الاسلام مع انه خدمهم وقوله فكيف مجالهم مع من لم يخدمهم فبين له الوجه فيه ليزول عنه ما سبق الى فهمه لواقصر على الكلام في السياسة وبحث في علاقة المسلمين مع حكومته ولم يسط على الدين نفسه في أصلين من أهم أصوله لما أخذ عليه أحد الا من ينتقد رأيه من جهة ما هو صحيح أو غير صحيح ولكنه لم يكتب بذلك وطعن في عقيدة التوحيد وبين رداة أثرها في المسلمين واستل سلاحه على عقيدة القدر وبين سوء ما جرت اليه فيهم وهو بذلك يثبت ان المسلمين لا يزالون منحطين ماداموا مسلمين وهو مالا يرضاه أحد منهم لومال على المسلمين فيما هم عليه اليوم وفي انحرافهم عن أصول دينهم واكتفى بتعنيفهم على افعالهم لشؤونهم وغفلتهم عن مصالحتهم كما جاء في حديثه الذي نحن بصددده لما وجد من المسلمين إلا معتبرا بقوله متعظا بنصيحته والسلام

الرجل الكبير في الشرق *

قرأت اليوم سطوراً تحت عنوان « رجال الشرق » كتبها قلم كاتبها عند ذكر موت (لي هنغ تشنغ) رجل الصين وقارن فيها بين الرجل الكبير في نفسه يظهر في بلاد الغرب ومثله في عقله وحمته يوجد في أرض الشرق وكيف يشرق النور من عقل الأول في أفق بلاده فيكون شمساً في الفائدة والشهرة وتظلم الآفاق في عين الثاني فينطمس ما فيه من نور ويخمد ما يطويه من نار ويموت غير معروف أو مشيعاً من اللعنات بألوف

ما كان لساني لينطلق بشيء في هذا الموضوع ولقد كان يبقى كل معنى فيه مقبوراً في نفسي لولا أنك بما قلت وصلت شرارة بنار كامنة لم تطفأ بعد فهجت ساكناً ، وأثرت كامنة ، فطارت إليك هذه الكلمات القلائل لعلها تجد في بعض صفحاتك ما يحملها الى من ظننت أنهم يقرؤن كلماتك

حقاً ما قلت ؟ فهل لك في شيء من تفصيل ما أجملت ، ان الكبار من الرجال هداة في أهمهم وإنما يظهر أثرهم في ارشادها والسربها في الطريق المؤدية الى الغاية التي تطلبها وليسوا بخاتمين ولا ناشرين من موت وإنما تنجح الهداية فيمن رمى بفكره الى المطلب وعرف انه أبعد عما هو فيه فتهياً للسفر وتحفز للرحلة وأخذ لأمره أهبتة ، وأعدله عدته ، واستقام على أول الطريق فإذا السبل متفرقة ، والاعلام كثيرة ، والصوى متعددة ، فيقف المسافر ، وقفة الخائر ، فيأتيه البصير بالمسالك ، فيدله على خيرها ، ويختار له أقربها وأبعدها عن المهالك ، فيقع في نفسه صدقه لا لأنه قلده ووثق بخبرته ولكن لأنه رسم له الغاية التي يطلبها ، والطريق التي يختارها لها ، وبقية الطرق على جوانبها ، فرأى الدليل قوياً ، والصراط مستقيماً ، فيسير والرجل الرشيد أمامه ، الى ان يمس الغاية بيده ، ويلمس الطلب بأصبعه : نعم ، الرجل الكبير موقظ من نوم ، أو منبه من غفلة ، وليس بمحبي الموتى ولا بمسمع من في القبور

* نشرت في العدد ٩ ٣٥ من المؤيد الصادر في غرة شعبان سنة ١٣١٩ و١٢ نوفمبر سنة ١٩٠١ ونسبت الى « أحد أفاضل الكتاب المجيدين » لتكبير الكتاب

فان كانت الأمة في منخفض من المنازل قد ضاق ألقها فلا تعرف جوا غير جوها، ولا دوا غير دواها، ولا بوا غير بواها - بواها رئيسها - فان كان هوا منزلها وبيتها، وكان مسكنها وبيلا، فهي تشمل في مكاتها، وتعتقد ان لا منقذ لها من هوانها، واذا حاجها الطامعون ليصلحوا لأنفسهم ما أفسدته، ويستجدوا لها ما استوبأته، تقلصت من الاطراف ظناً منها ان لا متسع لها في الارض، وان ليس بعد طول مكاتها طول ولا وراء عرضها عرض، فاذا وجد فيها الرجل الكبير فأول ما يخطر له ان يفعل هو ان يمد بصره الى ما وراء أنفها حتى يعرفها ان وراء منزلتها مذهبا لمن يريد النجاة مما هو فيه وكيف يمكن لطبيب ان يحدث في البصر امتدادا ان كان قد خلق قصيرا، وكيف يتيسر له ان يجد له حدة ان كان قد جبل حسيرا، الرجل الكبير يحس ويتألم، ويدفعه الألم الى ان يتكلم، بل تحمله شدة الألم على ان يجاهد قومه وهم أحب الناس اليه، ويقال لهم ليدفعهم عن موارد الملكة وهم أعز الخلق عليه، ولكن قد يبلغ بهم العمى أو قصر البصر ان يعدوه عدوا لهم وكما دعاهم الى الحركة دعوه الى السكون، وأخذ بهم الى الفزع جذبوه الى الركون، وهم أكثر منه عددا، وأوفر عددا، فلا يمضي طو بل من الزمن حتى يخفت صوته من كثرة الصياح، وينقطع نفسه من الدعوة الى الاصلاح، وتضعف عزيمته، وتضعف جهته، فاذا جاءهم عدوهم، وقد خدعهم بوعدهم، وأحسوا بشدة الصدمة، صاحوا ولكن صياح الثاكلة العاجزة، تنفس الصعداء، وحسرة تصعد الى السماء، لكن مع القعود في المساكن، والخلود الى أخس المنازل، فينتهي بهم الامر الى الاضمحلال، وما بعد الاضمحلال الا الزوال،

ان كان ما بالامة ليس نوما فيزول بالايقاظ، ولا غفلة فتذهب بالثنية، وانما هو خدر شلت به الاعصاب، وذبلت به العروق، فاذا يكون فعل الرجل الكبير؟ يجهد عقله في البحث عن الدواء، ويستعمل ما لديه من قوة في معالجة الداء، وهيات ان يشعر به المريض بل هو تارة بضحك ضحك المستهزي، وأخرى يبكي بكاء اليائس، وثالثة يضرب الطبيب بما حضر لديه، أو يديه ورجليه، حتى يقضي عليه،

هذا اذا ذهب الطيب نحو الامة يستعين بها عليها ، ويشفع لها لديها ، فاذا حمله اليأس منها ، على الانصراف عنها ، وتوجه الى صاحب السلطة عليها، والحكم النافذ فيها ، لئله أنه يتمكن من ازعاجها عن موطنها، وسوقها الى ما ينجيها من هلكتها، وذلك قد يكون فان الملوك والرؤساء لهم في الامم ما للجهل فيها ، فكما ان للجهل فيها حكما لا معارض له ، فللسلطان عليها قول لا يرد ، فيمكن للحاكم ان يداوئها بدائها والاستبداد الذي يستعمله ليسوقها الى الشر ، يمكنه ان يستعمله فيها ليقودها به الى الخير ، والرتب والمناصب التي يمنحها لمحض الشهوة وطاعة الهوى بسهل عليه ان ينوط بها ما يريد من وسائل المفعة الثابتة والمصلحة القائمة — اذا حدثت الرجل الكبير نفسه بذلك فماذا يجد ؟ يجد مالا سبيل الى شرحه الآن . . . (٥)

اذا فما الذي يصنعه الرجل الكبير ؟ يسمى ويوجد ، ويدأب ويكد ، ثم يموت محروما من ثمرة عمله ، با كيا على خيبة أمله ، ومن للرجل الكبير في أمة مثل أم المشرق يمثل امبراطور اليابان ، أو الامير عبد الرحمن خان ، انصح ماجاءت به الانباء ، وصدق ماروت عنه صحف الاخبار ،

ولكن هل ذلك كله يقضي على الكبير بأن يصغر ، وهل يحكم على العظيم في نفسه بأن يحقر ، كلا فهو انما يؤدى واجبا عليه ، وعلى الله ما وراء ذلك والمرجع اليه ، اكتب اليك هذا ولا أجد من الوقت ما أثبت به ما أجد فان سمح لي الحال بأوسع من دقائق هذه فساؤافيك بأوسع من هذا في بيان أسباب ماالشرق فيه من مساواة الكبار للصفار ، في ضياع العمر وفساد الآثار ،

(يقول جامع الكتاب) انا نكتفي بما نشرنا مما كذب رحمه الله تعالى في الجرائد المصرية من المقالات . وترى في جزء الترجمة شيئا منه قضت الحال بنشره فيه

(٥) قد حذف المؤيد ههنا كلاماً من الاصل في وصف حكمانا هو أبلغ ما كذب فيهم

كتبه ورسائله

طائفة من كتبه الاصلاحية والدينية الى العلماء والفضلاء من أعضاء
جمعية { العروة الوثقى } . ولان ذكر اسماءهم اذ لا حرية في بلادهم

١

لله الحمد على هبته من الاخلاص ومنحته من الانابة اليه ، واشكر الله اليك
على ما وفر لك الحظ منها ، ما أبطأ بي عن مواصلك غفلة عن ذكرك ، أو اهمال
في الواجب عليّ لحقك ، فلي من همتك منه لا يفعل ، ولديّ من مروءتك جميل
لا يهمل ، لكن صرفي القدر الالهي فيما أراد الله ، وصرفتي الى حيث سبقت
مشيئته ، تعاظمت حوادث الشرق خصوصاً مآمال منها نحو الجنوب فشغل الاهتمام
بها مواضع الفكر ، وأخذت صور عقباها بمواقع النظر ، فقلقت من الامر الجديد
ان أكون على مقربة من الضوضاء ، ومسمع من النداء ، لعل الله ينهض بالقول هما
أو يكشف بالبيان جهالات ، فتعرف أنفس ما ادخر لها العمل ، وتلحظ أبصار ما دنا
من الأمل ، وتنبعث عزائم لتناول ما حضر لديها ، وابرأ ما كمن فيها ، فعناية الله باسطة
أ كفها اليهم ، رافعة صوتها عليهم ، وهم في غشية من الجهل لا يبصالحونها ، وغطيط من
الغفلة لا يسمعونها . هذا ما اندفع بي الى بلاد استعين الله فيها على تجديد عهوده ،
والتوقيف على حدوده ، عسى ان يتواصل المتقاطعون ، ويتناصر المتخاذلون ، وما توفقي
الا بالله وما اعتمادي إلا عليه فكانت أوقاتي من فراقك في أسفار ، واليوم سكن بي
قرار ، واني بعد طوافي ببلاد أكتب اليك اليوم من

بلاد بها عقى الشباب تماثي وأول أرض مس جسمي ترابها

غير انه لا يراني من أهلها الا المخلصون ، ولا يعرفني فيها الا العارفون ، وان لك
بينهم ذكراً يلبق بهمك ، ومكانة تجدد بها عزيمتك ، ولقد أبلغت السيد من خبر
صنيعك ما وفر لك شكره ، وأخلص لك سعيه ، ورجائي ان يوافيني من لدنك ما يطمن
به القلب على صحتك ، وما يتروح به الفؤاد من أبناء مساعيك بين الاخبار من

قومك ، أحيا الله بك موات الهم وأقر بك نواظر الفضل وسلامي عليك وعلى
أجلاك وآل ودك والله يديم رعايته عليك والسلام

٧ ج ١ سنة ١٣٠٢

٢

طال المهدي من فراقك ولم يجر القلم بمراسلتك حتى خيل مكان للظنة ومثار
الريب . استغفر الله ، لي من شمائلك روح بروحي ومن همتك قاب بقلبي فلست
أنساك حتى أكون بمنزل عن نفسي ولكن حولتني مهات الشرق عن الغرب
بما رآه المولى السيد من فرصة العمل في هذه الحوادث المتتالية فخليته عوننا لنا
حيث هو وتحولت الى مقربة من معاهد العروة ومكان القوة فكانت المدة
من يوم فراقك متبعدة في أسفار متلاشية في هواجس اخطار واليوم أكتب اليك
من وراء ستار فلا تهملوني من التذكار ورجائي ان يرذالي من قلمكم ما يرجوه
القلب من ودمك وسيدي السيد يهديكم أتم التحية والوسيلة تصل اليكم وسلام الله
عليكم وعلى كل مخلص والله يحفظكم

٧ ج ١ - سنة ١٣٠٢

٣

فارقتك ولم يفارقي مثال من كمالك وضياء من عرفانك واني على البعد عنك
لم أنس ما افادني القرب منك ولي في كل لحظة شوق اليك وفي كل بقعة حلفتها ثناء
عليك ورجائي ان أقال حظا من الاطمئنان على صحتك وسلامي على حضرة السيد
أخيكم ومن سعد بمحبتكم والله يتولى رعايتكم والسلام

٧ جمادى الاولى - سنة ١٣٠٢

٤

أشد ما أجد من فراقك حرمانني من محاضرة آدابك والاقناب من أنوار
فضلك وتعرف الصواب من صائب رأيك وانما يخفف ألم البعد عنك ان أكون
بمكان من فكرك وأصيب حظاً من مراسلتك وجدير بكرمك ان تصل واصلا
وتجيب سائلا . وسلامي عليك وعلى أجلاك الصالحين والله ينفع المسلمين بسعيك
وخالص نيتك والسلام

٧ جمادى الاولى - سنة ١٣٠٢

(٦٢ ج ٢ تاريخ الاستاذ الامام)

٥

أيد الله بك الحق وأعانك على العمل بما وهبك عرفان تنير به أفئدة السذج من قومك وورد به جماح الغاوين من عشائك ويقين في الدين ينهضك اذا قعد المرتابون وشد عضدك اذا ضعف الواهمون ومكانة في قلوب اشياك تمكن الثقة بك والاستمسك برأيك وسمة في البيان تقطع بها طريق الشيطان فوجه عزمك للنصيحة وجادل بالتتي هي أحسن واذا أخذت من أحد بحبل فلا ترسله ومن وسوست له نفسه بالقطيعة فلا تقطعه وصل حبالك وحبال المهتمين بحبل الله وكن على ثقة من الفوز ويقين من النجاح مادام هدي النبي هديك وسمي الاصحاب صعبك وان أشكل عليك أمر واشتبهت لك المنافذ فاخوانك كثيرون وهم بمعمونة الله في عونك كما انه لاغنى لهم عن الاستعانة برأيك ومقامي اليوم في بلد ما كنت أحسب الذهاب اليه وان كان أوفر لهنى عليه ولكن مكاتيبك تصل الي ان شاء الله بالطريقة التي تراها صحيحة هذه الاسطر وسلامي على قلبك الطاهر وشوقي للاجابة وافر والوسيلة تصل اليك والسلام ٧ جمادى الاولى سنة ١٣٠٢

٦

أ كتب اليك والله أعلم بما أثبت فضلك في قلبي من الود وما يهيج أدبك في فؤادي من الشوق وبودي لو ان عبارة تحمل ما في نفسي اليك ولكن حكمة الله في قصور العبارات ان يكون الفضل ثقة الكريم وفراصة الحكيم .
قد يكون لك ظن فيما أبطأ بي عن مراسلتك هذا الزمن الطويل من فراقك وحاشا ان يكون تساهلاً في الحق أو ثقافلاً عن فريضة الود وانما هو أرقط الحوادث وثب على أوقاتي فزقتها وغول الكوارث انبسط فيها ففضيقها . من يوم فارتقت ما استقر بي مكان حتى الآن ذهبت الى باريس فماعتدت ان تلقيت من الرأي الجدبد ان أنحوجه الشرق حيث مسيل الحادثات ومخرق الذاريات فررت على بلاد كثيرة منها مدينة (كذا) عملت في جميعها على احكام العروة وتمكين عقودها ثم اصعدت بعد ذلك الى

﴿ بلاد خلعت به عذار شيبيني وطرحت في كف الخطوب عناني ﴾

وأنا اليوم فيه أنعرف الوجوه وأتكر للعيون وأسأل الله نجاح العمل واقبال الامل .
ان لي في حمتك رجاء عرفه المحلصون وهم لتحقيقه منتظرون فادع الى سبيل
ربك بالحكمة والموعظة الحسنة فان فناء في الحق لهو عين البقاء وان نميا في الباطل
لهو الشقاء فاستكثر من الاخوان ونقمهم من الخوان واثبت بهم على أصول الشريعة
وأرجعهم الى سيرة صاحبها عليه الصلاة وأتم التسليم . وليكن القول من مولاي
الصادق تاسيساً لاتدر يساً ولا تكون كلمة الا وغايتها عقد يبرم ورباط يحكم
استغفر الله ان انبه يقظان أو أهدي البيان لمعدن العرفان ولكن ذلك حديث
نفسى لفسى وخطاب قلبى لقلبي ومنّ عليّ بأبنائك وما يكون من آثارك .
أهاني مشهدي منك عن طلبى لترجمة حياتك فلو تفضلت بإرسالها من قلم أحد
تلامذتك لثبتت في صحائفي ذخيرة لي ولخلائفي .

واذا رأيت . . . فنبشه ان قوة الانحاد في الجنوب أفرغت قوة النيران
في الشمال وان نيران القلوب اذابت مدافع الكروب وما النصر الامن عند
الله يؤتاه الصادقين ويوليه المخلصين « ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم »
اما والله ان غالب المسلمون عن تفرق ونخاذل فلن يغلبوا عن ضعف وقلة ولكن
(من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فلن تجدله ولها مرشدا) .

السيد يهديك السلام وقد أخذت في ترجمة رسالته في نقض سذهب الطبيعيين
وعند تمامها أبعث اليك بها فان حسن لديك طبعها في حاضرتمكم فذلك لكم
والوسيلة تصل ان شاء الله اليكم وسلامي على روحكم الزكية وعلى كل نفس صادقة
ورجائي سرعة الاجابة والسلام
٧ جمادى الاولى - سنة ١٣٠٢

٧

تهبني من جلالك بمعني الدنو من كمالك وكل ما عدت من فضائلك .
فهو دون الحقيقة من حالك وغاية ما أعدت لك من نفسي مقاما لم يحله سوك
ومنزلة لم يسم اليها غيرك وما أنا بالمتحار في ذلك وانما فضلك أنزلك حيث شئت
وصرفني فيما اخترت . لأذ كرك بما افرقنا عليه ووجهنا وجوهنا اليه فذلك الدين
وما افرض والحق وما اقرض « ان تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر

لكم والله شكور حلم * قل هذه سبيلي ادعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني
 وسبحان الله وما أنا من المشركين * عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتهم
 منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم * ان الزمن من يوم فراقك كان في سفر
 لم تسنح لي فيه فرصة لأداء حق المواصلة ورجائي في عفو هو أقرب اليك من
 الظنة وأجدر بك من التهمة وان كتابي هذا يصلك من خلوة يستضاء فيها بهديك
 وتلى فيها آيات ذكرك وان هذا الداعي والمخلصين في السير على طريقك يؤملون
 ورود الخبر من جانبك وارجو ان يكون فيما تكتب اليّ شيء من حال الشيخ
 . . . والشيخ . . . ومن وصل اليه سببك وكتبي سر لديك وسيدي الاسناذ
 حيث تركته يهديك أزكى السلام والله يحفظكم برعايته ٧ ج ١ سنة ١٣٠٢

٨

ما قرع حبا اثارته صنائعك ولا خد شوق هاجه ذكري ثنائك ولكن تعس
 زمان شغل يدي وأخذ بأصغري وأكبري حتى أبطأ بي عن مواصلك وقصري
 عن مراسلتك هذه مدة من فراقك نهبتها الاسفار وغالتهامقارفة الاخطار حولتي
 صروف الحوادث عن الغرب الى الشرق حيث يقصد احكام العروة وتأييد القوة
 بالقوة ولي في ذكر حضرة الوالد شأن وفي تعديد أوصافه كما سمعت بين وسيدي
 الاسناذ يهديكم أزكى السلام وأنا في انتظار لنبا منك عن صحتك وصحة السادات
 اشقائك والوسيلة واصلة اليك ان شاء الله وسلامي عليك وعلى سيدي
 وسيدي الشريف ومن تودون والله يتولى رعايتكم والسلام

٧ ج ١ سنة ١٣٠٢

٩

قل ما أودعت نفسي من الود لك وما ملأ قلبي من الاجلال لقدرك ذلك
 أمر من كمال روحك وجمال صفاتك زادك الله قربا اليه وتعو بلا عليه لم أكتأبك
 من يوم فراقك لان المدة تقضت في سفر وانتقال وهذه أول فرصة سنحت لاداء
 حق المودة وفريضة الاخوة ورجائي أنه لا يزال فدرك ما تفارقنا عليه وسبق
 الكلام فيه مرارا وان يرد الي من سيادتك ما يبشرني بسلامة حالك ومجمل

الحاصل من سعيك . قدم سلامي الى حضرات الاميرين الجليلين وسأ كتب اليهما واليك على وجه آخر عند ورود خبر من جانبك ان شاء الله حولتي الحوادث من الغرب الى الشرق لتكون المواجهة أشد أرا من المكتابة وهذا ما عاقي عن مباشرة ذلك العمل المهود في هذه الايام ولكن الحمد لله على وحدة القصد وسلامة الغاية والله يسمعني عنك أفضل ما احب لك والسلام

١٠

وكتب الى صاحب الكتاب (٢) من الكتب السابقة جوابا

لاآله الا الله وحده لا شريك له وبه الحول والقوة

السلام عليكم تحية أخ يهزه الشوق اليكم وبعد فقد تلقيت اليوم كتابك فشممت منه ريح الحمية، والنعرة الدينية، وأرجوان تصل بك بدايتك الى ما يختار الله لك من حسن النهاية ولم يكن ظني في هملك دون ماتينت من عبارتك فليكن سرورك بنفسك ، على قدر شفقتك على ديك . وحركة ممالك للأخذ بيده، وتقويم اوده، فاعا هو الدين المتين الذي أطلق العفل من قيده، وأخذ على الوهم في كيده وهز النفوس الى نسل الفضائل ، ونكب بها عن مشايعة الرذائل ، حتى ساد به الضمقاء ، وذلت لسلطانه الاقوياء ، وسبق وعد الله بان يظهره على الدين كله ، والله منجز وعده لاهله ، وانما خلقنا الله وكلفنا بصرف همومنا اليه ، وتعويلنا في شوؤنا عليه ، وليس لنا من الحق في أنفسنا وأموالنا ، الا ما نبذله في تأييد ديننا ، ولا حاجة لله فبين لم يكن له من نفسه وماله نصيب .

داوم قراءة القرآن وتفهم أوامره ونواهيه ومواعظه وعبره كما كان يتلى على المؤمنين والكافرين أيام الوحي وحاذر النظر الى وجوه التفاسير الا لفهم لفظ مفرد غاب عنك مراد العرب منه، أو ارتباط مفرد بآخر خفي عليك متصله، ثم اذهب الى ما يشخصك القرآن اليه، واحمل بنفسك على ما يحمل عليه، وضم الى ذلك مطالعة السيرة النبوية واقفا عند الصحيح المعقول ، حاجزا عينيك عن الضعيف والمبذول ، واعتبر بما قاسى النبي وأصحابه من الجهد والعناء لنصر دين الله وما ركبوا من المتاعب، وما احتملوا من المصاعب ، على ما تعلم من درجة قربهم الى

الله وغفرانه لهم ما تقدم من ذنبهم وما تأخر. واجعل عيشك للأخرة واستعد لما وعد الله فان سعادة أبدية، لا تنال الا بسيرة محمدية، ولن تنال بنوم موسد، على فراش ممد، واعلم انك محاسب على الدقيقة من أوقانك، واللمحة من لحظاتك، ان صرفتها لاعزاز دينك كانت لك، والا كانت عليك، وارجو ان يكون كل سعيتك خيرا يجعله الله نوراً يسعى بين يديك ان شاء الله. اما ما ذكرت من مسألة الشيخ الصغير فيودي لوتوجه الى الله كل مسلم واعتصم بحبله كل مؤمن فما بالك بشيخ من جمال الوصف على ما ذكرت، ومن علو المنزلة على ما بينت، فان تيسر لك السبيل فتقدم لدعوته وادخل اليه ابتداء من طريق لا يعرفه وتلطف له في القول وان شئت أطلعته على شيء من مقالات العروة الوثقى فاذا انتهيت به الى ما يعرف وأنست منه الميل والرضاء فاما أن يكتب الي واما ان يستعد لتلقي كتاب مني ثم سراع الي بالخبر ثم نبشني عن الشيخ . . . واسأله ان يكتب الي بالعنوان الذي به تصل اليه كتيبي فاني قد أذنت ان أبعث اليه ببعض المواد الاصولية التي يجب اعتبارها أساساً للبناء كما اعتبرها المستمسكون بالعروة في كل قطر ليتحد المسير والى الله المصير ثم انني الآن في بيروت وأقيم بها زمناً فاذا كتبت فليكن العنوان . . . ولا حاجة لما يزيد عن ذلك فانه يصل الي بمجرد هذا العنوان وبادر للكتابة والسلام

١٥ ذي الحجة - سنة ١٣٠٢

١١

وكتب الي صاحب الكتاب (٥) من الكتب السابقة جواباً
لاآله الا الله وحده لا شريك له وبه الحول والقوة

السلام عليكم وعين الله ناظرة اليكم وبعد فقد وصلني كتابك بمحمد منك اخلاصاً طويته واختصاصاً بالله حويته ويشكر منك استعداداً للمائة الله على أمره ومظاهرة لاقامة الحق ونصره ويشفي علي معرفتك ما آتاك الله من الحول وما رزقك من الطول ونزوعك لشرك اياه على ما آتاك بالعمل فيه لا آخرتك ودينك ولم يفتك الاعتبار بقوله تعالى « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنة » : الآية : ولا بقوله « ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب

ولا مخصصة في سبيل الله ولا يطأون موطنًا يفيظ الكفار ولا يناولون من عدو نبلا
الا كتب لهم به عمل صالح ان الله لا يضيع أجر المحسنين ولا ينفقون نفقة صغيرة
ولا كبيرة ولا يقطمون واديا الا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون
ولن يعجز مؤمن وان ضعف حاله وقل ماله ان يأتي واحدة مما ذكر الله فكيف
بك وقد آتاك الله بسطة جاه في قومك تستطيع بها تقويم طباعهم وتهديب عقولهم
وردم الى ما انحرفوا عنه من طريق الشرع القويم وتنبههم لما غفلوا عن رعايته
من طلب الشهادة وعدها افضل ذخائر السمادة وان الله يدا عندك بما آتاك
ولست تأمن مكره في حفظ نعمته عليك لعقبك ان امتت ذلك لنفسك الا أن
تؤدي حق الله فيها ولا تؤدي حقه حتى يكون معظمها منصر فالاعزاز دينه واعلاء
كلمته والجهاد للحق حتى يظهر وفي الباطل حتى يدحر فاوصيك وما أنت بمحتاج للوصية
أن تجعل كتاب الله امامك وأن تأمر له كما كان نبينا وأصحابه يأثمرون له فلم يكفهم
الله دوننا ولم يسامحنا الله دونهم وليس بين الله وبين أحد من خلقه هوادة في
فريضة فرضها أوسنة سنه وايك وتعلات النفوس واهويل الاوهام فانها من
مضلات العقول ومداحض الهلكة وجند الشيطان وليس بينك وبين الحق الا
أن تهتم وتخلص لله همك فتكون يد الله على يدك يؤيدك ويأخذ للحق بك
والله لا يعين خاذله ولا يضيع عملا أخلص له .

الا أيها الشيخ الجليل ان الله قد اشترى منا حياة دينية لو طلبت من عاقل
لجاد بها بلا عوض لقيامها على قواعد الاتعاب وقوائم الاوصاب بدايتها ضعف
ونهايتها عجز وما بينهما خروج من أحدهما دخول في الآخر ما فات من لذاتها
يولد الاسف على فواته وما حضر مشوب بالجزع على ذهابه واللهف الدائم على
تحصيل ما يؤمل منها فليس فيها حال تخلو من الآم وقد وعدنا ديننا حقا أن يعوضنا
عنها سعادة أبدية في حياة أبدية لا يشوب لذتها ألم ولا يمازج صفوها كدر وذلك
عند ما تسلّم له السلعة تامة في نهاية الاجل فان لم تقبل ببيعة الله في ذلك كنا
المغبوتين وان لم ندفع له سلتمته خالصة كنا الخاسرين حياتنا ذاهبة الى الفناء رغما
عنا وليس لنا من امكان للخلود فيها فانظر الى رحمة الله في شرائها منا واجزالي

العوض وتعظيمه حتى كأنه يساومنا ملكا لنا وفي سعتنا ان نستبد به عليه ونمنه مراده منه جلت عظمته ووسعت رحمته الا فلننق الله ولا نبخل عليه بما هو له ولا نفر باملانه لنا ومطاولتنا عليه . فشم عن ساقك وأحمر عن ذراعك واذهب الى الله بخير الذخائر وهو تأليف عباده على الحق واستجاشة قلوبهم للدين وتأليبهم على تلبية داعي الايمان والله يتولى ارشادك في جميع الاحوال . اما حادثة الشيخ فقد مسنا منها مامسه ولم يكن ما وجدنا منه أقل ما وجدته ولم يغب عنا شيء من أطرافها وقد جهدنا فيها ما استطعنا وربما رأيتهم أوسمعتهم بما أطالت به جرائد باريز في المدافعة عن الشيخين وتعنيف الحكومة على ما فعلت وذلك بمحاورة من تعلمون هناك ولقد تنازعتني في هذه الحادثة مسرة وحزن اما المسرة فلأن الشيخ قام على طريق الصديقين يتلقى من الاخبار الالهية ما تلقوه لينال من رضا الله اذا احتسب ما نالوه واما الحزن فلما عسى ان يكون قد خالط قلبه من ألم المحنة والاسف على المصيبة والحمد لله على رجعة من غيبة واسأله وقاينكم جميعا من كيد الفادين وعدوان الظالمين وأن ينزع بخواطركم اليه ويؤلف قلوبكم عليه . وبعد هذا فنبثي عن العنوان الذي به أكتب اليك واخبر الشيخ أن يكتب لي بعنوانه فقد أذنت بان أبعث اليه بعض القواعد التي ينبغي ان يرفع البناء عليها واذا كتبتم الي فلينكن بعنوان . . . وعجل بالاجابة ما استطعت والسلام ١٥ الحجة سنة ١٣٠٢

١٢

وكتب الى ش ي صاحب الكتاب (عدد ٢)

لا اله الا الله وحده لا شريك له وبه الحق والقوة

حضرة الاخ العزيز

ورد الي كتابكم والحمد لله على صحتكم وكنت اود المبادرة باجابتكم من يوم وروده لولا ان رقيمكم صادفني على علة في عيني كانت تمنعني النظر في الكتابة والكتب والله الحمد على ماخف منها . اشتد اسفي على فقد الشيخ الصالح اوسع الله له من رحمته ونفعنا بطيب نيته . اسفا على فقد حمي لدينه مخلص في يقينه وان كان لاسف على من يلاقي ربه بمثل مالاقي الشيخ انتهت ديباه بغضب الشيطان

وافتححت اخراه برضى الرحمن ولولا رجاؤنا في مثل ما أقبل عليه الصالحون لصاقت بنا مازل الحياة وغصصنا باهنا لذاتها وشرقا باعذب كؤوسها اما ما ذكرت عن الشيخ الصغير فقد كان كتابك السابق يشير الى رغبة منك في تعليق الامر بك على انه لو لم يكن فيه مثل ذلك لما اخطأت الظن فيما كلفتك ولم استسمن ذاورم بل على الماي به سقطت وان ظني بك لفوق ما تروي عن نفسك ولكن دع عنك ما استصعبت من الامر واخبرني عن اسم الشيخ المشهور به واسم بلده والقعر الذي تطلب اقامته فيه واكتب ذلك الحرف الفرنساوي الواضح وأستعين الله في مخابرة نفعي بأسلة قلم أولسان رسول ولا يبطئوا علي في الافادة والسلام عليك وعلى اخوانك الابرار والله يتولى اعانتكم والسلام

٢٢ ربيع أول سنة ١٣٠٣

١٣

وكتب الى س . س صاحب الكتاب (عدد ٦)
لا إله الا الله وحده لا شريك له وبه الحول والقوة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبشكم بما كنتم تعملون

كتبتم الي باسكم اجتمعتم جملة من الصادقين وأهل الحمية للنظر في تقويم ديننا والاختذ بما يرضي آلهنا ويقر عين نبينا ثم حدثت بعد ذلك الاحداث وتلك سنة الله في الاولين والآخرين عنه بداية كل عمل صالح مقبول لديه محفوف بالعناية منه ولم يدعي حدث ما حدث عن مخابرة من أنوب عنهم بما كان من اجتماعكم ثقة مني بهنك وصدق عزيمتك فورد لي الاذن بتسمية مجتمعكم وارسال بعض القواعد التي يبندأ بها العمل . واليوم ابث بها اليكم وأملني أن تكون في حرز الصيانة وان تكون مرجع الاعمال ان شاء الله فاذا وصل اليكم ذلك فخذوا عهدكم على القسم المذكور وانتخبوا رئيسكم وعجلوا الخبر بما انتهيم اليه وفضلوا اماء من معكم والقباهم ومواضع اقامتهم وسموالنا رئيسكم وكتمان السر أول (٦٣ ج ٢ تاريخ الامتداد الامام)

وصيتي اليك وهو نهايتها والسلام على أهل العقد الرابع من عقود العروة الوثقى
والله يتولى اعانتكم رسالة الرد على الدهر بين أشرففت على نهايتها من الترجمة وستطبع
في بيروت ان شاء الله ومتى تمت أرسلنا اليكم منها

١٤

وكتب الى ش صاحب الكتاب (عدد ٢)

أيها المؤمن حقا

لأدري هل أخاطبك بالاخ الصالح أو بالابن البار ولكني اعلم انك مؤمن
بلادك هيأك الله لرشادك تلقيت يميني بيمينك وضممت الي يقيني يقينك بارك
الله لك في عزيمتك وحاطك باليمن في نيتك ولقد ائيت في عملك هذا سنة المؤمنين
من قبلك سارعت الي مغفرة من ربك ممتثلا أمر كتابك المنزل على نبيك
وسابقت الي جنة من الله ورضوان .

رويت لي عن صاحبك دون ما أملت فيه ولكني أرى رأيك في استبقائه
والارجاء باليأس منه فلعل بارقة من العناية الآهية تنزع به الي ما هو خير له
ان شاء الله

(ومنه) والله انا لتصفح قلوب المؤمنين في هذا الامر تصفح الناقد مواضع
الضلالة لعلنا نصيب من قلب حكمة أو نستفيد من عقل بصيرة، واننا لنقع في ذلك
أثر النبي صلى الله عليه وسلم وأثر أصحابه ولاخذين بسنته ألحقنا الله بهم . فما باله
يرحمه الله يرضن بما يراه ان كان للحق طالبا ولكن لا تحزن ان الله معنا ولا تيأسوا
من روح الله انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون .

ان اخاد مغرور الي حضيض الجبن فأما رضي لنفسه درك العدم، وأنحدر عن
ادنى درجات الوجود، ولم يزد في حاله أن يكون كأشبه جيناه يفوقون عددا الحصباء
عاشوا في اغلفة من الخمول لا يهندي اليهم لذا كر ولا ينصرف نحوهم شكر الشاكر
هذا بعد أن يكون قد أصاب حظه من انقت الآهية الكامن في قوله « رضوا
بان يكونوا مع الخوائف فطبع على قلوبهم » واني لأشج بمثله عن هذه المنزلة
هداه الله

ذكرت اسم الشيخ القاضي نجبه فلم تذكر ناسيا ولم تنبه لاهيا زاد بذلك اسفي واشتد على مثله لهفي وهمل دمعي وغشي على بصري وسمعي امطره الله غيوث الرحمة وتوفانا على مثل نيته فذلك كان من الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون أو ائتكم عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأؤتكم هم المهتدون . قم على مذهبك وادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن وذكر آيات الله فلأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم .

١٥

وكتب اليه أيضاً هذا الكتاب المطول وهو من أجل كتبه الدينية
لا اله الا الله وحده لا شريك له وبه الحول والقوة

سرفني ما نقل الي كتابك أنك استجبت لربك فيما دعا اليه عموم خلقه بقواه « قل سيروا في الارض » وانما يستجيب اليه أهل الرغبة فيه، ولقد حمدت الله أنك لم تجمل سيرك سير الغافلين ولم تمر على مالا فاك سرور الداهلين بل استعملت بصيرتك ونظرت فيما قام لك من أحوال الناس لتعلم ماذا أبتت الحوادث فيهم من الاستعداد لقبول الحق والميل للرجوع اليه، وما أظهه ذهب عليك، أيام كنت تغاب عين اعتبارك في اطوار أولئك المحجوبين ان ما هم فيه لا يختلف عن عواقب المكذبين الذين يأمرنا الله بالنظر كيف كان عاقبة أمرهم وما أحل الله بدارهم من بوار وما الحق بعد انهم من دمار وما ألقى بذكرهم من عار وشار كيف يختلف الحال عن الحال وانما التاكذيب أترغين يغشى عين القلب فيواري عنها وجه الحقيقة فتمه ظلمة أشبه بظلمة الحسوف نعلو وجه القمر فاذا أظلم القلب وهو مستودع السر الذي به كان الانسان انسانا فقد أظلم الانسان كله، وذهبت قواه تحبب في أفاعيلها على غير هدى وتعسر عليها ان تلزم طريق الحق والصرط المستقيم وهذه الحال كما تراها فيمن يذكر الحق بلسانه ويكذب الداعي اليه بانكار بيانه تراها بينها في هؤلاء الخدوعين الذين يزعمون انهم آمنوا بالله وبرسوله وبكتابه ثم هم في أعماهم وآمالهم أبعد الناس عن سننه وسننه وأشد دم النوا على أمره ونهيه وقد علمت أن الله لم ينظر الى قوم

يقولون بافواههم ما ليس في قلوبهم وأن اليهود لم يفهمهم أن آمنوا بموسى وخلفائه من الانبياء أو بما جاؤا به من الوحي الآهبي ايماناً يحاكي ما يدعيه المسلمون في هذه الاوقات . كان اليهود يعرفون موسى نبيا لهم والتوراة وكتب الانبياء هدايات من الله لعقولهم كما يعرف المسلمون ذلك في كتاب الله تعالى ولكن الله نهي الينا أحوالهم في مزاعمهم فقال « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بشس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين » قد جعل تأويلهم التوراة وصر فهم لألفاظها الى غير ما أراد الله بها وحيداتهم عن العمل بما دعت اليه تكذيباً بآيات الله، وجعل تقضيم ما حملوا من أحكامها مروفاً منها حيث قال لم يحملوها وجعل تصديقهم بها على هذا الوجه بمنزلة احتمال حمار لا سفار فهو في عناء من ثقلها على بئس من فائدة ما أوردع فيها . أفليس هذا النبأ بعينه يحدث عن أحول المتحلبين اسم الاسلام في هذه الايام وأنهم حملوا القرآن ثم لم يحملوه الى آخر الآية ألم يكن في ظلم أهل هذا العنوان وجهودهم عن حدود الله ما يستحقون به تسجيل الضلالة عليهم كما سجلت على اليهود في قوله « والله لا يهدي القوم الفالسين » وأشد الظلم ظلم النفس بعدولها عن سنن الحق . الا يصدق عليهم أنهم نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون !! الا ينمى حالهم « بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى » الا يحكي جهلهم « ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أماني وانهم الا يظنون » أي أنهم لا يعلمون منه الا أن يتلوه تلاوة بغير فهم فان طلبوا شيئاً من المعنى لم يكونوا فيه على بصيرة إن يظنون الاظنا

اني استلفتك الى أولئك الذين يتناولون مصاحف القرآن الكريم بأيديهم خصوصاً في شهر رمضان ثم يطلقون بلو كونه بالسنتهم بزعمون أنهم يتقربون الى الله بترغيمهم ويصعدون الى منازل القرب عنده بنجاتهم وورنين أصواتهم ويجمعون كل همهم في هز وورسهم والتوفيق بين الهزات وتموج النجات وما شا كل ذلك من لواحق الصور والهبئات مما قد يعجز له عرفاء الدين ويستغرب حدوده في المسلمين أهل اليقين بعد النسبة بينه وبين دينهم والمافرة الثابتة بينه وبين مقتضى ايمانهم حتى اذا انصرف أولئك القارئون والنسوا من قلوبهم عبرة مما قرأوا أو عظة مما سمعوا لم

بجدوا من ذلك قليلا ولا كثيرا بل رجع كل منهم الى هواه وأرى الى قييدة نواه وما كان قد احرف عن وساوسه ولا انقطع عما استحكم سلطانا في نفسه من شياطين أهوائه الا في ظاهر ما يرى للناظر واذا سئل أحدهم عن شيء من معنى ما قرأ الذجأ الى الجهل أو خبط في مضلة من الوهم واذا قيس عمله الى احكام ما يقرأه وجدت تباينا كما بين الاسلام والكفر فبالله الا ما اجبتي هل نجد فرقا بينهم وبين اليهود فيما قص الله عنهم في قوله ومنهم اميون الخ الا نتجد الوصول الى الفرق نزر الوسائل متعذر الذرائع؟ ولو سردت من أحوال اليهود والنصارى والمشركين التي قص الله علينا تحذيراً لنا من التدنس بملها ووضعها مع أحوال المسلمين في كفتي ميزان الا ترجح أحوال المسلمين سوءاً على أحوال أولئك الضالين .

أصبح المسلم في هذه الأيام حجة للكافر على كفره وفتنة له بضل بها عما أقام الحق من اعلامه فاذا قيل ان الاسلام خير الاديان بل هو دين الله الذي أخذ به الأمم السابقة فضلوا فضر بهم بأنواع من عذابه في الدنيا واستبق لهم ما لا نهاية له من الشقاء في الآخرة ظهر فيهم بصور مختلفة ثم جاء في أكمل صورته بيعة خاتم الانبياء مستميا لنوره مكلا لأمره لتقوم به الحججة وتوضح به الحججة وأصبح هذا القول بأف دليل كلها أوضح من الشمس وأنفي للشك من ضوء البدر لظلام الايل - رأيت علة واحدة تهدم كل ماني من الادلة رمي : لو كان الاسلام ديناً صحيحاً ما وجدنا أهله المستمسكين به (في زعمهم) على ما نرى من فساد الاخلاق وسقوط المهتم وضلال العقول هكذا أيها الحبيب أصبحنا فتنة للذين كفروا والله يذهبنا على ما صرنا اليه بتعليه ايانا كيف ندعوه اذ يقول « ربنا لا نجعلنا فتنة للذين كفروا » وما كان تعليمه الدعاء الالتوسل بالعمل الى ما نطلب منه ثم ندعوه المعونة على ما تقصد من موافقة رضاه فلو فقه المسلم لا يتعد جهده عما يجعله فتنة للكافرين وجعل وردة ليله ونهاره « ربنا لا نجعلنا فتنة للذين كفروا » ولسكان هم في ان يكون بكماله قذى في عين اعدائه لا أن يكون حقيراً في أعينهم ضحكة لهم في محافلهم .

وتقد حدث في هذه الأيام الأخيرة ان قسيسا انكليزيا هداه البحث الى

شيء من محاسن دين الاسلام فأخذ يثبت ما علم في الجرائد الانكليزية وفي المحافل الدينية في انكلترا الا أنه يصعب عليه ان يعلن اسلامه ويصرح بحقيقة إيمانه لانه يخاف ان تطول اليه أيدي الاعتداء من قومه وهو يدعو الى الاسلام تحت حجاب أنه لا يخالف المسيحية الحقيقية بل هو متمم لها وله فيما يدعو اليه شيعة تنمو في لندرا وبيننا وبينه مخاطبات لتشجيعه وتقريبه من حقيقة الايمان ولا نعلم اليوم ماذا يكون من نهاية أمره وله معارضون كثير من الانكليز وغيرهم واذا تقصيت البحث في جميع حججهم لانه يجد في مقدماتها الا ما يكون راجعاً الى ما عليه المسلمون الآن من الاخلاق والعوائد والأفكار وكلما جاء الرجل لهم بشيء من أحكام كتاب الله أو بأثر من آثار المسلمين الا واين رأيت أولئك الجاحدين يقابلونه بأحكام يعدها المسلمون من حدود دينهم ويعولون عليها في أعمالهم وهي مقصية لهم عن الكمال ساقطة بهم عن أدنى مراتب الرجال فكلمنا ردهم الى الله ورسوله رده الى أحوال المنتسبين الى هذا الدين القويم وهم عاره وبهم يهدم مناره ونحفي آثاره لو بقي في أيديهم أمره غير اني أرى الله سيحول أمر دينه عن هؤلاء الذين لبسوا على أنفسهم وانقلبوا فتنه لغيرهم ثم ينتقم منهم بأيدي الظالمين والصالحين « فان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين - وان تولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » فنيثاً لمن أعد نفسه وسبق نفسه فشحذته وطهرنيته وقوم إرادته واستجمع عزيمة للقاء ركب الله الذي سيفد عليه فيكون اماراجلا في مشاته أوفارساً من كانه أوخادماً في حاجاته أو سيداً في رياساته ولا يكون شيئاً من ذلك حتى يكون الله ورسوله أحب اليه من نفسه وحتى يكون كتاب الله أصدق الشاهدين له لا عليه وحاشا كتاب الله ان يشهد الا لمن لبي دعوته وقبل شهادته ونصبه اماماً في محراب الوجود يتبعه بصره ويحذوه في سيره يقوم اذا قام ويقعد اذا قعد يعظم ما عظم ويحترم ما حقر ويطلق ما يطلق ويقيد ما قيد ثم أقام له من زواجه خطيباً على قلبه وواعظاً يصدع بأمر ربه على منبر له يعلمه اذا جهل ويوقظه اذا غفل ويذكره اذا ذهل ويحمله اذا كسل ويسرع به اذا أبطأ وينهضه اذا تلكأ ويستلثته الى الصواب اذا أخطأ يهديه اذا تحير ولا

يعدو به الخير اذا تخير بردجاحه اذا جمح ويكف من غر به اذا طمح حتى يقيمه على الصراط السوي ويصعد به الى المقام العلمي وكيف يستعمر القرآن قلبا تشغله الالهواء الباطلة وتستوكره الرغائب الزائلة . ان القرآن طاهر لا يجاور الا طاهرا وقويم يأبى ان يساكن جنراا زكي لا يأنس للارجاس علي بأف من مقارنة الادناس فلا عجب اذا استوبل المقام في هذه القلوب المحتشية بالعيوب وتركا وشياطين الوسواس تخبط بها في مخازي الدنيا ومهاك الآخرة .

يا عجب لمن يدعي الاسلام وهو يعرف من نفسه ان أمراً لوجاه من أصغر الحكم عليه بلفة غير لفه لما قرت له راحة، ولا اطمانت به نفس، حتى يقف على ترجمته ولا يكتفي بترجم واحد حتى تكون ثقته به كثقته بنفسه والا راجع ثانيا وثالثا لدقائق المعاني حتى لا يفوته شيء مما حواه امرأ مره فيقع في مخالفته الى غير هواه وكما عظم مكان الأمر اشتد الحرص على استجلاء مراده خشية الوقوع في حداده أو ما يبعث الظن الى التحرش بعناده وقد يكون الامر مما يضره ولا ينفعه ويخفضه ولا يرفعه كل ذلك لبعده عن مساخطه والارتياح الى مرضيه هذا هو يزعم الاعتقاد بأن القابض على ناصية أمره هو الله سبحانه وتعالى وهو المقلب لقلبه والآخذ بعنان ارادته . ثم هذا أمر سام ورد له من علي متعال رب الارباب ومخضع الرقاب قهار السموات والارض الذي لا ترد مشيئة ولا تخالف إرادته . الكتاب المجيد ينجلي به في منازل الرحمة ويستفيض منه ديم النعمة ويقيم به على السعادة اعلاما ويضع لاجنء ثم الكرامة احكاما وبعد المستجيبين لامره هذا هو القادر على كل شيء . ان يمكن لهم في الارض ويخدمهم أهلها ويحملهم الا علين فيها وان تكون عزتهم مقرونة بعزة الله ورسوله وأن لا يبيد سلطانهم ، ما ثبت ايمانهم ، ولم يشبه كفرانهم ، كما قال (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلهم من بعد خوفهم امنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون)

وليس في المواعيد السماوية اصرح مما وعد الله في كتابه المبين ولا أقطم للشبهة

منه ثم زادهم على ذلك نعيماً أبدياً واعدتهم في الخالفة خزياء دنيوباً وشقاء سرمدياً .
والذين يكفرون وسجل عليهم أنهم الفاسقون هم الذين تطهرم النعم قدستر لهم عن
مقامات الشكر ثم تنابهم الغفلة فيعدلون عن سبيل الذكر الحكيم أو من فسق عن
أمره أحل به غضبه وانفذ فيه عامل انتقامه وسلبه ملابس انعامه أما بشقي مثله
أورلي من أهله ثم ضاعف له العذاب يوم القيامة وأخلده فيه مهانا إلا ان يتوب
فيفقره لما قد سلف . ويعلم المحدثون ان صاحب هذا الامر العلي مطلع على السرائر
بأدب لعله صفحات الضمائر ومع هذا وذاك لا يتفهم أحكامه ولا يتبع اعلامه
وينبذ وراء ظهره كأن لا علم له بنهيه وأمره وبمجي نفسه ان ينال ما ادخر الله
لأوليائه اذ قصرت همته عن نيل سعادة الدنيا ليتنعم به في الآخرة شهوة تحول
دونها اعماله وأحلاما تنافي صدقها احواله وما أعجب حال من يزعم الإيمان بالله
ولا تقنى هواؤه في ارادته ولا تضمحل نشزات طبعه لمهاتبه ولا تنضاهل عزائم نفسه
لعظمته ولا يجعل القسم الاعظم من حياته لسعي في مرضاه ولا يبذل من نفسه
وماله مالا يخسره في ماله

حدثني عن اليائسين من علي ق (وذكرك بلدا من قطر المحاطب) واشباههم
فهؤلاء لم يياسوا من الله حتى ساء به ظنهم وما ساء ظنهم حتى انقض ايمانهم
فخالطهم حال القائلين « ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا » . ورويت لي عن أهل
النفرة سكنة ص (وذكرك بلداً آخر) فهؤلاء بقيت فيهم بقية لا بد ان يؤيدوها
بالعمل ولا مكل لما بقي فيهم الا رجوعهم الى الله ورسوله ولن يرجعوا اليه حتى
يكون مزاج وحدتهم وحبل اعتصامهم كتاب الله يهزون به ممهم ويلون به
شعثهم ويشهدون الله انهم نصره في الاحوال والاعمال فينصرهم في مواطن
الجلاد ومواقع الجدل .

ان كنت وثقت بشيخ الاسلام الذي ذكره فخذ العهد عليه وسق اليه ببعض
كتابي هذا أو بكله ان رأيت ذلك ملائنا لحاله والافزدي فيه بصيرة فاكتب
اليه بما يلهمه الله

وافيني بكتبك بما أمكن من السرعة ولا تطي علي بعد الآن والسلام .

وكتب اليه أيضا

لا اله الا الله وحده لا شريك له وبه الحول والقوة

أيها الاخ الصادق ايده الله

طال عهدنا بك لم نر منك كتابا، ولم نثاق عن لسان اخلاصك خطابا، وابطاوك
عنا، مما يقلق الخواطر منا، لا خوفا على ايمانك، ولا ريبه في درجة احسانك، (نعوذ
بالله) ولكن خشية ان يكون عرض لك من العواض الجسدانية، أو خالطك في
الاحوال المعاشية، ما قبض من يدك، أو فت في عضدك، (حمالك الله) فرجاؤنا ان
لا تفوت فرصة تمكنك من سوق خطابك الينا حتى تنتهزها، فان لسكون القلب
بالاطمئنان على سلامتكم قيمة عليا في نفوسنا، فقد لا يخفك أنكم في مكازم مخافة،
ومحل مضيمة، اضطرب عليكم منه القلوب، وتذهب وراءكم في النفوس، وان صادقا
مثلك لجدير ان يحرص عليه، وان تعنى الأرواح بالتطواف حواليا.

كان لكتابك المفصل وقع جميل، ولك على القيام بتعبر برمثله الشكر الجزيل، فليكن
العمل على ذلك المذهب، حتى يصفو المشرب، ويتضح المطلب، ان شاء الله. أما
وصيتي اليك فاقصر منها اليوم على ما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذ
رضي الله عنه إذ قال له «أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث والوفاء بالعهد واداء الامانة
وترك الخيانة وحفظ الجوار ورحمة اليتيم وابن الكلام وبذل السلام وحسن العمل
وقصر الامل (في الدنيا) وقصد العمل ولزوم الايمان والتفقه في القرآن وحب الآخرة
والجزع من الحساب وخفض الجناح واياك أن تسب حلما أو تكذب صادقا
أو تطيع آثما أو تعصي اماما عادلا أو تفسد أرضا، أو صيك باتقاء الله عند كل
حجر وشجر ومدر وان تحدث لكل ذنب توبة المر بالسر والعلاية بالعلاية» اه
هذا جماع من مكارم الاخلاق يعم ما نحن فيه وما وراءه والخير في جمعه. فالدين
بناء وهذه اعراقه ولا يتم اعلاه حتى يتم ادناه ثم لانس قول عائشة الصديقة
رضي الله عنها: كان خلقه صلى الله عليه وسلم القرآن: فقد أبقى الله سبحانه في نبيه
صلى الله عليه وسلم مظاهر من صفات البشرية تبدو لها آثار، تلحظها البصائر والابصار
(٦٤ ج ٢ تاريخ الاستاذ الامام)

ثم حددها في كتابه، وهذبها في محكم خطابه، تعليماً لامته، وارشاداً لتبعية ملته، فكان في ذلك أعظم فخره صلى الله عليه وسلم حيث قال « أدبني ربي فأحسن تأديبي » ولا بركة لنا في شيء من أعمالنا الا باتباع سنته، والسير على المأثور من سيرته، والتحقق باخلاقه والتماس خلاقه، واقتفاء أعلاقه، هذا صلاحنا وهو سلاحنا (ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم - قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) وعلى هذا فليكن دأبك حتى يظهر الله أمره، ويعان سره، واياك والملل، فالخطب جلل، وقضاء الله أجل، ومع هذا كتب من الامير أوصله الى صاحبه حسب رأيك والسلام عليك وعلى كل صادق الايمان ثابت الجنان

٦ صفر سنة ١٣٠٥

١٧

وكتب الى أحد شيوخ التصوف المرشدين م . ت

بسم الله الرحمن الرحيم ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل

في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤوف رحيم

الحمد لله وبه الهداية في البداية، وهو الغاية في النهاية، والصلاة والسلام على سر

العناية، وحقيقة كنه الولاية، وآله حماة الدين، وأصحابه الهداة الراشدين

أما بعد فان من نعم الله علىّ، ولطف احسانه اليّ، ما أودعه في فطرتي،

من الميل الى الخيرة من أهل ملتي، فلا ازال لهم طالبا، وفي الصلة بهم راغبا، خصوصا

من تجمعي بهم وحدة التربة، وتضميني اليهم جامعة النسبة، وقد بلغت الي شهرة

عرفانكم، ومارفع الله في مقامات القرب من مكانكم، فألهمت ان افتتح اليكم باب

التعارف، وشنشنة المؤمنين التواحم والتعاطف، اقال صلى الله عليه وسلم « ترى

المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم مثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى

له سائر جسده بالسهر والحمى » واما الاخوة التي عقدها الله بين المؤمنين، وان

أهملت عند كثير من الغافلين، إلا انها لم تزل والحمد لله تلحظها بصائر العارفين،

وتصبو للاعتصاب بها قلوب الصادقين، فانما الاخوة مظهر سر المحبة، والمحبة

تجلي سرّ الجذب الالهي الذي يجمع الله به أرواح الصديقين الى حضرته

القدسية - هذا الى ماناط الله بها من قوة التعاون قال صلى الله عليه وسلم « من

أراد الله به خيرا رزقه خليلا صالحا ان نسي ذكره وان ذكر أعانه « وكما يكون التعاون والامانة ، يكون والاقطار نائية ، وخير المعونة ما عاد على الارواح ، بتزكية وصلاح ، ولا أعود على الروح من علم تستفيده ، أو نصح تستجيده ، أوصلة بين متحابين تأنس اليها ، ووحدية بين متواصلين تعول عليها ، وأرجو ان يجعل الله في مكاتبتنا بركة ذلك كله ان شاء الله فسر كم ظاهر ، وضيأر كم باهر ، ومبلي اليكم غير معلول ، واهتمامكم بالاجابة مأمول ، واذا كتبتم الينا فليكن عنوان ظرف الكتاب . . والله ينفعنا بالتواد ، ويبلغنا به غايات المراد ، والسلام عليك وعلى من يرتبط بهدك ورحمة الله

١٨

وكتب الى أحد العلماء جوابا عن كتاب له يقول فيه انه فهم من قسم الجمعية انها تدعو الى مذهب الظاهرية

لا اله الا الله وحده لا شريك له ويده الحول والقوة

ثم وصلني كتابكم وكتاب أخي الفاضل محمد ش وقد آسفني والله يعلم ما بلغ الاسف مني خبر وفاة سيدي الشيخ والدكم الا ان ذلك مصير لا بد من الانتهاء اليه ، وان عظم الاسف عليه ، وفيما عند الله سلوة الابرار . اماما ذكرت في كتابك من اسم الظاهرية فلم يكن ليخطر على بالي توجه فكركم اليه فان المذكور في القسم تحكيم كتاب الله في الاخلاق والاعمال بلا تأويل ولا تعليل ومن الظاهر البين ان المراد من الأعمال عزائمها من الجهاد في الله حق جهاده وبيع النفس في مرضاته والسعي لاعزاز دينه والقيام بحفظ أوامره ونواهيه التي يكفر جاحدها ويفسق الحائذ عنها ويشهد بذلك اقتران الاعمال بالاخلاق فكيف ذهب خاطر سيدي الى العقائد أو أعمال الفروع وليعلم سيدي اناسنيون أشعريون أو ماتريديون واننا في أعمال العبادات دائرون بين المذاهب الاربعة فمن المالكي والشافعي والحنبلي والحنفي وفي المعاملات على مذهب حاكم البلاد ان وافق واحدا منها فان كان على غيرها توقفتنا المراقبة اليه ما أمكننا وانما ذلك القيد ليخرج الداخل معنا من حكم قوله تعالى ﴿ يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ﴾ وليمتاز المؤمنون بالكتاب

عن الذين يزعمون الايمان به ولا يأخذون بشيء من أحكامه الا صوراً من الاعمال لا ينظر الله اليها ، وأولئك قوم عرفناهم وعرفتموهم يهونون على أنفسهم ضيم الدين لا يحزرون لذله ولا يعملون لحايته ويتعالبون بالياس ، ويحسجون بالياس ، يفرون من الله فيما ألزهم عمله ، ويسألونه المعونة على ما ناهاهم عنه ، ويركضون في ذلك الى التأويل والتفسير ولو أن شيئاً من المكروه أصابهم لرأيتمهم يطبلون الأحران ، ويحشدون الاشجان ، ولو عن لهم حطام من الدينار رأيتهم يشدون المآزر، ويشعرون عن السواعد ، كأنهم للدين خلقوا وكأنهم فيها يخلدون

لعل في بياني هذا كفاية ، ولو وسع الوقت أطول منه لأنتيت بما تملك تلاوته ، وأما ما ذكرته في أمر المواد من أهالات توافق بلادكم فلم أعرف له سبباً فإنها مواد عمومية جرب العمل بها في أقطار مختلفة والحمد لله صادفت نجاحاً . فان كان ذلك كما ذكرتم فابشروا بها التي في أول بوسطة ، وأقسم عليك بالله الآخذ بناصيتي وناصيتكم ان تنقلوا لها صورة ، ولا تنسخوا من موادها مادة ، لأردها من حيث جاءت ، ثم ابشروا التي بما نجدونه موافقا لكم لتطلع عليه فان رأيتناه . موافقا سألناكم إقراره والسلام عليكم وعلى من يتصل بكم

١٩

وكتب الى بعض أعضاء الجمعية في بعض الاقطار الخارجية

بسم الله الرحمن الرحيم

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق) ذلك الذي وفد اليكم من القسم الذي سماه رسول الله صلى الله المنافق العليم اللسان وهو جاسوس للحكومة القائمة في دياركم فاحذروه ولكن ليكن حذركم حذر الحكما لا يتدين منه علمكم بحاله ، وتحفظوا منه كل التحفظ وإياكم ومكاشفته بشيء مما أنتم عليه ، فلقد وجدته يدنو من السيد أيام إقامته بياريس ويسعه من السيد لين جانبه ، وحاجته الى ترجمان في بعض شؤونه ، فلما كثر اجتماعي به تبينت فسادة ، فأقصيته من السيد ، وبعده عنه وبعد أن كان يترجم لنا بعض الاخبار في هداية اشتغالنا بنشر آراء العروة طردته استعاذة من خبث سريرته فنغوذوا منه

تعوذكم من الشيطان حتى يفرق الله بينكم وبينه
 أما قولكم في كتابكم اني كانت الشيخ بتوبيخ فقد راجعت له نسخة الكتاب
 التي كتبت من صفحة كتابي فلم أجدني الاعزبت الشيخ أولاً ثم كشفت له عن
 وجه الشبهة بما استفهم عنه ثم قلت - واني لصادق - انه ما كان يخطر بباله توجيه
 فكره الى الرأي الذي يسأل عنه وما قصدت بذلك والله توبيخاً ولا لوما ولكن
 نبهت على ما أعلم وليس وراء ذلك غاية، وفي الحق اني لو كنت أعلم ان العبارة
 توهم ما استفهم عنه، لكنني وضحت المراد في كتابي السابق ولم أحوجه الى الاستفهام،
 هذا ما أردت، ولعل تطويلي في بيان المراد أوهم شيئاً مما قلتم ولست منه في شيء.
 نعم انني طلبت منكم نسخة المبادي ان لم تريدوا اعتمادها وهذا ما بوجه علي
 عهدي الذي أنا فيه

اما عدم ثقة الشيخ بهمة من ذكرتم فيما له الحق فيه، وهكذا أمر هذه
 الامة في جميع اقطارها، ولهذا احببنا الى ما اناة الاضمار، ومقاساة الاسرار، والاستخفاء
 بما أمر الله ان يعلن ويظهر، غير ان القليل ممن يكون على الشرط كثير وقد
 صرحت تلك المبادي بان الرشد والنصيحة العامة من الواجبات على القائمين
 بأمر الحق لتستعد النفوس وتتهيأ العقول وليس في هذا حرج على المتعاطي ولكن
 أهل العتد وهم بمنزلة القوة العاقلة في البدن لا بد ان يكونوا على الشروط المعروفة
 عند أصحاب الرابطة فسلموا على الشيخ سلاماً طيباً وأكدوا له انني لم أقصد في
 بيان السابق شيئاً مما أوهمته العبارة واني أعيد نفسي من توجيه الائمة على من
 من دون منزلة الشيخ من أهل الايمان الصحيح وأعود الى تحذيركم من الجاسوس
 الجديد فلا بد قطعكم بظاهره الى علم شيء من سر أركم والله يتولى رعايتكم والسلام

٢٠

وكتب الى ش وهو من أجل كتبه وأحاسن مواعظه

لا اله الا الله وحده وبه الحول والقوة

تلقيت رقيبك على قلق من تباطى، أخبرك، فقر خاطري بالاطمئنان على صحتك،
 تأكد الثقة من خلوص ارادتك وما كنت لأرتاب في عهدك بعد ما أعطيت ميتي

بيمينك وأنت مؤمن قد جعلت الله عليك وكيلا . لو عرض لي الشك في وفائك
 لكان غمزا مني على إيمانك ، وأعوذ بالله أن أغمز على مؤمن وهو مخلص في إيمانه ،
 أما حنوي عليك ، وإحفائي السؤال عنك ، فهو مما توجه به عليّ صلتني بك والارتباط
 بميثاقتك بل ذلك أهدى الحقوق عندنا وأوجبها في ذمنا وما أنا بالمتفضل في أدائه ،
 وما أنا بمنجاة من اللوم ان قصرت في إيفائه ، ستعلم الحقيقة من هذا اذا سنى الله
 لعصابته ان تظهر ، واذن لها أن تسفر

بعد هذا هل أنت على ما أوصيتك سابقا من مداومة النظر في كتاب الله
 ووعده ووعيده وقصصه وعبره ؟ هل ذهبت بنفسك الى ما قبل ألف وثلاث مئة سنة
 ووقفت بين يدي سيد النبيين ، وهو ينلو كتاب الله على خالص المؤمنين ، فسمعت
 كما سمعوا ، وفهمت على مثال ما فهموا ، وزججت برحك في مجامع تلك الارواح الطاهرة
 التي آزرته وآوته ونصرته ؟ هل خرقت حجاب المحدثات وفرقت ستائر البدع وخالطت
 أهل النور وصاغت قوما صدقوا ما عهدوا الله عليه ؟ ان لم تكن فعلت فاليك
 ان تفعل والوسائل متوفرة لديك — عقل وحسن يقين وكتاب الله فيه تبيان كل
 شيء وفيه سيرة نبيه صلى الله عليه وسلم والذين معه (محمد رسول الله والذين معه
 أشداء على الكفار رحماء بينهم — إنما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم
 وإذ تأتيت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون) الذين يقيمون الصلاة
 وما رزقناهم ينفقون)

لا يميل بك عن طريق الحق قلة السالكين فيه ، فوالله اني لأرى المؤمن في
 جيش من يقينه ، وحصن من ثقته بربه ، يثبت بهما في المزالق ، ويدراً بمنعشوما
 غائلات الممالك ، وانه لفرح به اذا حزن الناس ، ومبتهج فيه اذا اشتد الباس ، واستحکم
 الياس ، واني لأرى المنافق في مزعجات من وساوسه ، وموحشات من خسائسه ،
 كرشة في مهب الريح ساقطة لا يستقر لها حال من القلق

وانه اسريع الهزيمة ، قليل الغنيمه ، وما كنت لآتي في وصفه شيئا بعد ما قص
 الله عنه في كتابه وكتاب الله حي لا يموت شاهد على الأحياء كما شهد على الاموات
 وما كان المنافقون زمن نزول القرآن ليختلفوا في الحقائق والصفات ، عن أشباههم

من أهل هذه الاوقات، قدوخ من نفسك ما أننى الله عليه ، وتنج بها عما وجهه
باللائمة اليه ، وإياك والأعاليق وفاسد التأويل ، فانها حبال الشيطان ومذهبة
الايان ، نعوذ بالله

كنت سأنتني عن العمل في العقد المالي فأشرت اليك ان تبعث به الينا في
بيروت ثم لم يكن له ذكر في كتبك من بعد وإني أعينك من الضن يسبر مثله
في سبيل ربك ترجو ثوابه وتكتفي حسابيه وأبعدك عن مراحي النداء الآهني في
خطاب قوم (ها أنتم أولاء ندعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ومن
يبخل فاما يبخل عن نفسه والله الغني وأنتم الفقراء وان تولوا يستبدل قوما غيركم
ثم لا يكونوا أمثالكم) ولكنني ألتمس لك من نفسي أعذارا تخيلها الثقة وتمثلها
الحبة فلو علمت الحق فيما أبطأ بك أفهمت القوم عذرك

أما ذلك الشيخ فان نكت فانما ينكت على نفسه وغرته الحياة الدنيا وغره
بالله الفرور، فقطع ما أمر الله به ان يوصل، وواد من حاد الله ورسوله، وباع نفساء،
شريعة بشمن، بنحس، وأضاع سعادة أبدية بمتاع قليل (ان الذين ارئدوا على أديارهم
من بعد ما نبين لهم الهدى، الشيطان سول لهم وأمل لهم * ذلك بأنهم قالوا للذين
كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الامر والله يعلم أسرارهم * فكيف اذا توفتهم
الملائكة يضر بون وجوههم وأديارهم * ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا
رضوانه فأحبط أعمالهم) بشره بأن سيؤخذ من مأمته ، ويزلزل من مسكنه ،
ومن أعان ظالما سلط عليه ، ومن يخذله الله فلا ناصر له ، ولئن أمهل أياما فوالله
ما أهمل ، ولقد كان خيرا له لو ابتعد ولم يعد، وباعد قبل أن يعاهد، ولكنه اقبل ثم
ولى ، وأمسك ثم خلى ، فلصق به عار الغادرين ، وحقت عليه جرمة الناكثين (وسيعلم
الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون) وما ضره لو سالم القوم بظاهره ، وبقي مع الله بباطنه ،
فأخذ حظا من دنياه وحظا من آخرته ؟ هل ظن أنهم أشد سلطانا عليه من قهار
السوات والارض ؟ أم أنهم أفند الى باطنه علما من عالم الغيب والشهادة ، فأعطي
للقوم قلبه ، وأبقى لله سلبه

وكتب الى أحد امراء المسلمين في بعض الاقطار عند تأسيس جمعية العروة الوثقى

لوندرا في ٢٢ يوليو سنة ١٨٨٤ - ٢٨ رمضان سنة ١٣٠١

سيدي الامير الاخير سعادتلوا أفندم حضر تلري

السلام على نفسك الزاكية وهمتك العالية وأفكارك السامية اني عهدت فيك

مالا أتوسسه في سواك لهذا وجهت اليك روجي في هذه الاسطر تندب همتك، اهو

من أحكام ذمتك، لانبتك بما فرض الدين في علمك به أصدق الانباء، ولا أنبهك

لما غفلت عنه عين سواك فاني أجل نظرك عن الإغناء، لا أعرفك بما أوجب الوطن

في صراحة نسبك، وعلو حسابك، ما يلهيك الا حاطة بحقوقه، ولا أذكرك بما نسي

غيرك في شهامتك أنفع الذكري

ساق اليقين جماعة من المسلمين الى السعي في خير هذه الملة المغلوبة

واعتمسوا بالله وليس على الله عزير ان ينجح سعيهم يسعون في ارجاع الوحدة المالية

وتنبية الحاسة الدينية ليتمكن للملة ان تقمي الضيم وتخلص من ائذل ولهم في هذا

السعي طرق عديدة منها ما ندبونا اليه وقد علمت خبره والله الحمد على ظهور ثمرته في

اقطار كثيرة أفلا ترى من الواجب ان يكون لهمتك نفحة في مساعدتهم وتعضيدهم

في سعيهم؟ انت تعلم ان الأعمال العظيمة في هذا الزمان وفي كل زمان تحتاج الى

التضافر في الافكار والتعاون في النفقات كل بما يقدره الله عايه ولست أخشى ان

أقول لك انك سيد القادريين على الامرين لا يخطر على بالي ان يمنك من الدخول

فيما دخلوا فيه بأس، كيف وأنت مؤمن والمؤمن لا ييأس، وقد رأيت العالم وقرأت

التاريخ وشهدت مساعي الأوربيين ووقفت على حقيقة لا يكابر فيها أحد . ان

الكثير من القليل والكبير من الصغير وان النجاح مقرون بالأمل والثبات في العمل

فان لم يكن يقيننا بالله كافيا في حياة آمالنا انه يكفيننا النظر في شؤون أعدائنا وهم

لا يمتازون عنا في شيء من خواص الخلقه وغاية ما عندهم انهم لا يحرقون عملا

ولا يقطعون املا ولا يأخذ أحدهم رهبة في أداء ما يوجب عليه دينه أو وطنه

لأتوهم خيبة في سعي الى همتك، ولا تنصبرا منك في القيام بخدمة ملتك،

بعد ما رأيت منازل بها، واستطلعت ما سيطر أعليها، والله لا يضيع أجر العاملين، اني اليوم في لندرا دعيت اليها مرارا فتمنعت وبعد الاحاح أتيت والمأمول ان يكون في الامر خير

الرجل الذي نالت مصر في عهده ما نالها يحاول الآن ان يعود اليها ولا أظن ان هذا يوافق مصلحة مصر وأحب ان أقف على رأيكم فيه فان جزءاً من عملي في لوندرا متعلق بالسؤال عنه والمخاطبة تكون بالعنوان الآتي الى باريس ومنها يصل الي، سيدي الاستاذ يهدبكم أزكى السلام وسلامي عليكم وعلى من تحبون والله يحفظكم

٢٢

وكتب من بيروت الى القس الانكليزي الذي خطب في لوندرا مدينا محاسن الدين الاسلامي وكان الاستاذ الامام كلف مرزا باقر ترجمة خطابه وصحبها هو ونشرت في جريدة ثمرات الفنون وقد نشر خطبته منها في مجلد المنار الرابع (راجع ص ٩٤٦ منه)

كتابي الى الملهم بالحق، الناطق بالصدق، حضرة القس المحترم اسحق طيلر ايده الله في مقصده، ووفاه المذخور من مواعده

وصل الينا من خطابتك ما ألقىته في المحفل الديني بمدينة لوندرا متعلقا بالدين الاسلامي فاذا للحق نور يلعب من خلال كلامك تعرفه البصائر الباصرة وتشبهه عين العقول النيرة رفعتك هداية الله الى مقام الانصاف فرأيت الاسلام في طبيعته السليمة ووقفت عليه في مزاجه الصحيح فأدرت أثره في النفوس البشرية وعلمت انه أفضل ما بعد الروح الانسانية الى بلوغ ذروة الكمال الأعلى من الايمان ودافعت عنه دفاع العارفين به وجليته للعاقلين في أجل صورة يمكن ان يلحوها بأبصارهم ويتصفحوا دقائقها بأنظارهم ثم دعوت ابناء ملتك الى كلمة سواء بينهم وبين المسلمين وصدقهم النصيحة أن لا يخنقوا المسلمين بتكذيب نبيهم ولا تكفيرهم في الاعتقاد بدينهم ووعدهم ان قبلوا نصحك بإصابة المسيحية في الاسلام ووجود محمد صلى الله عليه وسلم آخذاً بعضد المسيح باعلاء كلمة دينه الصحيح فهذه أشعة نور أفاضه الله على قلبك وآيات حق ساقه الله اليك وإنا لنهنتك على

هذه البركة العظمى التي اخنصك الله بها من بين قومك ونستبشر بقرب الوقت الذي يسطع فيه نور العرفان الكامل فتتهزم له ظلمات الغفلة فيصبح الملتان العظيمتان المسيحية والاسلام وقد تعرفت كل منهما الى الأخرى وتصافحنا مصافحة الوداد وتماقتا معانقة الالفة فتعتمد عند ذلك سيوف الحرب التي طالما انزعجت لها أرواح الملتين

أنت أول رئيس ديني صدع بالحق في أهل ملته وانك لتجد لك مؤيدين وان كثيرا من ذوي الألباب ليجدون في قولك مواقع للصواب وان هذا الأمر الذي قتت به لعظيم الفوائد جم العوائد نحس منه تحرك نفوس أهل الملتين الى الملاقة على صراط الوحدة الحقيقية وانك ان كنت واحدا فكل شيء مبدؤه الواحد ثم يكثر حتى لا يحصره وان كان هذا الفرس الطيب قد أخرج اليوم شطاه فسيؤازره السبي حتى يلفظ ويستوي علي سوقه فيعجب الزراع، وانا نرى التوراة والانجيل والقرآن ستصبح كتباً متوافقة وصحفاً متصادقة يدرسها ابناء الملتين ويوقرها أرباب الدينين فيتم نور الله في أرضه ويظهر دينه الحق على الدين كله وانني لأشك في ان لك الرغبة الثابتة في نشر مذهبك هذا وترويجه بين الامم الشرقية والغربية وقد سعينا في ترجمة خطابك ونشره في الجرائد العربية فان كان عندك مقالات أخرى فنرجو إرسالها لنعمل على ترجمتها ونشرها بين أهل المشرق من العرب والترك وغيرهم ولكن تمام العمل انما يكون بارسال رجال ممن وافقوك في المشرب الصحيح لينشوا مدارس في البلاد المشرقية خصوصا بلاد سوريا وليطبعوا هذا الرسم الشريف في النفوس الصافية من أبناء الطوائف المختلفة فنتمو بركته، وتمجزل ثمرته، وانني على عجزني مستعد لمساعدتك فيما تقصد من تقريب ما بين الملتين بكل ما يمكنني والسلام علي من اتبع الهدى

وكتب اليه ثانية جوابا عن كتاب ارسله اليه وفيه يدعوه الى الاسلام والى الدعوة اليه في انكلترا

عزيزي حضرة خطيب السلام القس اسحق طيلر
كنت في القدس الشريف لزيارة المواطن المقدسة التي أجمع على تعظيمها
أهل الأديان الثلاثة وفيها يرى الزائر كأن دوحه واحدة هي الدين الحق تفرعت
عنها اغصان متعددة لا يضر بوحدة نوعها وشخصها وفردانية منبعها ما يرى في
اختلاف أوراقها وفرج انشعابها ثم يحكم بأن تشابه الثمرة ووحدة لونها وطعمها
قد انحصر في الدين الاسلامي الذي يستقي من جميع عروقها وجذورها فهو فذلكتها
والفاية التي قد انتهى اليها سيرها لأنه يصدق الكل ويعظم الجميع ويدعو
الى التوحيد المحض والفردانية الصرفة التي اليها مرجع الخلائق وان بلغ اختلافها
الى ما يفوت الحصر ويتجاوز حدود النهايات

وبعد رجوعي من بيروت رأيت من جنابكم مكتوباً بعث بواسطة صديقي
جمال الدين بك ووجدتكم تذكرون أموراً كالطلاق وتعدد الزوجات والرق
وتظنون أنها أم ماعليه اختلاف أهل الدينين مع ان أمثال هذه المسائل لا يعدها
المسلمون من أصول الدين ولو اطالعتم على مذاهب المسلمين لوجدتم خير ما تحبون
من ذلك بدون حاجة الى فتوى شيخ الاسلام وللمسلمين فيما دون في كتبهم
ما ليس لهم في فتوى شيخ الاسلام فهذا أمر لا مقام له في موضوع بحثنا وبمحكم
أما أصول الدين الاسلامي فهي الايمان بالله وان محمداً رسول الله وان
القرآن كلام الله فأعظم شيء أتشوق اليه نفوس المسلمين الصادقين ان يسمعوا
التصريح من حضرتكم بقبول ذلك والتصديق به كما أشرت اليه في خطابكم المنعاق
بمسلمي أفريقيا وان يروا علامات التصديق في الأقوال والأفعال (ويومئذ
يفرح المؤمنون بنصر الله) وكل ما تظنه من المصاعب يذلل، وما تتصوره من
الموانع يزول ، ولا أظن يوماً ما او يمر على الانكليز يكون أسعد من ذلك اليوم
الذي يؤمنون فيه بدين محمد اذ يصبح العالم خادماً لهم وجند الله الاعظم ناصرهم
لأهلهم منهم ويتم لهم ما أرادوا من اقرار عين العبيد وارضاء قلوب النساء وهما
ما يدعو اليهما الدين الاسلامي على اتم الوجوه وأكملها . فلهم بنا يا عزيزي الى
الاتفاق على الأصول ليتيسر لنا الوفاق على الفروع والانحداد في الأب ليتسنى لنا

الانحداد في الابن فانما توتى النتائج من مقدماتها ولا توتى المقدمات من نتائجها
وقد سرني كل السرور ما بلغني من انكم استحسنتم ما وصل اليكم من صدقتنا
مرزا باقر وان شاء الله تجدون ما يسركم اذا داومتم مكاتبتة ان شاء الله والسلام
على أهل السلام

٢٤

وكتب الى بعض العلماء جوابا عن كتاب سأله فيه عن انكاره على من
قال ان لفظ الرحيم في البسمة توكيد لفظ الرحمن وانكاره ان يكون في القرآن
ألفاظ زائدة لتأكيد وفيه وصف علماء السوء

حضرة الاساذ الفاضل

أثابك الله على صدق مودتك، ونفعني باخلاص الصادقين من أمثالك، ووقفني
الله ويايك للعمل فيما يفيد هذه الأمة، التي نهكتها البدع، وقتلها الزيف عن الطريق
المنيع، واني أحمد الله على هذه البقية في المسلمين - بقية صالحة في نفوس مستعدة
تشد الحق وتتلسمه فاذا عثرت عليه حنت اليه أمدها الله بالسمي الدائب والغذاء
الصالح حتى تنمو وتكون شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء توتى أكلها
كل حين باذن ربها، لا أزيدك وصية بمزاولة البحث فيما ينقي العقائد من شبه
الاشراك وغرور اليأس والأمل وجرائم التواكل والنكسل ثم نشر ذلك بكل
وسيلة تتمكن منه، ثم بالصبر على ما يقول المقلدون ويهذي به المتكبرون ممن
يلقبون بالعلماء وهم لا يعلمون في مثلهم يقول الله (سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون
في الأرض بغير الحق، وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها، وان يروا سبيل الرشاد
لا يتخذوه سبيلا، وان يروا سبيل النقي يتخذوه سبيلا) ولا يكون كبر في الارض
بغير الحق مثل هذا الكبر الذي ترتديه هذه النصب وتظهر في سرايله هذه
الغماثيل التي ينحلها الناس ما ليس لها ويسمونها بأسماء لم ينزل الله بها من سلطان
وما هو لاء القوم الا أولئك السادات الذين سيقول المغترون بهم (ربنا انا اطعنا
سادتنا وكبراءنا فاضلونا السبيلا) أسأل الله أن يعينك على من يليك ويوقنك
لتأييد كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه

أما مسألة التأكيـد فالأمر فيها سهل وتعلم أنني ممن يكتب ، ويقال ان لي حظاً من معرفة دقائق البلاغة ، وان كنت لا أحسب لنفسي في ذلك حساباً ، ولا أزال استعمل التوكيد في كلامي وأذوق لذته وأعرف موقعه من كلام غبري وأنكر العبارة تخلو منه وهي محتاجة اليه وهو معني من المعاني المقصودة التي وضعت لها في اللغة ألفاظ خاصة كلفظ ان واللام ونحوها

ثم من الالفاظ ما يكون فيه شيء من معنى الآخر فيوتى باللفظين ليوكد أحدهما الآخر بما فيه من المعنى المشترك ثم يزد بهما انفراد به كالسيف والصارم كل هذا لا أنكر شيئاً منه ولكني أنكر الذي ياجون اليه بدون بيان صحيح فيقال كلمة كذا نوكد بدون بيان وجه التوكيد أو لفظ كذا زائد كما يقول الجلال في قوله تعالى (فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اعتدوا) ان لفظ مثل زائد ، تعالى الكتاب عن ذلك ، فالجلال والصبان قالوا ان الرحيم توكيد لظنهما ان لا معنى في الرحيم سوى مافي الرحمن واني أنزه القرآن عما ظنا حتى لو قصد التوكيد فانه يكون بمنزلة الرحمن الرحمن وإنما غير اللفظ لتحلية وهذا ما أبري القرآن منه . والذي صرحت به في هذا المعنى سبقني اليه ابن جرير الطبري فقد صرح بأنه لا يوجد في القرآن كلمة زائدة لغير معنى مقصود وهو الذي عينته

اما احتمال التوكيد والوجه الذي ذكرته فاني لأراه لا نه لاعلاقة بين التوحيد ومعنى الرحمة ولو ذكر جميع الألفاظ المترادفة في هذا المعنى لم يفد شيئاً في نفي التعدد ولم يسبق في التاريخ أن احدا ذهب الى ان الرحمن معبود والرحيم معبود آخر حتى يرد عليه بأنهما شيء واحد ولكن الذي عرف هو قول النصارى في ابتداء شؤنهم باسم الآب والابن والروح القدس وهو في زعمهم ثلاثة مختلفة الأحاد مع أنها واحد فأراد الله أن يجعل للمسلمين فاتحة أعمال تحتوي على ثلاثة معان الأول ذات والآخران صفتان فلفظ الجلالة هو الذات وهو يقابل الآب عندهم والرحمن وصف الفعل المتجدد الصادر من قبض الكرم وهو يقابل الابن لزعمهم أنه منبثق من الذات والرحيم يدل على الصفة الثابتة للذات الأقدس وهي التي يرجع اليها الفعل المتجدد وباعتبارها مصدر ويتجدد وهو يقابل روح القدس فانه

عندهم الصلة بين الآب والابن وان حاولوا ستر ذلك بضروب من العبارات فأراد الكتاب ان يعلمنا كيف نضع التوحيد مكان التثليث ونستبدل بألفاظ التشبيه خيراً منها من ألفاظ التنزيه ولا يفوتنا المعنى الذي محتج بقصده من الآب والابن والروح القدس وهو معنى الرحمة وافاضة النعمة وهذا هو وجه تكرير هذه الفاتحة الكريمة في كل سورة والتدب الى الافتتاح بها في كل عمل ذي بال ولكن غفل كثير من المسلمين عن مراعي اشارات الكتاب فاتوا من عند انفسهم بما ليس من معناه في شيء.

لا أجد وقتاً لطالة البحث فيما ذكرت عن السعد وغيره وأظن ان فيما كتبته كفاية لذكر مثلك وارجو ان لا تنقطع عن مراسلتي والسلام

٢٥

وكتب الى من سأله عن القدر والاختيار واختلاف العقل والوجدان في ذلك

حضرة الفاضل الاديب

وصل الي رقيبك ان كنت لم اعرفك فقد عرفك كتابك ، ودلت عليك آدابك ، والحمد لله على ان في المسلمين من يميل الى منهج الحق من دينه مثلك كثير الله من امثالك ووفقك الى العمل بما تعلم والدعوة الى ما تفهم لم يتخالف العقل والوجدان في مسألة القدر فان كليهما يتفقان على صحة الاختيار ونفي الاضطراب فيما هو من الاعمال البشرية المعروفة ولا يتنازغان في حكم من احكام هذا الاختيار ثم هما يتفقان كذلك في الحكم بان صانع هذا الكون محيط بدقائقه علماً : وهاتان العقيدتان هما ركنا الايمان بالله ورسله وشرائعه ولم يبق الا نزعة من نزعات الوهم تستفز العقل الى اكتناه حقيقة العلم الالهي وليست مما يصل اليه من طريق الفكر فاذا كبح العقل جماح الوهم وقف عند حده وذاق حلاوة الايمان الصحيح والواقع فيما لا مخلص منه من الريب والشكوك اما اختلاف الامم بل الاشخاص في الآراء ووجوه العلم فذلك لازم لطبيعة البشر تلك الطبيعة التي بها الانسان انسان طبيعة العلم من طريق التعلم والفكر مع اختلاف الانفعال بما يرد من الكون على الحس والوجدان وما يستقر

منه في العقل . ولكن ذلك لا يرفع التبعة عن كان خلافه الى باطل لمكان الاختيار والهداية . الى النجدين بتمتضي تلك النظرة نفسها . وقد يعرض للطبيعة عوارض تخرجها عن احكامها قترى الاختبار في عجز عن ترجيح جانب الخير على جانب الشر كتوارث الاخلاق السيئة وليس الوارث مخاررا فيما يرث ولكنه مادام شاعرا بفعله وانه يريد ان يفعله فاختياره هو صاحب السلطة عليه وتبعته لازمة له ولو أنه طلب الادب لتأديب والكلام يطول في تفصيل ذلك ولكن يكفي ان العقل والوجدان لا يختلفان في الحكم بصحة الاختيار وشمول العلم الالهي ونفوذ قدرة الله فيما لا اختيار لنا فيه وفي هبة قوة الاختيار نفسها ولعل ذلك بكفيك . ولو كان عندي سعة في الوقت لكتبت رسالة في هذه المسألة خاصة ولكن الاجمال فيها خير من التفصيل على كل حال والسلام

في ١٨ نوفمبر سنة ١٩٠٢

٢٦

وكتب من بيروت الى مولوي محمد واصل أحد علماء حيدر اباد الدكن (الهند) الذي سأل السيد جمال الدين عن التيشيرية في الهند فأجابه برسالة الرد على الدهريين

حضرة الهمام الفاضل بقية الافاضل ونذكرة الاوائل العالم الفاضل مولوي

محمد واصل

لم يسبق لي شرف معرفتك ولافضل مكاتبتك ولكن تجلت لي أوصافك العلية وفضائلك القدسية في قول اصدق الناس لسانا واثبتهم بيانا حضرة أستاذي السيد جمال الدين أيده الله بعنايته فكنت بذلك اشد الناس تعلقا بمزاياك واشوقهم لنيل الحظ من مرآك وقد كنت حفظك الله كتبت الى عارف افندي ابني تراب تسأله عن اختياري في زيارة البلاد الهندية واظنه كتب اليك بميلتي الى ذلك وترقب الفرصة للمسير اليه ورجائي ان يسعدني التوفيق الالهي ببلوغ الغاية لما أرتقب ولو لم يكن لي في بلاد الهند سوى رؤية مثلك والاخذ بالنصيب من معرفتك لكان ذلك اقوى باعث على السعي اليها واحث داع للاقبال عليها

وقد يلوح بخاطري ان امي . نفسي لذلك في الحريف الاكثي من هذه السنة فتي
 عقدت العزيمة بعثت اليك بالخبر ان شاء الله
 ان مادعوتني اليه في كتابك لعارف افندي من كتابة رسائل في تنبيه الامة
 الاسلامية الى ثلا في امرها ومبادرتها الى جمع كلمتها صونا لنفسها عن التهلكة
 وحفظا لما بقي لها من غول الفناء فذلك عملي ان شاء الله وقد رايت ان اتقدم
 لك برسالة تبين حال العرب في الجاهلية على وجه الاجمال ثم ماساق الله اليها
 زمن فيض الخير بيعة النبي صلى الله عليه وسلم ثم اتقدم بعد ذلك الى ذكر سيرة
 النبي وخلفائه الاربعة ثم اختم الكلام وبعد هذا نأخذ في نشر رسائل ندعو
 بها الى الالفة ونزعج بها عن الخلفة ورجاؤنا في كل ذلك نجاح اعمالنا وصلاح
 احوالنا ان شاء الله

ورسالة النيشرية قد نقلناها الى اللغة العربية و بدأنا في طبعها وقد ترجمنا
 كتابكم الى السيد وكتاب السيد اليكم وقدمناهما في صدر الرسالة ومتي تمت نبعث
 بها اليكم ان شاء الله

ونهج البلاغة قد تم والحمد لله طبعه وسيُرسل اليكم مائة نسخة على حسب
 طلبكم . نبعث بها الى بومباي ثم ترسل من بومباي الى حيدر آباد وثمنها يرسل
 الينا مائتان وخمسون روبية ورق بنك نوط هندي حيث انه لا يتيسر الارسال
 بطريقة اخرى ثم ليكن في علم حضرتكم ان اثمان هذا الكتاب مخصصة للافاق
 في طريق خيري والاعانة على امر عام اسلامي لانريد منها ربحا ولا نطلب كسبا
 والله الموفق ونرجو من حضرتكم دوام المواصلة بتواتر المراسلة والله ينولي
 رعايتكم والسلام



طائفة من كتب ورسائله الودادية

كتب وهو في سجن القاهرة متهما بالاشترك في الحوادث العرابية الى احد اصحابه وهو من اصدق الآيات على علو أخلاقه وسلامة صدره رحمه الله

عززي

تقلدتني اليبالي وهي مدبرة كأنني صارم في كف منهزم
هذه حالي !! اشتد ظلام الفن حتى تجسم بل نحجر فأخذت صخوره من مركز
الارض الى المحيط الاعلى واعترضت ما بين المشرق والمغرب وامتدت الى القطبين
فاستحجرت في طبقاتها طباع الناس اذ تغلبت طبيعتها على المواد الحيوانية أو الانسانية
فأصبحت قلوب الثقلين كالجمازة أو أشد قسوة فتبارك الله أقدر الخالقين * انثرت
نجوم الهدى وتدهورت الشمس والاقار وتفتت الثوابت النيرة وفر كل مضى *
منهزما من عالم الظلام ودارت الافلاك دورة العكس ذاهبة بنيراتها الى عوالم غير
عالمنا هذا فولى معها آلهة الخير أجمعين * وتمحضت السلطة لآلهة الشر فقلبوا
الطباع وبدلوا الخلق وعبروا خلق الله وكانوا على ذلك قادرين * (١)

رأيت نفسي اليوم في مهمه لا يأتني البصر على اطرافه في ليله داجية غطى فيها
وجه السماء بغام سود فثكاف ركاما ركاما لأرى اسانا ولا أسمع ناطقا ولا أروم
مجبيا أسمع ذنابا تعوي وسباعا تزأر وكلابا تنبح كلها يطلب فرسة واحدة هي
ذات الكاتب والتف على رجلي تينان عظيمان وقد خويت بطون السكل وبحكم فيه سلطان
الجوع ومن كانت هذه حاله فهو لاريب من المالكين * تقطع جبل الامل وانقضت

(١) قوله آلهة الخير وآلهة الشر يراد به عوامل الخير والشر وأسبابها
وخرج على الحكاية لخرافات اليونانيين كما يقال اغتالهم الفيلان فيمن ملكوا
بأسباب مادية نجوزا مينا على المعروف من خرافات العرب وبعد بعض المفسرين
من هذا القبيل قوله تعالى « يتخبطه الشيطان من المس » - راجع البيضاوي وغيره

عروة الرجاء وانحلت الثقة بالأولياء وضل الاعتقاد بالاصفياء وبطل القول باجابة الدعاء وانفطر من صدمة الباطل كبد السماء وحقت على أهل الارض لعنة الله والملائكة والانبياء وجميع العالمين * سقطت المهمة وخربت الذمم وغض ماء الوفاء وطمست معالم الحق وحرقت الشرائع وبدلت القوانين ولم يبق الا هوى يتحكم وشهوات تقضي وغبظ يخدم وخشونة تنفذ تلك سنة القدر والله لا يهدي كيد الخائنين * ذهب ذور السلطة في بحور الحوادث الماضية يفوصون لطلب اصداف من الشبه ومقدوفات من النهم وسواقط من الهم ليموهوها ببياه السفطة ويفشوها باغشبة من معادن القوة ليرزوها في معرض السطوة ويفشوا بها عين الناظرين * لا يطلبون ذلك لغاوض يبينونه أو لمستور يكشفونه أو لحق خفي فيظهرونه أو خرق بدا فيرقعونه أو نظام فسد فيصلحونه كلا بل ليثبوا أنهم في حبس من حبسوه غير مخطئين * وقد وجدوا لذلك أعوانا من حلفاء الدناوة وأعداء المروءة وفاسدي الاخلاق وخبثاء الاعراق رضوا لانفسهم قول الزور وافتراء البهتان واختلاق الافك وقد تقدموا الى مجلس التحقيق بتقارير محشوة من الاباطيل ليكونوا بها علينا من الشاهدين * كل ذلك لم تأخذني فيه دهشة ولم تحل قلبي وحشة بل انا على أنهم أوصافي التي نملها غير مبال بما يصدر به الحكم أو يبرمه القضاء عالما بأن كل ما يسوقه القدر وما ساقه من البلاء فهو نتيجة ظلم لا شبهة للحق فيه لان الله يعلم - كما أنت تعلم - انني بريء من كل ما رموني به ولو اطلمت عليه لوليت منه رعبا أو كنت من الضاحكين * نعم حقتني الغم وأصمى فؤادي المهمة وفارقني النوم ليلة كاملة عند ما رأيت اسمك الكريم واسم بقية الابناء والاخوان المساكين تنسب اليهم اعمال لم تكن واقوال لم تصدر عنهم قصد زجهم في المسجونين * لكن اطمان قلبي وسكن جاشي عند ما رأيت توار يخ التقارير متقدمة ومع ذلك لم يصلحكم شرر الشر فرجوت أن الحكومة لم ترد ان تفتح بابا لا يذر الاحياء ولا الميتين *

قدم فلان وفلان (١) تقريرين جملا فيما تبعت الحوادث الماضية على عتقي ولم

يترك شيئاً من التخريف الا قتلاه وذكرا اسماءكم في أمور أنتم جميعاً أبعاد الناس
عها لكن لا حرج عليهما فاني أراهما من المجانين * ولم أتعجب من هذين الشخصين
اذ يعملان مثل هذا العمل القبيح ويرتكبان هذا الحرم الشنيع ولكن أخذني
العجب كل العجب غاية العجب بالغ ماشئت في عجبني اذ أخبرني المدافع غني بتقرير
قدمه فلان (١) الذي أرسلت اليه السلام وأبلغته سروري عندما سمعت باستخدامه
وأنا في هذا الحبس رهين * الى هذا الوقت لم يصلني التقرير ولكن سيصل الي انما
فيما بلغني انه شهادة بأقبح شيء لا يشهد به الا عدو مبين * هذا اللئيم الذي كنت
أظن انه يألم لألمي وبأخذة الاسف الحالي وبيذل وسعته ان أمكنه في المدافعة
عني فكم قدمت له نفعاً ورفعت له ذكراً وجعلت له منزلة في قلوب الحاكمين *
كم سمعتي اقوام هجاء الجرائد وأوسع محرريها لوما وتقريباً واهزأبتلك الحركات
الجنونية وكان هو على في بعض افكاري هذه من اللائمين * كان ينسب فلانا
لسوء القصد اتباعاً لرأي فلان وعارضه اشد المعارضة ثم لم أنفض له عهداً ولم ابخس
له ودّاً وحقيقة كنت مسروراً لوجوده موظفاً فإنا باله اصبح من الناكثين *

آه ما أطيب هذا القاب الذي يملئ هذه الاحرف! ما شد حفظه للولاة ما غيره
على حرق الاولياء ما اثبتته على الوفاء ما ارقه على الضعفاء ما شد اهتمامه بشؤون
الاصدقاء ما اعظم اسفه لمصائب من بينهم وبينه اذني مودة وان كانوا فيها غير
صادقين * ما بعد هذا القلب عن الأيذاء ولولا لاعداء ما شد رعايته للود ما شد
محافظة على العهد ما اعظم حذره من كل مانوخ عليه الذم الطاهرة ما اقواه اقداما
على العمل الحق والقول الحق لا يطلب عليه جزاء وكما اهتم بمصالح قوم وكانوا عنها
غافلين * هذا القلب الذي يؤلمونه با كاذبيهم هو الذي سر قلوبهم بالترقية
وملاها فرحاً بالقدم ولطف خواطرهم بحسن المعاملة وشرح صدورهم بلطف
الجمالة ودافع عنهم ازماناً خصوصاً هذا اللئيم افشرح الصدور وهم يمحرون!!
ونشفي القلوب وهم يؤلمون!! ونفرحها وهم يحزنون!! تالله قد ضلوا وما كانوا مهتدين *
هذا القلب ذاب معظمه من الاسف على ما يلج بالهنة العمومية من مصائب هذه

القلبات وما ينشأ عنها من فساد الطباع الذي يجعل العموم في قلق مستديم وما بقي من هذا القلب فهو في خوف على من يعرفهم على عهد مودته فان تسلموا جميعا بمثل هذه الاعمال واصبحوا من مودته خالين واتخذوه وقاية لهم من المضرة وجعلوه ترسا يرضونه لتلقي سهام النوائب التي يتوهمون تفويتها اليهم كما اتخذوه قبل ذلك سهما يصيدون به اغراضهم فينالون منها حظوا لهم فقد اراحوا تلك البقية من الفكر فيهم . والله يتولى حسابهم وهو امرع الحاسين . آه ما اظن ان تلك البقية تسريح من شاغل الفكر في شؤون الاحبة وان جاروا في تصرفهم ان طبيعة هذا القلب لطبيعة ناعم الخبز اذا اتصل بذى الود وان كان خشنا فصعب ان ينفصل ولو مرزقه خشونته وان هذا القلب في علاقته مع الورداء كالضياء مع الحرارة بما حادث يحدث وايماء كباوي يدق لا يجد لتحليل بينهما سبيلا واظنك في العلم بثبوت تلك الطبيعة فيه كنت من المتحققين *

أي عزيزي

الآن وصلي تقرير التثمين فقرآته بأول نظرة ووجدته كما بلغني وسأرد عليه في بضع دقائق بما يسود وجهه ويحججه ان كان انسانا ولكن تصادف فراغ الخبر من الدواة فساأنتظر بالرد عليه وتتميم رقيبتي اليك بهض ساعات فكن معي من المنتظرين *

رددت على التقرير وكان كل ما فيه الغش والتقرير وذ كرفيه فلانا بأشنع ما يرأخذ به انسان في هذه المسئلة كما ذكره الحيدثن قبله ولكن دفعت ما قاله في جانبه أيضا وأخذت على نفسي كل مسأولة تنسب اليه أو اليكم فاعليكم ان سئلم الا ان تكونوا منكرين * ربما يسألكم (القومسيون) عن معلوماتكم في شؤوني أيام الحوادث فلا يدخل عليكم غش السؤال والارهاب ولكن عبروا عما كنتم تشهدون وتعلمون من أفكارني وأقوالي التي كانت نهراً بالحكومة الفلانية ومن كانوا لها من الطالبين * الى هذا الحد قفوا فان سئلم فقولوا ما نحن بتأويل الاحلام بالمبين * في هذا الوقت وصلي الرقيم مبشرا ببقائكم في مركزكم قفتم ورفعت يدي ورجلي وناديت الحمد لله رب العالمين * وأخذني الأسف على حبس فلاب لكن دل إطلاقه على

حسن حالة الباقين • يا عزي يزني أعود الى ذكر مالا ولتلك التوم كأنما قذف بهم من شاطئ جبل فسقطوا على رؤسهم فغشبيهم من شدة الصدمة ماغشبيهم فقاموا ينطقون بما لا يعنون ويتكلمون ولا يفهمون • ما بالهم يقذفون من افواههم اخلاطا اقذر من البلغم وأمر من الصفراء وكأنما جرعو اجرعة من السم فقلبت امعاءهم فاستفرغت من حلاقيهم اخيث ما يحملون • ما بال دنان قلوبهم تفيض من الاوم اشد من فيضان بثر برهوت تقذف بسائلات بشمة الطعم خبيثة المنظر كريهة الرائحة تضطر معانيها للفرار منها لكن اعضاء التحقيق من زكام الحوادث الاخيرة لا يشمون ولا يفوقون ومن ظلماها لا يبصرون • هل بطل يا عزي ما جاء على لسان النبوات « الانسان أسير الاحسان » هل تقض ما جاء من ذلك « المعروف بذرا الحبة يفرسها في اعماق القلوب » هل هدمت قاعدة « إن الحيوان يقاد بالزمام والانسان يقاد بالصنيعة ؟ » هل كان خرافا ما قرره الحكماء من الفصول الطويلة تقسبا للمحبة وبيانا لفضائلها ومنافعها في الاجتماع الانساني الحديث ؟ هل كان خرافا ما حوته الكتب متعلقا بموجبات روابط النوع البشري ؟ أم صح كله لكن الناس به جاهلون • هل أتأسف ان كنت سباقا الى الخيرات ؟ هل أتأسف ان كنت مقداما في المكرمات ؟ هل أتأسف ان كنت شجاعا في الدفاع عن ذوي مودتي ؟ هل أتأسف ان كنت أيا أغار ان ينسب مكروه او ذل لأولي صلتني ؟ هل استحق العقاب على حبي لبلادي والناس لها كارهون ؟ • كلا والله لن يكون ذلك ولم ازدد في سبيل الفضيلة الابصيرة ولم ازدد في المحافظة عليها الاثباتا ولنن عشت لأصمن المعروف ولأغين الملهوف ولأنقذ الهاوي في حفرة القدر ولأأخذن بيد المتضرع من حفظ الظلم ولأتجاوزن عن السيئات ولأتناسبن جميع المضرات ولأبين لقومي أنهم كانوا في ظلمات يعمهون • ولأظهن الصديق في اجمل صورته ولأجلونه للناس في ابهج حلاله ولأثبتن لهم بهرمان العمل انه فكرك الثاني في روحك الواحدة وأنه جسمك الآخر في حياتك المنحددة وأنه صاحبك اذا طال ليل الكدر وهصباحك اذا أغسق دجى الهموم تستضيء به في حل ما انمقد وتستمعن بقوته في تيسير ما عسر وتذهب به الى أوج المعالي والناس من معجزات الصديق ينصبون •

انني اليوم اعجز من المقعد عن طلوع النخل ومن المفلس عن حرية التصرف
وقد صار سقوط الجاه كمرض يصيب الجميل القاتن فينحف الجسم ويغير اللون
ويقلص الشفاء ويضعف القوى ويقعد عن الحركة ويبعد عن نيل المطلوب ويثقل
على الاهل والعشائر في التمرير ويستمهم ان طال من معاناة العلاج فيصح
المريض منهم في ادنى المنازل وقد كان ربا وهم له ساجدون * يذهب عنه البهاء
ويتكسف من وجهه الضياء وتكره عند الروية عين العشاق وعمجه طباع ذوي
الاذواق وتمحي من جبينه تلك الاسطر الجليلة العبارة الصادقة النسبة الناطقة
بالحق القائلة : ههنا كنز الرغبات ههنا منال الحاجات ههنا ما يروح الروح ههنا
ما يقضي وطرا في الانفس ههنا ما يخشى منه على الارواح والافئدة: فينحرف عنه
السالكون اليه وقد كانوا قبل على آثار غباره يتدافون * وقبسوا على مرض
الجميل مرض صاحب جاه ولا أظنكم بالقياس نجملون *

لكن اقول لكم ان الحوادث المريعة سوف تنسى وان هذا الشرف سوف
يرد ولئن ابت طبيعة هذه الارض بمخستها ان يكون لها من عوده نصيب فليعودن
في بلاد خير منها ولا جذبن الى المجد احبتي ومن الى المجد ينجذبون * كل ذلك
ان عشت وساعدتني صحة الجسم ولا اطلب شيئا فوق هذين سوى معونة الله الذي
عرفه بعض الناس وبعضهم له منكرون * اطلت عليك الكلام فلا تسأم واغله
آخر كتاب مني اليك في السجن الا ان يحدث حادث يسمح بالكتابة مرة اخرى
فان تلاقينا بعد اليوم كانت المشافهة ازكي والا كانت المراسلة أجل واعلى ولا
تخرج فليس في الامر ما يفزع وهو اهون مما يتوهمون * واسأل الله ان يفض
عنكم ابصار الظالمين ويحفظكم من نكايه الخائنين ويسر قلبي بالطمأنينة عليكم
وعلى سائر الاخوان والابناء اجمعين

٢

ومن كتاب له الى السيد جمال الدين عقب النبي من مصر الى بيروت
أوتيت من لديك حكمة أقلب بها القلوب وأعقل العقول وأذل بها شوامخ
المصاعب وأنصرف بها في خواطر النفوس . ومنحت من لديك عزمة أتعت بها

الثوات وأصدعها شمس المشاكل وأثبت بها في الحق حتى برضى الحق . وكنت
أخفن أن تدركني غير محدوده ومكثتي لامبتوتة ولا مقدوده فاذا انا من الايام
كل يوم في شأن جديد تناولت العلم لا أقدم اليك من روحي ما أنت به أعلم فلم أجد
من نفسي سوى الافكل والقلب الأشل واليد المرتعشة والفرائض المرتعهه
والفكر الذاهب والعقل الغالب

(ومنه) اني يا مولاي لا أحدثك عن شيء مما أصابنا بعد فراقك فقد تكفل ببيان
أخي العزيز ابراهيم افندي اللقاني سوى ما تركه في كتابه من انقلاب بعض القلوب
من خاصتك ونحول أحوالهم بعد نزول ما نزل بك فقد تغلب أعوان الشر وانصار
السوء بقوة جاههم وشدة بأسهم فأرغموا العقول على الاعنقاد بالمحال وألجؤوها
للتصديق بما لا يقال حتى انهم غيروا قلب دونلور رياض باشا عليك وعلى
تلامذتك الصادقين أياما معدودة ركن فيها للعمل بالثدة والأخذ ببادرة الحدة
لكن لم يلبث ان وصلنا اليه وجلوت الأمر عليه وكشفت له ما أغض من الحقيقة
حتى زال ما لبس المبطلون وبطل كيدهم وما كانوا يعملون ونزلت عنده منزلة
حسدني عليها الكافة من العلماء والأمرء ورجال الحكومة وقعدت من كل أمير
مصعد النفس فلا ينطق الا بما تريد حكمتك ولا يعمل الا ما تشاء ارادتك
فكأنك وحقت كنت بين أظهر المعمر بين ساعيا فيهم الى مقاصدك العاليه طالبا
بهم اوج السعادة وذروة المجد والفخار وهكذا ضمت الي كل من كان يناسب
اليك صادقا في الانتساب او كاذبا حتى اني لم أتأخر عن مساعدة أولئك الاشقياء
الأدنياء وأمثالهم من اللثام تحسينا للظن وايثارا للجانب المفقو فأصلحت لهم
القلوب وفسحت لهم من الصدور وفتحت لهم ابواب التقدم الى المنافع الغزيرة
لكنهم لم يرعوا ودا ولم يحفظوا عهدا ولا حاجة الآن الى إيضاح ما صدر عنهم
خيانة ولو ما وألفت لحبك ممن حرم التشرف بلقائك قبلا ليس بالقليل
يجلون قدرك ويعرفون لك فضلك وكنا واخواننا كما شرح لك ابراهيم افندي
ولكن هذا لم يلهمني عن طلب الانتصار لك وكنت أصل الى ذلك من طريق
مألوف ومذهب معروف ولكن غلبنا على الأمر قطاع طريق الخير اللاسبين

ثياب الانبياء السالكين مذاهب الجازين اتحلوا طريقنا في الدعوة الى الحرية
وتمكسوا بقوة السيف وضعف الحكومة من إقناع العامة بكونهم دعاة الحق وحماة
القانون وكأروا في بداية أمرهم أشد الناس تعصبا عليك وعلى تلامذتك واشتد
مهمهم في التعصب أولئك الاشرار الذين قدمنا ذكرهم عند مارأوا بعض رجال
الحكومة يميل الى أهوائهم ويمدحهم في بعض غيهم ولم يدم ذلك الا قليلا حتى
محصنا من قلوبهم وجلوونا عن بصائرهم فكادوا يشيرون ضياء الحق لولا أن
أدركتهم ظلمة النفي والغرور ومع هذا فكنا نستعملهم لما نريد ولناية ما نحب بقدر
الامكان والاستطاعة الى أن غلبت عناصر الفساد وعم الاختلال فطلبنا بأوثق
الثابرين ان تخلص البلاد من الشقاء وينقذ العباد من طول العناء ورجونا تأييدهم
على ذلك من سكان الارض والسماء وكدنا نذكرك به خلاصا حسنا وانتصارا
شريفا لكن لسوء البخت كان احمد عرابي على ما وصفه الصابي ابا تغلب بن حمدان
عند ما قاتله عز الدولة بن معز الدولة وهزمه حيث قال فيه « انه لم يلق لقاء الباضع
بالطاعة المعتد من سالف التفريط والإيضاة ولا لقاء المصدق في دعواه في
الاستقلال بالمقارعة المحقق لزومه في الثبات للمدافعه ولا كان في هذين الامرين
بالبر التقي ولا الفاجر القوي بل جمع بين نقيصة شفاقه وغدره وفضيحة جنبه
وغوره قد ذهب عنه الرشاد وضربت يته ويته الأستداد » اهـ

وأزيد على ذلك مع توفر الاسباب وتفتح الابواب وظهور الأمر للعيان
وأجلائه لأذهان الصبيان واجتماع جميع القلوب عليه ونزوع الاهواء على اختلافها
اليه فكان ما كان من العاقبة السوءى وسيرنا في تلك الحوادث نباطويل اذا
أردت يا مولاي ان أقدم اليك به تاريخا ربما يكون مفيدا فأنا رهين الاشارة
ونحن الآن في مدينة بيروت تقضي بها مدة ثلاث سنوات لالذنب جبيناه ولا
جرم اقترفناه فقد قضت حكمتك القائمة منا مقام الالهام في قلوب الصديقين أن
ننال الحق ولنا الحجة الباهرة ونصيب الفرض ولنا البراءة الظاهرة والذمة الطاهرة
وبما ذلك اثر الحق القديم ونتيجة الرأي العقيم ووالله يا سيدي لو فضلنا له من
جلودنا ثيابا وصنغنا له من لحومنا كبابا وصيننا له من دمنا شرابا لما كان لنا مفرا

من غدرته عند قدرته قاتله الله فهانم سالكون في سنك وعلى سنك وكنا كذلك ولا نزال الى انقضاء الآجال ولولا أطفال لنا رضع ونساء لنا طوع آيينا لهم الذل وأنفنا لهم الضيم فأيتنا بهم هنا الى حيث أقننا لكنت أول من تلقاك في مدينة باريس لا سعد بالاقامة في خدمتك وأفخر بذلك على العالمين

ولما أعلم من نفسي وما أتيقن من يقينك وما أبدته أعمالي وأعمالك وأقوالي وأقوالك لا أنكدر مما أشرت اليه في كتابك الى أبي تراب حيث طغنت في ثفتك بالناس أجمعين وبالغت حتى سحبت الطعن الي والى ابراهيم افندي وزدت في الطعن فأفذت طغنتك بالدهاية الزرقاء والباية الحمراء اما اختلال ثفتك بالدواهي والبلايا فقد صادف محلا فقد تقضوا عهدك . . .

وما حكم به سيدي على المصرين من سلب الوفاء فذلك قد تتصافر عليه الادلة ونشهد لك ولنا به الحوادث غير أنا لسنا أولئك، فقد اخرجتنا عن طباعنا وحوّلنا نبنا غريبا لا يغتذي بفضاء تلك الارض ولا ينمون بهوائها وانا ينضر حيث يتج له القدر من مثل عناصره ما يقوى به قوامه ويزهر زهره ويحلو ثمره وإلا ذبل ومات أو استأصلت جذوره ونفي الى خارج البلاد

واني أعلم ان كلاي لا يزيد في يقين مولاي شيئا وعدمه لا ينقصه فلنعد عن هذا ونستميح كرمه الواسع ان يمن علينا بنسخة من رسمه الفوتوغرافي جديدة فقد كان عندي نسختان احدهما كانت في بيتي على الوضع الذي قدمت والاخرى استجدا نيا سعد افندي زغلول فاما الاولى فقد أخذها أعوان الضبطية عند ما أودعت السجن وقتشوا بيتي وعد وجود صورتك عندي من سيثاني التي ارادوا وضهها في مجلس التحقيق والاخرى تركتها عند محسو بكم سعد افندي زغلول

ثم بتفضل مرلانا بان يتابع اينا ارسال ما ينشره من الفصول السياسية والادبية في الجرائد ايّا كانت فقد أعدنا دفاتر كثيرة لنقل ما يوجد منها في أي جريدة وكتبنا مانشر في النحلة وأول مانشر في البصير وانا نبحت بغاية الدقة عن مقالة «الشرق والشرقيون» ولم نجد لها الى الآن ثم نرجو ان تمن علينا بأسطر من قلبك الشريف نحفظها حيث نحفظ صرك ونودعها حيث اودعنا محبتك والله يحفظك

ويشم مقاصدك والسلام

٣

وكتب بعد استقراره ببيروت الى بعض الشيوخ ولعله الشيخ علي القبي

سيدي الاستاذ الاجل

الله حالي مع الشيخ !! وجدبه مستعز وشغف بحبه مستمر وعهد هوى اليه
مستقر وهوبي لا يستقر شغفت من الشيخ بأخلاق زهر ومكارم غر ومرآت
حدر وفضائل غزر ذلك الحسن الذي لا يكسف والجلال الذي لا يكشف فاذا
عشقتك فلست بالغالط وان لمحتك بحبي فما أنا بالخابط تملقت بها الأنفوس وهو
لدي الأعز الانفس ومشربي في ذاك اصفي المشارب وللناس فيما بعشقون مذاهب
انا نني عنك تباين الديار وادناي منك دوام التذكار كلما خلوت بنفسي تاملت
لباطن حسي فروحي اليك آمنة ومن قرب اللقا غير آيسة فان فاءت من غيبة
الفكر وأفاقت من سكرة الذكرا عاودتها وحشة الفراق وانتابها قلق الى التلاق
فان تحفتها عنايتك وتفتتها رعايتك بكتاب تلحظه أو خطاب تحفظه كان ذلك
أشنى لدائها وانجم دوائها وبعد فانا اليوم ببيروت في فضل من الله أشكره وجميل
احسان اذ كره ولا أنكره ومقامي عندهم محفوظ ومكاني بين التوقر ملحوظ
غير انه لا يسوى بقومي قوم ولا كيوم وطني يوم ذلك الوطن الذي أنبتك
وغذت عناصره نبعثك لاريب انه منبت الكرم ومخيم لأطهار الشيم الموت فيه
بقاء والحياة في غيره فناء ولكن كان حالي كما قال الاموي

أعز المات وذل الحياة وكلا أراه طعاما ويلا

فان لم يكن غير احدهما فسيرا الى الموت سيرا جميلا

هذا الى ان ينجح الله سعيكم ويؤيد في أمري رأيكم فباط الأذى

ويلقى القذى وتمحص الصدور ويرأ برقياءكم المصدور هناك يعرف النخيل

أهله ويصل الفرع أصله

٤

وكتب من بيروت أيضاً الى بعض الكبراء جواباً عن كتاب منه يذكره فيه بالصبر في تلك النسبة

ما أفضل الفضل من مبادئه وما أكرم الكرم من مناقشته وما أكبر التواضع من الكبرياء وما أعلى التنازل من الأعلیاء جات مكارم مولانا عن التقدير وفاتت فواضله حيلة التحرير توجهت عنانته الى ضعيف في وجده عارف بقدره واقف عند حده فأحسن اليه بأمر كريم من رفته يكسوه من الوصف حلة بهاؤها بسديها ويوليه كرامة سناؤها بمهديها وما هي الا كلالته تبدو مظاهرها وكرامته سجايها تظهر على المحلصين مفاخرها والا فليس لهذا الداعي ما يستلفت نظر دولته ويستقبل وجه كرامته اللهم الا الاخلاص في ولاته والاحتساب على آلائه وما استواء مولانا على منصة أشرف به على النظر فيما يوجب كدناستي اليه ويقوي استنادي عليه فأرجو الله أن ترتقي بي الى أعلى ما يؤمل مثله بمثل فضله حتى يعم فضله المئتمرين الى جنابه والعاجزين عن التقرب من رحابه وقد أرشدني كرم مولانا الى الاعتصام بالصبر وانتي فيما أرشدني اليه على نحو ما يقول سابقى الى مثل حالي

تعودت من الصبر حتى أفنيت فأسألني حسن العزاء الى الصبر

فالحمد لله على توبيخي الأخذ بارشاده ووقوفى عند حدمراده فلا زال يحبي القلوب بحكمته كما يحبي نظام الأمة بعداته والله يتولى مشورته على احسانه كما يكفل له في العالمين اعلاء شأنه ورفعة مكانه

٥

وكتب وهو في بيروت جواباً عن كتاب لصديق

لك في قلوبنا من الود ما يدركه سناؤك، وفي مناطقنا من الحمد ما يوجبك كالك، وفي صدورنا من الاجلال ما يرفعه بهاؤك، ما بيننا من المودة لا تحده مدة، ولا تخلق له جدة، نعيذه من حاجة للتجديد، واستدعاء للزبد، فلا مواصلة تربيه، ولا الماهلة توديه، نعم ان ما تحفظ لك في الانفس هو تجلي فضلك، ومثال علانك ونيلك، وذلك الخالد بخلود الارواح، الباقي في تفاني الأشباح

تلقيت منك كتابا يبوح بسر المحبة و ينشر طي الصداقة فيه تبيان وجدانك
مما وجدنا وتأثرنا على ما فقدنا فكان نبأ عما نعلم وقضاء بما نحكم ولكن شكرنا
لك فضل المراسلة وأريحية المجاملة والله يتولى إيفاءك مشوبة تكفي وفاءك

٦

وكتب من بيروت الى صديق له من رجال الدولة العظام الذين كان يرجو
منهم الخير للدين والملة

وصل الله بالتقوى حبلكم ، وأعلى بصدق الايمان محلكم ، يعلم الله آني وان
فارت عطفوكم لم يفصلني البعد الجثماني عنكم ، وان بانت بي الاماكن ونبت بي
الأقطار لم أبن منكم ، فلقد يسمو الايمان الصادق بأهله عن مضاجعة الطبيعة فلن
تصل اليهم آثارها وينفر بهم عنها فلا تخالطهم أوضارها فتأخذ الارواح حكمها
وهي اذا تعارفت جواهرها تواصلت سرارها ولم تبال بالاجسام ومصابرها

لم يزل يلمع لي بارق من سر ذاتكم الطاهر وهدر آنا بعد أن شارق من مطلع
يقينكم الزاهر ويتمثل لي كلما نزع في القلب اليكم مثال من مزاياسعادتكم ويبدولي
عند الوحشة مؤنس من خصائص عطفوكم فأنا من معاني حقيقتكم في بقعة من
عالم المثال أهوبها عن هذا العالم عالم الخيال اراكم بين من رأيت من حكم الزمان
كوكبا بين أجرام اكون ان كان لها ضياء تضال لضياته أو كان لها سناء تساقط
دون سناته فالله يحقق نسبتكم اليه ويمتكم باخلاص الاقبال عليه تلك السعادة
لانفضلها زيادة ولا أتقدم الى سعادتكم بالرجاء بشيء مثل ما ارجوكم في النظر
لاصلاح قلوب الاهالي بالثرية الزكية على أصول المعارف الصافية فلابقاء للدين
الابها ولاوقاية له الابفوس أربابها ولاسعي عند الله أفضل منزلة من السعي الى
مثل هذه اغاية ولا أجل عاقبة لديه مثل الانتهاء الى مثل هذه النهاية

ثم أرجو العفو عن تقصيري في عرض عرضتي على انظار عطفوكم في المدة
الماضية فقد كنت بعد مفارقة القدس في أمراض لم أزل الى اليوم في معالجتها وأتم
اكرم من قبل العذر واستقبل بالعفو جزيل الأجر والله يمدكم بإمداد توفيقه ويحفظكم
على المهجة من طريقه

٧

وكتب الى من اكرم وفادته وخطب مودته

لو كان في الثناء وملازمة الدعاء وحفظ الجليل والقيام بالخدمة جهد المستطاع ما بنى بشكر من يفتح باب المحبة ويبدأ بصنائع المعروف لكنت والحمد لله من أندر الناس عليه ولكن أنى يكوز في ذلك وفاء والمحبة سر نظام الاكوان والاحسان قوام عالم الامكان والقائم على كنهه جميعه قيوم السموات والأرض والمتحون لأبواب العرف على هذه النسبة الجليلة منه فليس لي الا أن الجأ الى الله في مكافأة فضيلتكم على ما كان منكم أيام الاقامة بينكم ثم أسلي نفسي عن عجزى بما أخيل ان كرمكم سبروي

سيكني الكريم اخاء الكريم ويقنع بالود منه نوالا

وبعد هذا أرجو عفوك عن التقصير في المبادرة الى المكاتبه لأنني شغلت بما شغلني عن نفسي ولكن زالت العوارض والحمد لله وفاتني لهذا العذرتين ثم بالعيد وانما لاؤ من كل يوم بربه عيد فتهنئتم برضاء الله عنكم وتقبل صالح الاعمال منكم وسلامي على نجلكم ومن ينتمي اليكم والله يحفظكم

٨

وكتب من بيروت الى بعض الكبراء في الاستاثة جواباً عن كتاب منه

ان خدمت الملة في هذه فما هي أول خدمة وان وفقك الله للنجاح فيها فليست باول نعمة وان شحذت عزمك لاصابة الغرض منها فما هو بيدع منك وان طالت يدك بلوغ المأمول فيها فما هو يبعيد عنك فالله آخذ بعضدك وعمدك الى مقصدك خصوصاً وانت مخلص النية مشرق الطيبة صادق العزيمة شهم الفؤاد اليف السداد ايد الله رأياً افردك في علوه وبارك لك في عزم ميرك بسموه وحقق الرجاء فيك وانغ الامل منك!! حارقلمي لا ادري بأي بيان يدكرك وعلى أي فضل يشكرك على صدق في خدمتك أو اخلاص لدولتك أو حمية لدينك أو ثبات في يقينك، أو بعد في همتك أو علو في مروءتك أو نازل لاجابة هذا الداعي فيما رجاه وتقريب عمله فيما تمناه كيف يوافي شكر ذلك بان أو تصيب الغرض منه اسلة لسان

وافاني كتابك يفوق الغيث في بركته والربيع في نضرته كيف لا والحق في طبه والفضل في ثنئه . وابن ما تربوه الاشباح مما تمنش به الارواح وابن نضرة الحقول من بهاء العقول هزمني بعد السكون واظهر مني بعد السكون وفتح لي الى الامل بابا وكشف غني من الارتباب حجابا فلا زلت يقوى بك العزم ويؤسى بفضلك الكلم أما ما سبق اليه رأيك من تقديم رسالتي (١) الى حضرة علم العلماء وتاج الفضلاء صاحب الدولة ناظر العداية الافخم فكأنما رددت غريبا الى وطنه وارجعت نازحا الى عطنه واثن وقع ما عرضت موقع القبول عنده فاتما ذلك تجلي فضله في مرآة علمه والافصلا ثم القصور ظاهرة فيما كتبت ولوائح الارتباك بادية مما حررت وانما هي نقثات رسمت في صفحات على استعجال خيفة الفوات وما دفعني اليها - والله اعلم - الا يقيني بأن نجاح هذه الامة انما يكون بحسن التربية ولا سبيل الى التربية فيها الا باصلاح معتقداتها وتصحيح ملكاتها حتى تستقيم بذلك اعمالها وتصلح احوالها وان سعبي في هذا من فرائض الذمة بل مندفع مني بياعث العقيدة آتية مجبورا في صورة مختار أو مخنارا في صورة مجبور واني أحمد الله على قوة لا اجدها مادة وهداية لا ارى لتسيير الناس فيها جادة فان وفقني الله الى مادة عمل وجادة خير بسعيك الناجح ورأيك الراجح كانت اعمالك كلها شكرا لصنيعك وكان الله من وراء ذلك خير مكافئ لك على جميل سعيك واما استشهادك بفلان وفلان فاني اعده تفضلا منك في التأكيذ والافمجرد قولك عندي هو الدليل على الواقع والله على ما اقول شهيد، وليكن مني لك الاحترام الدائم والشكر الذي لا ينقضي والله يتولى رعايتكم والسلام

٩

وكتب منها الى بعض الاصدقاء جوابا عن كتاب

سيدي العزيز

وافاني كتاب سيد الاحباب وصفوة الانجاب مبسما عن الدرر النظيم راويا عن الذوق السليم متملا بسناء منسبه معجبا بيهاء مملية جاء بعد ما حل

(١) هي لأئحة إصلاح التعليم التي سبقت في فصل القوائم

منازل الجلال ودار دروة الاقبال ولولا رسل من شوقي اليه تزامت اقدامه اليه فساقت يد الاقدار وقادته قود الاوطار لطل به التسيار « ورح بي » الانتظار وصل الي بعد اثني عشر يوما من تاريخ كتابته ، واني أقسم به لوزاد في غيبته وجاء زاهيا بحليته ، تاثا في جلالة ، متقلدا حسام حجته ، مستشهدا بعدول من حاشيته ، على مانسبت من المطل الى مودته ، لما اقنعني دليله ، ولا الزمني تعليقه ، لقابله بحسابه ، وسكنت من ضبايه ، ولحا كفته محاكة الود ، بين يدي حيي المستبد ، ولجازيته جزاء نافر انعب في الطلب ، وشارد اوغل في الهرب ، ثم غني بحكم القلب ، أومعشوق بديع الجمال ، بالغ في الدلال ، حتى اعبا الخيال ، ثم ابتلي بغرام العشاق ، فابتنى وهو البغية وصل المشتاق ، ولعلت له من اشعة البصر حبالا ، اوسعه بها احتبالا ، فيعز عليه الخلاص ، ويمننح المناص ، فلا يبرح عن ناظري ، مادام ناظري ، ولا برمت له من مبارم العقل عقلا ، اوثق به اعتقلا ، وأزيد في قيوده سلاسل من الفكر خفافا وثقالا ، حتى لا يغيب عن الذهن انتقالا ، ولا عن الخيال زوالا ، وما أشده من جزاء يكون عبرة لما يليه ، فيخشى من توابه ،

علمني كتابك كيف ثناحي الارواح اشباحها ، والجرائم ادواحها ، . أو كيف تحدث العقول افكارها ، والقلوب اسرارها ، ثباينت اجسامنا في عالم الكون والفساد ، وتباعد ما بيننا في كون التضارب والعناد ، وترفعت نفوسنا عن معارك الاضداد ، فتعالينا في جوهر الوداد ، عن الانداد ، فأنحدنا وليس بعد اختلاف ، وامزجنا ولا عن افتراق ، وكان واحدا من صاحبه في مكان الشرف من الفتوة والكرم من المروة والقوة من العدل ، والكرامة من الفضل والعلم من الرشاد والحكمة من السداد واستغفر الله ان أكون منك في مقام الاستاذ ففقاوت النسب نوع من الجذاذ لم يزدني كتابك يقينا بما أعلم من كرم طبعك وامتيازك بفضيلة الوفاء بين قومك ولم يذكّر ناسيا لسابق ودك ولم يهذّب غافلا عن ذكرك ولكن كان نوراً على نور وفضلا من كتاب عملك المبرور وسعيك المشكور ونعمة تشتهي النفس دوامها ونعمة يلذ للسمع تكررهما

سرفني ما دل عليه كتابك من كمال صحة والدك الماجد واخوتك الاماجد

واعضاء عائلتك الكريمة وانجلاك بضعة كمالك

١٠

ووجد بين مسودات اوراقه البيروتية صورة كتاب لا يعلم صاحبه ولعله كتبه
عن لسان غيره اذ ليس من عادته ان يبالح في المدح عن لسان نفسه قال
لو سلكت لمولاي الدر في أطواق وحملت اليه البصائر في أحداق أورصفت
له الكواكب في أطباق وطويت له روجي في اوراق لما كنت . وفيا حق حمده
ولو شيدت له في القلوب هياكل وأقت له في النفوس معابد تتلى فيها آيات
الثناء على جنابه الرفيع بكرة وعشيا ما كنت قاضيا واجب شكره

مولاي : نظر الله اليك بعين عنايته فقومك من الحق وأقام بك عماد العدل
ورفعك حصنا منيعا بين بلادك وبين الفتن وأرسلك اليها غيثا مرهما فأخصب
بيمنك الزرع ودرّ الضرع وغزرت الثروة وتمكنت القوة فكانت ذاتك الشريفة
نسخة من روح خليفة رسول الله عمر بن الخطاب تفر شياطين الباطل من طريقك
وتخرشواخ المصاعب خضوعا له زمك وتزعزع رواسي المشاكل لحزمك وتفري
أكباد المعضلات بصائب رأيك حتى أحكم الله قضاءه فكان الخير كل الخير
على يديك والشر كل الشر على يد غيرك

سموت قدرا على السابقين وعلاما مقامك عن مواقع انظار اللاحقين فلا ولون
ينظرون اليك من خلال قبورهم يغبطونك على ما أوتيت من همة جمعت اليك
أشئات الكمالات وعزمة حشدت عليك أنواع المكرمات والآخرون حملوا اوزار
التعب وتجرعوا صاب النصب وتزودوا من الأعوان واستكثروا من الانصار
ليخطوا خطوة على أترك فوقوا بعد العناء دون البداية من سيرك وحججوا عن
الاهتداء بهديك مع وضوح محجتك وظهور حججك فصرخوا لانفسهم مثلا صر به
الله لا مثالمه « رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أيها
وجهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم »
وكان غاية ما استفادوا من سعيهم اقامة الدليل على عجزهم وأراهم بذلك وهم فيما
يظهر اعداؤك محسبون من انصارك أيضا فرتهم لنا على تأييد كلمتك والاعتراف

بعلو منزلتك وانك فيما سبقت اليه واحد لا يثنى عليك طالب لمباراتك ولا راغب في مجاراتك وان ما حوت فيه من الحكمة العليا لاتسع قدما لسواك فأني بيان يحيط بمعاليك وأي فكر يسهولفهم معانيك على اني وانا صنيع نعمتك لا أرى وسيلة اليك أنجع من الاعتراف بالتقصير ولا شفيعا أنجح من المعجز عن التعبير مولاي : لم يخف على علمك الشريف ما طالت به الي الايدي الطاغية وصالت على به الجوارح الباغية اقتراسا محضا لا يشوبه تأويل وانتقاما صرفا لكامن الفل القديم او تمسكا بزور واش أوطوعا لنضليل غاش وما بي الآن من حاجة الى توضيح حالي فقد علم الكافة وشهد الله أنني :

ما شققت العصا وما كنت ممن شق لاني خيل ولا في رجل (١)

١١

ومن رسائله الفكاهية الهزلية ما كتبه من بيروت الى صديقه العالم الأديب الشيخ عبد الحميد الخاني في دمشق . وكان رحمه الله محببا اليه والى جميع المصريين المنفيين في بيروت . وكان له ألفاظ وسجعات كثيرا ما تدور في كلامه وكتابته هجيرا منها لفظ الدهشة وما يشتق منه فكان الاستاذ الامام وعبد الله باشا فكري و ابراهيم بك القفاني يذكرون ذلك في كتابهم اليه على سبيل الحكاية . وهذا الكتاب جواب من الاستاذ الامام عن كتاب من الشيخ عبد الحميد ورحمهما الله تعالى

ك الحمد والشكر

وفد علي كتاب السيد الاستاذ والموتل الملاذ يني عن سعادة حاله وسعود إقباله فحمدت الله أن خطرت بباله وان لم أكن من ذوي باله ودهشت من مفاجأة هذه النعمة لقصر الهمة عن شكر يستزيدها وحمد يستعيدها وإن سروري من السيد بتوجيه عنايته الى أخلص الناس في محبته بل أثبتهم قدما على أبواب خدمته لارقي من لذة الوصال لمحبوب بعيد المنال بل من حظ النفس عند بلوغ الآمال والظفر بالاقبال

(١) هذا البيت من قصيدة لابراهيم بك القفاني في شأن الحوادث العراقية

(٦٨ ج ٢ تاريخ الاستاذ الامام)

يشير الاستاذ في خطابه الى لطيف عتابه وليس سروري بما أحسن به الاسناذ من مكاتبتة أوفر من سروري بما تحققته من كمال صحته أدام الله سروري بتوارد أخباره وشهود آثاره في أنصاره وشهد الله ان غيبته عن ناظري لم تحجب مثاله الشريف عن خاطري وان تسليباتي منوالية في خلواتي وجلواتي وخواتيم صلواتي لا يحيط بها لحظ اللاحظ ولا حفظ الحافظ ولا يأتي على وصفها الشيخ حسين الحافظ (١) وان بلغ في الفصاحة ما بلغ الجاحظ أهدبها مع الرائح والغادي والحاضر والبادي وما علي سوى أن أقول وعلى الله الوصول

يعلم مولاي أي من تبة القارئين وخدمة الكتاتين وأظن ان حسن الظن - أي من مواقع إحسانه ومواضع امتنانه وما كنت أجعد شيئا من رعايته ولا آلو جهدا في شكر منته ومع هذا لم يتفضل علي بلامعة من درره ولا بارقة من غرره واختص السادة الفضلاء بالمراسلة واكتفي لي بسلام المجاملة فالتمت من حضراتهم ان يحبوه أحسن تحية أو يردوها على أي كيفية ولا أدري بعد ما كان منهم رضي الله عنهم ورأيت من المحاطرة والجرمة الجائرة ان ابندر الاسناذ بالكلام وهو الامام بن الامام فوقفت عند الحد وقت مقام العبد ان سئل أجاب أخطأ أو أصاب أليس لثلي العذر ان يقصر به الفكر عن مكانة عبد الحميد هذا العصر وبديع الزمان في النظم والنثر؟ بلى ولولا ثقني بسعة كرمه ما تمكن قلبي من اجابة قلعه فليعلم جناب السيد عمسا براه فيما حرر على عجل تحت سلطان الخوف والوجل

شكرنا ولما لنا سروره بما رأى في جريدة الثمرات غير ان ما ذكر فيها انما هو كلمات قدفتها بمصر أغراض فانتقضت واستعقت بالاعراض على اننا اذا حسن التفانكم الينا في آل خير من آنا وأوطان أرحب من أوطاننا فلا غربة مع وجود الأحة ونسأل الله تخليد بقاكم ودوام رضاكم
نوهتم بما حظي به الشيخ أسعد ال... من كتاب الصادق الا صدق الناطق

(١) كان يحفظ عدة كتب من الحديث والأدب وقد يحفظ القصيدة

الاوليلة من مرة . وكان وصافا لا يتلعم ولكنه لا يتزم الصدق في الوصف

بالحق فيما دق ورق ذكر السيدان الشيخ لم يدرفاه الله من أين أتى وأرى له عذرا في هذه الفعلة التي . . . فقد أتى من وراء حجاب واحتبل بغير احتطاب ودمر عليه من غير باب فلاغروا نغاب عنه الصواب وخرم وأنخرم معه الحساب ابراهيم أفندي جظه بمد الملاحظة ودلظه بلا معا كفاة لكن الشيخ جواظ حجب بكلمه عن فضلا عن الاحاظ وان كان في طبعه لظلاظا وفي هدها جلاظا فتح سر الشيخ على القلم باب الظاظاة ولولأن تداركه لطف الله لجذبه للابأبة وانفاة فلا تؤاخذ مجذوبا ولا تمنعت مغلوبا ثم ان التصيدة حائية لاجبية وكان غموض معناها أعجم مبناها سبحان الله العظيم وفوق كل ذي علم عليم كركركركركر انها لإحدى الكبرى

ارجو نقيل أيدي حضرة والدكم ثم ان حسن لديكم فبلغوا سلامي الى حضرات أصحاب السعادة محمد باشا ومحى الدين باشا نجلي سعادة المرحوم الامير عبد القادر أكرم الله جواره وقدس امراره ويهدي حضرتكم التحيات المدهشات والتسليمات المرعشات حضرات الاسانذة الافاضل الشيخ محمد والشيخ أحمد عبد الجواد وحضرة الحاج محى الدين أفندي حماده و ابراهيم أفندي اللقائي والسيد محمود أفندي الخوجه ومحمد على أفندي ومن غلتي أني سأحضر الى دمشق يوم الخميس ١٦ شعبان لارفع الى الاسناذ ما استطيع من شكره على مبادأة (عبده) بالاحسان رفع الله قدركم وأعلى ذكركم والسلام

١٢

وكتب اليه أيضاً

سبحانك اللهم وبمحمدك

يا مجيد علمني ما أخطب به عبدك المجيد جليته مجدك وأشعرته ودك وأغررت عليه في البيان نعمتك وانبعث من جنانه حكمتك فبذ القائلين بفصاحته وملاك مشاعرنا ببلاغته ثم يصفني وصف الاصفياء ويوميء إلي باشارة الأولياء واست مما قال في رطب ولا عنب ولا كموب ولا ركب فاجزه اللهم عن حسن ظنه نورا يواصل السعي بين يديه وأنبه عن صدق ولانه صفاء يكشف من سبحات وجهك عليه

أخي : الحمد لله ، ما أظن ان اثنين توأصلا على ما توأصنا توأصنا ، على لحمه روحانية لم تخالطها أهواء حيوانية وحكم الارواح يتبعها في الدوام لا تؤثر (عليه) عوارض الاجسام اللهم الا أن الحواس الظاهرة يوحشها البعد عن طلعتكم الزاهرة ويدهشها القرب من ذاتكم الطاهرة فروحي من روحك في نعيم مقيم وسرور بلذة الصفو مستديم وحسي من حسك ما بين وحشة نكدره ودهشة ان شاء الله تغمره وكل يوم يمر علينا فيه خبر من ناحيتكم عيد ولنا في كل سماع عن صحتكم سرور جديد

١٣

وكتب الى الشيخ ابراهيم اليازجي جوابا عن اعتذار

وصل كتابك بحمل من العذر مقبولة وبرناد من الرضا مبذولة ولقد كنت تعلم اني ما أردتك الا لنفسك فالحمد لله اذا أرجعتك اليها وله الشكر على ما عطفك عليها وما أنا بالمقصر بك عما سألت ولا الذاهب بك الى خلاف ما طلبت وغاية قولي لا تثريب عليك اليوم يغفر الله لك وهو أرحم الراحمين حياتنا شبح روحها المحبة والمحبة شيخ الاخلاص فما أسعد وقتنا نرى فيه حياتك منتعشة بروحها زاهرة بسر الاخلاص فيها وليس بذاهب عنك انك كما تكون يكون الناس لك وأسأل الله ان ينفي عنك خواطر السوء ويزيح عن روحك الطيبة وسواس الغرور ويمنّ علي بزويتك عند الغاية التي أحب لك وسلامي عليك وحدك من بين أهلك ولتكن مواصلتك دأمة والسلام

١٤

وكتب اليه في ١٥ صفر سنة ١٣٠٦ بعد رجوعه من الشام الى مصر

عزيزي صفوة البلغاء ونخبة الادباء حفظه الله

تماديت في التقصير حتى عجز العذر عن التعبير وخجل القلم من التحرير ولكن في علمكم بحال منتقل الي بلاد قد انكره هواؤها وتعرفت اليه ادواؤها مالا احتاج معه الى بسط عذر يشفع اليكم ويقبل لديكم ليت يوما بعدت فيه عنكم كان يوما قربت فيه منكم فلولا مثال من أدبكم يؤنسني اذا استوحشت ويشفني اذا انفردت لكان سهمي اقصد ما يصيب المحرومين

١٥

وكتب اليه في ٢٣ ربيع الآخر سنة ١٣٠٦

هامة الفضل وجبهة الادب حفظه الله

اكرمني الشيخ بايفاد كتابه بمثل لي مالم انس من آدابه ويبشرني بتوفرا النعمة على سلامته ويزيدني يقيناً باتصالها في مودته وسرني استقرار الشيخ على رخاء البال وان كدرني ذكر ما هب لديه من عاصفة البلبال لا ترك الله لها مهياً ولا ادم لها مرتباً وأبلغ الله حضرة الاخ (يعني الشيخ خليل اليازجي وكان مريضاً) غاية الشفاء ووقاكم الله وآلكم من الاسواء

لا أبريء نفسي من استبطاء كتاب الشيخ قبل وروده واجالة الاقداح فيما عسى ان يكون سبباً في تأخر وفوده واستكاثي في ذلك لسלטان الوحشة وانهرامي لغارة جيش الدهشة حتى كان الكتاب فيصلاً لحر بنا وناصرأ بل منقذا لحر بنا ولا يوفي حق شكره الا شغل بذكره

عجبت لمصبر ذلك العقد وان محلاله قبل ان يشتد وتغيظ المفسدين عليه والتفتاتهم بالسوء اليه وهو في مهده وعلى قرب عهده كأنما حم على هذه البلاد ان تكون خطياً ليران الفساد وان يذل فيها العلم ويضل في ابناءها الحلم ولا ينجح الفضل في مسعاه ولا يخيب الجهل في مبتغاه ولا حول ولا قوة الا بالله ولعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ويبدل من هذا العسر يسراً

١٦

وكتب اليه من مصر

عزيري الفاضل أيده الله

لمثل أدب الشيخ الفاضل تعني الاشارة عن طويل العبارة . وصلت مصر ومثال الشيخ آخذ بجنانني وذكره مالك للساني ورجائي أن تدوم مواصلته ونهجي النفس مراسلته والسلام على من يحب من ذوي الالب

في ١٦ صفر سنة ١٣١٠

١٧

وكتب وهو في بيروت الى من مدحه ثرا ونظما
 أنت الذي سما بك استعدادك وزهابك اجتهادك فأعدت للثرسناه
 ورددت للشعر بهاء فلنا المسرة بمكائنتك ومنا الحمد لمبادئك . أنتي منك
 فوائد منشورة تتبعها لآلى منظومة أعلاها حسن اختراعك وأغلاها جودة
 إبداعك وكنت جديرا بحليتها مبهجا بزينتها لو أديت للحق فرض خدمته
 وطالت يدي في تأييد كآمته ولكني على ميلي الى الحق لم تساعدني القدرة على
 اسعاده ولم يسعفني الحول والقوة على انجاده فأين انامنه وهذه حالي من جليل
 ماوصفت بل من قليل ما أغزرت وأرجو الله ان يرشد العقول الصافية ويجمع
 القلوب الخازمة ويصرفها الى فضل ما أعد لها فنجد أعمال وتثبت آمال وتبدو
 آثار يحمدها الحامدون ويعرف قدرها العارفون فهناك تحقيق ماظننت وتصديق
 ماحدثت ان شاء الله والسلام

١٨

وكتب وهو في مصر الى صديق جوابا على تنصل من هفوة بعد عتاب شديد
 لو عرضت عليّ نعم الله وفيها عزة الامراء وبزة الاغنياء ووفاء الاولياء لما
 اخترت منها غير الوفاء ولعددت نفسي به اسعد السعداء هذه خلتني تقبلها الله وفيها
 لمهجتي احياء بهذا تعلم ما ادخلت من السرور عليّ فيما كتبت اليّ ولو جعل الله
 للمحبة شكرا اوفي بحقها منها لبذلته ولو قدر لها اجرا اجزل عائدة منها نفسها لالتمسته
 وقدمته ونعم كنت وجهت كتابي الى شيطانك فلاقى الكتاب أكرم نفس فيك
 فانصرف والحمد لله عنك الى حيث لا اراه فاهنا بكرم محنتك وركاء مناك والسلام

١٩

وكتب الى بعض علماء الشام جوابا عن كتاب هنأه فيه بمنصب الافتاء وهو
 من أल्प كتبه وفيه من الشكوى والتحدث بالنعمة ما ليس في غيره
 انصفتي قومك اذ سروا بتناولي منصب الافتاء واعل ذلك لشعورهم بانني
 أغير الناس على دين الله واضراهم بالدفاع عن حماه وادراهم بوجوه الفرص

عند سنها واحذقهم في انناهاها لا بلاغ الحق امله أو يبلغ الكتاب أجله على أنهم مني بحيث لا يفسد نفوسهم الحسد ولا يتقاذف باهوائهم اللدد وكل ذي دين يشتبه ان يرى لدينه مثل ما أحث اليه عزيمتي واخلص في العمل لتحقيقه نيتي خصوصا ان كفي فيه القتال ولم يكلف بشد رحال ولا بذل اموال أما قومي فابعدهم عني أشدهم قربا مني وما أبعدهم الانصاف منهم يظنون بي الظنون بل يتربصون بي ريب المنون تسرعا منهم في الاحكام وذهابا مع الاوهام وولعا بكثرة الكلام وتلذذا بلوك الملام أقول فلا يسمعون وأدعو فلا يستجيبون واعمل فلا يهتدون واريهم مصالحهم فلا يبصرون واضع ايديهم عليها فلا يحسون بل يفرون الى حيث يهلكون شأنهم الصباح والعويل والصخب والتهويل حتى اذا جاء حين العمل صدق فيهم قول القائل في مثلهم

لكن قومي وان كانوا ذوي عدد ليسوا من الشر في شيء وان هانا

واقول ولا من الخير

وانما مثلي فهم مثل أخ جهله اخوته أو اب عفته ذريته أو ابن لم يحن عليه ابواه وعمومته مع حاجة الجميع اليه وقيام عمدهم عليه يهدمون منافعهم بايذائه ولو شاؤوا لاستبقوها باستبقائه وهو يسمي ويدأب ليطعم من بلهوى وياعب على أني أحمد الله على الصبر وسعة الصدر اذا ضاق الامر وقوة العزم وثبات الحلم وان كنت في خوف من حلول الاجل قبل بلوغ الامل خصوصا عند ما ارى ان العمل في أرض ميتة لو ذابت عليها السماء مطرا لما انبتت زرا ولا اطلمت شجرا افزع لذكري ذلك واجزع ويكاد قلبي يتقطع ثم ارجع الى الله فاعلم انه مع الصابرين وأنه لا يضيع اجر العاملين فيلج صدري وامضي في جهادي الدائم ولعل الله يحدث بعد ذلك أمرا

من اشتكي؟ لو ان ما التقي كان من لفظ العامة ولقافة الجاهلين هان الامر وتيسر المخرج ولكن البلاء كل البلاء ان أشد الناس عداوة لانفسهم هم أولئك المعلمون الذين يبعدون عن الدين مدعين أنهم دعائه ويمزقون احشائه زاعمين أنهم حماة وما منهم الا أحد شخصين شخص ركب هواه فاعماه فهو يرى الحق

باطلا والصواب خطأ وآخر غرته دنياه وأضله جسعه فإن على قلبه ما يكسب
وامتنع عليه معرفة الصدق من كثرة ما يكذب ولم يعد للحق الى قلبه سبيل
ليفتي كنت أشكو الى الله جهل العالمين وحق المعلمين في مثل الجاهلية التي بعث
الذي صلى الله عليه وسلم لهو احكامها وازالة أيامها تلك جاهلية كان الضلال
فيها بعيدا ولكن كان فهم القوم حديدا لذلك عندما لاح لهم ضوء الهدى ابصروه
وعند ما قرع اسماعهم صوت الداعي اجابوه كان القرآن يصدع افئدتهم فيلين
من شدتهم ويفل من شرهم ويفجر من صخر القسوة يتابع الحنان والرحمة وما
كان اهل العناد فيهم الا قليلا عرفوا الحق فانكروه وطائفة كانوا يفرون منه خوف
ان يعرفوه ولوسمعوا لفهموا لم يجدوا بدا من ان ينصروه وان الجحود مع الفهم
كاليقين في العلم كلاهما قليل في بني آدم اما اليوم فانما أشكو من قلة الفهم وضعف
العقل واختلال نظام الادراك وفساد الشعور عند الخاصة فلا تجذبهم فصاحة ولا
تبلغ منهم بلاغة وغاية ما يطلبون ان يحمدوا بما لم يفعلوا وان يوصفوا بالعلم وان لم
يعقلوا وان تقضى حاجاتهم اذا سألوا وان ترفع مكاناتهم وان تنزلوا وان
استعداد السامع لفهم يستدر المقال ويسدد الفكر فانضال في الجدال اما عيشك
فيمن لا يفهم فانه ينضب منك ينبوع الكلام ويطمس عين الفكر فانضال في الجدال اما عيشك
جعلني الشيخ عبد الرزاق البيطار ثالث الرجلين وما أنا في شيء من أمرها
الا نزر من الهمة وكثير من معرفة قدرها

الحمد لله لا أحصي ثناء عليه واشكره واشكر نعمة مرجعها اليه واذا كر
من نعمه أكبر نعمة أمديني بها وأكرمني بأسبابها احسانه اليّ بعطف قلب
الاستاذ عليّ وتقريبي من فؤاده واحلامي مكاناً من وداده كرمت نفس الاستاذ
فكرم فيها مثالي وكملت سجاياه فتخيل منها كالي نسب اليّ الشيخ الجليل
شؤوناً كلها من سرائره وألبسني من الاوصاف ثوباً نسجته مظاهره جعل لي السيد
من حسن ظنه معيناً وأفادني بثقته ركناً ركيناً وسنداً أميناً فاسأل الله تحقيق
ظنونيه وان يمدني دائماً بدقائق فنونه وان ينصرني بولائه وان يسلكني في
عقد أوليائه والسلام

٢٠

وكذب من مصر الى مولاي عبد العزيز سلطان المغرب الاقصى ما ياتي
وصل الى اسماعنا ونحن في ديارنا أنباء ماوجه المولى اليه همه وشحن بلوغه
عزمه من النهوض ببلاد الى الاصلاح والسير بها في منهج الفور والفلاح وتلونا
مانشر من أوامره الكريمة ووعينا ماتضمنه من القواعد القوية فتجددت في
سلامة تلك البلاد آمانا واشتغلت بأحاديثها أفكارنا وأقوالنا ولما كان الاصلاح
الذي يقصده المولى انما يتم برعاية الدين والرجوع اليه في كتابه المبين وسنة
صاحبه الامين ثم النظر في اقوال واعمال السلف الصالحين لتعرض على ذلك
كله اعمال الخلف المحدثين تعلقت الآمال بأن يكون لمولانا لفتة الى العلوم الدينية
واحياء مامات منها ونشر ما طوي من كتبها لتنادب النفوس بأدبها ونحيي القلوب
اذا انصلت أسبابها بسببها فتقه بهذه المقاصد الجليلة ألهمني الله أن اعرض على
حضرتمكم العلية انه قد تألفت في مصر جمعية لاهياء العلوم العربية وخاصة عملها
أن تبحث عما كاد يفقد من كتب السلف وتصحيح نسخه وتطبعه حتى يحيا
بذلك ما اندرس من علوم الاولين واحضج عنا بمحدثات المتأخرين وقد عنيت
هذه الجمعية بطبع كتاب علي بن سيده الاندلسي في اللغة المسمى بالمختص وسيتم
عن قريب وهي الآن تبحث عن نسخ مدونة الامام مالك حتى تحصل لهانسخة
صحيحة ثم تطبع هذا الكتاب الجليل وقد وجدت من هذا الكتاب قطع في مصر
وقطع أخرى في تونس وصارت هذه القطع في أيدي الجمعية ولكن لم توجد الى
الآن نسخة كاملة يوثق بصحتها وقد تأكد للفقير ان نسخة كاملة من الكتاب
توجد في جامع القرويين ويسهل على فضل مولانا السلطان أيده الله وأيد به
الدين أن يمدنا في عملنا ويعيننا على ما نبتغي من الخير باصدار أمره الكريم ان نوسل
الينا هذه النسخة اما بتامها لتقابل عليها ما عندنا وتم منها ما ينقص نسخنا ونعيدها
اليه ونهدي الجامع عشرة نسخ من الكتاب عند نهاية طبعه ان شاء الله تعالى
واما مفردة جزءا بعد جزءا فكلما انتهى الغرض من جزء أرسل الى مقره وفي كلا
الحالين سنقوم لمقامكم السلطاني بما يجب من الشكر على هذا الالتفات السامي الذي

سنراه كأن الله حققه ونسأل الله أن يؤيد بكم ملكته وينصر بعزمكم شريعته
(يقول جامع الكتاب) ليتأمل الناظر كيف ان الامام لم ينسب الى نفسه
علما مافي الجمعية وهو رئيسها وأكبر مؤسسيها

٢١

وكتب بذلك أيضا الي مولاي ادريس بن مولاي عبد الهادي قاضي
القضاة والمدرس بجامع القرويين بفاس
بسم الله والحمد لله وحده

حضرة الاستاذ الفاضل العلامة العالم العامل الكامل مولاي ادريس بن
مولاي عبد الهادي قاضي القضاة حفظه الله

بلغنا من كمالكم وكرم اخلاقكم وميلكم الى نفع العامة من المسلمين وايصال
الفوائد الى خاصتهم ما جرأنا على مراسلتكم على غير معرفة سابقة والتوسل بكم
في الوصول الى ما يرجي ثواب السعي فيه ان شاء الله

نبشركم أن في مصر من أهل الفضل من وفقهم الله لنشر ما أماته الاهمال
من آثار سلف الأمة ودواوين علومهم وقد كانت باكورة أعمالهم طبع كتاب
المخصص في اللغة للامام الجليل علي بن سيده النحوي لشدة الحاجة اليه ولا شراف
نسخه على العدم والانتحاء من الوجود وبعد أن بلغ الطبع معظم الكتاب رأى
اولئك الفضلاء أن يمشوا عن كتاب آخر من أمهات العلوم فرأوا من أفضل
الامهات واحتموا بالعناية وأشدها تعرضا للضياع والاختفاء من الديار الاسلامية
مدونة الامام مالك فاخذوا يبحثون عن نسخها فتحقق ظنهم في تعرضها للضياع
لانهم لم يجدوا نسخة كاملة في الديار المصرية ولا في الديار التونسية وحلمهم ذلك
على الجهد في الطلب والبحث في زوايا المساجد لعلمهم يعثرون على ما يتم لهم
نسخة صحيحة فهم كذلك اذ بلغهم ان في مسجد القرويين بمدينة فاس نسخة
من الكتاب كاملة فحملني الحرص على الوصول الى تلك النسخة على ان رفعت
عريضة رجاء الى مولانا السلطان المعظم مولاي عبد العزيز ليأمر بارسال النسخة
اما جهلة واما جزأ جزأ وعلينا بعد طبع الكتاب ان نرسل منه عشر نسخ الى

جامع القرويين

بعد ان ارسلت العريضة حضر عندي من تفضل علىّ بذكر صفاتكم الجميلة وسجاياكم الفاضلة واكد لي ان حضرتكم تكون عوناً لي على ما اطلب لهذا بادرت بتحرير هذا الرقيم اليكم راجياً من همتكم ان تساعدوني في الوصول الى تلك النسخة أو غيرها من نسخ المدونة ولك علينا أن نعيدها كما أخذناها ثم نرسل عشر نسخ مطبوعة اما لجامع القرويين أولم ينفضل بارسال نسخة اليها مع الشكر الخالص والدعاء الدائم ان شاء الله

٢٢

وكتب من مصر الى الفيلسوف تولستوي الروسي عندما حرم من الكنيسة الروسية
أيها الحكيم الجليل موسيو تولستوي

لم نحظ بمعرفة شخصك ولمكننا لم نحرم التعارف مع روحك سطع علينا نور من أفكارك وأشرقت في آفاقنا شمس من آرائك ألفت بين نفوس المغلاء ونفسك . هداك الله الى معرفة سرّ الفطرة التي فطر الناس عليها ووقفك على الغاية التي هدي البشر اليها فأدركت ان الانسان جاء الى هذا الوجود لينبت بالعلم ويشمر بالعمل ولأن تكون ثمرة تعبا ترناح به نفسه وسهيا يبق به ويروى جنسه وشعرت بالشقاء الذي نزل بالناس لما انحرفوا عن سنة الفطرة وبما اسئعوا قوام التي لم يمنحوها الا ليسعدوا بها فيما كدر راحتهم وزرع طمأننتهم

ونظرت نظرة في الدين مزقت حجب التقاليد ووصلت بها الى حقيقة التوحيد ورفعت صوتك تدعو الناس الى ما هداك الله اليه وتقدمت أمامهم بالعمل لتحمل نفوسهم عليه فكما كنت بقولك هاديا للعقول كنت بعملك حائنا للعزائم والهمم وكما كانت آراؤك ضياء يهتدي بها الضالون كان مثالك في العمل إماما يقتدي به المسترشدون وكما كان وجودك توييخا من الله للأغنياء كان مددا من عنايته للضعفاء والفقراء وان أرفع مجد باعته واكبر جزاء نلته على متاعبك في النصيح والارشاد هو هذا الذي سباه الغافلون بالحرمان والابهاد فليس ما حصل لك من رؤساء الدين سوى اعتراف منهم أعلنوه للناس أنك لست من القوم الضالين فاحمد الله

على ان فاروقك في أقوالهم كما كنت فارقتهم في عقائدهم وأعمالهم
هذا وان نفوسنا الشيقة الى ما يتجدد من آثار قلمك فيما تستقبل من أيام عمرك
وانا نسأل الله ان يمد في حياتك ويحفظ عليك قواك ويفتح أبواب القلوب
لنهم قواك ويسوق النفوس الى التأسى بك في عملك والسلام

٢٣

وكتب الى محمد بك صالح رئيس محكمة الزقازيق (الآن) لما رقي الى قاض
من الدرجة الثالثة

ولدي النجيب

انت تعلم ما مازج قلبي من السرور بترقيتك وليس عندي من عبارة تعني بما
تعلم من ذلك وهذا ان شاء الله أول سلم ترقى به الى غاية ما يسري اليه استعدادك
والسلام

سنة ١٨٩٣

٢٤

وكتب من مصر الى بعض الاصدقاء الفضلاء
تناولت كتابك ولم يذكر مني ناسياً ولم ينبه لذكرك لاهيا فأني من يوم
عرفتك لم يغيب عني مثالك ولا تزال تشمل لي خلاصك
ولو كشف لك من نفسك ما كشف منها لفتنت بها ولحق لك ان تتبه بها
على الناس أجمعين ولكن ستر الله عنك منها خير ما أودع لك فيها لتزينها بالتواضع
وتجملها بالوداعة وتسمى الى ما لم يبلغه ساع فتكون قدوة لآخوانك في علو الهمة
وبذل ما يعز على النفس في نفع الأمة زادك الله من نعمه وأوسع لك من فضله
وكرمه ومتعني بصدق ولانك وجعلك لي عوناً على الحق الذي أدعو اليه ولا
أحيا الا به وله والسلام

٢٥

وكتب اخيراً من مصر الى بعض علماء سوريا الاعلام جواباً
مولانا الاستاذ العلامة نفعنا الله بمحبته
وصل الى كتابك تسطع فيه آدابك ويفيض منه العقل ويضي منه

الاخلاص والصدق وما أعظم فضل الله علي في توجه عنايتك الي تعين اظهار الحق بعد خفائه وهدم الباطل بعد شموخ بنائه ولقد أوسع مولانا في التفضل على العاجز عن شكره المقيم على نشر فضله وإعلاء ذكره وأسأل الله ان يشكفل بإثابة مولانا الاستاذ على ما يغمرنا به من نعمة الخطور بباله وجريان ذكرنا فيما يحط قلبه أو ينطق لسانه

٢٦

وكتب منها الى عالم آخر منهم
حضرة الاستاذ

كان القدر يريد ان يكون ما بيني وبينك سرا مكتوماً ومضمرًا يأبى أن يكون مرقوماً فقد حاولت مئين من المرات ان أكتب اليك وكانت تأتي العوائق تحول دون ذلك كأنني كنت أحاول فتح قلعة أو محو بدعة وهأنا اليوم (الجمعة) عقدت العزم على أن لا أقوم من مجلسي هذا حتى أكتب اليك أشكر لك صنيعك على ما تدخله علي من السرور بإيفاد كتبك علي بما تكتب الي من وقت الى آخر واعتذر اليك في الابطاء عن الجواب بما تعلم من كثرة الشواغل وأرجوك ان لا تحرمني من ذلك الفضل الذي بدأت به وان لا تجعل لفضلك في ذلك نهاية والسلام

٢٧

وكتب منها الى الاستاذ السيد عبد الحميد الزهراوي بمحضر جوابا
ولدا الفاضل

تمنيت لو تمتعت بقربك كما قدر لي المتاع بأدبك ولكن أحمد الله الذي يرينا ما نختار في غير ما يقع عليه الاختيار فأنت حيث أنت أنفع ما تكون لقومك تجعل لهم حظا من عمل يومك تزحزح عن أبصارهم حجب الغفلة وتعتهم بما أوتيت من الحكمة وتهمي نفوسهم لقبول الحق اذا أقبل وتعداهل مدافعة الباطل اذا أظل وأسأل الله ان يشد أزرك ويخفف من ذلك وزرك ويرفع بعمالك قدرك واما صلتنا بك فصلة آمال وأعمال وهي خير صلة وأوقفها عند الرجال بارك الله لك في أيامك

ورزقك الخير والسعادة في أعوامك والسلام

٢٨

وكتب من مصر الى فروح أفندي أنطون صاحب مجلة الجامعة جوابا عن كتاب منه يقول فيه أنه احتقره

لواحتقرتك ما كتبت اليك كلمة وانك سيء الظن بنفسك أكثر مما يبسه بك غيرك وكنت أود لو كنت لنفسك أفضل مما أنت لها اليوم ولكن اللهم عرفنا بأقدار أنفسنا فذلك اللهم أنفسنا ماتعطي وأفضل ما هب والسلام

١٧ أكتوبر سنة ١٩٠٣

٢٩

وكتب الى الشيخ مصطفى نجل صديقه حسن باشا عبد الزازق ما يأتي ومنه يعلم سببه ولدنا الاديب

خير الكلام ما وافق حالا وحوى من النفس مثالا تلك آياتك العشرة رأيتني والحمد لله متربعا في سبعة منها كأنها الكواكب تسكنها الملائكة وما بقي كأنه الشهب نور للاحباء رجوم للاشقياء ما سررت بشيء ضروري بأنك شعرت من علم حدائقك بما لم يشعر به الكبار من قومك فله أنت والله أبوك ولو أذن لوالد أن يقابل وجه ولده بالمدح لسقت اليك من الثناء ما يملأ عليك الفضاء ولكني اكتفي بالاخلاص في الدعاء ان يمتحنى الله من نهايتك بما تفرسته في بدايتك وأن يخلص للحق شرك ويقدرك على الهداية اليه وينشط بنفسك لجمع قومك عليه والسلام

٣٠

وكتب من مصر الى محمد بك نجيب بكار جوابا

ولدنا الفاضل

أشكرك لما كتبت اليّ أولا ولما كتبت وأهديت ثانيا وأحمد الله على نعمته الجديدة في معرفتك وفضله العظيم في إخلاص مودتك وأسأله ان يجعل ذلك كله في سبيله وان يجعل نمرته خيرا للإسلام والمسلمين والسلام

﴿ نموذج من كتبه لواضي الكتب النافعة ومترجمها ﴾

١

كتب الى من ألف كتابا نافعا لا اتذكر من هو ولا ماهو كتابه
حضرة الفاضل المحترم

ابطأت في اجابتك وقصرت في الاسراع بشركك لما تحففت به أهل لفتك
من ذلك الكتاب الذي تجلى فيه ذكائك واعتدال رأيك في أحسن صورة لم
تفك فيه فضيلة الابداع ولم تحرم من حسن الانباع اقتفيت أثر سلفك من نجويد
الرأي واحترام مقام العقل فلم يهبط بك التقليد الى ما يحط بالعمل ويستقط من
قيمة الكد في الجد ثم ابدعت في ترتيب كتابك على ما هو أقرب للفهم وأدني
الى التقريب من حقيقة العلم وكأني بك وقد وقفت على ذلك السر الذي خفي
عن الجمهور الاعظم ممن سبقك وهو ان القرآن قد خط للعرب طرقا للتعبير ومهد
لهم سبلا جديدة لصوغ الاساليب ليخرج بهم من ضيق ما كانوا التزاموه ويعد
بك منهم عن تكلف كانوا رثموه ولهذا قوي عندك كل ما بنى عليه وضعف
لديك كل ما لم يستند اليه جزاك الله عن نفسك خيرا ما يجزي به عامل عن عمله وجزاك
عن أهل لفتك خيرا ما يجزي به محسن عن احسانه والسلام

٢

وكتب الى سليمان أفندي البستاني مؤلف دائرة المعارف ومترجم الالباذة
كتاباً قرىء في الحفلة التي اقامها له فضلاء السوريين في القاهرة

عز يزي الفاضل سليمان أفندي البستاني

دعاني أصدقاؤك وأصدقائي الى الانس بك ساعة ههنا بك بالنجاح في ذلك
العمل الادبي الذي كلفت بابداعه عدة من السنين دعوني الى الاشتراك معهم
في شركك لما دأبت في السعي وأخذت نفسك بالصبر على مشقة البحث والعناء
في اختبار مسالك النظم لتهدى الى ابناء لفتك العربية من احاسن الصناعة الادبية
ما يعد زينة لناظرين

وكنت أكون أمرع الناس الى اجابة الدعوة لولا مانع ذنبه الي ذنب
العاذل الي عاشق الحسان منعي الانس بهم وبك واسكنه لم يعني ان
أشاركم في شكر

تمت لك ترجمة الاياداة لتابغة شعراء اليونان هميروس المشهور نسجت قريحتك
ديباجة ذلك الكتاب كتاب الترجمة فاذا هو ميدان غزت فيه لغتنا العربية
ضربتها اليونانية فسبت خرائدها وغنمت فرائدها وعادت الينا في حلل من آدابها
تحمل الي الالباب قوتاً من لبابها وما أجل ذلك القلب في زمن ضعف فيه العرب
حتى عن الرغب في نيل الادب ما ينال منه عن كتب فضلاً عما يكسب بالتعب
فحق لك الشكر على كل من يعرف قيمة ما وفتت لا يكاله من العمل فقد سددت
به ثلثة كانت في بنية العلم العربي من عشرة قرون أغار قومنا على دقائق الفنون
اليونانية في القرن الثالث من الهجرة وما بعده فثثروا منها ما كان مخزوناً ونشروا
بين الناس ما كان مدفوناً ولم يدعوا غامضاً الاجلوه ولا بعيداً الاقربوه ونالت
اللغة العربية بصنيعهم ذلك ما لم يكن في حسابها فقد صارت لسان العلم والصنعة
كما كانت لسان الدين والحكمة

لكن كان أولئك الاساطين الأولين كانوا يرون أن ذلك ما يفرضه الحق
عليهم في جانب العلم الذي لا يختلف فيه مشرق عن مغرب ولا يتخالف على
حقائقه الاعجم والمغرب وظنوا أن ما وراء العلم من آداب القوم ليس مما يناسب
مع آدابهم لبعده ما بين انساب أولئك وانسابهم فلم يمدوا نظرهم الي ما كان في
اليونانية من دواوين الشعراء وما صاغته قوائح البلغاء فلم تتل اليونانية من
عنايتهم ما نالت الفارسية والهندية وكان مؤمل اللغة منهم أن لا يجرموا بها نفاس
ما اخترع اليونانيون كما زينوها بزينة ما أبدع الهنديون والفارسيون وبقي ذلك
المؤمل في غيب الدهر حتى أتيت ترفع عنه الستر وجئت نقول للناس انني أتم
في دولة عباس ما نقص في ملك بني العباس فما أقر عين العربية بنهل طلبتها وظهور
ما كان منتظراً لشيعتها أرجو أن ينال كتابك من الاقبال عليه والانفعا به
ما يكافيء تعبك ويبعث هم العاملين على ان تتبعك والسلام

لما ترجم حافظ أفندي إبراهيم الجزء الاول من كتاب (البؤساء) بالعربية
اهداه اليه بهذا الكتاب
الى الاستاذ الامام

انك موثل البائس ، ومرجع اليائس ، وهذا الكتاب - أيدك الله - قد ألم
بعيش البائسين ، وحياء اليائسين - وضعه - صاحبه تذكرة لولاية الامور وسماه كتاب
(البؤساء) وجعله بيتا لهذه الكلمة الجامعة وتلك الحكمة البالغة «الرحمة فوق العدل»
وقد عنيت بغيره لما بين عيشي وعيش أولئك البؤساء من صلة النسب ،
وتصرفت فيه بعض التصرف ، واختصرت بعض الاختصار ، ورأيت أن أرفعه
الى مقامك الاسنى ، ورأيتك الاعلى ، لأجمع في ذلك بين خلال ثلاث - أولها
التيمن باسمك والتشرف بالانماء اليك - وثانيها ارتياح النفس وسرور البراع
برفع ذلك الكتاب الى الرجل الذي يعرف مهر الكلام ومقدار كد الافهام -
وثالثها امتداد الصلة بين الحكمة الغربية والحكمة الشرقية باهداء ما وضعه
حكيم المغرب الى حكيم المشرق

فلينقدم سيدي الى فتاه بقبوله والله المسؤول أن يحفظه للدنيا والدين ، وأن
يساعدني على اتمام تعرييه لقارئين ٠٠ هـ
فأجابه الاساذ الامام بهذا التكريظ وهو :

لو كان بي ان أشرك لظن بالفت في تحسينه ، أو أحمدك لرأي لك فينا بدعت
في تزيينه، لكان لقلبي مطمع ان يدنو من الوفاء بما يوجبه حقلك ، ويجري في
الشكر الى الغاية مما يطلبه فضلك ، اكنك لم تقف بعرفك عندنا ، بل عممت
به من حولنا ، وبسطه على القريب والبعيد من ابناء لغتنا
زفت الى أهل اللغة العربية ، عذراء من بنات الحكمة الغربية ، سحرت
قومها ، وملكت فيهم يومها ، ولا تزال تنبه منهم خامدا ، وتهز فيهم جامدا ، بل
لا تنفك تحبي من قلوبهم ما أماته التوبة ، وتقوم من نفوسهم ما أعوزت فيه
الاسوة ، حكمة أناضها الله على رجل منهم فهدى الى التقاطها رجلا منا فجردها
(٧٠ ج ٢ تاريخ الاساذ الامام)

من ثوبها الغريب ، وكساها حلة من نسج الاديب ، وجلاها للناظر ، وحلاها
لطالب ، بعدما أصلح من خلقها ، وزان من معارفها ، حتى ظهرت محببة الى القلوب ،
شيقة الى مؤانسة البصائر ، نهش لهمم ، وتبش لطف الذوق ، وتسايق الفكر الى
مواطن العلم ، فلا يكاد يلحظها الوهم ، الا وهي من النفس في مكان الالهام

حاول قوم من قبلك أن يبلغوا من ترجمة الاعجم مبالغك ، فوقف العجز بأغلبهم
عند مهتداً الطريق ، ووصل منهم فريق الى ما يحب من مقصده ، ولكنه لم يعن
بأن يعيد الى اللغة العربية ما فقدت من أساليبها ويرد اليها ماسلبه المعتدون عليها
من متانة التأليف وحسن الصياغة وارتفاع البيان فيها الى أعلى مراتبه . أما أنت فقد
وفيت من ذلك ما لا غاية لمزيد بعده ، ولا مطعم لطالب أن يبلغ حده ، ولو كنت
ممن يقول بالتناسخ لذهبت الى أن روح ابن المقفع كانت من طيبات الارواح
فظهرت لك اليوم في صورة أبدع ، ومعنى أنفع ، وملك قد سنت بطريقتك في
التعريب سنة يعمل عليها من يحاوله بعد ظهور كتابك ، ويحملها الزمان الى أبناء ما
يستقبل منه ، فتكون قد أحسنت الى الابناء ، كما أجمت في الصنيع مع الاباء ،
وحكمت للغة العربية أن لا يدخلها بعد من معجمة سوى ما هو في الاسماء - أسماء
الاماكن والاشخاص ، لأسماء المعاني والاجناس . ومثل من يعرف قدر الاحسان
اذا عم ، ويعلي مكان المعروف اذا شمل ، ويتمثل في رأيه بقول الحكيم العربي :

ولو أني حبيت الخلد فرداً لما أحيت بالخلد افراداً

فلا هطلت علي ولا بارضي صحائب ليس تنتظم البلادا

فما أعجز قلبي عن الشكر لك وما أحقك بأن ترضى من الوفاء بالوفاء
تقول أن الذي وصل سبيك بسر صاحب الكتاب ووقف بك على دقائق
من معانيه اشتراكك معه في البؤس ، ونزولك منزله من سوء الحال ، وربما
كان فيما نقول شيء من الحقيقة ، فإن كان البؤس قد هبط على صاحبه بتلك
الحكمة ، ثم كان سبباً في امتيازك من بين المرفين بتلك النعمة ، سألت الله ان
يزيد وفرك من هذا البؤس حتى يتم الكتاب على نحو ما ابتداء وان يجعلك في
بؤسك أغنى من أهل الثراء في نعيمهم والسلام

نموذج من كتبه في التمازي

١

كتب وهو في سوريا الى أحد أصدقائه الكبراء معزيا
ان كان للحادثات غالب من الهمة ودافع من العزيمة ففي همتكم مايمرك
أذن الدهر ويضرب ناصية الزمان وانما أتم بكم من منعة النفس ثم الملمات
دون أدناه تهيب النظر اليه فضلا عن الوثبة عليه فلا يفزعكم جائشها
ولا يستفزكم طائشها هذا الذي يعزيني بهض التعزية اذا طاف علي طائف الكدر
مما ألم بكم من فقد صاحبة العصمة عتيقكم . على ان يعينكم بالله وتسلمكم لقدره
هو أعلى وأكمل من أن يخالطه جزع من الفراق وإن كان مر المذاق فإن من
سار عنكم أقبل على رحمة من الله ورضوان فهو في جوار ربه متمتع بلذة قربه
وانه لفخرا بين السابقين ورفعة بين المقربين بما أسستم من مجد شامخ وشرف
باذخ فضاعف له النعمة في حياته الأبدية جنة بالصلوات وبهجه بالباقيات
ولقد اختار واختار الله له دارا لوخير بين ساعة فيها والتخليد في هذه الدار الغاية
لفضل ذلك اليسير على هذا الكثير نعم يأسف لما أسفتم ويألم بما آتم فعزوا
أنفسكم تسروه وطيبوا بالقضاء نفسا فرحوه واذكروا منزلته في الصديقين تنبطوه
هذا ما أقدمه اليكم وهو نزر مما تطوبه معارفكم غير أنه مما أناجي به نفسي
نصبرا واحدا بها به تجلدا والله أعلم بماشعر به وجداني عندما بلغ الي الخبر ولقد
كان من الفرض أن أبادر بعرض إحسامي قبل هذا الوقت الا أن عقابيل العلة
كانت تمنعني النظر في الاخبار حتى انقشع غني حجابها من مدة قريبة وما أنا
بالنامي وان أنست الحوادث ذكري وما أنا بالقاطع وان زينت الأيام هجري
فصبر جميل وما العفو عن تقصيري عليكم بعزير وما لي عرض نحياني على
مقام دولة الباشا والله يحفظكم للمحبة ويقيمكم للشرف

٢

وكتب منها معزيا عن الأمير عبد القادر الجزائري
اعلام السيادة وأصحاب السعادة حضرة سعادتنو الأمير محمد باشا وحضرة

سعدتو الامير محيي الدين باشا

هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون « الا الى الله تصير الامور » « انما الصبر عند الصدمة الأولى » اليوم غشيتني غاشية النعم ودهنتني داهية المم اليوم بلغنا ما أصابنا وأصاب المسلمين ولم يخص الاقربين حتى عم جميع الموحدين ولم يمس ذوي الارحام حتى زعزع مجد الأسلام اليوم شاع على الالسن ونحدث الكفاة ان جناب الامير الشهر صرف نظره العالي عن مظاهر الحياة الدنيا واستقبل بتمام وجهه ملكوت ربه الأعلى سار بروحه الشريفة عن عالم الفناء الى ما أعد له من منازل الكرامة في دار البقاء قد اختار لنفسه ما اختاره الله له من الاختصاص بجواره الكريم والاتصال بنور وجهه العظيم نظر الله الينا بعين الجبروت ليصعد بجانب الامير الى أعلا الملكوت سار الامير الى ربه ورك المؤمنين بلاقيم عليهم ولا وصي بعد مجدم اليهم ولولا اليقين بأنكم اشباله ولم تفتكم مزاياه وخلاله لما تعزت الأنفس في البقاء بعده ولحقنا به اختيارا لما عنده كل قول يقال فهو دون محيط الفكر والنظر ومقام الامير اجل من أن تصل الى مرادقاته أشبه البصائر والفكر وليس من كلمة أجمع لكلماته ولا قول أوفى بفضائله سوى انه الأمير عبد القادر الجزائري فهي منتهى وصف الواصفين وغاية مدح المادحين وكفى في مصيبة أهل الايمان ان يقال أصبحوا بلا أمير وحسبهم تعزية عن مصابهم انكم بنوه وورثة فضله ومعزروه

٣

وكتب منها الى بعض أصدقائه الكرام معزيا عن كريمته

بسم الله المحمود في السراء والضراء

هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون « كل شيء هالك الا وجهه له الحكم واليه ترجعون » لاحيلة في النضا ولا انجح في تاطيفه من الرضا وان في قوة ايمانك وسطوح يقينك وكال عقلك لكفاية في الأناة الى الله تعالى والرغبة فيما لديه من عظيم الأجر وجزيل الثواب والتطمين لاحتكامه بقلب شاكر ولسان ذاكر وإن مصيبة القعد وإن جل خطيئها وعظم على النفس خطرها الا ان الله تعالى

اعد عنده للصابرين اكرم المنازل وارقي مراتب القرب لديه وكفى بالصبر فضلا أن يخص صاحبه بما اختص به النبيون والملائكة المقربون يقول الله تعالى « وبشر الصابرين الذين اذا اصابتهم مصيبة قالوا ان الله وانا اليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » والموت سبيل تزامح عليه السابقون واللاحقون ومورد ينهل منه الخلائق أجمعون

وما الدهر والأيام الا كاترى رزية حر أو فراق حبيب
ولقد كان حضر تكم في غنى عن تعزية الأحياء وتسلية الأصدقاء بما آتاكم الله من عزم يصدع حوادث الايام وثبات يهزم غوائل الزمان وكان بمنعنا الحياء ان نذكر سيادتكم بما أنتم به أعلم وان تقدم اليكم ما هو لديكم أعلى وارفع لكن هذه كلمات نسلي بها خواطرنا على ما ألم بها من الاشتراك في هذا القضاء الذي امتحن الله به صبرنا وصبركم وابتلى به ايماننا وايمانكم « ليلوكم أبكم أحسن عملا » ونسأل الله تعالى ان يجعل لكم من مثوبته عوضا على ما أخذ منكم وان يرفع عليكم الصبر وان يدر غيث الرحمة والرضوان على فقيدتكم الكريمة وان يرفع مقامها في أعلى عِلين وأن يطيل بقاكم ويديم عزكم ومجدكم وعليكم مني مزيد السلام والى جنابكم الرفيع فائق الاحترام

٤

وكتب الى الشيخ ابراهيم اليازجي معزيا عن أخيه الشيخ خليل

جناب الشيخ الاروع والبلغ الابرع ابده الله

لو كانت بالدهر ثقة لكانت لابنائيه ولو حفظ له جوار لصح لخلقائه ممن درجوا على سننه واخذوا باحكام سننه وله فيهم كل يوم غدره وجليشه عليهم كل آن كرة فكيف يرجى لمن نابذته طباعهم وخالفت اوضاعه اوضاعهم فهو يتقاب وارواحهم في الفضل ثابتة ويتغشم ونفوسهم للحق محبته فالفضلاء - وأنت وسطهم - لا يزالون معه في حرب دائمة والعرفاء - وأنت هامتهم - في مقارعات معه متفائمة لكنهم يرون له انكى من نكاياته التدرع بالصبر في ملاقاته ورد وثباته بسكون الحنان وثباته ولست اذكر الشيخ بمثل ما قال ارسطو « ما شد ظلم الناس يستقبلون القادم الى

الدنيا بالفرح والسرور ويتبعون الراحل عنها بدعاء الويل والثبور ولو انصفوا في
أمرهم لعكسوا في حدمهم ، وان مصيبة الراحل عنا عظيمة ورزينة اليأس من لقائه
جسيمة وحرمانا من آدابه يذهب بالنفس حشرات وخلو وطنه من مثله يذهب
القلوب الواجدات ولكن ستم العناء وداره وكره الباطل وجواره فاستقبل وجه
البقاء وخلص الى ماله التجاء فما الحيلة ! التصبر اجمل من التحسر والجلد اجدر بنا
من الكمد ، واني وان وجهت الخطاب اليك لم اقصر الوصية عليك فلي نفس تشارك
نفسك وحس بشاطر حسك وهذا حديث نفسي انته وما يخالج صدري ابته وان
العناية بالراحل عناني تربية ولده خير لديه واوفى بحقه من مطاوعة الاسف لفقده
وانتم موضع الرجاء الخلفه كما كنتم متتهى المجدلسافه وأسأل الله لكم حسن العزاء
وصرف البأساء واقبال النعماء

٥

وكتب منها أيضا جوابا عن تعزية

لم يلاقنا الدهر الا بما ألفناه وما أنكرنا عليه شيئا عرفناه وقد جبل الله
هذه الحياة من الشوب وأقام حو باها من الحوب فلا تخلص لها منفعة من
مضرة ولا تخلو لها مبرة من معرة سيطت فيها الحسنات بالسيئات ومزجت
الطيبات بالحبيثات واني والزمان عمر كني وعمر كته وضر سني وضرسته فلتن
ضعفت عن كسر شو كته فلا والله ما ظني بقوته ولئن صدعني فاصدعني وماذا
يصنع بمن ينزل ارزاه حيث ينزل الناس نعماء لا يلاقي الرضاء عدي الا ما يرضيه
ولا ينال الجزع مني الا ما يرديه أعطيت من اليقين مذبة أطردها ذباب الموموم
ومن العزيمة جنة لا تخترقها النوموم هذا اذا لم أجد من المصيبة خلفا ولم أملك لها
من العوض طرفا فكيف وقد وفر الله علي النعمة في بنوئك وأجزل لي الخلف
في اخوتك وأسأل الله أن يطمس عين السوء ان تصل اليك

(يقول جامع الكتاب) ان للاستاذ الامام في عهده الأخير تعازي ابلغ من
هذه وأحسن بيانا وأعلى منها عظة ، عرفانا ولكنتنا لم نظفر بشيء منها ورأينا أن
لا يخلو الكتاب من شيء من هذا النوع من المنشآت فا كتفينا بما وجدنا

شذرات من كتبه الى جامع الكتاب

ان لدي من شيخنا الاستاذ الامام كتباً كثيرة لكن أكثرها في الشؤون الخاصة كما يكون عادة في كتب الوالد الى ولده ولأمين سره ولكن قلما كان يكتب شيئاً يخلو من الحكم العامة أو الطرف الادبية وانني أختم هذا الجزء بشذرات من كتبه إلي

١

من ذلك قوله في كتاب أرسله الي من أوروبا اذ كان عائدا من الامتانة بعد ذكر شيء عن الامتانة منه انه صادف أحد تلاميذه السوريين هناك يطلب عملا ولا يجده وانه أوصى به أحد انجال عزة بك العابد « لا يمكن لشخص مستقيم السيرة أن يجد عملا أو بصيب خيرا في الامتانة وعلى كل ذي دين ان يفر منها بدينه وبقية نفسه . نعلت في الامتانة ما لم يكن يعلم الا بالمشاهدة وستسمع منه ما يمكن التعبير عنه عند اللقاء ان شاء الله تعالى »

٢

وكتب في رقيم أرسله الي من رمل الاسكندرية في شأن إرجائه الرد على مجلة الجامعة « أخذت القلم الآن لا كتب واذا بداخل يجي نحية الصباح ويشغلي بما لا فائدة فيه . ولا أدري كيف أصيب الوقت الذي فرغ فيه لما أريد وهو يفر مني فرار الخبر من أيدي المسلمين »

٣

وكتب في رقيم أرسله الي من السبلاوين ايام كان متنقلا بوزع الاعانات على المصابين بالحريق وكان وعدني بأن يتم مقالات الاسلام والنصرانية في نقله « الى الآن لم أكتب شيئاً في الموضوع لاني في شغل شاغل من هؤلاء المرزوقين في عقولهم أولا وفي بيوتهم ثانياً »

٤

وكتب في رقيم من رأس البر « كنت انتظر ان يصل إلي المار هنا ليكون مما ألقى عليه نظري إذا أرجعته عن أمواج البحر الايض ولم اطلقه الى بساط النيل

الاحمر فانا جالس طول يوم بين البحرين

٥

وكتب في رقيم آخر من رأس البر: « رأس البر لا عقل فيه ولا عمل وذلك لا يمنع من ارسال ملازم التفسير فكلام الله برد الفار من العقول ويعمر الخرب منها »

﴿ كلمة له رضي الله عنه في المنار ﴾

وكتب الي جوابا عن كتاب أرسلته اليه وكان في المنصورة جاء فيه كلمة تشعر بالشكوى من قلة الاقبال على المنار: « الناس في عمارة عن النافع وفي انكباب على الضار فلا تعجب اذا لم يسرعوا بالاشتراك في المنار فان الرغبة في المنار تقوى بقوة الميل الى تغيير الحاضر بما هو اصلح الآجل وأعون على الخلاص من شر الغابر ولا يزال ذلك الميل في الاغنياء قليلا والفقراء لا يستطيعون الى البدل سبيلا ولكن ذلك لا يضعف الامل في نجاح العمل »

﴿ خاتمة للكتاب في بعض حكمه المنشورة ﴾

« ١ » العلم ما يعرفك من انت ممن معك « ٢ » العدل للاسعاد كلمة الله للإيجاد
« ٣ » العفة ثوب تمزقه الفاقة « ٤ » أشد أعوانك الحاجة اليك « ٥ » انما تم سكاية
الاعداء بنجاة الاصدقاء « ٦ » هلاك العامة فيما ألفت « ٧ » جحود الحق مع العلم
به كاليقين في العلم كلاهما قليل في الناس « ٨ » انما بقاء الباطل في غفلة الحق عنه
« ٩ » الرجوع عن الحق بعد العلم به محال « ١٠ » من عرف الحق عز عليه أن يراه
معضوما « ١١ » لا يكون أحدا صادقا ومخلصا حتى يكون شجاعا « ١٢ » الشباب يحمل
ما حُبل « ١٣ » ما وعظك مثل لأم ، ولا قومك مثل مقاوم « ١٤ » ما دخلت السياسة
في شيء الا أفسدته « ١٥ » الذل يمت الارادة « ١٦ » من لا صديق له فهو عدو
نفسه وعدو الناس « ١٧ » حسبك من الصديق أن ينصرك بقلبه

هذا وان له رضي الله عنه حكما اخرى كما أن له رسائل ومنشآت كثيرة منها ما جعلناه في سيرته وهي الجزء الاول من هذا الكتاب واذا اجتمع عندنا شيء كثير منها بعد فاننا نودعه في جزء رابع نجعله ذيل لهذا التاريخ . ونسأل الله تعالى ان ينفع بهذه الآثار ويتقدم صاحبها بالرحمة والرضوان

(تم الجزء)

